

اسم الكتاب: الأسس والمنطلقات ، في تحليل وتفصيل غوامض فقه التحولات، وما يرتبط به من سنن المواقف والدلالات ، المستنبطة من أشراط الساعة وأحاديثها البينات
اسم المؤلف: أبوبكر العدني ابن علي بن أبي بكر المشهور
رقم الطبعة: الطبعة التمهيدية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م
عدد الصفحات: ٤٦٠ صفحة
قياس القطع: ١٧ × ٢٤ سم

يمكن مراسلة المؤلف على العنوان التالي info@goraba.net

الناشر : مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث
الجمهورية اليمنية - عدن ٢٥١٠٨٩ ٩٦٧٢+
ص.ب. : ٧٠٠١٤

الأسس والمنطلقات

في

تحليل وتفصيل غوامض فقه التحولات
وما يرتبط به من سنن المواقف والدلالات
المستنبطة من أشراط الساعة وأحاديثها البينات

الجزء الأول

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

عفا الله عنه

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

تنبيه: أثناء القراءة وللاستزادة في فهم مصطلحات الكتاب يمكن الرجوع إلى (قاموسِ الألفاظِ والتعريفاتِ المُستجدَّةِ في فِقهِ التحوُّلاتِ) ص ٤٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

توطئةٌ مفيدةٌ

اعتـاد المصنفـون علـى ذكر عشـرة مبادئ فـي بدايـة كل فن، ضمنوهـا تعريف العلم وفائدته وموضوعه ، ثم ذكر مصدر اسـتمداده وأسـمائه وحكم الشـارع فيه ، ووضعوهـا في الحواشـي والشـروحات لتسـهيل تصـور العلم علـى المبتدئين وتشجيعهم على خوض غماره ، وهي بحق طريقة مفيدة تسمح للقارئ بأخذ فكرة عـن العلم ووضع تصـور إجمالي له في ذهنه قبل البدء فيه، والمرور على خلاصة سريعة عن أبعاده تشجعه على إكمال المسيرة الاطلاعية.

وقد اعتادوا على صياغتها وفق الأسـس العلميـة ، فالتعريف مثلا لابد أن يكون دقيقـا ضابطـا لكل تصورات الفن بحيث لا يختلط مع غيره، وبالتعبير المنطقي أن يكون جامعا مانعا لكي يكتمل تعريفا نهائيا للفن.

ونظرا لأن هذا الفن مستجد ولم يتبلور بعد وربما يحتاج إلى العديد من الجهود في المستقبل والخدمة من الأجيال المعاصرة والقادمة فقد آثرنا أن نعرض المبادئ هـذه بأسـلوب المتقدمين في بدايات عصـور التدوين أمثال الإمـام البخاري، من بـاب التقليـد والتبرك، حيث نترجم للبـاب بعنوان فيه المعنى المطلوب ثم نسـرد النصـوص تحته سـرداً، تبركاً بالنص وجمعاً وحشـداً لأكبر قـدر ممكن من مادته

الحديثية في عرض متسلسل[1].

وقد انتهج بعض العلماء نهجا قريباً منه بعرض المادة العلمية خالية من المصطلحات قدر الإمكان[2]، وشيخنا أبوبكر المشهور مؤلف هذا الكتاب يرى أنه لَـمَّا كانت مرحلةُ الدعوة كانت سابقةً لمرحلة التدوين للعلوم، فإن في إفرادها بالقراءة بعيدا عن التأصيلات التي ظهرت فيما بعد تدوين المذاهب نهجٌ محمودٌ[3] ليس بديلا عن المنهج العلمي بل رديف ومكمل ذو فائدة دعوية وفكرية فحسب، ونصوص النبي الكريم صلى الله عليه آله وسلم هي جوامع الكلم، والانطلاق منها في وضع الفكرة لهذا الفن المستجد خير بداية، و(لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) وينسحب الحكم حتى على عرض المادة العلمية تصوراً وتصديقاً طلباً لفائدة مخصوصة.

---

(١) ومن يقرأ أطروحة الدكتور الحنيني في مجلدين تدوين علم العقيدة عد أهل السنة حتى القرن الثالث الهجري يرى مدى تجذر هذا النهج في تلك الفترة المبكرة على كافة المصنفات.

(٢) سلك الإمام الغزالي في كتبه هذا المسلك، ومن يقرأ المستصفى في أصول الفقه يعجب لقدرته على عرض المادة العلمية مع التقليل من المصطلحات قدر الإمكان.. وجمع روايات الحديث الواحد من الأمهات والأجزاء والنظر في ألفاظها باعتبار الأصل اللغوي محاولة للاقتراب من مشكاة النبوة.. وكيف كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظر للأمور ويتناول المسائل ويوجه الشعوب، مع الاستنارة بفهم الصحابة وآل البيت من السلف الصالح.. هذا كله فائدته في إعطاء الداعية جانبا فكريا مفيدا.

(٣) وبذلك استطاع إضافة سنة المواقف كسنة رابعة للتقسيم الأصولي: السنة القولية والفعلية والتقريرية، وكل ما فعله هو العودة بالسنة إلى الأصل اللغوي والابتعاد عن التعريف الاصطلاحي الذي ظهر فيما بعد تدوين المذاهب! وساقه لذلك تأمل دقيق وإعادة تأصيل للنصوص النبوية، راجع الفصل المخصص لها في هذا الكتاب.

ووضعنا فوق المبادئ العشـرة سبعة عشـر أخرى لزيادة الفهم لهذا العلم، وهي كالتالي:

- فصل في آيات في الفتن
- فصل في ذكر بعض رؤوس الحصانة من الفتن
- فصل في ذكر بعض رؤوس الفتنة
- فصل في الرجال الذين يضربون خيشوم الفتنة
- وخبراء علامات الساعة
- فصل في أن تنكّر القلوب هو مقياس للوقوع في الفتن
- فصل في هل كان رواة علامات الساعة يخشون من التحديث بها؟
- فصل في القرون الخيرة ، وهي ثلاثة أجيال: الصحابة والتابعون وتابعوالتابعين، وهي التي ظهرت فيها الفتن ثم استفحلت
- فصل في منبع الفتنة
- فصل في أن بدء الفتن كان بعد الفتوحات وإقبال الدنيا
- فصل في أطوار الفتنة: الوقفات والبعثات
- فصل في ذكر شـيء من جوامع الكلم في الأدعية الخاصة بالفتن وعلامات الساعة
- فصل في ثواب الثابت على دينه في آخر الزمان
- فصل في أن العلم بعلامات الساعة مرتبط بعلم الإحسان
- فصل في بعض أسماء الفتن
- فصل في أدوات تجنب الفتن

نظم المبادئ العشرة

إن مبادِي كل فـن عشـرةْ　　الحَدُّ والموضوع ثـم الثمـرةْ

وفضله ونسبــةٌ والواضــعْ　　والاسمُ الاستمدادُ حكمُ الشـارعْ

مسائلٌ والبعض بالبعض اكتفى　　ومن درى الجميع حاز الشرفا

اسمه:

- فقه الساعة[١]
- فقه أمارات/ أعلام/ أشراط الساعة[٢]

حده (تعريفه): العلمُ بما كانَ وما هو كائنٌ إلى أن تقومَ الساعةُ[3] .

موضوعه: التحولات التاريخية في النصوص الشرعية[4].

---

(١) مـن قـول ابن مسـعود لمـا أراد أن يتلقى هـذا العلم عن النبـي صلى الله عليه وآله وسـلم فيمـا رواه الطبرانـي فـي الكبير (١٠٤٠٤)، قال ابن مسـعود: سَـلْ يَا سَـعْدِيُّ، فَقُلْـتُ: أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، هَلْ لِلسَّـاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّـاعَةُ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَاسْـتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ: يَا سَـعْدِيُّ، سَـأَلْتَنِي عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ ذهِ وَسَـلَّمَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِلسَّـاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّـاعَةُ فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ مَسْـعُودٍ، إِنَّ لِلسَّـاعَةِ أَعْلامًا، وَإِنَّ لِلسَّاعَةِ أَشْرَاطًا، أَلا وَإِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ ... الحديث.

(٢) مـن قـول جبريل عليه السـلام: فأخبرني عن أماراتها. ومن قول النبـي صلى الله عليه وآله وسـلم لابن مسـعود (يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ لِلسَّاعَةِ أَعْلامًا، وَإِنَّ لِلسَّـاعَةِ أَشْرَاطًا) الطبراني في الكبير (١٠٤٠٤).

(٣) مـن قـول عمرو بـن أخطب في صحيح مسـلم (٥١٤٩): فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَـا هُوَ كَائِنٌ، ومن قول حذيفة في صحيح مسلم (٥١٤٨): أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

(٤) وهـو المسـمى في هـذا الكتـاب بـ(التاريخ الشـرعي) ، والمعنى مأخوذ من مسـند البزار (٢٤٤٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال : كان فينا رسـول الله صلى الله عليه

ثمرته وفائدته:

- امتثال الأمر الشرعي[١] ونيل السعادة في الدارين[٢]
- معالم تنير الطريق عند اشتداد الفتن[٣] وترفع الوعي للمسلم المستبصر حتى لا يقع فيها[٤]
- زيادة الإيمان في آخر الزمان[٥] والحفاظ على نسبة من الصلاح والتقوى في أزمنة الفتن (تسلسل الضنائن)[٦]

وسلم ، فكلما حضرت صلاة نزل فصلى ، ثم عاد إلى مقامه فحدثنا بما هو كائن من لدن مقامه إلى أن تقوم الساعة ما من أمير على مائة فأعلى ضل ولا اهتدى إلا وقد سماه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) لقوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

(٢) من حديث المقداد بن الأسود في سنن أبي داود (٣٧١٩) قَالَ: ايْمُ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا

(٣) من حديث سمرة بن جندب في مسند أحمد(١٩٣١٨) ذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا

(٤) مسند البزار (٢٤٤٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال : فأما أنا فإني قد تعلمت الشر فحفظته فعلمت أني إذا حفظت الشر اجتنبته فلم أقع إلا في الخير.

(٥) المعجم الكبير للطبراني (٦٩٣٩) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:»سَوْفَ تَرَوْنَ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَشْيَاءَ تَسْتَنْكِرُونَهَا عِظَامًا، تَقُولُونَ: هَلَكْنَا، حُدِّثْنَا بِهَذَا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَاذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا أَوَائِلُ السَّاعَةِ «.

(٦) من حديث ابْنِ عُمَرَ في المعجم الكبير للطبراني (١٣٢٤٤) عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ׀ قَالَ:إِنَّ لِلَّهِ ضَنَائِنَ مِنْ خَلْقِهِ يُحْيِيهِمْ فِي عَافِيَةٍ ׀ وَإِذَا تَوَفَّاهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَمُرُّ عَلَيْهِمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ׀ وَهُمْ فِيهَا مِنْهُ فِي عَافِيَةٍ.

وحديث أم المؤمنين زينب بنت جحش في المعجم الكبير للطبراني (١٩٦٣٧) قَالَ

- معرفة دلائل النبوة فيما أخبر بوقوعه صلى الله عليه وآله وسلم[١]
- من أساليب الوعظ والتزهيد في الدنيا والترهيب منها[٢].

صلى الله عليه وآله وسلم:هَذَا وَاللَّهِ أَوَانٌ نَزَلَتِ الْفِتَنُ الْعِظَامُ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ:نَعَمْ، ثُمَّ يُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوا.

(١) وفي هذا أفرد علماء الإسلام الكثير من المصنفات التي سردوا فيها علامات الساعة تحت اعتبار إعجاز السنة النبوية كان من أبرزها دلائل النبوة للإمام البيهقي.

(٢) وفي هذا أفرد علماء الإسلام الكثير من المصنفات التي سردوا فيها علامات الساعة على أنها من جزء من الإيمان باليوم الآخر ، كان من أبرزها التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي ~~ولوامع الأنوار البهية~~ للإمام السفاريني ، وهذا المعنى المذكور (الترهيب بها) مستفاد من أحاديث عدة كحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ نَذِيرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ مَسَّاكُمْ ثُمَّ قَالَ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ. سنن النسائي (١٥٦٠).

وانظر التزهيد في الدنيا مع قراءة المستقبل في قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ، ومن جحر إلى جحر ، فإذا كان ذلك الزمان لم تنل المعيشة إلا بسخط الله ، فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يدي زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد كان هلاكه على يدي أبويه ، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران » قالوا : كيف ذلك يا رسول الله قال : « يعيرونه بضيق المعيشة فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي تهلك فيها نفسه » من حديث أبي هريرة في الزهد الكبير للبيهقي (٤٤٦).

ومن الزهد لأحمد بن حنبل (١٧٦٠) أثرٌ عن أبي العالية قال : « يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن ولا يجدون له حلاوة ولا لذاذة إن قصروا عما أمروا به قالوا : إن الله غفور رحيم ، وإن عملوا بما نهوا عنه قالوا : سيغفر لنا إنا لم نشرك بالله شيئا ، أمرهم كله طمع ليس معه صدق يلبسون جلود الضأن (١) على قلوب الذئاب ، أفضلهم

استمداده: من الآيات القرآنية والسنن والآثار[1].

في دينه المداهن ».

ولو جمع الباحث أطراف حديث (يأتي على الناس زمان) لوقف على عشرات أحاديث علامات الساعة المفيدة في الخطاب الوعظي.

(١) هـذا الركن متغير في معانيه وليس ثابتاً كالإسـلام والإيمـان، لذا فلا يمكن اعتبار نصوصه مصدرا للاحتجاج الشرعي أو التعبد والديانة، إنما هي معالم في الطريق يستنير بها المسلم المستبصر لدينه ويأخذ العبرة والعظة ، فهي في منزلة أحاديث الترغيب والترهيب من حيث السعة في رواياتها ، بل وأكثر من ذلك، يقول حذيفة : وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ. صحيح مسلم (٥١٤٧)، وفي حديث آخر عن حديث سمرة بن جندب: وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا مسند أحمد(١٩٣١٨). فنصوص الركن الرابع قد تم الحكم عليها من البداية (ذاكرة الصحابي والراوي) باختلاط الرواية وضعف السند وعدم الضبط، إذ إن ذلك من شأنها ومن طبيعتها الذاتية، وهي بذلك تمتاز عن أحاديث الأحكام المحتج بصحيحها في ركني الإسلام والإيمان والمتعبد بها ديانة.

وإنما قلنا: متغير المعاني لأن بعضهم فهم خطأ أو تعمدا أن كونه ركنا ومتغيرا تناقض! والحقيقة أنه ركن في ذاته متغير في معطياته، ولو افترضنا الخطأ في التسمية فلا مشاحة في الاصطلاح ولكن على المعترض نقد الفكرة لا البحث عن عيوب الأسماء.

لذا فإن المهم في هذا العلم هو ثبوت الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان ضعيف السند أو حسنه ، فربما يأتي من الواقع ما يجبر ضعف السند بالحكم بصحة المعنى في المتن، وعدم الثبوت هو كون الحديث موضوعاً أو من كلام أهل الكتاب والإسرائيليات كروايات كعب ووهب ونحو ذلك ، ثم ينبغي تمييز الآثار عن السنن ، والآثار ما ورد عن السلف من الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم (النصوص الأبوية) والسنن هي الأحاديث الشريفة (النصوص النبوية)، وتعامل آثار السلف معاملة الشروح المساعدة لفهم النص النبوي وسائر المعاني الشرعية.

ومن المتأخرين الذين يرون هذا الرأي ويتسعون في الاستشهاد بأحاديث علامات

نسبته (مرتبته من العلوم الأخرى): الركن الرابع من أركان الدين المذكورة في حديث جبريل (أم السنة).

واضعه (أي: أول من فصل مسائله) : الشيخ أبوبكر المشهور[1].

فضله: به يعرف النقض الذي يحصل لعرى الإسلام والإيمان والإحسان[2].

حكم الشارع فيه : فرض كفاية في آخر الزمان[3].

مسـائله: كثيرة ، مثل تشخيص الوقائع والأحداث ووضع المخارج المناسبة لها بهدف إيقاف التحريش بين المصلين وسنتا المواقف والدلالة وغيرها.

الساعة ودلائل النبوة الشيخ التويجري في كتابه (إتحاف الجماعة في صحيح أشراط الساعة) حيث ذكر في مقدمته إيراده للكثير من الأحاديث ضعيفة السند إذا أتى من الواقع ما يصحح معناها، ومثله الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند لدلائل النبوة للبيهقي حيث بين في المقدمة أنه ترك فصل الدلائل النبوية فيما أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم مما سيقع دون تخريج ولم يحمله رواياته على فلان أو فلان من الضعفاء لأنه قد يتحقق في الواقع ويبين صحة متن الحديث ومعناه.

(١) وذلك في كتبه (الركن الرابع من أركان الدين: الثوابت والمتغير) وبعده (التليد والطارف شرح منظومة فقه التحولات وسنة المواقف) وبعده هذا الكتاب (الأسس والمنطلقات في شرح فقه التحولات) والآن (دوائر الإعادة) تحت الطبع.

(٢) جاء بفضله جبريل بنفسه، وأخذ يسأل النبي عليه الصلاة والسلام ثم يصدقه ، وخصص لهذا الركن سؤالين اثنين وضرب له مثلين اثنين، بينما اكتفى بسؤال واحد وجملة واحدة للأركان التي قبله دون ضرب أمثلة.

(٣) عن جابر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم ، فليظهره ، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم » الإبانة الكبرى لابن بطة (٤٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْمَطْلَعُ القُرْآني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

ٱلْمَطْلَعُ ٱلنَّبَوِيُّ

عـن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العـاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نادى مُنادي رسـولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «الصَّـلاةَ جامِعـةً»؛ فاجتمعنا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال :

« إنّـه لم يكُـن نبيٌّ قبلي إلا حقّـاً عليه أن يـدُلَّ أُمَّته على خيرِ ما يعلمُه لهم ويُنذِرَهم شَرَّ ما يعلمُه لهم .. وإنّ أُمَّتكم هذه جُعِلَ عافِيتُها في أوَّلِها وسـيُصِيبُ آخرَها بلاءٌ وأُمورٌ تُنكِرونهـا وتجـيءُ الفِتنـةُ فيُرَقِّـقُ بعضُها بعضـاً ، وتجيءُ الفِتنـةُ فيقولُ المؤمـنُ: هذه هذه ، فمَن أحـبَّ أن يُزَحزَح عن النّارِ ويدخُلَ الجنَّةَ فلتأتِهِ مَنِيَّتُه وهو يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ ».

رواه مسلم (٤٨٨٢)

ٱلْمَطْلَعُ ٱلأَبَوِيُّ

«لا تخلـو الأرضُ مِـن قائِمٍ للّهِ بِحُجَّةٍ إما ظاهرٍ مشـهورٍ أو خائِـفٍ مغمورٍ لِئلّا تبطُلَ حُجَجُ اللهِ وبيِّناتُه، وكم وأين أولئك؟ أولئـك الأقلُّونَ عدداً الأعظَمون عنـد اللهِ قَدراً، بِهِـمْ يَدْفَـعُ اللّهُ عـن حُجَجِـهِ حَتَّـى يُؤَدُّوهَا إلـى نُظَرائِهِمْ ويَزْرَعُوهَا في قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ»

الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

أخرجه أبونعيم في الحلية (١:٧٥-٧٦) في وصيته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للكميل بن زياد (٢٤٣) وأخرجه الحافظ المزي في تهذيب الكمال (١٥: ٤١٧) في ترجمة الكميل ، وللحافظ ابن القيم رحمه الله شرح مفيد على هذه الوصية في كتابه مفتاح دار السعادة (١: ١٢٣-١٦٣)

شَاهِدُ ٱلحال

عن حُذيفَةَ بنِ اليمانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «واللهِ ما أدري أَنَسِيَ أصحابي أم تناسَـوا، واللهِ ما تركَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ من قائِدِ فِتنـةٍ إلى أن تنقضِيَ الدُّنيـا يبلُغُ مَن معه ثلاث مِئَةٍ فصاعِداً إلا قد سمَّاهُ باسمِهِ واسمِ أبيهِ واسمِ قبيلَتِهِ...»

رواه أبو داود (٤٢٤٥) بإسناد حسن، د. همام العمري
موسوعة أحاديث الفتن وأشراط الساعة ص٣٤٣

مُلاحَظَةٌ

لا أدَّعي العِلمَ والاجتِهَادَ ، ولا حتّىٰ أنْ أوصَفَ بِفَقيهٍ أو مُتَفَقِّهٍ، أنا طالبُ عِلمٍ ، وخلالَ طَلَبي ودِرَاستي المتواصِلةِ جمعتُ ما تهيّأَ لي صوابُهُ مُستَدِلّاً حسَبَ فَهمي بما هو مُثبَتٌ في بحثي هذا.

ولا شكَّ أنّ كثيرًا مِن مواضيعِ البحثِ مُثيرٌ للنُّفوسِ -أو بعضِها- ولكنّها في نفسِ الوقتِ عاملٌ مساعِدٌ لآخرينَ كي يخرُجوا من الحَيرَةِ الضّاربةِ على العُقولِ والأذهانِ.

فعسىٰ أن أكونَ -بِإذنِ ٱللهِ- مُوَفَّقًا فيما أشرتُ إليهِ وبحثتُ شأنَهُ، وأستغفرُ ٱللهَ من سَورَةِ نَفسِي أو أن أخالِفَ منهَجَ العُلَماءِ الأثباتِ الذين خدموا الشريعةَ ونشروها بين الشُّعوبِ .

وٱللهُ مِن وراءِ القصدِ..

ٱلْإِهْدَاءُ

أُهـدي إلـى أُمَّتِنـا المرحومـةْ ... مُنطَلَقـاتٍ بالهُـدى مزمومـةْ

مِمَّـا أتـى فـي قـولِ ربِّـي وكـذا ... مِـن سُـنَّةٍ واضحـةٍ مفهومـةْ

تُحيِـي الرُّبـوعَ والعُقـولَ أَمَـلاً ... بِمـا جـرى فـي أُمَّـةٍ مظلومـةْ

خُذها وحَقِّـق ما تـراهُ واصطَبِر ... في البحثِ تلقى الوَصفةَ المعدومةْ

رُكـنٌ جديـرٌ درسُـهُ كرابِـعِ الـ ... أركانِ يُبـدي شـامةً مكتومـةْ

كُبرَى ووُسطَى ثُمَّ صُغرَى شأنُها ... تُنبيـكَ عـن سـلبيَّةٍ مشـؤومةْ

وعـن بِشـاراتٍ تُعيـدُ للـوَرى ... خيـراً تليـداً يُصلِـحُ المنظومـةْ

يُزيـلُ إشـكالَ الزَّمـانِ كُلِّـهِ ... فينا وفي أهل الرُّؤى المسـمومةْ

مِمَّـن يَظُـنُّ أنَّـه مُجاهِـدٌ ... فـي اللهِ يُحيـي السُّـنَّةَ المرقومـةْ

لكِنَّـهُ مُسـتغفَلٌ بِعِلمِـهِ ... مُسَـيَّسٌ يَصعُـبُ أن تلومـهْ

أو مذهبـيٌّ عَصَبِـيٌّ جامِـدٌ ... مُشـتغِلٌ بفُرقـةٍ محمومـةْ

أو غيـرُهُ مـن أُمَّـةٍ تفرَّقَـت ... فـي شـأنِها كأنَّهـا مهزومـةْ

تاهت وضاعت في اختلافٍ هاتِكٍ ... قـد أجَّجَتـهُ فِرقـةٌ مدعومـةْ

يـا قارئـي مهمـا تكُـن مُسـتغرِقاً ... فـي لُجَّـةِ الحضـارَةِ المزعومـةْ

فَلتسـتَفِق وانظُـر فهـذا خَبَـرٌ ... نقلتُـه عـن حُجَّـةٍ معصومـةْ

تدعـو الجميـعَ عـودةً لمـا أتـى ... فـي رابـعِ الأركانِ مِـن معلومـةْ

أصولُها تفصيلُها نَتَاجُها	بين الشُّعوبِ أو ذُرَى الحكومةْ
مَن رام فيها مَدخَلاً مُحقَّقاً	فليقرأ الأساسَ بالدّيمومةْ
هديَّةٌ مِنّي لِكُلِّ حاكمٍ	وعالمٍ مُحقِّقٍ علومَهْ
وطالبٍ وباحثٍ ودارسٍ	أو حائرٍ في الحالةِ المأزومةْ
لا أدَّعي فيها اجتِهاداً مثلَما	قد يدَّعِي ذو نزعةٍ موسومةْ
وإنَّما مِن نَصِّ طٰهَ المُصطفَى	بحُجَّةٍ بَيِّنةٍ محسومةْ
أرجو بها تكامُلاً مُؤَصَّلاً	كما أتى عن طَيِّبِ الأَرُومةْ
سألتُ ربِّي أن تكونَ حُجَّةً	تنفَعُنا في الفِتنَةِ المضرومةْ
وحُسنَ عونٍ يوم نلقىٰ ربَّنا	في عالمٍ أخبارُهُ مكتومةْ
وأن يُزيلَ كُلَّ جهلٍ مُفسِدٍ	أودى بنا لحالةٍ مذمومةْ
ويجمعَ الإسلامَ في أتباعهِ	على الهدى والملَّةِ المزمومةْ
والختمُ بالمختارِ طٰه المُصطفىٰ	مَن جاءَنا بشِرعةٍ مخدومةْ
والآلِ والأصحابِ ثُمّ تابعٍ	على الطّريقِ واضِحاً مفهومَهْ

المُؤلِّف

ٱلْمُقَدِّمَةُ

اعتناء الإسلام بفقه المراحل

اعتنى الإسلامُ بِفقهِ المراحِلِ وبتاريخِ الأُمَمِ والشُّعوبِ شأنُهُ شأنُ الرِّسالاتِ السَّماوِيَّةِ السّابقةِ .. بل صار القُرآنُ العظيمُ الذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ ﴾ مع ما لَهُ مِن الوظائِفِ الشَّرعِيَّةِ والتَّكليفاتِ التَّعبُّدِيَّةِ وثيقةً شرعيّةً لِعَرضِ وحِفظِ ما سارت عليه الأُمَمُ والشُّعوبُ من الخَيرِ أو الشَّرِّ ، وهذا ما نحن بِصَدَدِ الاهتِمامِ به وإعادَةِ دِراستِه والنَّظَرِ الواعي في مكنوناتِ عِلمِهِ الشَّرعِيِّ المُثبَتِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ . وذلك مِن خِلالِ الرَّبطِ العِلمِيِّ بين (الدِّيانةِ والتّاريخِ) سواءً فيما يتعلَّقُ بالتاريخِ الإنسانيِّ السابِقِ أو التاريخِ الإسلاميِّ اللاحِقِ وهو ما سُمِّيَ في هذهِ الدِّراسةِ (بِفقهِ التَّحوُّلاتِ) والعِلم (بعلاماتِ السّاعةِ).. ولأنَّ هذا المُسمَّى جديدٌ في تناوُلِهِ بهذه القاعِدةِ فإنَّنا نرجو من المُطَّلِعين على مواضيعِهِ وأقسامِهِ حُسنَ النَّظَرِ وكمالَ التَّأنِّي وعُمقَ القِراءَةِ الواعِيَةِ . عسى أن نخرُجَ معاً بما يجدِّدُ لنا المعاني ويُعيدُ ترتِيبَ المفاهِيمِ بما يخدِمُ الإسلامَ والمسلِمين مِن داخِلِ دِيانَتِهم الشَّرعيَّةِ المُبارَكَةِ.

إنّ دراستَنا للحياةِ الإسلاميَّةِ بالخُصوصِ بَدَاءَةً من عهدِ البَعثَةِ إلى عهدِ الفَناءِ الموعودِ بالسّاعَةِ أمرٌ مُهِمٌّ وضرورِيٌّ لنا كأُمَّةٍ خَاتِمَةٍ تحمَّلت مسؤولِيَّةَ رسالةٍ خاتِمَةٍ عُهِدَ إليها حَملُ الأمانَةِ والمُحافَظَةُ عليها حتى يومِ الشَّهادَةِ العُظمَى ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

أهمية الدراسة الجذرية

ولا بأسَ هنا من الإشارَةِ إلى أهمِّيَّةِ الدِّراسَةِ الجذرِيَّةِ ، وهي إعادَةُ العُلومِ وثَمراتِ القِراءَةِ والتَّصوُّراتِ النّاتِجَةِ عنها إلى أُصولِها الأساسيَّةِ ساعَةَ وُقوعِها الزَّمَنِيِّ، أو ساعَةَ تدوينِها المرحلِيِّ، والنَّظرِ إلى هذه الثَّمراتِ مِن خلالِ (النَّصِّ

النَّبَـويِّ ذاتِهِ) أو (النَّـصِّ الأَبَوِيِّ[1] المُعتَمَدِ) حيثُ إنَّ التَّفرُّعـاتِ والجُزئيّاتِ التي انحدرت إليها الأقلامُ وغرابَةُ التَّحليلِ وكثرَةُ التَّعليلِ قد خلطَ الأُمورَ خَلطاً يصعُبُ معـه التَّمييزُ الواعي، وضاعَ الحَقُّ البَلَجُ بمـا اكتنَفَهُ عبرَ الزَّمَنِ من ضبابيّاتِ الباطِلِ وأهلِهِ، وحَذفِ وإضافاتِ حَمَلَةِ الأقلامِ وَفقَ انتِماءاتِهم وتوجُّهاتِهم الفِكريَّةِ.

ضياع الحق بين ركام الأقلام

ويبـدو لـي ـ والله أعلـم ـ أنَّ هناك عواملَ معيَّنَـةً تُؤَدِّي إلى هذا التَّجنِّي المشـارِ إليـه ، ويجـبُ أن يُفتَـحَ الحوارُ بشـأنِهِ ليتَّضِـحَ الأمرُ جَلِيّـاً، ومِن ذلك عـدمُ النَّظَرِ فـي جُزئيّـاتِ المرحلَـةِ المعنِيَّـةِ ونقـاطِ النُّـورِ فيها ، كإصـدارِ الأحـكامِ العُموميَّةِ علـى المرحلَـةِ أو المجموعَةِ أو الفِئَـةِ ، مِمّا يُؤدِّي إلى الخَلـطِ المُتَعَمَّدِ في إضفاءِ الجُنوحِ على الكُلِّ ويصعُبُ التَّمييزُ بين طَرَفَي الإفراطِ والتَّفريطِ وطَرَفِ الاعتدالِ والسَّـلامَةِ فـي المجموعَةِ الواحِـدَةِ والمرحَلَةِ المُحَدَّدَةِ ، فهناك مَـن يُطلِقُ تعريفَ مرحلةِ بني أُمَيَّةَ مثلاً على كافَّةِ مُخرجاتِ المرحلةِ وما فيها ومَن فيها، فيعتَبِرُ أنَّ كُلَّ نَتـاجٍ عِلمِـيٍّ واجتِهادٍ مذهبيٍّ بـرزَ في هذه الفترَةِ إنَّما هو خِدمَةٌ لسياسَـةِ بني أُمَيَّةَ.. مع العلمِ أنَّ هذهِ المرحلَةَ على سـبيلِ المثالِ شَـمِلَت إفراطاً وتفريطاً ومجموعاتِ

عوامل التجني على التاريخ: الخلط المتعمد والأحكام العمومية

---

(١) لفـظ (الأبوة في الدين) واضح ومعلوم ، وهو من ممزيات هذه الأمة ، فليسـت كالنصارى جعلوا أبوتهم في الكنيسة وأعطوا البابا من الصلاحيات الألوهية الوضعية الكثير، بل تظهر الأبوة بمعناها الشرعي في تسلسل العلم بالأسانيد «يحمِلُ هذا العِلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ» حتى تتجنب (الخطر الداهم) ممن سـماهم النبـي ﷺ: (الأئمة المضلين) وهم أهل الفتن المعروفون بعلماء الفتنة في كل عصر وزمان.

ويؤكد هذه الأبوة وكونها مرتبطة بالتسلسـل الشـرعي للإسـناد في مقابلـة أئمة الضلال الحديـث السـابع فـي مقدمـة صحيح مسـلم: «يكـون في آخـر الزمـان دجالـون كذابون، يأتونكـم مـن الأحاديث بما لم تسـمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهـم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم».

اعتـدالٍ داخـلَ دائِرَةِ المُلكِ العَضـوضِ، فالمُلكُ العَضوضُ خاصٌّ باعتبارِ سُـلطةِ القـرارِ كقولِـه ﷺ: «أَوَّلُ دِينِكُمْ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، ثُمَّ مُلْكٌ وَرَحْمَةٌ ، ثُمَّ مُلْكٌ أَعْفَرُ ، ثُمَّ مُلْكٌ وَجَبَرُوتٌ»[1]، أمّا حالُ الرَّعايا فغيرُ ذلك، وفيهم حَمَلَةُ الأمانَةِ ورِجالُ النَّمَطِ الأوسَطِ.

وهذه الأمانةُ المُشـارُ إليها متنوِّعَةُ المسـؤوليَّاتِ والتَّكليفـاتِ . ولكنَّها مجتَمِعةٌ فـي قاعِـدَةِ الرَّبطِ الشَّـرعِيِّ بيـنَ (الدِّيانَةِ والتَّاريـخِ)[2] ، حيثُ نجـدُ أنَّ في العالَمِ قراءَتَينِ:

القراءة المادية العقلانية

الأولى : قِراءَةٌ تاريخيَّةٌ مادِّيَّةٌ عَقلانِيَّةٌ مُجرَّدَةٌ .. وهي ما نُسَمِّيها في فِقه التَّحوُّلات «بالقِراءَةِ الأَنَوِيَّةِ الإبليسيَّةِ الوضعِيَّةِ» ، وما تفرَّعَ عنها مِن المفاهيمِ النِّفاقِيَّةِ والانتِقائيَّةِ المُسَيَّسَـةِ لمصلَحَةِ الانحِرافاتِ الكافِرَةِ والمُلحِدَةِ الموسَّدَةِ ، المَعنِيَّةِ بحديثِ «إذا أُضِيعَت الأمانَةُ فانتظرِ السَّاعةَ» قال : وكيفَ إضاعتُها يا رسولَ اللهِ قال: «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ»[3].

القراءة الشرعية الموجهة

الثَّانيةُ : قراءَةٌ شـرعيَّةٌ غيبيَّةٌ مُوجَّهةٌ . وهي ما نُسَمِّيها في فِقه التَّحوُّلات «بالقراءَةِ الأَبَوِيَّـةِ النَّبوِيَّةِ الشَّـرعِيَّةِ المُسـنَدَةِ» ومفتاحُـهـا قولُهُ تعالى في أوَّلِ آيـةٍ أُنزلت على رسـولِ اللـهِ ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلـق:١] ومـا تفرَّعَ عنهـا من تأصيلٍ وتفصيلٍ شـرعيٍّ مدعومٍ بأدلَّتِهِ ودلالاتِهِ ممَّا يدخُلُ تحت معنى قولِهِ ﷺ: «يحمِلُ

---

(١) وتمامه : «يستحل فيها الخمر والحرير»، إسناده جيد، «تخريج أحاديث المصابيح» للمناوي (٤ : ٤٤٣) ، وانظر إتحاف التويجري (١ : ٢١٠).

(٢) وهذا ما نحن بصدد إظهاره وإبرازه في كافة المراحل.

(٣) صحيح البخاري (٥٩) .

هذا العِلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ»[١].

القراءة لا تكون إلا باسم الرب

فالقـراءَةُ فـي تاريخِنـا الإسـلاميِّ لا تكونُ إلا باسـمِ الرَّبِّ ، وهي مـا أُطلِقَ عليه مفهـومُ (الرَّبطِ بيـن الدِّيانَةِ والتَّاريخِ) وبها تُفَسَّـرُ كافَّةُ شُـؤونِ الحياتَينِ ولا فصلَ بينَهُما . ومن شـروطِها دِراسَةُ الحياةِ الإنسانِيَّةِ والإسـلاميَّةِ دِراسةً نَصِّيَّةً .. ومعنى (الدِّراسَـةِ النَّصِّيَّـةِ) اعتِناؤُها بالنُّصـوصِ المُثبَتةِ كأصلٍ في قـراءَةِ الحياةِ من كافَّةِ أوجُهِهـا .. ثُمَّ عـرضُ الأحداثِ والتَّحَوُّلاتِ عليهـا . وتصنيفُها من حيثُ علاقَتُها بالنُّصـوصِ وليس العكسَ كما هو الآنَ قائِمٌ في تفسـيرِ الحيـاةِ والتَّاريخِ لدى كثيرٍ من المسـلمين وغيرِ المسـلمين [٢] ، وبهذه الدِّراسةِ والقراءَةِ الشرعيَّةِ تُقسَّمُ الحياة بِعُمومِها إلى مراحِلَ:

أهمية القراءة النصية

---

(١) إسناده صحيح ، «شرف أصحاب الحديث» ص ٥١ للإمام أحمد.

(٢) المقصود بهذا أن كثير من المسـلمين يصفون الإسـلام والعلاقات والمحبة والبغض على سير الأحداث وما جرى في المراحل من التحولات .

والأصـل أن ما جرى من الاختلاف في المراحل والأحداث المترتبة على ذلك لا يكون أسـاس الولاء والبراء وإنما يكون الولاء والبراء بالنصـوص القرآنية والنبوية ويضاف إليها بعـد ذلك مجريـات الأحداث بشـروط. وأن المختصيـن بالنص وإن جـرت عليهم الفتنة كأصحاب الجمل من كبار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فإن حصانتهم تلزم المسلم عدم القدح فيهم . وأمـا غيرهـم فالقدح أيضا يكون بالنص فيهم كما هو في قتلة عمار بن ياسـر في قوله ﷺ : (عمـار تقتلـه الفئـة الباغية)، وقول النبي ﷺ : (بشـر قاتل ابن صفية بالنـار) وابن صفية هـو الزبيـر بن العوام وقد قتله أحد تابعي الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجاء يخبر الإمام بقتله، فقال لـه الإمام علـي بقول النبي ﷺ فغضب وقـال: إن قاتلناكم في النـار وإن قاتلنا من يقاتلكم ففـي النار ، فأمر الإمام علي بقتله قصاصا بـدم الزبير بن العوام لأن الإمام أخذ بالنص وإن كان الرجل من أتباعه، ونقل البرزنجي في الإشـاعة ص٥٤ عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله عن قتلى صفيـن: (قتلانـا وقتلاهم في الجنة)، وقال: (مـن كان يريد وجه الله منا ومنهم نجا) .اهـ. وهذا يحفظ شرف كثير من القتلى فيمن سماهم في النص الآخر (الفئة الباغية).

مرحلة الرسالة المحمدية

المرحلَـةُ الأُولـى : هي مرحَلَةُ الرِّسـالةِ المُحَمَّدِيَّةِ المباركَةِ خـلالَ حياتِهِ ﷺ ما بين مَكَّةَ والمدينَةِ ، وقوامُ هذه المرحلةِ في الهَديِ الشَّـرعِيِّ (الوَحيُ و العِصمَةُ)، وهو الأساسُ ، ويليها النُّبُوَّةُ ، أي: الأخلاقُ والمعجِزاتُ، وكان البَدءُ بها باعتبارِها القاسِـمَ المُشتَرَكَ في الدِّراسةِ الشَّـرعيَّةِ للرَّبطِ بين (الدِّيانة والتاريخِ) عبرَ الأزمنةِ السَّابقةِ والأزمنةِ اللاحِقَةِ .

مرحلة ما بعد الرسالة إلى قيام الساعة

المرحلَـةُ الثّانيـةُ: مِـن عهدِ الوفاةِ لِرسـولِ اللهِ ﷺ إلـى قِيامِ السَّـاعةِ، وتُعدُّ هذه المرحلةُ مِن أصعَبِ مراحِلِ التَّحوُّلِ الإيجابيِّ والسَّلبيِّ. وكُلُّها مجموعةٌ في أركانِ العِلمِ بِعلاماتِ السَّاعةِ الكُبرَى والوُسطَى والصُّغرَى .

مرحلة ما قبل البعث

المرحلةُ الثَّالِثَةُ : وهي الدِّراسَةُ النَّصِّيَّةُ مِن بَعثَةِ النَّبيِّ ﷺ نَصّاً إلى عهدِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وابنِهِ قابيلَ وهابيلَ وما ترتَّبَ على تعليمِ آدَمَ الأسـماءَ وسُـكناهُ الجَنَّةَ وخلقِ حَوَّاءَ وتسليطِ الشَّيطانِ للغِوايَةِ ، وما تلاهُ من التَّحوُّلاتِ في العُصورِ المُتَلاحِقَةِ .

ويُستفادُ من دِراسَةِ أحادِيثِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ أنَّ حصانَةَ المَراحلِ تأتي على الكيفِيَّةِ التَّاليةِ:

١- مرحلةُ الرِّسالَةِ.. الوحيُ ، العِصمَةُ ، المُعجِزاتُ، الأخلاقُ

٢- مرحلةُ الخلافةِ الرَّاشِدَةِ، الاجتهادُ ، نُصوصُ النُّبُوَّةِ ، مواقِفُ الخُلَفاءِ.

٣- مرحلَـةُ المُلكِ العَضوض وحتّى مرحلةِ الغُثاءِ، حِفظُ بَيضةِ الإسـلامِ ، إقامَةُ فرضِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

ولا حصانَةَ لمرحلَةِ الغُثاءِ ورُموزِها بعد نقضِ الحُكمِ والعِلمِ، وإنَّما يبقى الحِفظُ العـامُّ للأُمَّةِ على صِفَةِ العُمومِ من قولِهِ ﷺ: «مَثَـلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ: لا يُدْرَى أَوَّلُهُ

خَيْـرٌ أَمْ آخِرُهُ»[1] وعلى صِفَةِ الخُويصَةِ والخاصَّـةِ في قولِهِ ﷺ: «فعليكَ بِخُويصَةِ نفسِكَ»[2].

الدراسة النصية أساس حوار الحضارات وتقارب الأديان

إنّ الدِّراسَـةَ النَّصِّيَّـةَ هي أسـاسُ الحِوارِ بيـنَ الحضاراتِ وأسـاسُ التَّقارُبِ بين الأديانِ وأسـاسُ مُعالجةِ الانهياراتِ المتلاحِقةِ في الجَسَدِ الإسلاميِّ منذ وفاةِ نبيِّ الأُمَّةِ ﷺ حتَّى قيامِ السَّاعةِ، مروراً بِمرحَلَتِنا المعاصِرَةِ المقيَّدَةِ نَصَّاً بِمُسَمّى (عهدِ الغثائِيَّةِ) .

وهـذا مـا جمعناهُ وفصَّلناهُ في دراسَـتِنا الجديدةِ المسـمَّاةِ بـ(فِقـهِ التَّحوُّلاتِ) وهو العِلمُ القائِمُ على دِراسةِ (الرُّكنِ الرَّابعِ من أركانِ الدِّينِ والحاوي على العِلمِ بعلاماتِ السَّاعةِ) .

الدراسة الجديدة للركن الرابع وأهميتها

وأعتَقِدُ –واللهُ أعلَمُ– أنّ هذه الدِّراسَةَ مُستقاةٌ من عُمقِ القِراءَةِ للواقِعِ الإسلاميِّ المُتمزِّقِ، وعرضِ هذه القراءَةِ على ما سبق لِرسولِ الله ﷺ أن تكلَّمَ عنه واستعرضه مِـن سـابقِ الحوادثِ ولاحِقِها . ولا أجـزِمُ بِتمامِ نجاحِ الفكرَةِ المُشـارِ إليها (بِفقهِ التَّحـوُّلاتِ) كُلِّياً ، وإنَّما أجزِمُ بنجاحها جُزئِيّاً ومعالجَتِها ولو مِن زاوِيَتِي الخاصَّةِ لكثيرٍ من مُبهماتِ الأحداثِ والتَّحوُّلاتِ .

مع المؤلف في مسيرة المعاناة

وكانـت بدايـةُ هذا الأمرِ معاناتي الخاصَّـةِ حيثُ كنتُ وليدَ ثقافَةِ الأُبُـوَّةِ الذَّوقِيَّةِ والمذهبِيَّةِ التقليدِيَّةِ وأحدَ المُنتَمين إلى آلِ البَيتِ النَّبَوِيِّ من ذراري الإمامِ المهاجِرِ أحمدَ بنِ عيسى المنتمي إلى الإمامِ الحُسَينِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ أجمعين .

---

(١) إسناده صحيح ، تفسير القرآن لابن كثير (٧: ٤٩٣).

(٢) إسـناده صحيح لغيره ، «موسـوعة أحاديث الفتن وأشـراط السـاعة» للدكتورين همام وابنه (١٦٤٤).

ورأيتُ في مَسيرَتي العَمَلِيَّةِ والعِلمِيَّةِ ما أقلَقَنِي وأذهَلَ عَقلي، وشَوَّشَ مُدرَكاتي بَادِئَ ذي بَدءٍ وخاصَّةً في مَرحَلَتِي الدِّراسِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ وربطِها بالدِّراسَةِ الأكادِيمِيَّةِ الحديثةِ .. وكانت اليَمَنُ حينَها مُجَزَّأةً إلى شَطرَينِ وثقافتَينِ وأيدُلُوجِيَّتَينِ .. وأما ذاتي وعَقلي وثقافتي فَمُتَمحوِرَةٌ في مدرَسَتِي الأبويَّةِ النَّبوِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ وبإحكامٍ والتزامٍ أَبَوِيٍّ تَربَوِيٍّ صارمٍ، وكان لابُدَّ لي في تِلكُم المرحلَةِ من الارتباطِ بِعَجَلَةِ الحياةِ العِلمِيَّةِ الحديثَةِ مِثلَ غيري مِمَّن يطمَحون في الحياةِ ويحلُمون بالاستقرارِ.. فكان لي حَظُّ الالتحاقِ المُتَدَرِّجِ بالمدرَسَةِ الأكادِيمِيَّةِ حتى تخرَّجتُ من الكُلِّيَّةِ بامتيازٍ ولعلَّ فَهمِي لِدَرَجَةِ الامتيازِ غيرُ فَهمِ المُوَقِّعين على شهادَةِ الكُلِّيَّةِ .. فالامتيازُ الذي أنا بِصَدَدِهِ هو انتِصارُ الدِّراسَةِ الأَبَوِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ على سلبيّاتِ الدِّراساتِ الإنسانِيَّةِ الوضعِيَّةِ وأيضاً على مجموعَةِ الثَّقافاتِ والعاداتِ والعلاقاتِ الطَّبعِيَّةِ .. ولم يكن الانتصارُ معركَةَ الضِّدِّ للضِّدِّ .. وإنما هي معركةُ التَّزاوُجِ والتَّداخُلِ وإغناءُ إيجابِيَّاتِ المدرَسَتَينِ في دوائرِ العَقلِ والقَلبِ بما يُناسِبُ الزَّمانَ و المكانَ والمواهِبَ والقُدُراتِ والإمكانَ، وشاء الحَقُّ سبحانَهُ وتعالى أن يُهَيِّئَ لي الرِّحلَةَ المُقَدَّرَةَ إلى أرضِ الحَرَمَينِ الشَّريفَينِ حيثُ كان بها مَنبَتُ الفِكرَةِ وظُهورُ التَّصَوُّرِ الإيجابِيِّ ورأيتُ في تلك البِيئَةِ ما لا يُحَدُّ ولا يُحصَى من المتناقِضاتِ والتَّناقُضاتِ والتزمتُ القِراءَةَ الواعِيَةَ للمدرسةِ الإسلاميَّةِ الإعلامِيَّةِ المُعاصِرَةِ.

الاعتراضات والاحتجاجات بين الأمة.. لماذا ؟..

وفي رحابِ المسجِدِ الذي كنتُ فيه إماماً والمنبرِ الذي وقفتُ فيه خَطيباً والدُّروسِ العِلمِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ للمُحيطِ الخاصِّ والعامِّ ومجالسَةِ ومناقَشَةِ الخواصِّ وخواصِّ الخواصِّ والعوامِّ وكافَّةِ أجناسِ المسلمين القادِمين من كُلِّ فَجٍّ وحَدَبٍ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ وزيارَةِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ والاعتراضاتِ والاحتِجاجاتِ اليومِيَّةِ وشبهِ اليومِيَّةِ فيما بيننا وعَشَراتِ المُتَعَلِّمينَ والمُعتَرِضين

والمُوافِقِين والمُخالِفِين مِن أُمَّةِ الإسلامِ تَكَوَّنَ هَمٌّ في الذّاتِ وأَلَمٌ في الإحساسِ.. يُسائِلُني: أهكذا الدِّينُ ..؟ أهكذا الإسلامُ ..؟ أهكذا تكونُ الدِّيانَةُ..؟ أهكذا تكونُ الأمانةُ ..؟ هل صوفِيَّتُنا حَقٌّ أم باطِلٌ ! هل مذهَبِيَّتُنا عِلمٌ وشرعٌ أم توليفَاتُ مراحِلٍ ! هل انتِماؤُنا لِآلِ بَيتِ رَسولِ اللهِ ﷺ شَرَفٌ أم قادِحٌ شامِلٌ ! ..

مـاذا يـدور في الواقـعِ ..؟ ومـاذا يطـرُقُ القلبَ والمسـامِعَ؟ إرجافٌ وإسـفافٌ واستهزاءٌ واستخفافٌ!.. وتجرُّؤٌ على الأولياءِ والعُلَماءِ واحتقارٌ واستِنكافٌ !!

حَيرَةٌ بين المُصلِّين وهمٌّ وغمٌّ وخِلافٌ واختِلافٌ...!

بداية الانطلاق في فقه التحولات

وبيـن هذا وذاك .. كانت الفِكرةُ تتزاحَـمُ لتبلُغَ مداها العُمريَّ الموعودَ .. وكنتُ يومَها في درسِ الحديثِ والقارئُ يقرأُ في «صحيحِ مُسلمٍ» من بابِ الفِتَنِ حديثَ: (يوشِـكُ أهـلُ العـراقِ أن لا يجـيءَ إليهم ـ وفـي روايةٍ يُجبَـى ـ قفيـزٌ ولا دِرهمٌ، قلنـا: مـن أين ذاك؟ قال: من قِبَلِ العَجَمِ يمنعـون ذلك[1]..)الخ الحديثِ، وكانت المعركـةُ الدائـرةُ فـي الواقعِ المُعـاشِ ما عُرِفَ حينَهـا بالحصـارِ الاقتصاديِّ على العراقِ .. فسألتُ شيخَنا العلّامَةَ الحبيبَ عبدالقادرِ بنِ أحمدَ السَّقَّافِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ رَحْمَةَ الأَبْرَارِ ـ في المجلِسِ: سيِّدي.. هل الحديثُ ينطَبِقُ على ما يجري الآنَ في العراقِ؟.. فسكتَ هُنيهَةً ثُمَّ قال: نعم، راجِعْ أطرافَ الأحاديثِ وشُرُوحَها .

فراجعـتُ وراجعتُ أيّاماً وليالِيَ فوجدتُ عجائِـبَ الأحداثِ وغرائِبَ المعرِفَةِ، بـل إنَّ الإمـامَ النَّـووِيَّ قـال في شـرحِ الحديـثِ : (وهـذا قد وُجِـدَ فـي زمانِنا في العراقِ)[2].

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٩٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٨: ٢٠).

واعتنيـتُ بعـد هذا بأبـوابِ السَّـاعةِ وعلاماتِها، وانفتَـحَ لي بابٌ جديـدٌ وتعلُّمٌ شرعيٌّ مُفيدٌ ..

تقرير الحالة

ولستُ بِمُدَّعٍ اجتهاداً، ولا أرغَبُ ولا أسعى في الأرضِ فساداً، وإنَّما أحببتُ أن أعيشَ العِلمَ الشَّـرعِيَّ من داخِلِهِ وأتجنَّـبَ الإفكَ الوضعِيَّ وغوائِلَهُ .. فقرأتُ فيما قـرأتُ حديـثَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ومـرَّةً بعدَ أخرى كان يشـغَلُني تركيزُ الجميعِ على أركانِهِ الثَّلاثةِ وإهمالُ المعادِلِ الرَّابعِ، وخَشِيتُ أن أركَبَ شَطَطاً إن قلتُ: إنَّ الرُّكنَ الرابعَ من أركانِ الدِّين هو العِلمُ بِعلاماتِ السَّاعةِ .. ولكن وجدتُ القائِلَ لهذا هو رَسـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو المُؤَكِّدُ عليه. فأخذتُ في دراسةِ الرُّكنِيَّةِ وملابُساتِ العُصورِ التي حجزت السَّابِقين عن الِاهتمامِ به .. فكان لي معرِفَةُ فِقه التَّحوُّلات ومُتَعَلَّقاتِهِ، وها أنا ذا أَضَعُهُ في هذا الكتابِ الذي أسميتُهُ بـ «الأُسُسِ و المُنطَلَقاتِ» بعد زَمَنٍ طويلٍ من الجَمعِ والتَّرتيبِ والحَذفِ والتَّركيبِ آملاً أن ينفَعَ اللهُ به مَن هَيَّأَ له النَّفعَ والاستفادَةَ، وأن يُلهِمَ قارِئَهُ الصَّوابَ إلى ما جاءَ في السُّنَّةِ والكتابِ بعيداً عن الغُلُوِّ والإِفرَاطِ والتَّفرِيط..

المدخل إلى معرفة الركنية الرابعة

وأعتَقِـدُ أنَّ من الواجبِ وضعَ بعضِ المُقَدِّمـاتِ الهامَّةِ التي فَهِمتُها خلالَ وضعِ هذه الدِّراسَـةِ لتكونَ مَدخَلاً مُفيداً وتمهيداً سَـديداً للقارِئِ المُبتَدِئِ.. وسَنَداً أكيداً للمُتَعَمِّـقِ المُتَخَصِّـصِ .. حيـثُ نحتاجُ لِرَأيِـهِ ومعرِفَتِهِ وحُسـنِ مُلاحَظَتِـهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

مقدمات هامة لقراءة علامات الساعة

فأقولُ : مع كثرةِ التَّناولِ لعلاماتِ السَّـاعةِ حصلَ بعضُ التَّجاوُزِ في تعليلِ الظَّواهِرِ واسـتعجَلَ بعضُ الكُتَّابِ والباحثين في تفسيرِها ممَّا أثارَ أهلَ العِلمِ الحريصين على سـلامةِ الدِّيانةِ من العَبَثِ والجـرأةِ، وصدرت جُملةٌ من الرَّسـائلِ الحاويةِ على الرَّدِّ

المُتفاوِتِ بينَ الاعتدالِ وبينَ الغُلُوِّ في النَّقدِ للمُتكَلِّفين والمُتَناوِلين هذا الفَنَّ المُعقَّدَ ، وقـد أجمـلَ بعضُ الباحِثِين المسـائِلَ[1] التي يكثُرُ فيها الطَّيشُ والخَلطُ ووضع لها الضَّوابِطَ التاليةَ :

تبقى الأشراط في دائرة التوقع المظنون

١- أن تبقَـى هذه الأشـراطُ فـي دائرةِ التَّوقُّـعِ المظنونِ دون أن نتكلَّـفَ إيجادَها بإجراءاتٍ من عند أنفُسِـنا ، وأنَّها أمورٌ كونيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ واقعةٌ لا محالةَ ، ولم نُخاطَب باستخراجِها من عالَمِ الغَيبِ إلى عالم الشَّهادَةِ .

مراعاة الترتيب الزمني للأشراط

٢- أن يُراعـى التَّرتيبُ الزَّمنِيُّ لتسلسُـلِ الأشـراطِ طِبقاً لمـا دَلَّت عليه نُصوصُ الوحـيِ الشَّـريفِ وعَـدَمُ القَطعِ بزمـانٍ أو ترتيبِ مـا لا دليلَ على زمنـهِ وترتيبِهِ إلا بِالظَّـنِّ والتَّخمِيـنِ ، فمن الأشـراطِ التـي قطعت النُّصـوصُ بتعيينِ ترتيبهـا مثلاً (الدَّجَّالُ ، يليه نزولُ عيسى، يليه يأجُوجُ ومأجوجُ)

وأخـرى مـن العلاماتِ مقدِّماتٌ إجماليَّـةٌ ذُكِرت دون تعيينِ ترتيبها بالنِّسـبَةِ لما يُتَوَقَّعُ من الأشـراطِ ، كانحسـارِ الفُراتِ عن جَبَلٍ من ذَهَبٍ ، وعودةِ أرضِ العَرَبِ مُرُوجاً وأنهاراً ، وغيرِ ذلك[2].

عدم تأثير الترقب على واجب الوقت

٣- أن لا يُؤثِّر هذا التَّرقُّبُ سَلباً على أداءِ واجبِ الوقتِ وتكاليف الشَّرعِ كالدَّعوَةِ وطَلَبِ العِلمِ والجِهادِ انتظاراً لوُقوعها .

٤- الانتباهُ إلى النِّسبةِ الزَّمانِيَّةِ عند الكلامِ عن اقترابِ السَّاعةِ ، فإنَّ القُربَ والبُعدَ كلاهما أمرٌ نِسبِيٌّ ، ومَن يدري لعلَّ بيننا وبينها آلافاً من السِّنينَ لا يعلَمُها إلا اللهُ.

٥- لا يمكِنُ إسـقاطُ النُّصـوصِ التي يطرُقُها الاحتمالُ على واقـعٍ مُعَيَّنٍ إلا بعد

(١) في كتاب (فقه أشراط الساعة) لمحمد إسماعيل المقدم.
(٢) فقه علامات الساعة ص١٨٧ .

وُقوعها وانقضائِها.

هدي السلف أمام فقه التحولات

ثـم قال الباحث: فقد كان هَديُ السَّـلَفِ رحمهم اللـه – أنهم لا يُنَزِّلونَ أحاديثَ الفِتَنِ على واقعٍ حاضرٍ ، وإنما يرونَ أصدقَ تفسـيرٍ لها وقوعَها مُطابِقَةً لِخَبَرِ النَّبيِّ ﷺ ولذلك نُلاحِظُ أنَّ عامَّة شارِحي الأحاديثِ الشَّريفَةِ كانوا يُفِيضون في شرحِها ،واستنباطِ الأحكامِ منها ، حتى إذا أَتَوا على أبوابِ الفِتَنِ وأشراطِ السَّاعَةِ أمسَكُوا أو اقتَصَدوا في شرحها للغايةِ ، ورُبَّما اقتَصَروا على تحقيقِ الحديثِ واكتَفَوا بشرحِ غريبِهِ .اهـ .

النصوص وعلاقتها بما يطرقه الاحتمال

وقـال : (ولا بُـدَّ من أن تكونَ النُّصوصُ التي يُطَبَّقُ عليها هذا الضَّابِطُ ممَّا يطرُقُ دِلالَتَـهُ الاحتمالُ ، بِخلافِ النُّصـوصُ المُحكَمَةِ التي دَلَّ الدَّليـلُ على المرادِ منها بحيـثُ لاتلتَبِـسُ على أَحَدٍ ، فإنها تخضَعُ لهذا الضابطِ ، مثلَ نُزُولِ المسـيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ من السـماءِ عند المنارَةِ البيضاءِ بدِمِشْـقَ ، وصلاتُهُ الصُّبحَ خلـفَ المهدِيِّ ، ومثلَ خُروجِ الدَّجَّالِ بِصِفَتِهِ التي أخبر عنها النَّبيُّ ﷺ .

حصر مصادرالتلقي

٦- حصـرُ مصـادِرِ التَّلقِّـي فيما هو حُجَّةٌ شـرعِيَّةٌ وإهـدارُ ما عـداه كالأحاديثِ الضَّعيفَةِ والموضُوعَةِ والاسـرائيليَّاتِ التي تُعارِضُ ما عندنا أو التي أُمِرنا بالتَّوقُّفِ فيها .

٧- ما أشكلَ عليك فكِلهُ إلى عالِمِهِ ..

وقـال أبـو حامـدٍ الغزالِيُّ : « لوسـكتَ مَن لا يعـرِفُ قلَّ الاختِـلافُ، ومن قَصُرَ باعُـهُ وضـاقَ نظرُهُ عـن كلامِ عُلماءِ الأُمَّـةِ والاطِّلاعِ فما له وللتَّكَلُّـمِ فيما لا يدريهِ والدُّخولِ فيما لا يعنيهِ ، وحقُّ مِثلِ هذا أن يلزَمَ السُّكوتَ) .

لا نعطل السنن والأسباب

٨- لا نُعَطِّلُ السُّننَ والأسبابَ بحُجَّةِ انتظارِ المهدِيِّ، وما أصدَقَ ما نُسِبَ في هذا

إلى جعفرٍ الصَّادِقِ رحمه الله من قولِهِ لمن خاض في الأحكامِ القَدَرِيَّةِ وانشغَلَ بها عن واجبِ الوقتِ: (إنّ اللهَ أراد بنا أشياءَ وأرادَ مِنّا أشياءَ، فما أراده بنا أخفاهُ عَنَّا، وما أراده مِنَّا بَيَّنَهُ لنا ، فما بالُنا ننشَغِلُ بما أرادَهُ بنا عمَّا أراده مِنّا) [1] .

رأي المؤلف فيما سبق من الضوابط

قلتُ ـ والله أعلم ـ : ومع هذا التأصيلِ المُفيدِ والهامِّ الذي نقلناه عن الحريصينَ ـ إن شاء الله ـ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ مِن العَبَثِ الانفعاليِّ فإنَّ الأقلامَ ذاتَها بإدراكٍ أو بغيرِهِ لم تسلَم من الوُقوعِ فيما يُنتَقَدُ لدى الآخَرين خلالَ التَّناوُلِ لمواضيعِ السَّاعةِ وعلاماتِها بِصورةٍ أو أخرى .

ولسنا هنا بِصَدَدِ المُدافعةِ عما يراه البعضُ باطلاً ولا ملاحَقَةِ ما وجدناه من الجُنُوحاتِ في الموضوعاتِ المطروقَةِ ، وإنما نرغَبُ في نزعِ فَتيلِ الاشتعالِ المُعتادِ بين الغَيورِين على الحَقِّ النَّاصِعِ لِيُستَفَادَ من الجُهودِ المُشتَرَكَةِ في خِدمَةِ الأُمَّةِ وإصلاحِ ما يُمكِنُ إصلاحُهُ وإنقاذِ ما يُمكِنُ إنقاذُهُ ، والنَّظَرِ إلى الأهدافِ العُليا من دراسةِ العلاماتِ والأشراطِ وتجاوُزِ الجُزئيَّاتِ والانفعالاتِ إلى ما هو أولى وأجدى ، والذي هو أولى وأجدى أن يتفهَّم الجميعُ مقولاتِ الحبيبِ ﷺ وأحاديثَهُ الصَّحيحةَ في الموضوعِ حتى لا نُفَوِّتَ الحقيقةَ بسببِ الاختلافِ على طريقِ الوُصول إليها .. وحاجةُ الناسِ اليومَ إلى من يكشِفُ حقائقَ العلاماتِ على بساطِ المعرفةِ أكثرُ من حاجتهم إلى مَن يُشَوِّشُ العلاقةَ بين الباحثين عنها ..

متابعة الحاديث أيسر وأولى من متابعة تعقيدات العلماء

وبما أنَّني قد اشتغلتُ بهذا الموضوعِ على مدىً زَمَنِيٍّ طويلٍ فإنِّي أَجِدُ أنَّ متابعةَ الأحاديثِ ذاتِها واستِقراءها الواضِحَ أيسَرُ وأنفَعُ من متابَعَةِ التَّعقيداتِ التي وضعَها البعضُ من حَمَلَةِ الأقلامِ حِرصاً على ما يقالُ عنه أنَّه عَبَثٌ بالعلاماتِ

(١) ص٢٠٣ فقه علامات الساعة .

والأشراطِ ، فالعابثون بالأشراطِ كفاهم فَشَلُ مقولاتهم التي تعجَّلُوها حرصاً على الشُّهرَةِ والظُّهورِ ، والتَّلميحُ في معاتَبَتِهم خيرٌ من التَّصرِيحِ والتَّشنيعِ لأنَّ التَّصرِيحَ والتَّشـنيعَ بابٌ خطيرٌ لـو أراد المخلِصُونَ الصَّادقونَ فتحَ بابـهِ ضِدَّ المُتَقَوِّلينَ على غيرِهـم في المرحَلَـةِ المُعاصِرَةِ .. وقد تَصِلُ المسـأَلَةُ إلى مـا لايُرضِي العديدَ من المُتَحَدِّثيـنَ اليومَ باسـمِ الدِّفاعِ عن السُّـنَّةِ والكتابِ وخاصَّة عنـد تناوُلِ العلاماتِ والأشـراطِ بِتَفَقُّـهٍ واعٍ ونَظَـرٍ عميـقٍ لأقوالِ مَـن لا ينطِقُ عن الهـوى ﷺ مما يزيدُ الطِّين بَلَّةً والتحدِّيَ أُواراً واشتعالاً ..

التلميح خير من التصريح في المعاتبة

إنَّ ظاهِرَةَ الاحتناكِ والاحتكارِ للسَّلامَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ وظاهِرَةَ النَّبزِ والتَّشَفِّي ، وظاهِرَةَ التَّركيزِ على العُيوبِ وغَمطِ المحاسِنِ .. علامةٌ من علاماتِ السَّاعةِ رُبَّما لاحَظَها القارِئُ في مُتابَعَتَنا لهذه النَّماذِجِ في كتابِنا هذا عند تناوُلِنا لِمَظاهِرِ الغُثائِيَّةِ وشُـمولِ الوَهَـنِ والتَّداعي ، وأنَّ الاشـتغالَ بها داخِـلَ حظيرَةِ المُصَلِّيـنَ ـ من كُلِّ نماذِجِ المذاهِبِ ـ تحريشٌ شـيطانيٌّ، إلا إذا جـاءت على صِفَةِ الحِكمَةِ والموعِظَةِ الحَسَـنَةِ، والحِكمَـةُ والموعِظَةُ الحَسَـنَةُ مِن مظاهِرِها التَّلَطُّـفُ مع المُخطِئِ فضلاً عن المُصِيبِ ، وأمّا ما نحاهُ حَمَلَةُ الأقلامِ من توجيهِ المراحلِ وسيرِها الملحميِّ[1] لصالِحِ المُتَّجهاتِ الفِكريَّةِ فأمرٌ يربِطُنا بعلاماتِ السَّاعَةِ وأشراطِها السَّلبِيَّةِ.

ظاهرة الاحتناك والاحتكار للسلامة

وبعضُ الأشـراطِ والعلاماتِ مجهولةُ التَّحديدِ الزَّمَنِيِّ والمكانيِّ .. وأما بعضُها فيمكِنُ معرِفَتُهُ بالمُلاحَظَةِ والاستقراءِ المُتأنِّي..

الأشراط المجهولة وموقعنا من معارضتها

كمـا وردَ عـن جُملـةٍ مـن أصحابِ رسـولِ اللـهِ ﷺ فـي الفِتَنِ التـي وقعت في

(١) الملحمي من الملاحم وهي الحروب العامة والفتن الكبرى الجائحة، وخاصة بين المسلمين والكفار.

عُصورِهم، كانوا على عِلمٍ بالوُقوعِ ولكن يجهلونَ الزَّمَنَ والشُّـخوصَ فلمَّا رَأَوها عَيانـاً قـال قائِلُهم ـ وهـو حُذيفَةُ بنُ اليمـانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ": «إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّـيْءَ قَدْ نَسِيتُ ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ»[١] .

وعـن الحسـن قـال: قـال الزُّبيرُ بـنُ العـوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «نزلـت هذه الآيـةُ ونحنُ مُتوافِرون مع رسـولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ الأنفال: ٢٥ فجعلنا نقولُ : ما هذه الفِتنَةُ؟ وما نشعُرُ أنَّها تقعُ حيثُ وقعت» [٢].

لماذا تناول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العلامات؟ لم لم يسكت عنها أو يخف من إشهارها؟

ومـا تناولَهـا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وخَطَبَ بها أمامَ الملأِ وفي مُناسـباتٍ جمّـةٍ إلا لتُصبحَ إحدى مـوادِّ الفقهِ الإسـلاميِّ بصرفِ النَّظَـرِ عمَّا تحملُهُ من إحراجـاتٍ وتحدِّياتٍ .. وإذا كانت الإحراجَاتُ والتَّحدِّياتُ عاملاً شـرعياً يُلزِمُنا إغفالَ العلاماتِ والأشـراطِ ، فقـد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أولى بإغفالِها والسُّـكوتِ عنهـا أو حتى التّلميحِ مـن أجلِ تجاوُزِها والصَّمتِ حِيالَها..

مرحلة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تأصيل

لقد كانَت مرحلةُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مرحلةَ تأصيلٍ عَمَلِيٍّ لأسلُوبِ المعاملاتِ وبناءِ المواقِفِ بين مَكَّةَ والمدينةِ بما يتناسَـبُ مع التَّحَوُّلاتِ وسَيرِ الأشراطِ والعلاماتِ ، والأشـراطُ جُـزءٌ من الرِّسـالةِ المُنزَلَةِ على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فـكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخصُّها بِخُطَبٍ وتعريفاتٍ واختباراتٍ ومواقفَ تُؤَكِّدُ أهمِّيَّةَ الأوعيَةِ الحامِلَةِ هذا النَّموذَجَ الشَّرعِيَّ من تفسيرِ الحوادثِ، وأهمِّيَّةَ الأُسلوبِ المبلِّغِ للشُّعوبِ حِيالَها .

فقه التحولات اليوم من أهم أركان الدين

بـل إِنَّنـي أعتَقِدُ ـ والله أعلـم ـ أنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ اليومَ يُعَدُّ مـن أَهَمِّ أركانِ الدِّينِ

(١) البخاري (٦٦٠٤).

(٢) إسناده صحيح ، تحقيق «السنن الواردة في الفتن» لأبي عمرو الداني للدكتور محمد إدريس المباركفوري (١: ٢٠٥).

الأربعةِ؛ لأنَّ الأركانَ الثلاثَةَ قد خُدِمَت وحُفِظَت وقُرِّرَت واستوعبها كافَّةُ الُمسلِمين وغيرُ الُمسلِمين، وأكثَرُوا فيها الكتابَةَ والتَّصنِيفَ والتَّأصيلَ والتَّفريعَ، وهي ـ بلا شَكٍّ ـ مادَّةُ الأعمالِ والطاعَةِ؛ أما علاماتُ السَّاعَةِ ـ باعتبارِها رُكناً ـ فهي وِعاءُ المادَّةِ، وكم مِن وِعاءٍ لم تُعرَف حقيقةُ سلامتِهِ ونزاهَتِهِ ظَلَّ حاملاً لأركانِ الدِّينِ الثلاثةِ وهو لا يَدِينُ بها حقيقةً وإنما مُجاملةً أو تَقِيَّةً أو نِفاقاً أو سياسةً أو تسييساً، بل رُبَّما كان يعملُ على خدمةِ الدَّجَلِ والدَّجاجلَةِ داخلَ خيمةِ الإسلامِ!!

فقه التحولات يعرفنا بالأوعية الحاملة للعلم ومكانتها العلمية

ولكنَّنا عند دراسةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وعلاماتِ السّاعةِ نعرِفُ بالعلاماتِ تِلكُم الأوعيَةَ كما نعرِفُ تصنيفَ العدالَةِ من فاقِدِيها والسّلامةِ عن الانحرافِ والإيمانِ من النِّفاقِ سواءً في حياتِنا العامَّةِ أو في قراءَةِ التَّاريخِ المكتوبِ، والتاريخُ المكتوبُ يحتاجُ إلى إعادَةِ رَبطٍ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ.

وخاصَّةً أنَّ غالِبَ الذين كتبوا أو قرؤوا التّاريخَ وأحداثَه ـ بعيداً عن قراءَةِ علاماتِ السَّاعةِ وفِقهِ التَّحوُّلاتِ ـ يَقَعون بإدراكٍ أو بغيرِ إدراكٍ في مُشكِلةِ الحُكمِ الذَّاتيِّ على المرحلةِ أو الرُّموزِ فيها بما يُوافِقُ المفهومَ لديهم من خِلالِ الحياةِ ذاتِها بَدءاً من عَصرِ الرِّسالةِ ومُجرَياتها التاريخِيَّةِ ونهايةً بالصِّراعِ الفِكريِّ الدَّائرِ في الحياةِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ عبرَ الأزمنَةِ إلى اليومِ، وليسَ من مواقِفِ النَّبيِّ ﷺ حيالَ الشُّخوصِ والمراحلِ، وما نَصَّ عليه تاريخُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الخاصِّ بالتَّحوُّلاتِ.

نصوص فقه التحولات تُعنى بمسيرة الحكم والعلم

حيثُ إنَّ نُصوصَ فِقهِ التَّحوُّلاتِ تُفصِحُ عن مسيرَةِ الحُكمِ والعِلمِ وعن فِقهِ سيرِ الأحداثِ المُقَدَّرَةِ في عِلمِ اللهِ، سواءً في حياتِهِ أو بعدَ وفاتِهِ ﷺ، وما سيؤُولُ إليه أمرُ الأُمَّةِ من انحرافاتٍ وجُنوحاتٍ، أو ما يترتَّبُ عليه من نماذِجِ الابتلاءِ وتحوُّلِ المواقِفِ أو تضييعِ أمانةٍ، أو ما سيبرُزُ من صبرٍ لدى فريقٍ آخرَ من أجلِ إنفاذِ مُرادِ

اللهِ المُقَدَّرِ وفقَ النُّصوصِ الخاصَّةِ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ.

إنَّ نُصوصَ التَّشريعِ والأحكامِ والمعاملاتِ والسُّلوكِ والعقائِدِ تُعنَى بِبناءِ القِيَمِ والعباداتِ والعاداتِ والمعاملاتِ المضبوطةِ بالوَحيِ والعِصمَةِ في عصرِ الرَّسولِ ﷺ وما يبنيه ﷺ في أصحابِهِ وآلِ بيتِهِ ومُحبِّيه في الشُّعوبِ، على أفضلِ الصُّوَرِ والعلاقاتِ القائمةِ بأُسُسٍ على فقهِ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ وما تفرَّعَ عنها بعد ذلك من أقوالٍ واجتهاداتٍ مذهبيَّةٍ وتأصيلٍ وتقعيدٍ وتفريعٍ.

أما فِقه التَّحوُّلات فيضَعُ خريطةَ المستقبلِ وما يكونُ من أمرِ الحُكمِ والعِلمِ والمواقفِ وموقعِ العدالةِ منها أو الجنوحِ والشَّططِ المُستَبَدِّ بالأمرِ بين حَمَلَةِ الكتابِ والسُّنَّةِ والأخلاقِ وسلامةِ المراحلِ أو فسادِها.

حياة النبي ﷺ قراءة واعية للأحداث حاضرا ومستقبلا

بل إنَّ مُلاحظَ الوقائعِ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ عند عرضِها بوعيٍ وحُسنِ قراءةٍ تكشِفُ للجميعِ أموراً هامَّةً مما ستؤولُ إليه الأُمَّةُ إلا أنَّه ﷺ لم يعترض عليها، وإنما كشف أحداثَها ووقائِعَها دون إصدارِ حُكمٍ أو ثَلبِ فردٍ أو لَعنِهِ او استنقاصِ مَوقِفِه، بينما في مواقِفَ أخرى تجري ألفاظُ اللَّعنِ والسَّبِّ والثَّلبِ والاستنقاصِ منه ﷺ في حَقِّ آخرينَ دون مُجاملةٍ أو تردُّدٍ أو تورِيَةٍ .

إضافةً إلى أنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ وعلاماتِ الساعةِ مشحونٌ بالعَشَراتِ من الأحاديثِ النَّبويَّةِ المُشيرَةِ إلى ما يستَجِدُّ من اكتشافٍ واختراعٍ وعُلومٍ صِناعيَّةٍ وزراعيَّةٍ وفضائيَّةٍ لم يكن بها سابِقُ عِلمٍ ولا معرفةٍ، وفي هذا الباب نَجِدُ أنَّ الشَّيخَ العلَّامةَ أحمدَ بنَ محمَّدِ بن الصِّدِّيقِ الغُمارِيَّ الحَسَنِيَّ[1] قد ألَّفَ كتابَهُ «مُطابَقَةُ

(١) هو العلامة المجتهد الحافظ مجدد علم الحديث أبو الفيض السيد أحمد بن الصديق بن أحمد بن قاسم بن محمد بن محمد بن عبد المؤمن الغماري الحسني الإدريسي المغربي.

الاختراعـاتِ العصريَّـةِ لما أخبر به سـيِّدُ البريَّةِ» ويكادُ أن يكونَ هـذا الكتابُ أَوَّلَ كتابٍ عُرِفَ في تنزيلِ الأحاديثِ الواردةِ على الُمستَجِدِّ من ظواهرِ العِلمِ الحديثِ وتغيُّـراتِ المراحـلِ، جـزاهُ اللهُ خيـرَ الجزاءِ، وقد بسـط في كتابه المذكـورِ فوائدَ جليلـةً وخاصَّـةً في النَّظَرِ إلى تفسـيرِ بعضِ آيـاتِ القرآنِ وعلاقتِها بالُمسـتَجِدِّ من العُلومِ وبالأحاديثِ النَّبويَّةِ وكشفِها العجيبِ لأسرارِ المُستقبَلِ وما يكونُ فيه.

كان والـده رحمـه اللـه تعالى معتنيا به أشـد الاعتناء ويذاكره في شـتى الفنـون ويحثه على الطلـب والتعـب في التحصيل، ولما أمـر والده الإخوان المتجرديـن بالزاوية الصديقية أن يحفظـوا القرآن الكريم كتـب كتابا في فضل القرآن الكريم وحفظه وتلاوته سـماه «رياض التنزيه في فضل القرآن وحامليه» وهو أول ما صنف وكان دون العشرين.

وفي سنة ١٣٣٩هـ وصل للقاهرة للدراسة على علماء الأزهر المعمور حسب توجيهات والده، فعاود قراءة الفقه المالكي ثم الشـافعي. ومن شـيوخه بمصر الشـيخ محمد إمام بن إبراهيم السـقا الشـافعي وكان يتعجب من ذكائه وسـرعة فهمه وشـدة حرصه على التعلم ، وكان أحيانـا يقـول له لما يرى حرصه على قراءة الكتب التـي تدرس في أقرب وقت: أنت تريد أن تشرب العلم، وله مشايخ آخرون بمصر منهم مفتي الديار المصرية ومفخرتها الشيخ محمد بخيت المطيعي ، وقرأ على المسند المحدث عمر حمدان التونسي المدني.

وفي سنة ١٣٥٤هـ رجع إلى المغرب بسبب وفاة والده رحمه الله تعالى فاستلم الزاوية وقـام بالخلافـة عن والده واعتنى بتدريس كتب السـنة المطهرة مـع بعض كتب المصطلح وأقرأ بعضا من كتب التخريج والأجزاء والمشيخات والمسلسلات وأملى مجالس حديثية بالجامـع الكبير بطنجة. وحث الناس على العمل بالسـنة الشـريفة. وكان يحارب السـفور والمـدارس العصريـة والتشـبه بالكفـار وله في ذلك جزء سـماه «الاسـتنفار لغزو التشـبه بالكفار» جمع فيه الأحاديث التي تنهى عن التشبه بالكفار.

ولـم يكن صاحب الترجمة رحمـه الله تعالى من الذين قصروا أنفسـهم على العلم فقط ؛ بل حارب الاسـتعمار وسـعى في إخراجه، وسـجن بسبب ذلك لعدة سـنوات، وفي يوم الأحـد غـرة جمادى الثانية سـنة ١٣٨٠ انتقل رحمه اللـه تعالى ودفن بالقاهـرة رحمه الله تعالى وأثابه رضاه.

فقه التحولات علم ضابط لمواقف الرجولة

إنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ عِلمٌ ضابِطٌ لمواقفِ الرُّجولَةِ أمامَ الأحداثِ والتَّحوُّلاتِ، وعِلمٌ يُدينُ الإفراطَ من كُلِّ وُجوهِهِ إدانةً على مُرادِ اللهِ كما يُدينُ التَّفريطَ من كافَّةِ وُجوهِهِ إدانَةً على مُرادِ اللهِ ورسولِهِ في جميعِ مراحِلِ الحياةِ الإنسانيَّةِ والإسلاميَّةِ، وليس كما نراه ونفهمُهُ بِعُقولنا وانتماءاتِنا الطَّبعِيَّةِ أو فهمِنا الذَّاتيِّ للقضايا التاريخيَّةِ.

حاجتنا لهذا العلم أكثر من حاجتنا للماء والغذاء

وكأنَّنا في حاجَتِنا لهذا العِلمِ اليومَ أكثرَ من حاجَتِنا للماءِ والغِذاءِ والدَّواءِ؛ لأنَّ في هذا العِلمِ سَدَّ كافَّةِ الثَّغراتِ التي دخل منها تحريشُ الشَّيطانِ بين المُصلِّين، وقد جعلَ الشَّيطانُ بها من عِلمِ العُلماءِ واجتهادِ المُجتهِدين وقودَ فِتنَةٍ بين أهلِ المِلَّةِ الواحدةِ والرِّسالَةِ الواعِدَةِ.. لماذا؟

لأنَّ الذين لم يُعيدوا الاحتكامَ في مثلِ هذه المسائلِ إلى نصوصِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ اصطدموا بالتَّحليلِ الطَّبعِيِّ من عند أنفسِهم للأمورِ والحوادِثِ بعد قراءَةِ نُصوصِ المناقِبِ والفضائِلِ كنُصوصٍ صحيحةٍ وصريحةٍ؛ ولكنَّ الأحكامَ في مُجرَياتِ التَّحوُّلِ التَّاريخيِّ لم تصدُر بها ولا مِن خلالها، وإنَّما جاءت على نُصوصِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ الصَّادِرَةِ من لِسانِ من لا ينطِقُ عن الهوى ﷺ، فبها يعارِضُ النَّصُّ النَّصَّ أو يُوقِفُ الخُلفاءُ العَمَلَ بالنَّصِّ كما فعل الأئِمَّةُ الأطهارُ بنصوصِ مناقِبِهم وارتَضَوا سلامَةَ الأُمَّةِ، وكفى بالاقتداءِ بهم حُجَّةً كي يحفَظَ المُسلِمُ لسانَهُ وقلبَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَهُ من الوُقوعِ في الفِتَنِ المُضِلَّةِ وينالَ بركةَ الجميعِ وثوابَ مواقِفِ السَّلامَةِ لدى أهلِ السَّلامةِ، ويَكِلَ أمرَ القضاءِ والقَدَرِ فيما يجريه على البَشَرِ إلى المولى سبحانه وتعالى وهو حسيبُ عبادِهِ ووكيلُ أمرِهم سبحانه وتعالى.

المُؤلِّفُ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُنطلَقُ

الحمدُ للهِ الذي جمع في الأصلَينِ و معادِلِهما الثَّالِثِ علاجَ الأوائِلِ والأواخِرِ، وأساسَ العِلمِ لكُلِّ أمرٍ باطِنٍ وظاهِرٍ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِ المباهِجِ والمفاخِرِ، مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ رَسولِ اللهِ الموهوبِ من رَبِّهِ أفضَلَ المعارِفِ وأشرَفَ العُلومِ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه أهلِ الشَّجاعةِ والفُهومِ، وعلى التَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ اللِّقاءِ المعلومِ..

العودة إلى الأساسيات من أهم المهمات

وبعدُ: فإنَّ من أهمِّ المُهمَّاتِ في هذا الزَّمانِ ومن ألزَمِ الضَّروراتِ عودَةُ المسلمين إلى الأساسيَّاتِ، وهي تجديدُ قراءةِ كتابِ اللهِ الذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾، وإعادةُ دراسةِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ التي صَحَّت سَنَداً عن من لا ينطِقُ عن الهوى ﷺ، ودراسَةُ مواقِفِه الذَّاتيَّةِ المُشتَمِلةِ على ما يُعرَفُ بالنُّبُوَّةِ وهي خُصوصِيَّاتُ سُلوكِهِ ﷺ، ففي هذه الإعادَةِ خروجُ الجميعِ من ظاهرةِ الاحتدامِ والاختلافِ على فرعِيَّاتِ المسائِلِ ورُكامِ التَّفرِقَةِ الذي حلَّ بالمسلمين حتى اكتسبَ بعضُهم لِبعضٍ العداوةَ وتوارَثُوا الحِقدَ والبغضاءَ إلى رَحبِ الأخلاقِ وسَعَةِ الآدابِ والأذواقِ، وما كان ذلك الاحتدامُ والاختلافُ إلا لأنَّهم خلطوا عُلومهم بنتائِجِ مُفرَزاتِ طِباعهم فَتغلَّبَ الطَّبعُ على الشَّرعِ وتراكمت فُهومُ الاختلافاتِ جِيلاً بعد جيلٍ واخترَقَ الشيطانُ بذلك عُقولَهُم وقُلوبَهم بوسواسِهِ وتحريشِه حتى ﴿ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ

ﭐلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. اللهُـمَّ اجعلنـا مـن هذا الفريـقِ المُسـتثنَى بِمَنِّكَ وفَضلِـك وكرمِكَ يا أرحمَ الرَّاحمين.

ولأنَّ الإعـادَةَ الصحيحةَ لقراءَةِ الأصلَينِ ومعادِلهما عِلمٌ مُميَّزٌ؛ فلا بُدَّ من معرفةِ وسائلِ القِراءَةِ، وهي تنقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

قراءة العلماء لأصول الديانة كانت على ضوء الثوابت الثلاثة

١ – قراءَةٍ لما قد سبق للعُلماءِ أن خدموه ووسَّعوا البحثَ فيه ، وهو ما يخدِمُ عِلمَ الإسـلامِ والإيمانِ والإحسـانِ، وما عُرِفَ لـدى العُلماءِ في علمِ الأُصولِ: بالسُّـنَّةِ الفعلِيَّةِ والقولِيَّةِ والتَّقريريَّةِ، وما تفرَّعَ من خِدمتها العِلمِيَّةِ.

قراءتنا لعلامات الساعة تأتي على أنها ركن خاص بالتحولات

٢– ما لم يسبِق للعُلَماءِ تأصيلُهُ وخدمتُهُ ودراستُهُ بتفصيلٍ وتبيينٍ، وهو ما يتعلَّقُ بالعِلمِ بعلاماتِ السَّـاعةِ ومواقِفِ رِجالِ النَّمَطِ الأوسَطِ وعُدولِ الأُمَّةِ ، وما ترتَّبَ على دراسـتِها من إبرازِ فقهٍ خاصٍّ يُعرَفُ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ .وسُـنَنٍ خاصَّةٍ هما سُنَّتا المواقِفِ والدِّلالَةِ، تَتَبَّعتُ دِراسَـتَها وبحثَها على مدىً زَمَنِيٍّ طويلٍ، مُبتدئاً بِدراسةِ علاماتِ السَّاعةِ من حديثِ جبريلَ، وهو أحدُ أركانِ الدِّينِ الأربعةِ على ما ورد في نصِّ الحديثِ الشَّريفِ الذي رواهُ سيِّدُنا عمرُ بن الخطَّابِ ، ثُمَّ تابعتُ ما اجتمعَ عليه من زياداتٍ وإضافاتٍ في كُتُبِ السُّنَنِ والمسانيدِ وغيرِها من تفصيلِ أخبارِ علاماتِ السَّـاعَةِ وما يترتَّـبُ عليها من بيانٍ وإيضـاحٍ لكثيرٍ من أمورِ الحيـاةِ المعقَّدَةِ،الذي سُيِّسَ فيه الاختلافُ وخرجَ عن مبدأِ القواسِمِ المشتَرَكة في الإسلامِ إلى مبدأٍ آخرَ تَحكُمُـه سياسَـةُ التَّحريـشِ والتَّفرقةِ والعـداوةِ المُركَّبَةِ التي تنطلِقُ مـن وُجهةِ نظرِ الشَّـيطانِ الدَّاعي إلى المبدَأِ المعروفِ (فرِّق تَسُد) وبهذا المبدأِ الشَّيطانِيِّ تحقَّقت السِّـيادَةُ الإبليسِـيَّةُ على كُلِّ المُصلِّين واسـتطاع هذا المخلوقُ المُعـادي أن يَصِلَ إلى أهدافِهِ في المسـلمين باختلافِهم، كما وصل إلى اسـتعبادِ الكُفَّارِ والمشـرِكين

بِكُفرِهم، حيث إنَّ للشَّيطانِ عقيدتَينِ:

عقائد الشيطان في البشرية

١- الكُفرُ ، وهو ما يمارِسُهُ مع الشُّعوبِ الوثنيَّةِ والمُلحِدَةِ وأهلِ الكتابِ الذين كفروا بمخالفتهم دعوةَ أنبيائِهم وحرَّفُوا كُتُبَهم وأثبتَ القرآنُ انحِرافَهُم .

٢- التَّفرِقَةُ والاختِلافُ، وهو ما يمارِسُهُ مع الشُّعوبِ المسلمةِ (التَّحريشُ) .

وبهذين العُنصَرَينِ يتحقَّقُ للشيطانِ في الحياةِ الإنسانيَّةِ الاحتناكُ والقُعودُ على الصِّراطِ المستقيمِ.

والبشريَّةُ كُلُّها رجالاً ونساءً هَدَفٌ تاريخيٌّ للشَّيطانِ منذ استخلافِ الحَقِّ سبحانه وتعالى لآدَمَ في الأرضِ ومنذ أن قال اللهُ تعالى للملائكةِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾، والاختلافُ والتَّفرِقةُ قد يُؤدِّي في دائرةِ الإسلامِ إلى الموتِ على غيرِ دِينٍ وخصوصاً إذا بلغ الأمرُ إلى الانحرافِ الفِكريِّ كالإلحادِ أو الرَّفضِ للدِّيانَةِ استحساناً لما عند الكُفَّارِ أو الصِّراعِ العَقَديِّ وما ترتَّبَ عليه من التَّكفيرِ والتَّشريكِ والقطيعةِ بين الأرحامِ وعُقوقِ الوالِدَينِ وغيرِها من الكبائِرِ.

وبطبيعةِ حالِ الإنسانِ فهو مخلوقٌ مُستجيبٌ ومُوجَّهٌ سواءً كان في دائرةِ الوَعيِ الإسلاميِّ الشَّرعِيِّ أو في دائرةِ الوعيِ الإنسانيِّ الوضعيِّ، وما من دعوةٍ في هذَينِ الجانِبَينِ إلا ولِكِلا الدائِرَتَينِ فيها موقِعٌ ومكانٌ، وقد اختلط الحابِلُ بالنَّابِلِ في هذا العصرِ الأخيرِ وهو الذي سمَّاهُ ﷺ بـ(عصرِ الغُثاءِ والوَهَنِ) و (عَصرِ تداعي الأُمَمِ) و (عصرِ نَزعِ المهابةِ من قُلوبِ الأعداءِ)[1]، وغيرِها من المُسمَّياتِ التي لا

---

(١) أخذا من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعته» ،قال : قلنا: يا رسول الله.. أومن قلة بنا يومئذٍ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير

إظهار العلم بالعلامات مهمة شرعية

تُعرَفُ ولا تُقرَأُ إلا بِدراسَةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وعلاماتِ السـاعةِ ، وبها يَتَبَيَّنُ بوضوحٍ موقِـعُ الرَّجُلِ وموقِعُ المرأةِ وموقِعُ الأُسـرَةِ وموقِعُ الأُمَّةِ وموقِعُ المرحلةِ أيضاً من مبدأِ السَّـلامةِ والالتزامِ به، ومبدأِ التَّحريشِ والارتكاسِ فيه، ولأجلِ هذا صار مِن الوُجـوبِ علينا بمكانٍ أن نُظهِـرَ ونُبرِزَ العِلمَ بالرُّكنيَّةِ الرَّابعةِ مـن أركانِ الدِّينِ كما دعا إلى ذلك سيِّدُ المُرسلين ﷺ في قولِه : «إذا لعنَ آخِرُ هذه الأُمَّةِ أوَّلها فمَن كان عنده عِلمٌ فليُظهِرهُ فإنَّ كاتِمَ العِلمِ يومئذٍ ككاتِمِ ما أُنزِلَ على مُحمَّدٍ»[1] ، وحديثُ: «إذا كَثُرت الفِتَنُ وسُبَّ أصحابي فمَن كان عنده عِلمٌ فليُظهِره»[2].

ومـن معاني هذا الحديـثِ ـ كما فهِمناهُ ـ وجوبُ إظهارِ العِلمِ بعلاماتِ السَّـاعَةِ وربطِهـا بأركانِ الدِّيـنِ وتأصيلِها كمنهجٍ لِفقـهِ الدَّعوَةِ وخِدمَةِ فُروعِهِ المُبيِّنَةِ سَـيرَ العلاماتِ والأشراطِ والفِتَنِ ومُضِلَّاتِ الفِتَنِ والملاحِمِ والبِشاراتِ وغيرِها، لأنَّها في أساسِها تخدُمُ فِقهَ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ على مدى تاريخِ البشريَّةِ منذ البَعثَةِ إلى قيامِ السَّاعةِ حيثُ يقولُ فيها ﷺ: «بُعِثتُ أنا والسَّاعةُ كهاتَين»[3] وهذا ما يُشيرُ إليه (فِقهُ التَّحوُّلاتِ)، وفِقهُ التَّحوُّلاتِ هو الفِقهُ المؤصَّلُ من الكِتابِ والسُّـنَّةِ لِدراسَـةِ كافَّةِ شُـؤونِ التَّحَوُّلِ في الحياةِ البشـرِيَّةِ من عهدِ آدَمَ إلى يومِ البَعثِ والنُّشُـورِ، ومادَّتُهُ:

قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»

ولكـن تكونـون غثاء كغثاء السيل ، ينتـزع المهابة من قلوب أعدائكـم ويجعل في قلوبكم الوهْن، قال : قلنا: يا رسول الله وما الوهْن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت». رواه أحمد بإسناد صحيح (٤٢٩٧) ، وانظر «موسوعة أحاديث الفتن» (٩٥٠) .

(١) إسـناده لا بـأس بـه ، «الكامل في الضعفاء» لابن عـدي (٥: ٣٥٥) وفي رواية أخرى رجال إسنادها ثقات: «فمن كتم حديثا فقد كتم ما أنزل الله» ، «تهذيب السنن» (١٠: ٩٣).

(٢) إسـناده ضعيـف ، تحقيـق «السـنن الـواردة فـي الفتـن» لأبي عمـرو الداني للمباركفوري (٢٨٧).

(٣) متفق عليه ، البخاري (٣٩) ومسلم (٢٠٤٢).

مـا تقرَّرَ في هذا الشَّـأنِ من كتابِ اللهِ تعالى ومِن سُـنَّةِ نَبيِّـهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وما خَدَمَهُ العُلَماءُ من تقسيمِ العلاماتِ والتَّصنيفِ فيها.

وقد كانَ ﷺ يعتني بالعلاماتِ ويُشيرُ إلى أهمِّيَّتِها، ومنها العلاماتُ التي تَخُصُّهُ فـي مجرى حياتِـهِ ﷺ، ومن ذلك ما رواه عبدُ الرَّزاقِ والشَّـيخانِ وابنُ سـعدٍ عن عائشـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ورواهُ غيرُهُـم « أنَّ رسـولَ اللهِ ﷺ منذ نزلت عليهِ السُّـورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ كان لا يقـومُ ولا يقعُـدُ ولا يذهَبُ ولا يجيءُ إلا قال ـ وفـي لفظ لعائشـة: كان يكثر في آخر عمره مـن قول ـ: سُـبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُـمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [1] .. قالت عائشـةُ: فقلتُ: يا رسـولَ اللهِ تُكثِر من قولِ: سـبحان اللهِ وبحمدِهِ أسـتغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه ما لـم تكن تفعَلُه قبل اليـومِ فقـال: « إنَّ ربِّي أخبرَني بعلامةٍ في أُمَّتي فقال : إذا رأيتَها فَسَـبِّح بحمدِ رَبِّك واستغفِرهُ ، فقد رأيتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ الخ السورة » [2] .

---

(١) مسند أحمد (٣٧٩١)

(٢) سـبل الهـدى والرشـاد (١٢: ٢٣٠) وأصـل الحديـث في البخـاري مع الفتـح (٨: ٩٥١-٩٥٢).

تَعۡرِيفُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا

تعريف الساعة

قال الرَّاغِبُ في «المفردات»: (السَّاعةُ جُزءٌ من أجزاءِ الزَّمانِ ويعبَّرُ بها عن القيامةِ، قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥])[1].

قلتُ ـ والله أعلم ـ: ويفهَمُ من سياقِ المعنى في الآية أنَّ الساعَةَ المُشارَ بها إلى يوم القيامةِ هي تعريفٌ لآخرِ لحظةٍ في الحياةِ البشريَّةِ، وأما لفظةُ السَّاعةِ ـ أي: الجزءُ من الوقتِ ـ فهو الوقتُ المُتَعارَفُ عليه من الزَّمنِ، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾[الروم: ٥٥].

فالأُولى في الآيةِ بمعنى القيامةِ والثانيةُ في الآيةِ بمعنى الوقتِ القليلِ من الزَّمانِ.

وقال بعضُهم: السَّاعةُ التي هي القيامَةُ على ثلاثِ أوجهٍ:

١- السَّاعَةُ الكُبرَى، وهي بَعثُ الناسِ للمُحاسبةِ.

٢- السَّاعةُ الوسطى، وهي موتُ أهل القَرنِ الواحِدِ، ويؤيِّدُهُ قولُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (كانَ الأعرابُ إذا قَدِمُوا على رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سألوه عن السَّاعةِ، متى السَّاعةُ فنظرَ إلى أحدثِ إنسانٍ منهم فقال: «إن يَعِش هذا لم يُدرِكهُ الهَرَمُ قامت عليكُم ساعتُكم»[2]، والمراد بِساعَتِهم: موتُهم ـ أي: ساعَةُ المخاطَبين آنذاك ـ كما جاء في فتح الباري.

---

(١) المفردات للراغب ص٢٤٨.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥١١) ومسلم (٧٥٩٨).

٣- الساعةُ الصُّغرَى، وهي موتُ الإنسانِ، فساعةُ كُلِّ إنسانٍ موتُهُ، وهي المشارُ إليها بقوله: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾[الأنعام ٣١].

أقسام القيامة

قـال القُرطُبِـيُّ رحمه الله: (قـال علماؤُنا : واعلم أنَّ كُلَّ مَيِّـتٍ فقد قامت قيامَتُه ولكنَّهـا قيامـةٌ صُغـرى وكُبرَى ، فالصُّغرَى هي ما يقومُ كُلُّ إنسـانٍ فـي خاصَّتِهِ من خـروجُ رُوحِهِ وفراقِ أهلِهِ وانقطاعِ سـعيِهِ وحصولِهِ على عَمَلِـهِ إن كانَ خيراً فخيرٌ وإن كان شَـرَّاً فَشَـرٌّ، والقيامَةُ الكُبرَى هي التي تَعُمُّ النَّاسَ وتأخُذُهم أَخذَةً واحدةً) اهـ.

قلـتُ ـ واللـه أعلم: ولا يُسـتبعَدُ في المعنى أن تكـونَ القيامَةُ الوُسـطى الموتُ الجماعِيُّ إذا أخذنا ما قاله العلماء بالمَعنَيَينِ السَّابِقَينِ، فيكونُ التَّرتيبُ على النَّحو التالي:

١ - القيامةُ الكُبرى هي التي تَعُمُّ الناسَ وتأخُذُهم أخذَةً واحِدَةً.(١)

٢- القيامةُ الوُسـطَى هي الهَرْجُ والمَوتُ المجهزُ المنصوصُ عليه في العلاماتِ وهو الإباداتُ الجماعِيَّةُ وهي من علاماتِ السَّاعَةِ.

٣- القيامةُ الصُّغرى هي خُروجُ رُوحِ المرءِ وفراقُ أهلِهِ.(٢)

وهـذه المعاني الثَّلاثَـةُ تدورُ حول مفهومِ السَّـاعَةِ التي هي اللَّحظَـةُ الأخيرَةُ في حياة البَشَرِيَّةِ التي لا زَمَنَ بعدها.اهـ.

---

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» نقلا عن «فقه أشـراط السـاعة» د. محمد أحمد إسماعيل المقدم ص١٥.

(٢) نقلـت الفكرة مع شـيء من التصرف من كتاب فقه أشـراط السـاعة للدكتـور محمد أحمد إسماعيل المقدم.

وقَسَّمَ الإمامُ البَرزَنجِيُّ في «الإشاعة» (ص٢٧) الأماراتِ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ :

انقسام الأمارات إلى ثلاثة أقسام

١- قسمٌ ظهر وانقضى وهي الأماراتُ البعيدةُ.

٢- قسمٌ ظهر ولم ينقضِ بل لا يزالُ يتزايدُ ويتكاملُ.

٣- وقسمٌ تعقُبُه السّاعةُ وهي الأماراتُ الكبيرةُ ..

كما تنقسمُ العلاماتُ في تعريفِها إلى أقسامٍ :

١- فِتَنٌ

٢- وأشراطٌ

٣- وعلاماتٌ

٤- وأماراتٌ وملاحِمُ

٥- وبِشاراتٌ

معنى الفتن

١- الفِتَـنُ: إمّا (فِتَنٌ أو مُضِلّاتُ فِتَـنٍ)، والمقصودُ بالفِتَنِ هي الابتلاءاتُ العامّةُ التـي تُصيـبُ الفردَ أو الأُمَّـةَ ويكونُ بها حصـولُ انحرافٍ أو تحـوُّلٍ مُخالِفٍ لأمرِ الشّـريعةِ، ومـن الفِتَـنِ ما هو اختبارٌ للمسـلمِ ينـالُ به الثَّـوابَ والأجرَ عنـد صبرِهِ واحتسـابِه للـهِ تعالى كما هو في فِتنَةِ الأهلِ والمالِ والوَلَـدِ ، ومن هذا النَّموذَجِ ما أشار اللهُ به للأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ وقال تعالى لسَيِّدِنا موسى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾[طه: ٤٠].

معنى مضلات الفتن

وأمـا مُضِـلّاتُ الفِتَـنِ فهي ما خرج به الفـردُ أو الجماعةُ أو الأُسـرةُ أو القبيلةُ أو الأُمَّةُ عن جادّةِ الطَّريقِ المشـروعةِ إلى خِدمةِ الشَّـرِّ والدَّجّالِ والشَّـيطانِ، وقد أمر النَّبيُّ ﷺ بالتعوُّذِ من مُضِلّاتِ الفِتَنِ ومن فِتنَةِ المحيا والمماتِ ومن فِتنَةِ المسـيخِ الدَّجّـالِ ، وكان يقـولُ ﷺ فـي بعض أحاديثِـهِ الحاوِيَـةِ على الدُّعـاءِ «وإذا أردتَ

بعبادِك فِتنَةً فاقبِضني إليك غيرَ مفتونٍ»[1].

٢- الأشــراطُ: جمعُ شَـرَطٍ (بفتحتين) وهي العلامَةُ ،و أشـراطُ الشَّــيءُ أوائِلُهُ(وأشراطُ السّاعةِ علاماتُها) قال تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ ﴾[محمد :١٨].

معنى الأشراط

قال الحافظُ ابن حجرٍ : (هي العلاماتُ التي يعقُبها قيامُ السّاعةِ)[2].

وقـد أطلقَ بعضُهم على الأشـراطِ اسـمَ الآيـاتِ، والآياتُ هي الأمـاراتُ الدَّالَّةِ على الشـيءِ كالأماراتِ التي تُنصَبُ في الصَّحراءِ دالَّةً على الطَّريقِ أو توضعُ على الشَّاطيءِ لِتهدي السُّفُن . اهـ[3] .

ووصفت أيضا بلفظ المشـاريط في بعض روايات الحديث، ففهي مسـند أحمد (٣٨٦) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سـئل رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن السـاعة فقال: علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو؛ ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها.

وبالجملـةِ فالمقصـودُ بهـا : الظاهـرةُ الكونيَّـةُ أو الظاهـرةُ المرحليَّـةُ المرتبطـةُ بالتَّحوُّلاتِ المنصوصِ عليها في الأحاديثِ الشَّريفةِ.

٣- العلاماتُ: جمعُ علامةٍ، وهي السِّمَةُ المُمَيِّزَةُ سُلوكَ فردٍ أو جماعةٍ أو مرحلةٍ بما يتطابقُ مع ما ذَكَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أحاديثِ علاماتِ السّاعةِ.

معنى العلامات

٤- الأمـاراتُ: جمعُ أمارةٍ، والأمارةُ هي الحَدَثُ المطابـقُ لحالةٍ أو كيفيَّةٍ أخبرَ

معنى الأمارات

(١) سـنن الترمذي (٣٢٣٥) ، صحح إسـناده جملة من المحدثين وضعفه آخرون، انظر تحقيق «الطرق الحسان» لابن رجب لأبي أنس عادل بن سعد محمد مطاوع ص ١٣-١٥ .

(٢) فتح الباري ١٣/ ٧٩.

(٣) ص١٣ المصدر السابق بتصرف .

عنها ﷺ في «شؤون السّاعةِ وتحوُّلاتها» .

معنى البشارات

٥- البِشاراتُ: هي التَّنفُّساتُ المرحليَّةُ التي يُجري اللهُ فيها نُصرتَهُ وتأييدَهُ لعباده الصّالحين وتمكينِهم في الأرضِ. كظُهورِ الإسلامِ في عصرِ الرِّسالةِ ، وخلافةِ عُمرَ بن عبد العزيزِ في بني أُمَيَّةَ ، وصُلحِ الإمامِ الحَسَنِ بعد احتدامِ الأمرِ ، وظهورِ الخلافةِ العثمانيَّةِ بعد تَمَزُّقِ القرارِ الإسلاميِّ ، وظهورِ صلاح الدِّين الأيُّوبيِّ وهزيمته للصَّليبيِّين ، وظهورِ الإمامِ المهديِّ بعد شُمولِ الجَورِ في العالم .

وفائدةُ هذه التَّعريفاتِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ ضبطُها الشَّرعيُّ لظواهرِ المراحلِ ، وتحديدُ هُويَّةُ التَّحوُّلاتِ وعلاقتِها بالسَّلامةِ المرجُوَّةِ أو العكسِ من ذلك، فحيثُما كان نَصُّ التَّحوُّلات يُشيرُ إلى فردٍ أو جماعةٍ أو منهجٍ في سَيرِ الأزمنةِ والأمكنةِ ويصفُه بالسَّلامَةِ أو التَّجديدِ أو العَدلِ فالأمرُ كذلك، وإلا فإنّ دعوى السَّلامِ من فردٍ أو جماعةٍ مردودةٌ عليهم بِحُكمِ النَّصِّ الذي يُفَسِّرُ المراحلَ ومَن فيها.

فالخوارِجُ مثلاً كانوا يَدَّعون السَّلامةَ ويَرَون في مواقِفهم العِزَّةَ والنُّصرَةَ للهِ ولرسولِه ﷺ، وماتوا وهم على تلك الدَّعوى الكاذِبةِ، لكنَّ نُصوصَ التَّحوُّلاتِ وفِقهَ علاماتِ السّاعةِ يُبرِزُ للمُتأمِّلِ كَذِبَهم وعدمَ سلامَتهم وجُنوحَهم عن الحَقِّ وتَعدِّيهم على أهلِه، وهكذا في أشباهِهم وأمثالِهم في كُلِّ مرحلةٍ وعصرٍ وزَمَنٍ ، والقولُ الفَصلُ يرجعُ إلى ما قاله ﷺ من العلاماتِ والظواهِرِ، وبها يكونُ الحَقُّ جَليّاً والباطلُ قَصِيّاً على مَمَرِّ الأزمانِ، وإلى أن يقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

مِحْوَرُ ٱلْمَوْضُوعِ حَدِيْثُ جِبْرِيْلَ «أُمُّ السُّنَّةِ»

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا نحن جُلُوسٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ شديدُ سوادِ الشَّعَرِ لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفرِ ولا يعرفُهُ منّا أَحَدٌ، فأسندَ رُكبَتَيهِ إلى رُكبَتَيهِ ووضعَ يديهِ على فَخِذَيهِ وقال: يا مُحَمَّدُ أخبِرني عن الإسلامِ؟

دراسة حديث جبريل

قال: «أن تشهدَ أن لا إله إلا اللهُ وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ و إقامُ الصلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ وصومُ رمضانَ وحجُّ البَيتِ من استطاعَ إليه سبيلاً»، قال : صدقتَ. قالوا: فعجِبنا له يسألُهُ ويُصدِّقُه ، قال : أخبرني عن الإيمانِ؟

قال: أن تؤمِنَ باللهِ وملائكتهِ وكُتُبِه ورسلِه وباليومِ الآخِرِ وبالقَدَرِ خيرِهِ وشَرِّهِ من اللهِ تعالى»، قال: صدقتَ ، قال: فأخبِرني عن الإحسانِ؟، قال: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ فإن لم تكن تراهُ فإنَّه يراكَ » ، قال: صدقتَ، قال: أخبِرني عن السَّاعةِ، قال: «ما المسؤولُ عنها بِأعلَمَ من السَّائِلِ»، قال: أخبِرني عن أماراتِها؟، قال: «أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتها ، وأن ترى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاء يتطاولون في البنيان ».

ثم انطلقَ فَلبِثتُ مَلِيّاً ، فقال: «يا عُمرُ أتدري مَن السّائلُ» قالَ: قُلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال : «ذاك جبريلُ أتاكُم يُعلِّمُكم أمورَ دينِكم ».

وفي لفظِ مُسلمٍ وأصحابِ السُّنَنِ : « فإنَّهُ جِبريلُ أتاكم يُعلِّمُكم دينكم » [١].

وفي روايةٍ: «هذا جبريلُ جاءَ لِيُعَلِّمَ الناسَ دينَهم» [٢].

---

(١) مسلم (١٠٢).

(٢) البخاري (٤٧٧٧).

وفـي روايةٍ قـال: «سَـلُوني» ، فهابُوه، فجاء رجـلٌ فجلس عند رُكبَتَيـهِ، فقال: يا رسـولَ اللـهِ ما الإسـلامُ؟ وذكر نحوه إلى أن قال : «هذا جبريـلُ أراد أن تَعلَموا إذا لم تَسأَلوا» [1].

وفـي روايةِ أحمدَ من طريقٍ آخـرَ «هذا جبريلُ جاءَ لِيُعلِّمَ النّـاسَ دينَهم ، والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه ما جاءني قَطُّ إلا وأنا أعرِفُه إلا أن يكون هذه المَرَّةَ»[2].

وفي الطبراني الكبير عن ابن عمر (ما جاءني في صُورَةٍ قَطُّ إلا عرفتُهُ إلا في هذه الصُّورةِ)[3] .

ولا شكَّ أنَّ قراءَتنا لحديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كما هو بين أيدينا يفتَحُ لنا آفاقاً واسعةً مـن التأمُّلِ والمُتابَعَـةِ، التي تبلُغُ بنا في النهايةِ إلى فهمِ التَّرابُطِ الموضوعِيِّ في هذا الحديـثِ من كُلِّ جوانبه ، وما يترتَّـبُ على هذا التَّرابُطِ من أهمِّيَّةٍ مُحقَّقَةٍ لعلاماتِ السّـاعةِ ودخولِهـا فـي العديدِ من أبـوابِ وفُصـولِ العلـومِ والتَّقريراتِ الشَّـرعيَّةِ المُتداوَلَةِ .

ولعلَّ مِن أهمِّ ما أوضحَهُ الحديثُ لنا :

١- الصِّفَةُ التي ظهرَ بها جبريلُ على القومِ صورةً ولباساً وكيفيَّةً وسُلوكاً.

٢- أسلوبُهُ في الجلوسِ والمخاطبةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

٣- كونه يسألُهُ ويصدِّقُهُ.

٤- قولُـه: ليـسَ المسـؤولُ عنهـا بأعلـمَ من السَّـائلِ، وفي هـذه اللفظـةِ إيضاحٌ

---

(١) مسلم (١٠٨).

(٢) مسند أحمـد (١٧٦٣١)، وقـال الهيثمـي فـي «المجمع» (١ : ٤٥): وفي إسـناده شـهر بن حوشب.

(٣) مجمع الزوائد (١ : ١٢).

للسـامعين عـن هُوِيَّـةِ جبريـلَ فـي علمِهِ بالأمـرِ أو عَـدَمِ عِلمِـه، وكشـفٌ لحقيقةِ المخاطِبِ لرسولِ اللهِ ﷺ .

٥- تأكيدُ طَلَبِهِ معرفةَ الأماراتِ وليسَ معرفةَ نهايةِ الكونِ.

٦- تحديدُ العلاماتِ بِنموذَجَينِ فقط: أن تَلِدَ الأَمَةُ.. وأن ترى الحُفاةَ.

٧- انطلاقُ جبريلَ بعد هذا البيانِ دون إيضاحاتٍ إضافيَّةٍ.

٨- جهلُ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم بوقائِعِ الأمرِ المشارِ إليه في جُملَةِ الأحاديثِ حتى برز سُؤالُ النَّبيِّ ﷺ لسيِّدنا عُمَرَ بقوله: أتدري مَن السّائلُ؟.

٩- ردُّ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بقوله: اللهُ ورسولُه أعلَمُ.

١٠- ويُستفادُ من هذا سكوتُ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم عن مُجرياتِ الأمرِ كُلِّه وعَدَمُ مُسـاءَلَةِ بعضِهـم البعضَ في شـخصِيَّةِ جِبريـلَ أو ما طرأَ عليهم مـن غفلةٍ في عدم معرفتِه، مع ظُهورِ الإشـاراتِ بحقيقتِه، مع أنَّ بعضَ الرِّواياتِ تُشـيرُ إلى أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سأل عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بعد ثلاثةِ أيّامٍ من مُحادثةِ جبريلَ.

١١- تأكيدُ رسولِ اللهِ ﷺ على أن مُهِمَّةَ جِبريلَ في هذا الحديثِ وما قيل فيه له وظيفةٌ محدَّدَةٌ، وهو تعليمُكُم أمرَ دينِكُم، أو (يُعَلِّمُكُم دِينكُم).

١٢- واللَّفـظُ النَّبَـوِيُّ مـن قولِـه: (يُعلِّمُكم أمرَ دينِكـم) فيه إشـارةٌ واضحةٌ إلى تمـازُجِ (الأركانِ الأربعةِ المذكورةِ في الحديـثِ) وأنَّها كُلَّها أمورُ دينِ الأمةِ، ولا فصلَ بين رُكنٍ وآخرَ.

١٣- ولأنَّ هذه الحقيقةَ لا غبارَ عليها نَجِدُ العُلومَ الشّرعيَّةَ المخدومةَ في تفصيلِ الأركانِ الثلاثة متمازِجَةً كُلَّ التَّمازُجِ بالرُّكنِ الرَّابعِ ومُتَداخِلٌ بعضُها في بعضٍ برغم أنَّ العُلمـاءَ قـد تركوا حَيثِيَّةَ الرُّكنِ الرَّابعِ بعيداً عن الأركانِ الثلاثةِ الأخرى، ولكنه فـرَضَ موقِعَه ومكانـه على التَّدوينِ وعلى أهل الأُصولِ والفُروعِ، فما من بابٍ من

أبوابِ العلمِ إلا وأحاديثُ علاماتِ السّـاعةِ عالِقَةٌ به مُرتَبِطَةٌ بتفصيلاتِه، ومن ذلك ما نَجِدُهُ من اسـتدلالِ الفقهاءِ في كُتُبهم بأحاديثَ تَخُصُّ علاماتِ السّـاعةِ كما هو في:

- بابِ العِلمِ
- كتابِ الحدودِ
- كتابِ الذِّكرِ
- كتابِ المُعاملاتِ
- عِلمِ التَّفسيرِ
- عِلمِ العقائدِ والتَّوحيدِ
- أبوابِ الرُّؤيا
- أبوابِ الجهادِ والغزوِ في سبيلِ اللهِ
- أبوابِ الفِتَنِ
- بابِ الزَّكاةِ

فـإذا مـا اسـتَدَلَّ العُلمـاءُ لواحِدٍ من هـذه الأبوابِ بحديـثٍ من أركانِ الإسـلامِ والإيمانِ والإحسانِ شَفَعوه بِجُملةٍ من الأحاديثِ المُعبِّرَةِ عن نقضِ العِلمِ أو قبضِهِ أو كثرَةِ الجهلِ وفُشُـوِّ الزِّنا وقِلَّةِ الرِّجال وكثرَةِ النِّساءِ، وعند الحديثِ عن الأذكارِ تأتـي أحاديـثُ الاسـتعاذةِ مِن الفِتَـنِ المُضِلَّـةِ والفِتنَةِ فـي المالِ والأهـلِ والولدِ، والاستعاذَةُ من فِتنَةِ المحيا والمماتِ، ومن فِتنَةِ المغرَمِ والمأثَمِ ومن فِتنَةِ الدَّجّالِ، وفي المعاملاتِ يأتي خلال دُروسِ البُيوعِ ومعاملاتِه في أحاديثِ الرِّبا والغَشِّ وما يؤولُ إليه المسلمون من أصنافِ المعاملاتِ الحرامِ التي لابُدَّ من ذكرِها في نماذِجِ المعاملاتِ.

وعند دُروسِ الحدودِ الشرعيَّةِ تأتي جُملةُ الأحاديثِ التي تتناولُ إسقاطَ الحدودِ فـي آخـرِ الزَّمانِ والتَّحايُلِ على الرِّبا وعلى الخمرِ بتسـمِيَتِهِ بغيرِ اسـمِه ، وإلى غير ذلك.. وكم سـيكونُ مُفيـداً لو تجرَّدَ بعضُ طَلَبَـةِ العِلمِ للنَّظَرِ فـي مواضيعِ الثَّلاثَةِ الأركانِ الشَّرعِيَّةِ وما جَمَعَتهُ أحاديثُ الثَّوابِتِ في ضبطِ أركانها الشرعيَّةِ وما تناولَهُ العُلماءُ من التَّقعيدِ والتَّفصيلِ في هذه الأبوابِ، وحصرِ أحاديثِ علاماتِ السّـاعةِ وفِقهِ التَّحوُّلاتِ في كُلِّ بابٍ وفَصلٍ، وعلاقةِ العلاماتِ بهذه الأحكامِ والتَّشريعاتِ، ليتأكَّدَ للأُصوليِّين ولأصحابِ الفُروعِ حُضورُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ في كافَّةِ نماذِجِ العِلمِ وأبوابِه.

ومِـن جانبٍ آخرَ نَجِـدُ فِقهَ التَّحوُّلاتِ والعلمِ بعلاماتِ السّـاعةِ يتداخَلُ معَ علمِ الإحسـانِ تداخُلاً تامّاً بحيثُ يصيرُ علمُ الإحسـانِ للعالم بعلاماتِ السّـاعةِ عامِلاً مُرجِّحـاً لحُسـنِ التَّصرُّفِ وطُـولِ النَّظَرِ فـي مُجرياتِ القضـاءِ والقَـدَرِ ، لأنَّ عِلمَ الإحسـانِ هو عِلـمُ التَّحقُّقِ بِثَمَرات الطاعَةِ والعبادَةِ وسـلامةِ النظرِ للعبادِ بِحُسـنِ الخُلُـق، وكان غالـبُ عُلماءِ فِقهِ التَّحـوُّلاتِ من رجالِ علمِ الإحسـانِ في عَصرَي صدرِالإسـلامِ والخلافةِ الرَّاشِـدَةِ ، ومِمَّـن يُقتَدى بهم ويُهتَـدى بهديِهم، فما ترى سُـلوكَهم ومواقِفَهـم إلا شـاهِدَةً علـى عُمـقِ أَدَبِهم مع مُـرادِ الله في خلقِـه ، بينما نَجِـدُ أقمـاعَ الفِتَـنِ ورُموزَ الصِّـراعِ هم من حَمَلَةِ القُـرآنِ والسُّـنَّةِ أحياناً ولكن من غيرِ ارتباطٍ بِعِلمِ الإحسـانِ ولا بعلمِ علاماتِ السّـاعةِ، ممّا يجعلُهم هدفاً للشَّيطانِ والتَّحوُّلاتِ ومُضِلّاتِ الفِتَنِ ، بل سبباً في الاعتراضِ على اللهِ وعلى قضائِهِ وقَدَرِه في مُجرياتِ التَّحوُّلِ والتَّغَيُّرِ.

وحتّـى لا يطـولَ بنا التأمُّلُ والتَّدَبُّـرُ في مِحوَرِ الموضوعِ نبدأُ فـي تناوُلنا لمفهومِ الرُّكنِيَّةِ التي نحنُ بِصَدَدِها ، واللهُ المُوفِّقُ.

أركانُ الدِّينِ الثَّلاثَةُ وعلاقَتُها بالرُّكنِ الرَّابعِ

الوحدة الموضوعية بين الأركان الأربعة

مِـن واجباتِ المُسـلمِ الموقِنِ بأمرِ الدِّينِ أن يعلم بـأنَّ أركانَ الدِّينِ أربعةٌ بِاعتبارِ وَحدَتِهـا الموضوعِيَّـةِ فـي الحديـثِ الآنفِ ذكـرُهُ، و تنقَسِـمُ إلى قِسـمَينِ: ثوابتٍ ومُتغيِّراتٍ.

فالثَّوابِتُ هي ما اشتملت عليه أركانُ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ وما تفرَّعَ عن هذه الثَّلاثَةِ من عُلومِ العقيدةِ والشَّريعَةِ ومراتبِ السُّلوكِ.

والمُتَغيِّراتُ : ما اشتمل عليها العلمُ بعلاماتِ السّاعةِ. على أوجُهِها الثَّلاثَةِ :

الثوابت والمتغير

١- مُتَغَيِّراتٌ على عَهدِ الرِّسالَةِ.

٢- مُتَغَيِّراتُ ما بعد عهدِ الرِّسالةِ إلى قِيامِ السّاعةِ.

٣- مُتَغيِّراتُ ما قبلَ الرِّسالَةِ المُحَمَّدِيَّةِ تصاعُدِيّاً إلى عهدِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وعلى هذا التَّرتيبِ الشرعيِّ تُعتَبَرُ أركانُ الدِّينِ أربعةً ـ كما هو في النَّصِّ ـ وليسَ ثلاثةً كما يتناوَلُها بعضُ العُلماءِ ، ودليلُنا على رُباعِيَّةِ الأركانِ (الوِحدَةُ الموضوعيَّةُ) من لَفظِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ حيثُ ورد في النَّصِّ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد ذهابِ جِبريلَ: يا عُمَرُ أتدري مَن السَّـائِلُ؟ قال: اللهُ ورسـولُه أعلَمُ، قال: ذاك جِبريلُ أتاكم يُعَلِّمُكم أمورَ دينِكُم، وفي روايةٍ (يُعلِّمُكم دينكم). أخرجه مسلم وأصحاب السنن.

فاللَّفـظُ النَّبوِيُّ في هذا النَّصِّ يأتي بعد أربعةِ ثوابتَ وليس ثلاثةً، وبهذا يَتأَكَّدُ أن أركانَ الدِّيـنِ ـ كمـا يُعبَّرُ عنهـا ـ أو أصولَ الدِّينِ أو ثَوابِـتَ الدِّين أربعةٌ كما هو في سياقِ الحديثِ الشَّريفِ.

الأصول الثلاثة وتدرج المكلف فيها

فالأصولُ الثَّلاثَةُ الإسـلامُ والإيمانُ والإحسـانُ أصولٌ ثابتـةُ المدلولِ والمعنى

يتـدرَّجُ بها المُكلَّفُ في شُـؤونِ العقيدةِ والشَّـريعةِ ومراتِبِ السُّـلوكِ وينشَـأُ عليها الأجيالُ باعتبارِها العِلمَ الفَرضِيَّ الواجِبَ.

أمـا الأصلُ الرَّابِـعُ (فمُتَغَيِّرٌ) أي: إنَّهُ غيرُ مُرتَبِطٌ بِمُتَعلَّقـاتِ التَّدرُّجِ في التَّكليفِ وإنَّما يختَصُّ بأمرَينِ:

الركن الرابع هو كشف مجريات التحولات

١- كشـفِ مُجرياتِ التَّحوُّلاتِ الكونيَّةِ والعلاماتِ والأشـراطِ الكائنةِ بأمرِ اللهِ قبل قيامِ السّاعةِ.

٢- سـردِ وتعليـلِ الحوادِثِ ومـا يرتَبِطُ بها من صِحَّةٍ وفِسـادٍ، ومـا يترتَّبُ على ذلـك من إشـاراتٍ نبويَّةٍ ودلالاتٍ شـرعيَّةٍ للتَّمييزِ بيـن أحوالِ الكُفَّـارِ والمُنافِقين وأشباهِهم وموقِعِهم من التَّحوُّلاتِ، وبين المسلمين المؤمنين وموقِعِهم أيضاً من السَّلامةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

ولأهمِّيَّـةِ حديـثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومـا تَطَرَّقَ إليه من شُـؤونِ الإسـلامِ والإيمانِ والإحسـانِ والعلـمِ بعلامـاتِ السّـاعةِ صـار من الـلازمِ علـى المُسـلمِ أن يعرِفَ هـذه الأركانَ الأربعـةَ معرِفَـةً تتـلاءَمُ مـع أهمِّيَّتهـا وارتبـاطِ بعضِها بِبَعـضٍ، فهي أسـاسُ مُقوِّمـاتِ الأمانةِ التي قال عنها سـبحانه وتعالـى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وما اعتنى فِقهُ التَّحوُّلاتِ بالأركانِ الأربعةِ مُجتَمِعَةً إلا لإبرازِ خُطُورةِ الفَصلِ بين الأركانِ الثّلاثةِ الثابتةِ والرُّكنِ الرَّابعِ المُتغَيِّرِ ، فالإسـلامُ والإيمانُ والإحسـانُ عبرَ تاريخِ البناءِ الشَّـرعِيِّ للدِّيانَةِ تعرَّضَ لِنكساتٍ وأَزَماتٍ كالقَبضِ والنَّقضِ والخِداعِ والتَّحريفِ والتَّسـييسِ وما شابه ذلك، ممَّا أوجَدَ هُوَّةً سحيقةً بين المسلِمِ مع أخيه

المُسلِمِ في قضايا فَهمِ الإسـلامِ كعَقيدَةٍ ودِيانَةٍ وبين المُؤمنِ مع أخيه المُؤمنِ في مفهوم الإيمانِ كتصديقٍ باليقينيّاتِ الكونيَّةِ التي لا تقبَلُ الشَّكَّ ولا النَّقضَ ، ومثلُهُ في مفهومِ الإحسانِ كزُهدٍ وعُلومٍ ذوقِيَّةٍ وقِيَمٍ وآدابٍ، وهي التي صارت في زمانِنا مُستقبَحَةً في صُوَرِها وحقائِقِها العَمَلِيَّةِ المُمارَسَةِ لدى البعضِ وسبباً في النِّزاعِ المُفتَعَلِ .

الركن الرابع وأهمية دراسته

ولهـذا فإنَّ دِراسَـةَ الرُّكـنِ الرَّابعِ مـن أركانِ الدِّين هي إعادَةُ اعتبارٍ شـرعِيٍّ لهذه الثَّوابِتِ على الوجهِ الأصَحِّ والأتَمِّ وتَبيينٌ مُدلَّلٌ على مواقِعِ الجُنوحِ في المسلمين بابتعادِهم عن معرِفَةِ هذه الثَّوابِتِ.

ومـا ترتَّبَ علـى هذا البُعـدِ من تعليـلٍ خاطيءٍ فـي الحاضرِ والماضي لسُـلوكِ المسـلمين ضِـدَّ بعضِهـم البعـضِ وما صـدر ويصـدُر من بعـضِ أهلِ العِلـمِ ضِدَّ مخالِفِيهم في المذهبِ والنَّهجِ والرُّؤى.

فعند المقارنةِ بين علاماتِ السّاعةِ التي أخبرَ عنها ﷺ وبين واقعِ الأُمَّةِ في نقائضِ العقائـدِ والعـاداتِ والعباداتِ والقِيَمِ والآدابِ نَجِـدُ أنّ ما أخبرَ عنه ﷺ في الرُّكنِ الرَّابِـعِ ومـا تفرَّعَ عنه حقيقـةٌ واقعةٌ في كافَّةِ شُـؤونِ الأُمَّةِ مع جهلٍ بَيِّنٍ بالأسـبابِ والنَّتائِجِ، وذلك لِفُقدانِ دراسـةٍ فِقهِ التَّحـوُّلاتِ وعَدَمِ الرَّبطِ بين الأركانِ الأربعةِ ، لهذا غابَ عن عُقولِ العُلماءِ ـ فضلاً عن الدَّهماءِ ـ معرِفَةُ رُموزِ الانحِرافِ ومواقِعِ الانحدارِ وأسبابِها وحيرَةُ أهلِ اللهِ وأهلِ العِلمِ في تفسيرِ انحرافاتِ وفسادِ شُؤونِ بعـضِ ما يـدورُ في الواقـعِ المُعاصِرِ، مع صُعوبـةِ الرَّبطِ بين الأماراتِ والأشـراطِ والظواهرِ والوقائعِ الكائنةِ المُطابِقَةِ لما قاله ﷺ.

إنَّ القـراءَةَ الواعِيَـةِ لِفقهِ التَّحوُّلاتِ المُختَصِّ في تحليـلِ الرُّكنِ الرَّابعِ من أركانِ

الدِّينِ (علاماتِ السّاعَةِ) علمٌ شرعِيٌّ واسعُ المدى ومُدلَّلُ البراهينِ، ومبيِّنٌ المسافَةَ الزَّمَنِيَّةَ والمسافَةَ المعنَوِيَّةَ التي انحدرت فيها الأُمَّةُ عن ثوابتِ الإسلامِ وثوابتِ الإيمانِ وثوابتِ الإحسانِ، ومبيِّنَةٌ أيضاً البدائِلَ السَّيِّئَةَ التي وصلت إليها أُمَّةُ القُرآنِ مِثلَ غيرِها من الأُمَمِ من انحدارٍ في كافَّةِ شُؤُونِ حياتِها الدِّينِيَّةِ والدُّنيوِيَّةِ .

رؤوس الأقلام المبينة مهمات الركن الرابع

ولأجلِ دِراسَةِ هذا الأمرِ بالتَّفصيلِ لابُدَّ من وضعِ رُؤوسِ الأقلامِ المُبيِّنَةِ مُهِمّاتِ دِراسَةِ الرُّكنِ الرَّابعِ وما يترتَّبُ عليه ومنها:

١- الدِّراسَةُ الواعِيَةُ لحديثِ جبريلَ، وخاصَّةً في ركنِهِ الرَّابعِ ليُعرَفَ بذلك موقِعُ الثَّوابتِ وأهمِّيتُها ، ثم معرِفَةُ نقائِضِها من الرُّكنِ الرَّابعِ المُتَغيِّرِ.

٢- دراسةُ الأحاديثِ الخاصَّةِ بالأجيالِ المُتحَوِّلَةِ وعلاقتُها بمفهومِ حديثِ جبريلَ،وقولُه ﷺ : (أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها) .أو (رَبَّها) في روايةِ مُسلمٍ .

٣- دراسةُ شُؤونِ الحضارَةِ المادِّيَّةِ الطَّاغِيَةِ على المجتمعاتِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ بالخُصوصِ وموقِعِها من حديثِ جبريلَ في قولِه ﷺ: (أن ترى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاةِ يتطاولون في البُنيانِ) وما تفرَّعَ عن هذا الحديثِ من العلاماتِ والأماراتِ وغيرِها من الأحاديثِ التي تربِطُ بين الدُّنيا والتَّوسُّعِ في الأخذِ بها وما يترتَّبُ على ذلك من انحرافاتٍ ودمارٍ وهلاكٍ مُحَقَّقٍ.

٤- دراسةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ في الآياتِ الواجبِ العلمُ بها والأحاديثِ المنصوصِ عليها في سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ كعلاماتٍ كُبرَى ووُسطَى وصُغرَى.

وقد خدم هذا البابَ الإمامُ البَرزَنجِيُّ في كتابه «الإشاعة» ، كما فَصَّلَ كثيراً من هذه الأقسامِ إجمالاً العديدُ من عُلماءِ الحديثِ في كُتُبِ الصِّحاحِ والمسانيدِ والسُّنَنِ وبَوَّبوا لها أبواباً خاصَّةً منها : بابُ علاماتِ السّاعةِ، باب الفِتَنِ والملاحم،

وغيرُ ذلك ، كما أفرد بعضُ العلماءِ كنُعَيمِ بنِ حمَّادٍ كتاباً خاصّاً يحمِلُ اسمَ (الفِتَنِ) وكتابُ أبي عمرٍو الدَّاني المعروفِ «بمعالِم الفِتَنِ» وغيرها .

إلا أنَّ هذه الكُتُبَ جمعت بين الصَّحيحِ والحَسَنِ والضَّعيفِ والَمتروكِ ، ويمكِنُ الاستفادَةُ من هذه الكُتُبِ بمجموعِها لوضعِ أُسُسِ فِقهِ عِلمِ التَّحوُّلاتِ بما يُناسِبُ كُلَّ مرحلةٍ وتحوُّلٍ مع مراعاةِ مراتِبِ الأحاديثِ من حيثُ الصَّحيحُ والحَسَنُ والضَّعيفُ .

أركانُ العِلمِ بِعلاماتِ السّاعةِ[1]

أركان العلم بعلامات الساعة

أركانُ العِلمِ بِعلاماتِ السّاعةِ ثلاثةٌ :

العلم الواجب

الرُّكنُ الأوَّلُ العِلمُ الواجِبُ بالعلاماتِ الكُبرَى ، وهي العلاماتُ العَشرُ الكُبرى، وسيأتي تفصيلُها.

العلم اللازم

الرُّكنُ الثَّاني العِلمُ اللَّازِمُ بالعلاماتِ الوُسطى، وهي العلاماتُ الحاملةُ صِفَةَ التَّوسُّطِ الزَّمَنِيِّ بين ما سبقَها مِن بعضِ العلاماتِ الصُّغرى وما يأتي بعدَها من العلاماتِ الكُبرى، وسيأتي تفصيلُها .

العلم المطلق

الرُّكنُ الثَّالِثُ العِلمُ المُطلَقُ بالعلاماتِ الصُّغرى ، وهي مُجمَلُ العلاماتِ المُتَنوِّعَةِ التي أخبرَ عنها النَّبيُّ ﷺ مُبتَدِئةً بما قبل ميلادِه ونهايةً بالنَّفخِ في الصُّورِ.. وقيامِ السّاعةِ، وسيأتي تفصيلُها ..

---

(١) لما صار العلم بعلامات الساعة أمرا لازما باعتبار موقعه من الأركان فإننا نحتاج إلى خدمة هذا الركن الرابع وإعادة تأصيل مواضيعه الكثيرة ليصبح علما مستقلا من كل الوجوه، له أركانه وثوابته وتفريعاته، فكان بادئ ذي بدء النظر في العلامات ذاتها وتقسيمها باعتباره مادة العلم الواسع بهذه الأمور، وقد رجعنا إلى ما كتبه العلماء في هذا الصدد فلم نجد شيئا يبرز مفهوم الركنية لدى أحد منهم ، فأخذنا على عاتقنا وضع هذا التعليل خدمة للإسلام والمسلمين بعد الاستقراء التام للعلامات.

الفَرقُ بين السّاعةِ وعلاماتِها

الفرق بين الساعة وعلاماتها

جـاء فـي حديثِ جِبريـلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الـذي رواهُ سـيِّدُنا عُمَـرُ قولُـه ﷺ مُجيباً على جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما سـألَهُ: (أخبِرني عن السّـاعةِ) قال: ما المسـؤولُ عنها بِأعلمَ مِن السَّائلِ. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ فَهِمَ من سُؤالِ جبريلَ ما يتعلَّقُ باليومِ الآخِرِ، وهو النَّفخُ في الصُّورِ وما بعدَهُ، فكان جوابُهُ أنَّ هذا الأمرَ لا يعلَمُهُ إلا اللهُ ، فسألَه جِبريلُ مرَّةً أخرى عن الأمرِ المقصودِ من السُّؤالِ وهو ما يتعلَّقُ بتحوُّلاتِ مـا قبـلَ اليومِ الآخرِ حيثُ قال: (أخبرني عن أماراتِها؟) فأجابَ النَّبيُّ ﷺ عن هذه الجُزئيَّةِ بِعَلامَتَينِ:

إذا ولدت الأمة ربتها / ربها

- (أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها أو رَبَّها) [1].
- (أن تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاةِ يتطاولون في البُنيانِ).

وبهاتَينِ العلامَتَينِ وما دار في معناها تقرَّرَ مفهومُ العِلمِ بما بين يَدَي السّـاعةِ من تحـوُّلاتٍ وأشـراطٍ من جهـةٍ، فالعلامَةُ الأولى هي مـا عَبَّرَ عنه ﷺ بـأن تَلِدَ الأَمَةُ ربَّتَهـا ، وفـي الرِّوايَـةِ الأخـرى «رَبَّهـا»، ولمعنى هذه العبـارةِ كلامٌ وشـرحٌ طويلٌ مُفَصَّلٌ يختَصُّ بمفهومِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ، ومُجمَلُهُ :

الأَمَة في فقه التحولات

أنَّ لفظَةَ الأَمَةِ لفظٌ يُطلَقُ على كُلِّ امرأةٍ، ولفظَةُ (رَبَّتَها) يُطلَقُ على كُلِّ امرأةٍ تمتَلِكُ السِّـيادَةَ والقرارَ سـواءً في المنزلِ أو الامتلاكِ للمالِ أو رِئاسَـةِ المؤسَّسـاتِ أو غيرِ ذلك، وفي هذا المعنى إشـارَةٌ واضحةٌ إلى أنَّ مفهـومَ الحديثِ يُبرِزُ أوَّلَ خطرٍ يظهَرُ فـي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وهو ما يتعَلَّقُ بشـأنِ المرأةِ والرَّجُلِ وانحرافـاتِ التَّربيَةِ والتَّعليمِ

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٤٧٧٧) ، ومسلم بلفظ «إذا ولدت الأمة ربها» (١٠٢).

والإعلامِ الذي يُصيبُ كلا الجنسَينِ في لاحقِ الزَّمانِ حتى تختَلِفَ أساليبُ العِلاقَةِ بيـنَ الأُمِّ وبنتِهـا والأبِ وابنِهِ، ويحصُـلَ الصِّراعُ الفِكرِيُّ والثَّقافِـيُّ والاجتماعِيُّ... إلخ بين وعيِ الأبِ و الأُمِّ المُرتبطِ بالثَّقافةِ التَّقليدِيَّةِ ووَعيِ الابنِ و البِنتِ المُرتَبِطَينِ بالثَّقافاتِ الحديثةِ، وفي شَرحِ هذا الحديثِ دِلالَةٌ واضِحَةٌ على أنَّ القصدَ الذي تناولَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ في أَحَدِ معانيه عن أَوَّلياتِ الانحِرافِ في الْأُمَّةِ بانحرافِ المرأةِ، وله ما يُؤَكِّدُهُ من كلامه ﷺ فيما تتشـابه فيه الأُمَمُ، فقد ورد في الصَّحيحِ قولُه ﷺ: «إنَّ أوَّلَ فِتنَةٍ كانت في بني إسرائيلَ من النِّساءِ، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساءَ»[1].

تطابق جزئية العلامات مع حديث بني إسرائيل

وهـذا الحديثُ يجمَـعُ نَفسَ المفهومِ الذي في حديثِ جبريلَ، فقولُه ﷺ (اتَّقوا الدنيا) يقابلُه في المعنى قولُه (وأن ترى الحُفاةَ العُراةَ العالةَ رِعاءَ الشَّـاةِ يتطاولون في البُنيانِ) كما سيأتي شرحُه.

(واتَّقوا النِّسـاءَ) يقابلُه قولُه ﷺ في حديث جبريل (أن تَلِدَ الأمَةُ ربَّتَها) ويندَرِجُ تحـت هذا المعنـى كافَّةُ الأحاديثِ التي تختَصُّ في الصِّحاحِ والسُّـنَنِ والمسـانيدِ بالمرأةِ وعلاقَتِها بالعلاماتِ.

معنى «وأن ترى الحفاة.. الحديث»

قولُـهُ ﷺ: (وأن تـرى الحُفـاةَ) الحُفـاةُ جمعُ حـافٍ ـ وهي كنايةٌ عن السَّـيرِ بلا نِعـالٍ ـ وهـي ظاهِـرَةٌ معروفةٌ كانـت لدى العـربِ لِفقرِهـم، و(العُـراةُ): الذين لا تكتَمِـلُ ألبِسَـتُهم على أجسـادِهم إلا ما يستُرُ العَـورَةَ، وهذه إحـدى ظواهرِ الزِّيِّ البَدَوِيِّ العربيِّ، (العالَةُ) الرَّجُلُ الفَقيرُ، مُشْـتَقٌّ من (العيلة) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة:٢٨] أي: حاجةً وفقراً (رِعاءَ الشَّـاةِ) إشـارةً إلى ظاهِرَةِ الرَّعيِ التي يُمارِسُـها البداوَةُ فـي صحاريهم، وأنَّ هؤلاءِ الأعـرابَ الذين كانوا على هذه الصِّفاتِ تنفَتِحُ لهم أسـبابُ الحياةِ والحضارَةِ والتَّطوُّرِ المادِّيِّ، فيتحوَّلُ الأمرُ من

---

(١) صحيح مسلم (٧١٢٤)، وانظر إتحاف التويجري (١: ٧٧٣).

الحياةِ البائِسَـةِ إلـى حياةِ التَّرفِ والمنافسـةِ على الدُّنيا والتَّطاوُلِ فـي البُنيانِ، وفي مرحلـةٍ مُفاجِئَةٍ تربطُ الرَّاعـيَ والحافيَ بالحضارَةِ المادِّيَّـةِ ومُخرجَاتِها، وفي قولِه ﷺ : (يتطاولـون) مَلحَـظٌ هـامٌّ إلى الجهـلِ المُطبِقِ علـى مُلَّاكِ الأمـوالِ في آخِرِ الزَّمـانِ بحيـثُ يصرِفون أموالهم في ما لا داعي له ، وانشـغالُ هؤلاءِ الحُفاةِ العُراةِ بجَمـعِ رُؤوسِ الأمـوالِ من الحـلالِ والحرام والشُّـبَهِ وصرفِها في الاسـتثماراتِ والمُنافسـاتِ والتَّطاوُلِ، بينما تكونُ حاجةُ الأُمَّـةِ للمالِ فيما هو أَهَمُّ من ذلك مثلَ إقامـةِ الاقتصادِ الشَّـرعِيِّ المُؤَدِّي إلـى الاكتفاءِ الذاتيِّ في الشُّـعوبِ، وإلى صرفِ الأمـوالِ في الدِّفاعِ المُشـتَرَكِ عـن قضايا الأُمَّةِ، واسـتغلالِ عائـداتِ الثَّرواتِ في بناءِ التَّكافُلِ الاجتماعيِّ، وتشـجيعِ الأعمالِ الزِّراعيَّةِ والصِّناعِيَّةِ الكفيلَةِ بتحسـينِ المعيشَةِ للأُمَّةِ، إلى غير ذلك ممَّا هو مطلوبٌ وواجِبٌ في الحياةِ.

وقوع الظاهرة حقيقة في مرحلتنا المعاصرة

وقـد تبيَّـنَ مـن حديثِه ﷺ في الأماراتِ وقـوعُ الأُمَّةِ في كثيرٍ من هذه الأشـراطِ واشـتغالُ الجُلِّ الأوسَعِ من المسلمين بهذه الظَّاهِرَةِ السَّلبيَّةِ وللأسفِ[1] ، ويندَرِجُ تحـت الجزئِيَّـةِ الثَّانِيَةِ من علاماتِ السّـاعةِ جُملـةُ الأحاديثِ النَّبويَّـةِ في الصحاحِ والسُّننِ والمسانيدِ وغيرِها حول علاقَةِ الأُمَّةِ بالدُّنيا والمالِ وما تفرَّعَ عن ذلك .

---

(١) كما أن من معاني التطاول دفع الأموال والمخصصات المادية لإذكاء الصراع الشيطاني بين الشعوب (ظاهرة التحريش) الطبقي والاعتقادي والطائفي وهلم جرا .

فترى كثيرا من هؤلاء التجار وحملة رؤوس الأموال ينفقون على الجماعات والأحزاب والفئـات مـا يمكنهـم مـن زرع الفتن وتفريق الشـعوب وإسـالة الدمـاء وهم يظنـون أنهم يخدمون الديانة؛ لجهلم بثوابت الدين من جهة وجهلهم بالفتن ومضلاتها من جهة أخرى، ولو علموا ذلك لما فعلوا، وحاشـا أن يفعل مسلم ما يضره في دينه وآخرته وهو يعلم ذلك يقينا ولكنها الفتنة والتحريش، نسأل الله السلامة.

الفرقُ بين السّاعةِ والعِلمِ بعلاماتِ السّاعةِ

مشكلة الخلط بين الساعة وبين العلم بعلاماتها

خَلَطَ كثيرٌ من الباحثين بين مفهومِ السّاعةِ وبين العِلمِ بعلاماتِ السّاعةِ ، وترتَّبَ على هذا الفهمِ رَبطُ السّاعةِ والعلاماتِ بمسألةِ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ، وكتبَ بعضُهم فـي هذا الأمرِ قولَهُ تحت هذا المفهومِ: (الإيمانُ بعلاماتِ السّـاعةِ ركنٌ من أركانِ الإيمان) وجمعَ بين أسماءِ يوم القيامةِ وبينَ أشراطِ السّاعةِ. وكتب آخَرُون: الإيمانُ بأشراطِ السّاعةِ داخلٌ ضِمنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ فهي من الإيمانِ بالغَيبِ.

والأصلُ أنّ العِلمَ بعلاماتِ السّـاعةِ لا علاقةَ له بِرُكنِيَّةِ اليومِ الآخِرِ وإنما علاقَتُهُ بالإيمـانِ باليـومِ الآخِرِ مـن حيثُ أصلُ الإيمـانِ بالغَيـبِ فقط ، أمـا حقيقتُه فعِلمٌ مُفَصَّلٌ في نُصوصٍ خاصَّةٍ به ، ويُؤكِّدُ ذلك حديثُ حُذيفةَ بن اليَمانِ القائلِ: «واللهِ إنِّـي لأَعلَـمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتنَةٍ هي كائِنَةٌ فيما بيني وبين السّـاعةِ»[1] ، فذكرَ حذيفةُ في الحديـثِ عِلماً خاصّاً مُسـتَقِلّاً وهو ما تَضَمَّنَهُ حديثُ جِبريلَ فـي الرُّكنِ الرَّابعِ من أركانِ الدِّينِ وهو قوله (أخبرني عن أماراتِها؟) وذكرَ الحديثَ، وأما السّاعَةُ كنِهايَةٍ للكـونِ وما بعـدَه فهو عِلمٌ يرتَبِـطُ باليومِ الآخِـرِ باعتبارِ أنَّ النَّفخةَ فـي الصُّورِ هي علامةُ نِهايَةِ الحياةِ الإنسـانيَّةِ وسـاعةَ الموتِ نهايةُ حياةِ الفَردِ بالنسبةِ للإنسانِ كما أنَّها مُبتدأُ ما بعد الحياةِ المعروفِ باليومِ الآخِرِ و ما يترتَّبُ عليه .

والآيـاتُ تَـدُلُّ علـى أنَّ السّـاعَةَ وهـي نِهايَـةُ الكـونِ غيـرُ العِلـمِ بعلامـاتِ السّـاعَةِ وهي الوَقائِعُ والأحداثُ السَّـابِقَةُ لها قـال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا

(١) صحيح مسلم (٧٤٤٤).

﴿بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٣].

كُلُّ هذه الآياتِ تَدُلُّ على أنَّ السّاعةَ المقصودَ بها نهايةُ الكونِ وأنّها تختَلِفُ في فِقهِها عن العِلمِ بعلاماتِ السّاعةِ وهي الوقائعُ والأحداثُ السّابِقَةُ لِنهايَةِ الكونِ، وقد فَصَّلت الأحاديثُ هذا المفهومَ تفصيلاً تامًّا، كحديثِ حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي رواه الإمامُ مُسلمٌ قال: «أخبَرَني الرَّسولُ ﷺ بما هو كائنٌ الى أن تقومَ السّاعَةُ»[1] وحديثِ «لقد خَطَبَنا النَّبيُّ ﷺ خُطبَةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيامِ السّاعَةِ إلا ذَكَرَه»[2].

الأشراط في حديث مكحول

بهذا يُعلَمُ أنَّ العِلمَ بعلاماتِ السّاعةِ رُكنٌ شَرعِيٌّ مُستَقِلٌّ ينطوي تحت الرُّكنِ الرَّابعِ من حديثِ جبريلَ ويختَصُّ بما سبق ذِكرُهُ من الأشراطِ والأماراتِ والعلاماتِ والفِتَنِ ومُضِلَّاتِ الفِتَنِ والملاحِمِ والبِشاراتِ. ويؤيِّدُ هذا حديثُ مكحولٍ: قال أعرابيٌّ: يا رسول الله متى السّاعةُ فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: « ما المسؤولُ عنها بِأعلَمَ مِن السّائلِ » ولكنَّ أشراطَها: تقارُبُ الأسواقِ، ومَطَرٌ ولا نباتَ، وظهورُ الغِيبَةِ، وظُهورُ أولادِ الغَيَّةِ[3]، وتعظيمُ رَبِّ المال، وعُلُوُّ أصواتِ الفُسّاقِ في المساجِدِ، وظهورُ أهلِ المُنكَرِ على أهلِ المعروفِ، فمَن أدرك ذلك الزَّمانَ فليَفرَغ بِدينِهِ وليكُن حِلساً من أحلاسِ بيتِه»[4].

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٦٠٤).

(٣) أي: أولاد الزنا.

(٤) من مراسيل مكحول، أصل معناه في الصحيح، تحقيق الفِتَن لنعيم بن حماد (١٧٩٦)

مفهومُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ

مفهوم فقه التحولات

يُقصَدُ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ فَهمُ ما يجري من سُنَنِ التَّغيُّراتِ والحوادثِ في المراحِلِ المُتقلِّبَةِ عبر الأزمِنَةِ، وما يترتَّبُ على ذلك التَّحوُّلِ من نَقضٍ أو قَبضٍ أو صلاحٍ أو فسادٍ أو بِشاراتٍ.

اشتقاق اللفظة

والتَّحوُّلِ: مُشتَقٌّ من (تَحوَّل، يتحوَّلُ) أي: (تَغيَّر، يتغيَّر)، ومعناه ـ كما سبق ذكرُه ـ تحوُّلٌ زَمَنِيٌّ من حالٍ إلى حالٍ، أو تحوُّلٌ فِكرِيٌّ من رُؤيةٍ إلى أخرى، ويُقاسُ عليه كُلُّ ما يتعلَّقُ بأمرِ التَّحوُّلِ والتَّبدُّلِ، قال تعالى في هذا المفهومِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ الرعد: ١١

مادة فقه التحولات

ويعتمِدُ فِقهُ التَّحوُّلاتِ في تأصيله وسردِ وقائِعِه على جُملَةِ أحاديثِ السّاعةِ والفِتَنِ ومُضِلّاتِها التي تكلَّم عنها ﷺ.

وأما كَلِمَةُ الفِقهِ في اللُّغَةِ فهي الفَهمُ.

الفقه في اللغة والاصطلاح

وفي الاصطِلاحِ العَامِّ: إدراكُ المقصودِ المُترتِّبِ على نوعِ العِلمِ المُقرَّرِ، قال ﷺ: «مَن يُرِدِ اللهُ به خَيراً يُفَقِّهُهُ في الدِّينِ»[1].

فالفِقهُ هنا لا ينحَصِرُ على فِقهِ العِباداتِ وفِقهِ المُعاملاتِ وفِقهِ الجِناياتِ أو غيرِها من الفِقهِ المَذهَبِيِّ المُندَرِجِ تحت علمِ الأُصولِ، وإنما يُفهَمُ الفِقهُ في تأصيلِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ بأنَّ كَلِمَةَ الدِّينِ في الحديثِ تدُلُّ على كافَّةِ عُلومِ الدِّينِ والتَّدَيُّنِ المُنطَوِيَةِ تحت مفهومِ أركانِ الدِّينِ الأربعةِ، وفي ذلك يقولُ سبحانه

لمجدي منصور.

(١) متفق عليه، البخاري (١٠) ومسلم (٢٤٣٦).

وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران: ١٩].

فالإسلامُ هنا أوسَعُ من مفهومِ أركانِهِ الخَمسَةِ لقولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥].

الإسلام في معناه العام

فالمعنى العامُّ للإسلامِ كالمعنى العامِّ للدِّينِ، وهو كُلُّ ماجاءت به الرِّسالَةُ المُحَمَّدِيَّةُ.

وأما عندما نُفسِّرُ الإسلامَ والدِّينَ في المفهومِ الجُزئيِّ فيسمَّى الإسلامُ ـ كما عَرَّفَه العُلماءُ ـ (الانقيادُ للأحكامِ الشَّرعِيَّةِ والالتِزامُ بالأركانِ الخَمسَةِ)، ولا زال التّناوُلُ لهذ المُسمَّى (فِقهِ التَّحوُّلاتِ) في أوَّلِ مرحلةِ الأَخذِ به، ولهذا فهناك الكَثيرُ من القُصورِ المَعرِفِيِّ الذي يحتاجُ فيه هذا العِلمُ إلى مُتابعةٍ وتأصيلٍ لما لم يُؤَصَّل منه ورَبطٍ عِلمِيٍّ بين الظَّواهِرِ والأحاديثِ، وخاصَّةً أنَّ كثيراً من المُؤلِّفينَ قد تجاوَزوا الحَدَّ المشروعَ في تفسيرِ علاماتِ السّاعةِ والرَّبطِ بينها وبين وقائِعِ الأحوالِ حتى أدَّى ذلك إلى مالا تُحمَدُ عُقباهُ في التَّحليلِ والتَّعليلِ.

العلم بعلامات الساعة علم شرعي موثق الكتاب والسنة

إنَّ العِلمَ بعلاماتِ السَّاعةِ عِلمٌ شرعِيٌّ مُوثَّقٌ في كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وفيه من التَّبيينات والتَّفصيلاتِ والتأصيلاتِ ما يُفصِحُ عن أُسُسِ المُعالَجَةِ الصَّحيحةِ لمشاكلِ الحياةِ على المُستَوى المَحَلِّيِّ والإقليمِيِّ والعالَمِيِّ، وخاصَّةً عندما يعودُ العُلماءُ الى دراسَةِ هذا الفِقهِ برَوِيَّةٍ وتأنٍّ وحُسنِ أَدَبٍ مع النَّصِّ النَّبَوِيِّ وسلامةِ تَوَجُّهِ النِّيَّاتِ في العلاقةِ باللهِ سبحانه وتعالى لخدمَةِ هذا العِلمِ فيكونُ به إيضاحُ الحَقِّ من الباطلِ وجمعُ كَلِمَةِ العُلماءِ من هذه الأُمَّةِ على قَواسِمَ شرعِيَّةٍ واعِيَةٍ تُسهِمُ في رَبطِ الشُّعوبِ والأجيالِ بعالَمِيَّةِ[١] مَنهَجِ النُّبُوَّةِ السَّديدِ ـ ولو مِن

(١) العالمية في منهج النبوة يقابل في معالجته واستيعابه الواسع مراحل العلمانية والعلمنة

بعـضِ الوُجـوهِ[1] ـ حيثُ إنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أعذر الشُّـعوبَ في آخِرِ الزَّمانِ وخاطبَ الجيـلَ الأوَّلَ بهذا الإعذارِ مِن مِثلِ قولِه ﷺ: «إِنَّكُمْ في زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْـرَ ما أُمِرَ بِهِ هَلَكَ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ فَقَدْ نَجَا»[2].

الأساس في النجاة هو العمل

والأسـاسُ فـي النَّجـاةِ هو العَمَـلُ، وهذا موضوعٌ هَـامٌّ في فِقـهِ التَّحوُّلاتِ وهو موضـوعُ (المبـادَرَةِ بالأعمـالِ) حيثُ يُسـتعاضُ عن الأعمـالِ الصَّالِحَـةِ في آخرِ الزَّمـانِ بالجَـدَلِ والمُحاجَجَةِ والبَغيِ وما تَرَتَّبَ عليها مـن عوامِلِ النِّزاعِ والصِّراعِ والاختلافِ المُفضِي إلى الحربِ والاقتتالِ، وفي هذا البابِ أحاديثُ كثيرَةٌ فنذكرُ منها قولَهُ ﷺ:

«بادروا بالأعمال» وما يترتب على مفهوم المبادرة

١- «بـادِرُوا بالأعمـالِ فتناً كقِطَـعِ اللَّيلِ المُظلِـمِ، يُصبحُ الرَّجلُ مؤمناً ويُمسـي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبحُ كافراً، يبيعُ أحدُهم دينَه بعَرَضٍ من الدُّنيا قليلٍ»[3].

٢- «بـادِروا بالأعمالِ سـبعاً، هـل تنتَظِرون إلا فَقراً مُنسِـياً، أو غِنـىً مُطغِياً، أو مَرَضـاً مُفْسِـداً، أو هَرَمـاً مُفنِّداً، أو موتاً مُجهِزا، أو الدَّجَّالَ فَشَـرُّ غائِبٍ يُنتَظَرُ، أو

والعولمـة باعتبار أن هـذه التعريفات مراحل جزئية وضعتها الظروف السياسـية المتحولة، أمـا عالميـة منهج النبوة (العالمية) فهي كلام الله تعالى وسـنة نبيـه ﷺ المحصن بالوحي والعصمة.

(١) والمقصـود بقولنـا: ولـو من بعض الوجوه، أي: مـن جهة تأصيل منهجيـة الدعوة إلى الله الجامعة لأمة الإسـلام على قواسمها المشتركة، ولو اختلفت فهومها واستنباطاتها الفقهية باختـلاف اجتهاداتهـا، فإن للدعوة إلى الله في هذه القاعدة المتنوعة المتباينة وجوه جامعة ووشائج متداخلة، يمكن بها رأب الصدع وإصلاح الطبع، والتزام أدب الشرع.

(٢) الترمذي (٢٢٦٧)، إسناده صحيح، السلسلة الصحيحة للألباني (٢٥١٠).

(٣) صحيح مسلم (٣٢٨).

السّاعَةَ والسّاعَةُ أدهى وأَمَرُّ»[١].

وقد تناوَلَ شُـرَّاحُ الحديثِ معانِيَهُ باسـتفاضَةٍ ولكنَّا مِن واقِعِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ نزيدُ الموضوعَ جلاءً وبياناً:

الأَوَّلُ: إنَّ مِثلَ هذه الأحاديثَ لا تحمِلُ تشاؤُماً ولا صورةً قاتِمةً للمُستقبَلِ حيثُ يظُنُّ البعضُ مثلَ هذه الأوهامَ النَّاتِجةَ عن الجَهلِ بالمعاني الشَّـرعِيَّةِ التي يكشِـفُها ﷺ للأُمَّـةِ كـي تتوَقَّـى الخَطَرَ والهـلاكَ، فالإفصاحُ البَيِّـنُ عن هذِهِ الأُمُـورِ يدخُلُ تحـتَ مبـدأِ (الوِقايَةُ خيرٌ مـن العِلاجِ) والنَّبيُّ ﷺ مُنذِرٌ مأمـورٌ ومأذونٌ له من عند ربِّهِ، فكيفَ يكونُ بيانُهُ تشاؤُماً.

الثَّاني: أنَّـهُ ﷺ يأمُـرُ العِبـادَ في المرحلَـةِ التي يقودُهـا ويأتَمِرُ النَّـاسُ فيها بأمرِهِ ورِسـالَتِهِ أن يكـونَ هَمُّهـم في حياتِهـم العَمَـلَ الصَّالِحَ والمُبـادَرَةَ إليـه، والعملُ الصَّالِحُ لا يقتَصِرُ فقط على العباداتِ الشَّـرعِيَّةِ بل يَشـمَلُ مفهومَ العَمَلِ في شُؤونِ الدِّيانَةِ وفي شُـؤونِ الحياةِ الدُّنيويَّةِ التي لا بد منها، حيث يُشـيرُ الحديثُ ذاتُهُ الى هـذا المفهـومِ من خلالِ الإشـاراتِ التـي أخبرَ عن وُقوعِها، فكأنـه ﷺ ـ كما في الحديثين السابقين ـ[٢] يقول: فهل تنتَظِرُون ـ عندَ انقطاعِ المُبادَرَةِ للأعمالِ وعَدَمِ

الإشارة النبوية إلى ما يحل بالأمة عند انقطاع الأعمال

---

(١) سـنن الترمذي (٢٣٠٦)، قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٣: ٤٤٣): فيه محرز بن هارون ذكر من جرحه، وروي بإسـناد أصلح من هذا. وحسـنه ابن باز في مجموع الفتاوى (١٦: ٣٣٦).

(٢) وهمـا فـي الصفحـة الماضيـة قوله ﷺ: «بـادروا بالأعمال فتنا كقطع الليـل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسـي كافرا ويمسـي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينـه بعرض من الدنيا قليل» وقوله ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسـدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشـر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

النَّظَرِ الواعي الـى الُمرادِ المُترتِّـبِ على المبادَرَةِ والمسـارعَة ـ إلا أمـوراً خطيرَةً وشُـؤوناً تُدَبَّرُ في الخفاءِ ضِدَّكم في كافَّةِ شُـؤونِكم ـ وكأنَّه يُشيرُ ضِمناً إلى سياسةِ الشَّيطانِ وأتباعِهِ وعُمَلائِهِ الذين يعملون على احتناكِ الشُّعوبِ بالتَّجويع والتَّرويعِ والتَّطبيـعِ والتَّطويعِ ـ حتى يمتَلِكون رقابَكم وحاضِرَكم ومُسـتَقبَلكم فيجرِّعُونكم غُصَّةَ الفَقرِ المُنسي ـ كما سَمَّاه ﷺ ـ والغِنَى المُطغي ..إلخ).

وهذا ما تعيشُـه الأُمَّةُ اليومَ ويعيشُـهُ العالم كُلُّهُ من سِياسـاتِ الدَّجَلِ الاقتصادِيِّ الرِّبَـويِّ والدَّجَـلِ الإعلامـيِّ والتَّعلِيمِـيِّ والثَّقافِيِّ والسِّياسِـيِّ والدِّينِـيِّ وإلى غيرِ ذلـك، فالمُتَنَفِّذون مِن حَمَلَةِ القَرارِ السِّياسِـيِّ الاقتصاديِّ فـي العالم يُعِدُّون العُدَّةَ لهذا الفَشَلِ المُبَرمَجِ والنَّبيُّ ﷺ يُحذِّرُ الشُّعوبَ من هذه المهالكِ بِكَلِماتٍ وَجيزَةٍ وعِباراتٍ قصيرَةِ المبنى عميقةِ المعنى.

معنى «الفقر المنسي»

ولعلَّ من معاني الفَقرِ المُنسـي ما يعيشُهُ المُسلمون وجماهيرُ العَرَبِ والأعرابِ فـي تفعيـلِ الصِّراعِ الاقتصـادِيِّ داخِلَ المُجتمعـاتِ المُتهالِكَةِ بالاقتصـادِ الرِّبَوِيِّ الرَّأسماليِّ والاقتصادِ السِّياسِيِّ الشُّيوعِيِّ وما شابه ذلك من التَّوليفاتِ الاقتصادِيَّةِ المُنسِـيَةِ لِشـعوبِ الأُمَّةِ قواعِدَ الآدابِ والقِيَمِ والدِّيانَةِ من أجـلِ لُقمَةِ العيشِ وفي سـبيلِ تحصيلِهـا، فهذا يضطَرُّ للحيلَةِ والرِّشـوَةِ والكَـذِبِ ، وذاك يَقَعُ فـي الخِيانَةِ للأمانَـةِ والنَّهبِ والسَّـلبِ. بل وتَجِدُ المُسـلِمَ المُصَلِّـيَ الصَّائِمَ يُدافِعُ عن نظرِيَّةِ الاقتصادِ الاشـتراكيِّ أوالرأسماليِّ وكأنَّها من مِلَّةِ صاحبِ الدِّيانَةِ الإسلامِيَّةِ نتيجَةَ الفَقرِ الُمنسي ، المُشارِ إليه في الحديثِ.

معنى «الغنى المطغي»

وكذلـك الغِنـى المُطغـي القائِـم على نَهـبِ ثـرَواتِ الشُّـعوبِ وإقامةِ التوسُّـعِ السِّياسِـيِّ بِالحُـروبِ وانصـرافِ الأمـوالِ الطائِلَـةِ للاسـتثماراتِ ذاتِ الطَّابِـعِ

الاستهلاكيِّ والتَّسييسِ الإعلامِيِّ والثَّقافيِّ المُدَمِّرِ للقِيَمِ الشَّرعِيَّةِ والرَّاعي للنَّوازِعِ والشَّـهواتِ الطَّبعِيَّةِ، سواءً في عالَمِ المُجتمعاتِ غيرِ المُسلِمَةِ أو في المجتمعاتِ الإسـلاميَّةِ ذاتِها وخاصَّةً عند النَّظَرِ في طُغيانِ رجالِ المالِ والأعمالِ فيما يُنفِقُونه علـى الشَّـهواتِ واللَّذائِذِ وأسـبابِ الحيـاةِ المُتَرَفَةِ كالمشـاريعِ السِّـياحِيَّةِ ومواقِعِ اللَّهـوِ والغِناءِ، والنَّظَرِ أيضاً في مدفوعاتِ الأنظِمَةِ للثَّقافاتِ المُنحَلَّةِ والمشـاريعِ الاقتصاديَّةِ النَّازِفَةِ للأموالِ دون عائِدٍ اعتبارِيٍّ مَصيرِيٍّ.

تركنا للصناعات الإنتاجية والثروات وهجرنا لمبدأ الاكتفاء الذاتي جعلنا (سوقا استهلاكيا) وهذا ما أدى إلى الغنى المطغي

والاعتِبـاريُّ المصيـريُّ مـا يرفَعُ شـأنَ الأُمَّةِ أمـام أعدائِهـا كالاهتِمـامِ بالزِّراعَةِ ومُنتَجاتِها وصِناعاتِها التَّحويلِيَّةِ وإقامَةِ مبدأِ الاكتِفاءِ الذَّاتِيِّ في الشُّعوبِ بديلاً عن الاعتمادِ على الغَيرِ الذي تُمارِسُـهُ الأُمَّةُ اليوم بما هو معروفٌ في سِياسَةِ الاستيرادِ لِكُلِّ شـيءٍ حتى صار العالَمُ العَرَبِيُّ والإسـلاميُّ مُجَرَّدَ سُـوقٍ استهلاكِيَّةٍ للبضائِعِ والصِّناعـاتِ الخارجِيَّةِ مـع ضعفٍ في المـوارِدِ الدَّاخِلِيَّةِ وإهمـالٍ للزِّراعَةِ وتربيةِ الحَيَوانِ، وكُلُّ هذا يدخلُ في هذا المعنى المُشارِ إليه بـ«الغِنى المُطغي».

ويـزدادُ خَطَرُ الغِنى المُطغي عندما يَجِدُ المُسـلِمُ أَنَّ القضايـا المصيرِيَّةَ ـ كقَضِيَّةِ فِلَسـطينَ ـ قد تظافَرَ علـى إضاعَتِها أصحابُ "الغِنى المُطغـي" وإعطاءِ الاحتلالِ الصُّهيونِـيِّ موقِـعَ الحَـقِّ في حربِـهِ البَهيمِيَّـةِ على الشَّـعبِ الأعزَلِ في فِلَسـطينَ، حتى شَـهِدَ العالَمُ عَلَناً وفي غيـرِ وازِعٍ ولا رادِعٍ بَطشَ العَدُوِّ الصُّهيونيِّ بالعُزَّلِ من الرِّجـالِ والنِّسـاءِ والأطفالِ في «غَزَّةَ» خـلال مَرحَلَتِنا المُعاصِـرَةِ وما قبلَها وما قد سـيأتي بعدها من خُطَطِ البَطشِ والسَّلبِ والنَّهبِ والاعتِدَاءِ الذي لا تستطيعُ أمامَهُ دُوَلُ العالَمِ العَرَبِيِّ والإسـلامِيِّ أن تَتَّخِذَ قراراً مُشـتَرَكاً ضِدَّ طُغيانِ العَدُوِّ المُحتَلِّ بـل وحتى بَقِيَّةِ دُولِ العالَمِ الإنسـانِيِّ بِصَرفِ النَّظَرِ عن كونِها مُؤيِّـدَةً أو غيرَ مُؤَيِّدَةٍ لوقائِعِ الحالِ.

معنى (المرض المفسد)

إنَّ عبارَةَ النَّبيِّ ﷺ في مِثلِ هذا الحديثِ تحمِلُ مضامِينَ كبيرَةً وخَطيرَةً تُبدي حقيقةَ الاهتِمامِ الذي شَغَلَ الرَّسولَ ﷺ حول مُستقبَلِ الأُمَّةِ إذ هو لم يَقِف عند الفَقرِ المُنسي والغِنى المُطغي بل أشار إلى ما يترتَّبُ عليه ويرتَبطُ به فقال: (أو مَرَضاً مُفسِدًا..) والمَرَضُ المُفسِدُ: الذي يُفْسِدُ حياةَ الأُمَمِ والشُّعُوبِ ولا يَقِفُ عند الآفاتِ والأوبِئَةِ الحِسِّيَّةِ، بل يشمَلُ أمراضاً ناتِجَةً عن سُمومِ الموادِّ الكيماوِيَّةِ ومُخلَّفاتِ الصِّناعَةِ وعَبَثِ العُلماءِ بالجيناتِ الوِراثِيَّةِ وغيرِها مِمَّا يَدورُ خلفَ الكواليسِ، إضافةً إلى الأمراضِ المعنويَّةِ الناتِجَةِ عن انعدامِ التَّربِيَةِ الرُّوحِيَّةِ والتَّزكِيَةِ الشَّرعِيَّةِ وهي أمراضٌ اجتماعيَّةٌ خطيرةٌ يتفَجَّرُ بها الواقِعُ الإسلامِيُّ والإنسانِيُّ لانعِدامِ العِلاجِ لها، مع حصول فساد لدى بعض المرضى في علاقتهم بالله والدين والمجتمع، لقلة ثبات الإيمان وحصول فساد آخر بالإحباط والاكتئاب وغير ذلك.

معنى (الهرم المفند)

(أو هَرَمًا مُفَنِّدًا) الهرم هو الكبر والعجز، قال أهلُ اللغةِ: الفَنَدُ في الأصلِ: الكَذِبَ، يقال: أفندَ الرجلُ، إذا كبر حتى يتكلّم بما لا يُحتاج إليه، وفنَّدت الرجلَ تفنيداً، إذا خطّأته ورددت عليه قوله[1].

فالمعنى الأولُ: الهرمُ الذي يؤدِّي إلى الخَرَفِ، والمعنى الثاني: الردُّ على كبيرِ السنِّ وتخطئتُه وزجرُه، وإذا أخذنا هذا المعنى وطَبَّقْنَاه على المجتمعاتِ اليوم فقد تَمَّ عزلُ كبارِ السنِّ عن الواقعِ الاجتماعيِّ والأسريِّ وتحويلُهم إلى الملاجئِ والبيوتِ الخاصةِ، وربما يكون مِثلُ هذا يشملُ الآباءَ والأمهاتِ في بعض أسرِ المسلمين المتأثرينَ بالحياة الحضاريةِ ذاتِ العلاقةِ المباشرةِ بمثل هذه الظاهرة،

---

(١) جمهرة اللغة (١: ٣٦١).

فعلى صعيدِ البلدانِ الغربيةِ يرى معظمُ الأبناءَ في تلك الدول أنه من الأسلمِ اجتماعياً وصحياً للآباءِ تسليمُهم إلى مصحّاتِ العنايةِ بكبارِ السنِّ والعَجَزَةِ. ويعلّلُ الأبناءُ ذلك بانشغالهم بالعملِ اليوميِّ لساعاتٍ طويلةٍ، لأن الاهتمامَ بهم يعوقُ العملَ.

ومن المعروفِ أن الأواصرَ الأسريةَ في عالمِ المسلمين متماسكةٌ إلى حدٍّ أكبرَ بكثيرٍ من مثيلاتِها في العالمِ الغربيِّ الذي اتجهتْ فيه المرأةُ بشكلٍ واسعٍ للعملِ وترك أبنائِها في الحضانةِ أو عند مربيةٍ خاصةٍ. وهذا الأمرُ موجود أيضاً عند بعضِ الأسرِ في العالم العربي ولكن بنسبةٍ أقلَّ بكثيرٍ عنه في المجتمعاتِ الصناعيةِ المتقدمةِ.

إن نتائجَ عدمِ إعطاءِ الوالدينِ أبناءَهمُ الوقتَ الكافي في الصغرِ تنعكسُ على علاقةِ هؤلاء الأبناءِ بوالديهم في الكبرِ، مع الإشارةِ هنا إلى أنّ الأمَّ تبقى أمًا وأنّ ظاهرةَ الأمومةِ لا تنطبق على أمٍّ دون غيرها، لكن الفرقَ يكمنُ في الظروفِ المصاحبةِ للقيامِ بواجباتِ الأمومةِ على العلاقاتِ الأسريةِ ، وحتى في داخل المجتمعِ الواحدِ فإننا نجدُ ثمةَ فرقاً واضحاً في طبيعةِ وحرارةِ علاقةِ أعضاءِ الأسرةِ التي تسكنُ في المدينةِ عن تلك القاطنةِ في الريفِ.

ولذا فقد ظهرَ اليومَ في الدولِ الغربيةِ مفهومُ (دولةِ الضمانِ الاجتماعيِّ) ، وهي أن تصبحَ الدولةُ ذاتَ نسبةٍ كبيرةٍ من العجزةِ الذين يعيشونَ على مُخَصَّصاتِ الضمانِ الاجتماعيِّ ، وكمثالٍ فقد أعلنتْ حكومةُ ألمانيا أنها تعاني من تَرَاجُعٍ حادٍّ في معدلاتِ المواليدِ بشكلٍ يؤثرُ سلباً على الاقتصادِ والقوةِ العاملةِ ويؤدي أيضا إلى "شيخوخةِ" المجتمعِ، وأنّ أحدَ أهمِّ أسبابه تراجعُ ما سَمَّوْهُ بـ(مؤسسةِ

الـزواجِ)[١]، وتوصلتْ إلى أن (دعائمَ دولتِنا الاجتماعيةَ لن تَمْنَحَ بأيِّ حالٍ الأمانَ الذي تُوَفِّرُهُ الأسرةُ التقليديةُ)،[٢].

معنى (الموت المجهز)

(أو موتـاً مُجهزاً) وهو نموذَجٌ من نماذِجِ القَتـلِ الجماعِيِّ بالعَمَلِيَّاتِ الانتحارِيَّةِ والحَرقِ العامِّ للمُدُنِ والمزارعِ ومَن فيها بحيثُ يصعُبُ تفاديه وعلاجُ آثارِهِ وخاصَّةً ما يُستخدَمُ فيها الأسلِحَةُ المُدمِّرَةُ والحارِقَةُ والفُسفورِيَّةُ ـ وأعتَقِدُ أنَّ هذا النَّموذَجَ المُشـارَ إليه لم يَعُد خَافياً وُقوعُهُ على أَحَدٍ ـ فالأجهِزَةُ المرئِيَّةُ تعرِضُ للمُشـاهِدين من هذا المَوتِ المُجهِزِ ما لا مزيدَ عليه كُلَّ يومٍ في أرجاءِ الأرضِ..

الدجال شر غائب ينتظر

(أو الدَّجَّالَ فَشَـرُّ غائِبٍ يُنتَظَرُ) وهذه العبارَةُ مـن الحديثِ تُعيدُنا مَرَّةً أخرى إلى قولِه ﷺ في أَوَّلِ الحديثِ: (فهل تنتَظِرون) إذاً فالدَّجَّالُ مخلوقٌ مُنتَظَرٌ ولكنه شَرُّ مَـن يُنتَظَـرُ لما يجري بين يديه مـن الفِتَنِ والمِحَنِ والتَّحـوُّلاتِ القائِمَةِ على تدميرِ "المبادَرَةِ بالأعمالِ" في كافَّةِ صُوَرِها الإيجابِيَّةِ وخاصَّةً أنَّ كافَّةَ الانحرافاتِ إنَّما تُمَهِّدُ للمَسيخِ الدَّجَّالِ الذي تنتظِرُه الشُّعوبُ ليُرغِمَها على الاتِّجاهِ الإجبارِيِّ نحو "جُحرِ الضَّبِّ"، نسأَلُ اللهَ السَّلامَةَ.

أو (السّاعةُ والسّاعةُ أدهى وأَمَرُّ) وهي نهايةُ الكونِ الإنسانيِّ بكامِلِه وانتهاءُ دورةِ

---

(١) وهي تسـمية حديثـة أُطلقت على مظاهر الزواج التقليدي بعد أن شـعروا بأهميته، ويقابلها ما تم تقنينه لديهم مؤخرا كزواج المثليين (الرجال بالرجال والنساء بالنساء)، وسائر أنواع العلاقات المشبوهة التي أقيمت لها مؤسسات الخنا والفجور بحماية الحكومات.

(٢) والآن تقـومُ هذه الحكومات بمحاولاتٍ يائسـةٍ لتشـجيعِ أبناءِ الشـعبِ علـى الإنجابِ من خلالِ زيادةِ المعوناتِ المخصصةِ للأسـرةِ والأطفالِ ومنحِ الوالدينِ تسـهيلاتٍ في العملِ والضريبةِ، وينادي البعض بالاسـتعانة بالعمال الأجانب بالهجرة والتجنيس لسـد الفجوة التي تتركها معدلات تراجع المواليد؛ ولكن الخوف من فقدان فرص العمل يجبر الكثيرين على رفض هذه الفكرة.

الحَرَكَةِ المألوفَةِ في الحياةِ. وهناكَ جُملَةٌ من الأحاديثِ تدورُ في المعنى لا مجالَ لِذِكرِهـا، وإنَّما اقتَصَرنا على هذا الحديثِ كنَموذَجٍ لاجتماعِ أَهَمِّ مُهِمَّاتِ المعاني المُتَفَرِّقَةِ فيه، واللهُ أعلَمُ .

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٦١] (١).

---

(١) هذه الآية الكريمة حجة بينة على أهمية علم الساعة، وضرب الأمثلة لمعرفتها ومناقشة شؤون مستقبلها، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال في التفسير: أي: إن عيسى علامة على قرب الساعة، سواء من حيث نزوله من السماء وكشف كذب اليهود والنصارى القائلين بقتله وصلبه، أو من حيث إقامته الشريعة الإسلامية على دين ورسالة النبي محمد ﷺ، وكلا الأمرين لا يدركهما الكفار والمشركون إلا كما يسمعون ذلك من اليهود والنصارى بتفسير مخالف للحقيقة، ولهذا لما قال تعالى: ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون أي: لما ذكر عيسى بن مريم في القرآن كمثل لما عبده الكافر من الآلهة من دون الله، إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتهم بالصياح قائلين: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال ابن الزبعرى: قد خصمتك ورب الكعبة؟ أليست النصارى تعبد المسيح؟ واليهود يعبدون عزيرا، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن معهم وآلهتنا معهم! فسكت النبي ﷺ وضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال القرطبي: ولو تأمل ابن الزعبري الآية ما اعترض عليها لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ولم يرد المسيح ولا الملائكة؛ لأنها مما يعقل، فنفى معنى الآية عنها.. كما اعتقدوا. اهـ صفوة التفاسير (٣: ١٦٢).

الآيات القرآنية المعبرة عن أهمية علم الساعة

وهـذه الآياتُ ومثلُها إشـارَةٌ إلـى أهمِّيَّةِ عِلمِ السّـاعةِ وضرورةِ دراسَـتِها وطولِ التَّأمُّلِ في معانيها المعبِّرَةِ عن حالِ البشـرِيَّةِ أمامَ تحوُّلاتِ الأزمِنَةِ ومسيرَةِ التَّاريخ وكذا موقِفُ الإنسانِيَّةِ من قضايا الرِّسالاتِ والقوانين الإلهِيَّةِ وكفرِها باللهِ والنُّبُوَّةِ، ومثـلُ ذلـك قولُـه تعالـى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١] ، فالغَفلَـةُ هنا هي ما يجري عليهم من أشـراطِ وعلاماتِ السّـاعةِ المُؤَدِّيَةِ بهم إلى الإعراضِ عن تَذَكُّرِ الآخِرَةِ من جِهَةٍ، والإعراضِ عن القيام بالمسؤولِيَّاتِ الشَّرعِيَّةِ في الحياةِ الدُّنيا من جِهَةٍ أخرى .

علاقة القرآن العظيم بفقه التحولات

ومما يُؤَكِّدُ علاقَةَ القُـرآنِ العظيمِ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ نزولُهُ مُنَجَّماً على رسـولِ اللهِ ﷺ حَسَـبَ الحوادثِ والوقائِعِ والتَّحوُّلاتِ حيثُ ثبت أنَّ القُرآنَ نزل على رَسولِ اللـهِ مُنَجَّماً ـ أي: مُفرَّقاً ـ في ثلاثةٍ وعِشـرِينَ عاماً، فيُسـمَّى القُـرآنُ الذي نزل قبل الهجـرةِ بالمَكِّـيِّ والذي نـزل بعد الهجـرَةِ بالمَدَنِيِّ وقـد كتب أهلُ العِلـمِ في فِقهِ النُّزولِ وأسبابِهِ كُتُباً عديدةً .و قَسَّمَ العُلماءُ والمُفَسِّرونَ مُهِمَّاتِ القرآنِ و ما جَمَعَتهُ السُّوَرُ والآياتُ من أحكامٍ وعقائِدَ وترهيبٍ وترغيبٍ و أخبارٍ بما لا مزيدَ عليه .

التحولات البشرية والغايات المصيرية في القرآن من فقه التحولات

وتكادُ غالِبُ سُـوَرِ القُرآنِ العَظيمِ تجمَعُ بين قضايا العقيدَةِ والشَّـريعَةِ وأحكامِها والتَّرهِيـبِ والتَّرغِيبِ ومَراتِبِ السُّـلوكِ مـن جِهَةٍ، وبين فِقهِ التَّحـوُّلاتِ ، وهي ما يُعرَفُ بالقِراءَةِ الشَّرعِيَّةِ للتَّاريخِ الإنسانِيِّ من جِهَةٍ أخرى، ومنها:

١ - الإشَـارَةُ إِلَـى ذِكْرِ السّـاعَةِ وَعلاقتِهـا بِالحَـوادِثِ وَالوَقائِـعِ وَالتَّحوُّلاتِ في العُصُورِ السّـابِقَةِ لِلإِسْـلام كَمَا هُوَ فِي سُـورةِ الكهفِ لدى حِوارِ الرَّجلِ لصاحبِهِ: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٦]

وفي إِشـارة الحقِّ سـبحانهُ وتعالى لإظهارِ أهلِ الكهفِ على أهلِ عصرٍ لاحقٍ بعد

منامِهم ثلاثمئةِ سـنةٍ وتسعَ سنواتٍ فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف:٢١] ، وفي الآيةِ إشـارةٌ إلى حالِ أهلِ الكهفِ فـي مرحلةِ الكفرِ والمروقِ وما ترتبـتْ على صبرِهم وهُروبِهم بدِينِهـم ليكُونُوا لآيةٍ لمرحلةٍ لاحقةٍ يَظْهَرُ فيها أهلُ الديـنِ والإيمـانِ أو يكونُ هـذا الظهورُ موعوداً بـه لِهَدَفٍ رَبّانِـيٍّ مُحَدَّدٍ ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ .

٢- وصـفُ أحوالِ ومصيرِ أهلِ الإيمانِ في الدُّنيـا والآخِرَةِ، وأحوالِ ومصيرِ الكُفَّارِ في الحياتَينِ.

٣- بَدءُ الخليقةِ البَشَـرِيَّةِ وعلاقَتُها بالمسـؤُوليَّاتِ والخلافَةُ على الأرضِ وما تَرَتَّبَ على ذلك من ابتلاءاتٍ وحِكَمٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

٤- ثوابِـتُ النِّظـامِ الكونِـيِّ وإبداعاتِ الخالِقِ سـبحانه وتعالـى وعَرضُ هذا الإبداعِ على صِفَةِ التَّحَدِّي حيناً وعلى صِفَةِ التَّقريرِ بالنِّعَمِ والتَّعدادِ لها.

٥- وصـفُ المصيرِ الأخيرِ للعالَمِ الإنسـانِيِّ والتَّحدُّثِ عن البـرزَخِ والقيامَةِ والعَرضِ والحِسابِ والجَنَّةِ والنَّارِ والثَّوابِ والعِقابِ.

٦- إدانَـةُ أهـلِ الكِتـابِ ومُحاجَجَتُهـم فـي كافَّـةِ الشُّـؤونِ التـي كَذَّبُـوا بهـا وجَحَدوها، ورَدُّ أقاويلِهم وأباطيلِهم حيناً بالإجمالِ .. وحيناً بالتَّفصيلِ.

٧- إدانَـةُ المُنافِقِيـنَ والمُرجِفين والذين في قُلُوبهم مَرَضٌ وكَشـفُ أحوالِهم وإنذارُهُم.

٨- وصفُ مواقِفِ وأحوالِ الأنبياءِ والرُّسـلِ وما عانَوهُ في سـبيلِ الرِّسـالات مع أُمَمِهِم الكافِرَةِ.

٩- كشفُ المدرسةِ الإبليسِيَّةِ ووسائلِها الأَنَوِيَّةِ ضِدَّ البَشَرِيَّةِ وتحذيرُ الأُمَمِ والشُّعوبِ من أثر الشَّيطانِ واحتناكِهِ ودعوَتِه الشِّريرَةِ.

١٠- استخدامُ الأُسلوبِ القَصَصِيِّ لِشَرحِ أحوالِ وصِفاتِ ومواقِفِ الخليقَةِ في وجهِها النَّبَوِيِّ الأَبَوِيِّ الشَّرعِيِّ كما هو في قَصَصَ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وأحوالِ ومواقفِ الخليقةِ في وجهِها الأَنَوِيِّ الإبليسيِّ كما هو في وَصفِ فِرعونَ والنَّمروذِ وهامانَ وقارونَ وغيرِهم.

معاناة الأنبياء والرسل مع أقوامهم جزء من فقه التحولات

كما أنَّ في بعضِ سُوَرِ القُرآنِ ذِكرُ بعضِ النَّبيِّينَ ورسالاتِهِم وتحديدُ الأزمانِ التي عاشوها كنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونماذِجُ الجنوحِ والانحرافِ الذي وقعت فيه الأُمَمُ وما ترتَّبَ عليه من عُقوباتٍ وعذابٍ يختَلِفُ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ باختلافِ أنواعِ الكُفرِ والانحرافِ ، وما عاناه الأنبياءُ والرُّسُلُ أيضا من أقوامهم كمعاناةِ موسى مع بني إسرائيلَ، ومعاناةُ يونُسَ مع قومِه، وغيرِهم من الأُمَمِ التي أجرى الله لها الابتلاءاتِ والاختباراتِ، وتمييزُ الرُّسلِ والأنبياءِ عن بعضهم والتأكيد على ذلك في أكثرِ من دلالة في آياتِ القُرآنِ، كتمييزِ أهلِ العَزمِ وتفضيلِهم عن غيرِهم وما جرى في سورَةِ الكهفِ بين موسى والخَضِر من مراتِبِ العِلمِ والمعرِفَةِ القائمة على الاختبارِ في السُّلوكِ وليس في مادَّةِ المعرِفَةِ ذاتها. كذلك وما تقرَّرَ من معاني خاصَّةً في تسميةِ سُورِ القرآنِ وما تدُلُّ عليه هذه التَّسمياتُ من دلالاتٍ خاصَّةٍ كسورةِ البَقَرَةِ والنَّملِ والنَّحلِ ومريمَ والفيلِ وغيرها مِمَّا يُشيرُ إلى خُصوصيَّاتِ الأسماءِ ومرادِ اللهِ فيها وما يترتَّبُ على هذا الأمرِ عند التَّحليلِ والتَّعليلِ من دلالاتٍ هامَّةٍ تربطُ بين الاسمِ والُمسمَّى وما تعنيه دلالةُ الآياتِ المُشيرَةِ إلى ذلك.

ومِن ذلك ما اعتنى به بعضُ العُلماءِ وفي مُقدِّمَتِهم العلَّامَةُ المُجتَهِدُ أحمدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الصِّدِّيقِ الغُمارِيُّ الحَسَنِيُّ في كتابِهِ (مُطابَقَةِ الاختراعاتِ العصرِيَّةِ لما

أخبَـرَ به سَـيِّدُ البَرِيَّةِ) واعتنائُـه بالرَّبطِ الواعي بيـن مُسـتَجِدَّاتِ الاختراعاتِ وبين مفهومِ الآياتِ القُرآنِيَّةِ وتعليلُهُ الاستقرائيُّ للمعاني بما لم يسبِق له مثيلٌ.

فمِن ذلك على سبيلِ المِثالِ: قولُهُ في ص٦ بعد ذكره لِعَدَدٍ من مُختَرَعاتِ العَصرِ كالسِّـكَّةِ الحديديَّةِ وسيَّاراتِ النَّقلِ والسُّـفُنِ والبواخِرِ وغيرِها فقال: وقد أخبرَ بها ﷺ ووردت الإشارَةُ إليها في القُرآنِ والأحاديثِ النَّبوِيَّةِ، أمَّا في القُرآنِ ففي ثلاثِ آياتٍ حسبَما حَضَرَنا الآنَ:

الأولى: قولُه تعالـى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١ - ٤٢] أي: خَلَقنـا لهـم مِمَّـا يُماثِلُ الفُلكَ المشـحون مـا يركبون بـه في البَرِّ، والـذي يُماثِلُ الفُلكَ المشـحون في كِبَرِهِ وكَثـرَةِ حملِهِ هو بابور السِّـكَّةِ الحديديَّةِ وسـيَّاراتُ النَّقلِ التي تحمِلُ عَشَراتِ الرُّكابِ مع بضائِعِهم وحاجِيّاتِهم.. إلخ .

إلى أن قال: وكذلك بابورُ السِّكَّةِ الحديديَّةِ ، بل هو أولى بالشَّبَهِ والمِثلِيَّةِ للفُلكِ المشحونِ.

أمـا المُفَسِّـرون الذيـن فَسَّـرُوا المِثلَ فـي الآية بالإِبِـلِ فمعذورون لأنَّـه لم يكن فـي زمانِهـم ما يُشـبِهُ الفُلكَ في حَمـلِ الـرُّكابِ والبضائِعِ، فاضطـرُّوا لحَملِ الآية علـى الإِبلِ وإن كان حملُهـا باطِلاً مقطوعاً بِبُطلانه؛ لأنَّ الفُلكَ المشـحون يحمِلُ العَشَـراتِ من الناس بأثقالِهم ويحمِلُ مع ذلك الكثيرَ من السِّـلَعِ والبضائِعِ، وهذا بالنِّسـبَةِ لمـا كان فـي زمانِهم، أمَّا ما حدث فـي زمانِنا فالسَّـفينَةُ تحمِلُ الآلافَ من النَّاسِ ومن القناطيرِ المُقنطَرَةِ من البضائِعِ، ثم السُّـفُنُ التي كانت في زمانِهم أيضا مـع كِبَرِهـا وحملِها لِكثيرٍ من الرُّكابِ والأثقالِ كانت تجري فـي البَحرِ جَرياً حثيثاً

بالرِّياحِ كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشورى: ٣٢].

وكلُّ ذلك مُخالِفٌ لِوَصفِ الإبِلِ تَمامَ المُخالَفَةِ، فمَشيُها بَطيءٌ وحَملُها لا يُقاسُ بِحَملِ السُّفُنِ، فكيف تُفَسَّرُ الآيةُ بها؟ بل ذلك باطِلٌ قطعاً، وقد قال ابنُ عَبَّاسٍ والحَسَنُ والضَّحَّاكُ وجماعةٌ أنَّ الآيةَ المذكورةَ (وخلقنا لهم سُفُناً أمثالَ تِلكَ السُّفُنِ يركبونها) وقال النَّحَّاسُ: وهذا أَصَحُّ لأنَّهُ مُتَّصِلُ الإسنادِ عن ابنِ عَبَّاسٍ، وهذا يَدُلُّ على شُفوفِ نَظَرِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ونَظَرِهِ بِنورِ الله تعالى في معاني القُرآنِ العظيمِ، تصديقاً لِدُعاءِ رَسولِ اللهِ ﷺ: «اللهم فَقِّههُ في الدِّينِ وعَلِّمهُ التَّأويلَ»[1].

والآيةُ الثَّانيةُ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] أي: مِن جِنسِ المذكوراتِ للرُّكوبِ والزِّينَةِ، وهي أيضا تُركَبُ وتَحمِلُ الأثقالَ، فالآيةُ صريحةٌ في جميعِ أنواعِ العَجَلِ والعَرَباتِ.

والآيةُ الثَّالِثَةُ: قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ [التكوير: ٤] أي: عن السَّفَرِ عليها وحَملِ الأثقالِ أيضا.. إلى أن قال: وإنَّما عُطِّلَت عن السَّفَرِ ونَقلِ البضائِعِ عليها بِوُجودِ السَّيَّاراتِ وسِكَّةِ الحديدِ ا. هـ ص٧-٨.

ومِثلُ ذلك تفسيرُهُ لآيةِ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١] بأنَّها الطَّائِراتُ الحربِيَّةُ وما تفعلُهُ بِقنابِلِها وتخويفِها.

ونقتَصِرُ هنا على ذِكرِ الإشارَةِ لهذا الفَهمِ المُناسِبِ للزَّمانِ وما يجري فيه، وأنَّ ذلك جُزءٌ من مفهومِ قِراءَةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وعلاماتِ السّاعةِ.

---

(١) مسند أحمد (٢٤٣٩)، له طريقان في مسند أحمد رجالهما رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» للهيثمي (٩: ٢٧٩).

وبالجُملَـةِ فعلاقـةُ القُرآنِ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ عظيمةٌ ولا تزال حتى الآنَ مُستَعجَمَةً وغيرَ مخدومـةٍ ـ كمـا يَجِـبُ وينبَغـي ـ ولعـلَّ أن يأتِـيَ فـي مُسـتقبَلِ الزَّمـانِ مَن يُفسِّرُ بعـضَ الآيـاتِ والسُّـوَرِ مـن منظـورِ واقـعِ فِقـهِ التَّحـوُّلاتِ وسُـنَنِ الدِّلالَةِ والمواقِـفِ ـ ولـو مِن بعضِ الوُجوهِ ـ حيثُ إنَّنا لو نَظَرنا إلى بَعضِ السُّـوَرِ القرآنِيَّةِ وما خُصَّت به من الخُصوصِيَّاتِ لكانت وحدَها مجالًا عظيماً للنَّظرِ في هذا الشَّأنِ، فسورةُ الكَهفِ مثلاً تُسَنُّ لنا قراءَتُها كُلَّ جُمُعَةٍ ، وورد في فضلِها أحاديثُ كثيرةٌ وما هـذه السّـورَةُ إلا جُملَةٌ من التَّحوُّلاتِ التاريخِيَّةِ الخطيـرَةِ التي لها ارتباطٌ وثيقٌ بما يدورُ في الحياةِ الإنسانيَّةِ من صِراعٍ بين الخيرِ والشَّرِّ في الفِقهِ الإنسانيِّ العالَمِيِّ، أمَّا سُـورَةُ التَّوبةِ مثلا وقد بدأت بالبَراءَةِ وكَشفِ الأقنِعَةِ عن الوُجوهِ الكافِرَةِ والمُنافِقَةِ ومواقِفِهـا ، فهـي تحمِـلُ مدلولَ المناقشـةِ الواعيةِ للجُنوحِ والانحـرافِ الذي برزَ جليّاً في عصرِهِ ﷺ وبأسـلوبِ شـديدٍ وصريـحٍ من الكُفَّـارِ والمُنافِقِين حتى صار من أسـماءِها (الفاضِحَةُ) وقال عنها ﷺ حين بعث سَـيِّدَنا عَلِيّاً يَقرَؤُها في الحَجِّ: «لا يقرَؤُهـا إلا أنـا أو رَجُلٌ من أهـلِ بيتي»[1] ، وفي هذا دِلالـةٌ عظيمةٌ على أهمِّيَّةِ هذه السُّـورَةِ في دراسـةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ في المرحلَتَينِ مَكَّةَ والمدينَةِ، ومثلها سورةُ المنافقون التي تَبنَّت تعليلَ وتحليلَ مواقِفِ الجُنوحِ والانحرافِ لدى الأفرادِ ممَّن أصَّلوا وأسَّسـوا مدرسـةَ النِّفاقِ وما يترتَّبُ على هذا التأصيلِ مِن تسلسُـلٍ منهجِيٍّ أَنوِيٍّ إبليسـيٍّ للمُنافِقين داخِلَ الخَيمَةِ الإسـلامِيَّةِ عبرَ التَّاريخِ كُلِّه من خلالِ تشابُهِ المواقِـفِ والسُّـلوكِ الموصـوفِ في هذه السُّـورَةِ كوَصـفِ اللهِ تعالـى للمنافقينَ بقولـه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥] أي: بمعنى أنَّهم يقولون اسـتكباراً واسـتِحقاراً لِرَسولِ

سورة الكهف وما تشتمل عليه من دروس فقه التحولات

(١) مسند أحمد ، إسناده حسن ، تحقيق المسند لأحمد شاكر (٢: ٣٢٢).

اللهِ ﷺ: (لا نريدُ بيننا وبين اللهِ واسطةً)، ومثلُ ذلك قولُ المنافِقين ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[المنافقون: ٨] وهي سياسَةُ التَّمايُزِ والاعتدادِ بالمُواطَنَةِ وهي إحدى ظواهِرِ مدارِسِ النِّفاقِ إلى اليومِ.

المنافقون ومفهوم الحصار الاقتصادي

ومثلُ قولِهِ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾[المنافقون: ٧] وفيها إشارةٌ لِسياسَةِ المُنافقين التَّاريخِيَّةِ الدَّاعيةِ إلى مفهومِ الحِصارِ الاقتِصاديِّ والتَّضييقِ المادِّيِّ «جَوِّع كلبَكَ يتبعَكَ»، وهُو المعنى المَقْلُوبُ مِن قَوْلِ عَبدِاللهِ ابنِ أُبَيِّ بنِ سَلُولٍ وَاصِفاً أصحابَ النَّبيِّ ﷺ مِنَ المُهاجِرينَ الَّذِينَ آوَوْا إِلى المَدِينَةِ: «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَعْقِرْكَ»، بل إنَّنا إذا نَظَرنا إلى آخِرِ سُوَرِ القُرآنِ وهي سُورَةُ النَّاسِ وقد ختم اللهُ بها القُرآنَ كُلَّهُ وما فيها من أعاجيبِ الوَصفِ في الصِّراعِ الأزليِّ بين النَّاسِ والخنَّاسِ وأثرِ ذلك الشَّيطانِ ـ حتى على عالَمِ الجِنِّ ـ في بعضِ معاني قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾[الناس: ٥ - ٦] فالصُّدورُ ـ في مفهومِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ ـ هم وُجهاءُ القَومِ وأعيانُ الإنسِ والجِنِّ وقادَتُهم، وبهذا الوسواسِ في صُدورِ النَّاسِ يَضمَنُ الشَّيطانُ إفسادَ الرَّعايا والأتباعِ وكيف يجعَلُ اللهُ تعالى في الاستعاذَةِ به تعالى شَرَفَ الحِفظِ التَّامِّ من خَطَرِ الوَسوَسةِ سواءً في صَدرِ الفَردِ ذاتِهِ أو في صُدورِ وُجهاءِ المُجتَمَعاتِ.

معنى (الصدور) في تفسير صورة الناس

والقُرآنُ كُلُّهُ عند التَّأمُّلِ وحُسنِ التَّدبُّرِ مشحونٌ بِعجائِبِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وسُنَنِ المواقِفِ كما هو أيضا مشحونٌ بِسُنَنِ الدِّلالاتِ، وقد قال سبحانه وتعالى عن كتابِهِ العزيزِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: إنَّ من معانيهِ الذِّكرَى والاعتبارُ والادِّكارُ، والذِّكرى لها معانٍ كثيرَة في فِقهِ التَّحوُّلاتِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، وعلى هذا التَّعليلِ القُرآنِيِّ نَجِدُ أنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ

يشمَلُ المراحِلَ الإنسانِيَّةَ كُلَّها حَسَبَ التَّقسِيم التّالي:

أقسامُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ

ينقَسِمُ فِقهُ التَّحوُّلاتِ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ:

١- دراسةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ على عَهدِ الوَحيِ والعِصمَةِ في حياةِ صاحِبِ الرِّسالَةِ.

٢- دراسةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ من عَهدِ البَعثَةِ إلى عهدِ النَّفخِ في الصُّورِ.

٣- دراسةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ في تاريخِ الأنبياءِ والرِّسالاتِ السَّابِقَةِ ومواقِفِ الأُمَمِ والشُّعوبِ فيها .

وينطوي تحتَ هذا القِسمِ دراسةُ الحضاراتِ الشَّرعِيَّةِ والحضاراتِ الوَضعِيَّةِ عبرَ التّاريخِ.

الحضارة الشرعية

* الحضارَةُ الشَّرعِيَّةُ

هي مجموعُ الحضاراتِ التي ربطت بين الدِّيانَةِ والتّاريخِ ، ولم تخالِف الأنبياءَ والرُّسُلَ ، ومنها حضاراتٌ أشاد بها القرآنُ وتناولتها السُّنَّةُ الشَّريفَةُ بالوَصفِ الإيجابيِّ، كحضارَةِ عهدِ سَيِّدِنا داودَ و سُلَيمانَ عليهما السلام وحضارَةِ سَبَأٍ قبلَ كُفرِهم، وحضارَةِ قومِ يُونُسَ بعد إيمانِهم. وحضارَةِ ذي القَرنَينِ وغيرِهم ، وكُلُّها تنطوي تحت مفهومِ دراسَةِ التَّحوُّلاتِ الإيجابيَّةِ للمدارسِ الأَبَوِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ.

الحضارة الوضعية

* الحضارَةُ الوضعِيَّةُ

وهي الحضارَةُ التي برزت في التَّارِيخِ مُجَرَّدَةً عن الدِّيانَةِ أو مُحارِبَةً لها ، وهي حضاراتٌ كثيرةٌ ومُتنوِّعةٌ وكان مصيرُها الدَّمارُ والعذابُ ، كالحضارَةِ الفِرعونِيَّةِ والحضارَةِ الكَنعانِيَّةِ والكَلدانِيَّةِ في العراقِ، والحضارة اليمنِيَّةِ في سَبَأٍ بعد كُفرِهم

الحضارة الكنعانية والكلدانية

وغيرِها، ويطلَقُ عليها وعلى أشباهِها في المسيرَةِ التّاريخيَّةِ بالتَّحوُّلاتِ السَّلبيَّةِ والحضاراتِ المادّيَّةِ الأَنَوِيَّةِ الإبليسيَّةِ الوَضعِيَّةِ.

مادية قوم نوح والطوفان

ويكادُ القُرآنُ في تِبيانِهِ أن يُبرِزَ التَّوافُقَ المُلائِمَ بين أُسلوبِ الحضارَةِ المادِّيَّةِ الكافِرَةِ وبين العذابِ المُناسِبِ لأهلِها، فقومُ نوحٍ كانت حضارَتُهم قائمةً على عبادَةِ الأوثانِ وتأليهِ العَقلِ وعلى الجَدَلِيَّةِ وطولِ الأَمَلِ، فعاقَبَهم اللهُ بالطُّوفانِ وكان أغلَبُهم من ذُرِّيَّةِ قابيلَ.

حضارة قوم عاد والريح العقيم

وقومُ عادٍ كانوا أهلَ حضارَةٍ زراعِيَّةٍ وعِمرانِيَّةٍ وحُسنِ استغلالٍ للموارِدِ البَشَرِيَّةِ وكانت حضارَتُهم أيضاً حضارَةَ قُوَّةٍ وبَطشٍ بِحُكمِ كمالِ أبدانِهم وضَخامَةِ أجسادِهم، فَعَذَّبَهُم اللهُ بالرِّيحِ العقيم.

إبداعات قوم ثمود والصيحة

وأمَّا ثمودُ فكانت حضارُتُهم قائِمَةً على الإبداعِ المِعمارِيِّ والنَّحتِ في الصَّخرِ وإشادَةِ المُدُنِ والمباني والسُّدودِ وغيرِ ذلك مِمَّا يحتاجون إليه في حياتِهم، فعَذَّبَهم اللهُ بالصَّيحَةِ فأصبحوا في دارِهم جاثِمين..

شهوانية قوم لوط والحجارة

وأما حضارَةُ قومِ لوطٍ فكانت قائِمَةً على الرَّفاهِيَةِ والمُتَعِ الحِسِّيَّةِ وخاصَّةً أن بلادَهم كانت بلادَ أنهارٍ وبساتينَ وهواءٍ طَيِّبٍ، وهي في نواحي الشّامِ ففسقوا ومارسوا الشُّذوذَ الذي كان عادَةً من عاداتهم في مجامِعِهم ونواديهم وهو ما يُعرَفُ بالتَّحَلُّلِ الأخلاقِيِّ، وقد عذَّبَهم الله بالرَّمي بالحِجارَةِ.

تجارة قوم شعيب والرجفة

وأما قومُ شُعيبٍ فكانت حضارَتُهم قائِمَةً على التِّجارَةِ وتبادُلِ السِّلَعِ والحُبوبِ ولكنَّهم كانوا يتعامَلُونَ بالغِشِّ والتَّطفِيفِ بَحثاً عن المكسَبِ المادِّيِّ، فعذَّبَهُم اللهُ بالرَّجفَةِ.

عمران قوم سبأ والسيل العرم

وأمَّا قومُ سَبَأٍ كانت حضارَتُهم قائِمَةٌ على إنجاحِ الزِّراعَةِ والصِّناعاتُ المتفرِّعَةِ

عنهـا والإبـداعِ الفَنِّـي فـي المعمـارِ ـ كما هو فـي عَـرشِ بَلقِيـسَ ـ إلا أَنَّهم كفروا وأعرضـوا فعذَّبَهُـم اللـهُ بِسَـيلِ العَـرِمِ الذي هَدَّم السَّـدَّ وكان سـبباً فـي هِجراتِهم وانقطاعِ حضارَتِهم الواسِعَةِ وكانوا يعبُدُون الشَّمسَ ووصَفَهم الله في سورَةِ النَّملِ ، بقولـه مُعَبِّراً عن قول هُدهُدِ سُـلَيمانَ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

الحضارة الفرعونية وتعدد العقوبات

وأمـا الحضـارَةُ الفِرعونِيَّـةُ فكانت قائِمَـةً على إبداعـاتٍ مُتنوِّعَةٍ ومنهـا الزِّراعَةُ والصِّناعَـةُ وفَنُّ البناءِ واسـتخراجِ المعادِنِ ونِظامِ الرَّيِّ والسُّـدودِ والنِّظامِ الإدارِيِّ وبعثَ الله لهم موسى ﷺ فكذَّبُوهُ وأظهروا مهاراتِهم في السِّحرِ أمامه فعذَّبَهم الله بأصنافِ العذابِ كالجرادِ والقُمَّلِ والضَّفادِعِ والدَّمِ ، ثُمَّ كانت نِهايَةُ حضارِتِهم إغراقُ فِرعونَ وجُنُودِهِ في البَحرِ الأحمرِ المعروفِ (بِبَحرِ القَلزَمِ).

الحضارة العبرية وتنوع الآيات

والحضـارَةُ اليهودِيَّـةُ العِبرِيَّةُ وهي حضارةُ بني إسـرائيلَ ـ وكانت بادي ذي بَدءٍ قائمةً على الرَّبطِ بين الدِّيانَةِ والتّاريخِ عبر عُصورٍ مُتعَدِّدةٍ ـ ولكنَّ بني إسـرائيلَ بين الحيـنِ والحين كانـوا يخالِفون الدِّيانةَ فيتعَرَّضـون لِعذابِ اللهِ وغَضَبِـه، بَدءاً مِن عَصرِ موسـى وما تـلاه من العُصورِ، وكان عذابُهُـم مُتَنَوِّعاً بِتَنَـوُّعِ معاصيهم ، وقد وصـفَ اللهُ ذلـك في كتابه العزيزِ في أكثرِ مِن سـورَةٍ ، ومِن ذلك قتلُهم لأنفُسِـهم بأمرِ اللهِ وتحريمُ صَيدِ السَّمَكِ عليهم يومَ السَّبتِ ، وضياعُهُم في التِّيهِ أربعينَ عاماً ، وتحريمُ الشُّـحومِ عليهم ، وهذا كُلُّه في عَصرِ موسـى ، وفي ما بعد ذلك تعرَّضوا للمَسـخِ قِـرَدَةً وخنازيرَ وصاروا كما ذكـرت بعضُ الآياتِ الكريمـةِ وكما ورد في كُتُـبِ الحديـثِ وسـائِلَ لِتَحريـفِ الكَلِمِ عـن مواضِعِه وهـو ما يعرَفُ فـي العَصرِ الحديـثِ بالدَّجَـلِ وتزييفِ الحقائِقِ ، وقد اسـتَمَرُّوا على ذلك منـذ عهودِ أنبيائِهِم حتّى اليومَ وهم قَتَلَةُ الأنبياءِ ومُحرِّفو الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ والمُفسِدون في الأرضِ إلى

نِهايَةِ عَصرِ الدَّجَّالِ، وقد وصَفَهم الله بذلك في سـورة الإسراءِ بقوله : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

السنة الشريفة واعتناؤها بفقه التحولات

كما تُعتبَرُ السُّـنَّةُ الشّـريفَةُ مصدراً هامّاً من مصادرِ فِقه التَّحوُّلاتِ تأصيلاً وسَرداً تاريخيّـاً سـواءً في تناوُلِ مرحَلَةِ ما قبل الرِّسـالةِ المُحَمَّديَّـةِ تصاعُديّاً إلى (آدمَ) أو تقريراً للمرحلةِ المُبارَكَة التي عاشها ﷺ في مَكَّةَ والمدينةِ أوفيما أخبر عنه ﷺ عن علاماتِ السّـاعةِ وأشـراطِها والفِتَنِ ومُضِلّاتِ الفِتَنِ التي تكون على ساحةِ الحياة إلى قيام السّـاعةِ، ويؤيِّدُ هذا المعنى ما ورد في «صحيحِ مُسلم» من حديثِ عمرِو بن أخطبَ الأنصارِيِّ رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رَسولُ اللهِ ﷺ الفَجرَ ، وصعد المِنبَـرَ فَخَطَبَـنا حتّى حضـرت الظُّهرُ ... إلخ الحديـثِ، وفيه قـال : « فأَخبَرَنا بما كان وبما هو كائِنٌ، فأعلَمُنا أحفَظُنا »[1] وشـاهِدُنا هنا حولَ تأصيلِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ تصاعُديّاً قولُهُ « فأخبَرَنا بما كان» ، أي: ما قبلَ عَصرِهِ ﷺ « وما هو كائِنٌ» أي: في عهدِهِ ﷺ وما يأتي بعدَهُ إلى قيامِ السّاعةِ.

وأما مفهومُ السُّنَّةِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ والاستدلالِ بها فينقَسِمُ الى قِسمَينِ:

١- قسـمُ تأصيـلٍ وقواعِـدَ: وهـو مـا أُصِّلَ بـه فِقـهُ التَّحـوُّلاتِ وتميَّزَ بـه قراءةً واستِدلالاً.

٢- سردُ وقائِعِ التّاريخِ الشَّرعِيِّ وتعليلُها وربطُها بما يُناسِبُها من الزَّمانِ.

أساس هذا العلم هو الربط الواعي بعموم الزمان أو المكان دون تحديد، فالتحديد مزلة كبرى

وأسـاسُ القِراءَةِ للسُّـنَّةِ الشَّـريفَةِ الرَّبطُ الواعي بين النَّصِّ والزَّمانِ والمكانِ دون تحديـدِ الأفرادِ أو التَّواريخِ الزَّمَنيَّةِ باليوم والشَّـهرِ والسَّـنَةِ بل تُذَكِّـرُ بِعُموميَّتِها لما في ذلك من التَّشـابُهِ الذي لا يُمكِنُ معرِفَتُهُ بالتَّخمينِ والتَّقديرِ العَقلانِيِّ، وفي هذا

(١) صحيح مسلم (٧٤٤٩)، وانظر إتحاف التويجري (١: ١٤).

البابِ زَلَّ كثيرٌ من المُتَحَدِّثين عن علاماتِ السّاعةِ، فمنهم مَن رَبَطَ بين الأشخاصِ في مرحلةٍ وبين مَن أشار إلى ظُهورِهِم نَصُّ الحديثِ كالمَهدِيِّ على سبيل المثال، فالمُعتَمَدُ ذِكرُ الخَبَرِ تقريبِيّاً من غيرِ مُسَمَّياتٍ.

ويُعرَفُ تأصيلُ العلمِ بِعلاماتِ السّـاعةِ ورُكنِيَّتِهِ واعتبارِها فِقهاً شـرعِيّاً كما سبق ذكـرُهُ مـن خلالِ قِراءَتِنـا لحديثِ جبريـلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أخبِرني عن السّـاعَةِ» ، قال ما المسـؤولُ عنهـا بِأعلَمَ مِن السّـائلِ قال : أخبِرنـي عن أماراتِها، قـال : أن تَلِدَ الأَمَةُ ربَّتَهـا وأن تـرى الحُفاةَ العُراةَ رِعاءَ الشّـاةِ يتطاولـون في البُنيانِ ، ثُـمَّ انطلقَ فلَبِثتُ مَلِيّـاً ، قـال : يـا عُمَرُ أتـدري من السّـائِلُ ؟ قلتُ : اللهُ ورسـولُهُ أعلَـمُ ، قال : ذاك جِبريـلُ أتاكم يُعلِّمُكم أمورَ دينِكُم ، أو يُعَلِّمُكُم دينكُم .وحديثُ الأعرابِيِّ السّـائِلِ عن السّـاعةِ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «فإذا ضُيِّعت الأمانَةُ فانتظر السّاعَةَ»، قال: كيف إضاعَتُها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السّاعَةَ»[1].

ثمرة الدراسة لفقه التحولات

وهـذه ملامِحُ وإشـاراتٌ بَيِّنَـةُ المَقصَدِ واضِحَـةُ المَعنى في حُصـولِ التَّحوُّلاتِ على مُحيطِ الحياةِ الإسـلامِيَّةِ ونَقضِ عُرَى الدِّينِ وتَبَوُّءِ الذين ليسـوا أهلاً له أعلى مراتِـبِ قرارِهِ، وأنَّها علامةٌ تدُلُّ على الانحدارِ والانحرافِ وقُربِ نِهايَةِ الكونِ إلى القِيامَةِ.

ثمرة هذا العلم

وثَمَـرَةُ هـذا الأمرِ أن يُنقِذَ المرءُ ما يُمكِنُ إنقاذُهُ مـن أمرِ الخُوَيصَةِ المُعَبَّرِ عنه في حديثِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من قوله: «فعليك بِخُوَيصَةِ نَفسِكَ» أو أن يَتَّخِذَ المَرءُ لِنَفسِهِ مَلاذاً أو مَلجأً مِن الفِتَنِ ومُضِلّاتِها، ويسألُ اللهَ العافيةَ فيما يُجريه مِن قضائِهِ وقَدَرِهِ علـى عِبادِهِ ويحفَظَ بَيضَةَ الإسـلامِ من هَيمَنَـةِ الدَّجلِ والدَّجاجِلَـةِ الذين يُحرِّفون

(١) البخاري (٥٩).

الكَلِمَ عن مواضعه ويَسعَون في الأرضِ فَساداً والله لا يُحِبُّ المُفسِدين.

علاقَةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ بالدَّعوَةِ إلىٰ ٱللّٰهِ

علاقة فقه التحولات بالدعوة إلى الله

يأتـي فِقهُ الدَّعـوَةِ إلى اللهِ في التَّرتيبِ الشَّـرعِيِّ لمجرى التَّحوُّلاتِ سـابقاً لعلمِ الأُصـولِ ومرحلَةِ التَّدوينِ التي عُرِفَت فيما بعدُ، حيـثُ إنَّ فِقهَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ بدأ منـذُ نُزولِ القُـرآنِ في غارِ حِراءَ، وبهذا الفِقهِ انتشـرت الدَّعوَةُ فـي مَكَّةَ وما حولها ثلاثةَ عَشَرَ عاماً قبل تأصيلِ الشَّريعةِ العَمَلِيَّةِ والأحكامِ وعَشرَ سنواتِ بالمدينةِ أثناءِ التَّكليفاتِ الشرعيَّةِ العَمَلِيَّةِ والأحكامِ، وكان أساسُ هذا الفِقهِ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّهِ ﷺ والأخـلاقَ المُحَمَّدِيَّـةَ، قال تعالى عن هـذه الثَّلاثَةِ الأُصولِ في فِقـهِ الدَّعوَةِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾[الأنعام: ٨٩] ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ ﴾[الجمعة: ٢].

واستمَرَّ العَمَلُ بهذا الفِقهِ كأُسلوبٍ ووسيلةٍ للمعاملَةِ بين الجميع قبل ظُهورِ عِلمِ الأُصـولِ ومـا تَفرَّعَ عنه حيثُ كان فِقهُ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وعاءً لكافَّةِ العُلومِ يَتَحَقَّقُ به دون غيـرِهِ نجاحُ مَشـروعِيَّةِ الدَّعوَةِ إلى اللـه في المجتمعاتِ على الوَجهِ المُسـنَدِ المُتَّصِلِ بالثَّوابتِ الثَّلاثَةِ:

الثوابت الثلاثة في فقه الدعوة إلى الله

(الكتـابِ، السُّـنَّةِ، النَّبُـوَّةِ) وبانعدامِـهِ ـ أي: فِقـهِ الدَّعوَةِ، والذي هـو أيضاً فِقهُ التَّحوُّلاتِ ـ تفسُـدُ علاقَةُ الدَّاعي والعالِمِ بالمُجتمَعاتِ وتفسُدُ علاقَةُ المُجتمَعاتِ بالدَّعوَةِ والدَّاعي وتتحوَّلُ الدعوةُ إلى سُلطَةٍ وهَيمَنَةِ سلاحٍ و جاهاتٍ وطُموحاتٍ، أو إلى خُضوعٍ واستِسـلامٍ واسـتِتباعٍ وعُنفٍ ووَهَنٍ وهَدمٍ ـ كما جرى في المراحِلِ السّابِقَةِ ـ وكما نشهَدُهُ اليومَ في الواقِعِ العربيِّ والإسلاميِّ.

جلسة بين الأنبياء والرسل ناقشوا فيها فقه التحولات

بل إنَّ الاهتمامَ بفقهِ التحولاتِ وعلاماتِ الساعةِ كانَ أحدَ الأمورِ التي نَاقَشَها رسولُ اللهِ ﷺ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ مع نُخْبَةٍ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ، كما ورد في ابنِ ماجهْ عن ابنِ مسعودٍ قال: «لمّا كان ليْلَةَ أُسْرِي بِرسُولِ اللّهِ ﷺ لقِي إِبْراهِيم ومُوسى وعِيسى، فتذاكرُوا السّاعة فبدؤوا بِإِبْراهِيم فسألُوهُ عنْها، فلمْ يكُنْ عِنْدهُ مِنْها عِلْمٌ، ثُمّ سألُوا مُوسى فلمْ يكُنْ عِنْدهُ مِنْها عِلْمٌ، فرُدّ الْحدِيثُ إِلى عِيسى ابْنِ مرْيم فقال: قدْ عُهِد إِليّ فِيما دُون وجْبتِها فأمّا وجْبتُها فلا يعْلمُها إِلّا اللّهُ، فذكر خُرُوج الدّجّالِ قال: فأنْزِلُ فأقْتُلُهُ، فيرْجِعُ النّاسُ إِلى بِلادِهِمْ فيسْتقْبِلُهُمْ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ وهُمْ مِنْ كُلِّ حدبٍ ينْسِلُون، فلا يمُرُّون بِماءٍ إِلّا شرِبُوهُ ولا بِشيْءٍ إِلّا أفْسدُوهُ، فيجْأرُون إِلى اللّهِ فأدْعُو اللّه أنْ يُمِيتهُمْ فتنْتُنُ الْأرْضُ مِنْ رِيحِهِمْ فيجْأرُون إِلى اللّهِ فأدْعُو اللّه، فيُرْسِلُ السّماء بِالْماءِ فيحْمِلُهُمْ فيُلْقِيهِمْ فِي الْبحْرِ، ثُمّ تُنْسفُ الْجِبالُ وتُمدُّ الْأرْضُ مدّ الْأدِيمِ، فعُهِد إِليّ متى كان ذلِك كانتْ السّاعةُ مِنْ النّاسِ كالْحامِلِ الّتِي لا يدْرِي أهْلُها متى تفْجؤُهُمْ بِوِلادتِها»[1].

وفي هذا الحديثِ إشارةٌ واضحةٌ إلى علاقةِ الأنبياءِ الأربعةِ إبراهيمَ وموسى وعيسى ونبيِّنا محمدٍ ﷺ بالساعةِ وعلومِها.. إلا أنَّ سياقَ الحديثِ بَيَّنَ أنَّ مخاطبةَ إبراهيمَ وموسى عن الساعةِ كانت حولَ وَجْبَتِها، أي: قِيامِها، فلم يَكُنْ لهمْ بذلكَ علمٌ.. أما عيسى فقد أزالَ الإشكالَ بأمرين:

(١) أَنَّهُ أسندَ عِلْمَ الساعةِ في قيامها إلى اللهِ ولم يكنْ لهُ بها علمٌ كغيرِه.

(٢) أَنَّهُ كشفَ عن فقهِ التَّحَوُّلات والعلمِ بعلامات الساعةِ فيما عُهِدَ إليهِ وخاصةً في أمرِ الدَّجَّالِ ويأجوجَ ومأجوجَ وما بَقِيَ منَ الزمنِ المتقارِبِ حتّى قِيَامِها.

---

(١) ابن ماجهْ (٤٠٧١)، إسناده صحيح، «موسوعة الفتن» (١٣٥).

وعلى هذا فيكونُ النبيُّ محمدٌ ﷺ هو المعنيُّ بالكشفِ عن الساعةِ وعلاماتها فيما يخصُّ الزمنَ كُلَّهُ ، وقد أَفْصَحَ ﷺ عن هذا العلمِ كما سيأتي حَتّى صَارَ أَحَدَ قَوَاعِدِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ تعالى ومعالجةِ شؤونِ الأممِ في مراحلِ التَّحَوُّلِ والوَهَنِ والغُثَاءِ.

ترتكز الدعوة إلى الله على عاملين اساسيين

إنَّ مَنهَجِيَّةَ الدَّعوَةِ الى اللهِ ترتكزُ على عامِلَينِ أساسِيَّينِ:

١- فقهُ الدَّعوَةِ: الكتابُ والسُّنَّةُ بالسَّنَدِ المُتَّصِلِ .

٢- فِقهُ الدَّاعي: النُّبُوَّةُ ـ أي الأخلاقُ النَّبوِيَّةِ ـ والاستقامَةُ.

وتتحدَّدُ هذه الشُّروطُ في حُسنِ الاقتداءِ والاهتداءِ بالمتبوعِ الأعظَمِ ﷺ حيثُ إنَّ حياتَهُ في (مَكَّةَ والمدينةِ) كُلّها في أساسها دَعوَةٌ، ثُمَّ تفرَّعَ عنها ما وجب على المسلمين مِن واجباتٍ شرعيَّةٍ ومسؤوليّاتٍ اجتماعيَّةٍ ،فيكونُ على هذا الأساسِ فِقهُ الدَّعوَةِ شَرطاً سابقاً لحامِلِ الشَّريعَةِ وحامِلِ فِقهِ الأُصولِ.

دليل فقه الدعوة

ودليلُ ذلك في فِقهِ الدَّعوَةِ قولـه تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥].

دليل فقه الداعي

كما أنَّ دليلَ فِقهِ الدَّاعي قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾[الأحزاب: ٢١].

فالحِكمَةُ والموعِظَةُ الحَسَنَةُ والمُجادَلَةُ بالتي هي أحسَنُ في الآيةِ الأولى فِقهُ دعوَةٍ.

والاقتداءُ والاهتِداءُ بِرَسولِ اللهِ في الآيَةِ الثّانِيَةِ فِقهُ الدَّاعي.

شرط الداعي الحق

وبِهما معاً يتحقَّقُ الإسلامُ في الشُّعوبِ معنىً وصورَةً، ولهذا فَإنَّ من شروطِ

انتقالِ فقهِ الدَّعوَةِ وفقهِ الدَّاعي من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ وُجودُ التَّسلسُلِ الشَّرعِيِّ في الجانِبَينِ:

أولاً: التَّسلسُلُ الشَّرعِيُّ بالسَّنَدِ في فِقهِ الدَّعوَةِ.

ثانيا: التَّسلسُلُ الشَّرعِيُّ بالسَّنَدِ في فِقهِ الدَّاعي، قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾ [الجمعة: ٣ - ٤] والإلحاقُ في أَحَدِ معانيه إشارةٌ إلى السَّنَدِ المُتَّصِلِ .

حديث العرباض ابن سارية وموقعه من فقه التحولات

ويُؤكِّدُ ذلك حديثُ العِرباضِ بنِ سارِيَةَ الذي كان من آخِرِ ما تكلَّمَ به ﷺ في حياتِهِ وهو أصلٌ من أُصولِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ نَصّاً وتطبيقاً، فأمّا نَصُّهُ فهو: «خطبَنا رَسولُ اللهِ ﷺ خُطبَةً بَليغَةً ، ذَرَفَت منها العُيونُ ، ووَجِلَت منها القلوبُ، قُلنا: يا رَسولُ الله ، لعَلَّها خُطبَةُ مُودِّعٍ ، فأوصِنا؟ قال: أُوصِيكُم بِتَقوى اللهِ والسَّمعِ والطَّاعَةِ ، وإن تَأمَّرَ عليكم عَبدٌ، إنَّه مَن يَعِش مِنكم فسيرى اختِلافاً كثيراً ، فعلَيكُم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرّاشِدين المَهدِيِّينَ ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، وإيّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ»(١).

وفي رواية أخرى: «اعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا به شيئاً، وأطيعوا مَن ولّاهُ اللهُ أمرَكم ، ولا تُنازِعوا الأمرَ أهلَهُ ولو كان عَبداً أسودَ ، وعليكم بما تعرِفون من سنة نبيكم والخُلفاءِ الرَّاشِدين المهدِيِّين عَضُّوا على نَواجِذِكم بالحقِّ»(٢).

وقوله: «بما تعرِفون» كأنَّه يُريدُ بها (من سُنَّتي) أي: مواقِفي، وفي حديثِ الباهليِّ الذي رواه البخاريُّ ومسلِمٌ إشارَةٌ واضِحَةٌ إلى مسألَةِ السَّمعِ والطَّاعَةِ عند

---

(١) رواه أبوداود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٨٩١).

(٢) تاريخ دمشق (٤٠: ١٧٧) وقال فيه ابن عساكر : له متابعة.

الاختلافِ على القرارِ حيثُ قال: «ولا تُنازِعوا الأمرَ أهلَهُ وإن كان لكم».

وفي روايةِ مُسلمٍ عن عُقبَةَ ابن عامرٍ حديثٌ آخَرَ له علاقَةٌ هامَّةٌ بتأصيلِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وهو قولُهُ ﷺ: «إنِّي لستُ أخشى عليكم أن تُشرِكوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أن تنافَسُوا فيها فتقتَتِلوا فتَهلَكوا كما هلك مَن كان قبلَكم»[1]. قال عُقبَةُ: فكانت آخرُ ما رأيت ﷺ على المِنبَرِ.

تأصيل فهم فقه التحولات للأحاديث السابقة

وفي هذَينِ الحديثَينِ تأصيلٌ هامٌّ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ لأُمُورٍ:

١- تخصيصُ الحديثِ لما يجري من التَّحوُّلاتِ والاختلافاتِ في مسألَةِ القرارِ (قرارِ الحُكمِ والعِلمِ) وليس في نُصوصِهِ التَّعبُّدِيَّةِ فقط.

٢- تأصيلُ سُنَّةٍ عَمَلِيَّةٍ تخدمُ فِقهَ الدَّعوَةِ في دِراسَةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وهي سُنَّةُ المواقِفِ.

إقامة الدعوة وأمة الإجابة

كما تفرَّعَ عن هذا الفَهمِ تأصيلُ سُنَّةٍ أخرى من فِقهِ الدَّعوَةِ وهي (سُنَّةُ الدِّلالَةِ) وبهذا تَتَجَدَّدُ عِلاقَةُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ بالدَّعوَةِ إلى اللهِ تعالى مُنذُ أن كان رسولُ اللهِ ﷺ في مَكَّةَ والمدينَةِ يَضَعُ لأُمَّتِهِ الفِقهَينِ الشَّرعِيَّينِ.

- فِقهُ الدَّعوَةِ إلى اللهِ بين أُمَّةِ الإجابَةِ وأُمَّةِ الدَّعوَةِ.
- فِقهُ العُلومِ الشَّرعِيَّةِ عقيدَةٌ وشريعةٌ وسُلوكٌ.

وكما وضع ﷺ ثوابتَ هَذَينِ الفِقهَينِ كمادَّتَي عِلمِ تَعبُّدٍ ودِيانَةٍ فقد حدَّدَ أوعِيَتَها البَشَرِيَّةَ الحامِلَةَ عنه سلامَةَ النَّهجِ وعدالَةَ الموقِفِ، وعند دراسَتِنا لِنماذِجِ التَّقسيمِ لدى عُلماءِ الأُصولِ للسُّنَّةِ الشَّريفَةِ نَجِدُ أنَّ السُّنَّةَ التَّقريرِيَّةَ هي السُّنَّةُ التي جرت على لسانِ أو فِعلِ بَعضِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وأقرَّها ﷺ وصارت جُزءاً من السُّنَّةِ

---

(١) صحيح مسلم (٦١١٧).

الشَّرعِيَّةِ.

حصانات النبي ﷺ لبعض أصحابه وتجريحه آخرين وأهمية ذلك في فقه الدعوة

وفي هذا المِضمارِ نَجِدُ أنَّ العَديدَ مِن المواقِفِ ذات العلاقَةِ بالتَّحوُّلاتِ قد بَيَّنت عَدَمَ اندِراجِ مواقِفِ وسُلوكِ بعضِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم كاسم مُجَرَّدٍ وخاصَّةً مِمَّن وقعوا في دائِرَةِ النِّفاقِ في مَفهومِ السُّنَّةِ التقريرِيَّةِ بل دمغ النَّبيُّ ﷺ أقوالَهم وأبرَزَ إحداثَهم وبِدعَتَهم وتَمَيَّزُوا عن أصحابِ النَّبيِّ العُدُولِ بما قال النَّبيّ ﷺ فيهم، كقولِهِ ﷺ في أحدهم: «يخرُجُ من ضِئضِىءِ هذا أقوامٌ»[1] وقوله: «أوَّلُ مَن يُغَيِّرُ سُنَّتي رَجُلٍ من بني فُلانٍ»[2].. وقوله: «لو قُتِلَ اليومَ ما اختلف رَجُلانِ من أُمَّتي»[3]... الخ وبهذه القواعِدِ تأصَّلت السُّنَّةُ التَّقريرِيَّةِ بِخُصوصِ الذين أقرَّ النَّبيُّ أقوالَهُم وأفعالَهُم، وأمَّا سُنَّةُ المواقِفُ فقد أصَّلت مواقِفَ النَّبيِّ ﷺ من أولئك الذين خرجت أقوالُهم وأفعالُهم عن مفهومِ السُّنَّةِ إلى البِدعَةِ سواءً كانوا أفراداً أو جماعاتٍ.

بعض البدع المدموغة من عهد الرسالة

ولهم تَسَلسُلٌ في مقارَفَةِ البِدعَةِ القولِيَّةِ كقولِ حُرقوصٍ في القِسمَةِ وما تَرتَّبَ على ذلك من قولِ النَّبيِّ ﷺ: «يخرُجُ من ضِئضِئ هذا» أي: على مثالِهِ ومِن نموذَجِ مَدرَستِهِ وفِكرِهِ، والبِدعَةِ الفِعلِيَّةِ كبِدعَةِ بناءِ مسجِدِ الضِّرارِ الذي أمر النَّبيّ ﷺ بِهَدمِهِ، والبِدعَةِ التَّقريرِيَّةِ كمُوافَقَتِهم أفعالَ المُنافِقِينَ وتأييدِهم لليَهودِ والنَّصارى ومُدعي النُّبُوَّةِ وإقرارِهم على الكُفرِ فيما فعلُوهُ ضِدَّ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ، وما أقرَّهُ بعضُ المُنافِقِين والفاسِقِينَ مِن تأييدِ مُسيلِمَةَ الكَذَّابِ، ويدخُلُ في البِدعَةِ التَّقريرِيَّةِ

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٠٠)

(٢) عزاه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤: ٣٢٩) إلى ابن أبي عاصم وحسن إسناده.

(٣) رواه أحمد (٥: ٤٢)، وإسناده صحيح على شرط مسلم، «العراق في أحاديث الفتن» لأبي عبيدة مشهور حسن سلمان (١: ٥٣).

مـا يكتبُه بعضُ المُتأخِّرينَ من تأييدِ مواقِفِ الثُّوارِ ضِدَّ عُثمانَ وضِدَّ آلِ البَيتِ تَبرِئةً للظَّلَمَـةِ مِـن أصحابِ المُلكِ العَضـوضِ ومُناهَضَةً للنَّمَطِ الأوسَـطِ وحَمَلَةِ مَنهجِ الخلافَةِ الأَبَوِيِّ النَّبَوِيِّ الشَّرعِيِّ، أو ما يكتبُهُ بعضُ الباحثين المُعاصِرين وينالون به الشَّهاداتِ الأكاديمِيَّةِ والمراتِبِ العِلمِيَّةِ من تأييدٍ ونُصرَةٍ لمدارسِ القَبضِ والنَّقضِ المُعاصِرَةِ في هَجمَتِهم البِدعِيَّةِ على آلِ البَيتِ النَّبَوِيِّ ومن ارتَبَطَ بِمَدرَسَتِهم الذَّوقِيَّةِ ، أو ما اعتَنَقوه مِن بعضِ مذاهِبِ أهل السُّنَّةِ والجماعَةِ الفِقهِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ.

سُنَّةُ المواقِفِ وسُنَّةُ الدِّلالةِ وموقِعُها من فِقهِ التَّحوُّلاتِ

التعريف بلفظ «السنة» لغة واصطلاحا

عُرِّفَت السُّنَّةُ لُغةً بالطَّريقَةِ والأسلوبِ والسِّيرَةِ حميدةً كانت أو ذميمةً، والجمعُ (سُنَنٌ)، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ [الكهف: ٥٥] وسُنَّةُ الأوَّلين مواقِفُهم وماذهب إليه آباؤُهم من الطَّريقةِ والسِّيرَةِ والفَهمِ والتَّعليلِ، وقد تكونُ المُكابَرَةَ والتَّحدِّيَ، كما قال الزَّجَّاجُ: سُنَّةُ الأوَّلين أنَّهم عاينوا العذابَ فطلب المشركون أن قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحَقَّ من عندك فأمطِر علينا حِجارَةً من السَّماءِ.

وفي الحديثِ: «مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً وهذه الرِّوايةُ من غيرِ لَفظِ «في الإسلام» فَلَهُ أجرُها وأجرُ مَن عَمِلَ بها»[1] ومعنى «مَن سَنَّ سُنَّةً» يريدُ عملَها ليُقتدى به فيها، وكُلُّ مَن ابتدأَ أمراً عَمِلَ به قومٌ بعده قيل: هو الذي سَنَّهُ.

وقد تكرَّرَ في الحديثِ ذِكرُ السُّنَّةِ وما تصرَّف من لفظها، قال ابن منظور: (والأصلُ فيه الطَّريقةُ والسِّيرةُ، وأما في الاصطلاحِ الشَّرعِيِّ فالسُّنَّةُ إنما يُرادُ بها ما أمر به النَّبيُّ ﷺ وندب إليه قولاً وفعلاً وتقريراً مِمَّا لم ينطِق به القُرآنُ أو ما لَزِمَ تفسيرُهُ وتعليلُهُ من معانيه، ولهذا يُقالُ في أدلَّةِ الشَّرعِ (الكتابُ والسُّنَّةُ) أي: القرآنُ والحديثُ) انتهى[2]. وهما المصدران الأساسِيَّان للتَّشريعِ كضابطٍ نَصِّيٍّ للأحكامِ المُقرَّرةِ لدى عُلَماءِ الأُصولِ منذُ بدايةِ عَصرِ التَّدوين.

---

(١) أصل الحديث في مسلم (٦٩٧٥) وهذه رواية مسند أحمد (١٩٧٢١).

(٢) لسان العرب (١٣: ٢٢٠)، وفيه: وَالسُّنَّةُ الطَّرِيقَةُ وَالسُّنَّةُ السِّيرَةُ حَمِيدَةً كَانَتْ أَوْ ذَمِيمَةً، وَالْجَمْعُ سُنَنٌ مِثْلُ: غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ.

مـع أن بعـضَ رِواياتِ الأحاديـثِ تُعْطِي السُّـنَّةَ مفهومَ المواقـفِ، وتجعلُ عِلْمَ الحديثِ مسـتقلًّا عنها، وهو ما يُؤَيِّدُ سُـنَّةَ المواقفِ الّتي نحنُ بصَدَدِها، فقد رَوَى الطبرانيُّ والخطيبُ البغداديُّ والرّامَهُرْمُزِيُّ بأسانيدِهم عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: «اللهُمَّ ارْحَمْ خُلَفَائِي»، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ ومَن خلفاؤُكَ قال: «الَّذِينَ يَأْتُونَ مِن بَعْدِي يَرْوُونَ أَحَادِيثِي وَسُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ»[1].

فالنصُّ الحديثيُّ هنا (أحاديثي) سابقٌ للسُّنَنِ (سُنَّتِي) ومُغايرٌ لها، والتي هي (سننُ المواقـفِ)، ومنفصـلٌ عنها من حيثُ التعريفُ، ويُؤَيِّدُ هـذا الأمرَ ما رواه الحافظُ ابـنُ حجرٍ فـي «الفتح» من حديثِ «يكونُ بَعْـدِي أَئِمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي ولا يَسْـتَنُّونَ بِسُـنَّتِي»، والمعلومُ أنّ الهديَ النبويَّ هو العلمُ بالحديثِ الشـريفِ وما تَفَرَّعَ عنه، وأما السُّـنَّةُ هنا فلا علاقةَ لها بالنصوصِ الحديثيـةِ، وإنما هي المواقفُ الخاصةُ به صلى الله عليه وآله وسلم في تطبيقِ العلمِ وثمراتِهِ، وعلى هذا **فسُنَّةُ المواقِفِ** هي طريقةُ وسُلوكُ وتَصرُّفاتُ المتبوعِ الأعظَمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما يعامِلُ المُوافِقَ والمُعارِضَ من سَـعَةِ الأخلاقِ وعَـدَمِ الأخذِ بالجريرَةِ واتِّخاذِ الموقِفِ المُناسِـبِ بِحصانَةِ الوَحيِ والعِصمَةِ والأخلاقِ، وهي أساسُ فِقهِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ.

سنة المواقف
وسنة الدلالة

وأمّـا **سُنَّةُ خُلَفائِهِ الرَّاشِدين المهدِيِّين** فهـي مـا اجتهـدوا فيه مِـن اتِّخاذِ الموقفِ بعد النَّظَرِ للسُّنَنِ الوارِدَةِ بما تقتضيه المصلَحَةُ العامَّةُ من غيرِ انحيازٍ ولا غمطِ حَقٍّ لِأَحَدٍ ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ.

ومنهـا موقفُ الإمامِ علـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قبولِ قرارِ الخلافةِ والعمـلِ بهِ مع الخلفاءِ على تحقيقِ الاسـتقرارِ وسـلامةِ الاستمرارِ مع وجودِ النصِّ الذي احتجَّ به البعضُ

(١) ضعيف، من مراسيل الحسن، "صون الشرع الحنيف"، عمرو عبدالمنعم.

علـى وجـوبِ خلافتِـه دونَ غيرِه، فموقفُه يعدُّ سـنةً من سـننِ الخلفاءِ الراشـدينَ، ومنها موقفُ الإمامِ الحسنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تنازلِه عن الخلافةِ وهو يحملُ البيعةَ العامةَ من المسـلمين، ومنها موقفُ الإمامِ الحسـينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخروجـه من أرض الحجاز لتجنيبِهـا مَغَبَّـةَ الدمـاءِ والحربِ وهو يعلـمُ أنه مقتـولٌ، فلم يتأخرْ عن قضـاءِ اللهِ وقـدرِه، بل خرجَ إلى العراقِ مع جملةٍ مـن آل البيتِ دونَ رغبةٍ في حربٍ أو قتالٍ، وإنمـا موقـفٌ أبويٌّ نبويٌّ أقامَ بـه الحُجَّةَ على فريـقِ المحبيـنَ المتخاذلينَ وفريقِ المبغضينَ القاتلينَ، وظلَّ درساً لآل البيتِ ومَن تبعَهم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدينِ.

والرُّشدُ هو تسلسُلُ فقه الدَّعوَةِ بِشُروطِهِ.

والاهتداءُ هو تسلسُلُ سَنَدِ فِقهِ الدَّاعي بِشُروطِهِ.

ويُؤَيِّـدُ هذا المعنى في التفصيلِ بينَ السُّـنَّةِ كموقفٍ ودلالـةٍ وبين الهديِ النبويِّ كأحاديـثَ وعلـومٍ وأحكامٍ مـا وردَ في حديثِ حذيفةَ بنِ اليمـانِ من قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ النـاسُ يسـألونَ رسـولَ اللـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الخير وكنت أسـأله عن الشـرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَني ... إلى أن قال... فقلتُ: هل بعدَ ذلكِ الشرِّ من خيرٍ؟ قال: قال : نَعَمْ وفيهِ دَخَـنٌ، قال: وَمَا دَخَنُهُ؟ قال: قومٌ يَسْـتَنُّونَ بِغَيْرِ سُـنَّتِي وَيَهْتَـدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ[1]. وفي حديث مسـلم الآخر : أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا كَانَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ[2].

والمعلومُ كما سـبق أن الهديَ النبويَّ هو العلمُ بالحديثِ الشريفِ وما تَفَرَّعَ عنه من الأحكامِ الشـرعيةِ، وأما السـنةُ هنا فمُسَـمًّى لا علاقةَ له بالنصـوصِ الحديثيةِ، وإنمـا هـي المواقـفُ الخاصةُ بـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في تطبيـقِ العلـمِ وثمراتِه، وتميُّـزُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في

---

(١) مسلم (٣٤٣٤).

(٢) مسلم (٥٠) .

معاملاتِه واهتماماتِه بالأمورِ وبالناسِ.

وفـي حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَـارَةِ السُّـفَهَاءِ ، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّـفَهَاءِ ؟ قَـالَ : أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْـدِي لاَ يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي وَلاَ يَسْـتَنُّونَ بِسُـنَّتِي ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَـى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ[1].

والسُّـنَّةُ على هـذا المعنى تَخُصُّ (المواقفَ والأسـاليبَ)، وهـي : (١) مواقفُ وسـننٌ نبويةٌ رحمانيةٌ من سـننِ النبيِّ ﷺ وأصحابِه وآلِ بيتِه ومن تَبِعَهُمْ بإحسـانٍ، (٢) ومواقـفُ وسـننٌ شـيطانيةٌ مـن سُـنَنِ الدجاجلـةِ والمفسـدينَ وأهـلِ الإفكِ والمنافقيـن، يقـول فيهـا وآلِ بيتِـه : «سَـيَكُونُ بَعْدَ أصحابي فتنـةٌ يَغْفِرُهَـا اللهُ لهم بمحبَّتِهم إيايَ، ثم يَسْتَنُّ بها قومٌ من بعدِهم فيدخلونَ بهم النارَ» [2].

ومنها سـننُ أصحـاب الملـلِ الأخرى كما فـي حديث البخاري الشـهير (لَتتبعُنَّ سُنن مَن كان قبلَكم..) [3].

---

(١) صحيح ، الحافظ ابن حجر ، الأمالي المطلقة (٢١٣) .

(٢) تفسـير القرطبـي (٧: ٣٩١)، والفتنـة هي القتال الذي وقع بيـن الصحابة رضي الله عنهم، وقد تقدم الكلام عن تحصين النصوص للصحابة ص# .

(٣) قال الحافظ في الفتح: بفتح السـين للأكثر ، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر وهو الطريق . قلتُ : وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك. اهـ (٢٠ : ٣٧٨).

قلتُ: رحم الله ابن التين والمهلب لو رأوا زماننا وما فيه.. إن ما وقفنا عليها من النصوص ذات المعاني المستجدة يرجح رواية الضم للسين التي ذكرها ابن التين ويبعد رواية الفتح. فما وقعنا فيه نحن المسـلمين ليس تتبع الوسائل التي مضى عليها النصارى واليهود وليس تقليدهـم فـي تطوير دولهم وخطـوات التنمية في تعليمهـم وتربيتهم وثقافتهـم وكأننا نتبع

وعلى هذا التفصيلِ تنقسمُ (سننُ المواقفِ) إلى قسمينِ:

سنةٌ نبويةٌ أبويةٌ، وهي سنةُ النبيِّ ﷺ ومواقفُه ومواقفُ خلفائِه الراشدينَ المهديينَ إلى يومِ الدينِ[1].

وسنةٌ أنويةٌ شيطانيةٌ، وهي سنةُ ومواقفُ الدجاجلةِ والكفارِ والمنافقينِ، وتقابُلها في المعنى الشرعيِّ (البدعةُ السيئةُ) ومحدثاتُ الأمورِ، وهي ما يجري من سننٍ ومواقفَ على أيدي أولئك الكفارِ والدجاجلةِ والمنافقينِ ويستنُّ بها المسلمون بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ. وفي ذلك يقول ﷺ: مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي فَعَمِلَ بِهَا النَّاسُ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْزَارُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِهَا شَيْئًا[2].

وبهذا يكون فقهُ التحولاتِ وعلاماتِ الساعةِ قد أعادَ تعريفَ البدعةِ إلى موقعِه الأساسيِّ لا السياسيِّ، فتكونُ البدعةُ الأنويةُ هي مخالفةُ المواقفِ الشرعيةِ للنبي

طريقهم، بل لقد تشربنا تفكيرهم حتى صارت سيرنا كسيرهم وتطابقنا معهم في الولاء والبراء للدنيا والمال وكراهية الموت بل وفي مواقفنا من كل ما استجد تمام المطابقة.أي: ربما كنا ننتهج أساليبهم كخارطة طريق في مرحلة العلمنة ، وأما الآن فنحن نسخة منهم.

(١) ومن سنن الخلفاء المهديين التي ستأتي المواقف النبوية في العدل التي يحييها الإمام المهدي عند مجيئه والتي بها ينشر الخير في أرجاء المعمورة، ففي «المنار المنيف»: ... فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض . وإسناده حسن كما ذكر ابن القيم (١١٠).

والجميل أن الإمام أبوعوانة الإسفراييني (٣١٦ هـ) صاحب المستخرج على صحيح مسلم عَنْوَنَ وترجمَ في كتاب الأمراء (٤: ٤٢٠) بقوله: بيان ذكر الخبر الموجب طاعة الإمام وإن لم يهتد بهدي النبي ﷺ ولم يستن بسنته وإن ضرب ظهور رعيته.

(٢) صحيح لغيره ، الألباني ، صحيح ابن ماجه (١٧٤).

ﷺ وخلفائِه الراشـدينَ المهديينَ إلى يومِ الدينِ، أما مفهومُ البدعةِ الشـرعيةِ التي أَصَّلَهَا الفقهاءُ فهي مخالفةُ الهديِ النبويِّ والأحكامِ الشـرعيةِ لما ثَبَتَ من السُّـنَنِ القوليةِ والفعليةِ والتقريريةِ المرتبطةِ بعلمِ الأصولِ ومخرجاتِه وثمراتِه.

ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عثمانَ بنَ عفانَ يومَ الدارِ أنْ يَخْلَعَ نفسَه وقال له: لا تَخْلَعْها وَصُـمْ ذلـك اليومَ تُفْطِرْ عِنْدِي. قال عبدُالله بنُ عُمَـرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعثمانَ يومَ الدارِ: فلا تَخْلَعْ قَمِيصَ اللهِ عليكَ فيكونَ سُنَّةً: كُلَّما كَرِهَ قومٌ خليفةً خَلَعُوهُ وَقَتَلُوهُ[1].

وقـد تَرَسَّـخَتْ هذه البدعةُ في مرحلـةِ الضعفِ من العهدِ العباسـيِّ، وكلما كَرِهَ العجمُ خليفةً خَلَعُوه أو قَتَلُوهُ.

وعلى هذا فمثلُ هذا الموقفِ سُـنَّةٌ شـيطانيةٌ نَهَى عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ سـيدَنا عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن فِعْلِها واختارَ له الموتَ والشهادةَ.

وعلى هذا المعنى فالحديثُ يجعلُ من مفهومِ قولِه ﷺ: (عليكم بِسُـنَّتي وسُـنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشِـدين المهدِيِّين) غيرَ المفهومِ المُتداوَلِ لدى عُلماءِ الأُصولِ، فعُلَماءُ الأُصولِ يتناولون في هذا الحديثِ ما ترتَّبَ على تقسـيمِ السُّـنَّةِ أُصولياً إلى السُّـنَّةِ (القوليَّةِ والفِعليَّةِ والتَّقريريَّةِ) وهو ـ بلا شَكٍّ ـ أَحَدُ معاني الحديثِ لمن فَهِمَ ذلك، أما فِقهُ التَّحوُّلاتِ فيتناوَلُ مواقِفَ الرَّسـولِ ﷺ ومواقِفَ الخُلفاءِ الرَّاشِـدِين[2] من

---

(١) ذكره القرطبي في التذكرة ص٥٩٧.

(٢) وقـد أثـر هذا المعنى عن عبد الله بن نعيم المغافري قال: سـمعت المشـيخة يقولون: (من أمر بمعروف ونهى عن منكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله ﷺ) اهـ الفتن (١: ١٠٣).

والآمـر بالمعـروف والناهـي عن المنكـر في هذا الأثر مـن اجتمعت فيه شـروط الهدى والرشـد بـلا خلاف، ويؤيـد هذا المعنى حديـث عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: (جعلت في هذه

حيثُ الأخلاقُ والقِيَمُ لا مِن حيثُ مادَّةُ النَّصِّ المكتوبِ.

مفهوم السنة كموقف في حديث «عليكم بسنتي»

وبهذا يُفهَمُ أنَّ لفظَةَ السُّـنَّةِ في هذا الحديثِ يُقصَدُ بها (الموقِفُ) ويؤكِّدُ ذلك ما هـو معلومٌ من أنَّ السُّـنَّةَ هي لدى العُلماءِ «قولُ رسـولِ اللـه ﷺ وفعلُهُ وتقريرُهُ لا غيرَ ذلك».

لكنَّ الحديثَ يُشيرُ إلى سُنَّةٍ تَخُصُّ الخُلفاءَ، فهل هناك سُنَّةٌ أخرى غيرُ سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ للخُلَفَاءِ؟

والجـوابُ: أنَّ مفهومَ السُّـنَّةِ هنا ـ فـي فقهِ الدَّعوَةِ وفقهِ التَّحـوُّلات ـ غيرُ مفهومِ السُّـنَّةِ عنـد عُلماءِ الأُصولِ المُقرَّرَةِ، فَسُـنَّةُ النَّبيِّ وسُـنَّةُ الخُلفاءِ هـي مواقِفُهم عند الاختـلافِ والاحتـدامِ، ورُبَّمـا خالفـوا المألوفَ المُتعـارَفَ عليه لـدى العلماء، ولهـذا يقـولُ: «عَضُّوا عليهـا بالنَّواجِذِ»[1] حيـثُ إنَّ النُّصـوصَ مُختَلِفَـةٌ ومُتَنوِّعَةٌ ويجـري الاجتهادُ مجراهُ من الاختلافِ ووُجهاتِ النَّظَرِ المشـروعةِ، أمَّا المواقِفُ فهـي الاجتهادُ الذَّاتي بعـد النَّظَرِ في السُّـنَنِ الواردةِ وما تقرَّرَ بعدهـا من المواقِفِ كمـا فعل الخليفة أبوبكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فـي محاربةِ مانعي الزكاةِ وتنازل الإمام الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الخلافة.

سنة المواقف هي التطبيق الأخلاقي في فقه الدعوة

فيتأصَّلُ بهذا المفهومِ أنَّ سُنَّةَ المواقفِ هي سُنَّةُ التَّطبيقِ الأخلاقِيِّ في فِقهِ الدَّعوَةِ

الأمة خمس فتن: فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم الفتنة السـوداء المظلمـة التـي يصير فيها النـاس كالبهائم، ثم هدنة، ثم دعاة إلى الضلالـة، فإن بقي يومئذ خليفـة فالزمه). والشـاهد هنا مفهـوم الخليفة المأخوذ مـن الهدى والرشـد، والرواية في مصنـف عبدالرزاق (٢٠٧٣٣)، وهي حسـنة الإسـناد، «العراق فـي أحاديث الفتن» لأبي عبيدة مشهور (٢: ٥٤٠).

(١) سنن أبي داود (٤٦٠٩).

لمجموعِ السُّنَنِ القوليَّةِ والفِعليَّةِ والتَّقريريَّةِ وما تفرَّعَ عنها من اجتهاداتٍ في الأُصولِ وفِقهِ المذاهِبِ، وبهذا الفَهمِ يكون فِقهُ الدَّعوَةِ وِعاءً جامعاً وضَابطاً بِفقهِ التَّحوُّلاتِ لِسُلوكِ عُلماءِ الأُصولِ وعُلَماءِ المذهَبِيَّةِ في علاقَتِهم بِبَعضِهِم البَعضِ وعلاقاتِهم بالمُخالِفِ والمُعارِضِ وعلاقَتِهم بِتَطبيقِ الشَّريعَةِ في الشُّعوبِ.

فالشَّريعَةُ قبل أن تكونَ قانوناً أو دُستوراً لِفَرضِ نِظامٍ شَرعِيٍّ وإقامَةِ حُدودٍ فهي مواقِفُ دَعَوِيَّةٌ لذاتٍ مُطَهَّرَةٍ ومعصومةٍ وسُلوكٌ لِقُدوَةٍ حَسَنَةٍ وانعكاساتٌ شَرعِيَّةٌ لِوَحيٍ رَبَّانيٍّ وسَمُوٍّ إيمانيٍّ لا مجالَ فيها لاستفزازاتِ الطَّبعِ أو تطويعِ نُصوصِ الشَّرعِ، قال فيه تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

سنة الدلالة ضابط شرعي لم يندرج تحت ضوابط علم الأصول

أما سُنَّةُ الدِّلالَةِ فهي ضابطٌ شرعِيٌّ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ يُحَدِّدُ هُوِيَّةَ فِعلِ الشَّيءِ أو تركِهِ من وسائلِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ استِقراءً لِنَصٍّ قُرآنِيٍّ أو حديثٍ نَبَوِيٍّ بِقرينَةٍ يندَرِجُ معناها في النَّصِّ كَجُزءٍ من العِلمِ المُستفادِ عند الاختلافِ على أمرٍ مُعَيَّنٍ لم يندَرِج تحت ضوابِطِ عِلمِ الأُصولِ عند العُلماءِ كاستدلالِ المُستَدِلِّ بقولِه: هذا لم يكن على عهدِ رَسولُ اللهِ ولا عَهدِ صحابَتِهِ ... إلخ.

فتكونُ سُنَّةُ الدِّلالَةِ هنا حُجَّةً شرعِيَّةً لما لم يتأصَّل من شُؤونِ "فِقهِ التَّحوُّلاتِ" في العقيدةِ والشَّريعَةِ ومراتِبِ السُّلوكِ.

قال في «القاموس المُحيط»: (الدِّلالَةُ مَصدَرٌ والاسمُ مُشتَقٌّ من: الدَّلّالِ بين البائِعِ والمُشتَري، وفي الاصطِلاحِ: هي كونُ الشَّيءِ بحالَةٍ يلزَمُ من العِلمِ بها شَيءٌ آخَرُ. وأصلُ الفِعلِ (دَلَّ يَدُلُّ) من دَلَّ على الشَّيءِ، أي: أشار إليه، وهو أيضاً المُستَنَدُ الشَّرعِيُّ المُعَبِّرُ على صِحَّةِ ما يُرادُ من الاستدلالِ عليه من قولٍ أو فِعلٍ

أو تقريـرٍ أو موقـفٍ أو غيـرِ ذلك وهو عند فُقَهـاءِ عِلمِ الأُصولِ ما يُمكِـنُ التَّوصُّلُ بِصحيحِ النَّظَرِ فيه إلى مطلوبٍ خَيريٍّ.

سنة الدلالة في فقه التحولات

وفي فِقهِ التَّحوُّلاتِ تُعتبَرُ (الدِّلالَةُ) بُرهاناً على مالم يتوَفَّر له دليلٌ من فِقهِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ ضِمنَ عِلمِ الأُصولِ القائِمِ على السُّنَنِ القوليَّةِ والفِعليَّةِ والتَّقريريَّةِ، أو بمعنىً آخَرَ (الدِّلالَةُ) تفسيرٌ للرَّمزِ من القرآنِ أو السُّنَّةِ في فِعلٍ أو تَركٍ لم يندَرِج تحت عِلمِ الأُصـولِ ضِمناً أو تصريحاً. وهي ـ أي: (سُـنَّةُ الدِّلالَةِ) ـ سُـنَّةٌ ترتَبِطُ ارتِباطاً واعِياً بِحديثِ عُقبَةَ بنِ عامِرٍ السَّـابِقِ ذكرُهُ وفيه: «إنِّي لسـتُ أخشـى عليكم أن تُشـرِكوا بعدي..»[1]، وهو تفسـيرٌ شرعِيٌّ لانعدامِ الشِّركِ في الْأُمَّةِ من بعدِهِ، وإنَّما التَّشرِيكُ إن جاء من بعده ﷺ فإنَّما هو تُهمَةٌ في الأُمَّةِ بُنِيَت على أمرَينِ:

- سياسَـةُ التَّنافُسِ فـي الدنيـا ، وهي مـا عبَّر عنـه ﷺ بقولِهِ فـي الحديث السـابق: «... ولكن أخشـى عليكم الدُّنيا أن تنافَسُـوا فيها ...»[2] ، فتبيَّنَ بهـذه الدِّلالةِ في فِقهِ الدَّعـوَةِ نفيُ ما ألصقتهُ العُقولُ المُتنافِسَـةُ على قرارِ الحُكمِ والعِلمِ من تُهمَةِ الشِّـركِ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، وعزوُ ذلك الحُكمِ إلى غيابِ العِلمِ بالرُّكنِ الرَّابعِ من أركانِ الدِّينِ.
- فتنـة التحريـش المنصوص عليها في قولـه ﷺ : «إِنَّ الشَّـيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ ولكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[3] .

الاستدلال بسنة الدلالة على ما لم يكن له سابق مثال

وتَتَّجِهُ الاستفادَةُ من سُنَّةِ الدِّلالَةِ في مَنهَجِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ على قِسمَينِ:

الأَوَّلُ: الاسـتدلالُ بهـا علـى أنَّ كُلَّ مـا يدخُلُ تحت قاعِدَةِ السُّـنَّةِ الحَسَـنةِ عند

(١) البخاري (٦٥٩٠) ، ومسلم (٢٢٩٦).
(٢) البخاري (٤٠٤٢) ومسلم (٢٢٩٦) .
(٣) صحيح مسلم (٢٨١٢).

عُلَماءِ الأُصولِ ولو لم يكن له مِثالٌ سابِقٌ وإنَّما دَلَّت عليه دِلالَةٌ نَصِّيَّةٌ من الكتابِ أو السُّنَّةِ أو مواقِفِ الخُلفاءِ فهو أمرٌ صحيحٌ لا علاقةَ له بالبِدعَةِ والضَّلالِ بِشَرطِ عَدَمِ المُعارَضَةِ لِنَصٍّ صحيحٍ. ومِن ذلك ما كان يطمَئِنُّ إليه الصَّحابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهُم بعد استقرائِهم لما وراءَ اللَّفظَةِ والعِبارَةِ التي تجري على لِسانِ رَسولِ اللهِ ﷺ ومنها قولُهُ في الرُّؤيا الصالحة: إنَّها من المُبَشِّراتِ لما تَدُلُّ عليه، وفيها يقول ﷺ: «لم يبقَ بعدي إلا المُبشِّراتِ، قالوا: وما المُبَشِّراتُ، قال: الرُّؤيا الصَّالِحَةُ»[1]. وحديثُ «الرُّؤيا الصَّالِحَةُ من اللهِ، والحُلُمُ من الشَّيطانِ، فإن حَلَمَ أحدُكم الحُلُمَ يكرَهُهُ فليَبصُق عن يسارِهِ وليستَعِذ باللهِ منه فلن يَضُرَّهُ»[2] وفي رواية «فليَتفُل عن يسارِهِ ثلاثاً، وليتعوَّذ باللهِ من الشَّيطانِ وشَرِّها ولا يُحدِّث بها أحداً فإنَّها لا تضُرُّه»، قال أبو سَلَمَةَ: إن كُنتُ لأرى الرُّؤيا هي أثقَلُ عليَّ من الجَبَل، فلمَّا سَمِعتُ هذا الحديثَ فما كُنتُ أُباليها[3].

ومن فِقهِ الدِّلالةِ: ما رواه أبو هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ «من حَدَّثَ حديثاً فعَطَسَ فهو حَقٌّ»[4].

البدعة الدينية والبدعة الدنيوية كلاهما مذمومان إذا انعدمت ضوابطهما الشرعية

الثاني: الاستدلالُ بها على الانحرافاتِ والفِتَنِ ومُضِلّاتِها وما ينتُجُ عنها من تَحوُّلٍ ودمارٍ وفسادٍ في الدِّيانةِ والتَّديُّنِ وإفسادٍ في العلاقاتِ والارتباطاتِ ونَقضٍ للعِلمِ وقَبضٍ للعُلماءِ وإعدادِ الواقِعِ المخدوعِ لِقَبولِ البَرامِجِ المُنحَرِفَةِ في التَّربِيَةِ والتَّعليمِ والاقتصادِ والتِّجارَةِ والإعلامِ والحياةِ الاجتماعِيَّةِ، وأنَّ هذه الإدخالاتِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٩٠).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٩٢).

(٣) صحيح مسلم (٦٠٣٧).

(٤) ضعيف، «مجمع الزوائد» للهيثمي (٨: ٦٢).

فـي الأُمـورِ الحياتِيَّـةِ أمرٌ بدعِيٌّ وإحـداثٌ في قواعـد التَّأصيلِ الشَّـرعِيِّ في أمرَي الدِّين والدُّنيا ويعرَفُ ذلك من خلالِ استِقراءِ الأحاديـثِ النَّبوِيَّةِ والآياتِ القرآنيَّةِ المنصوصِ عليها في اسـتدلالاتِ الرُّكنِ الرَّابعِ، وَفـقَ مفهومِ الدِّلالَةِ التي تبرُزُ بها صُورُ الانحِرافِ والجُنوحِ في كُلِّ عَصرٍ من عُصورِ التَّاريخِ الإسلامِيِّ، كما تبرُزُ بها صُورُ النِّفاقِ والإرجافِ وتصرُّفاتُ القُلوبِ المريضَةِ التي وصفها اللهُ في القُرآنِ(١) على مستوى العِلمِ والقَرارِ وتعليلِ الظَّواهِرِ وما دون ذلك من حياةِ الرِّجالِ والنِّساءِ أفراداً وأُسَـراً وجماعاتٍ وأُمَّـةً على مدى تاريخِ التَّحوُّل كما يعـرَفُ بها في الوجهِ المُقابـلِ سـلامةُ المنهَـجِ المُعتبَرِ عند صحابةِ رسـولِ اللهِ ﷺ وخُلفائِهِ الرَّاشِـدين المهدِيِّين ،ورَدُّ تَقَوُّلِ المُتقَوِّلين الذين تُفرِزُ طِباعُهم الحِقدَ والكَرَاهِيَةَ فيسـتَنقِصون مـن مراتِبِ الصُّحبَةِ ويقدَحون في سـلامةِ الاجتهادِ للصَّـدرِ الأوَّلِ وخاصَّةً الذين حصَّنَتهُم نُصوصُ النَّبيِّ ﷺ في حياتِهِ .

الاستدلال بسنة الدلالة على مسنجدات العلوم

الثَّالثُ: الاسـتدلالُ بهـا على مُسـتَجِدَّاتِ العُلومِ والمُختَرَعاتِ والاكتشـافاتِ، وأنَّ لكثيـرٍ مِـن جديدِها ما نرى ونسـمَعُ ونُشـاهِدُ من دلالاتٍ في الكتابِ والسُّـنَّةِ لم يكن العُلماءُ عند وَضعِ عِلمِ الأُصولِ والتَّفسـيرِ على عِلمٍ بها لِعَدَمِ وُجودِها في زمانِهـم؛ ولكنَّها ظهـرت فيما بعدُ، وصارت الآيـاتُ القرآنِيَّةُ والأحاديـثُ النَّبوِيَّةِ تَـدُلُّ دلالـةً عليها. بـل ورُبَّما دلت على فسـادِ فَهمِ المُتَقَدِّمين في تفسـيرِها بما في زمانِهم أو رَبطِها بِبَعضِ التَّعليلاتِ الكونيَّةِ السَّـابِقَةِ، وقد أشبَعَ هذا الفصلَ العَلَّامَةُ أحمدُ الغُمارِيُّ في كتابِهِ «مطابقةِ الاختراعاتِ العصرِيَّةِ لما أخبر به سَيِّدُ البَرِيَّةِ».

ظاهرة التشريك ليست ديانة

كما أنَّ هذه السُّـنَّةَ تَدُلُّ أيضاً على أنَّ ظاهِرَةَ التَّشـريكِ والتَّكفيرِ سِياسَـةٌ لا دِيانَةٌ،

---

(١) في سورة (براءة) و(المنافقون) وغيرها من سور العلامات الخاصة بفقه التحولات.

وأنَّها سَبَبٌ في الاقتتالِ والهلاكِ كما أنَّها أيضاً دِلالَةٌ على الاقتِفاءِ والاهتِداءِ بالأُمَمِ الكافِرَةِ التي سبقت بِتَحريفِ النُّصوصِ والاستِدلالِ بها على غَيرِ الوجهِ الصَّحيحِ إذ لا علاقَةَ لها بِسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ ولا علاقَةَ لها بمواقِفِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدين المَهدِيِّين مِن بعدِهِ، وإنَّ مِن الضَّرورَةِ بِمكانٍ أن تَنجَلِيَ هذه الصُّورَةُ القاتِمَةُ التي أصابت الأُمَّةَ الإسلامِيَّةَ في عَصرِ الغُثاءِ والوَهَنِ ويعودَ الجَميعُ إلى معرِفَةِ الأمرِ على أُصولِهِ الشَّرعِيَّةِ، وبهذا الفَهمِ يَتَطَهَّرُ عِلمُ الأُصولِ وفُروعُهُ عن عِلَّةٍ أدخلَتها مدارِسُ القَبضِ والنَّقضِ إلى الجِسمِ الإسلامِيِّ والعِلمِ الشَّرعِيِّ على غيرِ حُجَّةٍ، وهي ظاهِرَةُ تحريفِ النُّصوصِ والفُهومِ الصَّحيحَةِ التي عاش عليها سَلَفُ الأُمَّةِ.

مدارس القبض والنقض وظاهرة تحريف النصوص

والمقصودُ بِـ«سَلَفِ الأُمَّةِ» القرون الأجيالُ الثَّلاثَةُ التي عاش فيها النَّبيُّ ﷺ والتَّابِعُون وتابِعُوهم بإحسانٍ كما شَهِدَ لهم رَسولُ اللهِ ﷺ بِسَلامَتِهم وسلامَةِ مرحَلَتِهم ؛ ما عدا مَن صدر في حَقِّهِ نَصٌّ صحيحٌ.

قاعِدَةٌ: سلامةُ المرحلَةِ : بالنَّصِّ ، وسلامةُ الذَّواتِ : بالحصانَةِ الشَّرعِيَّةِ .

قاعِدَةٌ: سلامةُ المرحلَةِ: بالنَّصِّ سلامَةُ الذَّواتِ: بالحصانَةِ الشَّرعِيَّةِ

ولا تنطَبِقُ العِبارَةُ على مَن بعدَهُم إلا ما وافَقَ مفهومَ القاعِدَةِ سَنَدًا وأخلاقاً ، وهم المتابِعون لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾[التوبة:١٠٠] ، والمُتَّبِعون بإحسانٍ هم الذين حَمَلوا شَرَفَ الاتِّباعِ بِالسَّنَدِ المُتَّصِلِ وشرفَ الالتِزامِ بالأخلاقِ والاستقامَةِ.

إنَّ سُنَّةَ الدِّلالَةِ تستَقرِئُ نُصوصَ المرحلَةِ المِكِّيَّةِ والمَدَنِيَّةِ في شأنِ فِقهِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وتُعتَبَرُ الشَّهاداتُ الشَّرعِيَّةُ التي صدرت من لِسانِ رَسولِ اللهِ ﷺ توثيقاً لعدالَةِ صحابَتِه بل وتقدَحُ في عُمومِ المُعتَرِضين والنَّاقِضين لِسَلامَةِ مرحلَةِ الخِلافَةِ الأولى مهما كانت حُجَّتُهم القائِمَةُ على وَصفِ الأحداثِ الجارِيَةِ،كما تُعيدُ هذه

الشهادات الشرعية من لسان رسول الله ﷺ لصحابته حصانة لا تنقضها الأحداث

السُّنَّةُ قراءَةَ التَّاريخِ الإسلاميِّ مُقتَرِناً بِتَمييزِ الحوادِثِ وهندَسَةِ الإشاراتِ التي دَلَّلَ بها رَسولُ اللهِ ﷺ على سُلوكِ النَّاسِ من عَهدِهِ إلى قيامِ السَّاعةِ ما بينَ مُحِقٍّ ومُبطِلٍ وصادقٍ وكاذِبٍ ومُؤمِنٍ ومُنافِقٍ، كما تَكشِفُ المَسيرَةَ الدَّجَّالِيَّةَ المُسَيَّسَةَ، وتَربِطُ بين النَّصِّ النَّبَوِيِّ ساعةَ كشفِهِ للظَّواهِرِ الدَّجَّالِيَّةِ واندراجِها الخطيرِ المُعمِي ضِمنَ الحَظيرَةِ الإسلامِيَّةِ حتى اليومَ وما يتبَعُها من الانحِرافاتِ والتَّحالُفات بين الدَّجاجِلَةِ ضِدَّ الدِّيانةِ الصَّحيحَةِ والنَّهجِ الشَّرعِيِّ السَّوِيِّ على مدى التَّاريخِ.

مدرسة الاعتدال والوسطية وموقعها من فقه التحولات

إنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ ـ بسُنَّتَيه: سُنَّةِ المواقِفِ والدِّلالَةِ ـ يُبرِزُ بوضوحٍ مدرسةَ الاعتدالِ والوَسَطِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ في أُمَّةِ الإسلامِ بعيداً عن الخَوضِ في طَرَفَي الإفراطِ والتَّفريطِ سواءً كان بين المُسلِمين أنفُسِهم أو بين بعضِ المُسلِمين في مُيُولهم الخَطيرِ للانحرافِ الكافِرِ ومشاريعِهِ الأَنَوِيَّةِ، المشاريعِ التي نَخَرَت التَّركيبَ الاجتماعِيَّ والدِّينيَّ والاقتِصادِيَّ والإعلاميَّ المُعاصِرَ والتي أبرزت دَورَ المَدارِسِ الجانِحَةِ عبرَ التَّسلسُلِ التَّاريخِيِّ بالعُمومِ ومنذُ ظُهورِ مرحلَةِ الغُثاءِ بالخُصوصِ .

الذي ينازع ما نحن بصدده إما لجهله بالركن الرابع أو لرفضه الطَّبْعي له

لقد تعيَّنَت أهَمِّيَّةُ العِلمِ بِسُنَّةِ الدِّلالَةِ وسُنَّةِ المواقِفِ مقرونَةً بدراسَةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ كما يُدرَسُ فِقه التَّحوُّلاتِ مقروناً بِمَشروعِيَّةِ الرُّكنِ الرَّابِعِ من أركانِ الدِّينِ وعلى هذا فَإنَّ التَّناوُلَ السَّلبِيَّ لهذا الموضوعِ لدى البعضِ إنما هو خارِجٌ دائِرَةَ الاستِدلالِ الشَّرعِيِّ الذي نحن بِصَدَدِهِ، أي: بمعنى أن المناقِشَ لِفَسادِ الفِكرَةِ أو المنازِعَ فيها إنما يَتَحَدَّثُ مِن خارِجِ الموضوعِ الذي نحن بِصَدَدِهِ للجَهلِ بهذه الثَّوابِتِ أو رفضِهِ الطَّبعِيِّ لِقَبولها لا الشَّرعِيِّ، وإلا فإنَّ ثوابِتَ الشَّرعِ قد بيَّنت بالنَّصِّ الثَّابِتِ رُباعِيَّةَ الأركانِ ولم يبقَ إلا القَبولُ لما جاء به المُعَلِّمُ الأعظَمُ ﷺ ثُمَّ التَّدَرُّجُ في فَهمِ تفاصيلِ الرُّكنِيَّةِ وتفريعاتِها حتى يحصُلَ الإلمامُ التَّامُّ بما يترتَّبُ على هذا الفِقهِ الدَّعَوِيِّ من سُنَنٍ تتناسَبُ مع وظيفَتِهِ.

موقع علامات الساعة من علماء الفقه التقليدي

إنَّ علاماتِ السّاعَةِ في القاموسِ العِلمِيِّ التَّقليدِيِّ ـ لِعُلَماءِ الأُصولِ والفُروعِ ـ ليست فِقهاً ولا علاقةَ لها بالفِقهِ الإسلامِيِّ من حيثُ قواعِدُهُ المنصوصُ عليها عند عُلَماءِ الأُصولِ، ولهذا فهي أيضا عندهم لا تَمُتُّ إلى أركانِ الدِّين بِصِلَةٍ، لأنَّ ثوابِتَ الدِّيانَةِ لديهم قامت عبرَ التّارِيخِ على الثَّوابِتِ الثلاثةِ (إسلامٌ، إيمانٌ، إحسانٌ). وإنما تذكر في مصنفاتهم تحت باب (الإيمان باليوم الآخر).

موقف الجماعات الجديدة من فقه التحولات

بل وحتَّى مواقفِ الفِئاتِ والجماعاتِ والرُّؤى المذهبِيَّةِ الجديدةِ في الجانِبِ الخاصِّ بالحُكم والقرارِ وتسييسِ التَّوحيدِ، بَنَت حُكمَها إمّا على العاطِفَةِ المُجَرَّدَةِ أوعلى عَدَمِ العِلمِ بِمفهومِ سُنَّةِ الدِّلالَةِ والمواقِفِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ، أي: بَنَت حُكمَها بِغِيابِ رُكنٍ من أركانِ الدِّينِ عن دائِرَةِ التَّقريرِ الشَّرعِيِّ.

بينما عندما نعودُ بِرَوِيَّةٍ إلى (الأُصولِ النَّصِّيَّةِ)[1] التي بنى عليها العُلَماءُ فِقهَ أركانِ الدِّينِ ذاتِها نَجِدُ أنَّ علاماتِ السّاعةِ كانت أحَدَ مُهِمَّاتِ المرحلَةِ وجُزءاً من ثوابِتِها العِلمِيَّةِ في إصدارِ الأحكام والفتاوى والعلاقاتِ والسُّلوكِ والمواقِفِ، ولكنْ بِصورَةٍ غيرِ مُعلَنَةٍ، حتى جاء التَّمَرحُلُ الزَّمَنِيُّ اللّاحِقُ والاستحواذُ المعرِفِيُّ الماحِقُ فحصر التَّناوُلَ في الثَّوابِتِ الثَّلاثَةِ فقط حتى صار ذِكرُ العلاماتِ هامِشِيّاً ومنفَرِدَ الهُوِيَّةِ، وخاصَّةً بعد عَصرِ التَّدوينِ وطُغيانِ أثَرِ المُلكِ العَضوضِ في الدِّينِ والدَّولَةِ الجَبَروتِيَّةِ.

إعادة القراءة لرباعية الأركان ضرورة ملحة

ولهذا فإنَّا نَضَعُ هذه المسألَةَ على بِساطِ البحثِ بقناعةٍ تامَّةٍ مُؤَكِّدين فائِدَةَ العَمَلِ على إعادَةِ الرُّكنِ الرّابِعِ إلى موقِعِهِ الشَّرعِيِّ من الأركانِ ومُلزِمين الدّارِسَ والطّالِبَ أن يربطَ بين هذه الرُّكنِيَّةِ وفِقهِها الخاصِّ مع تَمَيُّزِ هذا الرُّكنِ باختصاصِهِ

(١) الأصول النصية: أسس الاستنباط كالحديث النبوي والقرآن.

النَّوعِـيِّ (فِقهِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ تعالى)، أي: باعتبارِ أنَّ هذا الفِقهَ مُستَجِدٌّ ولا علاقَةَ له ألبَتَّةَ بما قد سبقَ تأصيلُهُ لدى العُلماءِ من الفِقهِ الخَاصِّ بالسُّنَنِ القولِيَّةِ والفِعلِيَّةِ والتَّقريرِيَّـةِ ذاتِ العلاقَـةِ بِعِلمِ الأُصـولِ وقواعِدِهِ إلا من حيثُ الوِحـدَةُ العَامَّةُ في الارتباطِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، فليُفهَم.

الصراع التاريخي بين المذاهب يحتاج إلى إعادة نظر

ويترتَّـبُ على هـذا العِلمِ وتفصيلاتِهِ الشَّـرعِيَّةِ (إعادَةُ النَّظرِ الكامِلِ) في مسـائِلِ الخلافَةِ والاختلافِ التي عَمَّقتِ الصِّراعَ بين (عُلَماءِ المَذهَبِيَّةِ بِعُمومِهم)، وكذلك الصِّراعِ بين مُسَـمَّياتِ التَّمرحُلِ الاجتماعيِّ، كالصِّراعِ التَّاريخِيِّ سياسِـيّاً ومَذهَبِيّاً بيـن (السُّـنَّةِ والشِّـيعَةِ) وبين (السَّـلفِيَّةِ والصّوفيَّـةِ)، وبين غيرهم مـن مجموعاتِ التَّكتُّلِ الانفعاليِّ داخِلَ الجَسَدِ الإسلامِيِّ المعلولِ.

كمـا يترتَّبُ عليه معرِفَةُ السَّـلامَةِ وعَدَمِهـا في العلاقَةِ مع الكافِـرِ الذِّمِّيِّ والكافِرِ الحربِيِّ، وحدُودِ هذه العلاقاتِ، ومشـروعِيَّةِ التَّعامُلِ أو عَدَمه معَ قوى الاستِعمارِ والاسـتهتارِ والاستثمارِ المُسـيطِرَةِ على مُقَدَّراتِ الأُمَّةِ في مراحِلِ الغُثاءِ والوَهَنِ، والاستتباعِ أو عَدَمِهِ، وتداعي الأُمَمِ (الأَكَلَةِ) على قَصعَةِ الطَّعامِ، فلعل وعسى.

غِيابُ العِلمِ بفِقهِ التَّحوُّلاتِ ومَا ترَتَّبَ عَلَيْهِ

مـن مُهِمَّـاتِ العِلـمِ بِفِقـهِ التَّحـوُّلاتِ معرِفَةُ الحُكـمِ الشَّـرعيِّ لمـا وراء القِرَاءَةِ للنُّصـوصِ وما يترتَّـبُ على القِـراءَةِ من تحديدِ الأحـكامِ وتنزيلِ المعانـي المُرادِ بها فـي النُّصوصِ على العقائـدِ والعِباداتِ والمُعاملاتِ والقِيَـمِ، وقد وقع العديدُ مـن (عُلَماءِ الفِتنَةِ) في شَـرِّ فُهومِهم لهذه النُّصوصِ وتحميلِهـا عند تنزيلِ المعاني والأحـكامِ على ما بَـدَرَ لِعُقولِهم مِن الفَهمِ والوَهمِ وسـوءِ التّأويـلِ، بَدءاً بمراحلِ التَّنزيلِ ومُروراً بِمَرحلَةِ التّأصيلِ.

وأعظَمُ ما وقع فيه (أولئك) شُـبَهُ التَّكفيرِ ومقالُها عند الخوارجِ واضِحٌ وبَيِّنٌ كما هو في نُصوصِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ، ومثلُه ما وقع فيه (الرَّافِضَةُ) و(السَّبَئِيَّةُ) و(المُعتزِلَةُ) و(القرامِطَةُ) و(الباطِنِيَّةُ) وأشـباهُهُم وأمثالُهم في العُصورِ السّـابِقَةِ، وسـبَبُهُ غِيابُ العِلمِ بِفِقهِ التَّحوُّلاتِ.

ماذا حصل من الخطأ بغياب فقه التحولات

كما كان لِغِيابِ هذا العِلمِ اليومَ في المُجتَمَعاتِ العَرَبِيَّةِ والإسلامِيَّةِ خُطورَةٌ كبيرَةٌ أدَّت إلى وُقوعِ العُلَماءِ ـ فَضلاً عن الدَّهماءِ ـ فيما أخبرَ عنه ﷺ من الوَهَنِ والغُثاءِ واسـتتباعِ الأُمَمِ، وخَاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالحَيرَةِ في أمرِ التَّحوُّلاتِ أو عَدَمِ التَّمييزِ في معرِفَةِ ألسِنَةِ الحَقِّ المنصوصِ على سلامةِ مواقِفِهم، وأهلِ الباطِلِ المُنتَحِلين صفةَ الحقِّ وأهلِهِ، وفي ذلك يقولُ ﷺ في نُصوصِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ: «ستكونُ فِتَنٌ يُصبحُ الرَّجُـلُ فيها مؤمناً ويُمسـي كافراً إلا مَن أحيـاهُ اللهُ بالعِلمِ»[1] والعِلـمُ هنا في أَحَدِ

(١) ابـن ماجـه (٤٠٨٩)، والطبراني في الكبير (٧٩١٠)، إسـناده ضعيف، «موسـوعة الفتن» (٨٩).

معانيه العِلمُ بفِقهِ التَّحوُّلاتِ واللهُ أعلَمُ.

وفـي هذا المعنـى وردت عِدَّةُ أحاديثَ منها حديث «سـتكون فِتَنٌ يُصبحُ الرَّجُلُ فيهـا مُؤمنـاً ويُمسـي كافراً إلا مُؤمناً حشـاهُ اللهُ بالعِلـم»[١]، ومعناه مَـن حماهُ اللهُ وصانَهُ وحَفِظَهُ بالعِلمِ بأن يكون صاحِبُه محشُوّاً به، وفي «فيض القدير»: «ستكونُ فِتَنٌ يُصبحُ الرَّجُل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً إلا من أحياه اللهُ بالعِلم»، قال المُناويُّ: لأنَّه على بصيرةٍ من أمره وبيِّنَةٍ من رَبِّهِ فيتجَنَّبُ مواقعَ الفِتَنِ بما يعلَمُ مِمّا يستَنبِطُهُ من الأحكامِ[٢].

وزاد الأمـرَ حَرَجـاً بعد نَقضِ القرارِ الإسـلاميِّ من أيدي المسـلمين عُموماً إلى أيـدي أعدائِهـم مـن اليهودِ والنَّصـارى وخاصَّةً فيما سـمَّاه النَّبيُّ ﷺ فـي أحاديثِه الصَّحيحـةِ بــ (تداعي الأُمَـمِ) وتداعي الأُمَـمِ إذا قرأنـاه مِن واقعِ فِقـهِ التَّحوُّلاتِ ودراسَـتِهِ الواعِيَةِ سَـنَجِدُهُ يرتَبِطُ ارتباطاً وثيقاً بحديثِ: (يوشِـكُ أن تداعى عليكم الأُمَمُ كما تداعى الأَكَلَةُ على قَصعَتِها، قالوا: أَمِن قِلَّةٍ نحن يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لا، أنتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنَّكُم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ يُلقى عليكم الوَهَنُ. قالوا: وما الوَهَنُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهِيَةُ المَوتِ)[٣].

علاقة فقه التحولات بقراءة المرحلة المعاصرة

وهذه المرحلةُ عند ربطِها بعلاماتِ السّـاعةِ إنّما تُشـيرُ إلى ما يُسـمَّى في عَصرِنا بـ(مرحلةِ الثَّورَةِ الصِّناعِيَّة) و(العَصرِ الحَديثِ) وما نتج عنها من سَـلبِيَّاتِ سُـقوطِ قرارِ الخلافةِ الإسلاميَّةِ وبَدءِ مرحلَةِ العِلمانِيَّةِ التي أُعلِنَت من تُركيا و كانت آنذاك عاصِمَـةَ الخِلافَـةِ قُبيلَ مرحلةِ الاسـتِعمارِ ونِهايـةً بما مرَّ على المسـلمين والعالَمِ

(١) «صفة النفاق وذم المنافقين» للفريابي (١: ١٠٢).

(٢) فيض القدير (٤: ١٣٣).

(٣) أبوداود (٤٢٩٧)، وسكت عنه، فإسناده صالح.

العَرَبـيِّ والإسـلاميِّ من نَقضٍ فـي شُـؤونِ الحُكمِ والعِلـمِ والاقتِصادِ والسِّياسَـةِ والتَّربِيَـةِ والتَّعليمِ والإعلامِ في ما تلاها من مراحِلِ العِلمانِيَّةِ والعَلمَنَةِ ثُمَّ العولَمةِ، ولا يُمكِـنُ بـأيِّ حالٍ من الأحوالِ أن يُفسَّـرَ هـذا الأمرُ بالاعتمادِ علـى مُخرَجاتِ أركانِ الدِّيـنِ الثَّلاثَةِ وحدَها وإنَّما يُعرَفُ بِدراسَـةِ الرُّكـنِ الرَّابعِ المُغيَّبِ (علاماتِ السّـاعةِ وما ترتَّب عليها من تأصيلٍ شـرعيٍّ لِفقهِ التَّحوُّلاتِ) وفي ذلك يُؤكِّدُ ﷺ في الصَّحيحِ خُطورَةَ الموقِفِ الذي يحِلُّ بالأُمَّةِ عند ضَياعِ هذه الأماناتِ وعلاقَتِها بِقُـربِ مرحَلَةِ السّـاعةِ، فقد ورد في الصَّحيحِ عن أبـي هريرةَ قال: «بَينَما النَّبيُّ ﷺ في مجلِسٍ يُحدِّثُ القومَ جاءَه أعرابيٌّ فقال: متى السّـاعةُ فمضى رَسـولُ اللهِ ﷺ يُحدِّثُ، فقال بعضُ القومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يسمَع، حتّى إذا قضى حديثَه قال: «أين أُراهُ السّـائلُ عن السّاعةِ» قال: ها أنا يا رسولَ اللهِ، قال: فإذا ضُيِّعت الأمانَةُ فانتظر السّـاعَةَ، قال: كيف إضاعَتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتَظِرِ السّاعَةَ»[1].

ضياع الأمانات وموقع ذلك من فقه التحولات

وهـذا الحديثُ من أعظَـمِ الأحاديثِ التي تُؤيِّـدُ إعادَةَ القـراءَةِ الواعِيَةِ لِعلاماتِ السّاعةِ ففيها توضيحاتٌ وتفصيلاتٌ لا تُعرَفُ إلا من مِثلِ هذا الحديثِ حيثُ أبرَزَ هذا الحديثُ الشَّـريفُ وُجودَ تآمُرٍ مُشـتَرَكٍ داخِلَ القرارِ الإسلاميِّ ، وهو ما سُمِّي في فِقهِ التَّحوُّلاتِ بِمَرحَلَةِ الخِلافَةِ المُدَونَمَةِ، وتدخُّلٍ خارِجيٍّ للدَّفعِ بِحَمَلَةِ القرارِ إلى تضييعِ الأمانَةِ وتوسيدِ الأمرِ إلى غيرِ أهلِهِ في مرحلةِ تثبيتِ الاستعمارِ[2].

كشف فقه التحولات الشرعي لمرحلة التوسيد

---

(١) البخاري (٥٩).

(٢) والتوسـيد لـه معان كثيـرة ودلالات خطيرة، ربما برز بدراسـتها على ضـوء فقه التحولات تحديد ماهية الأمر المتحدث عنه في الحديث، وتحديد ماهية الأهل المشار إليها في سياق النـص، ثم معرفة (سياسـة التوسـيد) بمعانيها لنقـرأ صفحات المراحـل الغثائية التي مرت بعالمنا العربي والإسـلامي منذ مرحلة (التوسـيد السياسي العلماني) حتى مرحلة (الضياع

وهو ما أخرَجَ قرارَ الحُكمِ عن مسارِهِ الصَّحيحِ إلى مسارٍ آخَرَ يُعبَّرُ عنه في فِقهِ التَّحوُّلاتِ (بمرحلَةِ الاستعمارِ) وهي المرحلَةُ التي اشتملت على ما يلي:

- نقضِ قرارِ الحُكمِ وتوسيدِ الأمرِ إلى غيرِ أهلِهِ.مَحلِّياً وإقليمياً وعالَمِياً .

نقضُ قرار العِلمِ وتَضييعِ الأمانَةِ.ومن صُورَهِ إضاعَةُ المثُلَّثِ المدموج[1] والمُعادلِ الرَّابعِ، و«المُثَلَّثُ المدموجُ» هو: التَّربِيَةُ والتَّعليمُ والدَّعوَةُ إلى اللهِ، وأمَّا «المُعادِلُ الرَّابعِ» فهو: الاكتفاءُ الذَّاتِيُّ في تحصيلِ الحَدِّ الضَّروريِّ من القوتِ، حيثُ استُعيضَ عنه منذ بَدءِ مرحلَةِ الغُثاءِ والوَهَنِ بالتَّعليمِ الخِدماتِيِّ وتعظيمِ العُلومِ الماديَّةِ المُجَرَّدَةِ، مع استصغارٍ واحتقارٍ لِعُلومِ الدِّينِ وللحِرَفِ والمِهَنِ اليَدَوِيَّةِ النَّافِعَةِ التي قال في بعضِها ﷺ: «لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلَهُ فيأتيَ بِحُزْمَةِ الحطبِ على ظهرِه فيبيعَها فيكفَّ اللهُ بها وجهَه خيرٌ له من أن يسألَ النَّاسَ أعطَوهُ أم مَنَعُوهُ»[2].

ضياع مبدأ الاكتفاء الذاتي في مرحلتنا المعاصرة

التام للأمانات) في المرحلة العولمية المعاصرة، بيقين حصول الانحرافات المتنوعة في موقع القرار.

(١) المقصود بالمثلث المدموج: الثلاثة الثوابت المتداخلة في بناء الأجيال وهي التربية والتعليم والدعوة الى الله. ومعنى المدموج: أي المتداخل بعضه في بعض عند دراسته كالتداخل في دراسة الإسلام والإيمان والإحسان.

(٢) البخاري (١٤٧١).

• تداعي الأُمَمِ وتقسيمُ تَرِكَةِ الرَّجُلِ المريضِ[1] بِيَدِ (أَكَلَةِ القَصعَةِ)[2].

ثمرات (تداعي الأمم)

وهذا التَّعليلُ لا يعني أنَّ الإسلامَ يرفُضُ الصِّناعةَ والحضارةَ أو يأباها وإنَّما يُبَيِّنُ تسييسَ حَمَلَةِ قرارِ الحُكمِ والعِلمِ في حياةِ الشُّعوبِ والأُمَمِ و استغلالُ الوَهَنِ والغُثاءِ لِنَقضِ ثوابتِ الدِّيانَةِ وفَرضِ قرارِ التَّداعي والاستِتباعِ حتى يُصبِحَ العالَمُ العَرَبيِّ والإسلاميِّ تابعاً بعد أن كان متبوعاً وسُوقاً للخِدماتِ والاستِهلاكِ مع الذِّلَّةِ بعد أن كان موقِعاً للقِيَمِ والبناءِ والتَّنمِيَةِ والاكتِفاءِ الذَّاتِيِّ والعِزَّةِ الإسلامِيَّةِ.

دور فقه التحولات في تصحيح الفهوم الخاطئة عن الخلافة

كما أنَّ العِلمَ بِفِقهِ التَّحوُّلاتِ يُصحِّحُ الفُهومَ الخاطِئَةَ التي فَرَّقت بين المُسلمين في قضايا الخلافَةِ بعد رَسولِ اللهِ ﷺ وموقِعِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدين مِن القرارِ في الحُكمِ والقرارِ في العِلمِ ـ كما يُبَيِّنُ أيضاً ـ مشروعِيَّةَ المراحلِ الإيجابِيَّةِ في الحُكمِ والعِلمِ وكذلك المراحِلِ السَّلبِيَّةِ فيها.

أهمية فقه التحولات في ربط الجميع بمرحلتي مكة والمدينة

كما أنَّ العِلمَ بِفِقهِ التَّحوُّلاتِ يجعَلُ مِن مسألةِ القُدوَةِ والأُسوَةِ بالمرحلَةِ الزَّمَنِيَّةِ التي عاشها النَّبيُّ ﷺ والمرحلَةِ المكانِيَّةِ بين مَكَّةَ والمدينةِ وما ترتَّبَ في هاتَين المرحَلَتَينِ من مواقِفَ وسُنَنٍ وقواعِدَ شرعِيَّةٍ هي الأساسُ في معالَجَةِ حياةِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ في بَقِيَّةِ المراحِلِ الزَّمَنِيَّةِ الأخرى.

---

(١) تركة الرجل المريض: هي رقعة العالم الإسلامي التي كانت تحت الدولة العثمانية حاملة القرار الإسلامي قبيل مرحلة الاستعمار وقد تكالبت عليها الأمم الأوروبية واليهود وأطلقوا عليها في رسائلهم (تركة الرجل المريض) رغبة منهم في تقسيمها والتهامها وقد فعلوا ذلك خلال الحربين العالميتين الأولى ثم الثانية.

(٢) أكلة القصعة: تعريف نبوي للأمم الأوروبية المشتركة في نزع القرار الإسلامي وتقسيم بلاد المسلمين والسيطرة على ثرواتها التي عبر عنها ﷺ بمفهوم (القصعة) وعبر عن المستعمرين بمفهوم (الأكلة).

كما إنَّ من فوائدِ قراءةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ ودراسَتِهِ دِراسَةً واعِيَةً من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ يربطُ بين المراحِلِ الثَّلاثِ:

- المراحِلِ الأَبويَّـةِ الشَّـرعِيَّةِ مـن عصرِ رَسـولِ اللهِ ﷺ إلى عَهـدِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبدايَةِ الخَلقِ.
- عهـدِ البَعثَـةِ والهِجـرَةِ إلى وفاتِـهِ ﷺ ومـا هَيَّأَ اللـهُ فيهما من وَحيٍ وسُـنَنٍ ومواقِفَ ويُضافُ إليها دِراسَةُ مرحلَةِ ما بين الميلادِ حتى البَعثَةِ له ﷺ .
- مرحلَةِ ما بعد الوَحيِ من عَهدِ وفاتِهِ ﷺ إلى قِيامِ السّاعَةِ.

وقـد أفادَنـا هـذا العِلمُ الخَـاصُّ بالرُّكنيَّـةِ الرَّابعَةِ مـن أركانِ الدِّيـنِ معرِفَـةَ القِراءَةِ التاريخيَّةِ الصَّحيحَةِ للحياةِ الإنسـانيَّةِ بِعُمومِها وموقِعَ المدرَسَتينِ المُتَعارِضَتينِ فيها وهما:

المدرسة النبوية الأبوية الشرعية

- المدرسَـةُ النَّبويَّـةُ الأبويَّةُ الشَّـرعِيَّةُ وروَّادهـا الأنبياءُ والرُّسُـلُ ووُرَّاثُهم من أهـلِ العِلمِ المُسـنَدِ أو مَن ارتَبَـطَ بهم على مَنهَجِ الاتِّباعِ مـن غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ.

المدرسة الأنوية الوضعية

- المدرسـةُ الإبليسِـيَّةُ الأَنَويَّةُ الوَضعِيَّةُ القائِمَةُ على مبـدأِ (أنا خيرٌ منه) ومبدأِ (الإغـواءِ والاحتِنـاكِ) وما تفرَّعَ عنها مـن عقيدَةِ الكُفـرِ والتَّحلُّلِ الأخلاقِيِّ والرَّفضِ للغَيبِيّاتِ، ويرتَبِطُ أيضاً بهذه المدرسَـةِ من النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ مواقِفُ مدرسَـةِ النِّفاقِ والتَّحريشِ وبَقيَّةِ مدارِسِ التَّسـييسِ والدَّجَلِ .. الحامِلَةِ لِواءَ شِعارِ التَّفرِقَةِ والصِّراعِ داخِلَ الخَيمَةِ الإسلامِيَّةِ.

وفـي مُتابَعَـةِ هذا العِلـمِ رَحمَةٌ بالأُمَّةِ التـي عصفت بها الحَيـرَةُ، وخاصَّةً أولئك المُؤمنين الرَّاغِبين في اكتشـافِ سِرِّ هذا السُّـلوكِ المُتناقِضِ في المخلوقِ البَشَرِيِّ

ومخرجاتِهِ.. وهل هناك من علاجٍ؟ وكيف يكونُ؟ وما هي وسائِلُهُ؟

هل ثمة علاج؟ وكيف وما هي وسائله؟ هذا الفقه يجيب على الأسئلة ولكن لا يصنع الإجابات،وإنما يضع الإنسان أمام مسؤولياته

كُلُّ هذه الأسئِلَةِ يُجيبُ عليها فِقهُ التَّحوُّلاتِ؛ ولكنه لا يَصنَعُ الإجاباتِ.. وإنَّما يضعُ الإنسانَ أمام مسؤوليَّاتِهِ، ويمنَحُه نصيباً من القِراءَةِ الواعِيَةِ للكيفِيَّاتِ العَمَلِيَّةِ المُساعِدَةِ على التَّطبيقِ الفِعليِّ لِفُرَصِ السَّلامَةِ وسلامةِ فُرَصِ المعالَجَةِ، وهذا وحده عِلمٌ خاصٌّ لا يُعرَف إلا بالعُمقِ الواعي لِدَراسَةِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ مقروناً بِفِقهِ الإحسانِ بالخُصوصِ.. لماذا؟

لأنَّ فِقهَ التَّحوُّلاتِ يكشِفُ سِرَّ الانحرافِ والجُنوحِ بالوَعيِ الشَّرعِيِّ وفِقهَ الإحسانِ يُعالِجُ المنزَعَ الطَّبعِيَّ ويبرزُ سِرَّ القضاءِ والقَدَرِ فيما يجري به الأمرُ الرَّبَّانِيُّ أمام الرَّغبَةِ في تحقيقِ الطُّموحِ والأماني، سواءً كانت طَبعِيَّةً أو شرعِيَّةً.

وهذا هو سِرُّ الخلافَةِ، وسِرُّ مفهومِ الخُلفاءِ الرَّاشِدين المهدِيِّين، الذين يُلزِمُنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نلتَزِمَ بِسُنَّتِهم العِلمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ عند الاختلافِ وشُمولِ الصِّراعِ والخِلافِ. «عليكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين المهدِيِّين مِن بعدي ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، فإنَّ من يَعِش منكم فسيرى اختِلافاً كثيراً»[1].

(١) الترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح.

مفهومُ الخُلَفاءِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ

مفهوم الخلفاء في فقه التحولات

يشـيرُ ﷺ في الحديثَينِ حديثِ العِرباضِ وحديثِ عُقبَةَ بنِ عامرٍ إلى ما سيجري في الأُمَّةِ من اختلافٍ حول قرارِ (الحُكمِ والعِلمِ) وما سيترتَّبُ على ذلك من صِراعٍ بين أهلِ القرارَينِ ، وعند ذلك يُشيرُ ﷺ إلى ضرورَةِ الالتِزامِ بأمرَينِ:

١ - السَّمعُ والطّاعةُ للقرارِ القائِمِ ولو كان صاحِبُه أو حامِلُه غيرَ مُكتَمِلِ الشُّروطِ الشَّرعِيَّةِ لدى أهلِ الحَلِّ والعَقدِ.

٢ - التزامُ الهدوءِ والسُّكونِ وحُسنِ المُعالَجَةِ لما ينتُجُ عنه الاختلافُ في القرارِ[1] وهو ما عَبَّر عنه ﷺ بقولِهِ: «عليكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشدين المهدِيِّين»[2].

من هم الخلفاء؟ وكم عددهم؟

والخُلفاءُ هنا ليس الذين تتناوَلُهم كُتُب العِلمِ والسِّيَرِ بِمُسـمّى الخُلَفاءِ الأربعَةِ فهـؤلاء الخُلَفاءُ الأربَعَةُ[3] نموذَجٌ من الخلافَةِ التي جمعت بين الحُكمِ والعِلمِ في عَصرِ صَدرِ الإسلامِ، أمّا بعد ذلك فالخُلفاءُ هم الوُرّاثُ الشَّرعيُّون للثَّلاثَةِ الثَّوابِتِ (كتـابِ اللهِ، وسُنَّةِ نبيِّهِ، والأخلاقِ)، الذين خَصَّهم الرَّسـولُ بقولِـهِ: «يحمِلُ هذا العِلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ»[4] ، فالعدالَةُ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ مُقيَّدَةٌ وليست مُطلَقَةً.

العدالة في فقه التحولات مقيدة وليست مطلقة

---

(١) ليس المقصود بالسـكون ترك الخدمة للإسـلام والمسـلمين، وإنما ترك المنازعة في شـأن القرار والاهتمام بشأن عوامل الاستقرار .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الخلفـاء الأربعة في التقسـيم الأصلي ينحصر فـي الخليفة الأول أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثـم علـي رَضِيَ اللهُ عَنهُم، أما فقه التحولات فيجعل الخلافة الراشـدة في خمسـة وآخرهم الإمام الحسـن بن علي وهو الخليفة الخامس بالنص النبـوي : (الخلافة ثلاثون عاما) ، ثم يلحق بهم الخليفة السادس عمر بن عبد العزيز في مرحلة الحكم العضوض.

(٤) سبق تخريجه .

وقد تبيَّنَ لنا مِن سـلامَةِ مواقِفِهم ما يؤكِّدُ أنَّ المواقِفَ لدى الخُلفاءِ سُـنَّةٌ مشـروعةٌ قد تُعارِضَ فَهمَ العُلماءِ للسُّـنَّةِ القولِيَّةِ والفِعلِيَّـةِ والتَّقريريَّةِ في بَعضِ الأحوالِ كما هو في موقِفِ سـيِّدِنا عليٍّ من توقيفِهِ النُّصوصِ عند مَن يقولُ (بخلافته) والالتزامِ بما التَزَم به أهلُ الشُّـورى، وتعاوُنِه معهم في تسـييرِ دَفَّةِ الحُكمِ والعِلمِ راضياً غيرَ مُكرَهٍ، وهذه سُنَّةُ موقِفٍ يُقتَدى بها .

موقف الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الخلافة

وموقِـفُ الحَسَـنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالتَّنـازُلِ عن قرارِ الحُكمِ بعـد البَيعَةِ وحَملِ أمانَتِهـا ثُمَّ اجتهادِه فـي تَركِ الخِلافَةِ السِّياسِـيَّةِ لِغيرِه .. مع المُحافظَةِ على شَـرَفِ النُّبُوَّةِ والأخلاقِ وحَقنِ دِماءِ المُسلِمين، وهذه سُنَّةُ موقفٍ يُقتَدَى بها .

موقف الإمام الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الحكم

وموقِفُ الحَسَنِ هذا مدعومٌ ومُعَدَّلٌ بالنَّصِّ الشَّرعِيِّ من قولِه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ وسيُصلِحُ اللهُ به بين فِئَتَينِ من المُسلِمين»[1].

والإمامُ الحَسَنُ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ هو آخِرُ الخُلفاءِ الذين جمعوا بين قرارِ الحُكمِ والعِلـمِ وهو آخِـرُ الخُلفاءِ الذين عَدَّلَ مواقِفَهم نَبِيُّنـا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأما من جاء من بعـدِهِ فالأمرُ قائِمٌ علـى الاجتِهادِ الذَّاتِيِّ في قضايا الحُكـمِ والعِلمِ فَمَن أصابَ فله أجـرانِ ومَن أخطَأَ فله أجرٌ واحدٌ[2]، وهذا التَّعليلُ لا يُقتبَسُ من فِقهِ الأصولِ وإنَّما عُرِفَ من فِقهِ علاماتِ السّاعَةِ المعروفِ بِفقهِ التَّحوُّلاتِ .

وسُـنَّةُ الرَّسـولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسُـنَّةُ الخلفـاءِ الرَّاشـدين مـن بعده هي مـا يُعرَفُ فـي فِقهِ التَّحـوُّلاتِ بِسُـنَنِ المواقِـفِ، وهو الالتِزامُ بِفَحـوَى النَّصِّ أو اتِّخـاذُ موقِفٍ حِيالِهِ

(١) البخاري (٣٦٩٢).

(٢) هـذا فيمـا يتعلق بالفرد والذات، أما ما يتعلق بسـلامة المرحلة أو عدمها فيرجع إلى شـرط آخـر، وهـو (حفـظ بيضة الإسـلام وقيام فـرض الجهاد في سـبيل الله) بصـرف النظر عن الذوات وعدالتها المحصنة أو عدمها.

يوقِفُ العَمَل به لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ، وقد تقدم الكلام عنها في فصل (سنة المواقف والدلالة).

وكلَّما توقَّفَ العَمَلُ به من النُّصوصِ الشَّرعِيَّةِ بِسَبَبِ موقِفِ إمامٍ عادِلٍ رَضِيَ الالتِزَامَ بالتَّوقُّفِ أو تنازَلَ عن حَقٍّ منصوصٍ فِقهُ التَّحوُّلاتِ يجعَلُ من هذا الموقِفِ المُستَجِدِّ سُنَّةً يُقتَدى بها إلى يوم القِيامَةِ، كماهو في صُلحِ الإمامِ الحَسَن على سَبيلِ المثالِ.

الإمام الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خروجه لا يعاب

حيثُ لا يجوزُ لِأَحَدٍ أن يعيبَ الإمامَ الحَسَن بن عَلِيٍّ في تنازُلِهِ عن الحُكمِ لِغَيرِهِ وهو أَحَقُّ به، كما لا يجوز لِأَحَدٍ أن يعيبَ الإمامَ الحُسَينَ في اختيارِهِ الخُروجَ على الظَّالِمين بِبَيعَةِ أهلِ العِراقِ ثُمَّ السَّعيِ إليهم راغباً في الإصلاحِ فكان في الخُروجِ تَخاذُلُ المُحِبِّينَ وبَغْيُ المُبْغِضِين مِمّا أَدَّى إلى اسْتِشْهادِهِ وَمَنْ مَعَهُ رَحِمَهُمُ اللهُ رَحْمَةَ الأبرارِ وَعامَلَ أَعْداءَهُمْ بِعَدْلِهِ.

وَيتوقَّفُ الجَدَلُ في مسأَلَةِ أحَقِّيَّةِ الإمامِ عليٍّ بالخلافَةِ لمن فَهِمَ النُّصوصَ بذلك والتزم بها بعد أن رَضِيَ الإمامُ عَليٌّ ذاتُهُ السُّكونَ والالتِزامَ بما ترتَّبَ عليه نَصُّ فِقهِ التَّحوُّلاتِ بِصَرفِ النَّظَرِ عن المُبَرِّراتِ التي أَدَّت إلى ذلك أو كانت سبباً في صَرفِ الخِلافَةِ عنه، فالتَّحوُّلاتُ في فِقهِ العلاماتِ لها سُنَّةٌ خاصَّةٌ لا يعلَمُها إلا الأثباتُ من هذا النَّمَطِ المسؤولِ من أهلِ الإحسانِ ومراتِبِ الإيقانِ.

إنَّ هذا الرُّكامَ من حوادِثِ التَّاريخِ السَّلبِيَّةِ أو من تَبِعاتِ قراءَةِ النُّصوصِ الخاصَّةِ بِحُقوقِ ومكانَةِ آل البيتِ وما ظُلِموا فيه خِلالَ مراحِلِ التَّحوُّلاتِ في التَّاريخِ الإسلاميِّ وجعلَ البَعضَ هذا الأمرَ قضيَّةَ الدِّيانَةِ كُلِّها؛ لن يُعيدَ آلَ البَيتِ إلى ساحَةِ الحَرَكَةِ وقد ذهبوا بِمَواقِفِهم وصَبرِهم إلى يومِ القِيامَةِ .

ولـم يَصِحّ مـا يُنسَـبُ إليهم من المَذهَـبِ الخَـاصِّ بديلاً عن مذاهِبِ الإسـلامِ المُعتبَـرَةِ، فالمَذهَبُ الخاصُّ مقبولٌ فـي أهلِهِ والآخِذين عنه ، منهم ومن غَيرِهم ، والأخذُ والتَّلقِّي لغيرِهِ من المذاهِبِ الإسلامِيَّةِ أمرٌ صحيحٌ أيضاً ولا غُبارَ عليه.

وإنَّمـا سَـلبِيَّتُهُ كونُهُ يُفعِّلُ الصِّراعِ بيـن المُصَلِّينَ ويُورِثُ الحِقـدَ والعداوَةَ والثَّأرَ بين المسـلمين مِمَّن لا علاقَةَ لهم بالأمرِ ما سـوى الغَيرَةِ الطَّبعِيَّةِ على الآلِ وتفسيرِ النُّصوصِ بعيداً عن مواقِفِ «النَّمَطِ الأوسَطِ» الهُداةِ التُّقاةِ.

بـل إنَّ مـن عُمـقِ فِقهِهـم وقـد رَأَوا خُطـورَةَ الدَّجَـلِ والدَّجاجِلَةِ فـي المراحِلِ المُتَحَوِّلَـةِ وأنه سـيأكُلُ الأخضَـرَ واليابِسَ اتِّخـاذَ المواقِفِ الواعِيَةِ أمـام مُطالَبَتِهم بالحُقوقِ الخاصَّةِ ، لِتبقى حُقوقُ الإسـلامِ العامَّـةُ مُصانَةً ومحفوظةً من كُلِّ تَهَجُّمٍ وخِيانَةٍ.

وَانْـدَرَجَ غالبُهـم وأكثرُهم في مذاهبِ الإسـلامِ المُجْمَعِ عليهـا حَيْثُما نَزَلُوا من بلادِ الإسلامِ، ولم يَشُذُّوا أو يُلْزِمُوا الشعوبَ بمذهبٍ خاصٍّ بهم ماعدا ما لابد منه من الولاءِ والحبِّ والتَّكرِمَةِ والارتباطِ في الله والخدمةِ المشتركةِ في سبيله.

مَن هم النَّمَطُ الأوسَطُ ؟

من هم النمط الأوسط؟

أهلُ النَّمَطِ الأوسَطِ هم الأئِمَّةُ العُلَماءُ والعارفون الأثباتُ من آل البَيتِ النَّبَويِّ والصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم العُدولِ والتّابِعين ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .. أوعيةِ الكتابِ والسُّنَّةِ والأخلاقِ النَّبوِيَّةِ الذين ينَدرِجون في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩] ، وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّم : «يحمِلُ هذا العِلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ»[(١)] .

وهم الذين سلكوا مسلَكَ الهُدى والسَّلامَةِ ولم يُنازِعوا قراراً شرعيّاً ولا عالماً أو إماماً أَبَوِيّاً نَبَوِيّاً رَبّانِيّاً. هم الخُلَفاءُ الرّاشِدون المهدِيُّون عَبرَ تاريخِ التَّسلسُلِ الشَّرعِيِّ المُسنَدِ ، مَن حصَّنَتهم النُّصوصُ ونالوا بها مراتِبَ الخِلافَةِ والإمامَةِ ، أو مَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ على نهجِهم وهَديِهم غيرَ مُبدِّلين ولا مُحرِّفين.

مقولة الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنهُ عن النمط الأوسط

وفي مُصَنَّفَ ابن أبي شَيبةَ عن عليٍّ رضي الله عنه: « خيرُ الناس من هذا النَّمَطُ الأوسَطُ، يلحَقُ بهم التّالي ويرجِعُ إليهم الغالي »[(٢)].

أهمية معرفة علماء النمط الأوسط

وأهمِّيَّةُ معرِفَةِ النَّمَطِ الأوسَطِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ واجِبَةٌ وُجوبَ معرِفَةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ لأنَّهم أوعِيَتُها الشَّرعِيَّةُ، وهم قِسمانِ:

١- قِسمٌ التزم السَّلامَةَ وكان موقِفُهُ رحمةً للأُمَّةِ واستمراراً لحِفظِ الأمانَةِ.

٢- قِسمٌ التزمَ الاجتهادَ في الخُروجِ على الظَّلَمَةِ وكان مصيرُهُ الشَّهادَةَ .

والنَّمَطُ الأوسَطُ هم الذين التزموا منهجَ النُّبُوَّةِ في العَمَلِ والأخلاقِ وهم الخُلَفاءُ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) المصنف (٣٥٦٣٩).

الرَّاشِدون المهدِيُّون مِن بعدِهِ ﷺ ويأتي في مُقَدِّمَتِهِم:

- الخُلَفَاءُ الأربَعَةُ ومَن نَهَجَ نَهجَهم في عَصرِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ مِن الصَّحابَةِ وآل البَيتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ.

رجال النمط الأوسط

- آلُ البَيتِ الأطهارُ، ويأتي في مُقَدِّمَتِهِم الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ وفاطِمَةُ الزَّهراءُ والعَبَّاسُ والحَسَنُ والحُسَينُ و ذراريهم ومَن ارتبطَ بهم وسار على هَديِهم في القِيامِ والقُعودِ لإشاعَةِ مَنهَجِ السَّلامَةِ والابتِعادِ عن الغُلُوِّ والإفراطِ والتَّفريطِ.

المذاهب الإسلامية

- دعاةُ المَنهَجِ المُعتَدِل من المذاهِبِ الإسلاميَّةِ التي برزت بعد صُلحِ الإمامِ الحَسَنِ تحت مُسمَّى (أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ) ومنهم أصحابُ المذاهبِ الأربعَةِ المعروفةِ بمذاهبِ أهلِ السُّنَّةِ والذين رَضُوا ما رَضِيَهُ الإمامُ الحَسَنُ ومَن جاء مِن بعده على طريقِ السَّلامَةِ وحَقنِ الدِّماءِ.

أهل الإفراط والتفريط لا يدخلون في مسمى النمط الأوسط

- دعاةُ الاعتدالِ والتَّوسُّطِ من المذاهِبِ الأُخرَى كمذهَبِ الزَّيدِيَّةِ أو الإمامِيَّةِ، أما ما شَذَّ من داخلِ هذه المذاهبِ كالرَّافِضَةِ والسَّبَئِيَّةِ أو غيرِها بإفراطٍ وتفريطٍ فلا يدخُلُ تحت هذا التَّقسيمِ، بل ربما صار مسؤولاً مُباشراً عن الفِتَنِ ومُضِلّاتِها ودمارِ الأُمَّةِ من داخلِها، بإثارَةِ نقائضِ التَّاريخِ التي تجاوزها وسكتَ عنها رِجالُ النَّمَطِ الأوسَطِ حِفاظاً على سلامَةِ الدِّيانَةِ للأُمَّةِ.

ومِن علاماتِ هذه المجموعاتِ الغالِيَةِ اعتمادُها على النَّظَرَةِ العِدائِيَّةِ للمُخالِفِ وإثارَةِ الحُروبِ، أو الغُلُوِّ في الأحكامِ ونَقضِ المُبرَمِ من أُمورِ الدِّيانَةِ في الشُّعوبِ، واعتمادُها في المواقِفِ والولاءِ والبراءِ على حوادِثِ التّاريخِ ومُجرَياتِ الوَقائعِ والحوادِثِ وليس الاحتكامَ لما جاء عنها في النُّصوصِ الشرعيَّةِ والمواقِفِ التي

اتَّخَذَها أَئِمَّةُ آلِ البَيتِ خلال الأحداث المُستَجِدَّةِ.

ويدخُلُ تحت هذا المُسمَّى الخوارِجُ والقرامِطَةُ والباطِنِيَّةُ والمُعتَزِلَةُ وغيرُها من نماذِجِ الإفراطِ والتَّفريطِ في المَذهَبِيَّةِ الإسلاميَّةِ الحَرَكِيَّةِ، إلا مَن تابَ ورجَعَ عن إفراطِهِ وتفريطِهِ والتزَمَ الاعتِدالَ.

المدارس الخارجة عن النمط الأوسط

وكذلك مدارِسُ الإلحادِ والعلمانيةِ وما تَفَرَّعَ عنها من العَلْمَنَةِ والعَوْلَمَةِ المُرتَبِطَةِ في مرحلَةِ الغُثاءِ بِسِياسَةِ (أَكَلَةِ القَصعَةِ) وهم الذين يُوطِّدون العالَمَ العَرَبِيَّ والإسلامِيَّ للدَّجّالِ أو لمرحلةِ المَسيخِ الدَّجّالِ، ومِن علاماتِهِم: الدَّعوَةُ إلى مُخالَفَةِ الدِّينِ وإشاعَةِ نواقِضِه وعُيوبِ أتباعِهِ وتحريرُ المرأةِ بلا ضَوابِطَ شَرعِيَّةٍ منصوصةٍ، واستباحَةُ الملكيَّةِ العامَّةِ في مفهوم الاشتراكِيَّةِ، وإسقاطُ القِيَمِ الشَّرعِيَّةِ في الطَّبَقاتِ الاجتماعيَّةِ، وتفسيرُ التَّاريخِ والأديانِ تفسيراً مادِّيّاً بحتاً.

وقد انتشرت هذه المجموعاتُ في العالَمَينِ العَرَبِيِّ والإسلامِيِّ بعد الحَربَينِ العالميَّةِ الأولى والثّانِيَةِ كأذرِعَةٍ مُسَيَّسَةٍ لخِدمَةِ الاستعمارِ وبرامِجه في الماضي والحاضِرِ والمُستَقبَلِ بِعِلمٍ وإدراكٍ أو بِغَيرِهما.

وإلى اليومِ وما بعدَ اليومِ والأُمَّةُ ترزَحُ في هذه العَماياتِ المُسَيَّسَةِ مِن نَقضِ الحُكمِ إلى نَقضِ العِلمِ إلى نَقضِ العُرى وهُلَمَّ جَرّاً.

المذاهب الإسلامية لم تول أهل النمط الأوسط أهمية لانعدام المعرفة بفقه التحولات

إنَّ مَسأَلَةَ «النَّمَطِ الأوسَطِ» والاهتمامَ بِمَواقِفِ رِجالِهِ مسألَةٌ لم يعتنِ بها أَهلُ المذاهِبِ الإسلامِيَّةِ المُتنازِعَةِ، بل رُبَّما لم يُولُوا هذا المُسَمَّى أيَّ أَهَمِّيَّةٍ شرعِيَّةٍ حتى اندرَجَ في مواقِفِ آلِ البَيتِ غُلاةُ الرَّافِضَةِ والسَّبَئِيَّةُ ومَن كان له إفراطٌ وغُلُوٌّ طَبعِيٌّ أو تَعَصُّبٌ مقيتٌ في الاستدلالِ الشَّرعِيِّ..

مع العِلمِ أنَّ أتباعَ الأئِمَّةِ الأطهارِ مِمَّن نَهَجَ مَنهَجَ «النَّمَطِ الأوسَطِ» التزموا

مـا التزمَـهُ الأئِمَّةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهـم ، وهذا ما يُفصِـحُ عن تقريرِهِ وتأكيـدِهِ «فِقهُ التَّحوُّلاتِ» ولآلِ البَيتِ باعٌ طويلٌ في الأخذِ به والاطّلاعِ على نُصوصِهِ.

مواقِفُ النَّمَطِ الأوسَطِ مِن طَرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ

القدوة والأسوة في سلوك أهل النمط الأوسط

كان موقِفُ أهلِ الإفراطِ أو التَّفريطِ منازَعَةُ (أهلِ النَّمَطِ الأوسَطِ) في اعتدالِهم وتَوسُّطِهم المشروعِ، ولهذا كان لابُدَّ لِرجالِ النَّمَطِ الأوسَطِ من اتِّخاذِ مواقِفَ شرعِيَّةٍ تَحفظُ دِماءَ المُسلِمين ومَقامَ النُّبُوَّةِ من الفسادِ والإفسادِ، وهذا ما فَعَلَهُ هؤلاءِ الرِّجالُ المُعبَّرُ عنهم في فِقهِ التَّحوُّلاتِ بـ(النَّمَطِ الأوسَطِ)، والذين انطبَقَ عليهم معنى الحديثِ الذي أخرجَهُ ابن ماجَه في «سُنَنِه» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ بين يدي السّاعَةِ لهَرَجاً» قالوا: وما الهَرَجُ ونرى أنَّه الكَذِبُ، قال: القَتلُ، قالوا: وما يكفينا أن نقتُلَ كُلَّ عام كذا وكذا من المشركين قال: «ليس ذلك، ولكن قتلَكُم أنفُسَكُم»، قالوا: وما عُقولُنا قال: «إنَّها تُختَنَسُ عامَّةُ عُقولُ أهلِ ذلك الزَّمانِ، وسيؤخَّرُ لها هَباءٌ من النّاسِ يَرَون أنَّهم على شيءٍ، وما أُراهُم إلا سَتُدرِكُني وإيّاكم، وما المخرَجُ لي ولكم منها فيما عَهِدَ إلينا نَبِيُّنا ﷺ إلا أن نخرُجَ منها كيومَ دَخَلْنا فيها» قال الحَسَنُ: «وما الخُروجُ منها كيومَ دخلوا فيها إلا السَّلامَةُ فسَلِمَت قُلوبُهم وأيديهم وألسِنَتُهم»[1]. وبهذا يتميَّزُ رِجالُ النَّمَطِ الأوسَطِ بالمَواقِفِ الأخلاقِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ والالتزامِ بِمَنهَجِ السَّلامَةِ في كُلِّ الظُّروفِ، وتتلَخَّصُ أهَمُّ مواقِفِهم بما يلي:

ملخص مواقف أهل منهج السلامة

- مواقِفُ أهلِ البَيتِ في عَصرِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ في مسألَةِ الحُكمِ، والموافَقَةِ على ما أجمَعَ عليه أهلُ الحَلِّ والعَقدِ، وعَدَمِ المُنازَعَةِ في ذلك، والرِّضى بما رَضِيَ به المسلمون، وتجاوُزِ ما اعترى البَعضَ منهم مِن عَدَمِ الرِّضى في

(١) سنن ابن ماجه (٣٩٥٩)، إسناده صحيح، «موسوعة الفتن» (١٠٧٠).

بِدايَةِ الأمرِ إلى المُوافقَةِ ودَعمِهم التَّامِّ لمراحلِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ حتّى تنازُلِ الإمامِ الحَسَنِ[1].

الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عهد الخلافة

- قبولُ الإمامِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُشارَكَةَ الدَّائِمَةَ في بناءِ دولَةِ الإسلامِ والنُّصحِ لها طِيلَةَ مرحَلَةِ خِلافَةِ سَـيِّدِنا أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وقَبولُهُ البَيعَةَ بعدَهُـم لإنقاذِ ما يُمكِنُ إنقاذُهُ مِن مَنهَجِ النَّمَطِ الأوسَـطِ في مرحَلَةِ خِلافَتِهِ، وهـذا مَوقِفٌ يُقتَدَى به بِصَرفِ النَّظَرِ عَمَّن يُشـيرُ إلى مسـألَةِ النُّصوصِ التي تَجعَلُ الحَقَّ له في الخلافَةِ..

الإمام الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام القرار

- موقِفُ الإمامِ الحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الفِتَنِ والتَّنافُسِ على القرارِ وتنازُلِهِ عنه في أَشَدِّ حاجَةِ النَّاسِ إلى وُجودِهِ حِفاظاً على دِماءِ المُسلِمين وسلامَةِ وِحدَتِهِم وانتِقالِـهِ معَ أهلِ بَيتِهِ من العراقِ إلى المدينةِ حتى وفاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون خُروجٍ أو مُنازَعَـةٍ، مُحافَظَـةً منه على الدِّيانَةِ والأمانَةِ، وتَجنيبـاً لِحَمَلَتِها مِن الهلاكِ والمُنافَسَةِ، بِرَغمِ نَكثِ الجانِبِ الآخَرِ عَهدَ الاتِّفاقِ والتّآمُرِ على حياةِ الإمامِ الحَسَنِ بِدَسِّ السُّمِّ.

الإمام الحسين إمام البيعة

- موقِفُ الحُسَينِ عَلَيْهِ السَّلَامُ والتزامُهُ السُّكونَ في المدينةِ مِثلَ غَيرِهِ مِن أهلِ البَيتِ حتّى ابتعاثِ أهلِ العِراقِ له بِالبَيعَةِ وتحميلِهِ مَسؤُوليَّاتِها وإخراجِهِ مِن أجلِها من المدينةِ إلى ما قضاه اللهُ وقَدَّرَهُ من استشهاده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِكَربلاءَ.

- موقِفُ الإمامِ عليٍّ زينِ العابِدِين وهو الذي شَهِدَ معركَةَ كربلاءَ و كان الرَّجُلَ

---

(١) وعلى هذا الموقف يلتزم أهل النمط الأوسـط ما التزمه سـلفهم الصالح من عدم الخوض أو الطعن في الخلافة الراشدة إلى يوم الدين، ومن طعن فيها أو نازع بعلم أو بغير علم فقد خالف منهج النمط الأوسط ونحى إلى الإفراط والتفريط .

الوحيـدَ النّاجِـيَ من المعركَـةِ ، واتخاذُهُ فيمـا بعدُ طريقَ السَّـلامَةِ والالتزامَ بِمَنهَجِ النَّمَطِ الأوسَـطِ والاعتناءَ في إقامةِ مَنهَجِ النُّبُوَّةِ دون المُطالَبَةِ بالقَرارِ أو الاقتتالَ من أجلِهِ أو الوَصِيَّةَ بذلك .

وقد تفرَّعَ عن هذا الموقِفِ مَنهَجُ الزُّهدِ المعروفُ بالتَّصَوُّفِ وانتشرَ بعد ذلك في صورتِهِ المُعتَدِلَةِ كنَموذَجٍ مِن نماذِجِ السَّـلامَةِ لِكُلِّ من اتَّبَعَ رِجالَ النَّمَطِ الأوسَطِ. سَـلَكَ هذا المَسـلَكَ الذي سَـلَكَهُ هؤلاءِ الأئِمَّـةُ أغلَبُ مَن جاء مِـن بعدِهم مِن آلِ البَيـتِ الكِرامِ وأتباعِهم وتلاميذِهم ومَن أخذَ عنهم، وهم قَومٌ كُثرٌ، ولـم يخرُج عن هـذه القاعِدَةِ إلا أفرادٌ، وكان خروجُهم لاجتهادٍ يتـلاءَمُ مع أزمِنَتِهم ومَن فيها ولم يستَقِم لِأَحَدٍ منهم أمرٌ، بل قُتِلوا واستُشهِدوا في سبيلِ اللهِ، ولا يُطعَنُ في مَواقِفِهم ولا في خُروجِهم، بل هي مواقِفُ اسـتفادَ منها رِجالُ النَّمَطِ الأوسَطِ خِلالَ مرحَلَةِ المُلكِ العَضوضِ وثَبَتَتْ بها مَواقِفُ السَّلامَةِ ولا يَحِقُّ لِأَحَدٍ مِن بعدهم أن يَتَّخِذَها قُـدوَةً للخُـروجِ وإثارَةِ الصِّراعِ، ويُؤَيِّدُ هذا المعنى ما ورد في كتابِ (الفِتَنِ) لِنُعَيمِ بنِ حَمَّادٍ عن يزيدَ بنِ أبي حَبيبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «سَيَكُونُ بَعْدَ أصحابي فتنـةٌ يَغْفِرُهَـا اللهُ لهـم بمحبَّتِهم إيايَ، ثم يسـتنُّ بها قومٌ من بعدهـم فيدخلون بهم النارَ» [1].

لا يحق لمن بعدهم أن يتخذوا اجتهادهم قدوة لإثارة الصراع إلا بشروط

(١) تفسير القرطبي (٧: ٣٩١).

عُلَماءُ فِقهِ التَّحوُّلاتِ وعلاماتُ السّاعَةِ

علماء فقه التحولات

تُشيرُ النُّصوصُ الوارِدَةُ في كُتُبِ الحديثِ إلى اخْتِصَاصِ بعضِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم في شأنِ هذا العِلمِ كالإمام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وحُذَيفَةَ بنِ اليمانِ وأبي هُريرَةَ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ وغيرِهم[1]، كما تميَّزَ هذا العِلمُ المبثوثُ في أحاديثِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن علاماتِ السّاعَةِ بِمواقِفَ مُتَنَوِّعَةٍ ساعةَ إبلاغِهِ للأشراطِ والعلاماتِ، فمِنها ما تحدَّث عنه مرَّةً أو مَرَّتَينِ، ومنها ما ذكرَهُ في يومٍ واحِدٍ، وإلى ذلك يُشيرُ حديثُ حُذيفَةَ بن اليمانِ الذي أخرجه البُخارِيُّ في «صحيحه» من قوله: «قام فينا رسولُ

أحاديث العلم بالساعة

الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مقاماً ما ترك شيئاً يكونُ في مقامه ذلك إلى قيامِ السّاعة إلا حدّث به، حَفِظَهُ مَن حَفِظَهُ ونَسِيَهُ مَن نَسِيَ»[2]. وحديثُ عمرِو بنِ أخطَبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: (صلَّى بنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الفجرَ وصعد المِنبرَ، فخطَبَنا حتى حضرت الظُّهرُ، ثم نزل فصلَّى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصرُ ثم نزل فصلَّى ثم صعد

---

(١) وهذا لا يعني أن غيرهم لم يسمعوا الحديث وإنما كانوا هم أكثر حفظا وسؤالا عن العلامات، كما في قول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنهُ في ما أخرجه مسلم في الفتن وغيره قال: (أنا أعلم الناس بكل فتنة هي كائنة إلى يوم القيامة وما بي أن يكون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أسر إلي في ذلك شيئا لم يحدث به غيري ولكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حدث مجلسا أنا فيه عن الفتن التي يكون منها صغار ومنها كبار فذهب أولئك الرهط كلهم غيري) رواه مسلم (٢٨٩١)، وفي رواية أخرى قال: (ما من صاحب فتنة يبلغون ثلاثمائة إنسان إلا ولو شئت أن أسميه باسمه واسم أبيه ومسكنه إلى يوم القيامة كل ذلك مما علمنيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قالوا:بأعيانها؟ قال: وأشباهها، يعرفها الفقهاء ـ أو قال: العلماء ـ إنكم كنتم تسألون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الخير وأسأله عن الشر، وتسألونه عما كان وأسأله عما يكون) وقد سبق تخريجه في مطلع الكتاب.

(٢) البخاري (٦٦٤)، وانظر «العراق في أحاديث الفتن» لمشهور حسن (١: ٣٢٧).

فخطبنا حتى غربت الشمسُ فأخبَرَنا بما كان وبما هو كائِنٌ فأعلَمُنا أحفَظُنا)[1] .

وروى أبـو يعلى عن أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه قال: «لقد تَرَكَنا رَسـولُ اللهِ ﷺ وما في السَّماءِ طَيرٌ يطيرُ بِجَناحَيهِ إلا ذكر لنا منه عِلماً»[2].

الصمت المطبق عن علامات الساعة وما ترتب على ذلك

ولعـلَّ صَمـتَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ومَن بعدهم عن الإفصاحِ التَّـامِّ جَعَلَ العُلماءَ مِن بعدِهم يسـكُتُون عن تفصيلِ هذا العِلمِ وإشـاعَتِهِ حتى صار غريباً على الأذهانِ وغريبـاً حتّى بين أهلِ العِلمِ وهذا ما يُفسِّـرُهُ حديثٌ رواه مسـلمٌ عن أبي هريرةَ من قولِهِ ﷺ: «بدأَ الإسـلامُ غريباً وسيعودُ كما بدأ غريباً فطوبى للغُرَباءِ»[3] وفي روايةٍ «بَـدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَـدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[4].

بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ

ولـو تأمَّلنـا هـذا الحديـثَ ورَبَطناهُ بِفِقـهِ التَّحـوُّلاتِ لوَجَدنـا أنَّ الدِّيـنَ بأركانِهِ الأربَعَـةِ بـدأ غريبـاً، وحتى عند إعادَتِـهِ وربطِهِ بِمَوقِعِـه مِن رُباعِيَّةِ الأركانِ سَـيَظَلُّ غريباً كما بدأ، وفي هذا يقولُ ﷺ ـ لِأَهَمِّيَّةِ إبرازِ هذا العِلمِ: «فطوبى للغُرَباءِ الذين يُحيـون»[5] ، أي: يُعيدون شَـرَفَ رُباعِيَّـةِ الأركانِ التي أماتها النَّاسُ من سُـنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وهذا التعليلُ خاصٌّ بِفِقهِ التَّحوُّلاتِ فقط حيثُ إنَّ كثيراً من العُلَماءِ قد فَسَّروا غُربَةَ الدِّين بِمَعانٍ أخرى ، ولا خلافَ على ذلك.

---

(١) مسلم (٢٨٩٢).

(٢) رواه الطبراني وقال الهيمثي: رجاله رجال الصحيح ، انظر إتحاف التويجري (١: ١٨) .

(٣) مسلم (٣٨٩).

(٤) الترمـذي (٢٦٣٠) ، وفـي رواية أحمد : «طوبى للغرباء»، فقيل: من الغرباء يا رسـول الله؟ قـال: «أنـاسٌ صالحـون في أناسِ سـوءٍ كثير، مـن يعصيهم أكثـر ممن يطيعهم» ، وإسـناده صحيح لغيره ، «موسوعة الفتن» (١٧٤٣).

(٥) لم أجد هذه اللفظة .

وقد اجتهد عُلَماءُ المسلمين في خِدمَةِ هذا العِلمِ مُنفَرِداً عن الأركانِ الثَّلاثةِ، ومِن ذلك ما جَمَعَهُ صاحب كتابِ «السُّنَنِ الوارِدَةِ في الفِتَنِ» أبوعمرو عثمانُ بن سعيدٍ المُقرئُ الدّانِيُّ، وقد افتتحَ كتابَهُ بالمُقَدِّمَةِ فقال فيها: مَعشَرَ إخوانِنا المسلمين جَعَلَنا الله وإيَّاكم على النِّعَمِ شاكرين وعند البَلوى والمِحَنِ صابرين، فقد ظهر في وقتِنا وفشا في زَمَنِنا من الفِتَنِ وتغييرِ الأحوالِ وفسادِ الدِّين واختلافِ القُلوبِ وإحياءِ البِدَعِ وإماتَةِ السُّنَنِ ما دَلَّ على انقراضِ الدُّنيا وزوالِها، ومَجيءِ السّاعَةِ واقترابِها، إذ كُلُّ ما قد تواتر من ذلك وتتابَعَ وانتشَرَ، وفشا وظهَرَ، قد أعلَمَنا به نَبيُّنا ﷺ وخوَّفَناهُ وسَمِعَهُ منه صحابَتُه رضوان الله عليهم، وأدَّاهُ عنهم التَّابعون رحمةُ الله عليهم، ونقلَهُ أئِمَّتُنا إلينا عن أسلافِهم، ورَوَوهُ لنا عن أوَّليهم، وقد بَعَثَني ما أخذَهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ من الميثاقِ والعَهدِ على أهلِ العِلمِ والرِّوايةِ في نَشرِ ما عَلِموه وأداءِ ما سَمِعُوه أن أجمَعَ في هذا الكتابِ جُملَةً كافِيَةً من السُّنَنِ الوارِدَةِ في الفِتَنِ وغوائِلِها والأزمنَةِ وفسادِها والسّاعَةِ وأشراطِها لكي يَتَأدَّبَ بها المؤمِنُ العاقِلُ، ويأخُذَ نَفسَهُ بِرِعايَتِها ويُجهِدَها في استعمالِها والتَّمسُّكِ بها، ويتبيَّنَ له بذلك عظيمُ ما حَلَّ بالإسلامِ وأهلِهِ من سَفكِ الدِّماءِ ونَهبِ الأموالِ واستباحة (الحُرَمِ) وغيرِ ذلك ممّا يُذهِبُ الدِّين ويُضعِفُ الإيمانَ، فيُعمِلُ نفسَهُ في إصلاحِ شأنِهِ خوفاً منه على فسادِ دينِهِ وذهابِهِ، وما توفيقُنا إلا باللهِ عليه نتوَكَّلُ وهو حسبُنا وإليه نُنيبُ ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

مقدمة الداني صاحب كتاب «السنن الواردة في الفتن»

وكتب الشَّيخُ العلاّمَةُ محمَّدُ بنُ رَسولِ البَرزَنجِيُّ الحُسَينِيُّ في مُقَدِّمَةِ كتابه قَولَه (ص٢٦): ولما كانت الدُّنيا لم تُخلَق للبَقاءِ ولم تَكُن دارَ إقامَةٍ، وإنما هي مَنزِلٌ من منازِلِ الآخِرَةِ جُعِلَت للتَّزَوُّدِ منها إلى الآخِرَةِ، والتَّهَيُّؤِ للعَرضِ على اللهِ ولِقائِهِ، وقد آذنَت بالانصِرامِ ووَلَّت، لذا كان حَقّاً على كُلِّ عالِمٍ أن يُشيعَ أشراطَها

مقدمة البرزنجي لكتابه «الإشاعة»

ويَبُـثَّ الأحاديـثَ والأخبارَ الوارِدَةَ فيها بين الأنامِ ويَسـرُدَها مَـرَّةً بعد أخرى على العَوَامِّ فعسـى أن يَنتَهوا عن بعضِ الذُّنوبِ وتَلينَ منهم بعضُ القُلوبِ ويَنتَبِهوا من سِنَةِ الغَفلَةِ ويَغتَنِموا المُهلَةَ قبل الوَهلَةِ.

فدعاني ذلك إلى أن أبسُطَ فيها القَولَ بَعضَ البَسطِ ولو أدَّى إلى التَّكرارِ لا كَمَن جَمَـعَ فيهـا أوراقاً على سـبيلِ الاختصـارِ ، تبصِرَةً لأهـلِ الاغترارِ وتذكِـرَةً لأولي الأبصـارِ ، ووَسـيلةً إلـى رِضـى الجَبَّارِ ، وذَريعَـةً إلى دار القَـرارِ . واللهَ أسـأَلُ أن يُخلِـصَ نِيَّتي ويُحسِـنَ طَوِيَّتي فإنَّما الأعمـالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنَّما لُـكلِّ امرئٍ ما نوى، وأن ينفَـعَ به عامَّة المؤمنين ، وأن يغفِرَ لي ولآبائي ولإخواني ولأولادي دِيناً ودُنيا أجمعين آمين .

وكتبَ الشَّـيخُ العلَّامَةُ المُجتَهِدُ الحافِظُ أبوالفَيـضِ أحمدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الصِّدِّيقِ الغُمارِيُّ الحَسَنِيُّ ص٢ في مُقَدِّمَةِ كتابه «مُطابَقَةِ الاختراعاتِ العَصرِيَّةِ لما أخبر به سَيِّدُ البَرِيَّةِ»:

أما بعدُ ، فإنَّ عِلمَ النَّبيِّ ﷺ بالغَيبِ وإطلاعَ اللهِ تعالى إيَّاهُ على ما كانَ وما يكونُ إلـى قِيامِ السّـاعَةِ وإلـى أن يَصيرَ الفريقانِ إلـى منازِلهم من الجَنَّـةِ أو النَّار، بل وما بعـد ذلك إلى مـا لا نِهايَةَ له من الأزمانِ؛ معلومٌ بالضَّـرورَةِ لأهلِ العِلمِ والإيمانِ، مقطـوعٌ بـه عِندَ المعرِفَـةِ والإيقانِ، لا يختَلِـفُ في ذلك منهم اثنانِ، ولا يَشُـكُّ فيه منهـم فضلان، لِتَظافُرِ الأَدِلَّةِ بذلك، وتكاثُرِ البراهيـنِ على ما هنالك، ويكفي قولُ الله تعالـى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] مـع الإجمـاعِ المُتيَقَّـنِ المقطـوعِ بـه علـى أنَّ أفضـلَ المُرتَضَينَ منهم وسـيِّدُهم على الإطلاقِ هو سَـيِّدُنا مُحَمَّـدٌ ﷺ بدون نِزاعٍ ولا شِـقاقٍ، فهو أفضَلُ

مَـن أظهَـرَهُ اللهُ على غَيبِهِ بإخبارِ اللهِ تعالى ثُمَّ بإخبارِهِ هو ﷺ أنَّ اللهَ تعالى أطلَعَهُ علـى كُلِّ شـيءٍ وآتاهُ عِلمَ كُلِّ شَـيءٍ، وجَلَّى له كُلَّ شَـيءٍ، وتجلَّى لـه فَعَلِمَ ما بين السَّـماواتِ والأرضِ ومـا كان وما هو كائِنٌ إلى غير ذلـك مِمَّا صَحَّت به الأخبارُ، وتواتـرت بِمَجموعِـهِ الأحاديثُ والآثارُ، وأيَّـدَهُ الواقِعُ وصَدَّقَه العَيـانُ، في وُقوعِ كُلِّ مـا أخبرَ به ﷺ مِمَّا سـيأتي بعـدَهُ وَفقَ ما قال وطِبقَ ما أخبر به على مَرِّ السِّـنينِ والأعـوامِ وكَـرِّ الدُّهورِ والأزمانِ، وقد قـام ﷺ خطيباً فأخبرَ أصحابَـهُ بِكُلِّ ما هو كائِنٌ كما صَحَّ عن طريقِ جماعَةٍ من الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم كَعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ وحُذيفَةَ بنِ اليمانِ وأبي زيدٍ الأنصارِيِّ وأبي سعيدٍ الخُدرِيِّ وابن مسعودٍ وغيرهم.

ثم قال ص٣: **فصلٌ** ، ولهذا قال أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: لقد تَرَكَنا رسولُ اللهِ ﷺ وما يحرِّكُ طائِرٌ بِجَنَاحَيهِ في السَّـماءِ إلا ذكر لنا منه عِلماً . رواه أحمدُ وابنُ سـعدٍ في الطَّبقاتِ، وكذلك قال أبو الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ فيما رواه عنه أبو يعلى والطَّبرانِيُّ في الكبير.

والمقصودُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أصحابَهُ بِكُلِّ ما هو كائِنٌ بعده مما أطلَعَهُ الله عليه، وحدَّث بذلك أصحابَهُ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وظهر مِصداقُ كُلِّ ما أخبر به مِمَّا سيأتي بعده إلى يومِنا هذا.

فأمـا مـا ظهر فـي القُرونِ الماضِيَـةِ فتكفَّـلَ بِذِكرِهِ جماعَـةٌ مِمَّن أَلَّفوا في سِـيرَتِهِ وفضائِلِهِ ومُعجِزاتِهِ وخصائِصِه ﷺ، وبَيَّنوا ذلك وشَرَحوه وعَيَّنوه وحَقَّقوه.

وأما ما وقع في زمانِنا هذا من انقلابِ الأحوالِ وتَغَيُّرِها وفسادِ الأخلاقِ وتَبَدُّلِها ومـا ظهر من الأُمورِ العظيمةِ والحوادثِ الجسـيمَةِ والمختَرعـاتِ العجيبةِ فلم أَرَ أحداً تَصَدَّى لجمعِهِ واسـتخراجِ ما يَنُصُّ أو يُشـيرُ من الآياتِ القرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبوِيَّةِ إليه، وإن كان جُلُّ ذلك مذكوراً في كُتُبِ أشراطِ السّاعَةِ وأبوابِها من دَواوينِ

السُّنَّةِ؛ لكنَّها مسرودَةٌ سَرداً لا يهتدي غالِبُ النَّاسِ مَعَهُ إلى تطبيقِها على ما وردت فيه، ولا تنزيلِها على ما أُشيرَ بها إليه.

فإنَّه ﷺ أخبر بذلك مَرَّةً بِطريقٍ صريحٍ، وأخرى على جِهَةِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ والإشارَةِ والتَّلويحِ حسبما يقتضيه المقامُ ويفهَمُهُ أهلُ كُلِّ زمانٍ لأنَّه ﷺ أوتي جوامِعَ الكَلِمِ واختُصِرَ له الكلامُ اختِصاراً.

ولذلك خاض العُلماءُ في تفسيرِ تلك الأحاديثِ وشرحوها بِحَسَب ما أدركَتهُ عُقولُهم ووصلت إليه أفهامُهم، وحملها أهلُ كُلِّ زمانٍ على ما قد كان في زمانِهم وطبَّقوها على ما ظهر فيه من الحوادثِ والتَّغيُّراتِ والأحوالِ المُبتَدَعات، وهي وإن كان فيها ما هو صالحٌ لذلك إلا أنَّ أكثرَها في الحقيقةِ وارِدٌ في هذا الزمانِ، فهو في أحوالِه وحوادثِه كالنَّصِّ، وفيما ذكروه كالظَّاهِرِ والمُؤَوَّلِ، بل فيها ما هو نَصٌّ قاطِعٌ في حوادثِ زمانِنا لا يقبَلُ حملَهم ولا يحتَمِلُ التَّأويلَ.

فصلٌ، وهذا جُزءٌ ذكرتُ فيه ما وقع لي من الأحاديثِ التي أشار بها ﷺ إلى حالِ هذا الزَّمانِ وأهلِهِ وما ظهرَ من الأُمورِ العظيمةِ والمُختَرَعاتِ العجيبةِ فيه وذلك على حَسَبِ ما بَلَغَهُ عِلمي ووصل إليه إدراكي وفَهمي، وقد يفتَحُ اللهُ على غيري بما هو أوسَعُ من ذلك، وأَدَلُّ على ما هنالك. وسمَّيتُهُ «مطابَقَةَ الاختراعاتِ العصرِيَّةِ لما أخبر به سَيِّدُ البَرِيَّةِ».

ما هو سَبَبُ سكوتُ العُلَماءِ عن الإفصاحِ الواضِحِ لِعلاماتِ

السّاعةِ كرُكنٍ من أركانِ الدِّين؟

سبب سكوت العلماء عن الإفصاح بالعلامات

كان الصَّحابَـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ علـى عِلمٍ واسِـعٍ بهذا الرُّكنِ الخطيرِ مـن حيثُ أحداثُهُ وشُـخوصُهُ، ولكنَّهـم كانوا يكتُمون سِـرَّهُ وخَبَـرَهُ عن العامَّةِ والدَّهمـاءِ لما يترتَّبُ علـى نَشـرِهِ في العُصورِ الأولى مِن كَشْـفٍ عن الأحداثِ المُعاصِـرَةِ ورجالِها ممّا قـد يُـؤَدِّي إلى دِمـارٍ مُحَقَّقٍ عند الإفصاحِ، وفي هذا الشَّـأنِ يقولُ أبـو هريرةَ في ما رواه فـي الصَّحيحِ: «حَفِظتُ من رسـولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وِعاءَينِ فأمّـا أحدُهما فَبَثَثْتُهُ وأمّا الآخَرُ فلو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هذا البُلعومُ»[1]، وفي «معرِفَةِ الصَّحابَةِ» لأبي نُعَيمٍ الأصبهانِيِّ[2] بلفظ: «حَفِظتُ مِن رَسـولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خمسَ جُرَبٍ، فأخرجتُ منها جِرابَينِ، ولو أخرجتُ الثّالِثَ لرَجَمتُموني بالحِجارَةِ» .

وفُهِـمَ مـن هذا ومن غَيرِهِ أنَّ المقصود بهذا الكِتمانِ هـو ما يتعلَّقُ في أهمِّ معانيه بِعلاماتِ السّـاعةِ أو ما عُرِفَ بِفِقهِ التَّحـوُّلاتِ، ويؤيِّدُ هذا المعنى ما قاله أبوهريرةَ مِـن روايةِ الإسـماعيليِّ في قولِـهِ: (وكأنَّ أباهريرةَ يعرِفُ أسـماءَهُم (من بني فُلانٍ وفُلانٍ) وكان ذلك من الجِرابِ الذي لم يُحدِّث به)[3].

ولما جاء عَصرُ التَّدوينِ ووضع العُلماءُ قواعِدَ الأُصولِ سـكتوا عمّا سـكت عنه بعـضُ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَقاءِ المحاذيرِ التي أشـارَ إليها حديـثُ أبي هريرةَ وغيرُهُ في ذلك العَصرِ واكتَفَوا بِتَدوينِ معلوماتِهِ في الصِّحاحِ والسُّـنَنِ والمسـانيدِ وذكرِهِ عَرَضـاً في سَـردِهم للعلاماتِ عنـد ذِكرِ مواقِعِ أخبارِها في مبسـوطِ فِقهِ الإسـلامِ

---

(١) البخاري (١٢٠)

(٢) معرفة الصحابة (٤٢٣٧)

(٣)فتح الباري لابن حجر ٢٠ / ٦٢.

والإيمانِ والإحسانِ.

مقولة للإمام الشاطبي حول جديد العلم

واعتبَرَهُ بعضُ عُلماءِ الأُصولِ من شَاذِّ العِلمِ لِسُكوتِ العُلَماءِ عن إظهارِهِ رُكناً من أركانِ الدِّين حتَّى قال الشّـاطِبيُّ رحمه الله : (قَلَّما تَقَعُ المُخالَفَةُ لِعَمَلِ المُتَقَدِّمين إلا مِمَّـن أدخَلَ نفسَـهُ في أهلِ الاجتهادِ غَلَطاً أو مُغالَطَـةً)[1]، وأُثِرَ عن الإمام عَليِّ بن الحُسَينِ قولُهُ (ليس العِلمُ ما لا يُعرَفُ من العِلمِ ، إنَّما العِلمُ ما عُرِفَ وتواطأت عليه الألسُـنُ) وقال بعضُهم : والانفِرادُ عن أهلِ العِلمِ برَأيٍ في الشَّرعِ والقولُ بما لـم يَقُل بـه أَحَدٌ فيه يُنبِئانِ عن خَلَلٍ في العَقلِ) ومثلُ هـذه الأقوالِ من رِجالِ العِلمِ وتشـدُّدِهم في هـذا الأمرِ حَجَبَ الكلامَ في أمرِ السّـاعةِ وإلحاقِهـا بالأركانِ ـ كما نَعتَقِـدُ واللـهُ أعلَمُ ـ مع أنَّ القَـولَ بِرُكنِيَّةِ علامات السّـاعةِ وإلحاقِها بالموضوعِ لا علاقَـةَ له بما ذَكَرَهُ أهـلُ العِلمِ من عباراتِ التَّرهيبِ وإنَّما علاقَتُهُ بقولِ مَن لا ينطِقُ

ركنية فقه التحولات مقولة عمن لا ينطق عن الهوى ﷺ وليس اجتهاد العلماء

عـن الهـوى ﷺ (أتاكم جِبريلُ يُعَلِّمُكم دينكم) و بكتمانِهِ يُؤثَمُ العالِمُ بعد أن ثبت عـن النَّبيِّ ﷺ تقريرُهُ وتأكيدُهُ، أما فِقهُ عِلمِ السّـاعةِ فقد تناولَتهُ كافَّةُ كُتُبِ الحديثِ ومنها صحيحُ البخاريِّ الذي بَوَّب لأركانِ الدِّينِ وكتب في تبويبه: (والسّاعةُ جُزءٌ من الدِّينِ).

وتنـاولَ العَديـدُ من العُلَماءِ هذا الفِقـهَ في مُؤلَّفاتٍ عامَّةٍ أو خاصَّـةٍ كمادَّةٍ عِلمِيَّةٍ شَـرعِيَّةٍ ذاتِ ارتباطٍ بالقيامةِ والآخِرَةِ فقط، حتى صار لدى بعضِ المُتأخِّرين ـ في فَترَةٍ زَمَنِيَّةٍ ـ قدحُ المُتكَلِّمِ في علاماتِ السّاعةِ واتِّهامُهُ بالجَهلِ أو الإثارَةِ للمُسلِمين وخاصَّةً عندما يُخاضُ في أخبارِ الإمامِ المُنتَظَرِ وعيسى والدَّجَّالِ وغيرِها..

وعمَّ الجَهلُ بهذا الرُّكنِ ومعلوماتِهِ حتى صار غريباً ومجهولاً، بل صار في بعضِ

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣: ٢٨٦).

بلادِ العَرَبِ والمسـلمينَ عِلماً ممنوعاً نشرُهُ على المنابرِ والمؤلَّفاتِ نتيجةَ الجَهلِ بـه أوَّلاً، ثُمَّ عَدَمُ خِدمَتِهِ خِدمَةً تتناسَـبُ مع المراحِلِ وتقلُّباتها، ثُمَّ لاشـتمالِهِ على بعـضِ أحوالِ المُفسـدين في الأرضِ من الحُـكّامِ والعُلماءِ والظَّلَمَـةِ ومَن له نُفوذٌ فـي الواقِعِ، فسـادَ بذلك الصَّمتُ والسُّـكونُ عن ذِكرِهِ كما قـال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لـو بثثتُـهُ لَقُطِعَ مِنِّي هذا الحُلقوم)، وأمَّا إظهارُنا له بعـد أن تهيَّأَ لنا بِفَضلِ اللهِ فَهمُ موقِعِـه مـن الأركانِ فلا يدخُلُ تحـت مُخالَفَةِ مَن سَـبَقَ ولا مُعارَضَةِ أهلِ الأُصولِ والحديـثِ، وإنمـا هو إتمامٌ وإكمـالٌ لما هم وأتباعُهُم وتلامِذَتُهـم في حاجَتِه قبل غَيرِهـم من عـوامِّ النَّاسِ وتجديـدٌ واعٍ لقولِ الإمامِ عَلـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنِّي فقأتُ عَينَ الفِتنَةِ»[1].

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٨٨٩)، وفي رواية سندها غريب لأبي نعيم في الحلية (٤: ٢٠٦): أنا فقأت عين الفتنة.

موقِعُ الأمثِلَةِ والرُّموزِ والشِّعاراتِ والشّاراتِ
والألوانِ في فِقهِ التَّحوُّلاتِ

الرموز والإشارات سلبية وإيجابية فلا تختص بالمسلم وحده

عنـد النَّظَـرِ العميقِ في فِقـهِ التَّحوُّلاتِ ذاتِهـا نَجِدُها تحمِلُ معنىً إشـارِيّاً ، فكُلُّ اسـمٍ منها أو فيها يُخفـي أكثَرَ من هَدَفٍ وغَرَضٍ مقصـودٍ، فإمّا أن يكون المقصودُ سَـهلَ الفَهـمِ مُمكِـنَ التَّحليلِ وإمَّـا أن يكون صَعـبَ الفَهـمِ مُعقَّدَ التَّحليلِ، وسِـرُّ الإخفـاءِ للمعانـي يرجِعُ إلى مُقتَضَـى أمرِ اللهِ في سَـيرِ قضائِهِ وقَـدَرِه، كما أنَّ في نماذِجِ التَّورِيَةِ لِبَعضِ الأمورِ سلامةً للعِبَادِ المؤمنين مِن بَطشِ بعضِ الطُّغاةِ والبُغاةِ والحُكّامِ والمُفسِدين في الأرضِ.

السحر والتنجيم والطلاسم وقراءة الكف والأبراج علوم سلبية

والرُّموزُ والإشـارَةُ بِـكُلِّ أنواعها ونماذِجِها لا تَخُصُّ الجانِـبَ الإيجابيَّ وحدَهُ، أي: إنَّها ليست خاصَّةً باختِزالِ المعلوماتِ والدِّلالاتِ لِزيادَةِ عِلمِ المُسلمِ وحِفظِ المُؤمِنِ وحدَهُ، وإنَّما هي لُغاتُ التَّفاهُمِ فيما يستَحِقُّ فيه التَّفاهُمُ بين الناس الأخيارِ بما يناسِبُ لُغَةَ العَمَلِ المُمارَسِ ، وكذلك بين النَّاسِ الأشرارِ بما يُناسِبُ لُغَةَ العَمَلِ المُمارَسِ بينهم أيضا.

فالسِّـحرُ والتَّنجيمُ والكَهانَةُ والشَّـعوَذَةُ أعمالٌ ذاتُ ارتباطٍ كبيرٍ بالرَّمزِ والطِّلَّسمِ والعَقَـدِ والنَّفـثِ وغيرها، وكَقِـراءَةِ الأبـراجِ والطَّوالِـعِ والنُّجومِ وما يُعـرَفُ بِعِلمِ الكَفِّ والحَرفِ، ومـا يترتَّبُ على هذه الانفعالاتِ والتَّحضيراتِ مِن ضَرَرٍ وخَطَرٍ وفَسادٍ في الأرضِ وإفسادٍ، كُلُّها عُلومٌ سَلبِيَّةٌ ذاتُ ضَرَرٍ خطيرٍ وشَرٍّ مُستطيرٍ وصَفَهُ الله في كتابِهِ بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ

﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

الرمز بالأفعى والشمس

ومن سَلبيّاتِ الرَّمزِ والإشارَةِ ما نراه في بَعضِ الصُّورِ المُجَسَّمَةِ والتَّماثيلِ المنحوتَةِ والنُّقوشِ القديمَةِ المُعَبِّرَةِ عن معانٍ خاصَّةٍ ورُموزٍ وشاراتٍ ذاتِ مَعنًى، كالرَّمزِ بالأفعى عند البَعضِ والرَّمزِ بالشَّمسِ والرَّمزِ بالزَّهرَةِ واختلاطِ بَعضِ هذه الرُّموزِ في بَعضٍ، بل إنَّ قَضِيَّةَ الرَّمزِ قد بلغت في عالَمِ السِّياسَةِ مبلَغاً خطيراً لا يَعرِفُ مدى خُطورَتِهِ إلا بعضُ المُختَصِّين في قراءَةِ رُموزِ السِّياسَةِ المُتَحوِّلَةِ، ويدخُلُ في هذا الأمرِ ما نراهُ ونشهَدُهُ من رُموزِ العُملاتِ والرَّاياتِ والمُنظَّماتِ والأنظِمَةِ والدُّوَلِ، وكُلُّها تَنُمُّ عن أمرٍ مُعَيَّنٍ وفِكرَةٍ مُحَدَّدَةٍ ذاتِ مغزى في عالَمِ الكُفرِ أو عالمِ السِّحرِ أو عالَمِ عِبادَةِ الشَّيطانِ أو مغزى من مغازي الانتقامِ أو العُنفِ أو التَّطَرُّفِ أو القَتلِ أو غيرِ ذلك.. بل أُدخِلَ الحَيَوانُ في هذه اللُّغَةِ لِيُعَبِّرَ كُلُّ نَوعٍ منها عن مغزىً وهَدَفٍ وغايَةٍ.

رموز العملات وأعلام الدول والمنظمات

وكلُّ هذا يُعيدُنا إلى ما سبقت الإشارَةُ إليه في أوَّلِ كتابنا عن انقسامِ القِراءَةِ في العالَمِ الإنسانيِّ إلى مدرَسَتَينِ:

المدرستان الأنوية والأبوية لكل منهما لغته ورموزه

١ - مدرسةٍ أَنَوِيَّةٍ إبليسِيَّةٍ وَضعِيَّةٍ لها لُغَتُها ورُموزُها وشاراتُها ومعانيها[1].

---

(١) ومن هذه الإشارات والرموز ما نشهده في بعض شعارات الدول والمنظمات الكافرة وفي ألويتهم وعملاتهم وشارات شركاتهم ومؤسساتهم، ومنها شارة الصليب كرمز اتخذ لعقيدة التثليث وصلب المسيح ومجسم مريم العذراء لدى النصارى.

٢- ومدرسةٍ نَبَوِيَّةٍ أَبَوِيَّةٍ شَرعِيَّةٍ ولها لُغَتُها ورُموزُها وشاراتُها ومعانيها.

دراسة هذه الرموز من فروع فقه التحولات

ومِن مُهِمَّاتِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ دراسَةُ هاتَينِ اللُّغَتَينِ بِعُمقٍ وتَدَبُّرٍ لِيتَمَكَّنَ المُختَصُّ في هذا العِلمِ من معرِفَةِ الدِّلالةِ بالعلامةِ والسِّمَةِ والشَّارَةِ، بل وبها يستطيعُ معرِفَةَ رُموزِ التَّحالُفِ السَّلبِيِّ في العالم ورُعاةَ الشَّرِّ مِن رُعاةِ الخَيرِ، وبهذا العِلمِ وحدَهُ يعرِفُ مَوقِعَ الشَّيطانِ والدَّجَّالِ وسماسِرَتَهُ وعساكِرَهُ ورُموزَهُ وأتباعَهُ وجُنودَهُ سواءً كانوا في صُفوفِ الجُيوشِ المُقاتِلَةِ.. أو كانوا فوق منابِرِ الدِّيانَةِ العادِلَةِ، كما ورد مِثالُ ذلك في حديثِ مَن لا ينطِقُ عن الهوى.. وقد رأى في المنامِ ما أحزَنَهُ وأبكاه ﷺ.. فقال: «رأيتُ القِرَدَةَ والخنازير ينزون على منبري كما تنزو القردة»[1]، وفي نزول سورة القدر قام رجل إلى الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال: يا مسود وجه المؤمنين، فقال الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تؤنبني رحمك الله، فإن رسول الله ﷺ قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا، فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ نهر في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تملكها بنو أمية فحسبنا ذلك، فإذا هو لا يزيد ولا ينقص»[2].

رمزية القردة والخنازير على المنبر النبوي

رمزية النصر والفتح

ولما نزلت سورةُ النَّصرِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] اختلف الصَّحابَةُ في تفسيرِها، وسأَلَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وفي مجلِسِه الأشياخُ عن مغزى السُّورَةِ فقال: «هو أَجَلُ رَسولِ اللهِ ﷺ»[3].

---

(١) الحاكم (٥:٣٨٩) وأقره الذهبي، وفي تفسير ابن أبي حاتم (١٣٦٩٦) رواية فيها تتمة لتفسير الرؤيا: «فقيل له: إنما هم بنو فلانٍ، وإنما هي دنيا أُعطوها، فَسُرِّيَ عنه ﷺ».

(٢) الترمذي (٣٣٥٠) وقال: غريب.

(٣) الدر المنثور (١٠: ٣٧٥) ولا زالت كتب التفسير ترمز لأوائل السور المستعجم فهمها على

رمزية الرجل الذي خير بين الدنيا والآخرة في خطبة النبي ﷺ

وخطب النَّبيُّ ﷺ يوماً وقال عن رجلٍ خُيِّرَ بين ما في الدُّنيا وبين ما عند اللهِ فاختار ما عند اللهِ ، فبكى أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى قال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ما بالُ هذا الشَّيخِ يبكي؟ وقد فَهِمَ أبوبكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الإشارَةَ والرَّمزَ في العِبارَةِ أنَّ الرَّجُلَ الذي خُيِّرَ هو رسولُ الله ﷺ فاختارَ الآخِرَةَ على الدُّنيا[1].

فقه التحولات يدرس العلامات والإشارات في نصوص المعصوم ﷺ وما انطوت عليه من المواقف والدلالات

وقام فِقهُ التَّحوُّلاتِ الذي نحن بِصَدَدِ دِراسَتِهِ على العلاماتِ والرُّموزِ والإشاراتِ بدءاً من حديث جبريلَ وما فيه من مادَّةِ الرُّكنِ الرَّابعِ المسكوتِ عنه ونهايَةً بالعلاماتِ الكُبرى والوُسطَى والصُّغرى وما انطوت عليه من العُلوم والفُهومِ والدِّلالاتِ والمواقف، ومنها متابَعةُ الرَّسولِ ﷺ لابن صَيَّادٍ وملاحَقَتُهُ ليعرِفَ حقيقَتَهُ عن طريقِ الرُّموزِ والإشارَةِ، وقد ورد في الصَّحيح «ذهابُهُ ﷺ مع بَعضِ الصَّحابَةِ نحو طائِفَةِ النَّخلِ ، فلمّا كان قريباً منه رأتهُ أُمُّ ابنِ صَيّادٍ فصاحت: هذا مُحَمَّدٌ، فقام ابنُ صيادٍ من مرقَدِهِ وقال ﷺ: لو تركتِهِ لبَيّنَ ، وسألَه رَسولُ اللهِ ﷺ : ماذا ترى؟ قال : أرى عَرشَاً على الماءِ، فقال ﷺ : ذاك عَرشُ إبليسَ، ثُمَّ قال له : خَبَأتُ لك خبيئاً فقال: هو الدُّخُّ ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد خبَأَ له كَلِمَةَ (الدُّخانِ) أو معنى ما في سورَةِ الدُّخانِ، فقال له ﷺ : اِخسَأ فلن تَعدُوَ قَدرَكَ»[2].

رمزية طول اليد

وفي الجانبِ الإيجابيِّ قال رسولُ اللهِ ﷺ لِنِسائِهِ : « أَوَّلُكُنَّ لَحاقاً بي أَطوَلُكُنَّ

العلماء والمفسرين بقولهم: الله أعلم بالمراد به، لما في الرسم والاسم من دلالة مجهولة المعنى والهدف، مع أن بعض المفسرين اجتهدوا في فك الرمز المقصود ولم يقطع أحد بصحة المعنى المستنبط فهمه، بل كان التفسير مجرد محاولة وتقريب لمعنى يعتقد فيه الصواب وعدمه، ويدخل في هذا المعنى الرمزي الألوان والأرقام والرايات والأعلام والملابس والعمامة والسيوف وغيرها من الوسائل.

(١) صحيح البخاري (٤٦٦).

(٢) متفق عليه ، البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٧٥٣٨) بعدة روايات مختلفة .

يـداً»[1] فذهبت النِّسـاءُ يَنظُرنَ فـي الطُّولِ الحِسِّـي للأيدي كما فَهِمنَـهُ من المعنى الظّاهِرِ للعِبارَةِ، وكان الأمرُ غيرَ ذَلِكَ إنَّما طولُ اليَدِ رَمزٌ للإنفاقِ وكَثرَةِ الإحسانِ.

علم الإحسان يزيد الفهم الذوقي والوعي الإشاري

ويرتَبِطُ الرَّمزُ والإشـارَةُ في الإسـلامِ بِسَـلامَةِ الذَّوقِ بل هو فَرعٌ مـن فروعِ عِلمِ الإحسـانِ وثَمَرَةٌ من ثَمَراتِهِ، وبِمِقدارِ تَرَقِّي المسلِمِ في هـذا العِلمِ الخاصِّ يزدادُ فَهمُهُ الذَّوقِيُّ ويرتقي وعيُهُ الإشـارِيُّ، وهذا ما يُمَيِّزُ المُسـلِمِين في عِلمِ الإحسـانِ بالعِلمِ اللَّدُنِّيِّ الخاصِّ، ومنه سلامَةُ الذَّوقِ في الفَهمِ الباطِنِ والظَّاهِرِ، وكُلَّما ارتقى المُطَّلِـعُ على العِلمِ اللَّدُنِّيِّ في ثنايا الرُّموزِ والإشـارَةِ والعلامَـةِ كَتَمَ ما يظهَرُ له من سِـرِّ المعاني حتى يقال له: عارِفٌ بالله، أو (من العارفين باللهِ)، وفي هذا المعنى يأتي ما يُسمَّى بِمَرتَبَةِ العِرفانِ[2].

---

(١) البخاري (١٤٢٠)

(٢) كتـب عن هذا الأمر الدقيـق الخاص الإمام العلامة عبدالرحمن بـن عبدالله بلفقيه العلوي الشـافعي الحضرمي رسالة سـماها: فتح بصائر الإخوان في شرح دوائر الإسلام والإيمان والإحسان والعرفان، وكأني بهذا السيد العلامة الذي أطلق عليه الحبيب عبدالله بن علوي الحداد (علامة الدنيا) قد أدرك المعنى الإشاري في العلم بعلامات الساعة وفقه التحولات ومـا يترتب على هـذا العلم من ضرورة الكتمان وعدم الكشـف والإيضـاح لمنافذ النفس والهوى والدنيا والشـيطان، فحلق بالمريدين فوق مسـتوى العيوب والنقائص إلى الحكمة التـي أجرى الله بها سـر الدفع والجلـب والنفع والضر والخير والشـر وأطلق على ثمرات المزيج الحالي من علم الإسـلام والإيمان والإحسـان (العلم العالي: علم مرتبة العرفان) فهاهو يمهد لهذا العلم اللدني بقوله:

فإن العبد إذا تمكن في الإسلام والإيمان، وأخذ طرفا صالحا من العلوم الشرعية الواردة فـي السـنة والقرآن، فاتسـع علمـه، وانفتح فهمه، وانشـرح صدره، عرف نفسـه، فعرف ربه، وطلب رضاه وقربه. فإنه يشـهد عجزه، وذله، وشـدة افتقاره وجهله. فإنه كغيره من الأكوان، خلق من عدم وراجع إلى عدم، في غاية الإحتياج والإضطرار، ليس له استقلال بقدرة ولا اختيار، ولا وجود ولا بقاء، ولا فضل ولا جود، إلا بواجب الوجود، في جميع

وهـي مرتَبَةُ الكَمالِ النِّسـبِيِّ التي يبلُغُهـا العارفون المُتَدَرِّجـون بالعُلومِ الثَّلاثَةِ : عِلـمِ الذِّكرِ وعِلمِ الفِكرِ وعِلمِ الشُّـكرِ، على أُسُـسِ اليقينِيّاتِ الثَّلاثَـةِ: عِلمِ اليقينِ وعَينِ اليقينِ وحَقِّ اليقينِ، ولأنَّ هذه العُلومَ عُلومُ القَومِ الرَّاسِـخين فَخيرٌ لنا ولمن رَغِبَ المعرفَةَ من معدِنِها ألا يَشـتَطَّ بـه الخيالُ ولا صُروفُ الاحتمالِ، فيرجِعُ إلى مـا نحن بِصَدَدِهِ من قراءَةِ الأركانِ الأربَعَةِ بِلُغَةِ الوُضوحِ البَيِّنِ التي لا غُموضَ فيها ولا إشـكالَ مع شـرطِ الأَدَبِ التَّامِّ في كُلِّ حالٍ، فإنَّ الزَّلَلَ الذي وقع فيه المُثَقَّفون

الشـان . فـإن وجوده ودوامـه ، وكل كماله فيـه ، وفعله وانفعاله ، حتى قعـوده وقيامه ، من فضل الله وإنعامه . فيعرف نعمة الله عليه ، وأن المنة لله – سبحانه – إذ وفقه لشكره وذكره فـى كل طاعة وإحسـان ، فلا يطالب جزاء فيهـا ، ولا ينظر إليها ، بل يخاف من وجودها مع القلة والتقصير في شكرها . وما شكرها إلا الإعتراف وشهود المنة فيها .

إلـى أن قال: فعند ذلك تسطع عليه أنوار الحقيقة ، ويـذوق جنى معاني الوحي والنبوة ، في مقامات القرب والولاية والفتوة ، فيشهد حقائق التنزيل على التفصيل ، ويعرف معارف التفريع والتأصيل ، ويفهم بالله عن الله كل مشـكلة ، ويتضح له بنور الله حل كل معضلة ؛ وذلك ثمرة التقوى ، واليقين، وصحبة أهل الله المتقين .

قـال اللـه تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ أي من كل مشـكل ومعضل ، ﴿وَيَرۡزُقۡهُ﴾ علما وفهما ، ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال أيضا: وقال أيضا ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

وقـال تعالـى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾[الأنفال:٢٩] وباللــه التـوفـــيق ، وذلك ثمرة الطريق ، وزبدة التحقيق، وفي ثنايا الرسـالة عبارات لا يتسـع لها فهم المتأخرين تجاوزنا ذكرها، لعدم الحاجة لها فيما نحن بصدده.

وقـد تنـاول العلامـة المذكور فـي رسـالة خاصة سـماها «عمـدة المحقق فـي العقائد» لا زالـت مخطوطـة ـ وفي الفصلين السـابع والثامن ـ موضوعي الحشـر والنشـر ، وجعل موضوع الحشر فصلا منظوما بكل ما يختص بعلامات الساعة والنفخة الأولى حتى انتهاء الكون، وأما النشر فهو كل ما يخص الأمور الآتية بعد النفخة الثانية ، وما يترتب على ذلك من مسائل الإيمان والبعث والنشور والقبر ونعيمه وما إلى ذلك.

والمُتعلِّمـون وقُرَّاءُ الحُروفِ سَبَّبَ لهم شَطحَاً في الحُكمِ علـى الرِّجالِ أكبَرَ من شَطحِ الرِّجالِ في ذوقِهم النِّسبيِّ من وارِدِ الكمالِ.

علم الإشارة والرمز معركة أبدية بين الأخيار والأشرار

والمعرَكَـةُ الإشـارِيَّةُ الرَّمزِيَّةُ بين أهلِ اللهِ من الأوليـاءِ والأصفياءِ والأتقياءِ على طريـقِ الجَنَّةِ وبين عَبَدَةِ الشَّـيطانِ من السَّـحَرَةِ والمُنَجِّميـن والكذَّابين على طريقِ الباطلِ مُستَمِرَّةٌ أَبَدَ الآباد .

وهي وحدَها فِقهٌ يختَصُّ بما هو معلومٌ له من التَّحوُّلاتِ والعلاماتِ والأماراتِ ومن لم يَفهم المعنى يصعُبُ عليه الحديثُ بهذه اللُّغةِ مَعَنا، وخيرٌ لنا وله ولأمثالِنا وأشـباهِنا أن نخوضَ البَحرَ بالوَسـائِلِ، والغاية تُقَرِّرُ الوسـيلَةَ كما هو في شعاراتِنا النَّبوِيَّةِ الأَبَوِيَّةِ.

عندهم : الغاية تبرر الوسيلة وعندنا: الغاية تقرر الوسيلة

أمـا في شـعاراتِ المدرَسَـةِ الأَنَوِيَّةِ الإبليسِـيَّةِ فالغايَـةُ تُبَرِّرُ الوسـيلَةَ، وفرقٌ بين شعاراتِ المدرَسَتَينِ، ومَن لم يَطَّلِع على شعارِ مدرسَتِهِ ولم يفهَم رَمزَ هُويَّتِهِ فخيرٌ له أن يستَمِعَ الحكمَةَ من أهلِها، ويسيرَ في ركبِ أساطينِها لِيَسلَمَ من الغَرَقِ في طوفانِ الأَنَوِيَّةِ المُهلِكِ الفاتِكِ.

عندهم: العقل السليم في الجسم السليم وعندنا: العقل السليم في القلب السليم

وأنَّى لقارئ ذلك.. وهو بعدُ لم يعرِف حقيقةَ المعنى القائِلِ: العَقلُ السَّليمُ في القلبِ السَّليمِ، فهل هذا الشِّعارُ حقيقةٌ؟ أم أنَّ الحقيقةَ لديك: العقلُ السَّليمُ في الجِسمِ السَّليمُ، إذن فالرَّمزُ والإشارَةُ والعلامةُ مدرسَةٌ عظيمةٌ في الإسلامِ، فتعرَّف على رجالِها تَسلَم، وإياك من مدرسـةِ الأعوَرِ الدَّجَّالِ، مدرسَـةِ الذَّوقِ الممسوخِ والوَعيِ المنسوخِ، فلها في عالَمِ الإشارَةِ والرَّمزِ واللَّونِ والشَّارَةِ مكانٌ، وأَثَرٌ وتأثيرٌ ، ومتى ما تأمَّلَ المُتأَمِّلُ في رُموزِ العُملاتِ النَّقدِيَّةِ، والرَّاياتِ والبُنودِ والألوِيَةِ العَسكَرِيَّةِ والشَّـاراتِ والشِّعاراتِ المنسوبَةِ لِبَعضِ الدُّوَلِ والإمبراطوريَّاتِ لَرَأَى العَجَبَ العُجابَ.

بـل إنَّ أتبـاعَ الدِّيانَتَينِ اليهودِيَّةِ والمسـيحِيَّةِ جعلوا لهما شـعاراتٍ وشـاراتٍ لم يُنزِلِ الله بها من سُلطانٍ، كالصَّليبِ عند النَّصارى، ونَجمَةِ داوُدَ عند اليهودِ، وكُلُّها شِعاراتٌ وضعِيَّةٌ ذاتُ هَدَفٍ سِياسيٍّ ودينِيٍّ مُعَيَّنٍ.

صليب النصارى ونجمة اليهود شعاران دينيان وسياسيان

أمَّا شـعاراتُ الإسـلامِ وخاصَّةً على عَهدِ الرِّسـالَةِ على صاحبِهـا أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام فكانت قليلةً ومحدودةً، وتتلَخَّصُ فيما يلي:

١- شِعاراتٌ وألفاظٌ تُرَدَّدُ في الحَربِ.

٢- راياتٌ وألوِيَةٌ ترمُزُ إلى المهاجرين والأنصارِ.

وكم سَـنَجِدُ من رُموزِ الشِّـعاراتِ الأَنَوِيَّةِ والشِّـعاراتِ النَّبوِيَّةِ الأَبَوِيَّةِ من ملامحَ وأهدافٍ وغاياتٍ، وخُذ على هذا أمثِلَةً مُصَوَّرَةً.

خاتم عرش بريطانيا
للاستزادة انظر مراجع المادة في موسوعة wikipedia.org تحت مسمى
Royal coat of arms of the United Kingdom



الشعار المسمى (خاتم أمريكا الأعظم)، وهو موجود خلف الورقة فئة الدولار الواحد
للاستزادة انظر مراجع المادة في موسوعة wikipedia.org تحت مسمى
Great Seal of the United States





شعار الخلافة العثمانية

انظر شرح تفاصيله ص ١٧٨



الأسس والمنطلقات

في

تحليل وتفصيل غوامض فقه التحولات
وما يرتبط به من سنن المواقف والدلالات
المستنبطة من علامات وأشراط الساعة وأحاديثها البينات

الجزء الثاني

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

عفا الله عنه

التَّفصيلُ الجامِعُ لأركانِ العِلمِ بعلاماتِ السّاعةِ

أركان علامات الساعة

عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أنَّ أركانَ العِلمِ بِعلاماتِ السّاعةِ ثلاثَةٌ:

الأوَّلُ: العِلمُ الواجِبُ بالعلاماتِ الكُبرَى.

الثَّاني: العِلمُ اللّازِمُ بالعلاماتِ الوُسطَى.

الثَّالِثُ: العِلمُ المُطلَقُ بالعلاماتِ الصُّغرَى.

ونَضَعُ التَّفصيلَ الكامِلَ للعلاماتِ الكُبرَى آخِرَ البَحثِ باعتبارِ موقِعها في آخِرِ الزَّمانِ.

أما العلاماتُ الوُسطَى والصُّغرَى فسنَذكُرُها حَسَبَ التَّرتيبِ الاستِقرائِيِّ الذي فَهِمناهُ من واقِعِ فِقهِ التَّحوُّلاتِ مُستَفيدِين من بعضِ ما سَبَقَت خِدمَتُه على أيدي العُلَماءِ والباحِثِين الذين تناوَلوا موضوعَ العلاماتِ والأشراطِ؛ إلا أنَّنا فَرَّقنا بين العلاماتِ الوُسطَى والصُّغرَى بقاعِدَةٍ مُختَلِفَةٍ عمَّا سَبَقَ التَّناوُلُ له عند أهلِ هذا العِلمِ.

الرُّكْنُ الأوَّلُ العِلمُ اللّازِمُ بالعلاماتِ الوُسطىٰ

الاستقراء الزمني هو الذي حدد توسط العلامات

وقد اعتَمَدنا في تحديدِها على استقراءِ المعنى المقصودِ بالوُسطى أي التَّوسُّط الزَّمَني لمُجرَياتها بين الصُّغرى ابتداءً والكُبرى اختِتاماً، وارتباطِ هذه العلاماتِ بالقرارَينِ قرارِ الحُكمِ وقرارِ العِلمِ وما يترتَّبُ عليها من ثوابتَ ونواقِضَ، كما أضفنا الى العلاماتِ الوُسطى علاماتٍ وضعها البعضُ في الصُّغرى فوضعناها في الوُسطى لمُناسَبَةِ موقِعِها المتلائِمِ من مُجرياتِ الأحداثِ والزَّمَنِ الُمشارِ إليه بالقرارَينِ: قرارِ الحُكمِ وقَرارِ العِلمِ، بل واستَقرَأنا من الأحاديثِ النَّبوِيَّةِ علاماتٍ إضافيَّةٍ وضعناها في العلاماتِ الوُسطى لأهمِّيَّةِ علاقَتِها بالتَّحوُّلِ السِّياسِيِّ والاجتماعيِّ ما بين بَعثَةِ النَّبيِّ ﷺ وبِدايَةِ العلاماتِ الكُبرى بالإمامِ المُنتَظَرِ.

وسنبدأُ بالعلاماتِ الوُسطى مجموعةً كما استقرأناها من مصادِرِها . وكُلُّها تندَرِجُ تحت قِسمِ العلاماتِ المُرتَبِطَةِ بِمرحلَةٍ واحِدَةٍ ولا تتكرَّرُ ما عدا علامَتَي فِتنَةِ الخوارِجِ ، والفِتَنِ الفِكرِيَّةِ المُتلاحِقَة .

بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ

بعثة النبي محمد ﷺ علامة وسطى

أُولَى عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَى بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وفيها يقولُ ﷺ : « بُعِثتُ أنا والسّاعةُ كهاتَين»[1] .. قال القُرطُبيُّ : (أوَّلُها بَعثَةُ النَّبيِّ ﷺ لأنَّه نَبيُّ آخِرِ الزَّمانِ ، وقد بُعِثَ وليس بينه وبين القيامة نَبِيٌّ يُوحَى إليه بِشَرعٍ)[2]، وقال ابنُ حَجَرٍ في

(١) البخاري (٦٥٠٤) .

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمورالآخرة ص ٦٢٦ ، ونقل بتصرف بإضافة (نبي يوحى إليه بشرع) لتمام الإفادة.

«الفَتحِ» عن النُّعمانَ أنَّه قال: (أوَّلُ أشراطِها بَعثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ)[1]، وقال البَغوِيُّ في «تفسيره»: (وكان النَّبيُّ ﷺ من أشراطِ السّاعةِ)[2]. وفي «السننِ الوارِدَةِ في الفِتَنِ» لأبي عمرٍو الدانيِّ: عن أبي عِمرانَ الجُونيِّ قال: قال رسول الله ﷺ «حين بُعِثَ إليَّ بُعِثَ إلى صاحب الصُّورِ فأهوى به إلى فِيهِ وقَدَّمَ رِجلاً وأَخَّرَ رِجلاً ينتَظِرُ متى يُؤمَرُ فينفُخُ، ألا فاتَّقوا النَّفخَةَ»[3]. وفيما بين البَعثِ ومَوتِهِ ﷺ تأسَّسَ أمرُ الدَّعوَةِ إلى اللهِ فيما بين مَكَّةَ والمدينَةِ.

ولأنَّ ما بين هاتَينِ العلامَتَينِ تأسَّسَ الدِّينُ كُلُّهُ فَهِيَ مرحلَةٌ هامَّةٌ من كُلِّ الوُجوهِ، بل هي قاعَدِةُ التَّأصيلِ للعُلومِ الشَّرعِيَّةِ كُلِّها ولأركانِ الدِّينِ الأربَعَةِ مُجتَمِعَةً أو مُتَفَرِّقَةً حيثُ كان النَّبيُّ ﷺ يسوسُ أمرَ الأُمَّة (بالوَحيِ والعِصمَةِ) ويضَعُ ثوابِتَها ويرسُمُ مَنهَجَ الخَيرِيَّةِ بِشُروطِهِ، ويحذِّرُ ويبيِّنُ مواقِعَ الشَّرِّ سواءً في مرحَلَتِهِ المُبارَكَةِ أو فيما يتلوها من المراحِلِ إلى يومِ الدِّينِ، وكان من مظاهِرِ هذه المرحلَةِ تحصينُ الصَّحابَةِ العُدولِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم بالنُّصوصِ والمواقِفِ.

أهمية التحصين الشرعي للصحابة وما يترتب عليه

ومعنى (النُّصوصِ) أي: بتحصينِ النَّبيِّ ﷺ لمن صَحِبَه مِن أتباعِهِ وتعديلِه إيّاه كبَشارَتِه بالجَنَّةِ للخُلَفاءِ الرَّاشِدين وغيرِهم، وقولِه في أهلِ بَدرٍ: «إنَّ الله اطَّلَعَ على أهلِ بَدرٍ فقال:(اعمَلوا ما شِئتُم فقد غفرتُ لكم)[4]»، ودَفعِ تُهمَةِ النِّفاقِ والخِيانَةِ بذلك عن حاطِبِ بن أبي بَلتَعَةَ في قِصَّتِهِ المشهورَةِ عامَ الفَتحِ، وقولِهِ

---

(١) فتح الباري (١١: ٣٥٠).

(٢) تفسير البغوي (٤: ٨).

(٣) السنن لأبي عمرو الداني بتحقيق المباركفوري (٢: ٧٦٤)، وقال المحقق: مرسل في إسناده لين.

(٤) صحيح البخاري (٣٠٠٧).

فـي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «لـو كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر»[1] ، وقوله في عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «والَّذِي نَفْسِـي بيدِه ما لَقِيَكَ الشَّـيطانُ قَطُّ سـالكاً فَجًّا إلاّ سَـلَكَ فَجًّا غيرَ فَجِّكَ»[2] ، وقوله في عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «تستحي منه الملائِكَةُ»[3] و«بَشِّـرهُ بالجَنَّةِ على بلوى تُصيبُهُ»[4]، وقولِهِ في عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أنت مِنِّي بِمَنزِلَةِ هارون من موسى»[5] وقولـه فـي جَعفرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أشـبَهتَ خَلقِي وخُلُقي»[6] ، وقولِـه في أبي عُبَيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «لِـكُلِّ أُمَّـةٍ أميـنٌ ، وأمينُ هذه الأُمَّةِ أبوعبيـدةَ بنُ الجـرَّاحِ»[7]، وقولِهِ في عُمومِ الصّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «لا تَسُـبُّوا أَصحابي ، فلو أنَّ أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَه»[8].

وأمّا تحصينُهُ بالمواقِفِ فعَدَمُ قَدحِهِ في بَعضِ أصحابِهِ رَغمَ اتِّخاذِهِم رأياً خاصّاً فـي بعـضِ الأحوالِ كمَوقِفِ عُمَـرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عَـدَمِ الصَّلاةِ على ابنِ أُبَيٍّ ، ثُمَّ وافقَهُ القُرآنُ بذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٩٤).

(٣) صحيح مسلم (٦٣٦٢).

(٤) صحيح البخاري (٣٦٧٤).

(٥) صحيح مسلم (٦٣٧٠).

(٦) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٧) صحيح البخاري (٤٣٨٢).

(٨) البخـاري (٣٦٧٣) ، وذلـك لأن فِقه التَّحـوُّلات يُعدّل المرحلة وما اجتهـده فيها الصحابة العـدول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، بمـا أثـر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مـن النص في سـلامة المرحلـة ورجالها، وهذا لا يتعـارض مع فقه المناقـب والخصوصيات، فالمناقب تبرز حقائـق مراتب الرجال، ولا يصـدر بهـا حكم مخالف علـى مجتهد معدل بنص مشـابه، ويلتزم فيها بمـا التزمه الخلفاء العدول.

القدح في معنى الصحبة إما أن يحصل بقول لفظي أو موقف ذاتي

إنّ القَدحَ في بعضِ الأتباعِ والصَّحابَةِ الحامِلين اسمَ الصُّحبَةِ دون معناها العَمَلِيِّ وانقطاعَ الحصانَةِ عنهم نِسبِيّاً يَتَحَقَّقُ بواحِدٍ من سَبَبَين:

- القَدحُ اللَّفظِي.
- الموقِفُ الذّاتيِّ.

ومَثَلُ القَدحِ اللَّفظِيِّ تَكْنِيَتُهُ ﷺ لعامِرِ الرَّاهِبِ "بأبي عامرٍ الفاسِقِ". ومَثَلُ الموقِفِ الذّاتيِّ نَفيُهُ ﷺ إلى الطائفِ ذلك الشّابَّ الذي وصف بِنتَ غيلانَ لِنسائِهِ فأمَرَهُنَّ بالاحتِجابِ منه.

مَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ

موت النبي ﷺ علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ موتُ النَّبِيِّ ﷺ لقولِهِ ﷺ: «اُعدُد سِتّاً بين يَدَي السّاعَةِ: موتي... الحديث»[1]. قال في «الإشاعة»: وهو من أعظَمِ المصائِبِ في الدِّين، بل أعظَمُها، ومن ثَمَّ قال ﷺ: «إذا أُصيبَ أَحَدُكم بِمُصيبةٍ فليذكُر مُصيبَتَه بي فإنَّها من أعظَمِ المصائِبِ» رواه ابنُ سَعدٍ عن عطاءِ بن رباحٍ[2]، وعن عائِشَةَ رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أَيُّمَا أحدٌ من الناسِ أو من المؤمنينَ أُصِيبَ بمصيبةٍ فَلْيَتَعَزَّ بمصيبتِهِ بي عن المصيبةِ التي تُصِيبُهُ بغيري فإنّ أحداً من أمَّتي لن يُصابَ بمصيبةٍ بعدي أَشَدَّ عليهِ مِن مصيبتي»[3].

المواقف المطلوبة بعد موت النبي ﷺ

وقد أشار ﷺ إلى أنَّ ما بعد موتِهِ مصدَرٌ من مصادِرِ التَّحوُّلِ الذي يَجِبُ فيه الالتزامُ بِضَوابِطِ السُّلوكِ المُوجِّهِ منه وخاصَّةً لأصحابِهِ وآلِ بَيتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم، ومن

---

(١) البخاري (٣١٧٦).

(٢) الدارمي في الجامع (١: ٥٣)، إسناده صحيح، صحيح الجامع للألباني (٣٤٧).

(٣) رواه ابن ماجه، إسناده صحيح، صحيح ابن ماجه للألباني (١٣١٠).

ذلـك قولُهُ ﷺ: «سـتكونُ أَثَرَةٌ وأمورٌ تُنْكِرُونَها» قالوا: يا رسـولَ اللـهِ فما تأمُرُنا؟ قال: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[1] .

وهذا الحديثُ يضبطُ سُـلوكَ الأفرادِ في مسـأَلَةِ السُّـلطَةِ والقَرارِ والمَوقِفِ منها بعـد موتِـهِ ﷺ، وفي الحديثِ الآخَـرِ: «إنَّكم سَـتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَـرَةً فاصبِروا حتى تلقَونَني»[2].

وهـذه الأحاديـثُ وأمثالُهـا جعلت الجَميعَ يقبَلُ سَيرَ التَّحـوُّلاتِ ويرضى بها ويشـارِكُ الأُمَّـةَ في سـلامَتِها، خلافاً لمن جاء من المسـلمين عُلمـاءَ ودَهماءَ فيما بعدُ وخاصَّةً ما ابتُلِيَ به المسـلمون في نهايَةِ مرحلةِ الخلافَةِ الرّاشِـدَةِ وبَدءِ مرحلَةِ المُلكِ العَضوضِ وما شاع وذاع من الفِتنَةِ بينهم.

وأخـرج مسـلمٌ من حديـث أُمِّ سَـلَمَةَ مرفوعاً : «سـيكونُ بعدي أُمـراءُ فتعرفون وتنكـرون، فمـن كَرِهَ بَـرِئ، ومن أنكر سَـلِمَ، ولكن مَـن رَضِيَ وتابَـعَ» قالوا: أفلا نقاتِلُهم؟ قال: «لا.. ما صَلَّوا» ، وفي روايةٍ: «وإذا رأيتم من وُلاتِكم شـيئاً تكرهونه فاكرهوا عَمَلَهُ ولا تنزِعوا يداً من طاعَةٍ»[3].

وهـذه الأحاديثُ كما أشـرنا ومثلُها ضوابطُ المواقِفِ أمامَ التَّحوُّلاتِ السِّياسِـيَّةِ بعد موتِهِ ﷺ، وأشـدُّ ما في المعارَضَةِ السِّياسِـيَّةِ قولُهُ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ السُّـلْطَانِ شِـبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[4] ، وقولُهُ في حديثٍ آخَـرَ: «مَـنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي

---

(١) البخاري (٣٦٠٣) ، وانظر تحقيق المباركفوري لفتن الداني (١٣١).

(٢) البخاري (٦١٦٣) ، وانظر تحقيق المباركفوري لفتن الداني (١٠).

(٣) مسلم (٤٩١٠) .

(٤) البخاري (٦٥٣٠).

عُنُقِـهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّـةً»[1] قال الكِرمانِيُّ: أي: ما فارق الجماعةَ أَحَدٌ إلا وقع له كذا وكذا.

ومنه حديثُ «مَن فارَقَ الجماعة شِبراً فقد خَلَعَ رِبقَةَ الإسـلامِ من عُنُقِهِ»[2] وقيَّدَ الرَّسولُ ﷺ الطَّاعَةَ والصَّبرَ في أحاديثَ أخرى بطاعَةِ اللهِ وعدم المُخالَفَةالصَّريحَةِ للدِّين، كحديثِ «سَـيَلِي أُمورَكُم من بعدي رِجـالٌ يُعرِّفونَكُم ما تُنكِرون ويُنكِرون عليكم ما تعرِفون، فلا طاعةَ لمن عصى اللهَ»، وفي روايةٍ: «فليس لأولئك عليكم طاعةٌ»[3].

الخِلافة الرَّاشِدَة

الخلافة الراشدة علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ الخِلافة الرَّاشِدَةُ، وتبدأ الخلافةُ الرَّاشِدَةُ بخلافَةِ أبـي بكـر الصِّدِّيـقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كأوَّلِ لَبِنةٍ مـن لَبِناتِ البنـاءِ لمرحلةِ الخلافةِ الراشـدةِ المدعومـةِ بالنَّـصِّ الشَّـرعِيِّ، ومواقـفِ الصَّحابـةِ والآلِ الكـرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، المُثبتَةِ لانتقـال الأمانةِ من مرحلةِ الرِّسـالةِ الـى مرحلةِ الخلافةِ بشُـروطِها المُعتبَرة، وهي «سـلامةُ الخُلفاءِ» بالاجتهادِ المشروعِ، وبالصَّحبةِ المحصَّنَةِ بالنَّصِّ النَّبوِيِّ خلال مرحلـةِ الرسـالةِ، وبسـلامةِ المرحلـةِ ـ أي: مرحلـةِ الخلافـةِ ـ ذاتِها بالنَّـصِّ أيضاً ومواقـفِ الصَّحابَـةِ وإجماعِهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وفيها يقولُ ﷺ: «خِلافـةُ النُّبُوَّةِ ثلاثون سنةً ثُمَّ يؤتي اللهُ المُلكَ ـ أو: ملكه ـ مَن يشاءُ»[4].

---

(١) صحيح مسلم (٣٤٤١).

(٢) أبو داود (٤٧٥٨)، إسناده ضعيف، «موسوعة الفتن» (١٩٠٢).

(٣) ابن ماجه ~~(٢:٩٥٦)~~، إسـناده جيد وعلى شـرط مسـلم، السلسـلة الصحيحة للألباني (٢: ١٣٩).

(٤) سنن أبي داود (٤٦٤٦)، إسناده ضعيف، «موسوعة الفتن» (٥٧١).

وفي ذلك ورد ما أخرجه الترمذيُّ من قول سفينةَ مولى الرَّسولِ ﷺ يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: « الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ »[1]، وفي رواية أخرى: « الخِلافَةُ ثَلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَ ذلكَ مُلْكًا »[2]، وفي روايةٍ عن حُذيفَةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّل دِينكُمْ نُبُوَّة وَرَحْمَة، ثُمَّ يكونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً، ثُمَّ مُلْكٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يكونُ مُلْكاً وَجَبْرِيَّةً »[3] وورد: لمَّا بنى رسولُ اللهِ ﷺ مسجدَ المدينةِ جاء أبو بكر بِحَجَرٍ فوَضَعَه ثُمَّ جاء عُمَرُ بِحَجَرٍ فوَضَعَه ثُمَّ جاء عُثمانُ بِحَجَرٍ فوَضَعَه فقالَ رسولُ الله ﷺ: « هؤلاء يَلُون الخِلافَةَ بعدي »[4].

نصوص عدالة مرحلة الخلافة الراشدة ورد شبه القدح في سلامتها

~~قال~~ ابنُ كثيرٍ رحمه ~~الله تعالى~~: كانت خلافةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَنَتَينِ وأربعَةَ أشهُرٍ إلا عَشرَ لَيالٍ. وكانت خِلافةُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَشرَ سِنينَ وسِتَّةَ أشهُرٍ وأربعَةَ أيّام. وخلافَةُ عُثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اثنتا عَشرَةَ سَنَةً إلا اثنَي عَشَرَ يوماً. وكانت خِلافةُ عليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خمسَ سِنينَ إلا شَهرَينِ. ثم قال: وتكمِيلُ الثّلاثينَ بِخِلافَةِ الحَسَن بن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نحواً من سِتَّةِ أشهُرٍ حتى نزل عنها لِمُعاوِيَةَ عامَ أربعينَ من الهِجرَةِ.

فَتحُ بَيتِ المقدِسِ

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ فَتحُ بَيتِ المقدِسِ، لقولِهِ ﷺ: «اُعدُد سِتّاً بين

فتح بين المقدس علامة وسطى

(١) سنن الترمذي (٢٥١٢)، وفيه: ثم قال لي سفينةُ: أمسِك.. خلافةُ أبي بكر.. ثُمَّ قال: وخلافة عُمَرَ وخلافةُ عثمانَ.. ثُمَّ أمسِك.. خلافةُ عليٍّ.. فوجدناها ثلاثين سنةً. وللحديث تتمةٌ.

(٢) ~~السلسلة الصحيحة (٤٥٩).~~

(٣) شرح ثلاثيات المسند (٢: ٥٤٤) للسفاريني، وإسناده حسن.

(٤) مجمع الزوائد (٥: ١٧٦)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح إلا التابعي فإنه لم يسم.

يَدَي السّاعةِ .. الحديثَ»[1]، وذكر فيه «فَتحَ بَيتِ المَقدِسِ»، وقد فُتِحَ بَيتُ المقدِسِ على عَهدِ الخليفةِ عُمَرَ بن الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة سِتٍّ من الهِجرَةِ، وذهب عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إليها بنفسِه وصالحَ أهلَها وفتحها وطهَّرها من اليهودِ والنَّصارى وبنى بها مسجداً في قِبلَةِ بيتِ المقدِسِ.

طاعونُ عِمواسَ

طاعون عمواس علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ طاعونُ عِمواسَ، وقد أدرَجَه البرزِنجِيُّ وغيرُه في العلاماتِ الوُسطى، وقد وقع في سنةِ ثمانِيَةَ عَشَرَ للهِجرَةِ في خلافةِ عُمَرَ بن الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومات فيه من المسلمين خمسَةٌ وعشرون ألفاً منهم عَدَدٌ من الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ومنهم أبو عُبَيدَةَ بن الجَرَّاحِ أمينُ هذه الأُمَّةِ[2].

مقتَلُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

مقتل الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ مقتَلُ الخليفةِ الثَّاني عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (غَلَقِ الفِتنَةِ) وإليها يُشيرُ حديثُ البُخارِيِّ: (أنَّ عُمَرَ سأل حُذيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الفِتنَةِ التي تموجُ كمَوجِ البَحرِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين لا بأسَ عليك منها إنَّ بينك وبينها باباً مُغلَقاً .. قال: أَيُفتَحُ البابُ أم يُكسَرُ قال: بل يُكسَرُ، قال: ذاك أحرى أن لا يُغلَقَ .. وفيه أنَّ البابَ هو عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)[3]، وحديثُ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (لا تُصيبُكم فِتنَةٌ ما دام هذا فيكم، وأشار إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]).

---

(١) البخاري (٣١٧٦)، وذكر هذه العلامة د. يوسف الوابل في فقه أشراط الساعة ص٨٥.

(٢) ذكر هذه العلامة د. يوسف الوابل في فقه أشراط الساعة ص٦٨.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٩٦).

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (١٩٤٥)، إسناده صحيح، «در السحابة» للشوكاني (١٠٣).

وحديثُ « ما بينكم وبين أن يُرسَلَ عليكم الشَّرُّ فراسِخَ إلا مَوتُ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ » عن حذيفة [1].

مَقتَلُ عُثمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

مقتل الخليفة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علامة وسطى وهو اختراق لموقع القرار وبه تكوَّن أول قرن من الخوارج

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ مَقتَلُ الخليفةِ الثَّالِثِ عُثمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : وفيها يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ : «أوَّلُ الفِتَنِ قَتلُ عُثمانَ ، وآخِرُها خُروجُ الدَّجَّالِ..والذي نفسي بِيَدِهِ ما مِن أَحَدٍ في قَلبِهِ مِثقالُ حَبَّةٍ من مقتَلِ عُثمانَ إلا حُشِرَ مع الدَّجَّالِ إن أدرَكَه ، وإن لم يُدرِكهُ آمَنَ به في قبرِهِ» [2].

وفي مقتَلِهِ علاقَةٌ وطيدَةٌ بِمَبدأ سِياسةِ التَّمهيدِ للدَّجَّالِ في الأُمَّةِ، بِنجاحِ المُنافِقِين في اختِراقِ موقِعِ القَرارِ والتأثيرِ عليه، وتكوُّنِ أوَّلِ قَرنٍ من قُرونِ الخوارِجِ .

موقِعَةُ الجَمَلِ

موقعة الجمل وصون أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ موقِعَةُ الجَمَلِ وفيها جُملَةٌ من الفِتَنِ المنصوصِ عليها في علاماتِ السّاعةِ،كخُروجِ عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ومقتَلِ الزُّبَيرِ وطَلحَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فعن مُطَرِّفٍ قال: قُلنا للزُّبَيرِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا أبا عبدَ اللهِ ما جاء بِكُم؟ ضيَّعتُم الخليفَةَ حتى قَتَلَ ثُمَّ جِئتُم تطلُبون بِدَمِهِ؟ قالَ الزُّبَيرُ: «إنا قَرأناها على عَهدِ رَسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وأبي بَكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٤٤٥) ~~بإسناد صحيح~~.
(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ٢٠٠) من طريق ابن عساكر.

[الأنفال: ٢٥] لم نكن نحسِبُ أنّا أهلُها حتى وقعت مِنّا حيثُ وقعت..» [١].

ومنهـا حديثُ النّبـيِّ ﷺ مع الزُّبيرِ وقولُه له عن علـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَتُقاتِلَنّه وأنت له ظالِمٌ» [٢] وكانت هذه المقولَةُ سَبَباً في اعتزالِ الزُّبَيـرِ لجيشِ الجَمَلِ، ثُمَّ لَقِيَهُ أحَدُ أصحـابِ الإمـامِ علـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقتَلَه ـ باعتبارِهِ مـن الجيشِ المُعادي ـ وجاء يُبَشِّـرُ الإمامَ بِقَتلِهِ للزُّبير، فغَضِبَ الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقالَ: قال رسـولُ اللهِ ﷺ: «بَشِّـر قاتِلَ ابنِ صَفِيَّةَ بالنَّارِ» [٣]، وأقام عليه الحَدَّ وقتَلَه الإمامُ عَلِيٌّ بالزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا [٤].

خروج عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وموقف الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأهميته في فقه التحولات

وفـي خُروجِ عائِشَـةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا على الإمـامِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نُصـوصٌ مِثلُ قولِهِ ﷺ لِنسائِهِ: «ويحَكُنَّ أيُّكُنَّ تَنبَحُها كِلابُ الحَوأَبِ» [٥].

وعـن زيـدِ بـنِ وَهـبٍ قـال: بينما نحنُ حـولَ حُذيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ قـالَ: «كيف أنتم وقد خرج أهلُ بَيتِ نَبِيِّكم فِرقَتَينِ يَضرِبُ بعضُهم وُجوهَ بعضٍ بالسَّـيفِ؟!» فقُلنا: يـا أبا عبد الله وإنّ ذلـك لَكائِنٌ؟ فقال بَعضُ أصحابِهِ: يا أبا عبـدَ اللهِ فكيفَ نَصنَعُ إن أدرَكنا ذلك الزَّمانَ؟ قال: «انظُرُوا الفِرقَةَ التي تدعو إلى أمر عَلِيٍّ فالزَموها فإنَّها على الهُدى» [٦].

وعن أبي رافعٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَسـولَ اللهِ ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّه

---

(١) مجمـع الزوائـد (٧: ٢٧)، وقـال الهيثمـي: رواه أحمـد بإسـنادين رجـال أحدهمـا رجال الصحيح.

(٢) ~~ذكره البيهقي في دلائل النبوة~~ (٦: ٤١٤) من طريقين أحدهما مرسل واللآخر موصول.

(٣) مسند أحمد (٦٩٢)

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢: ٦١٠) ~~والحاكم وصححه~~.

(٥) مجمـع الزوائـد (٧: ٢٣٧)، وقـال الهيثمـي: رواه أحمد وأبويعلى والبـزار ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٦) مجمع الزوائد (٧: ٢٣٩)، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات.

سيكونُ بينَكَ وبينَ عائِشَةَ أمرٌ» قال: أنا يا رسولَ اللهِ؟!! قال: نعم، قال: أنا أشقاهم يـا رسـولَ اللهِ؟ قال: «لا ، ولكـن إذا كان ذلك فارْدُدها إلـى مأمَنِها»[1] ، وعن ابنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ : قالَ رَسـولُ اللهِ ﷺ لِنِسـائِهِ : «ليت شِـعري أَيَّتُكُنَّ صاحِبَةُ الجَمَـلِ الأدبَـبِ ، تخرُجُ فتنبَحُهـا كِلابُ الحَوأَبِ ، يُقتَلُ عن يمينِها وعن يسـارِها قَتلى كثيرٌ ، ثُمَّ تنجو بعد ما كادت»[2].

خروج عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لا يقدح في عدالتها

ولا يقـدَحُ هـذا الأمرُ فـي أُمِّ المؤمنيـن عائِشَـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ولا يجـرَحُ عدالَتَها كَأُمٍّ للمُؤمِنِيـن وزَوجَـةٍ لِرَسـولِ اللـهِ ﷺ لِحَصانَتِها بالنُّصـوصِ، وأنها زوجَةُ رسـولِ اللـهِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ولما ترتَّبَ على اعتذارِهـا فيما بعدَ الجَمَلِ من الإمام عَليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[3].

موقِعَةُ صِفِّينَ

موقعة صفين علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ موقِعَةُ صِفِّينَ ، وفيها يقولُ ﷺ: «شَـرٌّ قتيلٍ بين

---

(١) مجمع الزوائد (٧: ٢٣٧) ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٩٤٠). .

(٣) وهذا ما يميز فقه التحولات عن غيره، فالظالمون لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ساقوا في كتبهم ما ينتقد من سلوك طبعي جرى من أم المؤمنين، وجعلوا من حصيلة هذا فقها يؤيد ما حملته نفوسهم الطبعية نحوها، وهم لا يعلمون الفرق بين أم المؤمنين وبين غيرها من النسـاء اللاتي ليس لهـن مناقـب أو حصانـة من النبي ﷺ، أمـا الذي كان يعلم ذلـك كالإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد كانت معاملته لها وفق النصوص ووفق الأدب مع من سـماها عمار بن ياسـر (زوجة النبي فـي الدنيـا والآخـرة) كما فـي البخـاري (٣٤٨٨) ؛ لأن الإمام عليا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مـن رجال فقه التحـولات بـل حتـى حديثـه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن «الخـوارج» يدل على سـلامة قلبه عـن الضغينة والحقد والتشفي، وهذه هي مواقف الرجولة لدى رجال النمط الأوسط رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

صَفِّينِ، أحدُهما يطلُبُ المُلكَ»[1]، وفيها قَتلُ عَمَّارٍ الذي قال فيه ﷺ: «عَمَّارٌ تقتُلُه الفِئَـةُ الباغِيَةُ»[2]، وفيها خُدعَةُ التَّحكيمِ، وفي هذا الشَّـأنِ ذَكَـرَ نُعيمُ بنُ حَمَّادٍ عن أبي سالمٍ الجَيشانِيِّ قالَ: سَمِعتُ عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ عَنهُ بالكوفَةِ يقول: «إنِّي أُقاتِلُ على حَقٍّ لا يقـومُ ولـن يقومَ، والأمرُ لهم». قـال: فقُلتُ لأصحابي: ما المقـامُ هاهنا، وقد أخبَرَنا أنَّ الأمرَ ليس لهم فاستأذَنَّاهُ إلى مِصرَ، فأَذِنَ لمن شاءَ مِنَّا وأعطى كُلَّ رَجُلٍ مِنّا ألفَ درهم، وأقام معه طائِفَةٌ منا[3].

وكان من نتائجها انقِسامُ المسلمين إلى:

١- أتباعِ النَّمَطِ الأوسَطِ، وهم الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وآلُ بَيتِه.

٢- شِيعَةِ التَّحكيم، وهم الذين ألزَمُوا الإمامَ عَلِيّا رَضِيَ اللهُ عَنهُ بِقَبولِ التَّحكيمِ.

٣- الخوارِجِ، وهم الذين خَرَجوا على الإمامِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لمّا رَضِيَ التَّحكيمَ.

واتَّسـعَت دائِـرَةُ هـذه الفِتَـنِ وكانت سَـبَباً فـي الحـوادِث اللّاحِقَـةِ وفِتنَـةِ الفِئَةِ المارِقَةِ.

ظُهورُ الخوارِجِ ووَقعَةُ النَّهروانِ

ظهور الخوارج ومقتلة النهروان علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ ظُهورُ الخوارِجِ ووَقعَةُ النَّهروانِ واستمرارُ فِتنَتِهم إلى عَصرِ الدَّجّالِ، وهم أوَّلُ مَن كفَّرَ المُسلِمين بالذُّنوبِ ويُكفِّرون مَن خالَفَهم في بِدعَتِهم ويستَحِلُّون دَمَهُ ومالَهُ، قال البُخارِيُّ في صحيحه: وكانَ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما يراهم شَرَّ خَلقِ اللهِ، وقالَ: إنَّهم انطَلَقوا الى آياتٍ نزلت في الكُفَّارِ فجعَلوها على

(١) صحيح البخاري (٤٤٧).

(٢) حديث متواتر الإسناد، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١: ٤٢١).

(٣) الفتن (٣٠٠)، وقال المحقق: إسناده ليس به بأس.

المؤمنين[1].

وفِتنَتُهم من الفِتَنِ التي تجاوزت الأزمِنَةَ وامتدَّت جيلاً بعد جيلٍ وصارت مدرسةً مُنحَرِفَةً في الإسلامِ عَبرَ التّاريخِ الإسلاميِّ كُلِّهِ إلى اليومِ وما بعده ويُعرَفون بالعلاماتِ، وبِدعَتُهم كانت أوَّلَ بِدعَةٍ حَدَثَت في الإسلامِ، وأوَّلُ قَرنٍ ظَهَرَ فيهم على عَهدِ رَسولِ اللهِ ﷺ كان ذا الخُوَيصِرَةِ التَّميمِيَّ[2] الذي طعَنَ في قِسمَةِ غنائِمِ هَوازِنَ، وقال لِرَسولِ اللهِ ﷺ: اتَّقِ اللهَ واعدِل فإنَّك لم تَعدِل، فقال النَّبيُّ ﷺ: «وَيلَكَ أو وَيحَكَ، ومَن يَعدِلُ إذا لم أَكُن أعدِلُ، قد خِبتُ وخَسِرتُ إن لم أعدِل» فقال عُمَرُ بن الخَطَّاب رضي الله عنه: يا رَسولَ اللهِ ائذَنْ لي فيه أضرِبْ عُنُقَهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعهُ، فإنَّ له أصحاباً يحقِرُ أحدُكم صلاتَهُ مع صلاتِهِم، وصيامَهُ مع صِيامِهِم، يقرَؤُون القُرآنَ لا يُجاوِزُ تراقِيهم، يمرُقُون من الإسلامِ كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّةِ»[3].

فتنة الخوارج تجاوزت الزمان والمكان

المدرسة الحرقوصية التميمية

وأما انتشارُها وظُهورُها فقد كان بعد الانتهاءِ من معرَكَةِ صِفِّينَ واتِّفاقِ أهلِ الشَّامِ والعِراقِ على التَّحكيمِ بين الطَّائِفتَينِ، وكانت أوَّلَ نموذَجٍ للمُعارَضَةِ السَّلبيَّةِ ضِدَّ القرارِ الحاكِمِ، وقد بَلَغَ عددُهم في هذه المرحلةِ ثمانيةَ آلافٍ ـ وقيل: سِتَّةَ عَشَرَ ألفاً ـ نزلوا مكاناً يُسَمَّى "حروراءَ" وهي قريةٌ على بُعدِ مِيلَينِ من الكوفَةِ ونُسِبَ الخوارِجُ إليها وسُمُّوا بالحَرورِيَّة.

بدء ظهور مدرسة الخوارج

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح (١٢: ٣٥٠)، وقد وصل الطبري هذا التعليق في مسند علي من «تهذيب الآثار»، وسنده صحيح كما قال الحافظ في الفتح (١٢: ٣٥٤).

(٢) ذوالخويصرة التميمي هو ذاته حرقوص بن زهير السعدي كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر منها «أسد الغابة» (١٥٤١)، و«المستفاد» لأبي زرعة (٢: ١٢٩٢)، وهذا يجمع المدرستين في هدف واحد: المدرسة الحرقوصية.. ومدرسة ذي الخويصرة التميمية.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٠٥).

الامتداد الطبيعي للمدارس الخارجية حتى يظهر في أعراضهم الدجال

وجُملةُ هذه الأحاديثِ منها ما يبرِزُ سُلوكَ ومواقِفَ الخوارِجِ إبّانَ مرحلةِ الرِّسالَةِ ذاتَها كما هو في ذي الخُوَيصِرَةِ، ومنها ما يُشيرُ إلى الخوارِجِ فيما بعد وفاتِهِ ﷺ وامتدادِ فِتنَتِهم في عُصورِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتّابِعين، ومنها ما يُشيرُ إلى عَودَةِ بِدعَتِهم في آخِرِ الزَّمانِ بِصُوَرٍ شتَّى حتى يكونَ آخرُهم مع الدَّجَّالِ.. وفيهم يقولُ ﷺ فيما رواهُ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يخرُجُ من أُمَّتي قومٌ يُسيؤون الأعمالَ، يقرَؤون القُرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم، يحقِرُ أَحَدَكم عمَلَهُ مع عَمَلِهم، يقتُلون أهلَ الإسلامِ فإذا خرجوا فاقتُلوهم، فطوبى لمن قتَلَهم وطوبى لمن قتَلوه، كُلَّما طلع منهم قَرنٌ قَطَعَه اللهُ»، فردَّدَ ذلك رسولُ اللهِ ﷺ عِشرين مَرَّةً أو أكثَرَ وأنا أسمَعُ[١]. رواه أحمد، وفي رواية ابن ماجه يقول: «كُلَّما خرج قَرنٌ قُطِعَ - أكثرَ من عِشرين مَرَّةً- حتى يخرُجَ في عِراضِهم الدَّجَّالُ»[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قال: «بعثَ عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ من اليَمَنِ بِذُهَيبَةٍ في أَديمٍ مقروظٍ لم تحصُل من تُرابِها، قال: فقَسَّمَها بين أربعَةِ نَفَرٍ بين عُيَينَةَ بنِ بَدرٍ، وأقرعَ بنِ حابسٍ، وزيدِ الخَيلِ، والرَّابع إمّا عَلقَمَةَ بنِ عُلاثَةَ وإمّا عامِرَ بنَ الطُّفَيلِ، فقالَ رَجُلٌ من أصحابِهِ: كُنَّا نحن أحَقَّ بهذا من هؤلاء، قال: فبلَغَ ذلك النَّبيُّ ﷺ فقال: «لا تأمنوني وأنا أمينُ مَن في السَّماءِ، يأتيني خَبَرُ السَّماءِ صباحاً ومساءً» قال: فقامَ رَجُلٌ غائِرُ العينَينِ مُشرِفُ الوَجنَتَينِ ناشِزُ الجَبهَةِ كَثُّ اللِّحيَةِ محلوقُ الرَّأسِ مُشَمِّرُ الإزارِ فقال: يا رَسولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، قال: «ويلَكَ أَوَلَستُ أحَقَّ أهلَ الأرضِ أن يَتَّقِيَ اللهَ»، قال: ثُمَّ ولّى الرَّجُلُ، فقال خالِدُ بنُ الوليدِ: يا رَسولَ اللهِ ألا أضرِبُ عُنُقَهُ قال: «لا، لعلَّه يكونُ

---

(١) مسند أحمد (٥٦٩٤).

(٢) إسناده حسن، الألباني (١٧٩).

يُصلِّي»، فقال خالدٌ: وكم من مُصَلٍّ يقولُ بِلِسانِهِ ما ليس في قلبِهِ، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «إنِّي لم أُؤمر أن أُنَقِّبَ عن قُلوب النّاسِ ولا أُشَقَّ بُطونهم»، قال: ثُمَّ نظر إليه وهو مُقفٍّ فقال: «إنَّه يخرُجُ من ضِئضِئِ هذا قَومٌ يتلون كتابَ اللهِ رَطباً لا يُجاوِزُ حناجِرَهم ،يمرُقون من الدِّين كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّةِ - وأظنُّه قال-: لَئِن أدركتُهم لأقتُلَنَّهم قتلَ ثَمودَ»[1].

وورد بِرِواياتٍ عِدَّةٍ فيها زياداتٌ، قال الخَطَّابيُّ وابنُ الأثيرِ وغيرهما: (الضِّئضِئُ) الأصلُ، قال الخَطَّابِيُّ: (يريد أنَّه يخرُجُ من نسلِهِ الذين هو أوَّلُهم أو يخرُجُ من أصحابِهِ وأتباعِهِ الذين يقتَدون به ويَبنُون رأيَهُم ومَذهَبَهم على أصلِ قَولِهِ).

قال مُؤَلِّفُ «إتحاف الجماعة» تعليقاً: (قلتُ : وهذا الأخيرُ أرجَحُ ، ويؤيِّدُهُ قولُهُ ﷺ : «إنَّ له أصحاباً يحقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم وصيامَه مع صيامِهم»، وقولُهُ في الحديثِ الآخَرِ : «إنَّ له شيعَةً يتعَمَّقون في الدِّين حتى يخرُجوا منه»[2]. وفي روايةٍ أُخرَى :(سيماهُم التَّحليقُ لا يزالون يخرُجون حتى يخرُجَ آخِرُهم، فإذا رأيتُموهم فاقتُلوهم (قالها ثلاثا) شَرُّ الخَلقِ والخليقَةِ (قالها ثلاثا). وفي روايةِ أحمدَ : «لا يزالون يخرُجون حتى يخرُجَ آخِرُهم مع الدَّجَّالِ». ورواه أبو داود والطيالسي والنسائي بنحوه [3].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَ لي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال -ولم أسمَعهُ منه-: «إنَّ فيكم قوماً يتعبَّدون فَيدأَبون حتى يُعجَبَ بهم النَّاسُ وتُعجِبُهم أنفُسُهم يمرُقون من

---

(١) البخاري (٧٤٣٢)

(٢) إتحاف الجماعة ١/ ٢٨٠ .

(٣) إتحاف الجماعة ١/ ٢٩٠.

الدِّين مُروقَ السَّهمِ من الرَّمِيَّةِ»[1].

وعـن مُسـلمِ بـن أبي بَكـرَةَ عـن أبيه رضي اللـه عنه قـال: قال رسـولُ الله ﷺ: «سيخرُجُ قومٌ أحداثٌ أحِدَّاءُ أشِدَّاءُ ذليقَةٌ ألسِنَتُهم يقرأون القُرآنَ لا يُجاوِزُ تراقِيهم فـإذا لَقِيتُموهم فأنيموهم ثُمَّ إذا لقيتُموهم فاقتُلوهم فإنَّه يُؤجَرُ قاتِلُهم»[2]، والإنامةُ القتلُ.

موقف الإمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الخوارج في النهروان

وقد قاتل الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخوارِجَ في عهدِهِ وهَزَمَهم في وَقعَةِ النَّهرَوانِ وفيها قـال الإمـامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أُمِرنا بِقِتالِ ثلاثَةٍ: النّاكِثين والقاسِـطين والمارِقين، فقد قاتَلتُ النَّاكِثين والقاسِطين، وأنا مُقاتِلٌ إن شاء اللهُ المارِقين»[3]، وفيها مَقتلُ ذي الثَّدِيَّتَينِ وهو علامةٌ ممّا ذَكَرَه رَسـولُ اللهِ ﷺ: «وآيةُ ذلك أنَّ فيهم رَجُلاً له عَضُدٌ ليـس فيـه ذِراعٌ علـى رأسِ عَضُدِهِ مِثلُ حَلَمَـةِ الثَّدي عليه شَـعَراتٌ بِيضٌ»[4] وعن أبـي سـعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تمرُقُ مارِقَةٌ عند فِرقَةٍ من المُسـلِمين فيَقتُلُها أَولَـى الطَّائِفتَينِ بالحَـقِّ»[5] ولمـا فرغ مـن قَتلِهم الإمـامُ عليٌّ قال رجـلٌ: الحمدُ لله الـذي أبادَهُم وأراحنا منهم، فقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا والذي نفسي بِيَدِهِ، إنَّ فيهم لَمَن في أصلابِ الرِّجالِ لم تحمِلهُ النِّساءُ بعدُ وليكونَنَّ آخِرُهم لِصاصاً حرادينَ»[6].

مسمى الحرورية نسبة إلى حروراء

وحديثٌ رواه أبو سـعيدٍ الخُدرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسـولُ اللهِ ﷺ: «تمرُقُ

---

(١) مسند أحمد (١٣٢٢٣).

(٢) مسند أحمد (٢٠٩٨٦)

(٣) المعجم الكبير (٤٠٤٩)

(٤) صحيح مسلم (٢٥١٦)

(٥) صحيح مسلم (٢٥٠٧)

(٦) مسند عبدالرزاق (١٨٦٥٥)

مارِقَةٌ عند فِرقَةٍ من المُسلِمِين يقتُلُها أَولَى الطَّائِفَتَينِ بالحَقِّ»[1] .

ووعنه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّه لما سُئِلَ عن الحروريَّةِ قال : لا أدري ما الحروريَّةُ ؟ سَمِعتُ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يقولُ :« يخرُجُ في هذه الأُمَّةِ – ولم يَقُل منها – قومٌ تحقِرون صلاتكم مع صلاتِهم ، يقرؤون القُرآنَ لا يُجاوِزُ حُلُوقَهم أو حناجِرَهم ، يمرُقون من الدِّين مُروقَ السَّهمِ من الرَّمِيَّةِ ..»[2]، ولما قاتَلَ الإمامُ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ طلائِعَهم في عَصرِهِ وقال لأصحابِهِ : «اطلُبوا رَجُلاً صِفَتُهُ كذا وكذا» ، فطلَبوه فلم يَجِدوه ، ثُمَّ طلبوه فوجدوه على النَّعتِ الذي ذكرَهُ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ، فقالَ رَجُلٌ: الحمدُ للهِ الذي أبادَهم وأراحَنا منهم .. فقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ : «كلا .. والذي نفسي بيده إنَّ منهم لمن في أصلابِ الرِّجالِ لم تحمِلهُ النِّساءُ بعدُ وليكُونَنَّ آخِرُهم لِصاصاً وحرادينَ»[3] .

تحديد هوية الخوارج على لسان الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنهُ

وعن طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ ، قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ عَلِي ، فَسُئِلَ عَنْ أَهْلِ النَّهَرِ: أَمُشْرِكُونَ هم؟

قَالَ : مِنَ الشِّرْكِ فَرُّوا ،

قِيلَ : فَمُنَافِقُونَ هُمْ ؟

قَالَ : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ،

قِيلَ لَهُ : فَمَا هُمْ ؟

قَالَ : قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا[4].

وكان أغلَبُ الخوارِجِ مِمَّن لم يصحَب النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وفيهم وفي أمثالِهم يقولُ عُمَرُ

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٠٧) ، وهي إشارة إلى معركتهم مع الإمام علي في وقعة النهروان.

(٢) صحيح البخاري (٦٩٣١).

(٣) مسند عبدالرزاق (١٨٦٥٥)

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٧٩٠٩٣).

بـنُ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «قد عَلِمتُ ورَبِّ الكَعبَةِ متى يهلَكُ العَرَبُ!! إذا وَلِيَ أمرَهُم مَن لم يصحَب الرَّسولَ ﷺ ولم يُعالِج أمرَ الجاهِلِيَّةِ»[1].

ومما يُؤَكِّدُ نَصّاً استمرارَ ظاهِرَةِ الخوارِجِ تاريخِياً حتى يُدرِكَ آخِرُهم الدَّجَّالَ ما رواهُ ابنُ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ينشَأُ نَشءٌ يقرأون القُرآنَ لا يجاوِزُ تَرَاقِيهم كُلَّما خَرَجَ قَرنٌ قُطِعَ» قال ابنُ عُمَرَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «كُلَّما خرجَ قَرنٌ قُطِعَ (أكثَرَ من عِشرين مَرَّةً) حتى يخرُجَ في أعراضِهم الدَّجَّالُ»[2]، وفيهم أيضاً يقولُ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أخافُ على هذه الأُمَّةِ من مُؤمِنٍ ينهاه إيمانُه ولا مِن فاسِقٍ بَيِّنٍ فِسقُهُ، ولكن أخافُ عليها رَجُلاً قرأ القُرآنَ حتى أزلَقَه بِلِسانِه ثُمَّ تأوَّلَه على غير تأويلِه»[3].

مقتَلُ الإمامِ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

مقتل الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ مقتَلُ الإمامِ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وفيه روى الطبرانيُّ عن جابرِ بن سَمُرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا عليُّ، إنَّك مُؤَمَّرٌ مُستَخلَفٌ وإنَّك مقتولٌ، وإنَّ هذه مخضوبةٌ من هذه» يعني: لِحيَتَه من رأسِهِ[4].

وكان مقتَلُهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في يوم الجُمُعةِ سابعَ عشَرَ رمضانَ سنة أربعينَ من الهجرة، قتَلَه عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُلجِمٍ المُرادِيُّ من طائِفَةِ الخوارِجِ، وقال في قَتلِهِ ﷺ: «إنَّ الأُمَّةَ ستغدِرُ بك بعدي، وأنت تعيشُ على مِلَّتي وتُقتَلُ على سُنَّتي، ومن أحبَّكَ

---

(١) المستدرك للحاكم (٨٣١٨)

(٢) سنن ابن ماجه (١٧٩)

(٣) كنز العمال (٢٩٤٠٤)

(٤) المعجم الأوسط (٧٣١٨).

أحَبَّني ومن أبغَضَك أبغَضَني ، وإنَّ هذه ستُخضَبُ من هذا ..يعني لِحيتَهُ من رأسِهِ»

أخرجه الحاكم[1].

صُلحُ الإمامِ الحَسَنِ بن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا

صلح الإمام الحسن رَضِيَ اللهُ عَنهُ علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ صُلحُ الإمامِ الحَسَنِ بن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، وفيه قال صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ ، وسيُصلِحُ الله به بين فِئَتَينِ من المسلمين»[2].

وفي صُلحِ الإمامِ الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ مَلحَظٌ هامٌّ بإنهاءِ معرَكَةِ الصِّراعِ فيما بين المسلمين، وهو ما قَصَدَهُ الإمامُ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ في خُطبَةِ التَّنازُلِ في قولِه: «أيُّها النّاسُ، إنَّ اللهَ هداكم بأوّلِنا وحَقَن دِماءَكُم بآخِرِنا، وإنّ مُعاوِيَةَ نازَعَني أمراً أنا أَحَقُّ به ، وإنِّي تَركتُهُ حَقناً لِدِماءِ المُسلمين وطَلَباً لما عند اللهِ»[3].

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قُلتُ للحَسَنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: إنّ النّاسَ يقولون إنّك تُريدُ الخِلافةَ، فقال: «قد كانت جماجِمُ العَرَبِ في يدي ـ يحارِبون مَن حارَبتُ ويُسالِمون مَن سالمتُ ـ تركتُها ابتغاءَ وَجهِ اللهِ تعالى وحَقنِ دماءِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثم أَبْتَزُّهَا بِأَتْيَاسِ أَهْلِ الحِجَازِ؟!»[4].

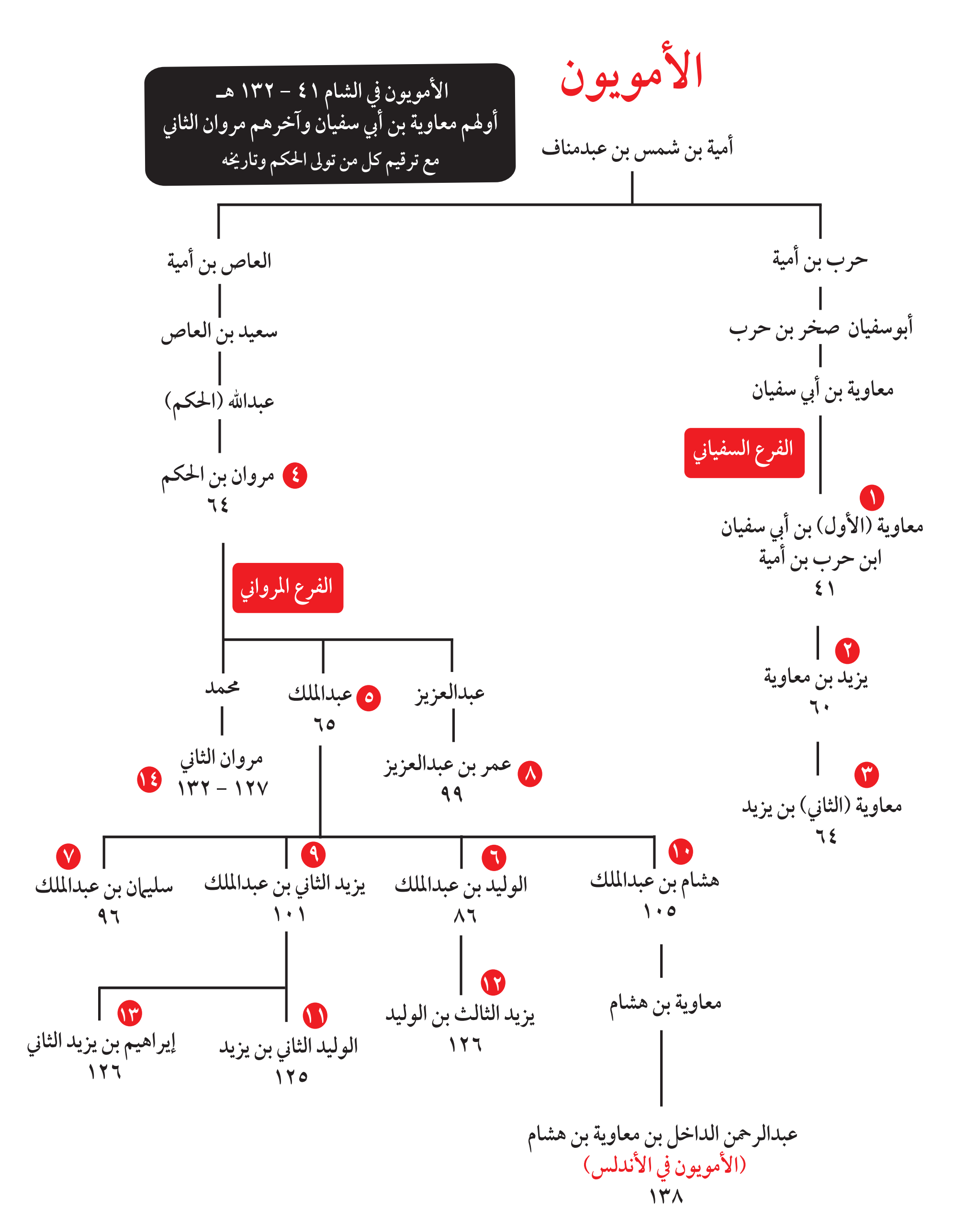
---

(١) المستدرك (٤٦٨٦).

(٢) البخاري (٣٦٩٢).

(٣) أسد الغابة لابن الأثير (١: ٢٦١).

(٤) المستدرك للحاكم (٤٧٩٥)، وانظر إتحاف الجماعة (٢: ٩٦).



مشجر الأمويين ، تمت إعادة الرسم مع شيء من التصرف ، «أطلس تاريخ العرب» ص٤٦

مُلكُ بني أُمَيَّةَ

ملك بني أمية علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ مُلكُ بني أُمَيَّةَ (المُلكُ العَضوضُ) ، وفيه يقولُ ﷺ : «بـدأ هـذا الأمـرُ بِنُبُوَّةٍ ورَحمَةٍ[1] ثُـمَّ خلافَةٍ ورَحمَةٍ ، ثم مُلـكاً عَضوضاً ، ثم عُتُوّاً وجَبرِيَّةً» [2].

وهذا الحديثُ يشمَلُ مرحلةَ بني أُمَيَّةَ وبني العَبّاسِ.

وحديثُ «خِلافةُ النُّبُوَّةِ ثلاثون سنةً ثُمَّ يؤتي اللهُ المُلكَ ـ أو: ملكه ـ مَن يشاءُ»[3]، وأمـا أحاديـثُ الاختصـاصِ بِبَنـي أُمَيَّةَ فمنهـا قولُـهُ ﷺ : «تعوَّذوا باللـهِ من رأسِ السَّبعينَ ومِن إمارَةِ الصِّبيانِ»[4].

رؤيا النبي ﷺ للقردة والخنازير تتنزى على منبره

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ بني الحَكَمِ يَنزُون على مِنبَري كما تنزُو القِرَدَةُ» قال: فما رُؤِيَ النَّبيُّ ﷺ ضاحِكاً حتى تُوُفِّي[5].

---

(١) وقولـه ﷺ : (خلافـة ورحمة) يشـير إلـى مرحلة تنازل الإمام الحسـن وما يكـون في تلك المرحلة من السكون والهدوء بعد القلق والاحتدام.

وكان من مظاهر الخلافة موقف الإمام الحسن الجامع بين خلافتي الحكم والعلم، ومن مظاهر الرحمة حفظه لدماء المسلمين وتضحيته بصنمية الحكم التي يعبدها المقاتلون من أجلها.

ومن فوائد تنازل الإمام الحسـن رَضِيَ اللهُ عَنهُ كشـف حقيقـة المطالبة بدم عثمـان كذبا وزورا حيـث إنهـم بعـد أن ملكوا الحكم بتنازل الحسـن لم نسـمع عـن مطالبتهم بثـأر عثمان بل اشترك جملة من قتلة عثمان وقتلة الإمام علي في ترسيخ دولة الملك العضوض.

(٢) الإشاعة/ ٣٦٤ .

(٣) سنن أبي داود (٤٠٢٨).

(٤) مسند أحمد (٨٥٤٣) .

(٥) المستدرك للحاكم (٨٤٨١) .

وعن ابن المُسَيَّبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال : رأى النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بني أُمَيَّةَ على مِنبَرِهِ فساءَهُ ذلك ، فأوحِيَ إليه (إنَّما هي دُنيا أُعطوها) فَقَرَّت عينُهُ .[1]

وعن عُمَارَةِ بنِ أبي حَفصَةَ قال: سَمِعتُ علياً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقولُ: «عَجِبتُ مِن إخوانِنا بنـي أُميَّـةَ، إنَّ دَعوَتَنا دعوَةُ المؤمنيـن ، ودَعوَتَهم دَعوَةُ المُنافِقِيـن ، وهم يُنصَرون علينا»[2].

وتنقَسِمُ هذه المرحلةُ إلى قِسمَينِ:

١- العَهدُ السُّفيانِيُّ الأُمَوِيُّ، ويبدَأُ بِمُعاوِيَةَ وينتهي بِمَروانَ بنِ الحَكَمِ.

٢- العَهـدُ المروانِـيُّ الأُمَـوِيُّ، ويبدأ بِعَبدِالمَلِـكِ بنِ مَروانَ وينتَهـي بِمَروانَ بنِ مُحَمَّدٍ.

مَقتَلُ الإمامِ الحُسَينِ بنِ عَليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا

مقتل الإمام الحسين بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ مَقتَلُ الإمامِ الحُسَـينِ بنِ عَليٍّ [3]رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ففي الأثـر ورد عـن أُمِّ سَـلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسـولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ جِبريـلَ أخبَرَني أنَّ ابني هذا -يعني الحُسَـينَ- يُقتَلُ وأنَّه اشـتَدَّ غَضَبُ اللهِ على مَن يقتُلُه» رواه ابن عساكر[4].

وعن مُعاذِ بن جَبَلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : « أمسِك يا مُعاذُ وأَحصِ فلمَّا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم حديث رقم (١٣٦٩٦).

(٢) الفتن لنعيم بن حماد ص٣٠٥.

(٣) قتل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم عاشـوراء بكربلاء وكان يوم السـبت سـنة ٦١ سـنة هـ وكان عمره يوم قتل ثمان وخمسين سنة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) تاريخ دمشق (١٤: ١٩٣)

بَلَغَ خَمساً – يعني من الخُلَفاءِ – قال : يزيدُ ، لا بارك اللهُ في يزيدَ ، نُعِيَ إليَّ حُسَينٌ وأُتيتُ بِتُربَتِه وأُخبِرتُ بقاتِلِه ، والذي نفسي بِيَدِه لا يُقتَلُ بين ظَهرانِي قومٍ لا يمنَعونه إلا خالفَ اللهُ بين صُدُورهم وقُلُوبِهم وسَلَّطَ عليهم شِرارَهم وألبَسَهُم شِيَعاً»[1] .

وَقعَةُ الحَرَّةِ

وقعة الحرة علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الوُسْطَىٰ وَقعَةُ الحَرَّةِ ، وهي مرحلةُ فُقدانِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ، يومَ الأربعاءِ لثلاثٍ بَقِينَ من ذي الحِجَّةِ سنة ثلاثٍ وستِّين للهجرة، قال فيها ﷺ: «والذي نفسي بِيَدِه لَيَكونَنَّ بالمدينةِ مَلحَمَةٌ يقالُ لها الحالِقَةُ لا أقولُ حالِقَةَ الشَّعَرِ ولكن حالِقَةُ الدِّينِ .. فاخرُجوا من المدينةِ ولو على قَدرِ بريدٍ ولَهَلاكُ أُمَّتي على يَدِ أُغَيلِمَةٍ من قُرَيشٍ».

وأخرج البيهَقِيُّ عن الحَسَنِ قال: «لما كان يَومُ الحَرَّةِ قُتِّلَ أهلُ المدينةِ حتى كاد

---

(١) قلت: وهذا الحديث ـ كما قال صاحب الاشاعة ـ : (ذم للذين بايعوه وأخرجوه ثم أسلموه إلى العدو ولم يمنعوه). وفيه إشارة لنتيجة مقتل الحسين رَضِيَ اللهُ عَنهُ بين تخاذل المحبين وبغض المبغضين وما يترتب على فعلهم من دمار فيما بينهم ولا شيء غير ذلك إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وهذا ما حل بالقوم من المبغضين ومن المحبين المتخاذلين من ذلك اليوم حتى مرحلتنا المعاصرة، ومثل هذا النص درس لمن القى السمع وهو شهيد، والصراع كما هو في الحديث عقوبة وليس نصرة للإمام الحسين ولا لآل البيت كما يفيد الحديث الشريف.

وعن شهر بن حوشب قال : سمعت أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنهَا حين جاء نعي الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا لعنتْ أهل العراق وقالت : قتلوه قتلهم الله عز وجل غروه ودلوه لعنهم الله. اهـ. رواه أحمد والطبراني قال الهيثمي ورجاله موثوقون. وعن عائشة أو أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنهَا أن النبي ﷺ قال لإحداهما: (لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبلها قال: إن ابنك هذا حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها ، قال : فأخرج تربة حمراء) رواه الإمام أحمد قال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح. اهـ إتحاف الجماعة (١ : ٢٣٨) .

لا ينفَلِتُ منهم أَحَدٌ» وأخرجَ عن مالكِ بن أنَسٍ قال: «قُتِلَ يوم الحَرَّةِ سبعُ مئةِ رَجُلٍ مـن حَمَلَةِ القرآنِ منهم ثـلاثُ مِئَةٍ من الصَّحابَةِ وذلك في خلافـةِ يزيدَ» وفيه زيادة «علـى رأسِ السِّـتينِ »، وفيها تولَّـى يزيدُ[1]. وورد: «لا تقومُ السّـاعةُ حتى يُلتَمَسُ الرَّجلُ من أصحابي كما تُلتَمَسُ الضَّالَّةُ »[2].

وعن سـعيدِ بنِ المُسَـيِّبِ قال: (وقعـت الفِتنَةُ الأولى –يعني مقتَـلُ عُثمانَ– فلم تُبـقِ مـن أصحابِ بَدرٍ أحـداً ، ثُمَّ وقعت الفِتنَـةُ الثّانِيَةُ –يعني الحَـرَّةَ– فلم تُبقِ من أصحابِ الحُدَيبِيَةِ أحداً، ثم وقعت الثَّالِثَةُ فلم ترتَفِع ولِلنَّاسِ طَباخٌ)[3].

قال الحافِظُ في قولِه: (لم تُبقِ من أصحابِ بَدرٍ أَحَداً) أي : إنَّهم ماتوا منذُ قامت الفِتنَـةُ بمقتَـلِ عُثمانَ إلى أن قامت الفِتنَةُ الأخرى بِوَقعَـةِ الحَرَّةِ وكان آخرُ مَن مات مِن البَدرِيِّين سعدَ بنَ أبي وقّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومات قبل وقعةِ الحَرَّةِ بِبِضع سِنينَ[4].

فِتنَةُ ابنِ الزُّبَيرِ

فتنة ابن الزبير ومقتله علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ فِتنَةُ ابنِ الزُّبَيرِ، فعن عُمَـرَ بن دينارٍ قال: قال أبو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «فِتنَةُ ابنِ الزُّبَيرِ حَيصَةٌ مِن حَيصاتِ الفِتَنِ»[5].

وعـن أبي المنهالِ قالَ: لمّا كان ابنُ زيادٍ ومروانُ بالشّـامِ ووَثَبَ ابنُ الزُّبَيرِ بِمَكَّةَ ووثَـبَ القُـرَّاءُ بالبَصرَةِ انطلقـتُ مع أبي إلى أبي بَرزَةَ الأسـلَمِيِّ حتـى دَخَلنا عليه

(١) الإشاعة ص٦٨.

(٢) مسند أحمد (٧٣١).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٢٤).

(٤) فتح الباري (٧: ٣٢٥).

(٥) الفتن لنعيم بن حماد (٤٧٣) .

فـي دارِهِ وهـو جَالِسٌ في ظِلِّ عُلَيَّةٍ له من قَصَبٍ فَجَلَسـنا اليه فأنشـأَ أبي يَسـتَطعِمُه الحديثَ، فقال: يا أبا بَرزَةَ!ألا ترى ما وقع فيه النَّاسُ؟ فأوَّلُ شيء سَمِعتُهُ تَكَلَّم به: إنِّي احتَسَـبتُ عند اللهِ أنِّي أصبَحتُ سـاخِطاً أحياءَ قُرَيشٍ ، إنَّكم يا مَعشَـرَ العَرَبِ كُنتُم على الحالِ الذي عَلِمتُم منها الذِّلَّةَ والقِلَّةَ والضَّلالَةَ وإنَّ الله أنقَذَكُم بالإسلامِ وبِمُحَمَّـدٍ ﷺ حتى إذا بَلَـغَ بكم ما تَرَونَ وهذه الدُّنيا التي أفسَـدَت بينكم. إنَّ ذاك الذي بِالشَّامِ والله إن يُقاتِلُ إلا على الدُّنيا . وإنَّ هؤلاء الذين بين أَظهُرِكم واللهِ إن يقاتِلون إلا على الدُّنيا ، وإن ذاك الذي بِمَكَّةَ واللهِ إن يُقاتِلُ إلا على الدُّنيا[1].

وعـن نافِـعٍ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما أنَّه قال لِرَجُلٍ يسـأَلُهُ عن القِتالِ مع الحَجَّاجِ أو مـع الزُّبَيرِ فقال له ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما : (مع أيِّ الفَريقَين قاتلتَ فَقُتِلتَ في لَظَىً)[2]، وما قال ابنُ عُمَرَ ما قال كراهِيَةً لابنِ الزُّبَيرِ وإنَّما يخافُ الفِتنَةَ وما يترتَّبُ على قِتالِ المُسلِمِ للمُسلِمِ، وما ورد عن النَّبيِّ ﷺ في ذلك، وفي قولِهِ إشارةٌ إلى أنَّ السَّلامَةَ من الفِتَنِ أولى من الوُقوعِ مع أَحَدِ الطَّرَفَينِ في النّارِ.

خِلافَةُ عُمَرَ بن عبدِ العزيزِ

خلافة عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللهُ عَنهُ علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ خِلافَةُ عُمَرَ بن عبدِ العزيزِ ، فعن نافعٍ قال: قال عُمَرُ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : (يكونُ رَجُلٌ من وَلَدِي بِوَجهِهِ شَينٌ يَلِي فَيَملَأُها عَدلاً، قال نافِعٌ: ولا أحسَبَنَّه إلا عُمَرَ بن عبدَ العزيزِ)[3].

وعن ضَمرَةَ بنِ شَوذَبٍ قال : (دخل عُمَرُ بن عبدِ العزيزِ اصطَبلاً لأبيهِ فَشَجَّهُ فَرَسٌ

---

(١) صحيح البخاري (٧١١٢) .

(٢) المستدرك للحاكم (٨٤٥٢) . وانظر إتحاف الجماعة (١: ١٢٤) .

(٣) تاريخ دمشق (٤٥: ١٥٥) .

لأبيه فخرج والدِّماءُ تسيلُ على وجهِه، فقال أبوه : لعلَّك تكونُ أشَجَّ بني أُمَيَّةَ)[1]، وقـد ورد في كُتُبِ السِّيَرِ شُـمولُ عَدلِهِ وكَثـرَةُ إنفاقِهِ للمالِ في أوجُهِهِ الشَّـرعِيَّةِ[2] ، ومِمَّا يؤكِّدُ موقِعَ مرحلةِ خلافَةِ عُمَرَ بن عبدِ العزيزِ من العلاماتِ الوُسـطى للسّـاعةِ، مـا ورد عن إبراهيمَ بنِ مَيسَـرَةَ قال : قُلتُ لِطـاووسَ : عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ المهدِيُّ ؟ قـال : لا ، إنَّـه لم يسـتكمِلِ العَدلَ كُلَّـهُ[3] ، وبرقم ١٠٤٠ عن إبراهيم بن ميسـرة بن طـاوس قـال: (قد كان عُمَرُ بنُ عبد العزيزِ مَهدِيّـاً وليس به ، إنّ المهدِيَّ إذا كان زِيدَ المُحسِنُ في إحسانِه وتِيبَ على المُسيءِ من إساءَتِهِ)[4] . ويُعَدُّ الخليفةُ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخليفَةَ السّادِسَ في سِلسِلَةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدين.

مُلكُ بني العَبَّاس

ملك بني العباس علامة وسطى

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّـاعَةِ الوُسْـطَىٰ مُلـكُ بني العَبَّاس (المُلـكُ العَضوض) ، فعن علـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ويلٌ لِأُمَّتِي مِنْ بَنِـي العَبَّاسِ» [5] ، وفي رواية أخرى: « إنَّ لبني

---

(١) طبقات ابن سعد (٥: ٣٣١).

(٢) وفـي الفتـن لنعيم بن حمـاد (١: ٢٢١) مقارنة بين الخليفة عمر بن عبـد العزيز وبين الإمام المهدي فيما يشـير إلى كونهما من علامات السـاعة: حدثنا ضمرة عن ابن شوذب عن مطر قـال ذكـر عنـده عمر بن عبـد العزيز فقـال بلغنا أن المهدي يصنع شـيئا لـم يصنعه عمر بن عبـد العزيـز قلنا ما هو ؟ قال يأتيه رجل فيسـأله فيقول ادخل بيت المال فخذ فيدخل فيأخذ فيخـرج فيرى الناس شـباعا فيندم فيرجع إليه فيقول خذ مـا أعطيتني فيأبى ويقول إنا نعطي ولا نأخذ.

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (١٠٤٢).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٨٠٧).

(٥) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ، وفيه يزيد بن ربيعة وذكر من جرحه.

العباسِ لرايةً لا تُرَدُّ »[1] ، وفي أخرى: أنَّ النبيَّ ﷺ جعل على العباسِ وولدِه كساءً ثـم قال : «اللهمَّ اغفرْ للعباسِ وولدِه مغفـرةً ظاهرةً وباطنةً ، ولا تغادرْ ذنباً ، اللهمَّ اخلُفْـهُ في ولده»[2]، قال البرزنجيُّ: فتُحمَلُ الأحاديثُ الأُوَلُ - إن صَحَّت- على شرارِهم ، وهذا وأمثالُهُ على أخيارِهم[3] .

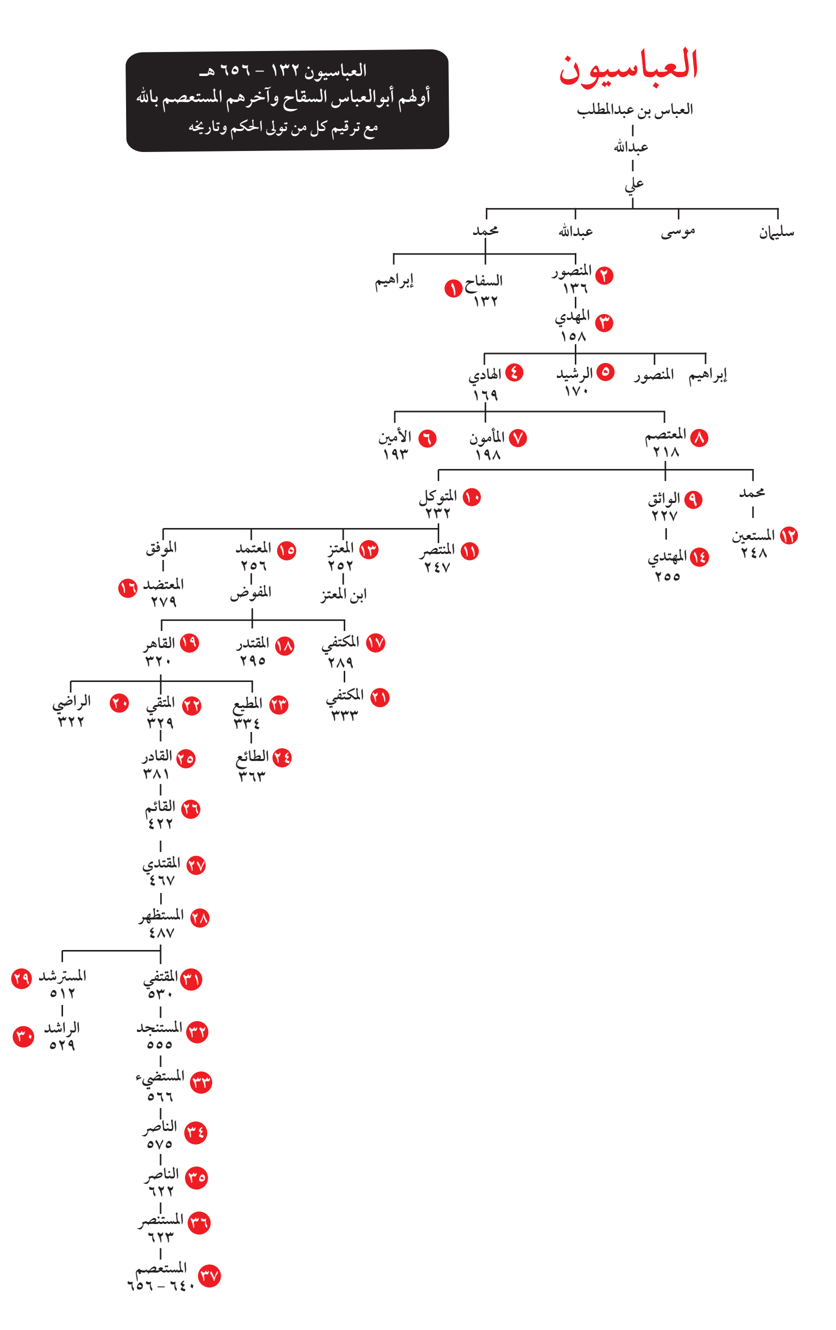
وفـي روايـة أخـرى: «ليكونـنَّ فـي ولـدِ العبـاسِ ملـوكٌ»، ولعـلَّ في مثـلِ هذه الأحاديثِ إشـارَةً إلى ما أُقِيم في بَعضِ عُصورِهم من الفُتوحاتِ الإسلامِيَّةِ وحِفظِ بَيضَةِ الإسلامِ.

---

(١) لسان الميزان (٢: ٥١٨) ، قال ابن حجر : فيه الحارث بن شبل ، قال العقيلي: ضعيف .

(٢) ذكره الذهبي في «سـير أعلام النبلاء» (٢: ٨٩) وقال : إسناده جيد. ومع ذلك فقد ذكر جل أهل الحديث بأنه لم يصح في روايات بني العباس شيء واتهموا أكثر أسانيدها بالنكارة.

(٣) الإشاعة ٧٨ .



مشجر العباسيين ، تمت إعادة الرسم مع شيء من التصرف، المصدر السابق ص٧٢

أقسام مرحلة المُلك العَضوض

باستقراءِ النُّصوص النَّبويَّةِ حول مراحِلِ المُلْكِ العضوضِ وموقِعِها من الزَّمانِ تبيَّنَ أنّ مرحلةَ المُلكِ العضوض مُمتَدَّةٌ من عهدِ تنازُلِ الإمامِ الحَسَنِ بن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عهدِ التَّداعي والوَهَنِ والغُثاءِ.

وهذه المراحِلُ طويلةُ المدى مُتباعِدَةُ الزّمانِ يجمَعُها حديثُ لَيثِ بنِ أبي سُلَيمٍ عن ابنِ سابطٍ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنّ هذا الأمرَ بدأ نُبُوَّةً ورحمَةً، وإنَّه كائِنٌ رحمةً وخلافةً، وإنه كائِنٌ مُلكاً عضوضاً، وعُتُوّاً وجَبرِيَّةً، وفساداً في الأُمَّةِ، يستَحِلُّون الخُمورَ والحريرَ والفُروجَ ويُرزَقون عليه حتى يلقَوُا اللهَ» [1].

مناقشة لمعاني (الملك العضوض)

قلتُ واللهُ أعلَمُ: ويُنظَرُ إلى معنى (المُلكِ العضوضِ) بتفصيلٍ كما هو في نماذِجِ النُّصوصِ وتَنَوُّعِ عِباراتِها.

فالمُسمَّى العامُّ للمُلكِ العضوضِ يُطلَقُ على مَرحَلَتَي بني أُمَيَّةَ وبني العَبّاسِ عُموماً،ومَدَّ بعضَهم المعنى للمُلكِ العَضوضِ إلى عَهدِ الانهيارِ والغُثاءِ والتَّداعي.

والمعلومُ أنَّ تَنَوُّعَ الألفاظِ في النُّصوصِ تحمِلُ تَنَوُّعَ المعاني، ويصعُبُ أن تُنَزَّلَ الألفاظُ النَّبوِيَّةُ على المراحِلِ دون أن يُدرَكَ مقصودُ اللَّفظِ النَّبَوِيِّ على وَجهِهِ، وخاصَّةً أنّ هناك (خِلافةً ونُبُوَّةً) كما هو في ألفاظِ الأحاديثِ، وعلى اللَّفظَتَينِ مدارُ

(١) الحديث صحيح بهذا اللفظ، أورده الداني في (السنن الواردة في الفتن) تحقيق أبي عمر العبوشي، وكذلك رواه الطبراني في الكبير(٣٦٧). والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦١٦).

الأمرِ كُلِّهِ.

فالخِلافَـةُ يُقصَـدُ بها الحُكمُ والقَرارُ ، والنُّبُوَّةُ يُقصَدُ بهـا مَنهَجُ الدِّيانَةِ الصَّحيحِ، والأصـلُ أن يجتَمِعا في حامِلِ القرارِ وفي سِياسَـةِ مرحلتِهِ وَفـقَ مُرادِ اللهِ، وعندما يتدخَّلُ الطَّمَعُ وحُبُّ الدُّنيا والرَّغبَةُ في الامتلاكِ فإنّ الرّاغِبَ في الخِلافَةِ والحُكمِ يتخَطّى مفهومَ الأمانَةِ في مُسَـمَّى النَّبوِيَّـةِ ومُرادِ اللهِ في الأمرِ، فيتعسَّـفُ المعاني ويتأمَّرُ بذلك على النّاسِ، فيكونُ بذلك المُلكُ، أي: يخرُجُ معنى الخلافةِ الشَّرعِيَّةِ إلـى معنى الامتلاكِ الطَّبعِيِّ فيُسـمَّى شـرعاً مُلكاً عاضّاً أو مُلكاً عضوضاً، ويُفَسِّـرُ هذا المعنى مقولَةُ الإمامِ الحَسَـنِ مع أخيه الإمامِ الحُسَينِ وهو على فِراشِ المَوتِ في سِـياقِ حديثِهِ « وإنِّـي لأرى ألا يجمَعَ اللهُ لنا الخلافَةَ والنُّبُوَّةَ، فلا أرى سُـفَهاءَ الكوفَةِ يستَخِفّونكَ فيُخرِجوك...»[1].

وهذه الرُّؤيَةُ من الإمامِ الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قاعِدَةٌ شرعِيَّةٌ تُفَسِّرُ معنى كلامِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن معنى الخِلافَةِ في الحُكمِ وعن معنى النُّبُوَّةِ في شَرَفِ الإرثِ للعِلمِ.

وكفى بهذه الألفاظِ الصَّحيحَةِ ضابطاً شـرعِيّاً لِسَـلامَةِ المراحِلِ وعَدَمِ سلامَتِها، ومن ذلك قَولُ حُذيفَةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «تكونُ النُّبُوَّةُ فيكـم ما شـاء اللـه أن تكون، ثُـمَّ يرفَعُها إذا شـاء أن يرفَعَها، ثُمَّ تكـونُ خِلافَةٌ على مِنهاجِ النُّبُوَّةِ، فتكونُ ما شـاء اللهُ أن تكونَ، ثُمَّ يرفَعُها إذا شـاء أن يرفَعَها، ثُمَّ تكون مُلـكاً عاضّاً، فيكونُ ما شـاء اللهُ أن يكونَ، ثُمَّ يرفَعُها إذا شـاء أن يرفَعَها، ثُمَّ تكونُ مُلكاً وجَبرِيَّةً ، فتكونُ ما شاء الله أن تكونَ، ثُمَّ يرفَعُها إذا شاء أن يرفَعَها، ثُمَّ تكونُ

---

(١) الاستيعاب لابن عبدالبر (١: ٣٧٦).

خِلافَةٌ على مِنهاجِ النُّبُوَّةِ.. ثُمَّ سَكَتَ»[1] .

فـإن أُخِـذَت هذه المعانـي على مـا فَهِمَهُ أولئـك على عهـدِ عُمَرَ بـنِ عبدالعزيزِ فالفَهـمُ مُنقَطِعٌ عن تلك العُصورِ حيـثُ زاد في الرِّوايَةِ: قال حبيـبٌ: فلمّا قام عُمرُ بن عبدُالعزيزِ وكان يزيدُ بنُ النُّعمانِ بنِ بِشـرٍ في صحابَتِهِ فكتبتُ إليه بهذا الحديثِ أُذَكِّرُه إيَّاهُ، فقلتُ له: إنِّي لأرجو أن يكون أميرُ المؤمنين يعني عُمَرَ بن عبدالعزيزِ بعد المُلكِ العاضِّ والجَبرِيَّةِ، فأَدخِل كتابي على عُمَرَ بن عبدِالعزيزِ، فَسُرَّ به وأعجَبَهُ.

وإن أخذنـا المعنى علـى امتدادِ المراحِـلِ المعنِيَّةِ بعد الخِلافَةِ الرَّاشِـدَةِ فخاتِمَةُ الحديثِ تُشيرُ إلى خلافَةٍ على مِنهاجِ النُّبُوَّةِ فـي أُخرَياتِ الزَّمانِ، ولعلَّ هذا هو ما فَسَّرَهُ الإمامُ السُّيوطِيُّ وغيرُهُ عن الاثنَي عَشَرَ أميراً من قُرَيشٍ، يكونُ آخِرُهم الإمامُ المهدِيُّ في آخِرِ الزَّمانِ.

وفي معنى آخرَ فإنّ الخلافَةَ الأخيرَةَ على مَنهَجِ النُّبُوَّةِ هي مرحلَةُ الدَّولَةُ العُثمانِيَّةِ في رَفعِها شِعارَ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، وخُصوصاً بعد فَتحِ القُسطَنطِينِيَّةِ إلى مرحلَةِ الانهيارِ، وأمّا بعدَها فمراحِلُ لها ما يُناسِبُها من النُّصوصِ الأُخرَى.

وفي (المستدرك) عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يقولُ:(إنّ الله بدأ هذا الأمرَ حيـن بـدأ بِنُبُوَّةٍ ورَحمَـةٍ، ثم يعودُ إلى خلافَةٍ، ثـم يعودُ إلى سُـلطانٍ ورحمَةٍ ، وثم يعـودُ مُلـكاً ورحمَةً، ثم يعودُ جَبرِيَّـةً فتتكادَمون تكادُمَ الحميـرِ)[2]، فالذي يظهَرُ ـ واللـه أعلم ـ أنّ التّفصيلَ المُشـارَ إليه فيمـا رواه الحاكم أنّ النُّبـوَّةَ والرَّحمَةَ عَصرُ صَـدرِ الرِّسـالَةِ، ثُمَّ الخلافَةُ الرَّاشِـدَةُ ، ثم يرجِـعُ الأمرُ من مفهومِ اجتمـاعِ كَلِمَتِها

---

(١) مسند أحمد (١٨٩٠٣).

(٢) المستدرك (٨٤٥٩).

إلى حِفظِ بَيضَةِ الإسلامِ واستمرارِ رايةِ الجِهادِ وإن كان القرارُ معلولاً بِعِلَّةِ المُلكِ العضوضِ خلال العَهدِ الأُمَويِّ والعَبَّاسِيِّ، ففيها مرحلَةٌ تُدعى (سُلطاناً ورحمةً) ثم تعودُ مُلكاً ورحمةً، تشمَلُ آخِرَ المرحلَةِ الأُمَوِيَّةِ وأوّلَ عَهدِ المرحلَةِ العَبَّاسِيَّةِ، ثم يعودُ جَبرِيَّةً، وفيها ورد قولُهُ: ثم تتكادَمون تكادُمَ الحميرِ، ثم تتحوَّلُ بعدُ إلى مرحلَةِ الانهيارِ وضَعفِ الدَّولَةِ.

وقد ربط سيِّدُنا عُمَرُ في هذا الحديثِ وبين (الجهادِ والغَزوِ في سبيلِ اللهِ) وكأَنَّهُ يُشيرُ واللهُ أعلَمُ إلى أنَّ مَنهَجَ النُّبُوَّةِ في أحَدِ معانيه قائِمٌ بالجِهادِ في سبيلِ اللهِ، وفيه مَلحَظٌ أهمِّيَّةِ الدِّفاعِ عن بَيضَةِ الإسلامِ في كُلِّ دولةٍ إسلاميَّةٍ ونظامٍ، وإنَّ ضَعفَ الدَّولَةِ بِضَعفِ جِهادِها، أو ضَعفِ رِجالِ قَرارِها الشَّرعِيِّ، فَقِيامُ الجِهادِ كِشِعارٍ فِعليٍّ أمام الأعداءِ والأضدادِ مع حِفظِ كَيانِ بَيضَةِ الإسلامِ والمُحافَظَةِ على الشّعائِرِ واحتِرامِ المشاعِرِ يُقيمُ الحَدَّ المقبولَ من مِنهاجِ النُّبُوَّةِ في المرحلَةِ.

حديث (الأئمة بعدي اثناعشر كلهم من قريش)

وتتقيَّدُ بعضُ مراحِلِ المُلكِ العضوضِ بمعنى من معاني القَبولِ النِّسبِيِّ أيضاً كما هو في النَّصِّ بِوُجودِ أُمَراءِ قُرَيشٍ من قوله ﷺ: «لا يزالُ أمرُ أُمَّتي صالحاً حتى يمضِيَ اثنا عَشَرَ خليفةً كُلُّهم من قُرَيشٍ». وفي روايةٍ: «لا يزالُ هذا الأمرُ قائماً»، وفي روايةٍ «عزيزاً» حتى يكون اثنا عشرَ خليفةً كُلُّهم من قُريشٍ، وحديثُ: «لا يزالُ هـذا الأمرُ عزيزاً يُنصَرُون على من ناوَأَهم عليه اثنا عَشَرَ خليفةً كُلُّهم من قُرَيشٍ» متفق عليه[1].

وفي روايةٍ: (لا يزال هذا الأمرُ ماضياً) (لا يزالُ الإسلامُ عزيزاً) وفي روايةٍ (لا يزالُ هذا الأمرُ صالحاً) إلى اثني عَشَرَ خليفةً، وقد تناوَلَ الإمامُ السُّيوطِيُّ والقاضي عياضُ

(١) البخاري (٧٢٢٢) ومسلم (٤٨١٥).

وغيرهم شرحَ هذا الحديثِ وغيرِهِ واعتبروا الأمرَ قائماً من عصرِ الخلافَةِ الرّاشِدَةِ وما بعدَها[1]. وأنّ آخِرَ هؤلاءِ الأمراءِ هو الإمامُ المهدِيُّ في آخِرِ الزّمانِ.اهـ.

تحديد الأمراء الاثني عشر ومراحلهم

قلتُ ـ والله أعلم: لا يُستفادُ من الأحاديثِ معنى الأُمَراءِ الاثنَي عشر أنّ آخِرَهم الإمامُ المهديُّ لمُخالَفَةِ هذا الأمرِ واقِعَ النَّصِّ ذاتِهِ، فالأمراءُ الاثنا عَشَرَ كُلُّهم مِن قُرَيشٍ خلال مراحِلِ الحُكمِ العضوضِ ويَنتَهي حَسَبَ الاستقراءِ للأحاديثِ بِهَجمَةِ التَّتارِ وإسقاطِ الخليفَةِ العَبَّاسيِّ على يدِ هولاكو، ويستَمِرُّ الأمرُ بعد ذلك عُتُوّاً وجَبرِيَّةً كما عبر عنه ﷺ: ثم يكونُ الهَرْجُ. و(العُتُوُّ) و(الجَبرِيَّةُ) و(الهَرْجُ) لا يستَقيمُ مع (بقاءِ أمرِ الإسلامِ عزيزاً).

مرحلة الهرج والانفصام

وينقَطِعُ الأمرُ عن أُمَراءِ قُرَيشٍ لانقطاعِ نَسَقِ الدَّولَةِ الواحِدَةِ وتحوُّلِ الأمرِ إلى دُوَيلاتٍ مُمَزَّقَةٍ، فتكونُ مرحلةُ الخلافَةِ لأُمَراءِ قُرَيشٍ مُقَسَّمَةً على عهدِ الخِلافَةِ الرّاشِدَةِ وعهدِ بني أُمَيَّةَ وبعضِ عَهدِ بني العَبَّاسِ، بِصَرفِ النَّظَرِ عن الأسماءِ وسلامَةِ التَّوجُّهِ العامِّ أو عدم سلامَتِهِ، ثم مرحلةُ الهَرْجِ المُسَمَّاةِ في الحديث، وتأتي بعدها مرحَلَةُ الدَّولَةِ العُثمانِيَّةِ راعِيَةُ الخلافَةِ الإسلامِيَّةِ الأخيرَةِ في بعضِ تَنَفُّساتِ المرحلةِ إلى عهدِ الخليفةِ عبدِالحميدِ الثّاني[2]، أما ما بعدها فمرحلَةُ غُثاءٍ

---

(١) قال القاضي عياض: لعل المراد بالاثني عشر في هذه الأحاديث وما شابهها أنهم يكونون في مدة عزة الخلافة وقوة الإسلام واستقامة أموره والاجتماع على من يقوم بالخلافة.

(٢) ارتبطت الدولة العثمانية بالخلافة على مراحل:

الأولى: مرحلة استعادة شرف الدولة الإسلامية بالجهاد في سبيل الله من عهد المؤسس طغرل بك إلى عهد السلطان بايزيد.

الثانية: مرحلة حفظ بيضة الإسلام وإقامة شعيرة الجهاد في سبيل اللـه والانطواء تحت راية الخلافة العباسية وتبدأ بانتصار السلطان بايزيد الأول في معركة نيكوبولي في بلغاريا وفرنسا ووصول أخبار الانتصار إلى مصر ومنها إلى الخليفة العباسي المتوكل والذي أرسل

جوابا وتشريفا وخلعة وسيفا إلى بايزيد، ومعناه الاعتراف ببايزيد سلطانا تحت إمرة الخليفة، وبذلك أصبح بايزيد أول عثماني يحمل لقب سلطان في آل عثمان باسم الخلافة.

الثالثة: عندما أمر السلطان المملوكي (جقمق) باسم الخلافة العباسية أن يذكر اسم السلطان مراد الثاني في خطبة الجمعة ويدعى له بعد الخليفة العباسي كما يدعى لشهداء الجنود العثمانيين بعد انتصارات مراد الثاني على شواطئ البحر الأسود على الأوروبيين عام ٨٤٨ هـ (١٤٤٤م).

الرابعة: بعد انتصار السلطان محمد الفاتح عام ٨٧٤ هـ (١٤٥٣ م) وفتح مدينة الفسطنطينية وتسميته لها (إسلامبول) أي: مدينة الإسلام، وإرساله الرسائل إلى عواصم بلاد الإسلام بالانتصار ومنها رسالة إلى شريف مكة وقراءة الرسالة أمام الكعبة ودعاء المسلمين للفاتح بالنصر والتأييد.

الخامسة: عند تولي السلطان سليم الأول مقاليد الدولة في ٩٣٣ هـ (١٥١٢ م) ومد نفوذ الدولة إلى كثير من البلاد الأوروبية ودفاعه المستميت عن البلاد العربية أمام هجمات البرتغال ثم مساندته للمماليك في ذلك، واستقرت به الشام ومصر حتى جرى الخلاف مجراه بين المماليك والسلطان سليم ونشبت الحرب مع السلطان الغوري وانتهت في رجب ٩٢٢ هـ بمعركة مرج دابق التي قتل فيها السلطان المملوكي الغوري وانتصر سليم الأول وتوجه إلى مصر واستولى عليها وأنهى حكم المماليك واجتمعت له رايات الجميع وأرسل شريف مكة أبونمي ولده إلى القاهرة ومعه مفاتيح مكة والمدينة (الكعبة والحجرات الشريفة) اعترافا بالخلافة العثمانية.

وعاد السلطان سليم الأول إلى إسلامبول ومعه الخليفة المتوكل وقاضي قضاة مصر وجملة من الوجهاء والعلماء، وأقيم حفل التنازل من الخليفة المتوكل وتولية الخليفة العثماني سليم الأول في جامع أبي أيوب الأنصاري ، وقام الخليفة المتوكل بإلباس الخليفة العثماني الخلعة وقلده السيف على مرأى ومسمع من علماء الدولة العثمانية وعلماء مصر والشام وانتقلت الخلافة رسميا من العباسيين إلى العثمانيين وأصبح سليم الأول أول خليفة عثماني يحكم دولة الخلافة الإسلامية ، واستمر من بعده الخلفاء بين القوة والضعف حتى عهد الخليفة عبدالحميد الثاني وكان آخر خلفاء الدولة العثمانية، وأما بعده فكان ثلاثة سلاطين تحت إمرة الاتحاديين ومن معهم من يهود الدونمة.

مرحلة المهدي مستقلة بذاتها عن مدلول مرحلة الأمراء الاثني عشر

أمـا مرحلَةُ الإمامِ المهدِيِّ فهي علامَةٌ مُسـتَقِلَّةٌ بِذاتِهـا لا تَرتَبِطُ بحديثِ الأُمَراءِ الاثنا عَشَـرَ من قُرَيشٍ لأنَّ مرحلَـةَ الهَرَجِ الآتِيَةِ بين المرحلتَيـنِ قد فَصَلت بينَهُما، ويؤيِّـدُ هـذا المعنى حديثُ «لا يزالُ هـذا الأمرُ قائماً حتى يَمضِي اثنا عَشَـرَ خليفَةً كُلُّهم من قُريشٍ» وعند أبي داود زيادَةُ: «فلمّا رجع إلى مَنزِلِه ﷺ أَتَتهُ قُرَيشٌ قالوا: ثـم يكـونُ ماذا؟ قـال: ثم يكونُ الهَرَجُ؟»[1]، وقد أشـار السُّـيوطِيُّ إلـى أن مرحلَةَ الهَرْجِ هي الفِتَنُ المُؤذِنَةُ بِقيامِ السّاعةِ من خُروجِ الدَّجّالِ وما بعده.

مبتدأ مرحلة الهرج المنصوص عليه بالهجمات المغولية والصليبية

والأقرَبُ إلى فهمِ النُّصوصِ واللهُ أعلَمُ أنّ الهَرْجَ كان سـابقاً لذلك بكثيرٍ ورُبَّما صَحَّ الاسـتقراءُ أن مُبتَدَأَ الهَـرْجِ بهَجماتِ التَّتارِ وتيمورلنكَ والصَّليبِيِّين وانقسـامِ العالَـمِ الإسـلامِيِّ إلى دُوَيـلاتٍ مُتنازِعَـةٍ ومُتَحارِبَةٍ، أي: بدأت المرحلةُ بِسُـقوطِ الخِلافةِ العَبّاسِيَّةِ على يَدِ التَّتارِ وانتهت بِفَتحِ القُسطنطينِيَّةِ، وتبدأ مرحلَةُ حِفظِ بَيضَةِ الإسلامِ وعُلُوِّ رايةِ الخلافَةِ الإسلاميَّةِ مرَّةً أخرى على يَدِ السُّلطانِ سليمٍ الأوَّلِ عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م، واستمرت حتى نهايةِ دَولةِ الخلافَةِ العُثمانِيَّةِ بِسُقوطِ السُّلطانِ عبدالحميدِ الثّاني، على ضَعفٍ ووَهَنٍ في بعضِ المراحلِ. أما عهدُ الإمامِ المهديِّ فَمُتَنَفَّسٌ مُستَقِلٌّ بذاتِهِ له أحاديثُهُ الخاصَّةُ وفِقهُهُ المُناسِبُ واللهُ أعلَمُ.

ومـن أحاديثِهِ: «لـو لم يَبقَ من الدنيا إلا يومٌ لطوَّلَ اللـهُ ذلك اليومَ حتى يُبعَثَ فيه رَجُلٌ مِنِّي أو من أهلِ بَيتي يُواطِئُ اسـمُهُ اسمِي واسمُ أبيه اسمَ أبي» زادَ في حديثٍ آخَرَ: (يملأُ الأرضَ قِسطاً وعَدلاً كما مُلِئَت ظُلماً وجَوراً)»[2].

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٨٣).

(٢) سنن أبي داود (٤٢٨٤)، وتتلخص حصانة هذه المراحل في ثلاثة أنواع:

١- حصانة مرحلة الخلافة الراشدة، بالنص «ثلاثون عاما» وبالاجتهاد وبالمواقف.

٢- حصانة مرحلة الملك العضوض، بحفظ بيضة الإسلام وقيام الجهاد في سبيل الله.

سقوط قرار الخلافة على يد التتار علامة وسطى

(١٩) سُقوطُ قرارِ الخلافةِ بِهَجمَةِ التَّتارِ

وهذه المرحلة من أشَدِّ المراحلِ في تاريخِ الإسلامِ، حيثُ تجَزَّأ فيها قرارُ الأُمَّةِ إلى دُوَيلاتٍ وإماراتٍ صغيرَةٍ، وكان مُبتَدأُ ذلك بِدُخولِ التَّتارِ عاصِمَةَ الخِلافَةِ بغدادَ سنة ٥٦٥ هـ وقَتلِ الخليفةِ العبّاسِيِّ وحَرقِ البِلادِ وقَتلِ العُلَماءِ والصّالحين وتدميرِ المكتباتِ العِلمِيَّةِ والمساجِدِ وما تلاها من خرابٍ ودمارٍ، قال السُّيوطِيُّ في «تاريخ الخُلفاءِ» عن هذا الخَبَرِ المُفجِعِ: هو حديثٌ يأكُلُ الأحاديثَ وخبرٌ يطوي الأخبارَ وتاريخٌ يُنسي التَّواريخَ ونازِلَةٌ تُصَغِّرُ كُلَّ نازِلَةٍ وفادِحَةٌ تطوفُ الأرضِ وتملَؤُها ما بين الطُّولِ والعَرضِ. اهـ. وفي ذلك يقولُ ﷺ: «إنّ بني قنطورا أوَّلُ من سَلَبَ أُمَّتي مُلكَهم» أخرجه الطبرانيُّ من حديثِ مُعاوِيَةَ، قال ابنُ حَجَرٍ في «الفتحِ»: وكأنه يُريدُ يقول: «أُمَّتي» أُمَّةُ النَّسَبِ لا أُمَّةُ الدَّعوَةِ. اهـ. وفَتَحَت هذه المِحنَةُ والفِتنَةُ أبوابَ الفِتَنِ السَّابِقَةِ واللاحِقَةِ، حتى عَودةِ القَرارِ الإسلاميِّ بِبَني عُثمانَ سنة ٨٧٤ هـ.

وبين هاتَينِ المرحَلتَينِ وقعت بعضُ الوقائعِ الإيجابيَّةِ كانتصارِ صلاحِ الدِّينِ الأيُّوبِيِّ على الصَّليبِيِّينَ وفتحِ بَيتِ المقدِسِ، وكاجتماعِ أهلِ مِصرَ والشّامِ على تعيينِ السُّلطانِ قُطزَ الذي لُقِّبَ بالمَلِكِ المُظَفَّرِ لمُقاوَمَةِ التَّتارِ[١] واستطاعَ بِحِكمَةِ قادَتِهِ واجتماعِ كَلِمَةِ العُلَماءِ والرَّعايا هَزيمَةَ التَّتارِ في معرَكَةِ عَينِ جالوتَ الشَّهيرَةِ في ١٥ رمضانَ سنَةَ ٦٥٨ هـ، ثم تعيَّنَ السُّلطانُ بيبرسُ وتسمَّى بالمَلِكِ الظَّاهِرِ،

٣- حصانة مراحل الدويلات والغثاء، ليس حصانة للقرار، وإنما بحفظ الإسلام في الخويصة والخاصة، وبقاء الخير في الأمة.

(١) أجمع المؤرخون على أن المماليك بقيادة السلطان قطز قد انتصروا على المغول انتصارا عالميا في معركة (عين جالوت) حيث عجزت كل من الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومتهم، وبهذا اكتسبت دولة المماليك مركز الصدارة بين دويلات العالم العربي والإسلامي آنذاك.

وقـد تمكَّنَ بيبرسُ من قبلُ من أن ينتَصِرَ على جُيوشِ الصَّليبيِّين الذين تحالَفوا مع التَّتارِ واسـتردَّ منهم المُدَن العديدَةَ في الشَّامِ وأقام دَولةً قوِيَّةً للمماليكِ حتى وفاتِهِ سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٨ م) .



معركة عين جالوت ، المصدر أطلس التاريخ الحديث ص٨

وهكـذا ظلَّت بلادُ المسـلمين مُجَـزَّأةَ القَـرارِ عديمَةَ الاسـتقرارِ تنخُرُها الآفاتُ والفِتَنُ الفِكرِيَّةُ القديمَةُ والجديدةُ كفِتنَةِ القرامِطَةِ والمُعتَزِلَةِ والباطِنِيَّةِ والزَّرادِشتِيَّةِ والمودِكيَّـةِ والمانَويَّـةِ والرافِضَـةِ والنَّواصِـبِ والسَّـبَئِيَّةِ والهندوسِـيَّةِ والقاديانِيَّـةِ والبهائِيَّةِ وغيرِها.

ويصـدُقُ فيهـا قَولُ مَن لا ينطِـقُ عن الهـوى ﷺ فيما ترويهِ عائِشَـةُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرج ذاتَ يَومٍ نِصفَ النَّهارِ مُشتَمِلاً بِثَوبِهِ مُحمَرَّةٍ عيناه وهو ينادي بأعلـى صوتِهِ: «أيُّهـا النَّاسُ، أظلَّتكُـم الفِتَنُ كقِطَعِ اللَّيـلِ المُظلِمِ، أيُّهـا النَّاسُ، لو تعلمون ما أعلَمُ لبَكَيتُم كثيراً وضَحِكتم قليلاً»[١].

وعـن أبـي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّ رسـولَ اللـهِ ﷺ قال: «لـو تعلمون ما أعلَـمُ لبَكَيتم كثيـراً ولضَحِكتُم قليلاً، يظهَرُ النِّفاقُ وتُرفَعُ الأمانَةُ وتُقبَضُ الرَّحمَةُ ويُتَّهمُ الأمينُ، ويؤتَمَنُ غيرُ الأمينِ، أناخُ بكم الشُّرْفُ الجُونُ) قالوا: وما الشُّرفُ الجُونُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ» رواه ابن حبان[٢].

والشُّـرفُ -بِضَمِّ الشِّينِ وسُكونِ الرَّاءِ وبالفاءِ- جمعُ شارِفٍ وهي النَّاقَةُ المُسِنَّةُ، والجُونُ: السُّـودُ، قال ابنُ الأثيرِ: (شـبَّهَ الفِتَنَ في اتِّصالها وامتدادِ أوقاتِها بالنُّوقِ المُسِنَّةِ السُّودِ)[٣] ويُروَى هذا الحديثُ بالقافِ -يعني الفِتَنِ التي تجيءُ من جِهَةِ المشرِقِ[٤].

أحاديث الفتن

وحديثُ «سـتأتوني أفناداً يُفنِي بعضُكم بعضاً» وقـد رواهُ ابنُ حِبَّانَ في صحيحه ولفظُهُ قال: «كُنَّا جُلوساً عند رسولِ الله ﷺ وهو يُوحى إليه فقال: «إنِّي غيرُ لابِثٍ

(١) مسند أحمد (٢٥٢٥٥).

(٢) صحيح ابن حبان (٦٧٠٦).

(٣) النهاية (٢: ١١٤٢).

(٤) إتحاف الجماعة (١: ٦٦).

فيكـم ولسـتُم لابِثين بعدي إلا قليلاً ، وستأتوني أفناداً يُفنـي بعضُكم بعضاً، وبين يدي السّاعةِ موتانٍ شديدٌ وبعده سَنَواتُ الزَّلازِلِ»[1].

(٢٠) قيامُ دَولةِ الخلافَةِ الإسلاميَّةِ الأخيرَةِ وفتحُ القُسطَنطينِيَّةِ قُبيلَ المرحلةِ الغُثائِيَّةِ:

فتح القسطنطينية علامة وسطى

ومن العلاماتِ الوُسطى في آخِرِ مراحِلِ التَّمزُّقِ والدُّويلاتِ عودَةُ القرارِ الإسلامِيِّ العالَمي، وفتحُ مدينةِ القُسطَنطينِيَّةِ التي وَعَدَ ﷺ المسلمين بِفَتحِها.

وكان مُبتَدَأُ عودَةِ القرارِ الإسلاميِّ على يدِ الأتراكِ العُثمانِيِّين الذين دخلَ آباؤُهم إلـى الإسـلامِ ، وفيهم ينطَبِقُ قَولُ النَّبيِّ ﷺ بعد ذكـرِهِ لِقِتالِ التُّركِ قال: «وتَجِدون مِـن خَيرِ النَّاسِ أشـدَّهم كراهِيَةً لهذا الأمـرِ حتى يَقَعَ فيه، والنّـاسُ مَعادِنُ خِيارُهم في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهم في الإسـلامِ»[2]، وكان من خِيارِهم بلا شَـكٍّ مُؤسِّسُ الدَّولَةِ العُثمانيَّة[3].

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٦٤٦) .

(٢) صحيح البخاري (٣٥٨٨).

(٣) عثمـان بن طغرل الـذي وصفته مراجع التاريـخ بالعدل والحكمة والوفاء والصبر والشـجاعة، ولم يؤسـس عثمان دولته حبا في السـلطة وإنما حبا في نشر الإسـلام، ويقول أوغلو: لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانا عميقا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سـبيل الله لإعـلاء كلمـة اللـه ، وقـد كان مندفعا بكل حواسـه وقواه نحـو تحقيق هذا الهـدف. اهـ. وفي التاريـخ العثماني المصور عبارات هامة في وصية عثمان لأبنائه وأصدقائه تبرز مقومات دولته الإسـلامية الثابتة، فهاهو يقول: وارعوا علو الدين الإسـلامي الجليل بإدامة الجهاد في سـبيل الله، أمسـكوا راية الإسـلام الشـريفة في الأعلى بأكمل جهاد، اخدموا الإسـلام دائما، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله. وفي كتاب «مأساة بني عثمان» نجد وصيـة أخـرى لولده يقول فيها: يـا بني إني أنتقل إلـى جوار ربي وأنا فخور بك بأنك سـتكون عادلا في الرعية مجاهدا في سبيل الله لنشر دين الإسلام . يا بني.. أوصيك بعلماء الأمة .. أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم وانزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير. يابني إياك أن تفعل

وفيها أي: في مرحلَةِ العُثمانِيِّين الأتراكِ تحقَّقَ أيضاً وعدُ النَّبيِّ ﷺ بِفَتحِ القُسطَنطِينيَّةِ على يَدِ مُحَمَّدٍ الفاتِحِ ، السُّلطانِ العُثمانِيِّ السَّابعِ في سِلسِلَةِ آل عُثمانَ، والذي تَمَكَّنَ بِفَضلِ اللهِ وحُسنِ إعدادِهِ للجُيوشِ وواسِعِ هِمَّتِهِ وقُوَّةِ عزيمَتِهِ من بَدءِ حَملَتِهِ العسكَرِيَّةِ في ١٣ رمضان سنة ٨٠٥ هـ مُبتَدِئاً بِحِصارِ المدينَةِ والإعدادِ لاقتِحامِها حتى تَمَكَّنَ من ذلك وتحقَّقَ الفَتحُ على يَدِهِ، وجعلَها عاصِمَةَ الدَّولَةِ العُثمانِيَّةِ وأطلَقَ عليها لَقَبَ «إسلام بول» أي: مدينةَ الإسلامِ. ويُعتَبَرُ فتحُ القُسطنطِينِيَّةِ من أَهَمِّ أحداثِ التّاريخِ العالَمِي وخُصوصاً تاريخَ أوروبا وعلاقتِها بالإسلامِ.

وتحقَّقَ على يَدِهِ النَّصرُ الموعودُ على لسانِ رسولِ اللهِ ﷺ في قوله: «لَتُفتَحَنَّ القُسطَنطِينِيَّةُ، فَلَنِعمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعمَ الجَيشُ جَيشُها» رواه أحمد [(١)]. وفي روايةٍ : «لَتُفتَحَنَّ القُسطَنطِينِيَّةُ على يَدِ رَجُلٍ، فَلَنِعمَ الأميرُ أميرُها ولَنِعمَ الجيشُ ذلك الجيشَ»[(٢)]. واستَمَرَّ بعدها في فَتحِ بِلادِ الصِّربِ واليونانِ ورومانيا وألبانيا والبوسنةِ والهرسك حتى وفاته في ربيع الأول عام ٨٨٦ هـ ودُفِنَ بالأَستانَةَ .

أمرا لا يرضي الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة فإنهم سيدلونك على الخير، واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا . اهـ.انظر «الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط» ص٥٢. وكانت هذه الوصية منهاجا سار عليه العثمانيون منذ مبتدأ أمرهم حتى عهد الانهيار والضعف.

(١) مسند أحمد (١٩٤٧١).

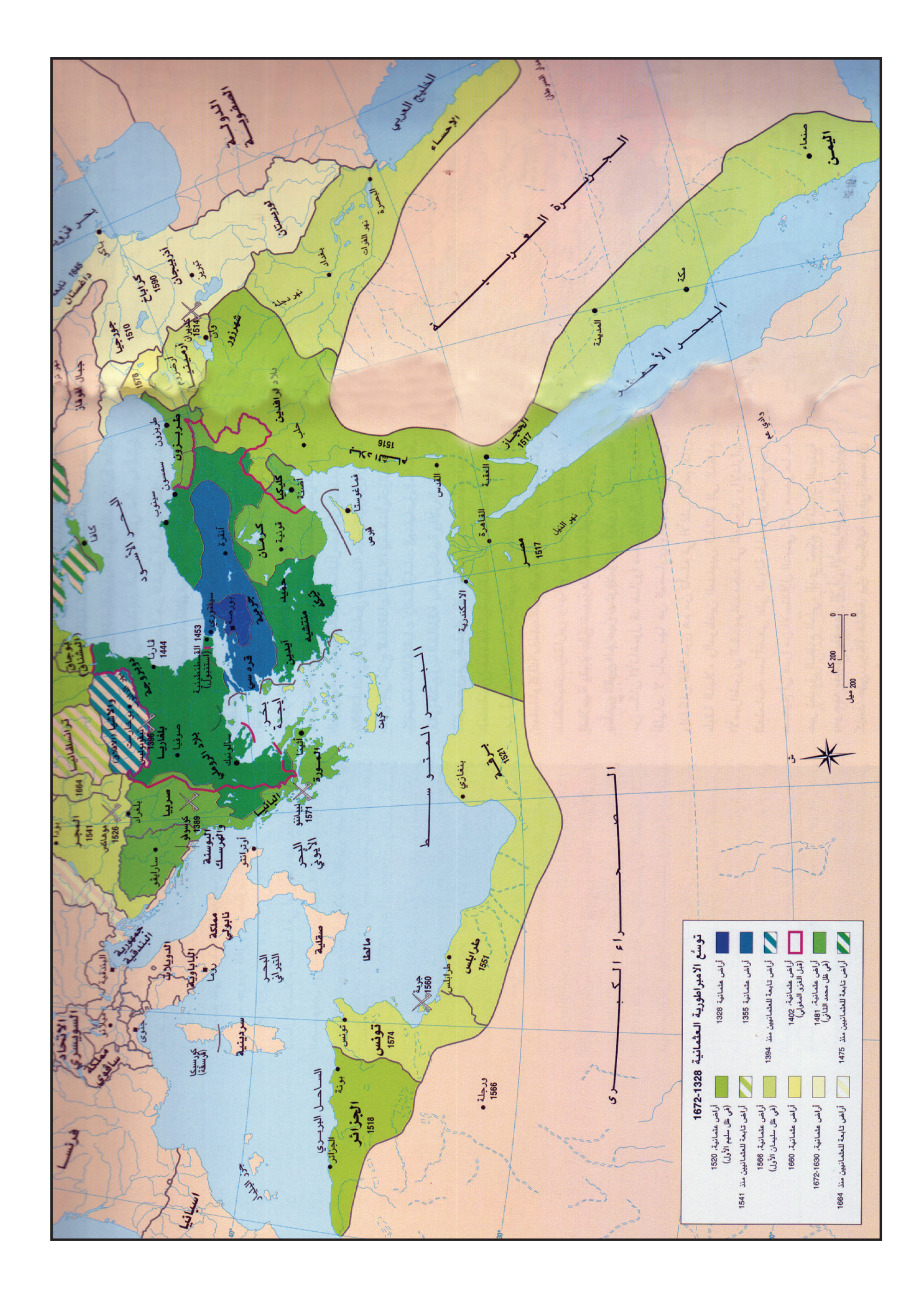
(٢) ولعل الوقوف عند هذا الحديث الشريف وما يحمله من معان عظيمة في شرف المعركة والمرحلة والجيش والأمير يعيد لنا شيئا من شرف هذه الرسالة العظيمة وما يحمله فيها فقه التحولات من بشائر وإشارات يجري تحقيقها على أيدي جنود الله في الوقت المحدد بأمر الله ، ومن ثم يمكن متابعة قراءة وقائع المعارك والفتوحات وإسقاط دلالاتها على عظمة النصوص النبوية المعبرة عن سير الحركة التاريخية المرتبطة بشرف الديانة.

وكتبَ بعضُ الأوروبيِّين عن وفاته: ماتَ النَّسرُالكبيرُ. وأوصى الفاتِحُ ابنه بايزيدَ بوَصِيَّـةٍ عظيمَةٍ قال فيها: ها أنذا أموتُ، ولكني غير آسـفٍ لأني تارِكٌ خَلَفاً مِثلَكَ. كن عادِلاً صالِحاً رَحِيماً ، وابسُـط على الرَّعِيَّـةِ حِمايَتَك بِدُون تمييزٍ، واعمَل على نشرِ الدِّينِ الإسلامِيِّ، فإنَّ هذا هو واجِبُ المُلوكِ على الأرضِ، قَدِّمِ الاهتمامَ بِأمرِ الدِّين على كُلِّ شَـيءٍ، ولا تَفتُر في المُواظَبَةِ عليه، ولا تستَخدِم الأشخاصَ الذين لا يهتَمُّون بِأمرِ الدِّين ولا يَجتَنِبون الكبائِرَ وينغَمِسـون في الفُحشِ، وجانِبِ البِدَعَ المُفسِـدَةَ، وباعِـد الذيـن يُحَرِّضونك عليها ، وَسِّـع رُقعَةَ البِـلادِ بالجِهادِ واحرُس أمـوالَ بَيـتِ المالِ من أن تتبَدَّدَ، إيّاكَ أن تَمُدَّ يَدَكَ إلى مالِ أَحَدٍ من رَعِيَّتِك إلا بِحَقِّ الإسلامِ، واضمَن للمُعوزين قُوتَهُم، وابذُل إكرامَكَ للمُستَحِقِّين .

وبمـا أنَّ العُلَمـاءَ هـم بِمَثابَـةِ القُـوَّةِ المبثوثـةِ في جِسـمِ الدَّولَـةِ، فَعَظِّـم جانِبَهم وشَجِّعهم ، وإذا سَمِعتَ بِأَحَدٍ منهم في بَلَدٍ آخَرَ فاستَقدِمهُ إليكَ وأكرِمهُ بالمالِ.

حذارِ حذارِ ، لا يغرُّنَّكَ المالُ ولا الجُندُ، وإياك أن تُبعِدَ أهل الشَّريعَةِ عن بابِكَ، وإيَّـاك أن تَميلَ إلى أيِّ عَمَلٍ يُخالِفُ أحكامَ الشَّـريعَةِ، فـإنَّ الدِّينَ غايَتُنا ، والهِدايَةَ مَنهَجُنا ، وبذلك انتَصَرنا.

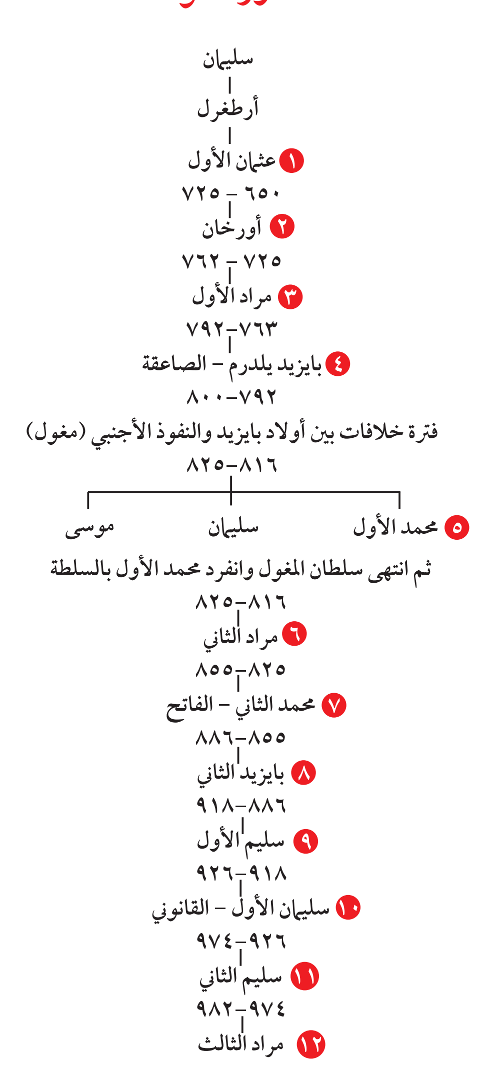
خُذ مِنِّي هذه العِبرَةَ: حَضَرتُ هذه البلادَ كَنَملَةٍ صغيرَةٍ، فأعطاني اللهُ تعالى هذه النِّعَمَ الجليلةَ، فالزَم مَسلَكي، واحذُ حَذوِي ، واعمَل على تعزيزِ هذا الدِّين وتَوقيرِ أهلِـهِ ولا تصرِف أموالَ الدَّولَةِ في تَـرَفٍ أو لهوٍ وأكثَرَ مِن قَدرِ اللُّزومِ فَإِنَّ ذلك مِن أعظَمِ أسبابِ الهلاكِ.



مخطط توسع الدولة العثمانية ، أطلس التاريخ الحديث ص٦٢

سلاطين آل عثمان

«دور القوة»



المشجر العام لآل عثمان في دور القوة ، المرجع السابق ص٢٦



محمد الثاني (الفاتح)



عثمان الأول



السلطان بايزيد



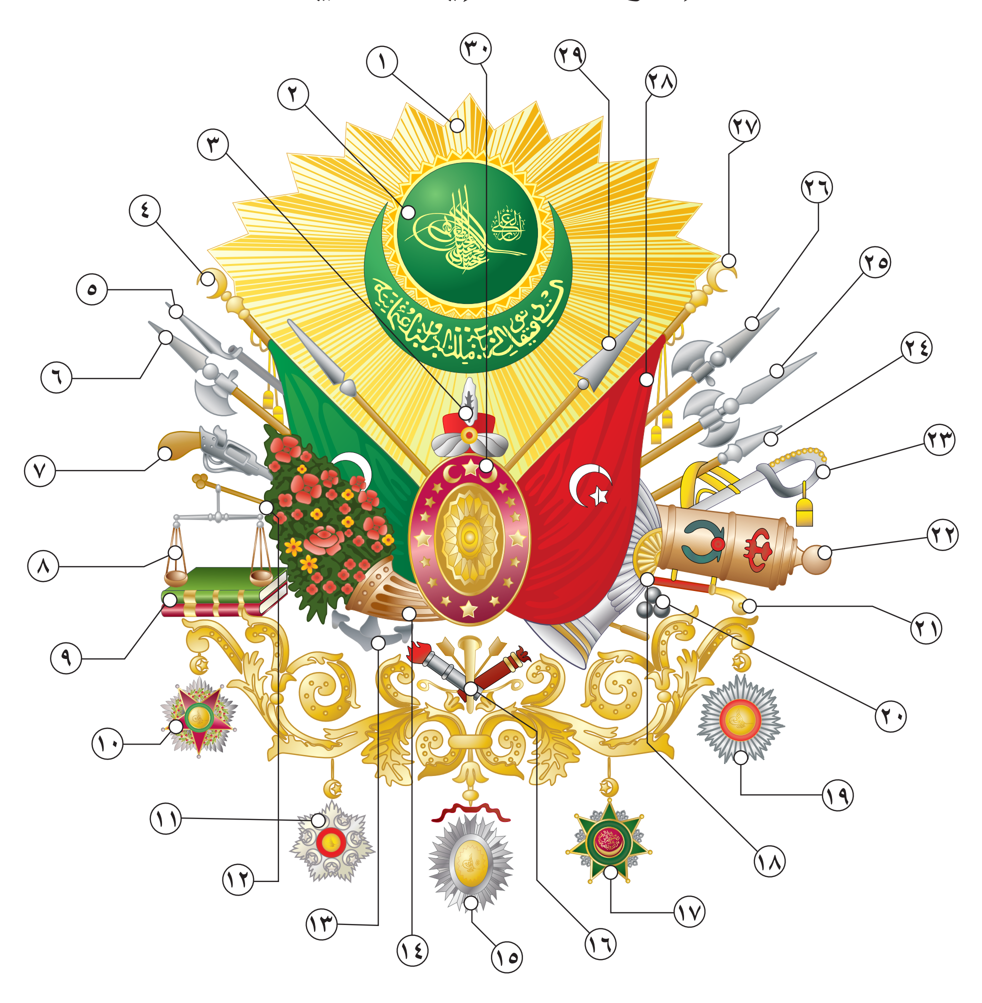
سليمان القانوني



محمد السادس

أخذت الصور عن المصدر السابق ص٦٤-٦٥

شِعَارُ الدَّوْلَةِ العَلِيَّةِ العُثْمَانِيَّةِ



شعار الدولة العثمانية ، صمم أصله واعتمده السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٨٨٢ م
ترجم الشرح عن اللغة التركية ، للاستزادة انظر المادة في موسوعة wikipedia.com باسم
Osmanli-nisani

١- نموذج للشمس حول الطغراء (التوقيع) وتعبر عن تشبيه السلطان بالشمس .

٢- طغراء السلطان عبدالحميد الثاني، وفي الهلال الأخضر مكتوب بالتركية عبارة قريبة من : توفيقات الربانية ملك الدولة العثمانية.

٣- طربوش له طرة (ريشة): يعبر عن عثمان الغازي وعرشه.

٤- علم الخلافة الأخضر.

٥- بندقية ذات حربة مدببة كانت بمثابة سلاح أصيل للجيش العثماني هي والنظم الحديثة.

٦- فأس مزدوج، له جهتان. ٧- طبنجة (مسدس) لها مقبض.

٨- ميزان: في الأساس هو الرمح والعصا، ويمثل العدالة.

٩- في الأعلى: القرآن الكريم، وفي الأسفل: القوانين.

١٠- وسام الامتياز، كان يمنح لرجال العلم الذين يقدمون خدمات جليلة للدولة هم والإداريين والعسكريين.

١١- وسام عثماني قرره السلطان عبدالعزيز عام ١٨٦٢ م وكان يمنح لمن يوفق في خدمة الدولة.

١٢- الرمح (سلاح قديم) والعصا. ١٣- المرساة، شعار البحرية العثمانية.

١٤- نفير البركة. ١٥- وسام الافتخار. ١٦- قوس. ١٧- وسام مجيدي.

١٨- بوق: آلة للعزف من الفرق الموسيقية الحديثة.

١٩- وسام الشفقة، أوجده السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٨٧٨ م وكان يمنح للنساء اللواتي يقدمن خدمات للدولة والشعب في المحن والمصائب الكبرى.

٢٠- قذائف مدفعية (توجد على بعض الشارات). ٢١- سيف.

٢٢- قذيفة، تعبر عن فيلق المدفعية.

٢٣- سيف بدرع يدوي للاحتفالات، لم يكن سيفا تركيا تقليديا، وكان يستخدم من قبل الضباط في هذا الوقت. ٢٤- مزراق (رمح).

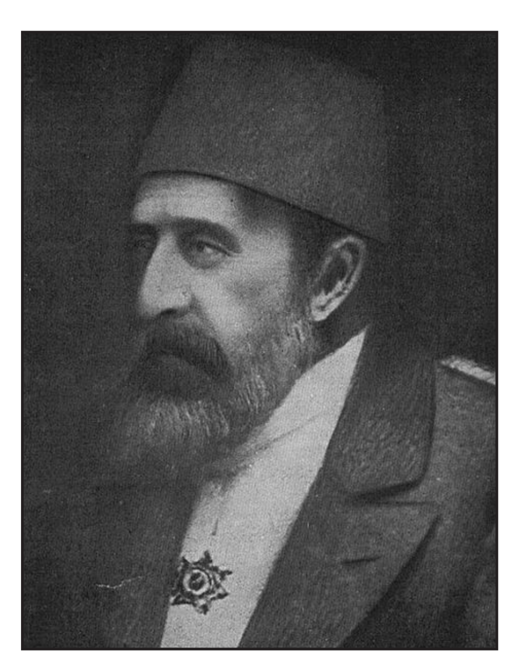
٢٥- بلطة مزدوجة، كانت تستخدم باعتبارها نموذجا للرفعة من قبل المنتسبين ذوي المراتب العليا من الجيش.

٢٦- فأس (بلطة) لها جانب واحد. ٢٧- البيرق.

٢٨- العلم العثماني، الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة هي راية بني عثمان، والراية الخضراء ذات الأهلة الثلاثة هي الراية الإسلامية.

٢٩- مزراق (رمح)، يرمز إلى ألوية المشاة الذين يحملون الرماح في العصور المتأخرة.

٣٠- درع ذهبي يحيط بالطغراء.



السلطان عبدالحميد الثاني ، السلطان ٣٤ للدولة العثمانية، تولى الحكم عام ١٨٧٦م ، حتى تنازله الإجباري ١٩٠٩ م ، ثم نفي إلى البلقان (اليونان) ومكث تسع سنين في المنفى حتى توفي عام ١٩١٨ م عن ستة وسبعين عاما رحمه الله ، دامت مدة حكمه ٣٣ عاما



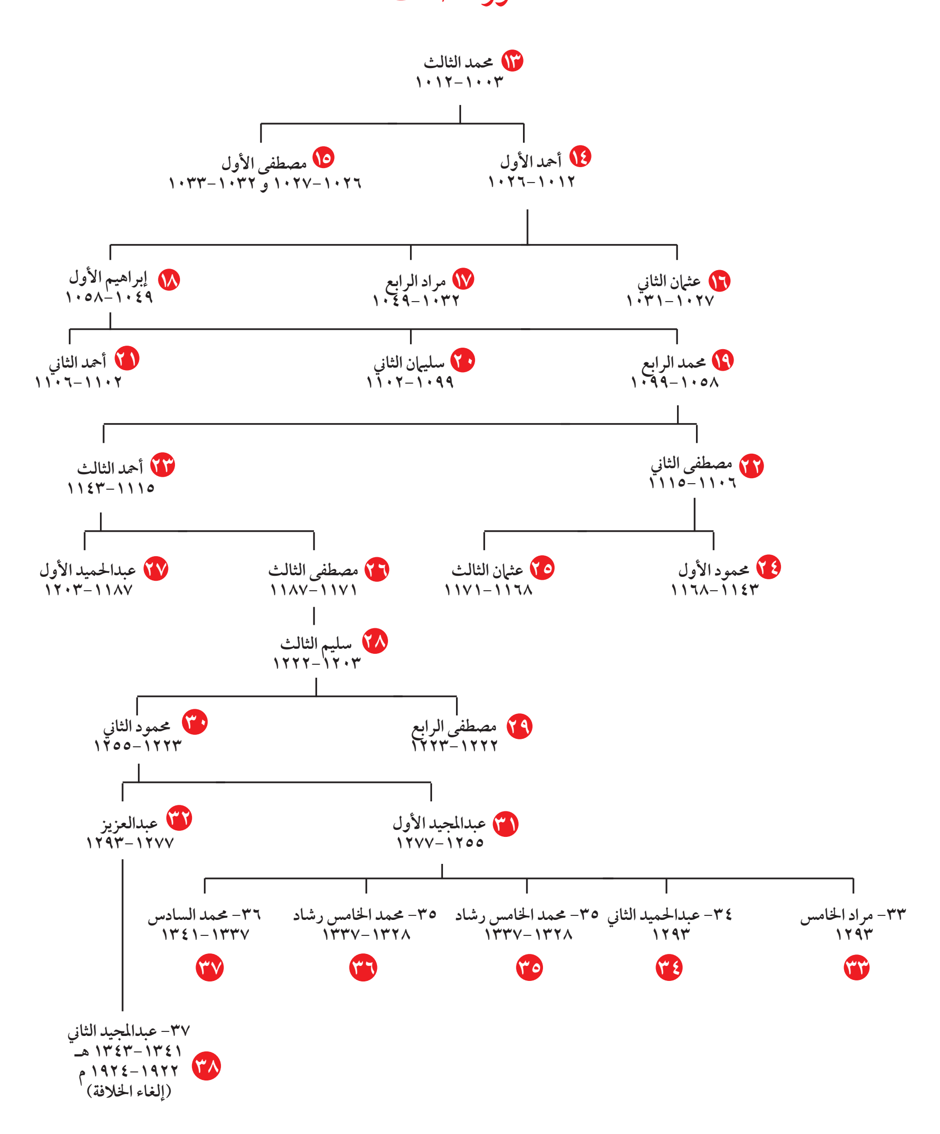
طغراء السلطان عبدالحميد الثاني، وهو نموذج من أختام سلاطين آل عثمان وتوقيعاتهم الرسمية، ونصه: المظفر دائما عبدالحميد بن عبدالحميد خان الغازي، المصدر: موقع tugra.org للباحث التركي إركان منسز

وظلَّـت الدَّولَـةُ العُثمانِيَّةُ رمزَ الفُتوحاتِ الإسـلامِيَّةِ واجتماعِ القرارِ الإسـلاميِّ خِـلالَ مراحِلِهـا المُتنامِيَـةِ ، ففتحت بلادَ القَرمِ وبلاد العَجَمِ مـن أرضِ فارِسَ بعد تمرُّدِهم، وفتحت المَجَرَ وغزت السَّواحِلَ الإيطاليَّةَ والفرنسيَّةَ والإسبانيَّةَ ، وطاردَ السُّلطانُ القانونيُّ البُرتغالِيِّين في مياهِ المُحيطِ الهندِيِّ وبحرِ العَرَبِ[1].

---

(١) قامـت دولـة البرتغـال عـام ١٤١٥ م بغـزو المغـرب الأقصى، وكانـت هذه بداية سلسـلة الغـزو البرتغالـي علـى الشـمال الإفريقـي، ثـم إلـى المحيط الأطلسـي والالتفـاف حول العالم الإسـلامي بدوافع صليبية تؤكدها مقولات بعض زعمائهـم وهو (البوكيرك) القائد البرتغالـي: نحـن علـى يقين لو انتزعنـا تجارة (ملقـا) هذه مـن أيديهم ـ أي: المسـلمين ـ لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين. اهـ. وقال: كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسـة للمسـلمين واقتحام المسجد النبوي وأخذ رفات النبي محمد رهينة لنساوم عليه العرب من أجل استرداد القدس. اهـ.

وهذا يظهر للباحث في الغزو البرتغالي أنه عامل مهم من العوامل التي دفعت البرتغاليين لارتيـاد البحـار والالتفـاف حـول العالم الإسـلامي مصدرين المراسـم والأوامر ورسـم الصليـب والمدفع كشـعار للحملات، واسـتعانوا فـي حملاتهم باليهود الذين اسـتخدموا كجواسـيس، ونجح البرتغاليون في خططهم وتمكنوا من السـيطرة على معابر التجارة في الساحل الإفريقي والخليج العربي وبحر العرب، وشهدت المناطق التي وصلوا إليها كثيرا من المجازر والتدمير والاعتداء على الحرمات ومنع المسلمين من الجمع وهدم المساجد عليهم، وقد واجه العثمانيون البرتغاليين بشجاعة نادرة وتمكنوا من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر والساحل الإفريقي والخليج العربي وبحر الهند وبحر العرب وخليـج عدن، وتـم طـرد البرتغاليين وإيقافهـم بعيدا عـن الممالك الإسـلامية والحد من نشـاطهم وحماية الأماكن المقدسـة. اهـ. بتصرف من «الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط» ص٢٦٠-٢٦٦.



المشجر العام لآل عثمان في دور الضعف ، أطلس التاريخ الحديث ص٦٣

عوامل الضعف والانهيار لبني عثمان

وهكذا استمرَّت دولَةً إسلاميَّةً عزيزةً لِعِدَّةِ قُرونٍ حتى سرى الضَّعفُ إلى الدَّولَةِ في أواخِرِ عَهدِها وبدأت أطماعُ الدُّوَلِ الأوروبِّيَّةِ بعد اكتشافِ رأسِ الرَّجاءِ الصَّالِحِ وظُهورِ الآلَةِ البُخارِيَّةِ، حتى تهيَّأت عوامِلُ الانهيارِ والسُّقوطِ بالأسبابِ التَّالِيَةِ:

(١) تأثُّـرِ عناصِرِ الدّولَةِ بالحضارَةِ الغَربِـيَّةِ والتمتُّعِ بالشَّـهَواتِ والرُّكونِ إلى الدَّعَةِ وتَركِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

(٢) اتِّصالِ المُفكِّرين والمُثَقَّفين المُسـلِمين بالأوربِّيِّـن، وكَثرَةِ البَعثَاتِ إلى أوربا والانغماسِ في مفاهيمِ الحُرِّيّاتِ الأوروبـيَّةِ.

(٣) تَغلغُلِ يهودِ الدّونمَةِ في الجمعيّاتِ والتّكتُّلاتِ السِّياسِيَّةِ، ووُصولِهِم من خلالِ الحِزبِيَّةِ إلى مواقِعِ القَرارِ، وتشـجيعِ هذه الجمعيَّاتِ على النُّمُوِّ واختراقِ الواقِعِ التقليدِيِّ.

بدء ظهور العلمنة: إفراط المسلمين في الانبهار بعلمانية الغرب

(٤) التأثُّرِ الأعمى بِسياسَـةِ القوميَّاتِ التي رَوَّجَ لها اليهودُ، كسياسَـةِ التَّتريكِ والتَّعريبِ وحَرَكَةِ الانفصالِ، وخاصَّةً في شُعوبِ البَلقانِ المسيحِيَّةِ.

(٥) تأثُّرِ العديدِ من الحُكَّامِ وبِطاناتِ البَلاطِ العُثمانيِّ والجُندِ بِدَعوَةِ العِلمانِيَّةِ «فَصـلِ الدِّينِ عن الدَّولَـةِ»، وهو ما كانت تُرَوِّجُ له الدُّوَلُ الأوروبِّيَّةُ إبَّانَ مرحلَةِ الثَّورةِ الصِّناعِيَّةِ من مفاهيمِ الحُرِّيَّاتِ والدِّيمقراطِيَّةِ ودَولَةِ البرلمانِ.

وقـد عـزَّزَ الخليفـةُ عبدُالحميـدِ الثّانـي دولَـةَ الخلافَـةِ إبّـانَ مرحلَـةِ خِلافَتِهِ بالإصلاحـاتِ العديـدةِ وواجَـهَ السِّياسَـةَ الأوروبِّيَّـةَ واليهودِيَّةَ بِثَبـاتٍ وحَزمٍ، واستطاعَ أن يُعيدَ لها التَّوازُنَ مُدَّةَ خِلافَتِهِ حتى تنازُلِهِ الإجبارِيِّ في السادس من ربيع الآخر عام ١٣٢٧ هـ (٢٧/ ٤/ ١٩٠٩ م) للاتحاديين.

بدء ظهور العلمانية وفصل الدين عن الدولة مع سقوط القرار الإسلامي

وبتنازُلِهِ القسـرِيِّ القائِمِ على الخِداعِ والحَبكَةِ اليهودِيَّةِ الدونمِيَّةِ دخل العالَمُ العَرَبِـيُّ والإسـلاميُّ مرحلَةً خطيرَةً في مسـتوى القرارَينِ : قـرارِ الحُكمِ وقَرارِ

العِلمِ، وظهرت آثارُ وتداعياتُ ما سُمِّي بالخِلافةِ المُدَونَمَةِ[1].

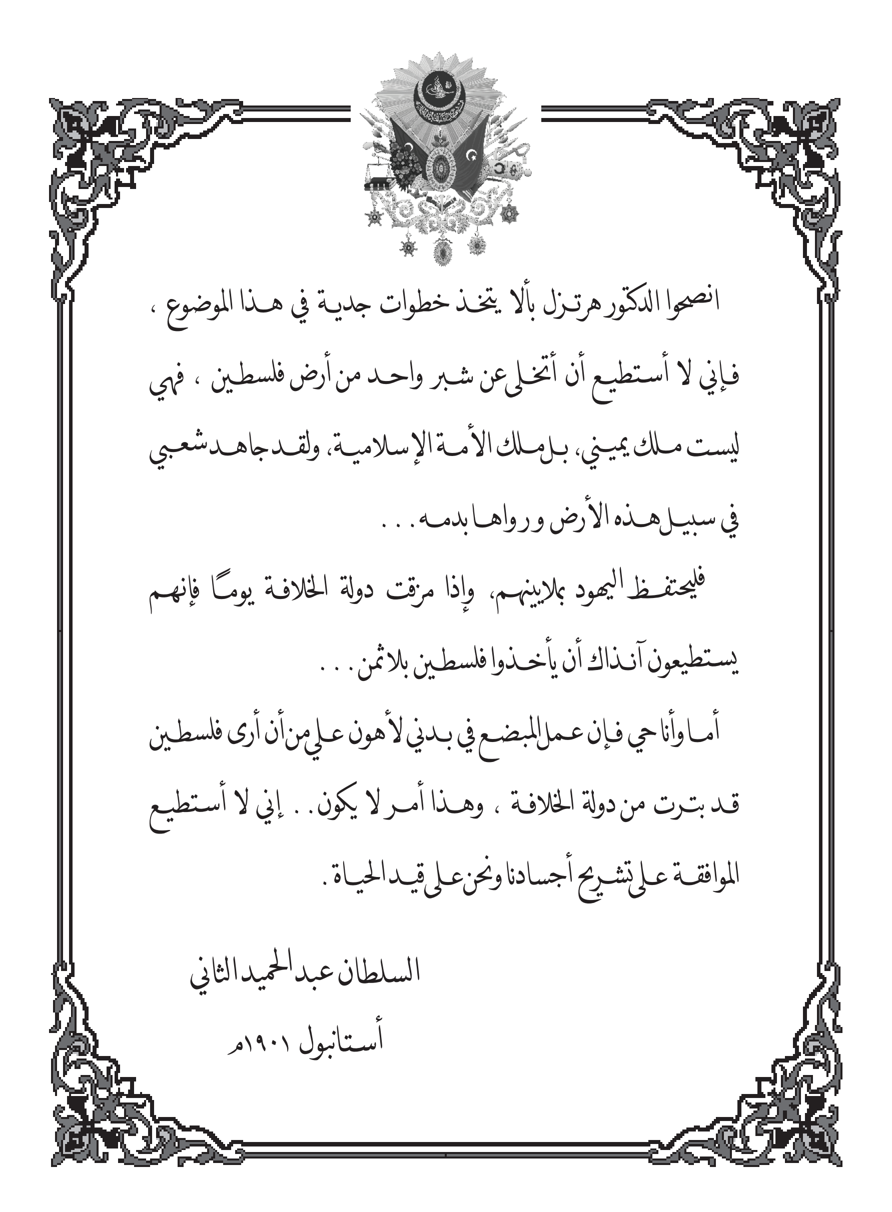
نبذة عن السلطان عبدالحميد الثاني

وكان مُبتَدَأُ حُكـمِ عبدالحميدِ الثَّاني من عـامِ ١٨٧٩ وانتهى عام ١٩٠٩ م ودامَ حكمُه ثلاثةً وثلاثينَ عاماً، حيث كانت السَّـلطَنَةُ مُثقَلَةً بالمتاعِبِ والأزَماتِ، فقام بِمُهِمَّـةِ الخلافَـةِ فـي عهدِهِ وعَمِـلَ على زيادَةِ نَشـاطِ العُمـرانِ والسِّـكَّةِ الحديديَّةِ والمرافِـئِ المُتَعَدِّدَةِ وإنشـاءِ خَطِّ الحِجازِ والشّـامِ وأنشـأ الجامِعَةَ الإسـلاميَّةَ لِلَمِّ شَعَثِ العالَمِ الإسلاميِّ ووُقوفِهِ صَفّاً واحداً أمام المُؤامَراتِ والدسائِسِ، وفي عام ١٨٩٧ م عَرَضَ هِرتِزل مُؤَسِّسُ الدَّولَةِ الصُّهيونِيَّةِ على السُّلطانِ عبدالحميدِ إنشاءَ الوَطَنِ القوميِّ لليَهودِ في فِلَسطين وتَعَهَّدَ له بتَسدِيد كافَّةِ دُيونِ الدَّولَةِ وتقديمِ مَبلَغٍ كبيرٍ للسُّلطانِ، فرَفَضَ السُّلطانُ الطَّلَبَ ورَدَّ عليه ، وهذه صورة عن نَصِّ الوثيقة.

---

(١) ويطلـق هـذا التعريف على المرحلة الخطيرة التي تولى فيها الاتحاديون سياسـة الأمور ومن ارتبط بهم ونهج منهجهم من يهود الدونمة في تسييس قرار الخلافة الإسلامية وتمزيق دولته الواسعة وإلهاب نار الفتنة القومية بين الأتراك والعرب وما ترتب على ذلك من ثورة الشعوب العربية ضد الأتراك وسياستهم، والوقوع بسبب ذلك في مخطط الاستعمار ووعوده الكاذبة، ممـا أدى إلـى الفصل بين القرار الإسـلامي العالمي وبين العرب الثائريـن ، وكان بها تمزيق أوصال الأمة وبدء استتباعها السياسي والاقتصادي للقرار العالمي الكافر.

وقـد بدأت الخلافـة المدونمة بعد التنـازل الإجباري للسـلطان عبدالحميـد الثاني عام ١٩٠٩ م ، وانتهت بإلغاء أتاتورك للخلافة عام ١٩٢٤ م ، وفي هذه السنوات الخمسة عشر ظهرت سياسة التتريك (١٩١١ م) التي كانت أحد مولدات التيار العربي القومي، ودخلت الدولـة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م) إلى جانب ألمانيا، ووقعت مذابح العثمانيين للأرمن (١٩١٥ م) ، وفي الإجمال فقد أشرف الدونمة على قرارات ٣ سلاطين عثمانيين: محمد الخامس ، محمد السادس ، وعبدالمجيد الثاني الذي ألغيت الخلافة في عهده إلغاء رسـميا عام ١٩٢٤ م. وعلى وجه التدقيق فيها فقد دامَت سـيطرة الدونمة على القرار عشـر سـنواتٍ بَينَ عامَـي (١٩٠٩م- ١٩١٩م) . ثم ٥ سـنوات رضخـت فيها تركيا لحكم عساكر الحلفاء بقيادة بريطانيا (١٩١٩م- ١٩٢٤م).


انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع ، فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، ولقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه . . .

فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يومًا فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن . . .

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة ، وهذا أمر لا يكون . . إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة .

السلطان عبد الحميد الثاني

أستانبول ١٩٠١م

رد السلطان عبدالحميد الثاني على هرتزل مؤسس الصهيونية

وكانـت الدُّولُ الأوروبِّيَّةُ (فرنسـا ، انكلترا ، روسـيا) غاضِبَةً من عَمَلِ السُّـلطانِ لِمَنـحِ امتيازاتِ الخَـطِّ الحديديِّ الواصلِ بين اسـتانبولَ وبغـدادَ لألمانيا، فدَأَبَت علـى تحريكِ العناصِـرِ المُعارِضَـةِ ومَدِّها بالمعوناتِ السِّـرِّيَّةِ لإعـلانِ العِصيانِ، وتأَسَّسَت أحزابٌ مُناوِءَةٌ للسُّلطانِ ، وكان بعضُ اليهودِ المُتظاهِرِين بالإسلامِ على رأسِ المُفسِـدِين، إضافَةً إلى تَغذِيَةِ الرُّوحِ القَومِيَّـةِ لدى العَرَبِ والأكرادِ والأرمَنِ والشَّراكِسَـةِ والأرنـاؤوطِ وأحزابٍ اتَّخَذَت لها شـعاراتٍ إصلاحيَّةً مُغرِضَةً ومنها حِزبُ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي في (سُـلانيك) الذي سـعى إلى الدَّعوَةِ للدُّستورِ وخرجوا في مظاهراتٍ صاخبةٍ مِمَّا حَمَلَ السُّلطانَ على إعادَةِ الدُّستورِ، كما كان للإرساليَّاتِ والبَعثـاتِ والمـدارِسِ الأجنَبِيَّـةِ والقُنصِلِيَّاتِ نَفـخٌ في الرَّمادِ وتأجيـجٌ لِنارِ الحِقدِ والصِّراعِ ضِدَّ السُّلطانِ وما يدعو إليه كالجامِعَةِ الإسلاميَّةِ.

ورَفَـعَ حِـزبُ الاتِّحادِ والتَّرقِّـي بديلاً عن الجامِعَةِ الإسـلاميَّةِ مبـادئ (الحُرِّيَّةِ – العَدلِ – المُساواةِ) وأكثَروا حولَها الشَّائِعاتِ ، واختَلَقوا الأخبارَ عن ظُلمِ السُّلطانِ والرَّعايـا وقَتلِهـم حتى أسـمَتهُ الصُّحُفُ (السُّـلطانَ الأحمـرَ) زُوراً وكَذِبـاً وكَيداً، وتنامَت هذه الفِتَنُ وتلاحَقَت حتى طالَبَت هذه العناصِرُ بِخَلعِ السُّلطانِ.

وعندما خُلِعَ السُّـلطانُ تسـابَقَت الأحزابُ والقُـوَى لِكِتابَةِ التَّاريخِ السِّياسِـيِّ بما يخـدِمُ الإثـارَةَ والفِتنَـةَ ضِدَّ عَصرِ السُّـلطانِ وخِلافَتِـهِ، واعتَبَروا أنَّ حِـزبَ الاتِّحادِ والتَّرَقِّـي هـو المُنقِـذُ للأُمَّـةِ مـن الاسـتبدادِ الحميـدِيِّ (العهـدُ الحميـدِيُّ = عهدُ عبدِالحميدِ) ، وكانت الكارِثَتان بعد ذلك : الأولى الاعترافُ بِفِلَسطِين كوَطَنٍ قَومِيٍّ لليهودِ، والثانية إسـقاطُ الشَّرِيفِ حُسـينٍ بعد أن وَعَدوه بالخِلافَةِ العَرَبِيَّةِ ودفعوا به إلى مُحارَبَةِ الأتراكِ وإعلانِ الثَّورَةِ ضِدَّهم.

ولمـا خُلِـعَ السُّـلطانُ وُضِعَ فـي أَحَدِ القُصـورِ اليهودِيَّةِ في سُـلانيك فـي البلقان

(اليونـانِ)، وشُـدِّدَت عليه الحِراسَـةُ في إقامـةٍ جَبرِيَّةٍ، وكان من بيـن الحُرَّاسِ أَحَدُ أتباعِ الشَّيخِ (اليشرطي) أبي الشاماتِ شَيخِ السُّلطانِ عبدالحميد ، وعن طريقِهِ تَمَّت المواصلَةُ سِـرّاً بين السُّـلطانِ والشَّـيخِ وحَفِظَ الزَّمانُ للأُمَّةِ إحدى رسائِلِ السُّلطانِ المخلوعِ التي أرسلها إلى شَيخِهِ. ومكث في منفاه تسع سنين حتى توفي في ٢٨ من ربيع الآخر عام ١٣٣٦ هـ (١٠/ ٢/ ١٩١٨ م) عن ستةٍ وسبعينَ عاماً رحمه الله.

وهـذا يُؤَكِّدُ علاقَةَ الدَّولَةِ العُثمانِيَّةِ بالتَّصَوُّفِ وعِنايَتَها به، وأنَّ أَوَّلَ أسـبابِ نكثِ العُهودِ لهذه الأمانَةِ وهي مَرتَبَةُ الإحسـانِ إسـقاطُ رَجُلِ القـرارِ في الخلافةِ لِيُصبحَ التَّصَـوُّفُ أَحَـدَ تَبعاتِ المرحلةِ الحميدِيَّـةِ عند الصُّهيونِيَّـةِ وعُمَلائِها، والذي عَمِلَ الجميـعُ فيما بعدُ على مُحارَبَتِه وخَلطِ أوراقِـهِ لِيَصِلَ فيما بعدُ إلى ما وصلَ إليه من تعريفِهِ بـ(الشِّركِ والضَّلالَةِ).

رسالة السلطان عبدالحميد الثاني في المنفى إلى شيخه عام ١٩١١ م (باللغة التركية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ وأفضلُ الصَّلاةِ وأَتمُّ التَّسليمِ على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ رَسولِ رَبِّ العالمينَ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين والتَّابعين إلى يومِ الدِّين.

أرفَعُ عريضَتي هذه إلى شَيخِ الطَّريقَةِ العلِيَّةِ الشاذِلِيَّةِ، إلى مُفيضِ الرُّوحِ والحياةِ، وإلى شَيخِ أهل عَصرِهِ الشَّيخِ محمود أفندي أبي الشَّاماتِ، وأُقَبِّلُ يَدَيهِ المُباركَتَينِ راجيًا دَعَواتِهِ الصَّالِحَةِ. بعد تقديمِ احترامي أعرِضُ أني تلقَّيتُ كِتابَكم المؤرَّخَ في ٢٢ مارس من السَّنَةِ الحالية، وحَمِدتُ المولى وشكرتُهُ أنَّكم بِصِحَّةٍ وسلامَةٍ دائِمَتَين.

سَيِّدي: إنَّني بِتوفِيقِ اللهِ تعالى مُداوِمٌ على قِراءَةِ الأورادِ الشَّاذِلِيَّةِ ليلاً ونهارًا، وأعرِضُ أنَّني مازلتُ مُحتاجًا لِدَعَواتِكم القلبِيَّةِ بصورَةٍ دائِمَةٍ.

بعد هذه المُقَدِّمَةِ أعرِضُ لِرَشادَتِكم وإلى أمثالِكم أصحابَ السَّماحَةِ والعُقولِ السَّليمَةِ المسألَةَ المُهِمَّةَ الآتِيَةَ كأمانَةٍ في ذِمَّةِ التَّاريخ:

إنَّني لم أتخَلَّ عن الخلافَةِ الإسلامِيَّةِ لِسَبَبٍ ما، سوى أنني - بِسَبِبِ المُضَايَقَةِ من رُؤساءِ جمعِيَّةِ الاتِّحادِ المعروفَةِ بِاسمِ (جون تورك) وتهديدِهم- اضطُرِرتُ وأُجبِرتُ على تَرْكِ الخِلافَةِ. إنَّ هؤلاءِ الاتِّحادِيِّين قد أَصَرُّوا وأَصَرُّوا عَلَيَّ بأن أُصادِقَ على تأسيسِ وَطَنٍ قومِيٍّ لليهودِ في الأرضِ المُقَدَّسَةِ (فِلَسطِين)، ورَغمَ إصرارِهم فلم أقبَل بِصورَةٍ قَطعِيَّةٍ هذا التَّكليفِ، وأخيرًا وَعَدوا بِتقديمِ ١٥٠ مائة وخمسين مليونَ ليرَةٍ إنجليزِيَّةٍ ذَهَبًا، فرفَضتُ هذا التَّكليفَ بِصورَةٍ قطعِيَّةٍ أيضًا، وأجبتُهم بهذا الجوابِ القَطعِيِّ الآتي: (إنَّكم لو دَفعتُم مِلءَ الأَرضِ ذَهَبًا - فَضلاً عن ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرةٍ إنجليزِيَّةٍ ذَهَبًا - فلن أقبَلَ بِتكليفِكُم هذا بوجهٍ قطعِيٍّ، لقد خَدَمتُ المِلَّةَ الإسلامِيَّةَ والمُحَمَّدِيَّةَ ما يزيدُ عن ثلاثين سَنَةً فلم أُسَوِّد صحائِفَ

المسـلمين آبائي وأجدادي من السَّـلاطينِ والخُلَفاءِ العُثمانِيّين، لهذا لن أقبَلَ تكليفَكُم بوجهٍ قَطعِيٍّ أيضًا).

وبعد جوابي القطعِيِّ اتَّفقوا على خَلعِي، وأبلَغوني أنهم سَيُبعِدونني إلى (سُلانيك) فقَبِلتُ بهذا التَّكليفِ الأخيرِ. هذا وحَمِدتُ المولى وأحمَدُه أنّني لم أقبَل بأن أُلَطِّخَ الدَّولَةَ العُثمانِيَّةَ والعالَمَ الإسلامِيَّ بهذا العارِ الأَبَدِيِّ النَّاشِـئِ عن تكليفِهم بإقامَةِ دَولَةٍ يهودِيَّةٍ في الأراضي المُقَدَّسَـةِ فلسـطينَ... وقد كان بعد ذلك ما كان، ولـذا فإنَّنِـي أُكرِّرُ الحَمدَ والثَّناءَ علـى اللهِ المُتَعالِ، وأعتَقِدُ أنَّ ما عرضتُـهُ كافٍ في هذا الموضوعِ الهامِّ، وبه أختِمُ رِسالَتي هذه. أَلثُمُ يَدَيكُم المُبارَكَتَينِ، وأرجو وأستَرحِمُ أن تَتَفَضَّلوا بِقَبولِ احتِرامي بِسَلامي على جَميعِ الإخوانِ والأصدِقاءِ.

يا أُسـتاذِي المُعَظَّمُ لقد أَطَلـتُ عليكم التَّحِيَّةَ، ولكن دَفَعَني لهذه الإطالَةِ أن نُحيطَ سـماحَتَكم عِلمًا، ونُحيطَ جماعَتَكم بذلك عِلمًا أيضًا.

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادِمُ المسلمينَ

عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ المجيدِ

قِراءةُ مرحلةِ الغُثاءِ والوهنِ من واقِعِ فِقهِ التحوُّلات

بِما أنَّ مرحلةَ الغُثاءِ المُشارِ إلَيها هي مرحلةُ حياتِنا المُعاصِرةِ ، ولها ارتِباطٌ وثيقٌ بعلاماتِ الساعةِ الوُسطى والصُّغرى وما يتفرَّعُ عنها من مفاهيمِ فِقهِ التحوُّلاتِ ، وفي شأنِها بسطَ النبيُّ ﷺ الأخبارَ والآثارَ مُجملةً ومُفصَّلةً ، فيبقى علَينا أمامَ ذلِك ترتيبُ الزمنِ الغُثائيِّ ووضعُه في مَوقِعِه الصحيحِ مِنَ النُّصوصِ ، سواءٌ في الحُكمِ أوِ العِلمِ أوِ الحياةِ بِعُمومِها ؛ لِأنَّ مرحلةَ الغُثاءِ مرحلةٌ مفصليَّةٌ في تاريخِ التحوُّلاتِ كُلِّها ، ولها أهميةٌ عظيمةٌ في كافَّةِ شُؤونِها المُتحوِّلةِ والمُتحصِّلةِ ، وتكادُ أن تفصلَ تمامًا ـ في شأنَي : « قرارِ الحُكمِ » أولًا ، و« قرارِ العِلمِ » ثانيًا ـ بَينَ التاريخِ الأبويِّ الشرعيِّ المُسندِ بِرجالِه وأهلِه برغمِ اختلافِهم ، وبينَ التاريخِ الأنويِّ الوضعيِّ المُوسَّدِ وسقوطِ الأمرِ بيدِ غيرِ أهلِه ، كما عبَّرَ عن ذلِكَ مَن لا ينطِقُ عنِ الهوى ﷺ في قولِه عن علامةِ الساعةِ وتضييعِ الأمانةِ ـ مُجيبًا على مَن سألَه : وكيفَ إضاعتُها ؟ـ قالَ : « إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه »[1] .

إذا وسِّد الأمر إلى غَير أهله

---

(١) الحديث ورد بلفظ « التَّوسيدِ » وبلفظ « الإسناد » كما هو في صحيح البخاري برقم (٦٠١٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظِرِ الساعةَ» . قال : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : «إذا أُسنِدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه فانتظِرِ الساعةَ» .

وفي «فتحِ الباري» لابن حجر : قال الكرماني : أجاب عن كيفية الإضاعة بما يدل على الزمان ؛ لأنه يتضمَّن الجوابَ ؛ لأنه يلزمُ منه بيانُ أن كيفيتَها هي الإسنادُ المذكورُ ، وقد تقدّم هناك بلفظ « وُسِّدَ » مع شرحه ، والمراد من «الأمر» جنس الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة والإمارة والقضاء والإفتاء وغير ذلك ، وقوله :«إلى غَيرِ أهلِه» قال الكرمانِي : أتى بكلمة «إلى» بدل اللام ؛ ليدل على تضمين معنى الإسناد.

قوله : « فانتظر الساعة » ، الفاء للتفريع ، أو جواب شرط محذوف، أي : إذا كان الأمر

وأعتقِـدُ جازِمًـا أنَّ هذا التعليلَ خطيرٌ وهامٌّ جِدًّا جِدًّا عِنـدَ قِراءتِنا لِلتحوُّلاتِ في هـذه المرحلـةِ ، ويكادُ أن يكشِـفَ عـن أخطرِ مُؤامرةٍ عرَفَها الإسـلامُ فـي تاريخِه الأبويِّ ، كما يكشِـفُ عن أهمِّ مكسـبٍ تاريخـيٍّ غنِمَه الشـيطانُ والدَّجَّالُ والكُفرُ فـي تاريخِهما الأنـويِّ ، وبدأَ به الانحِـدارُ الذي انتظرَه المخلـوقُ الإرهابيُّ آلافَ السنين منذُ عهدِ « الحِوارِ الأوَّلِ » بَينَ الحقِّ سُبحانَه والشيطانِ ، إلى عهدِ «الحِوارِ الأخيرِ»، وهو الحِوارُ اللَّادينيُّ بَينَ أهلِ الحضاراتِ وأهلِ الأديانِ تحتَ مُسـمَّى « تقاربُ الدياناتِ وحِوارُ الحضاراتِ » .

فالأمـرُ لَيـسَ كما يبدو ، ولا كمـا يتناولُه المحاوِرون مِـن كلا الطرفَين في المرحلةِ المعاصِرةِ ، سـواءٌ كانوا مُخلصين فيما ذهبُوا إلَيه واجتهدُوا في تحقيقِه لرسـمِ السلامِ العالميِّ ، أو كانوا مُسَيَّسين ومُهندسين أساسيِّين في أطرافِ اللُّعبةِ الإقليميةِ والدوليةِ ، فالمرحلةُ كُلُّها مفصلٌ هامٌّ وخطَيرٌ في التاريخِ الكَونيِّ لمَن ألقى السمعَ وهو شهيدٌ .

مرحلة السير الإجباري نحو جُحر الضبِّ

إنها مرحلةُ السَّيرِ الإجباريِّ نحوَ « جُحرِ الضبِّ » بإدراكٍ أو بِغَيرِ إدراكٍ ، وبديانةٍ شـرعيةٍ أو خِيانـةٍ وضعيةٍ ، فالجميـعُ يُحفَّزون طَوعًا وكرهًا نحـوَ المصيرِ الأخيرِ ، بصرفِ النظرِ عمَّا يكونُ في المرحلةِ مِن مقاطِعَ إيجابيةٍ وتنفُّساتٍ موعودةٍ .

فِقهُ التحوُّلاتِ يفتحُ آفاقًا جديدةً في قراءةِ التاريخِ

وأجزِمُ أن هذه العباراتِ عِندَ فهمِها وتتبُّعِ ثمراتِها الإيجابيةِ سـتفتحُ آفاقًا جديدةً في قِراءةِ التاريخِ الإنسـانيِّ والإسلاميِّ ، كما سـتُوجِّهُ أقلامًا وثقافاتٍ إلى مسارِها الصحيحِ في كتابةِ التاريخِ الأبويِّ الشرعيِّ المُسندِ ، وستدفعُ بأقلامٍ أُخرى وثقافاتٍ عقرى إلى رفضِ هذه المعاني ؛ لينفُذَ بهذا الرفضِ قدرُ اللَّهِ في الشُّعوبِ من نقضِ

كذلك فانتظِرْ . قال ابن بطّال : معنى « أُسـنِدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه » أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده ، وفرض عليهم النصيحة لهم ؛ فينبغي لهم توليةُ أهل الدين ، فإذا قلدوا غير أهل الدين ؛ فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها .

الأمانـةِ وبِناءِ الهَيكلِ الأنويِّ الوضعيِّ المُوسَّـدِ ، كما سـمَّاه النبيُّ ﷺ في صحيحِ الأحاديثِ الخاصَّةِ بِفقهِ التحوُّلاتِ .

غِيابُ الفِقهِ الشرعيِّ للتحوُّلاتِ جرَّأَ المترسِّمين على المصلِّين

إذ كانَ غيابُ هذا الفِقهِ الشـرعيِّ سـببًا في تطاولِ المترسِّـمين بالدينِ على أشباهِهم وأمثالِهـم مِـنَ المصلِّين ، كما كانَ سـببًا في طُغيانِ مدارِسِ الشـكِّ والإلحـادِ والكُفرِ والنِّفاقِ واختراقِها صفوفَ الأمةِ بدفعِ المسـتعمِرِ والمسـتهتِرِ والمسـتثمِرِ ، حتَّى غدا العالـمُ العربـيُّ والإسـلاميُّ لا يملِكُ قـرارًا ولا يُحقِّقُ اسـتقرارًا إلَّا بمـا ترضاه قُوى الحركةِ العالميةِ المُهَيمنةِ على مجموعِ حياةِ الشُّعوبِ المُستضعفةِ ، ولِئلَّا يفوتَ على المُسـلِمين في مرحلتِنا المعاصِرةِ ما فاتَ على من سـبقَهم في هذا الشـأنِ فقد وضعَنا هاهنا اسـتقراءً كاملًا لِما وصفَه ﷺ من تقسـيمٍ شـرعيٍّ لمرحلةِ الغُثاءِ وما تلاها ، وفِيها يقولُ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِـكُ أن تداعى علَيكم الأُممُ كما تداعى الأكلةُ علـى قصعتِهـا » . قالوا : أمِن قِلةٍ نحن يا رسـولَ اللَّهِ ؟ قـالَ : « لا أنتم يومئِذٍ كثيرٌ ، ولكِنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ يُلقى علَيكمُ الوهنُ » . قالوا : وما الوهنُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قـالَ : « حـبُّ الدنيا وكراهيةُ المَوتِ »[1] . وفي روايـةٍ : « وتُنزَعُ المهابةُ من صُدورِ أعدائِكم »[2] .

الغثائية من حديث ثوبان

وفي روايةٍ : « كيفَ بكَ يا ثوبانُ ، إذا تداعَت علَيكمُ الأُممُ كتداعيكم على قصعةِ الطعامِ يصيبون مِنه » . قالَ ثوبانُ: بأبي أنتَ وأمي يا رسـولَ اللَّهِ أمِن قِلةٍ بنا؟ قالَ : « لا أنتم يومئِذٍ كثيرٌ ، ولكِن يُلقى في قلوبِكمُ الوهنُ » . قالَ : وما الوهنُ يا رسـولَ اللَّهِ ، قالَ : « حبُّكم للدُّنيا وكراهيتُكم لِلقِتالِ »[3] .

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٩٩).

(٢) مسند أحمد (٢٣٠٦٠).

(٣) مسند أحمد (٨٩٤٧).

وعِندَ النظرِ إلى هذا الحديثِ وغيرِه يتحدَّدُ الاستقراءُ بتكالُبِ الأُممِ على الإسلامِ والمُسلِمين خِلالَ مرحلةِ نقضِ الخلافةِ العُثمانيةِ وبدءِ مرحلةِ الاستعمارِ، ولِأن هذه المرحلةَ قد مرَّت بتداعياتٍ عديدةٍ فلا بُدَّ من معرفةِ أقسامِ هذه التداعياتِ على النحوِ التالي :

التقسيمُ الشرعيُّ للمرحلةِ الغُثائيةِ

(١) مرحلةُ الأحلاسِ حربٌ وهربٌ

مرحلةُ الأحلاسِ والمؤامرةُ على تركةِ الرجُلِ المريضِ

وهي مرحلةُ ضعفِ الدولةِ العليةِ حاميةِ قرارِ الخلافةِ الإسلاميةِ، وكانَ مُبتدأُ الضعفِ مُعاصِرًا للنهضةِ الأوربيةِ واتِّفاقِ دُولِ أوربا ـ معَ خلافِها الداخليِّ ـ على تفكيكِ وتقسيمِ الدولةِ العُثمانيةِ، وأطلقَ الأوربيون على هذا الاتِّفاق «المسألةَ الشرقيةَ»، أي: مشكلةَ الدُّولِ الواقِعةِ في الشرقِ مِن أوربا. اهـ. وعبَّرَ عنها الحديثُ بـ «فِتنةِ الأحلاسِ».

«والحِلْسُ» في اللغةِ: ما يُبسَطُ تحتَ الثيابِ إشارةً إلى الخفاءِ والتمويهِ. وهذه المرحلةُ يبدو أنها ـ حسبَ استقراءِ الأحداثِ ـ المرحلةُ التي تحركَت فِيها قُوى الاستعمارِ الأوربيِّ بُعَيدَ ظهورِ الثورةِ الصناعيةِ وإطلاقِ مُسمَّى «ترِكةِ الرجلِ المريضِ» على بلادِ العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ، وبدْءِ وضعِ الخُططِ والمؤامراتِ لتفكيكِ وحدتِه السياسيةِ والاستيلاءِ على ثرواتِه ومواقِعِه الاستراتيجيةِ، من خلالِ بدْءِ النشاطِ الاستشراقيِّ، والعملِ السياسيِّ الدُّبلوماسيِّ لدراسةِ الواقِعِ العربيِّ والإسلاميِّ، وبذرِ الفِتنِ والمؤامراتِ فيه، بِإثارةِ مطلبِ الدعوةِ إلى الحريةِ والمساواةِ وسيادةِ القانونِ، وإدخالِ عُلومِ الحياةِ الحضاريةِ كالعلومِ الثقافيةِ والصناعيةِ والزراعيةِ والعسكريةِ وغيرِها كذريعةٍ لهدمِ القيمِ والديانةِ.

بدءُ الغزوِ البُرتُغاليِّ

وفي أوَّلِ هذه المرحلةِ بدأَ الغزوُ البرتغاليُّ على أطرافِ البلادِ العربيةِ كما سبقَ ذِكرُه، وإلى ذلكَ يُشيرُ معنى الحديثِ مِن قولِه ﷺ: فقالَ قائلٌ: وما فِتنةُ الأحلاسِ؟ قالَ: «هربٌ وحربٌ». والهربُ والحربُ كانا بارِزَينِ في هجماتِ

البُرتُغاليين على سواحلِ البلادِ العربيةِ طمعًا في السيطرةِ علَيها، وحديثُ: «ستكونُ بعدي فِتَنٌ مِنها (فِتنةُ الأحلاسِ) يكونُ فِيها حربٌ وهربٌ، ثُمَّ بعدها فِتَنٌ أشدُّ مِنها، ثُمَّ تكونُ فِتنةٌ كُلَّما قيلَ انقطعَت عادَت، حتَّى لا يبقى بيتٌ إلَّا دخلَته، ولا مسلمٌ إلَّا سكَّته حتَّى يخرجَ رجلٌ مِن عِتْرَتي»[1]

معنى الحلس

قالَ الخطابيُّ: إنَّما أُضيفَتِ الفِتنةُ إلى الأحلاسِ لدوامِها وطولِ لُبثِها، يُقال للرجُلِ إذا كانَ يلزمُ بيتَه لا يبرحُ منه: «هو حِلْسُ بيتِه». لِأن الحِلْسَ يُفترَش، فيبقى على المكانِ ما دامَ لا يُرفَعُ[2]. والمقصودُ من طولِ لُبثِها استمرارُ خُططِ المؤامرةِ الاستعماريةِ، مرحلةً بعدَ أُخرى، وجيلًا بعدَ آخرَ.

حملة نابليون، المسألة الشرقية، سايكس بيكو، كلها تحولات متتالية ذات طابع تآمري

وهذا ما أثبتَته الأحداثُ المتتاليةُ: بدءًا مِن ظهورِ الحروبِ الاستعماريةِ كحملةِ نابِليون على مِصرَ سنة ١٧٩٨ م[3]، ومُرورًا بـ«المسألةِ الشرقيةِ»،

---

(١) الفتن (٩٥).

(٢) معالم السنن (٤: ٣٣٧).

(٣) وهي من ظواهر مرحلة الأحلاس، فالحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨ م) جاءت بعيد تدهور الدولة العثمانية وبروز مرحلة الضعف فيها، وكان هذا الهجوم يعتبر أول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد ضد الفرنسيين الصليبيين، وتكونت جبهة حربية إسلامية في مواجهة الفرنسيين، وقامت العديد من المعارك التي اشترك فيها علماء الأزهر والمسلمون من كافة البلاد؛ لمحاولة إعادة مصر إلى حظيرة الخلافة الإسلامية، وقد واجهتها الحملة الفرنسية بالانتقام والقوة والهدم والتنكيل بالشعب عدة مرات، حيث دارت رحى الجهاد ضد الفرنسيين في مصر مرات عديدة، ولم يتم جلاء الفرنسيين عن مصر إلا بعد هجوم مشترك من العثمانيين والإنجليز أرغم الفرنسيين على الخروج من مصر، إلا أن الحملة الفرنسية إبان وجودها بمصر قد وضعت بذورا خطيرة، ومنها الانبهار بقوة السلاح الأوربي وبالصناعة والعلم والإدارة، حتى إن بعض قادة الحكم

وِنِهايـةً بمفاوضـاتِ الدُّولِ الأُوربيةِ والخروجِ باتِّفاقِ « سـايكس بيكو » بِشـأنِ اقتسـامِ تِركةِ الرجُلِ المريض . هذا الاتفاقُ الذي صارَ فيما بعدُ مُرتَكَز السيطرةِ الاستعماريةِ .

وقـد أكـدَت وثائـقُ المرحلـةِ ذلكَ الأمـرَ ، راجِـعْ «الجزيـرةُ العربيـةُ » نجدُ والحجـازُ » فـي الوثائقِ البريطانيةِ»[1] . وفي هـذا التأكيدِ ملحَظٌ هامٌّ في مجرى علاماتِ الساعةِ ، وما يسبقُ كشفُه من وقائعَ وتحوُّلاتٍ نطقَ بها مَن لا ينطِقُ عنِ الهـوى ﷺ تغفُلُ الأُمـةُ عن إدراكِها ومعرفةِ خطرِها ، بل ورُبما سـاهمَ البعضُ في إنفاذِها وإنجاحِها بِعِلمٍ أو بِغَيرِ عِلمٍ لِيقضيَ اللَّهُ أمرًا كانَ مفعولًا .

وثائق المراحل مرجع بحثي هام

(٢) مرحلةُ فِتنةِ السرَّاءِ[2]

بمصر كمحمد علي باشـا الـذي حكم مصر ، قام بإدخال أسـاليب الفرنجة وعوائدهم إلى الجيش والحياة الاجتماعية فيما بعد ، وهي الأساليب التي وصفت في الأحاديث بالغثائية.

(١) هذا الكتاب مكون من سبعة مجلدات ضخمة، ويعد من أغزر المراجع عن الجزيرة العربية منـذ بدايـة القرن العشـرين ، ويضـم ترجمة لأهم الوثائـق التي تفصح عن سياسـة بريطانيا ومواقفهـا منـذ عـام ١٩١٤م ، وهـي مرحلة نشـوب الحـرب العالمية الأولى ومـا بعدها ، وكانت هذه الوثائق محاطة بسـرية تامة نظـرا لأن القانون البريطاني الخاص بحفظ الوثائق كان يحتـم بقاءهـا بعيدة عن أيدي الباحثين لمدة خمسـين عاما ؛ ولكن هذه المدة خفضت عـام ١٩٦٧ إلـى ثلاثيـن عامـا ، ولذلك أخـذ الباحثون والمؤرخـون يتدفقـون على مركز الوثائـق بلندن للاطلاع على ذلك . اهـ مـن صدر مقدمة الكتاب ، الجزء الأول ، لمترجمه د. نجدة فتيحي .

(٢) والسـراء : قال القاري : المراد بالسـراء النعماء التي تسر الناس من الصحة والرضا والعافية من البلاء والوباء ، وأضيفت إلى السـراء لأن السـبب في وقوعها ارتكاب المعاصي بسبب كثـرة النعـم ، أو لأنها شـر العـدو . قلت : وكلا المعنييـن محتمل في تعليـل معاني مرحلة المؤامرة ، وهي اشـتراك بعض أمراء المسـلمين ورؤسـاء القبائل في فتـن الصراع المؤدية إلى تدخل الكفار وعقد المعاهدات معهم لإسـقاط قرار الخلافة الشـرعية وإقامة الأنظمة

مرحلة فتنة السراء

هي المرحلةُ التي تحدَّدَ مُسمَّاها في فِقهِ التحوُّلاتِ بمرحلةِ الاستِعمارِ، وهي أيضًا مُرتبِطةٌ بمرحلةِ الأحلاسِ ارتِباطًا وثيقًا، بل هي ثمرةٌ من ثمراتِها، وسياقُ الحديثِ ذاتِه يُؤكِّدُ تلازُمَ المرحلتَين فقد وردَ في النصِّ قولُه: « فقالَ قائلٌ: يا رسولَ اللَّهِ وما فِتنةُ الأحلاسِ؟ فقالَ: « هربٌ وحربٌ، ثُمَّ فِتنةُ السرَّاءِ »[1].

وحديثٌ آخرُ عن عُميرِ بنِ هانئٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: « فِتنةُ الأحلاسِ

القومية والقبلية، وقد أشار الشيخ التويجري في كتابه «اتحاف الجماعة ص٥٤/ الأول» إلى علاقة السراء بمرحلة المؤامرة، ولكنه فسرها تفسيرا جزئيا، وقال: « وهذه الفتنة تنطبق على ما وقع بين أهل نجد وبين الأتراك والمصريين في الحروب العظيمة في القرن الثالث عشر للهجرة، وقد كانت هذه الفتن من أعظم الفتن التي وقعت في هذه الأمة، وقد وهن الإسلام بسببها وانطمست أعلامه »، ثم قال: «حتى رد الله الكرة لأهل نجد بعد ذلك فعاد الإسلام عزيزا ولله الحمد والمنة» . والمفيد من التعليل المشار إليه ربط السراء بمرحلة الحرب القبلية والصراع الذي كانت تديره القوى العالمية بين « العرب والمسلمين» . وأما تفسيره لـ«عود الإسلام عزيزا بانتصار أهل نجد» فلا علاقة له بالأمر المراد في الحديث والمرحلة، بل كانت الدول الاستعمارية معينة بالمال والسلاح لأهل نجد على حكام الحجاز، ومعينة لحكام الحجاز ضد الأتراك، وربما كان الظرف القائم آنذاك أصعب من تفسيرنا له اليوم؛ ولكن العلماء حين لا يعلمون ما يدور من أمور السياسة والتسييس ينزلون الأحاديث على الأحداث والوقائع على ما يظهر لهم من الفهم أو يوافق أحوالهم من المواقف، لعدم دراستهم فقه التحولات ولانعدام إدراكهم أهمية الركن الرابع من أركان الدين .

وقد علل المؤلف التويجري حديث الفتنة التي تقبل من المغرب بقوله: « فهي ـ والله أعلم ـ ما وقع من الأتراك والمصريين من محاربة أهل نجد في القرن الثالث عشر من الهجرة، وهي من أعظم الفتن وأنكاها لدين الإسلام » .اهـ.

مع العلم أن هذه المسألة برمتها تدخل تحت الفتنة المسماة بالسراء، وكل ما دار فيها بين «أهل الجزيرة» وبين الأتراك أو المصريين أو غيرهم يندرج تحت مفهوم «التحريش في جزيرة العرب» ونجاح سياسة الاستعمار وتخطيطه .

(١) مسند أحمد (٦٣١٢) .

فِيهـا حـربٌ وهربٌ ، وفِتنةُ السـراءِ يخرجُ دخنُها مِـن تحتِ قدمَي رجُـلٍ يزعُمُ أنَّه مِني ، ولَيسَ مِني ، إنَّما أَوليائي المُتَّقون ، ثُمَّ يصطلِحُ الناسُ على رجُلٍ ، ثُمَّ تكونُ فِتنـةُ الدُّهَمِ كُلَّما قِيلَ انقطعَت عادَت حتَّى لا يبقى بيتٌ مِنَ العربِ إلَّا دخلَته يُقاتِلُ فِيهـا لا يدري على حـقٍّ يُقاتِلُ أم على باطِلٍ ، فلا يزالـون كذلِكَ حتَّى يصيروا إلى فُسـطاطَين : فُسـطاطِ إيمـانٍ لا نِفاقَ فيه ، وفُسـطاطِ نِفـاقٍ لا إيمانَ فيـه . فإذا هما اجتمعا قاربَ الدجَّالُ اليَومَ أوِ الغدَ » [1] .

تفسير السهارنفوري لفتنة السراء

وقـدِ اختلـفَ العُلماءُ في تحديدِ زمنِها إلَّا أنَّ الشَّـيخَ السـهارنفوريَّ رحِمَه اللَّهُ في حاشيةِ بذلِ المجهودِ « ٥ : ٨٩ » كانَ أقربَ إلى التَّوفيقِ في تحديدِها مرحليًّا فقد ربطَها بمرحلةِ العملِ المُشتركِ بَينَ بعضِ أُمراءِ المُسلمين والحُكومةِ البريطانيةِ ضِدَّ الخِلافةِ الإسلاميةِ المُتمثِّلةِ آنذاكَ في الدولةِ العُثمانيةِ ، بعدَ أن برزَت ظواهِرُ التفكُّكِ ونخرَتها مؤامـراتُ الدُّونَمَـةِ وجمعيـةِ الاتِّحـادِ والترقِّي ، ووجـدَ زُعماءُ العربِ والمُسـلِمين أنفسَـهم أمامَ خِلافةٍ تعملُ على إفسـادِ العِلاقةِ بَينَ الرعايا مِمَّا حدا ببعضِهم إلى تبنِّي فِكـرةِ الخِلافـةِ العربيةِ والانفِصالِ عن قـرارِ الدولةِ العُثمانيةِ ، وقدِ اسـتثمرَ الغربيُّون هذه الحالةَ القلِقةَ واسـتفادوا مِن تَوظيفِها لصالحِ سياسـتِهِمُ الاسـتِعماريةِ ، وأغرقوا العربَ والمُسـلمين بالوُعودِ الكاذبةِ واستدرجوهم إلى نقضِ قرارِ الحُكمِ الإسلاميِّ كُلِّه بتحريضِ المُجتمعِ العربيِّ والإسـلاميِّ ضِدَّ ما يُسـمَّى بِالعدوِّ المُشتركِ: الأتراكِ والألمـانِ ، بِاعتِبارِ عِلاقةِ الدولةِ العُثمانيةِ بالدولةِ الألمانيةِ ، وما ترتبَ على ذلِكَ مِنَ استِغلالِ الحُلفاءِ والدُّولِ الأُوربيةِ لهذا الأمرِ مِن كُلِّ وجهٍ .

تجاوزنا تفسيرنا الذي قدمناه في «التليد والطارف» وربطنا الموضوع كله بالأصل التاريخي لمسيرة المرحلة

ويبدو أنَّ تفسـيرَ الشَّـيخِ السـهارنفوريِّ لم يُوافِقْ فهمَ البعضِ للمرحلةِ وتفسيرِها ،

---

(١) سنن أبي داودَ (٤٢٤٤) ، وقالَ مُؤلِّفُ كِتابِ «مَوسوعةِ أحاديثِ الفِتنِ وأشراطِ الساعةِ» عن درجةِ الحديثِ ص٥٤ : إسنادُه صحيحٌ .

بل ونحى البعضُ إلى الطعنِ في الحديثِ كُلِّه وفي سندِه وتخريجِه والكلامِ الجارِحِ في مَنِ اعتمدَه ونقلَه وبنى علَيهِ تفسيرَ المرحلةِ وما جاءَ فِيها، ولِهذا فقد تجاوزنا هذا التعليلَ الذي اعتمدنا علَيهِ في «التليدِ والطارِفِ» حولَ ما فسرَ بِه الشَّيخُ السهارنفوريُّ معنى الحديثِ، وربطنا المَوضوعَ كُلَّه بالأصلِ التاريخيِّ لمسيرةِ المرحلةِ، دونَ التعرضِ لِما يُثيرُ النفوسَ ويؤزِّمُ المَواقِفَ ويحوِّلُ الأمرَ إلى اختِلافٍ يُفسِدُ الهدفَ الأسمى مِنَ المعاني الشرعيةِ في القِراءةِ التاريخيةِ لِلمراحِلِ.

كما يبدو أنَّ مُستوى الحماسِ الشعبيِّ الدائرِ في الحِجازِ وغَيرِها مِن بِلادِ العربِ كانَ أقربَ إلى التأثيرِ العامِّ في العُقولِ والقُلوبِ بِحُكمِ الشُّعورِ السائدِ ضِدَّ الخِلافةِ المُدَونمةِ[1] آنذاكَ، ومواقِفِها السياسيةِ المُتردِّيةِ، بل كانَ الشارعُ الحِجازيُّ آنذاكَ في أعلى درجاتِ غليانِه الثَّوريِّ ضِدَّ السياسةِ الاتِّحاديةِ إلى جانبِ الشريفِ حُسَينٍ ومَن معه.

موقف الشارع الحجازي والحالة السائدة آنذاك في مكة وجدة

ويُصوِّرُ لنا د. مُحمَّدِ الجواديِّ في ترجمته للسيد محمد الدباغ نموذجًا عَنِ الحالةِ السائدةِ آنذاكَ في مكةَ وجِدةَ نقلًا عَنِ الأُستاذِ عُمرَ عبدالجبارِ[2]، فيقولُ ص٢٦: فمظاهرُ الثَّورةِ في الحِجازِ كانَت مظاهِرَ عميقةَ التأثيرِ في نُفوسِ الناشئةِ الحِجازيةِ إذ ذاكَ، لِأنَّ الحِجازَ كانَت معقِلَ الثَّورةِ، وكانَت وُفودُ ثُوارِ العربِ تترى علَيهِ مِن كُلِّ البِلادِ العربيةِ، وكانَت مواكبُ المُتطوعين لِلحربِ مِن أبناءِ الحِجازِ تزدحِمُ بها شوارِعُ المُدُنِ الحِجازيةِ، وكانَ الشبابُ مُدجَّجًا بِالسلاحِ يسيرُ في قُوةٍ وحماسٍ، ويهزجُ بالأناشيدِ العربيةِ الوطنيةِ، وكانَت الأعلامُ تُرفرِفُ علَيهم، وموسيقى الحربِ

(١) انظر شرحها ضمن المصطلحات آخر الكتاب.

(٢) سير وتراجم ص٢٨٢-٢٨٥، وليلحظ القارئ أن هذه الفترة هي ما بين عام ١٩٠٩ ـ حيث نحي السلطان عبدالحميد وصار القرار للاتحاديين وبدؤوا سياسات التتريك وأقحموا الجيوش المسلمة في الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا ـ وعام ١٩١٦ حيث أعلنت الثورة العربية. انظر التواريخ في المخطط ص١٩٤.

تعزِفُ بألحانِها الثائرةِ المُثيرةِ ، وكانَ خطباءُ الثَّورةِ مِن حِجازيِّين وسوريِّين وعراقيِّين يقفون في الساحاتِ العامَّةِ ويُصوِّرون للجماهيرِ ما هم فيه من حاضِرٍ لا يُشرِّفُ ، وينتقلون بأذهانِهم إلى ما كانَ لهم من ماضٍ عريقٍ ، وتاريخٍ حافِلٍ بالأمجادِ .

ثُمَّ يقولُ ص٢٧ : ولم يكُنِ الخَيارُ سهلًا بَينَ بدائلَ مُتعدِّدةٍ : مِنَ الثَّورةِ على ظُلمِ الأتراكِ والاتِّحاديِّين الذين سيطروا على مُقدَّراتِ الأُمورِ في دولةِ الخِلافةِ، وساموا الأقاليمَ العربيةَ الكثيرَ مِنَ الظُّلمِ ؛ والضيقِ بِتدخُلاتِ الدُّولِ الأوربيةِ الكُبرى في المسألةِ العربيةِ ؛ والانتصارِ للشريفِ حُسَينِ بنِ عليٍّ الذي قادَ ثَورةً عربيةً على حُكمِ الأتراكِ ؛ ثُمَّ الثَّورةِ على هذا الثائرِ نفسِه ، والانتصارِ للاتِّجاهِ الفتيِّ المُتمثِلِ في زحفِ الملِكِ عبدِالعزيزِ آلِ سُعودٍ رحِمَه اللَّهُ الذي حقَّقَ نجاحاتٍ مُتواليةٍ .



الملك عبدالعزيز آل سعود عام ١٩٠١ م

مؤلف كتاب «لورنس كما عرفته» وقائد جيش الثوار العرب يصف الوضع القائم

وفي مُقدمةِ كِتاب «لورنس.. الحقيقةُ والأكذوبةُ» لصُبحي العِمريِّ[١] يصفُ

(١) قائد عسكري عاصر عدة مراحل تاريخية ، ولد بدمشق وتخرج بمدرسة ضباط الصف ١٩١٥ وحضر معارك غزة وبئر السبع في الجيش العثماني على البريطانيين ، لحق بالثورة العربية عام ١٩١٧م ، ثم كان من قادة الجيش، شهد موقعة ميسلون ، ورافق الملك فيصل بن الحسين في خروجه من دمشق . واستقر في شرقي الأردن ١٩٢١ وكان من مؤسسي الجيش العربي الأردني .

المُؤلِّـفُ حِقيقةَ الوضعِ القائمِ الذي دفعَ بِالشـريفِ إلى ما لابُدَّ منه فقالَ :إذا حلَّلنا الأحداثَ والأسـبابَ والعوامِلَ التي دفعَتِ الحُسَـينِ لإعلانِ ثَورتِه على السُّلطانِ لا نجِدُ فِيها أيَّ سـببٍ شـخصيٍّ ، فقد كانَت الثَّورةُ عربيةً نتيجةً لِيقظةٍ قَوميةٍ ترجِعُ إلـى ثلاثِ أجيـالٍ تعاقبَت بِخُطواتٍ بطيئةٍ وانتِشـارٍ مُتزايدٍ جيلًا بعـدَ جيلٍ ، وكانَ لجِيلِها الأخيـرِ الذي رافـقَ بدايةِ الحربِ العالميـةِ الأولى واعتلى عـددٌ من قادتِه أعوادَ المشـانِقِ جهدُه ورأيُه ومشـاركتُه فـي إثارةِ الثَّورةِ ودفعِها إلـى التحقُّقِ . اهـ مُقدمة الكِتابِ .

وكتـبَ المُؤلِّـفُ ذاتُه ص١٩ حولَ قِيامِ الثَّورةِ قَولَه : ووجدَ أميرُ الحِجازِ الشَّـريفُ حُسَينُ بنُ عليٍّ نفسَه وجهًا لوجهٍ أمامَ مَوقِفٍ مصيريٍّ يتعلَّقُ بِحاضِرِ العربِ ومُستقبلِهم يتطلَّبُ مِنه حلًّا سـريعًا يتناسـبُ معَ السُّرعةِ التي يسيرُ علَيها الأتراكُ لِتطبيقِ خُطتِهم ، وكانَت الأُمورُ الرئيسةُ التي تدورُ حولَ المَوقِفِ بِالنسبةِ لِلعربِ أربعةً :

١- المظالِمُ التي يقومُ بها الأتراكُ في الشامِ والعراقِ .

٢- العزلةُ التي أصبحَ فِيها الحِجازُ من جرَّاءِ الحِصارِ البحريِّ .

أخرجه الإنكليز ١٩٢٤ لاتصاله بالحركة الاسـتقلالية السورية ؛ فرحل إلى العراق . قاد جيش الجهاد الفلسـطيني ١٩٤٨ عقب استشـهاد عبد القادر الحسيني، وأحصي ما خاضه من المعارك فكان ٤١ معركة.

تلقـى أربعة أحـكام بالإعدام : من الأتراك الاتحاديين عندما لحـق بالثورة العربية ، ومن الفرنسـيين عندمـا قاتلهم مع العصابات السـورية فـي البقاع والحولة ، وعندمـا قاتلهم في ثورة ١٩٢٥ ، والرابعة ١٩٥٦ بتهمة العمل للوحدة مع العراق . توفي بدمشق ١٩٧٣م . له «مذكرات عن الحركة العربية» مخطوط عند أسـرته بدمشق في عشرة أجزاء ، وله «لورنس الحقيقـة والأكذوبـة» مطبـوع . اهــ « مختصر الأعـلام» الزركلـي « ٦ : ١٦٦ » . والكتاب الأخير هو ما نقلنا عنه هنا ، وقد طبع بعدة أسماء منها «لورنس كما عرفته» .

٣- النشـاطُ الفِعليُّ الذي شـرعَ فيه الأتراكُ في القضاءِ علـى الامتيازاتِ التي يتمتَّعُ بِها الحِجازُ لِجعلِه كباقي الولاياتِ العُثمانيةِ .

٤- الاحتلالُ الإنكليزيُّ الذي يزحَفُ على أراضي القُطرَينِ العِراقِ والشامِ .

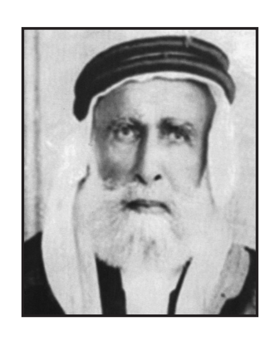
رفض الشريف حسين لإعلان الجهاد من منبر الحرم كان بداية تأزم العلاقة مع الاتحاديين

ويبدو أنَّ تفجيرَ المُشـكِلةِ بَينَ الشَّـريفِ والأتراكِ كانَ عِندَما قـرَّرَ الأتراكُ إعلانَ الجِهادِ المُقدَّسِ فيما سمي فيما بعد بالحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) مع ألمانيا، على أن يُذاعَ هذا الإعلانُ على العالمِ الإسـلاميِّ من مِنبرِ المسـجِدِ الحرامِ في مكَّةَ داعين المُسـلِمين لِقِتالِ الحلفاء، ورفَضَ الحُسَـينُ إعلانَ ذلِكَ قبلَ تحقيقِ رغباتِ العربِ والتي أرسـلَها الشَّـريفُ كشُـروطٍ ببرقيةٍ إلى أنورِ باشـا ، فلقِي علَيها جوابًا قاسِـيًا غيـرَ مُهذَّبٍ ، وبعدَها بـدأ الإنكليزُ مُفاوضاتِهم معَ الحُسَـينِ فـي أواخِرِ آب ١٩١٥م . اهــ ص٢٠-٢٣ . وقد بدأَ البحثُ في مسـألةِ الخِلافةِ العُثمانيةِ وموقِفِ العربِ مِنها بعدَ خلعِ السُّلطانِ عبدِالحميدِ الثاني ١٩٠٩م .

بدء البحث في مسألة الخلافة وموقف العرب منها بدأ بعد عزل السلطان عبدالحميد ١٩٠٩

ولعـلَّ أخطرَ ما يُقرِّرُه الحديثُ الشَّـريفُ بعيدًا عَـنِ العواطِفِ وإحراجِ المواقِفِ خطـورةُ المُجرياتِ التاريخيةِ التي تَرتَّبَت على نجاحِ الفصلِ السياسـيِّ بَينَ مرحلةِ الخِلافةِ العُثمانيةِ حامِلةِ قرارِ الإسـلامِ وبَينَ مرحلةِ الخِلافةِ العربيةِ المُجْهَضَةِ قبلَ وِلادتِها على يدِ خُبراءِ الدجلِ السياسـيِّ المُدَونَم ، والمُجرياتِ التاريخيةِ تتلخَّصُ فـي كَـونِ مرحلةِ الأحلاسِ تُمهِّدُ لمرحلةِ السـرَّاءِ ، ومرحلةُ السـرَّاءِ تُمهِّدُ لمرحلةِ الدُّهَيماءِ ، ومرحلةُ الدُّهَيمـاءِ تُمهِّدُ لمرحلةِ الفِتنةِ الرابعةِ العمياءِ البكماءِ الصمَّاءِ، وكُلُّها تصبُّ في رصيدِ مسـتثمِرٍ إبليسيٍّ واحِدٍ ، وكُلُّها تنطلِقُ لِخِدمةِ هدفٍ دجاليٍّ واحِـدٍ في قـرارَي «الحُكمِ والعِلمِ».. يصبحُ الرجُلُ فِيها مؤمِنًا ويُمسـي كافِرًا حتَّى يصيـرَ النـاسُ إلـى فُسـطاطَينِ : فُسـطاطِ إيمـانٍ لا نِفاقَ فيـه ، وهو تيَّارُ الشُّـعوبِ المهزوزِ ، وفُسـطاطِ نِفاقٍ لا إيمانَ فيه ، وهو تيَّارُ الدجلِ الأنويِّ المرموزِ ، وعلى

هذه المسيرةِ المرحليةِ المُتتابعةِ يقولُ مَن لا ينطِقُ عنِ الهوى ﷺ : «فإذا كانَ ذاكُم فانتظِروا الدجَّالَ مِنَ اليَومِ أوِ الغدِ» . وفي رِوايةٍ : «فانتظِرُوا الدجَّالَ مِن يَومِه أو مِن غدِه»[1] .



الشريف حسين عام ١٩١٦ م

السياسة العالمية أكثر استثمارا للصراع من رؤى شيوخ العشائر، ويدل عليه التمعن في صياغتهم للمراسلات، ويضاف لذلك انعدام بعد النظر لدى القادة والعلماء آنذاك

ورُبَّما كان الشريفُ حسينٌ أكثرَ صدقاً وإخلاصاً في قضيتِه ، وبهذا الإخلاصِ والصدقِ كان لابد له من وجودِ المساندِ العالميِّ ولو مؤقتاً لمّا رآه لازماً من الحالة التي بلغت إليها، ولكنّ مسيرةَ الحركةِ السياسيةِ العالميةِ كانت أكثر احتواءً للأمرِ وتطبيعاً للصراعِ واستثماراً له، ويدلُّ على ذلك التمعنُ في أسلوبِ صياغة الانجليزِ للرسائلِ فيما بينهم وبين الشريف ، وقد اخترنا منها مجموعةً منتقاة لإطلاع القارئِ على الحالة الصعبة آنذاك[2] ، والوضع القلق المؤلم .. إضافة إلى مسألةٍ أخرى وهي قصورُ بعدِ النظرةِ السياسيةِ للأمور ، فهذه المسألةُ كانت لدى العديدِ من القادةِ والعلماءِ ـ وهم حَمَلَةُ قَرارِ الحكمِ والعِلْمِ ـ مِنَ الضَّعْفِ بمكانةٍ، وخاصةً فيما يتعلقُ بقراءةِ أطماعِ المستعمرينَ وأبعادِ سياستِهم الشيطانيةِ في المنطقةِ .

وهذه الحالةُ قد أصابتْ عدداً كبيراً من القادةِ والعلماءِ في البلادِ العربيةِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٤٤) .

(٢) انظر ملحق وثائق مرحلة السراء آخر الكتاب.

والإسلاميةِ منذ اختراقِ العالمِ الغربيِّ دولةَ الإسلامِ ومؤسساتِها الإداريةِ والثقافيةِ والفكريـةِ . وظلـتْ في الوطنِ العربيِّ والإسـلاميِّ مسـتمرةً كظاهـرةٍ خطيرةٍ على مدى مراحلِ التطبيعِ الاستعماري ، حتى بلغ لدى العربِ والمسلمين حُسْنُ الظنِّ بالسياسةِ الغربيّةِ ورموزِها إلى حدِّ السذاجةِ المطلقة !

السذاجة السياسية لحملة قرار الحكم والعلم مكنت الأعداء من النجاح

وبهذه السذاجةِ تمكنَ المهندسون الغربيونَ من بسطِ سياسةِ الاستعمارِ العسكريِّ ثـم الثقافـيِّ العلمانـيِّ، ثم فيما بعد ذلك ترسَّـخَ الاسـتعمارُ في الشـعوب وغَرَسَ أفكارَه وسياستَه لِيَنْتُجَ عن ذلك ما عُرِفَ بالعلمنةِ ثم العولمة وما ترتبَ عليهما من احتواءِ الثوابتِ الإسلاميةِ وإفراغِ محتواها من التربيةِ والتعليمِ والثقافةِ.

وليـس أدلَّ علـى ذلـك مـن قراءتِنـا لكتـابِ المنـدوبِ السـامي البريطاني على عدن جاكوب المسـمى (ملـوكُ جزيرةِ العربِ) ، مـع مطابقةِ الحالةِ المشـارِ إليها فـي الكتابِ بنصوصِ أحاديثِ علامات السـاعةِ المؤكدةِ حالةَ المسـلمينَ الغثائية المؤديـةَ إلى صفةِ (الاسـتتباعِ) ، كما هي في حديث «لَتَتَّبِعُنَّ سَـنَنَ مَـنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِـبْراً بِشِـبْرٍ وذِرَاعـاً بِـذِرَاعٍ ..» إلخ . ولا زالتْ هـذه الحالةُ المرضيـةُ جاثمةً على عقـولِ الأمةِ بعمومها وبعضِ حَمَلَةِ قرارِ الحكـمِ والعلمِ إلى اليومِ وإلى أنْ يقضيَ اللّهُ أمراً كانَ مفعولاً.

معاهدات الحماية وتَدَخُّل الكفر في بِلاد المُسلِمين

قُلتُ : وكما فسَّـرَ الشَّيخُ السـهارنفوريُّ رحمِهُ اللَّهُ فِتنةَ السرَّاءِ بِهذه المرحلةِ مِنَ المُؤامرةِ السِّـرِّيةِ على قرارِ الإسـلامِ وبِلادِ المُسـلِمين؛ فإنَّ العدوَّ ذاتَه قد فعلَ معَ بعضِ الحُكَّامِ والأُمراءِ ومشايخِ القبائلِ والسلاطين عِدَّةَ مُعاهداتٍ في السِّرِّ لِنقضِ مـا كانَ مُبرَمـاً بَينَهم وبَيـنَ حُكومةِ الدَّولـةِ العُثمانيةِ ، ومِنها ما فعلَتـه دَولة بِريطانيا

مِن مُعاهـداتٍ واتِّفاقاتٍ معَ وُجهاءِ جنوب اليمن ومشـايخِه وسـلاطينِه[١] آنذاكَ، ومـعَ أمثالِهم وأشـباهِهم في عُمـانَ والخليجِ والكُوَيتِ ونجـدٍ وغيرِها، وتمكنَت بِهذه المُعاهداتِ السِّـرِّيةِ مِن تغييرِ الولاءِ السياسـيِّ لدَولةِ الإسلامِ العامَّةِ في أفسدِ مراحلِها السياسيةِ إلى ولاءٍ مُبطَّنٍ لِدَولةِ الكُفرِ وقَبولِ حِمايتِها المُؤدِّيةِ إلى ما عُرِفَ فيما بعدُ ـ بالاستِعمارِ[٢].

العبارات المعسولة في المراسلات مع الهدايا وعرابين الصداقة هي شباك الخداع

ورُبَّما كانَتِ الظُّروفُ ومُجرياتُها آنذاكَ ليسَ فِيها أكثرُ مِنَ الخِيارِ السـائدِ حسـبَ وعيِ الحُكَّامِ وشُـيوخِ العشـائرِ العربيةِ، ولم يقِفِ الأمرُ عِندَ هذا الحدِّ، وإنَّما وقعَ في شِـباكِ العملِ المُبطَّـنِ لِمصلحةِ الاسـتِعمارِ بعضُ العُلماءِ وأهـلِ الفتوى دونَ إدراكِ خُطـورةِ الأمـرِ وخُدعـةِ الأعـداءِ المُتآمِريـن، ويُلاحَـظُ مِثلُ هـذا الأمرِ في صِياغةِ الرسائلِ واختِيارِ عِباراتِها المعسولةِ المُمجِّدةِ لزُعماءِ العربِ وشرفِ الدِّينِ الإسـلاميِّ وحاجـةِ الأُمَّةِ إلى الوحدةِ الإسـلاميةِ وإحياءِ منهجِ الخِلافةِ الهاشِـميةِ التي صدَّقَها بعـضُ الزُّعماءِ ورِجالِ الحُكمِ العربيِّ، وفي الردودِ العربيةِ المُمجِّدةِ لِدِينِ الإسـلامِ وشرفِ العُروبةِ والشهامةِ اسـتدرارًا لِطلبِ الوفاءِ مِن دَولةِ بِريطانيا ووُكلائِها.

---

(١) للاسـتزادة انظـر كتابنا «الطـرف الأحور في تاريـخ مخلاف أحور» حيث طبعنـا منه الجزء الأول، وفيـه تفصيل واف ووثائق ومعاهدات شـتى تغطي هـذا الجانب، عرضت تاريخيا كوثائق عن المرحلة.

(٢) انظـر ملحق الوثائق آخر الكتاب: نماذج من مؤامرة (فتنة السـراء) المقررة في فقه علامات الساعة.



CERTIFIED TRUE COPY.

Assistant Oriental Secretary.
19.6.37.

6.

Arabic version of letter from Sir Arthur McMahon to King Hussein dated 14.12.15
(Despatch 172 of 14.12.15)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب الاصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي امير مكة المكرمة قبلة الاسلام والمسلمين ادامه الله في رفعة وعلاء.

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رايت فيه من قبولكم اخراج ولايتي مرسين وأضنه وأضنة من حدود البلاد العربية.

وقد تلقيت ايضا بمزيد السرور والرضى تأكيدكم ان العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الاولين - التعاليم التي تضمن حقوق كل الاديان وامتيازاتها على السواء.

هذا وفي قولكم ان العرب مستعدون ان يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يُعلم منه طبعا ان هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لان حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع ان تنقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين اولئك الرؤساء.

اما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كلما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة - ولكن لما كانت مصالح حليفتنا فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق - وسنخابركم بهذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب -

نموذجٌ لبعضِ مُراسلاتِ الشريفِ معَ الإنكليزِ ، الصفحة الأولى ، عن « وثائقُ بريطانيةٌ « ١ : ٦٣٧ »

ان حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فاخبرتكم مستعدة
لان تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها الى
المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب ادارة
ودية ثابتة كما سلمتم على ان صيانة هذه المصالح كما
يجب تستلزم نظراً ادق واتم مما تسمح به الحالة
الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات

واننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد
ان ندفعكم الى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم ولكننا
في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً ان تبذلوا مجهوداتكم
في جمع كلمة الشعوب العربية الى غايتنا المشتركة وان تحثوهم
على ان لا يمدوا يد المساعدة الى اعدائنا باي وجه كان. فانه
على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب
ان يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف
قوة الاتفاق بيننا وثباته.

وفي هذه الاحوال فان حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت
لي ان ابلغ دولتكم ان تكونوا على ثقة من ان بريطانيا
العظمى لا تنوي ابرام اي صلح كان الا اذا كان من ضمن
شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من
سلطة الالمان والاتراك.

هذا وبرهاناً على صدق نيتنا ولاجل مساعدتكم في
مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فاني مرسل مع رسولكم مبلغ
عشرين الف جنيه

واقدم لكم في الختام عاطر التحيات الخالصة وخالص التسليمات
الودية مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط
الالفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولافراد
اسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر
السير آرثر هنري مكماهون

تحريراً في ٨ صفر ١٣٣٤

نموذجٌ لبعضِ مُراسلاتِ الشريفِ معَ الإنكليزِ، الصفحة الثانية، عن «وثائقُ بريطانيةٌ» «١ : ٦٣٨»

نص الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى صاحب الأصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير

مكة المكرمة قبلة الإسلام والمسلمين أدامه الله في رفعة وعلاء.

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأَضَنَه من حدود البلاد العربية.

وقد تلقيت أيضا بمزيد من السرور والرضى تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره من السادة الخلفاء الأولين.. التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء.

هذا وفي قولكم: إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يُعلمُ منه طبعاً أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما شأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودوّنت ذلك عندها بعناية تامة؛ ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق ، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت وأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرا أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات.

وإننا نستصوب تماما رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدا أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وأن تحثوهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته.

وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة آل عثمان والأتراك.

هذا وعربوناً على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه.

وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم المشمولين بروابط الألفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد أسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام.

تحريرا في ٨ صفر ١٣٣٣

المخلص نائب جلالة الملك بمصر

السيد آرثور هنري مكماهون

شيخ الإسلام مصطفى صبري وكتابه «الرد على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة»

بل إنَّ شَيخَ الإسلامِ مُصطفى صبري[1] اغترَّ وخُدِعَ بِدعوى الإصلاحِ التي نادى بها « الاتحاديون » فشارك في إقرارِ عزلَ الخليفةِ عبدِالحميدِ لما كان نائباً في مجلسِ «المبعوثان» ثُمَّ لما تبيَّنَ حقيقةَ الأمرِ وبعدَ رحيلِهم ومجيءِ «الكماليين» اجتهدَ في كشفِ مخططاتِ أتاتورك وصنَّفَ كتابًا سمَّاه «الردُّ على مُنكِري النِّعمةِ مِنَ الدِّينِ والخلافةِ والأُمَّةِ» وفيه كشفَ سياسةَ أتاتوركَ وأساليبَ خِداعِه ، وكشفَ المُؤامراتِ التي كانَت تُحاكُ ضِدَّ دَولةِ الخِلافةِ؛ ولكِن بعدَ فواتِ الأوانِ . كان الشيخ مصطفى وقت العزل نائباً في مجلس المبعوثان ثم عين في عهد السلطان عبدالمجيد الثاني آخر الخلفاء العثمانيين[2] شيخاً للإسلام.

وفي البداية فقد كانَ موقِفُ الشريفِ حُسَينٍ إلى جانبِ الخِلافةِ العُثمانيةِ ، ويتَّضِحُ

(١) عين الشيخ مصطفى صبري نائباً عن مدينة توقاد عام ١٩٠٨م، وكان نائبا في مجلس المبعوثان عام ١٩٠٩ حين عزل السلطان عبدالحميد، ثم عين شيخاً للإسلام في عهد عبدالمجيد الثاني آخر الخلفاء، فكان آخر من تقلد هذا المنصب قبل إلغاء الخلافة ، وقد كرس جهوده في فضح مخططات الاتحاديين فسجنوه ثم تفرغ لفضح مخططات أتاتورك وأصدر صحيفة تركية لذلك ، ثم تم نفيه واستقر به النوى في مصر وفيها ألف كتابه «الرد على منكري النعمة» وطبعه في لبنان قبل إلغاء الخلافة بعام واحد، ثم لما ألغيت الخلافة تبين للمخدوعين من المسلمين صدق ما أخبرهم به شيخ الإسلام، وبقي في القاهرة حتى وفاته عام ١٩٥٤ رحمه الله تعالى.

(٢) كان المفتي وقت عزل السلطان عبدالحميد هو الشيخ نوري أفندي وقد رفض التوقيع على فتوى الخلع وأحال الأمر إلى شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي الذي رفض أيضاً ثم وقعها بعد تهديده بقتل السلطان عبدالحميد إذا لم يوقعها. وكان الاتحاديون قد قاموا من قبل بذبح سلطان سابق وهو السلطان عبدالعزيز عم السلطان عبدالحميد في قصره بقطع شرايين زنده ثم أشاعوا أنه انتحار. «السلطان عبدالحميد الثاني، حياته وأحداث عهده»، لأورخان محمد علي ص٢٧٩-٢٨٠ ، والكتاب مزود بالمراجع والوثائق التركية، دار النيل ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

ذلِكَ مِن خلالِ رسـائلِه إلى الإمامِ يَحيى وإلى سُـلطانِ لحج ، ففي رسـالتِه للإمام يَحيى : وإنَّ واجبَ كُلِّ مُسـلِمٍ تقويةِ خليفةِ المُسلِمين حتَّى بِعِقالِ بعيرٍ . وفي كِتابِه لسُلطانِ لحج: ومِنَ الأهميةِ بمكانٍ تقويةُ سُلطانِ المُسلِمين تحتَ الزعامةِ التُّركيةِ بِقيادةِ الخليفةِ العُثمانيِّ ، وقبلَ القيامِ بِأيِّ عملٍ نسعى إلَيه ينبغي الاهتمامُ بِالوحدةِ الإسـلاميةِ مـعَ الخِلافةِ التُّركيةِ . اهـ ص٨٦ «الشـريفُ حُسَـينٌ والخِلافةُ» لِنضالِ المومنـي . وسـعَت بِريطانيا لِلاتِّصالِ بِالعربِ سـنةَ ١٩١٤م لِكَونِهـم أكثرَ عناصِرِ الدَّولةِ العُثمانيةِ عددًا ، ويتمتَّعون بِتقديرٍ أكبرَ مِنَ الأتراكِ مِنَ الناحيةِ الدِّينيةِ.

عدلت بريطانيا مواقفها تجاه الحسين والعرب عدة مرات بحسب ما أملته عليها مصالحها

وتضمنَتِ الرِّسـالةُ مِن بريطانيا إلى الشـريفِ حُسَينٍ بتاريخِ ٨ آب ١٩١٤م شُكرَ الشريفِ على خِدمتِه الحسنةِ لِلأماكِنِ المُقدَّسةِ ، وتقولُ : إنَّها لا تُعارِضُ في إعادةِ الخِلافـةِ إلى العربِ ، واقترحَتِ السِّـفارةُ البريطانيةُ بِالآسـتانةِ إمكانَ خلقِ خِلافةٍ جديدةٍ في الجزيرةِ العربيةِ لِضربِ سُـلطةِ السُّـلطانِ العُثمانـيِّ إذا ما أعلنَتِ الدَّولةُ العُثمانيةُ الحربَ ضِدَّ الحُلفاءِ ، ثُمَّ عدَّلَت بِريطانيا نظرتَها بِشأنِ الخِلافةِ واعتبرَتها مسـألةً تخُصُّ المُسـلِمين ، ثُمَّ عادَت بِريطانيا لِلتدخُّلِ في مسألةِ الخِلافةِ وأشارَت إلـى الخِلافـةِ العربيةِ في الرِّسـالةِ التـي بعثَ بها سـتورزُ المُستشـارُ البريطانيُّ في القاهرةِ إلى الشـريفِ عبدِاللَّهِ بتاريخِ تِشـرين الثاني ١٩١٤م ، وجاءَ فِيها : وعسـى اللَّهُ أن يمُنَّ على المؤمنين بِخليفةٍ عربيِّ الأصلِ والحسـبِ والنسبِ ، يُشرِفُ على البُقعتَيـن المُباركتَيـن : بيـتِ اللَّهِ الحرامِ ، والمدينـةِ المُنَوَّرةِ ، وبذلِـكَ يُبدِّلُ يومئِذٍ ربُّكَ الشرَّ بخيرٍ . اهـ ص٨٩ « الشريفُ حُسَينٌ والخِلافةُ » .

تأمل العبارات التي تحمل العاطفة الدينية من سياسي أوروبي

كانَ مَوقِـفُ الشـريفِ حُسَـينٍ في ذلِكَ الوقتِ مُتـردِّدًا ، ومـا زالَ مُرتبِطًا بِالدَّولةِ العُثمانيةِ ، فردَّ على تلكَ الرِّسـالة بِالمُماطلةِ والتسـويفِ ، وكانَ الشـريفُ عبدُاللَّهِ قد أكَّدَ قبلَ ذلِكَ التاريخِ في رسالةٍ إلى ستورزَ تمسُّكَ العربِ في الحِجازِ بِالخِلافةِ

العُثمانيةِ ، وذكرَ أنَّ الشـريفَ حُسَـينًا لـم يُفكِّرْ بِالخِلافةِ العربيةِ قبلَ سـنةِ ١٩١٤م ، وكانَ مِن أسـبابِ مُعاودةِ بِريطانيا الاتِّصالَ بالشـريفِ حُسَـينٍ خَوفُ بِريطانيا مِن تأثيـرِ الخِلافـةِ العُثمانيـةِ على المُسـلِمين فـي الهِندِ الذيـن يدينون رُوحيًّـا بِالولاءِ لِلسُّلطانِ العُثمانيِّ ، فأرادَت بِريطانيا مِنَ اتِّصالِها بِالشريفِ إبطالَ تأثيرِ الدعوةِ إلى الجهـادِ المُقدَّسِ ، التي أعلنَها السُّـلطانُ العُثمانيُّ ، أو علـى الأقلِ تخفيفَ أثرِها ، وشاركَت فرنسا بِريطانيا هذا الرأيَّ فساندَتها في خلقِ فِكرةِ الخِلافةِ العربيةِ خِلالَ سـنةِ ١٩١٤م لضربِ الخِلافةِ العُثمانيةِ ، ويُذكَرُ أنَّ فِكرةَ تنصيبِ الشـريفِ حُسَينٍ فِكرةٌ فِرنسيةٌ بحتةٌ ، وأنَّ خَوفَ الحُلفاءِ مِن إعلانِ الجِهادِ دفعَهم إلى زِيادةِ الاهتمامِ بِالشريفِ حُسَينٍ . اهـ ص ٩٠ – ٩٢ .

فكرة الخلافة العربي فكرة فرنسية، كان المرجو منها خلق بابوية إسلامية

وفـي ص٩٩ أشـارَ المُؤلِّـفُ إلى الأسـبابِ التـي أدَّت إلى قيـامِ الثَّـورةِ ، فقالَ : ومهما اختلفَ القَولُ في أسبابِ خُروجِ العربِ بِزعامةِ الشريفِ حُسَينٍ على الدَّولةِ العُثمانيـةِ فإنَّه مِـنَ المُؤكَّدِ أنَّ القضاءَ علـى الخِلافةِ العُثمانيةِ وإقامـةَ خِلافةٍ عربيةٍ هاشِميةٍ لـم يكُنْ مِن بَينَ تِلكَ الأسبابِ وإنَّما كانَت ضِدَّ الاتِّحاديِّين وتسلُّطِهم على الدَّولةِ العُثمانيةِ . اهـ ، وفي ص١٠٠ قالَ : وحرصَ حُسَينٌ مُنذُ إعلانِ الثَّورةِ على الأتراكِ على إعلانِ تمسُّـكِه بِالخِلافةِ الإسلاميةِ العُثمانيةِ وإظهارِ إخلاصِه وولائه لِلسُّلطانِ العُثماني ، ويتَّضِحُ ذلِكَ مِنَ الرِّسالةِ التي بعثَها إلى السُّلطانِ مُحمَّد رشاد بِتاريـخِ ١٢ تمـوز عامَ ١٩١٦م أكَّدَ فِيها أنَّ إعلانَ اسـتِقلالِ البِـلادِ العربيةِ لا يعني إنـكارَ أعمالِ سـلاطينِ آلِ عُثمانَ لِلبِلادِ الإسـلاميةِ ، وإنَّما جـاءَ هذا الإعلانُ ضِدَّ الاتِّحاديِّيـن ، وجـاءَ في نِهايةِ رِسـالتِه : واللَّـهُ يعلمُ مدى احترامِنـا وعظيمِ تقديرِنا لِشخصِكم الهمايونيِّ الساميِّ ولِلسلطنةِ العُثمانيةِ . اهـ .

وعِندَمـا عزلَ الاتِّحاديون الشـريفَ حُسَـينًا مِن منصبِ الإمارةِ وعيَّنوا الشـريفَ

علي حَيدر أميرًا على مكَّةَ في ٢٠ شعبان ١٣٣٤هـ « ٢١ حُزَيران ١٩١٦م » ـ وكانَ هدفُهم ضربَ العربِ بِالعربِ ـ كتبَ الشريفُ حيدرٌ إلى الشريفِ حُسَينٍ كتابًا يلومُ فيه الشـريفَ وولدَه عليًّا لِخُروجِهما على الدَّولةِ ، فأجابَه الشـريفُ حُسَينٌ بِكِتابٍ فـي مُحرَّمٍ ١٣٣٥ قالَ فيـه : إنَّ خُروجَ العربِ على الاتِّحاديِّيـن أصبحَ فرضًا على العربِ والمُسـلِمين ، وأضافَ : إنَّ أسـبابَ خُروجِ العربِ هـي أعمالُ الاتِّحاديِّين ضِدَّ الإسـلامِ والعربِ ، وإنَّ هدفَ الثَّورةِ حفظُ استِقلالِ البِلادِ العربيةِ بعدَ سُقوطِ الدَّولةِ العُثمانيةِ ، الذي أصبحَ وشيكًا . اهـ ص١٠٣ «الشريفُ حُسَينٌ والخِلافةُ».

وفي ص١٠٤ قالَ : عارضَ المُسـلِمون في الهِندِ الثَّورةَ العربيةَ ، واعتبروها ضِدَّ الخِلافـةِ ، واعتبروا الشـريفَ حُسَـينًا خارِجًا على طاعـةِ الخليفةِ ، وأنَّـه بِخُروجِه عرَّضَ الأماكِنَ المُقدَّسةَ لِلخطرِ .

علماء الشام وفتواهم ضد ثورة الحسين

وأصـدرَ عُلماءُ الشـامِ فتوى ضِـدَّ ثَورةِ حُسَـينٍ ، ودعَوا إلى نُصـرةِ الدَّولةِ العليَّةِ العُثمانيـةِ ، وجـاءَ في الفتوى : وإنَّ ما فعلَه الشـريفُ حُسَـينٌ أميرُ مكَّةَ السـابِقِ مِنَ الخُروجِ على أميرِ المُؤمِنين إمامِ المُسلِمين مُحمَّدِ رشاد خان مُخالِفٌ لِلقرآنِ ولِسُّنَّةِ النبـيِّ الكريـمِ ﷺ ، كمـا أنَّ التِجاءَه للإنكليزِ مُوجِبٌ لسـخطِ اللَّهِ تعالى ورسـولِه علَيه الصلاةُ والسـلامُ ونفـرةِ عُمومِ المُسـلِمين ، وهو مخدوعٌ بِالمواعيـدِ الكاذِبةِ والأضاليلِ الباطِلةِ فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ . ووقَّعَ الفتوى اثنان وخمسون عالِمًا . وعارضَ المُسـلِمون السُّـنيُّون في أنحاءِ العالمِ الثَّورة ، كمـا عارضَها العربُ في المغربِ العربيِّ . راجِعْ ص١٠٥-١٠٦ «الشريفُ حُسَينٌ والخِلافةُ» .

وعلى الرغمِ مِن ذلِكَ فقد باركَ ابنُ سُـعودٍ وشَيخُ الكُوَيتِ وشَيخُ المحمرةِ ثَورةَ حُسَين في تِشرينَ الثاني ١٩١٦م . اهـ . المصدرُ السابِقُ ص١٠٦ .

الشيخ رشيد رضا يخطب في مكة بتأييد الشريف حسين

وخطبَ السيِّدُ رشيدُ رِضا في مكَّةَ بِمُناسبةِ الحجِّ سنةَ ١٣٣٤هـ خُطبةً أيَّد فِيها الثَّورةَ العربيةَ ومَوقِفَ الشريفِ حُسَينٍ، وقالَ: أيُّها الحِجازيُّون، إنَّ مَن يكفُرُ لهذا الرجُلِ المُصلِحِ المُنقِذِ هذه النِّعمةَ فهو أكفرُ الناسِ لِلنِّعَمِ، أيُّها المُسلِمونَ، يجبُ أن تعلموا أنَّ هذا العملَ هو أعظمُ خِدمةٍ لِلإسلامِ في هذا الزمنِ. ص١٠٨.

واستمرَّ الشريفُ حُسَينٌ مِن خلالِ جريدةِ القِبلةِ في تأكيدِ إخلاصِه لِلخليفةِ العُثمانيِّ بِالإضافةِ إلى إبرازِ سُلطةِ الاتِّحاديِّين على الدَّولةِ خاصَّةً بعدَ ازديادِ النفوذِ الألمانيِّ في الدَّولةِ العُثمانيةِ حتَّى أصبحَ الاتِّحاديُّون يُجبِرون الخليفةَ على توقيعِ الأوامرِ التي يُصدرونها. المصدرُ السابِقِ ص١١١.

الشريف ينصب نفسه ملكا لمملكة عربية ومرجعا دينيا للمسلمين

وفي ص١١٣ تحتَ عنوانِ «الشريفُ حُسَينٍ ملِكًا خِلالَ مُوسِمِ الحجِّ لِسنةِ ١٣٣٤ هـ» بعدَ الثَّورةِ بِخمسةِ شُهورٍ تقريبًا شرعَ حُسَينٌ بِالتأسيسِ لِمملكةٍ عربيةٍ، وأعلنَ يَومَ السبتِ ١ مُحرَّم ١٣٣٥هـ «٢٨ تِشرين الأوَّل ١٩١٦م» نفسَه ملِكًا على العربِ ومرجِعًا دينيًّا لهم، وتمَّ تأجيلُ البحثِ في مسألةِ الخِلافةِ الإسلاميةِ حتَّى يجتمِعَ العالمُ الإسلاميُّ على اتِّخاذِ قرارٍ بِشأنِها. اهـ

وأعلنَ عُلماءُ مكَّةَ المُكرَّمةِ في خِطابٍ مُوجَّهٍ إلى العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ بِمُناسبةِ بَيعتِهم لِلشريفِ حُسَينٍ بِالمُلكِ وبالمرجِعيةِ الدينيةِ خُروجَ الاتِّحاديِّين على الدينِ الإسلاميِّ، وأسقطَ عُلماءُ مكَّةَ في خطابِهم صِفةَ الخِلافةِ عنِ الدَّولةِ العُثمانيةِ بِقولِهم: ها نحنُ نرى بأعيُنِنا أنَّ المملكةَ ـ أيْ: الدَّولةَ العُثمانيةَ ـ قدِ انسلختَ عن شكلِها الإسلاميِّ الذي نعهدُه، وصِرْنا كُلَّما بحثْنا عن سببٍ مُوجِبٍ لِلطاعةِ وعن أيِّ شرطٍ من شُروطِ الخِلافةِ وانتِظامِ الجماعةِ لا نجدُه. اهـ المصدرُ السابِقُ ص١١٥.

واحتجَّت بِريطانيا وفرنسا على لقبِ حُسَينِ الجديدِ، وكانَت ردَّةُ فِعلِ الحُلفاءِ تتمثَّلُ بالتهنئةِ وعدمِ الاعترافِ، وأُصيبَ حُسَينُ بِخَيبةِ أملٍ في الحُلفاءِ حيثُ لم يعترِفوا بِه إلّا مِلكًا على الحِجازِ فقط. اهـ المصدرُ السابِقُ ص١١٦.

وصدرَ أمرٌ ملكيٌّ في القِبلةِ بِتاريخِ ٤ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ «١٧ تِشرين الثاني ١٩١٨م[1]» بِرفعِ اسمِ السُّلطانِ العُثمانيِّ في الخُطبةِ الشريفةِ بِناءً على استِمرارِ سيطرةِ الاتِّحاديِّين على الدَّولةِ العُثمانيةِ، وأصبحَ الدُّعاءُ في خُطبةِ الجُمُعةِ بِاسمِ «شريفِ مكَّةَ وأميرِها وملِكِ البِلادِ العربيةِ قُرَّةَ كُلِّ عَينٍ سيِّدِنا ومولانا الشريفِ حُسَينٍ». اهـ. المصدرُ السابِقُ ص١١٩.

الملك حسين يلقب نفسه بأمير المؤمنين

وأصدرَ الشريفُ حُسَينٌ منشورًا ملكيًّا بِتلقيبِه «أميرُ المؤمنين»، وخاطبَه أهلُ الشامِ بِملِكِ العربِ والخليفةِ المُقدَّسِ، وخاطبَه أهلُ يافا في برقيةٍ بعثوا بها: «هذه البَيعةُ وقَبولُ عبوديتِنا الصادِقةِ». وفِيها إشارةٌ إلى بَيعتِهم الصريحةِ لِحُسَينٍ بِالخِلافةِ الإسلاميةِ الهاشِميةِ، وبايعَ أهلُ العِراقِ حُسَينًا بِالخلافةِ الإسلاميةِ صراحةً.

ولمَّا تولَّى مُصطفى أتاتورك الحُكمُ وعمِلَ على الخُروجِ عن مبدأِ الخِلافةِ قالَ المَلِكُ حُسَينٌ: يرحمُ اللَّهُ الخِلافةَ، وأحسنَ عزاءَ المُسلِمين فِيها. المصدرُ السابِقُ ص١٢٣ بِتصرُّفٍ.

بروز مصطفى كمال أتاتورك كبطل قومي في مقاومة الحلفاء الذين احتلوا اسطنبول

وبرزَ مُصطفى أتاتورك كبطلٍ أُسطوريٍّ في الدِّفاعِ عن أراضي تُركيا ضِدَّ الحُلفاءِ،

---

(١) وهي ذاتها سنة وفاة السلطان عبدالحميد الثاني في منفاه بالبلقان! وتجدر الإشارة إلى أن السلطان عبدالحميد هو الذي عينه بإجبار من الاتحاديين على إمارة مكة قبيل تنحيته عن الحكم (عام ١٣٢٦هـ-١٩٠٨م).

وكانَ أتاتـوركُ يعمـلُ على تَوحيدِ تُركيـا والحِفاظِ علَيها ، وتعاطُفَ المُسـلِمون معَه وأصبـحَ بِالنسـبةِ لهم أفضلَ مِنَ الخليفةِ مُحمَّدٍ السـادسِ الخاضـعِ لِلنُّفوذِ الأجنبيِّ ، ورحَّبَ المُسلِمون بِمقاومةِ الأتراكِ لِلاحتِلالِ الأجنبيِّ ، وآزرَه الشُّعراءُ ، ومِنهم أحمدُ شَوقي ، الذي امتدحَ أتاتوركَ في قصيدةٍ له . المصدرُ السابِقُ ص١٣٦ بِتصرُّفٍ.

أحمد شوقي يمتدح أتاورك في قصيدة له

وكانَـتِ الخِلافـةُ العُثمانيةُ قد فقـدَت كثيرًا من أهميتِها قُبَيـلَ الحربِ وخلالَها ، وصارَ المجلسُ الوطنيُّ بِرئاسةِ أتاتوركَ في أنقرة هو الذي يُديرُ أمرَ الدَّولةِ ، وتركَ السُّـلطانُ وحيدُ الديـنِ منصِبَ الخِلافةِ ، وعمِلَ أتاتوركُ على ترشـيحِ عبدِالمجيدِ بنِ عبدِالعزيزِ ، ووقَّعَ وثيقةً بِاعتبارِه خليفةً لِلمُسـلِمين وخادمِ الحرمَين الشريفَين . المصدرُ السابِقُ ص١٣٧ ، ١٤٢ بِتصرُّفٍ .

الخليفة عبدالمجيد الثاني ينتخب بلا سلطة حقيقية

وانتُخِـبَ عبدُالمجيدِ الثاني خليفةً لِلمُسـلِمين في ١٨ تِشـرين الثاني ١٩٢٢ مِنَ المجلِسِ الوطنيِّ « خِلافةً دونَ سُـلطةٍ » حتَّى نجحَ أتاتوركُ فيما بعدُ بالتنسـيقِ معَ بِريطانيا على إلغاءِ الخِلافةِ وإعلانِ الجُمهوريةِ .

وأدى إعـلانُ الجُمهوريـةِ إلـى سـخطِ المُسـلِمين وتبـرُّؤِ الكثيرِ مِنهـم مِمَّا فعلَ أتاتوركُ ، وذمَّه الذين مدحوه سابِقًا . المصدرُ السابِقُ ص١٤٤ بِتصرُّفٍ .

ولمَّـا خُلِـعَ الخليفةُ السُّـلطانُ عبدالمجيد لجأَ إلـى السِّـفارةِ البِريطانيةِ ، وطلبَ الحِمايةِ ؛ فأرسـلَ الملِكُ حُسَـينٌ إلى السُّـلطانِ يدعوه لِلقُدومِ إلى الحِجازِ ، وقبِلَ السُّلطانُ الدعوةَ .

ووصلَ إلى جِدةَ يَومَ الإثنَينِ ١٥ كانون الثاني ؛ فاستقبلَه الملِكُ حُسَينٌ ، وجرَت مراسـيمُ الاسـتِقبالِ ، وفـي ٢٠ كانونَ الثاني توجَّـه الجميعُ إلى مكَّةَ واسـتُقبِلَ بها اسـتقبالًا كبيرًا ، وصلى الجُمُعةَ في ٢ شُـباط في المسـجِدِ الحرامِ بِصُحبةِ الملِكِ

حُسَينٍ ، وكذلِكَ في الجُمُعتَين التاليتَين ، وسمعَ الدُّعاءَ لِلملِكِ حُسَينٍ في الخُطبَةِ وليسَ الدُّعاءُ لِلخليفةِ ، وانتقلَ الخليفةُ وحيدُ الدينِ إلى الطائفِ في الخميس ١ آذار ١٩٢٣م ، وأقامَ بها أيّامًا ثُمَّ عادَ إلى مكَّةَ ومِنها إلى جِدةَ ، ثُمَّ سافرَ في ١ رمضان ١٣٤١هـ بِاعتبارِ اعتِلالِ صِحتِه ، وأعلنَ السُّلطانُ وحيدُ الدِّينِ قُبَيلَ مُغادرةِ الحِجازِ منشورًا لِلعالمِ الإسلاميِّ جاءَ فيه عرضُ وضعِ تُركيا خِلالَ الحربِ العالميةِ ، وظُروفِ تولِّيه الخِلافةِ ، وسَيطرةِ الاتِّحاديِّين على الدَّولةِ ، ودِفاعِ السُّلطانِ عن نفسِه ، وسعيِ مُصطفى كمال لِلقضاءِ على الخِلافةِ . وضمَّنَ المنشورَ بِشُكرٍ لِملِكِ الحِجازِ على ضيافتِه وأهلِه في البِلادِ المُقدَّسةِ وتوجه نحو سويسرا .

الخليفة المخلوع يغادر إلى مكة ثم إلى سويسرا

وقِيلَ : إنَّ الملِكَ حُسَينًا ضغطَ على السُّلطانِ وحيدِ الدينِ ؛ لِيتنازلَ له عنِ الخِلافةِ ولكِنَّه رفضَ ، وأصرَّ على المُطالبةِ باسترجاعِها لنفسِه . المصدرُ السابقُ ١٥٣ – ١٥٨ بِتصرُّفٍ .

وعلى هذا التفسير الذي فسَّرَه الشَّيخُ السهارنفوريُّ رحِمَه اللَّهُ يكونُ معنى « فِتنةِ الأحلاسِ » يعودُ إلى مرحلةِ ضعفِ الدَّولةِ العُثمانيةِ وما طرأَ مِن مُؤامراتٍ مُبطَّنةٍ لِتمزيقِها ، وما جرى في تمرُّداتِ البلقانِ والبُلغارِ وثوراتِهما ، ثُمَّ الحربِ الرُّوسيةِ العُثمانيةِ ؛ فانضمَّت رومانيا إلى الرُّوسِ ، وامتدَّ هُجومُ الرُّوسِ على الوِلاياتِ العُثمانيةِ حتَّى الأناضولِ .

وتلاها مرحلةُ « فِتنةِ السرَّاءِ » ، وهي المرحلةُ التي تجاوبَ فِيها بعضُ حُكَّامِ ورؤساءِ قبائلِ البِلادِ العربيةِ والإسلاميةِ ـ بِإدراكٍ أو بِغَيرِ إدراكٍ ـ لِمُساوماتِ الدُّولِ الاستِعمارية وقَبولِ إغراءاتِهم بِإثارةِ النُّعرةِ القوميةِ ، كالقوميةِ العربيةِ[1]

(١) كان لليهود وعلى رأسهم « هرتزل » الدور المباشر في إثارة المسألة القومية ، حيث كان

والانفِصالِ عن جسـدِ الدَّولةِ الإسـلاميةِ العُثمانيـةِ آنذاكَ مُقابِلَ مُسـاعداتٍ مُعينةٍ مِـنَ المـالِ والسـلاحِ والأغذيةِ وغيرِهـا ، بِاعتِبارِ فسـادِ الدَّولـةِ العُثمانيةِ سياسـيًّا وانعِـكاسِ ذلِكَ على البِلادِ العربيةِ والإسـلاميةِ ، ومُحاولـةِ البعضِ إنقاذَ ما يُمكِنُ إنقاذُه مِمَّا يُعتقَدُ أنَّه مِن مصلحةِ الإسلامِ والأُمَّة العربيةِ ، فكانَ الأمرُ بعدَ ذلِكَ على غَيـرِ المُتوقَّعِ ، وتحولَتِ القضيةُ إلى وِصايةِ الغربِ على القرارِ السياسـيِّ معَ إثارةِ الصِّراعِ الداخليِّ بَينَ حُكَّامِ العربِ على الحُكمِ ومُسـاندةِ كُلِّ فريقٍ ضِدَّ الآخَرِ[1] ،

حديث التمايز والتمايل والمعامع

اليهـود يطالبـون بوطن قومي لهـم ولكنهم لم يجدوا في البداية قبـولا من الدول العظمى ، حتـى بدأ العمل المشـترك بين بريطانيا واليهـود ، وعقدت المؤتمـرات العديدة حول هذه المسألة ، وبدأت بعض الدول بتبني مشروع القوميات وإثارة النعرات فيها ، وكان أول من عانى من ذلك دولة الخلافة نفسها ؛ حيث قامت العناصر المحرضة على القومية بالمطالبة الملحـة بفصل قوميات بلغاريا والمجر والبوسـنة والهرسـك وغيرها عن دولة الإسـلام ، وتذرعوا بشـتى الحيل والوسـائل ، وكان هذا تمهيدا سياسـيا لإنجاح مطالبة اليهود بوطن قومي في قلب البلاد الإسـلامية ، ونجحت الفكرة بدعم الدول الأروبية وأمريكا ، وتحقق الانهيـار والتقسـيم في الدولة الإسـلامية ، وتحققـت دولة الصهيونية وغيرها من مشـاريع الدجل والسياسة .

(١) ظهرت في مصر بعد سقوط دولة الخلافة دعوة من خلال الأزهر لعقد مؤتمر إسلامي عام لمناقشة مسألة « الخلافة الإسلامية » ، وكان وراء هذه الدعوة الملك فؤاد الذي كان يرغب في أن يصبح خليفة للمسـلمين ، وعقد المؤتمر في العاشـر من شعبان سنة ١٣٤٣هـ ، بعد أيـام من هدم الخلافـة ، واتفق المؤتمرون على عقد مؤتمر آخـر ، يدعى إليه جميع ممثلي الأمم الإسـلامية للبت في من تسـند إليه الخلافة الإسلامية بدلا عن عبدالمجيد العثماني، الذي وصفت بيعته بأنها غير شرعية ، ومر عام كامل من التحضير لهذا المؤتمر ، حتى عقد المؤتمـر الثانـي عـام ١٩٢٥هـ ، وفيه طغـت الخلافات بين زعماء العـرب حول الخلافة، وادعى كل من الحضور الخلافة لنفسـه، فطالب البعض بأن تكون للملك فؤاد ، والبعض للشريف حسين ، والبعض الآخر لأمير نجد عبدالعزيز بن سعود . كما دب الخلاف حول شـكل الخلافة ومضمونها، وتم تأجيل المؤتمر إلى السـنة القادمة ١٩٢٦م ، ثم فشل أيضا

وهو ما سمَّاه رسولُ اللَّهِ ﷺ بالتمايُزِ والتمايُلِ والمعامِعِ في حديثِ حُذَيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـالَ : قـالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « لـن تفنى أُمَّتـي حتَّى يظهرَ فيهِـمُ التمايُـزُ والتمايُلُ والمعامِعُ » . قُلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ما التمايُزُ ؟ قالَ : « التمايُزُ عصبيةٌ يُحدثُها الناسُ بعدي في الإسـلامِ » . قُلتُ فما التمايُلُ ؟ قالَ :« تميلُ القبيلةُ على القبيلةِ فتسـتحِلُّ حُرمتَهـا » . قُلتُ : ما المعامِعُ ؟ قالَ : « سَيرُ الأمصـارِ بعضُها إلى بعضٍ ، تختلِفُ أعناقُهم في الحربِ »[1]. وكانَ ما كانَ ...

تداعي الأمم أكلة القصعة على ثروات الأُمَّة

ويندرِجُ في هذا المُسمَى « السرَّاءِ » معنًى آخرُ ، وهو « ظُهورُ النِّعمةِ على الفردِ أوِ الجماعةِ أوِ الأُمَّةِ » باعتِبارِ المعنى المُقرَّرِ في قَولِه : « أصابَته سـرَّاءُ فشـكرَ » . فمِن معاني السرَّاءِ التي يشكُرُ العبدُ ربَّه علَيها ما يُجريه علَيهِ مِن نِعمةٍ ، وفي هذا الصددِ يُلاحَـظُ ما قـد هيَّأه اللَّهُ مِن أسـبابٍ حضاريةٍ ونِعـمٍ مادِّيةٍ لِلعربِ والمُسـلِمين في هذه المرحلةِ ، ومِنها « ظُهورُ واكتشافُ البترولِ » ، ولكِنَّ القرارَ العالميَّ المُهَيمِنَ على هذه الثرواتِ جعلَ المرحلةَ ومُخرجاتِها تنصبُّ في المصلحةِ الاسـتيراتيجيةِ

في معالجة المشكلة .

(١) رواه الحاكمُ في مُستدركِه (٨٥٩٧)، وقالَ صحيحُ الإسنادِ وتعقَّبَه الذهبيُّ بأنَّ فيه سعيدَ بنَ سِنانٍ قالَ : « وسعيدٌ مُتَّهمٌ به » . قالَ صاحِبُ كِتابِ «اتحافِ الجماعةِ » : وهذا الحديثُ وإن كانَ ضعيفَ الإسنادِ فقد ظهرَ مِصداقُه بما أحدثَه الناسُ مِنَ العصبيةِ في الإسلامِ ، ومِن هذه العصبيةِ ما يُسـمَّى فـي زمانِنا بـ« القَوميةِ العربيةِ » ، وكذلِكَ مَيـلُ القبائلِ بعضُها إلى بعضٍ واختلافُ أعناقِهم في الحربِ ، كُلُّ ذلِكَ وقعَ في هذه الأُمَّةِ ، وهذا مِمَّا يشهدُ لِهذا الحديثِ ويدُلُّ على أنَّ له أصلًا . واللَّهُ أعلمُ . إتحافُ الجماعةِ (١ : ٥١) .

قُلـتُ : ومنـه ما تصنعُه مِن تهديدِ بعضِ الدُّولِ الإسـلاميةِ والعربيةِ لِجاراتِها ، أوِ الهُجومِ علَيهـا واسـتقطاعِ بعـضِ أراضيهـا ، أو فـرضِ سياسـتِها الفِكريةِ علَيهـا تحتَ المُسـمَّياتِ المُتنوِّعةِ ، وقد يكونُ مِنها التمحُّكُ بالإسـلامِ ذاتِـه أو بِمذهبٍ مُعَيَّنٍ مِنَ المذاهِبِ المُنتميةِ إلَيه . وقد حصلَ مِثلُ هذا في جزيرةِ العربِ وغَيرِها .

لِلدُّولِ المُهَيمِنةِ .

ويجمعُ هذه الجُزئياتِ المُتنوِّعةَ مِنَ العملِ المُبطَّنِ والعملِ المُشـتَرَكِ بَينَ بعضِ المُسـلِمين - بِـإدراكٍ أو بِغيـرِه - والعالـمِ الاسـتِعماريِّ قولُه ﷺ عـنِ المرحلةِ : «يُوشِـكُ أن تداعـى علَيكمُ الأُمَمُ كما تداعى الأكلةُ علـى قصعتِها» . قالوا أمِن قِلةٍ نحـنُ يا رسـولَ اللَّهِ قـالَ : « لا ، أنتُم يومئذٍ كثيرٌ ، ولكِنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّـيلِ يُلقى علَيكـمُ الوهـنُ » . قالـوا : وما الوهنُ يا رسـولَ اللَّهِ ؟ قالَ : « حُـبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ ، وتُنزَعُ المهابةُ مِن صُدورِ عدوِّكم »[1] .

سقوط الخِلافة وبدء العهد العلماني

وبِهـذه الأحـداثِ والتحوُّلاتِ ومـا تلاها بدأَ عهـدُ الغُثائيةِ والوهنِ فـي الأُمَّتَين العربيـةِ والإسـلاميةِ ، بـدءًا مِـنَ المؤامـرةِ المُدبَّرةِ ، ثُـمَّ نقضِ الحُكمِ الإسـلاميِّ بِالحكـمِ العِلمانـيِّ فيمـا بعـدُ ، وإعـلانِ الدَّولـةِ العِلمانيةِ فـي ٣٠ تِشـرين الأوَّلِ ١٩٢٣م، وصُدورِ مرسوماتِ الدَّولةِ بفكرِها العِلماني الجديدِ على النحوِ التالي :

- تخلِّـي مُصطفـى أتاتوركُ عـن جُملةِ أراضـي تُركيـا وسـواحِلِها ومضايقِها للحُلفاءِ .
- إلغاءُ القوانينِ الشرعيةِ وإقامةِ الدُّستورِ المدنيِّ .
- تعميقُ مفهومِ الطورانيةِ « المفهومِ القَوميِّ » .
- إلغاءُ حِجابِ المرأةِ .
- تحويلُ العُطلةِ الرسميةِ مِنَ الجُمُعةِ إلى الأحدِ .
- الأذانُ باللغةِ التُّركيةِ بدلًا مِنَ اللُّغةِ العربيةِ .



أتاتورك

(١) سنن أبي داود (٤٢٩٩).

- منعُ التعامُلِ بالعربيةِ واستِبدالُ الإنكليزيةِ بها .

مؤتمرات الأعداء ضد القرار الإسلامي

وقد سبقَ هذه الإجراءاتِ إجراءاتٌ مُشابِهةٌ في مُؤتمرِ لوزانَ عامَ ١٩٢١م ، وحضرَه وفدُ تُركيا بِرئاسةِ مُصطفى أتاتوركَ ، وفيه وضعَ الوفدُ الإنكليزيُّ أربعةَ شُروطٍ لِلاعتِرافِ بِاستقلالِ تُركيا :

- إلغاءُ الخِلافةِ الإسلاميةِ .
- طردُ الخليفةِ خارِجَ الحُدودِ .
- إعلانُ عِلمانيةِ الدَّولةِ .
- مُصادرةُ أملاكِ بني عُثمانَ .

المكاسب الاستعمارية بسقوط الخِلافة

ومُنذُ تِلكَ اللحظةِ ونظامُ الدَّولةِ العِلمانيةِ يُحقِّقُ المُقوِّماتِ الاستِعماريةَ التاليةَ:

- سياسةُ يهودِ الدونمةِ في سالونيكَ ومحافِلُهم الماسونيةُ في البِلادِ العربيةِ والإسلاميةِ .
- الإرسالياتِ التبشيريةِ (التنصيرية) في فُروعِها المُختلِفةِ ، وما تحتويه مِن تغييرٍ في شبابِ العربِ والمُسلِمين .
- تفعيلُ دَورِ جمعيةِ الاتِّحادِ والترقِّي ، وتسهيلُ مُهِمَّاتِها وتعاونِها معَ الأقلياتِ الأجنبيةِ .
- إنجاحُ مشروعِ هِرتِزلَ لِلبحثِ عن وطنٍ قَوميٍّ لِليهودِ[1] .

---

(١) ترجع البدايات الأولى لفكرة إنشاء وطن خاص لليهود ، يجمع شتاتهم ، ويكون حارسا أمينا على مصالح دول « أوروبا » الاستعمارية في الشرق إلى ما قبل الحملة الفرنسية على مصر ، وتجلى ذلك بوضوح في خطاب نابليون ، الذي وجهه إلى يهود الشرق ؛ ليكونوا عونا له في هذه البلاد ، وقد وجدت هذه الدعوة صدى لها لدى كثير من اليهود .
ومع نهايات القرن التاسع عشر انتقلت فكرة الصهيونية التي تزعمها تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية من مرحلة التنظير إلى حيز التنفيذ ، وذلك بعد المؤتمر الصهيوني الأول ، الذي عقد في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧م ، وتجلى ذلك بوضوح في سعي الصهيونيين الدائب للحصول على تعهد من إحدى الدول الكبرى بإقامة وطن قومي لهم ، وكانت بريطانيا بشخص وزير خارجيتها صاحبة الفضل في الوعد المشؤوم ، الذي

• ولـم تنتـهِ معاركُ الحُـروبِ الكَونيـةِ الأولى والثانيـةِ على تباعُـدِ أزمِنتِها إلَّا لِتحقيـقِ أهدافِها الاسـتِعماريةِ في العالـم كُلِّه.. ومِنها إيجادُ سـقفٍ عالميٍّ

اقترن باسمه في التاريخ .

وبتكليف من الحلفاء أقدمت بريطانيا على تلك الخطوة الخطيرة ، فأصدرت وعد بلفور ، ونشرته الصحف البريطانية صباح ٢ نوفمبر ١٩١٧م ، وكان نصه :

وزارة الخارجية ٢ نوفمبر ١٩١٧ م

عزيـزي اللورد روتشـيلد ، يسـرني جدا أن أبلغكـم بالنيابة عن حكومـة صاحبة الجلالة التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية ، وقد عرض على الـوزارة وأقرتـه : إن حكومـة صاحبة الجلالة تنظـر بعين العطف إلى تأسـيس وطن قومي للشـعب اليهودي في فلسـطين ، وستبذل غاية جهدها لتسـهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يكون مفهوما بشـكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شـأنه أن ينتقد الحقوق المدنية والدينية التـي تتمتـع بهـا الطوائف غيـر اليهودية المقيمـة الآن بفلسـطين ، ولا الحقـوق أوالوضع السياسـي الـذي يتمتع بـه اليهود في البلدان الأخرى ، وسـأكون ممتنا إذا مـا أحطتم اتحاد الهيئات الصهيونية علما بهذا التصريح .   المخلص . آرثر بلفور

فور هذا الوعد سـارعت دول الغرب وعلى رأسـها فرنسا وإيطاليا وأمريكا بتأييده ، بينما كان فـي مناطق العالم العربي له وقع الصاعقة ، واختلفت ردود أفعال العرب بين الدهشـة والاستنكار والغضب .

ودخلـت الجيوش البريطانيـة بقيادة اللورد اللنبي إلى القدس ، وترجل القائد الإنكليزي وقال كلمته الشهيرة : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

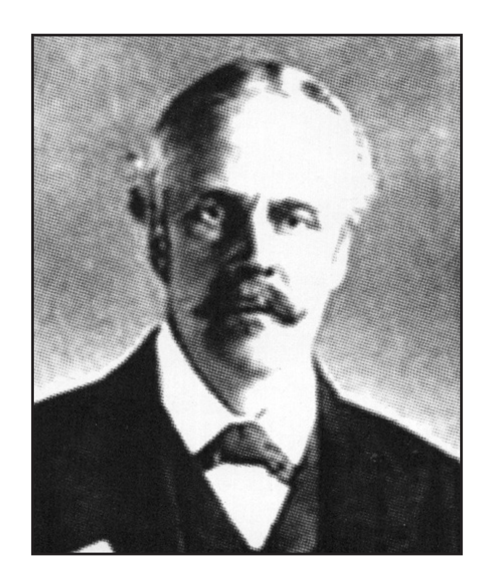
وبعد ذلك بنحو ٣ أعوام دخل الجنرال الفرنسي غورو دمشق في عام ١٩٢٠م ، ووضع قدمه على قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يقول في تحد وتشف لا يخلو من الحقد : ها نحن قد عدنا ثانية يا صلاح الدين .

وفـي نيسـان إبريـل ١٩٢٠م وافق المجلـس الأعلى لقـوات الحلفاء علـى أن يعهد إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين ، وأن يوضع وعد بلفور موضع التنفيذ ، ثم ما لبث مجلس عصبـة الأمـم المتحـدة أن وافق على مشـروع الانتداب فـي ٢٤ يوليـو ١٩٢٣م ، ثم دخل مرحلة التطبيق الرسمي في ٢٩ سبتمبر ١٩٢٣م .

لِحِمايةِ مكاسبِ الاستِعمارِ سُمِّيَ بِعُصبةِ الأُمَمِ ثم الأُمَمِ المُتحِدةِ .

- تقسيمُ العالمِ إلى كُتلتَين شرقيةٍ وغربيةٍ لِتفعيلِ الصِّراعِ الرأسماليِّ والشُّيوعيِّ وتوزيعِ الأُمَمِ العربيةِ والإسلاميةِ ضِمنَ هاتَين الكُتلتَين ، لِتفعيلِ الصِّراعِ الطبقيِّ والسِّياسيِّ والاجتماعيِّ والثقافيِّ المُؤدِّي إلى ما تُسمَّى بِالحربِ البارِدةِ .
- غرسُ الكِيانِ الصهيونيِّ في فِلسطِينَ والاعتِرافُ بِه دوليًّا وحِمايتُه .
- دعمُ البرنامجِ القَبليِّ « التحريشِ » في الجزيرةِ بِتفعيلِ الصِّراعِ القَبليِّ والمذهبيِّ بَينَ المُصلِّين مِن عربِ الجزيرةِ ، كما بيَّنَه ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » . رواه الترمِذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ .
- تثبيتُ السياسةِ العِلمانيةِ في تُركيا ومدِّ الفكرِ العلمانيِّ في الحكمِ عبرَ السياسةِ الاستِعماريةِ إلى بِلادِ الإسلامِ والمُسلِمين مِن خِلالِ الغزوِ العسكريِّ والثقافيِّ والإعلاميِّ والتعليميِّ المسيسِ المُتدرِّج .

امتداد العلمانية بالاستعمار



Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Yours,

Arthur James Balfour

المرحلة الغثائية

آخر مراحل الخلافة العثمانية

تحديات الخارج
- أطماع الدول الأوروبية
- أطماع اليهود في فلسطين
- أطماع المحافل الماسونية
- يهود الدونمة

الغزو البرتغالي ثم البريطاني
تداعي الأمم
(تركة الرجل المريض + المسألة الشرقية)

تحديات الداخل
- ضعف الدولة الاقتصادي
- بدء تمزق الدولة
- دعوات القوميات
- جمعيات الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة ونحوها
- التأثر بالعالم الغربي

إسقاط عبدالحميد الثاني ١٣٢٤ هـ (١٩٠٩م)

الخلافة العثمانية المدونمة

تفكيك عرى الدولة العثمانية وإقحامها في اللعبة الدولية

مؤتمر سايكس بيكو يونيو ١٩١٦
إعلان الثورة العربية يوليو ١٩١٦

الحرب العالمية الأولى

بدأت ١٩١٤ — انتهت ١٩١٩

وعد بلفور ٢ نوفمبر ١٩١٧
الثورة البلشفية ٨ نوفمبر ١٩١٧

هزيمة تركيا في الحرب وتقسيم تركة الرجل المريض ١٩١٨

تأسيس عصبة الأمم ١٩١٩

إلغاء الخلافة الإسلامية وقيام النظام العلماني في تركيا ١٩٢٤

معاهدات الحماية والتعاون بين الغرب والدويلات والقبائل

الحرب العالمية الثانية

بدأت ١٩٣٧ — انتهت ١٩٤٥

سلطنات
إمارات
دويلات
مشيخات
محميات

تأسيس الأمم المتحدة / صندوق النقد الدولي / البنك الدولي ١٩٤٥

العهد القبلي — الاعتراف بدولة اليهود

إلغاء أفكار الخلافة الإسلامية والثورة العربية

الحرب الباردة

صراع الرأسمالية والشيوعية

مرحلة الاستهتار

ثمرات الصراع في الوطن العربي والإسلامي

مرحلة الاستهتار

الصراع الحزبي — الصراع الطبقي — الصراع الاعتقادي — الصراع الطائفي

إلغاء مقياس الذهب من النظام المالي العالمي ١٩٧٣

إسقاط النظام الشيوعي ١٩٩١

مرحلة العولمة

نظام القطب الواحد

مرحلة الاستثمار

الفتنة الرابعة العمياء البكماء الصماء التي يؤول أمر الأمة فيها إلى الكافر

مرحلة الاستثمار

الانهيار الاقتصادي وإعادة ترتيب النظام المالي العالمي

التدخل في شؤون الدول العربية والإسلامية
السودان / فلسطين / لبنان / العراق
وما سيلحق

نزع السلاح النووي وهيمنة الاستعمار الجديد

فتنة الأحلاس — فتنة السراء — فتنة الدهيماء — الفوضى الخلاقة

فِتنةُ الدُّهَيماءِ .. مرحلةُ الاستِهتارِ

فتنة الدُّهَيماء علامة صغرى في مرحلة الغثاء

سبقَتِ الإشارةُ إلى مرحلةِ الأحلاسِ والسـرَّاءِ وتلازُمِهما معًا في تهيئةِ كُلٍّ مِنها لِلأُخرى فيما عُرِفَ بمرحلةِ الدُّهَيماءِ وهي كما وردَت في أحاديثِ مَن لا ينطِقُ عنِ الهوى ، ، ومِنها حديثُ (فِتنةِ الأحلاسِ وفِتنِ السرَّاءِ) وقالَ فيه : «ثُمَّ فِتنةُ الدُّهَيماءِ ... فـإذا قيـلَ انقطعَت تمادَت » ، « ... لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِـنْ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ... »[1] ،وفي الفِتنة الثالثةِ (الدُّهَيماءِ) : « يقاتِلُ الرجُلُ فِيها لا يدري على حقٍّ يُقاتِلُ أم على باطِـلٍ »[2] ، وفِيهـا تحوَّلَتِ القضايـا كُلُّها إلى قضايا قَوميةٍ وعصبيـةٍ، ومِنها «قضيةُ فِلسـطِينَ» حيثُ صارَت قضيةَ الفِلسـطينيِّين والصهاينةِ ، ولم تعُدْ قضيةَ الإسـلامِ، وذلِكَ مُنذُ تقسيمِ وتجزئةِ دَولةِ الخِلافةِ رسميًّا حتَّى اليومِ.

تحول القضية الإسلامية إلى أطماع قومية إقليمية

ومُنـذُ رسـمِ خرائـطَ مناطقيةٍ جديـدةٍ شُـغِلَتِ البِلادُ العربيـةَ بِسياسـاتِ التجزئةِ والصـراعِ الداخلـيِّ والحُدوديِّ والإقليمـيِّ والانقلاباتِ السياسـيةِ ، كما ورد في الحديـثِ : «فـلا يزالـونُ كذلِكَ حتَّى يصيـروا إلى فُسـطاطَين : فُسـطاطُ إيمانٍ لا نِفـاقَ فيه ، وفُسـطاطُ نِفاقٍ لا إيمانَ فيه ، فإذا هما اجتمعَـا فارصُدِ الدَّجَّالَ اليومَ أو غده»[3]، وحديثِ الوليدِ بنِ مُسلِمٍ رفعَه إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ أنَّه قالَ في الفِتنةِ الثالثةِ فِتنةِ الدُّهَيماءِ :« ويُقاتِلُ الرجُلُ فِيها لا يدري على حقٍّ يُقاتِلُ أم على باطِلٍ »[4] .

وكما هو في مرحلةِ الأحلاسِ والسـرَّاءِ وتلازُمِهما ، وتسميةِ كُلٍّ منهما لِلأُخرى

---

(١) مسند أحمد (٦٣١٢) .

(٢) الفتن (١٠٨)

(٣) مسند أحمد (٦٣١٢) .

(٤) الفتن لنعيم بن حماد (١٠٨) .

صراع القوتين: الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي

، فـإن فِتنـةَ الدُّهَيماءِ هي ثمـرةٌ مِن ثمراتِ العملِ المُشـتركِ فـي مرحلةِ الأحلاسِ والسرَّاءِ ، فتدخُلُ في هذه المرحلةِ جُزءاً مِمَّا عُرِفَ بمرحلةِ الاستِعمارِ ثُمَّ الاستِهتارِ ، وهو ما أفرزَه الوطنُ العربيُّ والعالمُ الإسلاميُّ مِنَ التحوُّلاتِ المنبثقةِ عنِ صِراعِ الكُتلتَين العالمِ الرأسـماليِّ والعالمِ الإلحاديِّ الشُّـيوعيِّ ، وانقسـامِ العالمِ العربيِّ والإسـلاميِّ إلى رأسماليٍّ وشُـيوعيٍّ ، وامتِدادِ الصِّراعِ بَينَهما على المدى الطويلِ ، وتأثيـرِ هذا الصِّراعِ على التُّركيباتِ الاجتماعيةِ اقتصاديًّا وثقافيًّا وتربويًّا وتعليميًّا وطبقيًّا ، ومِن ذلِكَ ما رُوِيَ عن عبدِاللَّهِ بنِ عمرٍو بِقَولِه : « إنَّ مِن أشـراطِ السـاعةِ أن يُوضَعَ الأخيارُ ويُرفَعَ الأشرارُ ويسودَ القومَ مُنافِقوهم »[١].

ومـن مظاهـرِ هـذهِ المرحلـةِ بـروزُ (الهـرجِ) الجماعيِّ بيـنَ المسـلمينَ تحتَ مبرِّراتِ السياسـةِ القوميةِ والحزبيةِ والعرقيةِ والطائفيةِ، وفيها يقول ﷺ : « إنّ بينَ يَدَي السـاعةِ لَهَرْجاً » ، قالَ : قلتُ : يا رسـول الله ما الهَرْجُ؟ قال : «القتل»، فقالَ بعضُ المسلمينَ : يا رسولَ اللهِ.. إنّا نقتلُ الآن في العامِ الواحدِ من المشركينَ كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ بِقَتْلِ المشركينَ ولَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً حَتّى يَقْتُـلَ الرجـلُ جارَه وابنَ عمِّـه ذا قَرابتِه » ، فقال بعض القوم : يا رسـول الله ومعنا عقولُنا ذلك اليوم ؟! فقال رسول الله ﷺ: «لا.. تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذلك الزمانِ ويَخْلُفُ لَهُ هباءٌ مِنَ النّاسِ لا عُقُولَ لَهُمْ»[٢].

ولعـلَّ المقصـودَ منْ قولِـه: « لا عُقُولَ لَهُـمْ » أي : لا وَعْيَ لهمْ يُمَيِّـزُ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الحَـقِّ والباطلِ ، وهذا ينطبقُ على أُخْرَيَاتِ الزمانِ عندَ قبضِ العلماءِ ونقضِ العلمِ وفُشُوِّ الجهلِ وعبادةِ الدنيارِ والدرهمِ.

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (٦٦٣) .

(٢) سنن ابن ماجه (٣٩٤٩).

وهذه العلاماتُ قد وقعتْ وازدادَ بروزُها وظهورُها في هذه المرحلةِ ، وزاد على الهَرْجِ التَّنَاكُرُ كما أخبرَ عنهُ ﷺ في حديثِ حذيفةَ قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الساعةِ فقال: « ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ولكنْ أُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِها وما يكونُ بينَ يَدَيْهَا ، إنّ بينَ يَدَيْهَا فتنةً وهَرْجاً » ، قالوا : يا رسول اللهِ الفتنةُ قد عرفْناها فالهرجُ ما هو ؟ قال : «بِلِسَانِ الحَبَشَةِ : القَتْلُ ، ويُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التناكرُ فلا يكادُ أحدٌ أن يَعْرِفَ أحداً»، وهذه جملةٌ من ظواهرِ المرحلة وما تَفَرَّعَ عنها بعد ذلك في حياةِ الأمّةِ.

الفتنة الرابعة التي يؤول أمر الأُمَّة فِيها إلى الكافر

الفِتنةُ الرابعةُ «العمياءُ البكماءُ الصمَّاءُ»

«مرحلةُ الاستثمارِ» - «الألفيَّةُ الثالثةُ»(١)

وهـي الفِتنـةُ الرابِعةُ اللاحِقةُ والمُكمِّلةُ لِلخُططِ الاستِعماريةِ السابقةِ ، وتُعرَفُ بِالاستِقراءِ والمتابعةِ والربطِ بينَ الأقوالِ النبوِيةِ ومُجرياتِ التحوُّلاتِ ، وقد تعددَتِ الأحاديثُ المعبِّرةُ عنها ، وبعضُها مُجمَلٌ وبعضُها مُفصَّلٌ ، ومن هذه الأحاديثِ :

(١) عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « تأتيكم مِن بعدي أربعُ فِتَنٍ ، فالرابِعةُ الصمَّاءُ العمياءُ المُطبِقةُ تعركُ الأُمَّةَ فِيها بِالبلاءِ عركَ الأديمِ ، حتَّى يُنكَر فِيها المعروفُ ويُعرَفُ فِيها المُنكرُ ، تموتُ فِيها قلوبُهم كما تموتُ أبدانُهم»(٢).

أحداث ١١ سبتمبر تمثل إلى حدٍّ ما بدء (مرحلة الفتنة الرابعة)



(١) ربطنا هذه المرحلة بمسمى « الألفية الثالثة » بعد الاستقراء المتأني والمقارنة الموضوعية بين المراحل السابقة والمسماة في الأحاديث بالدهيماء والسراء والأحلاس (عدا تصاعديا) ، وهي المراحل الغثائية ، وتبين أن ما عرف بأحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر ٢٠٠١م ، المتسم بتحطيم برجي : مركز التجارة الدولي رمز الاقتصاد ، والبنتاجون الرمز العسكري . وما ترتب عليه من تفاعلات وحوادث وتغيرات في العلاقات الدولية ، وظهور الهيمنة الاستبدادية « للقوى العالمية » ، واجتماعها لتنفيذ إرادتها على العالم بما فيه العالم العربي والإسلامي ؛ يمثل إلى حد ما بدء « مرحلة الفتنة الرابعة » المشار إليها في الأحاديث النبوية ، والله أعلم .

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (١٢٦)

(٢) حديثُ أبي هُريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ – وذكرَ الفِتنةَ الرابِعةَ ، ولم ينجُ من شـرِّها إلَّا مَن دعا كدُعاءِ الغَرقِ ، وأسـعدُ أهلِها تقيٌّ خفـيٌّ إذا ظهرَ لم يُعرَفْ ، وإن جلسَ لم يُفقَدْ ؛ وأشقى أهلِها كُلُّ خطيبٍ مِصْقَعٍ أو راكِبِ موضِعٍ »[1] .

(٣) وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ :قالَ ﷺ : الفِتنةُ الرابِعةُ عمياءُ مُظلِمةٌ تمورُ مَورَ البحرِ لا يبقى بَيتٌ مِنَ العربِ والعجمِ إلَّا ملأَته ذُلًّا وخوفًا ، تطيفُ بالشامِ وتغشى العِراقَ وتخبُطُ الجزيرةَ بيدِها ورِجلِها ، تعركُ فِيها الأُمَّةُ فِيها عركَ الأديم ، ويشـتدُّ فِيهـا البلاءُ حتَّى يُنكَرَ فِيها المعروفُ ، ويُعرَفُ المُنكَرُ ، لا يسـتطيعُ أحدٌ أن يقولَ : مَـهْ مَـهْ . ولا يرفعونها مِن ناحيـةٍ إلَّا تفتَّقَت مِن ناحيةٍ ، يصبِـحُ الرجُلُ فِيها مؤمنًا ، ويُمسي كافرًا ، ولا ينجو مِنها إلَّا مَن دعا كدعاءِ الغريقِ في البحرِ ، تدومُ اثنتَي عشرَ عامًا تنجلي حينَ تنجلي وقد انحسرَ الفُراتُ عن جبلٍ مِن ذهبٍ ؛ فيقتتِلون علَيها ، حتَّى تُقتَلَ من كُلِّ تِسعةٍ سبعةٌ »[2].

جبل الذهب والاقتتال عليه

(٤) وعن أبي هُريرةَ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « الفِتنةُ الرابعةُ ثمانيةَ عشـرَ عامًا ، ثُـمَّ تنجلي وقد انحسـرَ الفُراتُ عن جبلٍ مِن ذهبٍ ، تكُـبُّ؟؟؟ علَيهِ الأُمَّةُ فيُقتَلُ علَيه مِن كُلِّ تِسعةٍ سبعةٌ »[3].

وعـن علـيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال : « الفِتَن أربعٌ : فِتنةُ السـرَّاءُ ، والضـرَّاءُ ، وفِتنةُ كذا – فذكـرَ معـدِنَ الذَّهبِ – ثُـمَّ يخرجُ رجُلٌ مِن عِترةِ النبيِّ ﷺ يُصلِـحُ اللَّهُ تعالى على يدَيه أمرَهـم »[4] .

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (٣٦٧)

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (١٣٠) .

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (٩٧٢)

(٤) الفتن لنعيم بن حماد (٩٤).

مفهوم الحديث: يؤول أمر الأُمَّة إلى الكافر

وخُلاصـةُ القَولِ فيمـا وردَ مِنَ الأحاديثِ المُتنوِّعةِ عنِ الفِتنـةِ الرابعةِ قَولُه ﷺ : «يؤُولُ أمرُ الأُمَّةِ فيها إلى الكافِرِ » . ومفهومُ الحديثِ يدُلُّ على ما نحنُ نشـهدُه مِنَ الضُّغوطِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والإعلاميةِ ... إلخ في الحياةِ العربيةِ والإسـلاميةِ ، والارتباكِ الواضحِ في المُجتمعاتِ المذكورةِ بالسياساتِ المُشتركةِ ، والتدخُّـلِ الثقافيِّ والاقتصاديِّ والسياسـيِّ والاجتماعيِّ والسـياحيِّ والإعلاميِّ المفـروضِ علـى العالـمِ الإسـلاميِّ والعربيِّ فـي المرحلـةِ ، حتَّى رُبَّمـا يصِلُ في بعـضِ أحوالِه إلى تهديـدِ حملةِ القرارِ عِندَ مُخالفتِهم ، وغَزوِ أراضيهم واسـتبدال غيرِهم بهم ، وإثارةِ الفِتَنِ داخلَ مُجتمعاتِهم ورعاياهم بِشـتَّى أصنافِ السياسـاتِ والأسـبابِ[1] ، ومِنهـا : ما يصِـلُ إلَيهم مِنَ الغِنـى المُطغِي ، وهو وجـودُ الثرواتِ الكثيـرةِ ، وتبديدُها فيما لا يعودُ بنفعٍ لِلشُّـعوبِ ، بالإضافةِ إلى الطُّغيانِ السياسـيِّ والاقتصاديِّ والعالميِّ والاجتماعيِّ والثقافيِّ المُوجَّهِ لِلاستِهلاكِ والخِدْماتِ .

التدخل الكافر في سياسة الإسلام ونقض العرى

وكذلـك مـا يَصِـلُ إليهم مِـنَ الفقـرِ المُنسـي، وهو تـركُ الاكتفـاءِ الذاتـيِّ عدمُ الاعتمادِ على الحِرفِ اليدويةِ والزراعةِ المحليةِ ، والاشـتغالُ بِالوظائفِ والنُّزوحِ مِـنَ الأريافِ إلى المُـدُنِ طلبًا لِخِدْماتِ العَيشِ الرغيدِ وهُروبًـا مِن مُعاناةِ الأعمالِ الحِرفيةِ والرعيِ والزراعةِ وغيرِها ، وخاصَّةً في أجيالِ هذه البداواتِ بعدَ أن تهيَّأَت لهم أسـبابُ الدراسةِ الحديثةِ ، وذهبوا لِلبحثِ عنِ الوظائفِ في المُدُنِ والعواصِمِ ، وفـي ذلِـكَ روى عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه ﷺ كان يقـولُ: «لَنْ تَنْفَكُّوا بِخَيْرٍ ما اسـتَغْنَى أَهلُ بَدْوِكُمْ عن أَهْلِ حَضَرِكُمْ»، قال: «وَلَتَسُـوقَنَّهُمُ السِّـنِينُ والسِّـنَاتُ حَتّى يَكُونُوا مَعَكُمْ في الدِّيَارِ، ولا تُمْنَعُوا مِنْهُمْ لِكَثْرَةِ مَنْ يَسْـتُرُ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ، قال:

ظاهرة الهجرة إلى العواصم وترك العمل الحرفي الزراعي

---

(١) وهي ما يطلق عليه اليوم بالفوضى الخلاقة من وجهة نظر العولمة .

«يَقُولُونَ: طَالَمَا جُعْنَا وَشَبِعْتُمْ، وَطَالَمَا شَقِينَا وَنَعِمْتُمْ، فَوَاسُونَا اليَومَ »[1].

الغلاء في الأسعار قلقٌ مسيَّسٌ من تدخلات الكافر في الأُمَّة

ومِنَ الفقرِ المُنسي المفروضِ على الأُمَّةِ في الفِتنةِ الرابعةِ زيادةُ الأسعارِ في الموادِ الغذائيةِ والوقودِ وغيرِها بَينَ الحينِ والآخرِ مِمَّا يُسهِم في زيادةِ القَلقِ ونِسيانِ التوكُّلِ على اللَّهِ والانصرافِ عن ذِكره تعالى إلى الصراعِ والمُنازعةِ والاختِلافِ الهالِكِ، كما قد حصلَ وشُوهِدَ في اليمنِ والعِراقِ والصُّومالِ والأفغانِ والسُّودانِ وغيرِها.

أسباب الانحدار الشرعي في الفتنة الرابعة

وكما حدَّدَ رسولُ اللَّهِ ﷺ (حالةَ الأُمَّةِ في الفِتنةِ الرابِعةِ) فقد كشفَ عن أسبابِ الانحِدارِ مِنَ الناحيةِ الشرعيةِ بِقَولِه:

كثرة القراء وقلة الفقهاء

- «سيأتي على أُمَّتي زمانٌ يَكثُرُ فيه القُرَّاءُ» أي: حملةُ المعرفةِ القِرائيةِ المُجردةِ، المُرَدِّدون ما يُكتَبُ لهم في الصحافةِ والمناهِجِ المقبوضةِ، وبمعنى لائقٍ: العاكسين سياسةَ المرحلةِ المتناقِضةِ والأنظمةِ الحائرةِ القائمةِ فِيها.
- «ويقِلُّ فِيها الفقهاءُ» أي: حملةُ الفِقهِ بِمعانيه ودقائقِه، والمقصودُ فِقهُ الديانةِ وكافةِ وُجوهِها الشرعيةِ والاقتصاديةِ والثقافيةِ والتربويةِ والتعليميةِ والإعلاميةِ.
- «ويُقبَضُ العِلمُ»، وسيأتي في الفصل التالي: العلامات الصغرى.

كثرة الاقتتال والصراع الدموي

- «ويكثُرُ الهَرْجُ» وهو القتلُ والاقتِتالُ، كما وردَ في الحديثِ: قالُوا: وما الهَرْجُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «القتلُ بَينكم، ثُمَّ يأتي بعدَ ذلِكَ زمانٌ يقرأُ القُرآنَ رِجالٌ مِن أُمَّتي لا يُجاوِزُ تراقيَهم، ثُمَّ يأتي بعدَ ذلِكَ زمانٌ يُجادِلُ

(١) الفتن لنعيم بن حماد (٦٥٧)، والحاكم في المستدرك (٨٥٤٨).

مؤتمرات الحوار والاستثمار

المُشـرِكُ بِاللَّـهِ المُؤمِـنَ فـي مِثلِ ما يقـولُ »[1]. والمُشـرِكُ بِاللَّهِ هـو الكافرُ الأصلـيُّ مِـنَ اليهـودِ والنصـارى وأهـلِ الأوثـانِ والمجادلةِ، ومـن معانيه «مؤتمـراتُ الحِوارِ الحضاريِّ والمصالِحِ الثقافيـةِ والاقتصاديةِ والإعلاميةِ المشـتركةِ المخالفـة لمناهـج الشـريعة، والتي تشـتمِلُ على تقاسُـمِ العملِ المشـترِكِ في المبادِئِ: المسـاواةِ والعدالةِ وحُقوقِ الإنسـانِ وما شـاكلَها، على أساسِ تطويعِ العالمَين العربيِّ والإسلاميِّ لِبرامجِ العَولمةِ، وقد كانَت هـذه المبادِئُ لُغةَ الإسـلامِ فقـط، وأما الكُفَّارُ فقدِ انعدمَـت بِكُفرِهم معاني القيـمِ الصحيحةِ القائمةِ على طلـبِ الثوابِ والخَوفِ مِنَ العِقابِ وبقيَ لهم في الوجهِ الرسـميِّ مصالِحُ سياسـيةٌ واستِعماريةٌ واسـتِثماريةٌ؛ ولكِنَّ الفِتنةَ الرابِعـةَ تُجبِرُ العالمَ العربيَّ والإسـلاميَّ على تقاسُـمِ الرؤيةِ مـعَ الكُفَّارِ لِما وصل إلَيه المُسلمون في مراحلِ الغثاءِ مِنَ الجهلِ بِالدينِ وأُسُسِه الاعتباريةِ فـي العلاقةِ بِالآخَرِ، حتَّى يتنازلَ بعضُ المُسـلِمين عـن تدريسِ بعضِ آياتِ القُـرآنِ الخاصَّـةِ بالتعنيـفِ على اليهودِ والنصـارى، وتُحذَفُ مِـنَ المناهِجِ التعليميةِ إرضاءً للكُفَّارِ واسـتِجابةً لِهَيمنتِهم ومُجادلتِهم وشراكتِهِمُ الثقافيةِ والاقتصاديةِ والإعلاميةِ.

العدالة من مبادئ الإسلام ولا علاقة للكفر بذلك

ظاهرة التخلي عن تفسير الآيات القرآنية لِما فيها من إدانة للكفار

خطر الثقافات الغازية على التركيب الإسلامي الموجه

فـي نفسِ الوقتِ الـذي غزَتِ الثقافةُ الأجنبيـةُ المُعاديةُ لِلإسـلامِ وثقافتِه عالمَنا العربـيَّ والإسـلاميَّ مِـن كُلِّ جِهاتِه، تمـارِسُ القُـوى المُتَنفِذةُ في القـرارِ العربيِّ والإسـلاميِّ ضُغوطَها المُستمِرَّة؛ لترويضِ شُـعوبِ القُرآنِ والسُّنَّةِ بما هي فيه مِنَ الغُثاءِ المسـيسِ على قَبولِ هذه الثقافاتِ الغازيةِ واسـتِعجالِ الارتباطِ بها، وتبنِّيها فـي مؤسسـاتِ الثقافةِ والإعـلامِ والتربيةِ الحديثـةِ والتعليمِ وغيرِها فـي كُلِّ موقعٍ

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٣٢٧٧).

قـرارًا غُثائيًّا بِما يُناسِبُه ويناسِـبُ مَوقِعَه المحلـيَّ والإقليميَّ مِنَ «القُـربِ والبُعدِ» فـي السياسـةِ الكافِرةِ، وبَينَ «القُربِ والبُعدِ عنِ الإسـلامِ ذاتِـه»، وهذا ما عبَّرَ عنه النبيُّ ﷺ بِقَولِه: «كُلَّما نُقِضَت عُروةٌ تمسَّـكَ الناسُ بالتي تليها ...»[1]. فكم من عُروةٍ مِن عُرى الإسلامِ قد نُقِضَت في السياسةِ والاقتِصادِ والثقافةِ والفِكرِ والتربيةِ والتعليمِ والإعلامِ، ومُسـمَّى حُقوقِ المرأةِ وحُقوقِ الإنسـانِ، وما تلاه ويتلوه مِن سياسـةِ النقضِ والقبضِ والتحريفِ والتشـويهِ القائمِ على قدمٍ وساقٍ في الأوطانِ المغلوبةِ[2] والمُجتمعاتِ المنكوبةِ؟! فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العليِّ العظيمِ.

---

(١) مسند أحمد (٢١١٣٩).

(٢) ومـن أخطر ما تعيشـه الأمة اليوم من سياسـة القبض والنقض والتطبيـع والتطويع «مؤامرة الخيانـة فـي قضيـة القـدس والمقاومـة الإسـلامية فـي فلسـطين ضد العـدو المحتـل»، وهـي إحـدى قضايانا الإسـلامية الملحة، وقد وصلـت إلى ما وصلت إليه مـن (المؤامرة المشـتركة) متدرجة من عصر هرتزل وما جاء بعده من مؤتمرات واختلالات سياسـية إلى عصرنـا الحاضـر، وقد صارت فيـه القضية على وشـك التطبيع محليا وإقليميـا وعالميا، مـع تظافـر القوى العربية وبعض المنظمـات والحكومات الإسـلامية والعالمية على تنفيذ المخطـط اليهـودي بأسـلوب أو بآخر؛ ولكنـا إذا تمعنا فـي العمل الشـعبي المتنامي نجد الأنفاس الإسلامية الحقيقية قائمة بدورها الجهادي ونشاطها الريادي وفق مراد الله ومراد رسـوله ﷺ، ومن ذلك صمود الشـعب الفلسـطيني وبعـض منظماته الجهاديـة، وصمود بعض الشخصيات المتنفذة سواءً في الحكم أو العلم أو المال أو الإصلاح الشعبي لإعطاء القضية بعدا إسـلاميا جهاديا مسـتمرا، ومن هؤلاء جملة من الشـخصيات الإسلامية وغير الإسـلامية ـ من واقع التعاطف مع الحق ـ الداعية إلى الوقوف مع الشـعب الفلسـطيني في قضيته العادلة، وربما كان من آخر محاولاتهم الجادة التي يحسـن ذكرها وإثباتها كنموذج إسلامي واعد عمل «المؤتمر الشعبي العالمي لنصرة فلسطين» وشعاره «نحو نصرة دائمة لفلسـطين»، ومن أهم ما حمله أعضاء هذا المؤتمر في المرحلة الوقوف الشـعبي لإيقاف المؤامرة على نماذجها الثلاثة: تهويد القدس، مسألة العودة للاجئين، يهودية الدولة.

كما جعلوا مفهوم النصرة يقوم على معالجة ثلاثة أمور:

ملاحظةٌ على هامِشِ المرحلةِ الغُثائيةِ

دراسة الركن الرابع تمنع الزج بالشعوب في سبيل المطالبة بالقرار

تُؤكِّدُ الدراسةُ الشرعيةُ للرُّكنِ الرابعِ مِن أركانِ الدينِ ، وما يترتَّبُ على هذه الدراسةِ مِنَ النظرِ في مسألةِ امتِلاكِ القرارِ أو المُطالبةِ بِه خِلالَ مرحلةِ الغُثاءِ والوهنِ المنصوصِ علَيها في الأحاديثِ الشريفةِ ؛ أنَّ الواجِبَ الشرعيَّ عدمُ الانزلاقِ بالمُطالبةِ أوِ الحربِ في سبيلِ امتِلاكِ القرارِ أوِ المُطالبةِ بالقرارِ الجُزئيِّ الإقليميِّ أوِ المحليِّ تحتَ أيِّ مُبرِّرٍ كانَ ، بل لا يليقُ بِمَن ينتمي لآلِ البَيتِ النبويِّ أو من ينتمي لِلإسلامِ بعُمومِه ممن يرغبونَ في القرارِ أو يرَون جدارتِهم له كوِراثةٍ أوِ استحقاقٍ أو غيرِ ذلِكَ أن يزُجُّوا بِالأُمَّةِ والرعايا في حُروبٍ وصِراعٍ مِن أجلِ ذلِكَ لِأسبابٍ مِنها :

الأوَّلُ : استمرار المقاومة ودعمها بكافة الأشكال والإمكانات الممكنة .

الثاني : العمل على المصالحة الوطنية بين الفصائل لصيانة الحق والعمل على نصرته وليس التضحية به .

الثالثُ : رفض مشاريع الوساطة العربية والدولية الداعية إلى التطبيع المخل بالشرف والأرض مع العدو المحتل .

ويتحقق نجاح هذه المطالب :

١ – بحشد الطاقات العربية والإسلامية لترجيح كفة القضية وتحويلها من قضية فلسطينية إلى قضية عربية إسلامية .

٢ – شد أزر المقاومة بجمع كلمة الفصائل داخل الأرض المحتلة ، وتوحيد استيراتيجيات العمل الجهادي ، سواء بأسلوب المطالبة الشرعية القائمة على العدل والإنصاف أو الجهاد والمقاومة القادرين على فرض فكرة الحقوق وعودتها .

٣– العمل على توحيد الكلمة وإحياء معاني التوحيد ، وهو إحياء أساس العلاقة الإسلامية بين الأمة وبناء وحدتها الإيمانية على القواسم المشتركة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة:٢٠٨] .

- أنَّ مرحلةَ الغُثاءِ والوهنِ ينقطِعُ فِيها الحُكمُ الشرعيُّ العامُّ القائمُ على حِفظِ هُويَّةِ الإسلامِ في مجموعِ العالمِ كوحدةٍ سياسيةٍ واحدةٍ، ويبقى الحُكمُ الذي وصفه النبيُّ ﷺ بتكادُمِ الحَميرِ، أي: الأطماعِ والصِّراعِ على السُّلطةِ وامتِلاكِها.

- أنَّ القرارَ العالميَّ ليسَ بيدِ المُسلِمين حُكامًا وشُعوبًا، وإنَّما لِكُلٍّ مِنهم حُدودُه وسُلطتُه الخاصَّةُ تحتَ سقفٍ عالميٍّ كافِرٍ ينطوي فيه ويلتزِمُ بِقراراتِه في السِّلمِ والحربِ، بل ويلتجِئُ إليه لفضِّ النِّزاعاتِ وشكوى الاعتِداءاتِ كالأُمَمِ المُتحِدةِ ومجلِسِ الأمنِ وغيرِها. ويَتْبَعُهُ كُلِّيَّةً في الاقتصادِ والنظامِ الماليّ.

- أنَّ المُطالِبين بِالحُكمِ تحتَ اعتباراتٍ «مذهبيةٍ، عائليةٍ، قبليةٍ» أو غيرِها كمُطالبةِ «بعضِ أهلِ البَيتِ بِالحُكمِ أوِ الحربِ في سبيلِه» أو غيرِهم ـ ممَن كانَ لهم مجدٌ وسُلطانٌ لِآبائِهم ـ علَيهم أن يعلموا أنَّ العَودةَ إلى الحُكمِ الشرعيِّ يُشترَطُ فيه «الحُكمُ الإسلاميُّ العامُّ في مفهومِ الخِلافةِ المُرتبِطةِ بِالقرارِ الإسلاميِّ العامِّ». أما أن يكونَ أحدُهم حاكِمًا على مدينةٍ أو مُقاطعةٍ أو دَولةٍ، ولكِنَّ قرارَه الاقتِصاديَّ والسياسيَّ والإعلاميَّ جُزءٌ مِنَ الثقافةِ العالميةِ والسياسةِ الدَّوليةِ كما تُسمَّى؛ فهو أمرٌ لا يخدُمُ هدفَ الإسلامِ وقضيةِ الاصطِفاءِ أوِ الأحقيَّةِ في الحُكمِ. بل على مثلِ هذا ـ مِن أهلِ البَيتِ أو مِن غيرِهم ـ أن يتجنبَ المُماحكاتِ السياسيةَ المشبوهةَ ويحفظَ دِماءَ الرعايا والأُمَّةِ، ويُعيدَ النظرَ فيما هو مطلوبٌ منه شرعًا لِتحقيقِ الاستقرارِ في الشعوبِ كما فعلَ الحسنُ وعليٌّ زينُ العابدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وليس إشغالُ الشُّعوبِ بِعودتِه وامتلاكِ الحُكمِ، معَ أنَّه لا يترتَّبُ علَيه أيُّ نُصرةٍ لِلإسلامِ

ولا لِلدعوةِ ولا لِلجهادِ في سبيلِ اللَّهِ إلَّا بما يوافِقُ سُقوفَ السياسةِ العالميةِ المُهَيمِنةِ ، التي تبدَأُ بادئ ذي بدءٍ بِشـرطِ الاعتِـرافِ بِه وبِوجودِه، ثُمَّ بِقَبولِه عُضـوًا في المنظومةِ الدَّوليةِ المُلزِمةِ لِلنِّظامِ بِاللوائحِ والقوانينِ الدَّوليةِ التي لا عِلاقةَ لها بِالإسلامِ ولا بِالمُسلِمِ.

- أنَّ كافَّةَ الدُّولِ والأنظِمةِ التي برزَتْ وظهرَتْ في مرحلةِ الغُثاءِ إنَّما هي قائمةٌ في مشـروعيتِها على اعتِرافِ الـدُّولِ الكُبرى مالكةِ قـرارِ (الفيتو)، والدُّولُ الكُبـرى لا تعترِفُ بِنظامٍ إسـلاميٍّ صحيـحٍ ، إلَّا أن تكونَ إسـلاميتُه وفق ما يُرضي الدُّولَ المتنفذةِ في القرارِ السياسيِّ .
- وفـوقَ كُلِّ ذلك فإن حَرَكَةَ الاقتصادِ العالميَّةَ والنظامَ الماليَّ الربويَّ وحركةَ سـوقِ العمـلاتِ لكافـة دول العالم هـي السـقفُ المهيمنُ على مشـروعيةِ الدُّوَلِ ومَدَى بقائِها منذ نشأتِها وحتّى سقوطِها.

وعلى هذه الشُّـروطِ التي يكشِفُها فقهُ التحوُّلاتِ والرُّكنُ الرابعُ مِن أركانِ الدينِ تُصبِـحُ مسـألةُ امتلاكِ القـرارِ أوِ الموتِ دونَـه أو الدفع بِالرعايا لِلاقتِتـالِ مِن أجلِه مسـألةً لا ترتبِطُ بِالحُكَّامِ ولا حتَّى بِآلِ البَيتِ أنفُسِهم ، وإنَّما ترتبِطُ بِقِراءةِ نُصوصِ فقهِ التحوُّلاتِ الشرعيِّ .

فالنُّصوصُ الشـرعيةُ طعنَت في المُلكِ العضوضِ ـ وهو نِظامٌ إسـلاميٌّ وحُكَّامُه مِن قُريشٍ ـ لِفُقدانِ بعضِ الشُّروطِ في الحُكَّامِ والمراحِلِ . وكذلِكَ في عصرِ الغُثاءِ والوهنِ كمرحِلةٍ لا يُمكِنُ بِأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ أن يُهْلِكَ امرؤٌ نفسَهُ أو رعاياهُ مِن أجلِ قرارٍ ثبتَ شرعًا أنَّه لا يعودُ على الإسلامِ بِعائدٍ يُؤبَهُ له .

إنَّ الإسـلامَ قضيةٌ ، والحُكـمَ وظيفةٌ ، فإن تمكَّنَ المُطالِـبُ بِالوظيفةِ أن يجعلَها

فـي خِدمةِ القضيةِ فذاكَ ، وإلَّا فـإنَّ التزامَه بِخِدمةِ القضيةِ مِن حيثُما وضعَه اللَّهُ في الحياةِ الاجتماعيةِ كفيلٌ بِإنجاحِ وظيفتِه الشرعيةِ .

الركنُ الثاني العِلمُ المُطلَقُ بِالعلاماتِ الصُّغرىٰ

وهـي مُجمَـلُ العلامـاتِ التي أخبرَ عـن وُقوعِها ﷺ قبـلَ مِيـلادِه ﷺ إلى قيامِ السـاعةِ، وهـي كثيـرةٌ ومُتنوِّعةٌ، وقولُنـا: «العِلمُ المُطلَـقُ» أي: الذي لا إثمَ ولا تبِعةَ على مَن لم يعلمْ تفصيلَها، ويمكِنُ الإلمامُ بِها مِن خِلالِ قِراءةِ كُتُبِ علاماتِ السـاعةِ، وقد ذكرنا كثيرًا مِن نماذِجِها فـي كتابِنا «التليدُ والطارِفُ»، وقد بدأْنا هُنا بِذِكرِ هذه العلاماتِ التي تتكرَّرُ بِتكرُّرِ عوامِلِها وأسـبابِها في كُلِّ المراحِلِ المُشـارِ إلَيها سلفًا، ومِنها:

إمارةُ الصبيانِ

إمارة الصبيان
علامة صغرى

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى إِمَارَةُ الصِّبْيَانِ، وهي تَقَلُّدُ صِغارِ السِّنِّ الأحداثِ المناصـبَ الكبيـرةَ التي لا يصلُحُ لها إلَّا حاذِقُ السِّـنِّ وجليلُ المعرفةِ، لِما يترتَّبُ علـى الحـذقِ والمعرفـةِ مِن مُراقبـةٍ للَّهِ وحفـظٍ لِلأمانةِ وصَـونٍ للحُرُمـاتِ ورِفقٍ بالرعايا، وفي رِوايةٍ أُخرى: «إمارةُ السُّـفهاءِ»، والسُّـفهاءُ همُ الذين لا يرعوون، ولا ينظُرون لِلأُمورِ بِروِيَّةٍ وضوابِطَ ديانةٍ.

وفـي الأمرِ إشـارةٌ إلى مرحلـةِ المُلكِ العضوضِ مِن جِهـةٍ، كما قد ورد عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَـرٍّ قَدَ اقْتَرَبَ: إِمَارَةُ الصِّبْيَانِ إِنْ أَطَاعُوهُمْ أَدْخَلُوهُـمَ النَّـارَ، وَإِنْ عَصَوْهُمْ ضَرَبُوا أَعْنَاقَهُمْ»[1]. وفي رِوايةِ ابنِ أبي شَـيبةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ رَأْسِ السَّبْعِينَ وَمِنْ إِمْـرَةِ الصِّبْيَـانِ». وفي رِوايةٍ قـامَ أبو هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على مِنبرِ رسـولِ اللهِ ﷺ دونَ

(١) ابن أبي شيبة (٣٩٣٩١).

مقامِ رسـولِ اللَّهِ ﷺ بعتبةٍ ، فقالَ : « ويلُ لِلعربِ مِن شـرٍّ قدِ اقتربَ ، ويلٌ لهم مِن إمارةِ الصِّبيانِ ، يحكُمون فيهم بِالهوى ، ويقتُلون بِالغضبِ » [١] .

ومِـن جِهةٍ أُخرى فـإن المعنى يعُمُّ كافَّةَ المراحِلِ التي برزَت فِيها إمارةُ السُّـفهاءِ وتسلُّطُ الصِّبيانِ مِن أُمراءَ وحُكَّامٍ وحُدثاءِ الأسنانِ سُفهاءِ الأحلامِ ، تبرُزُ سفاهتُهم فـي واقعِ الحركةِ السياسـيةِ بِكافَّـةِ نماذجِها الحزبيـةِ أوِ الفِئويـةِ أو الحُكوميةِ التي عرَفَها العالمُ العربيُّ والإسـلاميُّ في مراحِلِ الاسـتِعمارِ والاسـتِهتارِ والاسـتِثمارِ ، وعمِلَـت على إضعافِ شـرفِ الإسـلامِ في المُسـلِمين بِاسـمِ الرُّقـيِّ والحضارةِ والتمدُّنِ والحُريةِ والمُسـاواةِ ، وفي ذلِكَ يقولُ ﷺ فيما رواه أنسُ بنُ مالِكٍ قالَ : قيـل : يا رسـولَ اللَّهِ . .متى نتركُ الأمرَ بِالمعـروفِ والنهيِ عنِ المُنكرِ ؟ قالَ : « إذا ظهـرَ فيكم مـا ظهرَ في الأُمَمِ مِن قبلِكم » قُلنا : يا رسـولَ اللهِ.. وما ظهرَ في الأُمَمِ قبلَنا ؟ قالَ : « المُلكُ في صِغارِكم ، والفاحِشـةُ في كِبارِكم ، والعِلمُ في رذالتِكم ، إذا كانَ العِلمُ في رُذالَتِكم» [٢] .

وفـي الحديـثِ وفي غيرِه إشـارةٌ إلى تلازُمِ الفسـادِ في إمارةِ الصِّبيانِ والسُّـفهاءِ ، حيـثُ يشـمَلُ العديدَ مِن ظواهِرِ الحيـاةِ الاجتِماعيةِ التي يُهَنْدِسُـها أمراءُ وحُكَّامُ المراخلِ لِربطِ المُجتمعِ بِمُسـمَّيات الحضارةِ المادِّيةِ معَ تفسُّـخٍ أخلاقيٍّ وضعفٍ عِلميٍّ شـرعيٍّ وتقليدٍ واستِتباعٍ أعمى للكُفَّارِ ومشـاريعِهِمُ الاقتِصاديةِ والإعلاميةِ والتعليميةِ والاجتِماعيةِ ... إلخ .

(١)«إتحافُ الجماعةِ بِأشراطِ الساعةِ» للتويجريِّ (١ : ٢٣٠) .

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٥١) .

استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة

استفاضةُ المالِ والاستِغناءُ عنِ الصدقةِ

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى اسْتِفَاضَةُ المَالِ وَكَثْرَتُهُ، وهذه العلامةُ تحمِلُ معانيَ مِنها : أن يفيضَ المالُ فَيضًا ، ويكثرَ في أيدي الناسِ بعدَ فقرٍ مُدقعٍ ، وقد تحقَّقَ مِثلُ هذا في عُهودِ الفُتوحاتِ ، وأكثرُها مطابقةً ما وقع في عهدِ عُمرَ بنِ عبدِالعزيزِ لِكثرةِ الأموالِ الحاصِلةِ مِنَ اقتسامِ أموالِ الفُتوحاتِ مِن بلادِ الفُرسِ والرُّومِ ، ويُؤيِّدُ هذا حديثُ عديِّ بنِ حاتمٍ قالَ : بَينَما أنا عِندَ النبيِّ ﷺ إذا أتاه رجُلٌ ، فشكا إليه الفاقةَ ، ثُمَّ أتاه آخرُ فشكا إليه قطعَ السبيلِ ، فقالَ : «يا عديُّ ، هل رأيتَ الحِيرة ؟ » قُلتُ : لم أَرَهَا ، وقد أُنبئتُ عنها ، فقالَ : « فإن طالَت بِكَ الحياةُ لترينَّ الظعينةَ ترتحِلُ مِنَ الحِيرةِ حتَّى تطوفَ بِالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلَّا اللَّهَ ، ولئن طالَت بكَ الحياةُ لتُفتحَنَّ كُنوزُ كِسرى » . قُلتُ : ابنَ هُرمُزَ ؟! قالَ : « كِسرى بنُ هُرمُزٍ ، ولئن طالَت بِكَ الحياةُ لترينَّ الرجُلَ يخرُجُ مِن كفِّه مِن ذهبٍ أو فِضَّةٍ يطلبُ مَن يقبلُه منه فلا يجِدُ أحدًا يقبلُه منه» . قالَ عديٌّ : فرأيتُ الظعينةَ ترتحِلُ مِنَ الحِيرةِ حتَّى تطوفَ بِالكعبةِ لا تخافُ إلَّا اللَّهَ ، وكنتُ فيمَنِ افتتحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرمُزَ ، ولئن طالَت بِكم حياةٌ لترَون ما قالَ النبيُّ أبو القاسِمِ ﷺ [(١)].

وأما الاستغناءُ عنِ الصدقةِ فيرجِعُ إلى معانٍ :

الاستغناء عن الصدقة له عدة معان

الأوَّلُ : ما قيلَ عن عهدِ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وقبلَه عهدُ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، حيثُ استغنى الفُقراءُ عنِ الصدقةِ لِكثرةِ المالِ وعدالةِ توزيعِه .

(١) صحيح البخاري (٣٥٩٥) .

والثاني : ما قد يحصُلُ في آخرِ الزمانِ كعهدِ الإمامِ المنتظِرِ ، وعهدِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1] .

الصدقات من الأموال المشبوهة

وهُناك معنًى ثالِثٌ له عِلاقةٌ بالتحوُّلاتِ ، وهو ما يكثرُ في آخرِ الزمانِ مِنَ استِفاضةِ المالِ الحرامِ بكافَّةِ أنواعِه ، حتَّى يتأفَّفَ المؤمِنُ مِن أخذِ صدقتِه مِن أولئكَ المُتصدِّقين بِأموالِهِمُ المشبوهةِ .

سقوط قيمة العملة

وفسَّرَ بعضُهمُ الاستِغناءَ عنِ الصدقةِ في معنًى رابعٍ إلى تعفُّفِ الفُقراءِ عنِ الأموالِ ؛ لاضطرابِ حالةِ الأسواقِ وضعفِ الحركةِ التِّجاريةِ ، حتَّى تنعدِمَ الوارِداتُ المُشتراةُ إما بِسببِ الحُروبِ ، وإما بِسببِ خَوفِ الناسِ مِنَ القيامةِ فتتكدَّسُ الأموالُ وتفيضُ .

ويُفهَمُ مِن هذه التعاليلِ أنَّ هذه العلامةَ تظهرُ في أكثرِ مِن زمنٍ ومرحلةٍ .

استِتباعُ سُننِ الأُممِ الماضيةِ

استتباع سنن الأمم الماضية

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى اسْتِتْبَاعُ الأُمَمِ المَاضِيَةِ، وهذه العلامةُ قد برزَت ظواهِرُها بادئَ ذي بدءٍ في مرحلةِ المُلكِ العضوضِ على عهدِ الدَّولتَينِ الأمويةِ والعباسيةِ ، وتشبَّهَ بعضُ الحُكَّامِ والقادةِ بأحوالِ حُكَّامِ الفُرسِ والرُّومِ في مظاهِرِ الحُكمِ والسُّلطانِ وبعضِ العاداتِ والتقاليدِ ونقلِ الأفكارِ والفلسفاتِ المُخالِفةِ

---

(١) ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الإسطوان من الذهب والفضة ، قال : فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي . ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي . ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا » . صحيح مسلم كتاب الزكاة (١٥/ ٩٨/ مع شرح النووي).

لِمنهجِ الإسلامِ[1]، وفي ذلِكَ يقولُ ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتَّى تأخذَ أُمَّتي بِأخذِ القُرون الأولى فِيها شِبرًا بِشِبرٍ وذراعًا بِذراعٍ». قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، كفارسٍ والرُّومِ؟! فقالَ: «ومَن الناسُ إلَّا أولئكَ»[2]. وكانَت فارسُ والرُّومُ في تِلكَ المرحلةِ هي حامِلةُ لِواءِ الحضارةِ السلبيةِ.. ويمتدُّ هذا المعنى عبرَ التسلسُلِ التاريخيِّ لِلأُمَّةِ في أكثرَ مِن مرحلةٍ، ويزدادُ اتِساعًا واستِتباعًا في مرحلةِ الغُثاءِ والوهنِ، وهي المرحلةُ التي سقطَ فِيها قرارُ الإسلامِ العالميُّ، وأخذَتِ الدُّولُ العربيةُ والإسلاميةُ بِسَنَنِ العالمِ المُستعمِرِ والمُستثمِرِ، وفي ذلِكَ يأتي حديثُ: «لتتبِعُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قبلَكم شِبرًا بِشبرٍ، وذِراعًا بِذِراعٍ حتَّى لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ لدخلْتُموه». قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، اليهودُ والنصارى؟! قالَ: «ومَن؟!»[3].

نماذج الاستتباع

ويبرُزُ هذا في التقليدِ الأعمى لِلعالمِ الأُوروبيِّ في كُلِّ ما هبَّ ودبَّ مِن شُؤونِ المأكلِ والملبسِ والمشربِ والإعلامِ والأقلامِ والشهواتِ والرغباتِ ونماذجِ التجارةِ والسياحةِ والثقافةِ والرياضةِ وهَلُمَّ جرّا.. معَ شيءٍ مِنَ الغُرورِ والغفلةِ والتحايُلِ على نُصوصِ الإسلامِ وتحريفِ معانيه؛ لِيُناسِبَ الرغباتِ الغارِقةَ في الاستِتباعِ؛ حتَّى يصيرَ الاستِتباعُ في أغبى نماذِجِ العلاقاتِ والمُوضاتِ، وهو ما يعنيه الحديثُ بـ«دُخولِ جُحرِ الضبِّ»، والضبُّ حيوانٌ يدخُلُ جُحرَه طويلًا فيصعبُ عليهِ الخُروجُ، والحديثُ فيه كِنايةٌ عمَّن يدخُلُ مَدخلًا لا يُفكِّرُ في طريقةِ الخُروجِ منه؛ فيَقعُ في الحرجِ والخطرِ.

التقليد الأعمى للعالم الآخر

---

(١) الأخذ بالعلم والحضارة من الغير لا يدخل في هذا المعنى، وإنما يدخل ما لا تحتاجه الأمة من علل الأمم الأخرى وفلسفتها النظرية المتعارضة مع غيبيات الديانة.

(٢) صحيح البخاري (٧٣١٩).

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٦٩٥٢).

تقبيل كأس كرة القدم

ومِـن هـذه النمـاذجِ ما يفعلُـه الرياضيون مِـن تقبيـلِ كأسِ الفوزِ والـدورانِ به ، والهُتافِ عِند أخذِه بـ «لاإله إلّا الله» ، وسُجودِ الشُّكرِ في الملاعِبِ ، وخلعِ ملبسِ اللاعِبِ عن جِسـمِه عِندَ إدخالِـه الكُرةَ في الهدفِ ، والتلويـحِ بِالملبسِ في الهواءِ ، وغيرُ هذا كثيرٌ مِن أعمالِ الاسـتِتباعِ الفجَّةِ ، كوضعِ العِقدِ على الجِيدِ كالنسـاءِ ، وتقليدِ قصِّ الشـعرِ والباروكاتِ ، ولِبسِ ملابسِ العُريِ الفاضحةِ ، وغيرُ هذا كثيرٌ وكثيرٌ .

ضياعُ الأمانةِ

ضياع الأمانة

وهي مِنَ العلاماتِ الصغرى المُتكرِّرةِ لِعِدَّةِ مراحِلَ . وفي عِدَّةِ أزمِنةٍ ، ورُبَّما كانَ أوَّلُ مظاهِرِهـا تحوُّلَ الأمرِ مِنَ الخِلافةِ الراشِـدةِ إلـى المُلكِ العضُوضِ . في عصرِ صـدرِ تاريـخِ الأُمَّةِ ، ويُؤيِّـدُ هذا المعنى قَولُه ﷺ : « لتُنقضَنَّ عُرى الإسـلامِ عُروةً عُـروةً ، أوَّلُهـنَّ نقضًا الحُكمُ »[1] ، والحُكْـمُ مِنَ الأمانـاتِ ، وأوَّلُ صيغةٍ لِلمؤامرةِ علـى نقضِ الحُكـمِ كانَ بِبروزِ الحُكمِ العَضوضِ ، كما كانَ هُناكَ نقضٌ أيضًا لِأمانةِ العِلمِ ، واسـتمرَّ ذلِكَ مرحلةً بعدَ أُخرى ... وهكذا حتَّى جاءَ أخطرُ مراحِلِ النقضِ لِلحُكـمِ ولِلعِلـمِ بِإسـقاطِ قرارِ الخِلافةِ الإسـلاميةِ ، ولِإقامةِ قـرارِ العِلمانيةِ ، وهي المرحلـةُ التي ترتَّبَ عليَها النقضُ بكُلِّ معانيه وأشـكالِه تحقيقًـا لِحديثِ الأعرابيِّ السـائلِ رسـولَ اللَّهِ ﷺ عنِ السـاعةِ . وردَّ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظِـرِ السـاعةَ » . قـالَ : وكيـف إضاعتُها يا رسـولَ اللَّـهِ ؟ قالَ : «إذا وُسِّـدَ الأمرُ إلـى غَيـرِ أهلِه»[2] . . وقد تحقَّـقَ هذا المعنى في أجلى صورِه فـي العالمَين العربيِّ

نقض أمانتي الحكم والعلم

---

(١) مسند أحمد (٢٢٨١٧) .

(٢) تقدم .

والإسلاميِّ بعدَ سُقوطِ قرارِ الخِلافةِ الإسلاميةِ، وامتِدادِ مرحلةِ الاستِعمارِ، وتقسيمِ ما سُمِّي بِتركةِ الرجُلِ المريضِ، وإعادةِ تشكيلِ القرارين «الحُكم والعِلم» في العالَمين العربيِّ والإسلاميِّ لِما يخدُمُ الاستِعمارَ وسياسةَ العِلمانيةِ ثُمَّ العلمنةِ ثُمَّ العَولمةِ وهكذا.

وهذا فيما يتعلَّقُ بِقرارَي الحُكمِ والعِلمِ، وأما فيما يتعلَّقُ بِمجموعةِ الأماناتِ الأُخرى وإضاعتِها فإليها تُشيرُ الأحاديثُ الأُخرى، ومِنها حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يقول فيه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا أنَّ الأمانةَ نزلَت في جِذرِ قُلوبِ الرجالِ، ثُمَّ علِموا القُرآنَ، ثُمَّ عَلِموا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثَنا عن رفعِها فقالَ: «ينامُ الرجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قلبِه فيظلُّ أثرُها مِثلَ أثرِ الوكتِ[1]، ثُمَّ ينامُ النومةَ فتُقبضُ، فيبقى أثرُها مِثلَ المَجْلِ[2] كجمرٍ دحرجْتَه على رِجلِكَ فنَفِطَ فتراه مُنتبِرًا وليس فيه شيءٌ؛ فيُصبحُ الناسُ يتبايعون، فلا يكادُ أحدُهم يؤدِّي الأمانةَ فيُقالُ: إن في بني فُلانٍ رجُلًا أمينًا، ويُقالُ لِلرجُلِ: ما أعقلَه! وما أظرفَه! وما أجلدَه! وما في قلبِه مِثقالُ حبَّةِ خردلٍ مِن إيمانٍ! ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أُبالي أيُّكم بايعتُ لئن كانَ مُسلِمًا ردَّه الإسلامُ، وإن كانَ نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه. فأمّا اليومَ فما كنتُ أُبايِعُ إلّا فلانًا وفلانًا[3]. ومِثلُ هذا أيضًا أخبرَ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنَّه ستكونُ هناك سِنونَ خَدَّاعةٌ: يُكذَّبُ فِيها الصادِقُ، ويُصدَّقُ فِيها الكاذِبُ، ويُخوَّنُ فِيها الأمينُ ويُؤمَّنُ فِيها الخَؤُون»[4].

حديث «فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ...»

(١) الوكت: جمعُ (وكتة، وهي الأثرُ في الشيءِ، أو كالنُّقطةِ مِن غيرِ لونِه.

(٢) وهو ما يبقى من الأورامِ في الكفِّ مِن أثرِ العملِ بالأشياءِ الصُّلبةِ.

(٣) صحيحُ البُخاريِّ (٦٤٩٧).

(٤) مسند أحمد (٨١٣١)، وانظر «أشراط الساعة» يوسف عبدالله الوابل ص١٣١.

قبض العلم
وظهور الجهل

قبضُ العِلمِ وظُهورِ الجهلِ

وهي أحدُ علاماتِ الساعةِ الصغرى المُتكرِّرةِ زَمنًا بعدَ زمنٍ، ومرحلةً بعدَ أُخرى على غَيرِ تتابُعٍ، وإنَّما قد ترتبِطُ بمرحلةٍ مُعيَّنةٍ، ثُمَّ يتوقَّفُ القبضُ على حالٍ مُعيَّنٍ، ثُمَّ يتجدَّدُ القبضُ مرَّةً أُخرى معَ مرحلةٍ أُخرى وهكذا.

وعِندَ النظرِ والتأمُّلِ إلى مجموعِ الأحاديثِ عبرَ تاريخِ التحوُّلاتِ يتحدَّدُ المعنى ويبرُزُ جليًّا مُنذُ بدءِ مرحلةِ القبضِ لِلعِلمِ. ويتحدَّدُ القبضُ في مرحلةِ الفِتَنِ الأولى علـى عهدِ خِلافةِ عُثمانَ والإمامِ علـيٍّ وما جاءَ من بعدِها مِنَ القبضِ بِكُلِّ معانيه..
ولِلقَبضِ معانٍ:

معاني قبض العلم

(١) مـا ذكرَ الإمـامُ النوويُّ مِن قَولِـه على حديثِ قبضِ العِلـمِ: «هذا الحديثُ يُبيِّنُ المُرادَ بِقبضِ العِلمِ في الأحاديثِ السـابِقةِ المُطلقةِ ليسَ هو محوَه مِن صُدورِ حُفَّاظِـه، ولكِـنَّ معناه أن يمـوتَ حملتُه ويتَّخِذَ الناسُ جُهـالًا يحكُمون بِحالاتِهم فيُضِلُّون»[١]، والمُرادُ بالعِلمِ هُنا عِلمُ الكِتابِ والسُّـنَّةِ، وهو العِلمُ المَوروثُ عنِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ، فإنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وبِذَهابِهم يذهبُ العِلمَ، وتموتُ السُّننُ، وتظهرُ البِدعُ، ويعُمُّ الجهلُ»[٢].

(٢) مِن معاني قبضِ العِلمِ تحويلُه إلى مناهِجَ مقبوضةٍ ومُسيَّسةٍ، وفقَ ما يختارُه القائمـون على التعليمِ والتدريسِ؛ حتى تتخرَّجَ أجيالٌ لا تعرِفُ مِن عِلمِ الشـريعةِ شيئًا، اللَّهُمَّ إلَّا ما قرأَته مِنَ العِلمِ المقبوضِ المُمنهَجِ.

---

(١) شرح مسلم (١٦: ٢٢٤).
(٢) أشراطُ الساعةِ لِلوابِلِ ص١٣٣.

انقباض / قبض العلماء

(٣) ومِـن معاني القبـضِ : انقِباضُ العُلمـاءِ وحملةِ العِلمِ ، لِما يقـعُ في الأزمِنةِ مِـن ظُلمٍ وتجـاوُزٍ وانتهاكٍ للدِّينِ وكراهيةٍ لِلعِلمِ والعُلمـاءِ ، مِمَّا يُؤدِّي إلى اعتِزالِ العُلماءِ عنِ الناسِ وانقطاعِهم عن مجالسةِ الناسِ ، فيُؤدِّي ذلِكَ إلى ظُهورِ الجهلِ بِالدِّينِ .

(٤) ومِن معاني قبضِ العِلمِ إخراسُ العُلماءِ بِالقبضِ عليهِم وسِجنِهم وإيداعِهم ، فيما يُسـمَى بالإقامةِ الجبريةِ في منازِلِهم ؛ حتَّى لا ينتفِعَ بِهِمُ الناسُ ، وقد وقعَت هذه النماذِجُ مِنَ (القبضِ) في بِلادِ المُسـلِمين في مراحِلَ شـتَّى ، ومِنها (المرحلةُ الغُثائيةُ) التي تعرَّضَ فِيها العِلمُ والعُلماءُ إلى الإبادةِ والسِّجنِ والخطفِ والتشريدِ.. مِمَّـا كوَّن فـي الواقِعِ الاجتِماعـيِّ جيلًا مُتخبِّطًـا بِالجهالاتِ والضـلالاتِ والعِلمِ المُسيَّسِ المقبوضِ .

وفي هذا المعنى وردَت أحاديثُ كثيرةٌ ، مِنها : « إنَّ بَينَ يدَيِ الساعةِ لأَيَّامًا ينزِلُ فِيها الجهلُ ، ويُرفَعُ فِيها العِلمُ »[1].

وفـي رِوايةٍ لِمُسـلِمٍ عـن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « يتقاربُ الزمانُ ، ويُقبَضُ العِلمُ وتظهرُ الفِتَن ، ويُلقى الشُّحُّ ، ويكثُرُ الهرجُ »[2] .

وحديـثُ عبدِاللَّـهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : سـمعتُ رسـولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقولُ : « إنَّ اللَّهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا ينتزِعُه مِنَ العِبادِ ، ولكِن يقبِضُ العِلمَ بِقبضِ العُلماءِ ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالِمًا اتَّخذَ الناسُ رؤُوسًا جُهَّالًا ، فسُئِلوا فأفتَوا بِغَيرِ عِلمٍ

(١) صحيح البخاري (٧٠٦٣) .

(٢) صحيح مسلم (٦٩٦٤) .

؛ فضلُّوا وأضلُّوا »[١] .

وتستمِرُّ هذه الظاهِرةُ جِيلًا بعدَ جيلٍ ، حتَّى يبلُغَ الأَمرُ إلى أشُدِّه في أُخرياتِ الزمانِ ، كما قالَ عبدُ اللَّهِ بنِ مسعودٍ : « ليُنتزَعَنَّ القُرآنُ مِن بَينِ أظهُرِكم ، يُسرى علَيهِ لَيلًا ؛ فيذهَبُ مِن أجوافِ الرِّجالِ ؛ فلا يبقى في الأرضِ مِنه شَيءٌ » [٢] .

وعِندَ النظرِ الواعي في مسيرةِ القبضِ والنقضِ المُشارِ إلَيه في علاماتِ الساعةِ نلاحِظُ أنَّ هذه المسيرةِ قد مرَّت بِمراحِلَ مُتدرِّجةٍ ـ بِصرفِ النظرِ عن المُنفِّذِ والمُستثمِرِ ـ اشتملَت على ما يلي :

أشكال من نقض العرى في مسيرة التاريخ

١- نقضُ الحُكمِ .
٢- نقضُ العِلمِ .
٣- الفصلُ بَينَ الدِّينِ والدَّولةِ .
٤- الفصلُ بَينَ التاريخِ والدِّيانةِ .
٥- الفصلُ بَينَ الثوابِتِ والمُتغيِّرِ .
٦- الفصلُ بَينَ العلمِ والدين .
٧- الفصلُ بَينَ التربيةِ والتعليمِ والدعوةِ .
٨- الفصلُ بَينَ عِلمِ الإحسانِ وأركانِ الدِّينِ .
٩- الفصلُ بَينَ عِلمِ الإحسانِ والتصوُّفِ .
١٠- الفصلُ بَينَ المُثلَّثِ المدموجِ والمُعاملِ الرابعِ .
١١- الفصلُ بَينَ التصوف والسنة .

---

(١) صحيح البخاري (١٠٠) .
(٢) المعجم الكبير (٨٧١٩) .

١٢ - الفصلُ بَينَ التصوُّفِ والإسلامِ[١] .

ظُهورُ مُدَّعي النُّبوَّةِ

ظهور مدعي النبوة

ومِـن علاماتِ السـاعةِ الصغـرى التي تعـدَّدَت ظواهِرُهـا، وتجـدَّدَت نماذِجُها خُـروجُ الكذَّابين الذين يدَّعون النُّبـوَّةَ ، وهم قريبٌ مِن ثلاثين كذَّابًا ، وفيهم ثلاثُ نِسوةٍ أو أربع .

وقـد خرجَ بعضُهم في عصرِ الرِّسـالةِ ، ومِنهم فـي عصورِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وما بعدها ، ولا يزالون يظهرون في بعضِ الأجيالِ .

وفيهم قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لا تقومُ الساعةُ حتَّى يُبعَثَ دجَّالون كذَّابون ، قريبٌ مِن ثلاثين ، كُلُّهم يزعَمُ أنَّه رسولُ اللَّهِ »[٢] .

مسيلمة الكذاب والأسود العنسي

وأوَّلُ من ظهر مِنَ الكذَّابين في عهدِ صاحِبِ الرِّسالةِ مُسَيلِمةُ الكذَّابُ ، مِن أرضِ نجدٍ ، وقد كثُرَ أتباعُه ، وعظُمَ شـرُّه على المُسـلِمين ، حتَّى قتلَه الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في معركةِ « اليمامة » على عهدِ الخليفةِ الأوَّلِ أبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

---

(١) ومـن أغـرب مظاهر هذا الفصل مطالبة بعـض المتطرفين من دعاة الخـوارج الجدد علماء المذهبيـة والصوفية للتوبة وتجديد الإسـلام ، ونشـر بعضهم في الإنترنـت احتفال أولئك بكافر دخل الإسلام وحسن إسلامه ، وكان ذلك الكافر ـ من وجهة نظرهم ـ مسلما صوفيا دخل إلى الحظيرة السلفية ، وحسن إسلامه بعد رجوعه عن مذهب الصوفية ، وتوبته على أيديهم .

(٢) صحيـحُ البُخـاريِّ (٧١٢١) . وحديـثُ (« بينما أنا نائم رأيت فى يدي سـوارين من ذهب، فأهمنـي شـأنهما ، فأوحـي إلى فى المنـام أن انفخهمـا ، فنفختهما فطـارا فأولتهما كذابين يخرجـان بعـدي » ، فـكان أحدهما العنسـي والآخر مسـيلمة الكـذاب صاحـب اليمامة) صحيح البخاري (٣٦٢١) .

وكذلِـكَ ظُهورُ « الأسـودِ العَنْسِـيِّ في اليمـنِ » ، وادَّعى النُّبـوَّةَ ؛ وقتلَه الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُم أيضًا في حياةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وفي كِلَيهما « مُسَيلِمةَ والعنسيِّ » وردَ حديثُ ابنِ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا : « إنَّ بَينَ يدَي الساعةِ ثلاثين كذَّابًا ، مِنهُمُ : الأسودُ العنسيُّ صاحِبُ صنعاءَ ، وصاحِبُ اليمامةِ » . يعني : مُسَيلِمةُ .

سبعة وعشرون دجالا منهم أربعة نسوة

وفيمـا أخرجَه أحمدُ عن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بِسـندٍ جيِّدٍ : « سـيكونُ في أُمَّتي كذَّابون دجَّالون ، سبعةٌ وعشرون مِنهم أربعُ نِسوةٍ ، وأنا خاتِمُ النبيِّين ؛ لا نبيَّ بعدي »[1].

والمقصودُ بالدَّجَّالين الكذَّابين أحدُ أمرَين :

الأول: مَنِ ادَّعى النُّبوةَ وأنَّه يُوحى إلَيه ، كمُسَـيلِمةَ والأسـودِ وسـجَّاحِ وطُليحة الأسديِّ[2].

والثاني : مَن قامَت شـوكتُه ، وكثُر أتباعُه ، واشـتهر بَينَ الناسِ بما لم يُنزِّلِ اللَّهُ به مِن سُـلطانٍ . كالمُختارُ بنُ عُبَيدٍ الثقفيُّ ، الذي أظهرَ محبةَ آلِ البَيتِ والمطالبةَ بدمِ الحُسَـينِ ، وكثُرَ أتباعُه ثُمَّ ادَّعى النُّبُوَّةَ ونزولَ جبريلَ علَيهِ . وقد قتلَه ابنُ الزُّبَيرِ في خِلافتِـه[3] . ومِنهُـمُ الحـارِثُ الكذَّابُ ، خـرجَ في خِلافةِ عبدِ الملـكِ بنِ مروانَ ، فقُتِل . وخرجَ في خِلافةِ بني العبَّاسِ جماعةٌ[4] .

المختار الثقفي

الحارث الكذاب

(١) مسند أحمد (٢٤٠٦٧) .

(٢) الإشاعة (ص٩٦) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣: ٥٤٣) ، « أشراط الساعة » ص١١٥ ليوسف الوابل .

(٤) فتح الباري (٦/ ٦١٧) .

أحمد القادياني

ومنهـم القاديانـي ، قال صاحِبُ كِتاب أشـراطِ السـاعةِ (الوابِـل)[1] : وظهرَ في العصرِ الحديثِ ميرزا أحمدُ القادياني بالهندِ ، وادَّعى النُّبوَّةَ ، وأنَّه المسيحُ المُنتظَرِ ، وأنَّ عيسـى ليسَ بحيٍّ في السـماءِ ، وصارَ له أتباعٌ وأنصارٌ ، وردَّ علَيهِ جملةٌ مِنَ العُلماءِ ، واعتبروه أحدَ الدَّجَّالين المُشارِ إلَيهم في الحديث .

مدعو المهدية المعاصرون

وفـي عصرِنـا ادَّعـى المهديَّةَ عـددٌ مِـنَ الكذَّابيـن ، الذيـن يُروِّجـون الأكاذيبَ والأضاليلَ بِهذا الادِّعاءِ ، ولهم مواقِعُ في الشبكةِ العنكبوتيةِ يخدعونَ بما يقولونه جهلةَ المرحلةِ وضحاياها[2] .

ولا يـزالُ خُـروجُ مِثلِ هـؤلاءِ مُتوقَّعًا ، كما أخبـرَ عنه ﷺ ، حتَّى يكـونَ آخِرُهم خروجًا معَ الدَّجَّالِ الأعورِ ، كما وردَ في الحديثِ عن سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ في خُطبةِ الوداعِ يومَ كسفَتِ الشمسُ على عهدِه : « وإنَّه واللَّهِ لا تقومُ الساعةُ حتَّى يخرجَ ثلاثون كذَّابًا آخرُهُمُ الأعورُ الدجَّالُ [3] » .

الربط بَينَ وظائف الدجاجلة والأعور الدجال

وقد ربطَ النبيَّ ﷺ بَينَ وظائفِ الدجاجِلةِ والكذَّابين ، واعتبرَها تمهيدًا للدجَّالِ الأعـورِ وعملًا مُشـتركًا ضِـدَّ الديانةِ الصحيحـةِ في كُلِّ عصرٍ وزمـنٍ ، ، فقد رَوى الإمامُ أحمدُ عن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ في شـأنِ هذا الرجُلِ – يعني : مُسَيلِمةَ – : « أما بعدُ فقد أكثرتُم في شأنِه ؛ فإنَّه كذَّابٌ مِن ثلاثين كذَّابًا ، يخرجـون قبـلَ الدجَّالِ ، وإنَّه ليسَ بلـدٌ إلَّا يدخلُه رُعبُ المسيحِ إلَّا المدينةَ ...

---

(١) ص١١٥.

(٢) وممن اشتهر بغلوه في الرفض لا بادعاء النبوة ابنُ الكواءِ الذي قالَ له الإمامُ عليٌّ : « وإنَّكَ مِنهم » . وكانَ يغلو في الرفضِ ، ويُؤيِّدُه حديثُ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قُلتُ : ما آياتُهم؟ قالَ : « يأتونكم بِسُنَّةٍ لم تكونوا علَيها » . الإشاعة ص٩٧ .

(٣) مسند أحمد (٢٠٧١١).

إلخ»[١] .

قتال التُّرك والعجم

قِتالُ التُّركِ والعجمِ

ومنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى قِتَالُ التُّـرْكِ والعَجَمِ، والتُّركُ هُنا غَيرُ العجمِ قالَ ابـنُ حجرٍ : (يُمكـنُ أن يُجابَ بِأنَّ هذا الحديثَ - أي : حديث قِتالِ العَجمِ - غَيرُ حديثِ قِتالِ التُّركِ ، ويجتمِعُ مِنهما الإنذارُ بِقتالِ الطائفتَين)[٢] ، فقِتالُ التُّركِ يرتبطُ بِمرحلتَين :

المرحلةُ الأولى قـد وقعَـت ، وقـد قاتـلَ المُسـلِمون التُّـركَ مِن عصـرِ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وذلِكَ في أوَّلِ خِلافةِ بني أُميَّةَ وفي عهدِ مُعاوية .

قتال التتار في أواخر العصر العباسي

وخـرجَ التُّـركُ أيضًا بِمُسـمَّى التتارِ والمغولِ فـي أواخِرِ العهدِ العبَّاسـيِّ ودمَّروا الخِلافةَ ، وقتلوا العُلماءَ ، وأحرقوا المسـاجِدَ ، وعاثوا في الأرضِ فسـادًا[٣] حتَّى

---

(١) مسند أحمد (٦٦٥٢) .

(٢) فتح الباري (٦: ٦٠٧) .

(٣) ذكر الدكتور محمد أحمد إسـماعيل المقدم في كتابه «فقه أشـراط السـاعة» ص ٢٠ تعليقا على الحديث «اتركوا الترك ما تركوكم» : فمتى تم إمسـاك المسـلمين عن اسـتفزاز الترك واستشـارتهم ؛ فسـلموا من غائلتهم إلـى أن خالفوا التوجيه النبوي ، قـال الحافظ ابن كثير رحمـه الله تعالى : « وقـد قتل جنكيز خان من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ، ولكن كانت البداءة من «خوارزم شـاه» فإنه لما أرسـل جنكيز خان تجارا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده ، فانتهوا إلى إيران فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه ، وأخذ جميع ما كان معهم فأرسـل جنكيز خان إلى خوارزم شـاه ؛ يسـتعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضا منه أو أنه لا يعلم به ، فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم يكن له جواب سوى أن أمر بضرب عنقه ؛ فأساء التدبير ، وقد ورد في الحديث «اتركوا الترك ماتركوكم» . فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله ، وأخذ بلاده فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع .اهـ.

تصـدَّى لهمُ الملِكُ المُظفَّرُ « قُطُزُ » ، وهزمَهم في معركةِ « عَينِ جالوتَ » ، ودخلَ كثيرٌ مِنهم إلى الإسـلامِ ، وفـي أُخرياتِ المرحلةِ المضطرِبةِ مِـن تاريخِ الدُويلاتِ الإسلاميةِ أعادَ الأتراكُ مِن بني عُثمانَ الخِلافةَ الإسلاميةَ إلى مكانِها الصحيح »[1] . وكانَ لهمُ الدَّورُ الكبيرُ في تَوحيدِ قرارِ المُسـلِمين في العالمِ العربيِّ والإسـلاميِّ . وكانَ آخِرُهـم السُّـلطانُ عبدُالحميدِ الثاني ، الذي بإسـقاطِه دخـلَ العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ في مرحلةِ الغُثاءِ والوَهنِ والاستِعمارِ .

قتال التُّرك على حرب الماء وكنز الذهب

وأمَّا **المرحلةُ الثانيةُ** مِن قِتالِ التُّركِ لِلمُسـلِمين فسـيأتي فـي آخرِ الزمانِ معَ نِهايةِ الصِّـراعِ علـى كنـزِ الفُراتِ ، كمـا وردَ في الأحاديثِ . سـيكونُ القِتَـالُ على الدُّنيا بَيـنَ العـربِ والمُسـلِمين مِنهـم . وهو ما يُسـمَّى « بِحـربِ الماءِ وكنـزِ الذهبِ » ، ولتُركيا المعاصرةِ هيمنةٌ على منابِعِ الفُراتِ ومُحاولاتٍ لِصرفِ مياهِه عن مسارِها المألوفِ إلى جِهاتٍ أُخرى رُبَّما كانَت من أسـبابِ الصِّراعِ في المسـتقبلِ المُشـارِ إلَيه . واللَّهُ أعلمُ[2] .

---

(١) مصداقا لما قاله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذكر لقتال الترك ، قال : « وتجدون من خير الناس أشـدهم كراهية لهذا الأمر ، حتى يقع فيه ، والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهـم في الإسـلام » . اهـ صحيح البخـاري ، كتاب المناقب ، بـاب علامات النبوة في الإسلام (٦: ٦٠٤) الفتح .

(٢) وعـن مفهوم حرب المـاء ورد عن عبدالله بن عمرو بن العـاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المعجم الكبير للطبراني (٨٨٥٧): عن القاسم قال : مد الفرات على عهد عبد الله فكره ذلك الناس فقال عبـد اللـه : لا تكرهوا فإنه يوشـك أن يأتي على الناس زمان يلتمس فيه طسـت من ماء ولا يوجد ذلك حين يرجع كل ماء إلى عنصره ويكون بقية الماء والمؤمنون بالشام.

وفـي نفس المصدر : شـكي إلـى ابن مسـعود الفرات فقالـوا : إنا نخـاف أن ينبثق علينا فلو أرسـلت إليه من يسـكره فقـال عبد الله : لا نسـكره فو الله ليأتين علـى الناس زمان لو التمسـوا فيه على طسـت من ماء ما وجدتموه ليرجعن كل ماء إلى عنصره ويكون فيه الماء

و أمَّا الأحاديثُ في هذا البابِ فكثيرةٌ ، ومِنها :

- « لا تقـومُ السـاعةُ حتَّى يُقاتِلَ المُسـلِمون التُّـركُ قَومًا وُجوهُهـم كالمجانِّ المُطرَقَةِ يلبَسون الشَّعرَ ويمشون في الشَّعرِ »[1] .
- وحديثُ « لتظهرَنَّ التُّركُ على العربِ حتَّى تلحقَها بِمنابتِ الشيحِ والقيصومِ فأنا أكره قِتالَهم لِذلِكَ » [2] .
- وحديثُ « إن أُمَّتي يسوقُها قَومٌ عِراضُ الأَوجُهِ صِغارُ الأعيُنِ كأنَّ وُجوهَهم الحَجَفُ (ثلاثَ مرَّاتٍ) حتَّى يلحقوهم بِجزيرةِ العربِ ، أمَّا السـابِقةُ لأولى ، فينجو مَن هربَ مِنهم ، وأمَّا الثانيةُ فيَهلَكُ بعضٌ وينجو بعضٌ ، وأمَّا الثالِثةُ فيصطلِمـون كُلُّهـم مَـن بقِيَ مِنهم » . قالُوا : يا نبيَّ اللَّـهِ مَن هم ؟ قالَ : « همُ التُّركُ » . قالَ : « أمَا والذي نفسي بيدِه ، ليربِطُنَّ خُيولَهم إلى سواري مساجِدِ المُسلِمين »[3] .
- وحديثُ « اتركوا التُّركَ ما تركوكم » [4] .

وأمَّا قِتالُ العجمِ ففيه حديثُ سَـمُرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِكُ أن يمـلأَ اللَّـهُ عزَّ وجـلَّ أيديَكم مِنَ العجمِ ، ثُمَّ يكونون أُسْـدًا لا يفِـرُّون ؛ فيقتلون

والمسلمون بالشام.

(١) صحيحُ مُسلِم (٧٤٩٧) .

(٢) مسـند أبي يعلى (٧٣٧٦) ، ولاحِظْ قولَه: «على العربِ» وكأنَّها إشـارةٌ إلى مرحلةٍ تنفصِلُ مِنها الدُّولُ العربيةُ عنِ الدُّولِ الإسلاميةِ كما هو مُلاحَظٌ الآنَ .

(٣) مسند أحمد (٢٢٩٥١) ، « أشراطَ الساعةِ » يوسُف الوابل ص١٢٠-١٢١ .

(٤) سنن أبي داود (٤٣٠٤) .

مقاتِلتكم ويأكلون فيئَكم »[١].

وعـن أبـي هُرَيـرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ : « يُوشِـكُ أن يملأَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أيديَكم مِنَ العجمِ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ أُسْدًا لا يفِرُّون ؛ فيقتلون مقاتِلتكم ويأكلون فيئَكـم »[٢] ، ويبـدو ـ واللَّـهُ أعلمُ ـ أنَّ العجـمَ هُنا هم دُولُ الغـربِ ومَن حالفَهم . وقد اسـتعمروا العالمَ العربيَّ والإسـلاميَّ خِلالَ الحُروبِ الكَونيةِ الأولى والثانيةِ ، واقتسـموها فيمـا بَينَهـم ، ورسـموا خرائطَها ، واسـتثمروا ثرواتِها إلـى اليومِ في المراحلِ الثلاثِ العِلمانيةِ والعلمنةِ والعَولمةِ ، أو ما أشرنا إلَيها بِمرحلةِ الاستِعمارِ ثُمَّ الاسـتِهتارِ ثُمَّ الاسـتِثمارِ . ورُبَّما أن يكـونَ لِهذا الغزوِ بقيةٌ في مُسـتقبلِ الزمانِ لِصورٍ أُخرى ونماذجَ مُسيَّسةٍ ، واللَّهُ أعلمُ .

كثرةُ القتلِ

كثرة القتل

ومـنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى كَثْرَةُ القَتْلِ، ومِنَ العلامـاتِ التي تكرَّرَت أزمِنةٌ بعدَ أُخرى على صفةِ الكثرةِ والتزايُدِ (كثرةُ القتلِ) ، وهو أيضًا ما سمَّاه رسولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ (بِالهرجِ) ، كما وردَ في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قالَ: « لا تقومُ الساعةُ حتَّى يكثُرَ الهرجُ » قالُوا : وما الهرجُ يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : «القتلُ»[٣].

وعن أبي مُوسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قالَ : « إنَّ بَينَ يدَيِ الساعةِ الهرجَ » قالُوا : وما الهرجُ ؟ قالَ : « القتلُ » . قالوا : أكثرُ مِمَّا نقتُلُ؟ إنّا لَنَقتُلُ في العامِ الواحدِ أكثر مِن سـبعين ألفًا ، قالَ : « إنَّه لَيسَ بِقتلِكمُ المُشـرِكين ، ولكِنْ قتلُ بعضِكم بعضًا » .

---

(١) مسند أحمد (٢٠٦٥٦) .

(٢) أي : يحصدونه ، رواه الطبراني في الكبير (٦٩٢١).

(٣) صحيح مسلم (٧٤٣٩) .

قالوا : ومعنا عقولُنا يومئذٍ ؟! قالَ : « إنَّه لتُنزعُ عُقولُ أهلِ ذلِكَ الزمانِ ، ويخلَّفُ له هَباءٌ مِنَ النّاسِ ن يحسبُ أكثرُهم أنَّه على شيءٍ ، ولَيسوا على شيءٍ »[1]

كثرة الهرج حتَّى لا يدري القاتل فيم قَتَلَ ولا المقتول فيم قُتِلَ؟

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « والذي نفسي بيدِه لا تذهب الدُّنيا حتَّى يأتيَ على الناسِ يومٌ لا يدري القاتِلُ فِيمَ قتلَ ، ولا المقتولُ فيمَ قُتِلَ » . فقيلَ كيفَ يكونُ ذلِكَ ؟ قالَ : « الهرجُ »[2] .

والهَـرْجُ ـ أي : القتـلُ ـ على هـذه الصفةِ فيما بَينَ المُسـلِمين أنفسِـهم برزَ جليًّا مِـن بعدِ مقتـلِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لِأنَّ القتـلَ الذي وقعَ قبل ذلِكَ كحُـروبِ الرِّدَّةِ أو غيرِهـا إنَّمـا وقع بإجماعِ الصحابـةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ضِدَّ مَن أبى الـزكاةَ أو مَنِ ارتدَّ حقيقةً عنِ الإسلامِ.

استباحة القرامطة لحجاج الحرم عام ٣١٧ هـ

وقد حصدَ الهرجُ آلافًا مِنَ المُسلِمين خِلالَ الفِتنِ المُتنوِّعةِ ، التي جرَت في عهدِ المُلكِ العضوضِ في العهدَينِ الأُمويِّ والعبَّاسيِّ ، ثُمَّ عصرِ الدُوَيلاتِ وما استُبيح فِيهـا مِـنَ الدماءِ خِـلالَ الحُروبِ المُتنوِّعةِ . كحـربِ الخـوارِجِ والقرامِطةِ والزِّنجِ وغيرِهـم ، وقـد ذكرَت كُتُبُ السِّيَرِ والتواريخِ أنَّ القرامِطةَ عامَ ٣١٧هـ اسـتباحوا الحـرمَ الشـريفَ بِمكَّةَ فـي يومِ طوافِ الإفاضـةِ ، وأُحصِيَ مِـن قتلاهم في صحنِ الحـرمِ ومـا حَولَـه ثلاثين ألفًا فـي معركةٍ واحِـدةٍ ، وحُصِدَ في حُروبِ العبَّاسـيِّين والأُمويِّيـن مِئـاتُ العـربِ في معـارِكِ الامتِدادِ أوِ الدفـاعِ عنِ المُلـكِ ، حتَّى صارَ الحجاجُ بنُ يُوسُـفَ في ملاحِمِ القتلِ الجماعيِّ خِلالَ العهـدِ الأُمويِّ مِثالًا لِلقائدِ الدمويِّ السفَّاكِ .

---

(١) مسند أحمد (٢٠٠١٩) .

(٢) صحيح مسلم (٧٤٨٨) .

حصاد الحروب العالمية للآلاف من البشر

كمـا أنَّ الحُروبَ الكَونيـةَ الأولى والثانيةَ وما قبلَها وما بعدَها ذهبَ فيها الآلافُ مِنَ الشُّعوبِ المُسلِمةِ وغَيرِ المُسلِمةِ . وخِلالَ المرحلةِ القبليةِ وتهيئةِ العالمِ الغربيِّ بِلادَ العربِ والمُسلِمين لِقَبولِ الاستِعمارِ والتجزئةِ والتقسيمِ ، وحُصولِ الحُروبِ الداخِليةِ بَينَ القُوى المُتنازِعةِ ، ذهبَ كذلِكَ المئاتُ تِلوَ المئاتِ .

حروب الثورة العربية المزعومة ضد الأتراك والحروب القبلية والحزبية

ومِنهـا حُروبُ الثَّورةِ العربيةِ المزعومةِ ضِدَّ الأتراكِ ، وحُروبُ الحُدودِ بَينَ دُولِ الجِـوارِ للتوسُّـعِ في المنطِقـةِ ، وكانَ الداعِمُ الأساسـيُّ لِهذه الحُـروبِ هم أعداءُ المُسلِمين مِنَ المُستعمِرين والمُستثمِرين .

وحصـدَت حُروبُ التحريرِ فيما بَينَ الثُّوَّارِ أنفُسِـهم المئاتِ مِنَ المُتنازِعين على أمـلاكِ القرارِ فـي جنوبِ اليمنِ آنـذاكَ ، ومِثلُها ما حُصِدَ مِنَ الشُّـعوبِ في معارِكِ اليمـنِ وثَورتِه ضِـدَّ النِّظامِ الملكيِّ ، وماجرى بعدَ ذلِكَ مِن فِتَـنِ الصِّراعِ الباترِ بَينَ القُوى في بِلادِ اليمنِ فَوجًا بعدَ آخرَ حتَّى عهدِ الوحدةِ وخِلالَها ، بِصرفِ النظرِ عن عدالةِ المبادِئ أو عدمِها ، فالجميعُ مُسلِمون وأهلُ دينٍ ولُغةٍ ومصيرٍ واحِدٍ .

الحروب الطائفية

ومِثـلُ هذا نراه في أرضِ الرافِدَين وفِلسـطينَ والباكسـتانِ والأفغـانِ والصُّومالِ ـ إلـى اليـومِ ـ مِـن حُـروبٍ داخِليةٍ بَينَ العـربِ والمُسـلِمين على الحُكـمِ والقرارِ والسُّلطانِ ، ونسألُ اللَّهَ السلامةَ فيما بقِيَ .

زخرفةُ المساجِدِ والتباهي بها

زخرفة المساجد والتباهي بها

ومِـن علاماتِ السـاعةِ الصغـرى زخرفةُ المسـاجِدِ والتفنُّـنُ في زينتِها ونقشِـها والتفاخُرِ والتباهي بها بَينَ الأشباهِ والأقرانِ ، وهذه الظاهِرةُ لَيسَت خاصَّةً بِمرحلةٍ مُعينةٍ.. وإنَّما هي ظاهِرةٌ شملَتْ عِدَّةَ مراحِلَ وأزمِنةٍ .

ولم يسلَم فِيها إلَّا عصرُ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم ، وقد أُثِرَ أنَّ سيِّدَنا عُمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لمَّا أمرَ بتجديدِ المسجِدِ النبويِّ قالَ : « أَكِنَّ الناسَ مِنَ المطرِ ، وإياكَ أن تُحمِّرَ أو تُصفِّرَ فتفتِنَ الناسَ »[1] ؛ إلاَّ أنَّ الذين جاءُوا بعدَ ذلِكَ مِنَ الحُكَّامِ والأُمراءِ والسلاطينِ أسرفوا في شأنِ الزخرفةِ لِلمساجِدِ ، ولا زالَ فِيها ما هو قائمٌ إلى الآنَ بِالشامِ ومِصرَ وبِلادِ المغرِبِ والأندلُسِ وغيرِها .. قالَ البُخارِيُّ : قالَ أنسٌ : يتباهون بها ثُمَّ لا يُعمِّرونها إلَّا قليلًا . وقالَ ابنُ عبَّاسٍ : لتُزخرِفَنَّها كما زخرفَتِ اليهودُ والنصارى[2] .

ظاهرة تسامح بعض العلماء في زخرفة المساجد

ويبدُو أنَّ بعضَ العُلماءِ تسامحَ في زخرفةِ المساجِدِ عِندَما صارَتِ الزخرفةُ ظاهِرةَ الزمانِ ، وخاصَّةً في مراحِلِ الترفِ والبذخِ ، ولم تسلمْ مِن ذلِكَ حتَّى مساجِدُ مكَّةَ والمدينةِ سواءً في العُصورِ الأولى أو فيما تلاها مِنَ المراحِلِ الأُخرى إلى العهدِ العُثمانيِّ ، الذي كانَ مِن مميزاتِه الاهتِمامُ بِالزخرفةِ والزينةِ وبناءِ القِبابِ والمنائرِ وغيرِها .

وعذرُ العُلماءِ الذين تسامحوا في ذلِكَ أنَّ تعظيمَ شعائرِ اللَّهِ أَولى مِن تعظيمِ المنازِلِ والمباني معَ وُجودِ النيَّةِ الصالِحةِ في الفِعلِ المقصودِ ، ومعَ هذا وذاكَ فإنَّ التباهيَ والتفاخُرَ مذمومٌ بِلا خِلافٍ ، كما أنَّ تقليدَ اليهودِ والنصارى أكثرُ مذمَّةً . بل جاءَ الوعيدُ الشديدُ بِالدمارِ إذا زُخرِفَت المساجِدُ ، وحُلِّيَتِ المصاحِفُ كما جاءَ في حديثِ أبي الدرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : « إذا زوَّقتُم مساجِدَكم وحلَّيتُم مصاحِفَكم فالدَّبارُ عليكم »[3] .

بناء المساجد للزينة في المنتزهات

وأفحشُ مِن ذلِكَ بناءُ المساجِدِ المزخرفةِ كجُزءٍ مِنَ المشاريعِ الجماليةِ على

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٦) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٦٦) .

البِحـارِ والطُرُقـاتِ ومفارقِ الشـوارعِ فـي المُخطَّطاتِ الاسـتِثماريةِ ، بحَيثِ تظلُّ بعضُ هذه المسـاجِدِ مهجورةً لبُعدِها عن حركةِ الناسِ ، وهُناكَ مِنَ المساجِدِ التي يتباهى ويتفاخرَ بها أصحابُها بالأسـماءِ والمُسمَّياتِ على صِفةِ الضديَّةِ لمُخالِفيهم وجعلِها سببًا في الشتمِ واللعنِ والتحقيرِ والسُّخريةِ لِغَيرِهم .

بَيعُ الحُكمِ

بيع الحكم
علامة صغرى

ومنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى الصراعُ على الحكمِ ونُزُولُهُ إلى سُـوقِ العَرْضِ والطَّلَبِ، وهو دفعُ الأموالِ في سـبيلِ الترشـيحِ والانتِخابِ ، أو تنازُلُ البعضِ عن صوتِـه مُقابِلَ مدفوعاتٍ ماليةٍ ، وإثـارةُ الفوضى والتحريشُ الاجتِماعيُّ بَينَ الناسِ حولَ الجدارةِ بِالحُكمِ والسُّلطانِ ، وانشِغالُ الجُمهورِ الأوسعِ مِنَ المُجتمعِ بما لا يخُصُّـه في الأمرِ ، مِمَّا يُؤدِّي بِالضرورةِ إلى : امتِنانِ هذه الجماهيرِ على المُنتخَبِين والمُرشَـحِين ، والضغـطِ علَيهـم وتحدِّيهـم ، ونزعِ الثقـةِ عنهم أمـامَ أيِّ حادِثةٍ أو قضيةٍ ، كما هو مُلاحَظٌ في العالَمِ الإنسانيِّ المُعاصرِ ، فهي إحدى ظواهِرِ المرحلةِ المُعاصرةِ في المُسلِمين .

كثرةُ الشُّرَطِ

ومنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى كَثْرَةُ العَسَـاكِرِ والشُّـرَطِ، والشُّـرطُ همُ العساكِرُ الخاصَّـةُ بالأنظِمةِ لِحمايةِ الداخِـلِ والخارِجِ مِن حُدودِها المُجاوِرةِ ضِدَّ الأشـباهِ والأمثـالِ مِن شُـرْطَةِ الأمنِ والمُـرورِ وغيرِها مـن مجموعاتِ الضبـطِ الداخليِّ ، وهـي ظاهِـرةٌ معلومةٌ وصفَها النبـيُّ ﷺ « بِالكثرةِ » ، ومعَ هـذه الكثرةِ في الداخِلِ لا يُمكِنُ بِأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ أن تتصدَّى هذه الشُّـرطُ لِلعدوِّ المُشترِكِ « كاليهودِ فـي فِلسـطِينَ » وغيرِها مِنَ القضايا العربيةِ والإسـلاميةِ المُشـتركةِ ؛ لِعـدمِ قُدرتِها

العسكريةِ مِن جِهةٍ ، ولِعدمِ اهتِمامِ الأنظِمةِ بِالدفاعِ المُشتركِ وحصرِ اهتمامِهم فـي تهيئةِ المُجتمعاتِ مِنَ الداخِلِ لِنسبةٍ مِنَ الأمنِ المُساعِدِ علـى حركةِ التِّجارةِ والسياحةِ وخدماتِ النِّظامِ ذاتِه وتحقيقِ الاستقرارِ لِلصادِراتِ والوارِداتِ فيما بَينَ الأنظِمةِ والدُّولِ المستثمِرةِ والمُصدِّرةِ .

قطيعة الرحم
علامة صغرى

قطيعةُ الرحِمِ

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى قطيعةُ الرَّحِمِ، فلا تخلو بُقعةٌ اليَومَ مِن مجتمعاتِنا العربيةِ والإسلاميةِ إلَّا وهي تُعاني من هذا التفكُّكِ الأُسريِّ وقطيعةِ الرحِمِ وعُقوقِ الوالدَين ، وسببُها انعِدامُ التربيةِ الإسلاميةِ في مواقِعِ التعليمِ الأساسيِّ والثانويِّ والجامِعيِّ ، والاكتِفاءُ بالتركيزِ علـى الجانِبِ التعليميِّ والثقافيِّ وإثارةِ الطِّباعِ الغريزيةِ بِالاختِلاطِ في المدارِسِ وبِالأجهزةِ ومُخرجاتِها في البُيوتِ والأنديةِ والمنتزهاتِ وما شاكلَها في المُجتمعِ ، وهكذا تكونُ القطيعةُ في أخطرِ صُورِها .

نشء القرآن
بأصوات المزامير
علامة صغرى

نشءٌ يكونُ في آخِرِ الزمانِ يتخِذُ القُرآنَ مزاميرَ

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى «نَشْءٌ يَتَّخِذُونَ القُرْآنَ مَزَامِيرَ»[١]، أي: يُحَسِّنُونَ بـه الأصواتِ، وإلـى ذلك أشارتْ الأحاديثُ الشريفةُ منها هـذا الحديثُ، وهذا النشءُ مِن حُفَّاظِ القُرآنِ ومُجوِّدِيـه بِنغمةِ الأصواتِ قد برزَ اليَومَ كظاهِرةٍ دينيةٍ في غالِبِ المُجتمعاتِ العربيةِ والإسلاميةِ ، والمقصودُ مِنَ اتِّخاذِ القُرآنِ مزاميرَ صرفُه عن وظيفتِه الشرعيةِ إلى الاستفادةِ مِن تعلُّمِه وقراءتِه لأغراضٍ دينيةٍ أو سياسيةٍ أو مادِّيةٍ أو إعلاميةٍ يُحسِنُها البرُّ والفاجِرُ .

---

(١) مسند أحمد (٢٤٦٩٧) .

وفي هذا الصددِ يقولُ ﷺ فيما رواه أحمدُ، ولفظُه: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « فيكم كِتابُ اللَّهِ يتعلَّمه الأسودُ والأحمرُ والأبيضُ، تعلَّموه قبلَ أن يأتيَ زمانٌ يتعلَّمُه ناسٌ، ولا يُجاوِزُ تراقيَهم، ويُقوِّمونه كما يُقوَّمُ السهمُ؛ فيتعجَّلون أجرَه ولا يتأجَّلونه »[1].

وعن أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: « أقرأُ الناسِ لِهذا القُرآنِ المُنافِقُ لا يذرُ منه ألِفًا ولا واوًا، يلُفُّه بِلسانِه كما تلُفُّ البقرةُ الكلأَ بِلسانِها »[2].

وفي روايةِ ابنِ أبي شَيبةَ بِنحوِه عن حُذَيفةَ، وزادَ في آخِرِه: « لا يُجاوِزُ تراقيَه ». وإسنادُه كُلُّهم ثِقاتٌ، ويُفهَمُ مِنَ الأحاديثِ أنَّه ﷺ كرِهَ التكلُّفَ في القِراءةِ، وكانَ يحِبُّ القِراءةَ السهلةَ، كما أمرَ أصحابَه أن يقرأَ كُلٌّ مِنهم بما تيسَّرَ له، وسهُلَ على لِسانِه معَ حُضورِ القلبِ وحُصولِ الخُشوعِ وتفهُّمِ المعاني[3].

الجُرأةُ في الفتوىٰ

الجرأة في الفتوى علامة صغرى

ومِنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى الجرأةُ في الفَتْوى، وهي ظاهِرةُ الاجتِهادِ الشرعيِّ المُخالِفِ لِلحقيقةِ وحملِ الآياتِ والأحاديثِ على غَيرِ معانيها الصحيحةِ.

---

(١) مسند أحمد (٢٣٥٦٣).

(٢) مصنف عبدالرزاق (٥٩٨٧).

(٣) قال التويجري في « إتحاف الجماعة » الثاني ص١٢٣: «إنه -أي: النبي ﷺ - لم يكن يعلمهم التجويد ومخارج الحروف، وكذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم ينقل عن أحد أنه كان يعلم التجويد ومخارج الحروف، ولو كان خيرا لسبقونا إليه» اهـ. ولعل ما أشار إليه الشيخ هنا مرتبط بتلك المرحلة التي كانت فيها لغة العرب سليمة ومعتنى بها اعتناء تاما، أما اليوم فالأمر يقتضي التوسط بين الحالين حتى لا يذهب القرآن بين إفراط المفرط وإضاعة المفرط، والله أعلم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « يخرجُ في آخِرِ الزمانِ رِجالٌ يختِلـون الدُّنيا بِالدينِ يلبَسـون لِلناسِ جُلودَ الضأنِ مِنَ اللِّينِ ، ألسـنتُهم أحلى مِنَ السُّـكَّرِ ، وقُلوبُهُمُ قُلُوبُ الذِّئابِ ، يقولُ اللهُ : أبي يغترون أم عليَّ يجترِئون ؟ فبي حلفتُ لأبعثَنَّ على أولئك مِنهم فِتنةً تدعُ الحليمَ مِنهم حيرانًا »[1] .

ظاهرة الفتوى لإرضاء الساسة

والختـلُ : هـو الخِداعُ ، يُقالُ : « ختَلَـه يختِلُه ويختُلُه : إذا خدعَه وراوغَه» . وهو ـ أي : الختـلُ ـ مُطابِـقٌ لِواقِعِ الكثيرِ مِن حملةِ القُرآنِ والدعوةِ المُعاصِرةِ ، وخاصَّةً أولئكَ الذين جعلوا العِلمَ والفتوى إرضاءً لِمواقِفِ الساسةِ ودُعاةِ النقضِ والقبضِ ، وكانَ لهـم دَورٌ في تحريـفِ المعاني المُنزَّلةِ في القُرآنِ على الكُفَّارِ والمُشـرِكينَ فحوَّرُوها ؛ لِتُصبِحَ حُجَّةً لهم على المُصلِّين مِنَ المُسلِمين ، وقد عمَّت هذه الظاهِرةُ ومثلُها بِلادَ العالمِ الإسـلاميِّ والعربيِّ ، وصارَتْ فِقهًا وعِلمًا بديلًا عن إدانةِ شركِ اليهـودِ والنصارى وأهلِ الأوثانِ ، بل صارَ شـركُ اليهودِ والنصارى وأهلِ الأوثانِ لدى البعضِ من هؤلاء المَوصوفين في الحديث بالختلِ والاجتراءِ؛ ظاهرةً مأمونةً وثقافةً حضاريةً مُتبادلةً تبرُزُ في الإعلامِ والاقتِصادِ والدِّراسـاتِ الفكريةِ المُتنوِّعةِ بِصـورٍ ذكيةٍ وغيرِ مسـبوقةٍ معَ صداقـاتٍ وعِلاقاتٍ حميمةٍ ، تبـرُزُ جليَّةً في نماذِجِ العملِ الاقتِصاديِّ والرياضيِّ المُشتركِ والثقافيِّ والسياحيِّ ، وهَلُمَّ جرًا...

ظاهرة الفتوى في تحريف معاني القرآن

وكانَ بهـا وبِأمثالِهـا الانحِدارُ الخُلُقـيُّ والوهنُ الثقافيُّ والاسـتِتباعِ الآليِّ لِلأُممِ الأُخرى ؛ وكفى بِالواقِعِ العربيِّ والإسلاميِّ شاهِدًا على هذه الحالةِ .

قَولُـه : « يلَبسـون لِلنـاسِ جلودَ الضـأنِ مِنَ الليـنِ » كُنيةٌ عن تملُّقِهـم لِلناسِ في المناسباتِ والإعلامِ وتحسينِ الخلقِ في وُجُوهِهم ، وإظهارِ البشاشةِ لهم ، واللينُ

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٤) .

معَهم لَيس على وجهِه الحقيقةِ ، وإنَّما مُنافقةٌ بِاللِّسـانِ وتكلفٌ وتصنُعٌ في الظاهِرِ ، وأما في الباطنِ فهُم بِخِلافِ ذلِكَ .

ظاهرة التجمل بالألسنة في الحديث وإخفاء الخديعة في القلوب

قَولُه : « ألسنتُهم أحلى مِنَ السُّكرِ » وفي رِوايةٍ : « أحلى مِنَ العسلِ » . إشارةٌ إلى ما يصدُرُ مِن مُجملِ الحديثِ المعروضِ على الشُّعوبِ ومُناقشاتِ العِلمِ والفتوى والتحليـلاتِ والتعليلاتِ البحثيةِ المُفيدةِ في ظاهرِ شُـؤونِ الحياةِ ، ولكنَّ قُلوبَهم ومـا يخفونـه في بواطِنِهـم ـ إنَّما «قُلوبُهُـمُ قُلوبُ الذِّئـابِ» ـ لِما انطـوَت علَيهِ مِنَ الخُبثِ واللؤمِ والضغينةِ معَ كونِها « أمرَّ مِنَ الصَّبِرِ » لِشـدَّةِ مرارةِ ما يخفونه فِيها ـ وفـي رِوايـةِ حُذَيفةَ ـ « قلوبُهم أنتنُ مِنَ الجيفةِ ، وأمرُّ مِنَ الصَّبِرِ » . ونتيجةُ هذا كُلِّه وما هم علَيهِ وصائرون إلَيه ، يحلِفُ الحقَّ سُبحانَه : «لأبعثَنَّ على أولئك مِنهم فِتنةً تدعُ الحليمَ مِنهم حيرانًا » . والفِتنةُ المُشارُ إلَيها مما لا يحتاجُ وصفُه في أمةِ القُرآنِ والسُّـنَّةِ أمام قضاياها المصيريةِ وقضاياها المحليةِ والإقليميةِ وعجزِها مُجتمِعةً أو مُتفرِّقـةً بِاعتِبـارِ مَن يدَّعي سـلامةَ منهجِه وديانتِه عن تحقيقِ أهـدافِ الأُمَّة وعِزَّتِها عسكريًّا واقتِصاديًّا وتربويًّا وثقافيًّا وإعلاميًّا واجتِماعيًّا .

الفتنة التي تصاب بها الأُمَّة ثمرة المخادعة

وتكادُ الفِتنةُ « التي تدعُ الحليمَ حيرانًا » تبرُزُ بِوضوحٍ في كافَّةِ الحالاتِ المُشـارِ إلَيهـا ، بـل وتُؤكِّـدُ أثـرَ تدخُّـلاتِ المُشـركين الأساسـيِّين مِـن دُولٍ ومجموعاتِ التهـوكاتِ العالميـةِ في كافَّةِ شُـؤونِ الأُمَّـةِ ـ بِرِضاهـا أو بِغَيرِ رِضَاهـا ـ ومِنها فِتنةُ المُعاملاتِ الرِّبويةِ .

العَودُ إلى الشركِ وعِبادةِ الأوثانِ

العودة إلى الشرك علامة صغرى

ومِن علاماتِ السـاعةِ الصغرى عِندَ قُربِ الأمرِ عَـودةِ العربِ إلى عِبادةِ الأوثانِ وإقامةِ مظاهِرِ الشركِ التي كانوا يقيمونها في الجاهِليةِ كعِبادةِ اللَّاتِ والعُزَّى وذي

الْخَلَصَةِ وغيرِها .

ظاهرة تهمة الشرك على زوار القبور

وهذا الشِّـركُ المنصوصُ على عَودتِه سيكونُ في الأُمَّةِ بعدَ مَوتِ عِيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أمـا قبـلَ ذلِكَ فلا شـركَ في الأُمَّـةِ ، وإنَّما يكونُ فِيهـا الغُلوُّ والإفـراطُ والتفريطُ وغيرُها مِن مظاهِرِ الاعتِقادِ المُخِلَّةِ بِالاعتِدالِ الشرعيِّ ، وكثرةُ المعاصي المُوجِبَةِ لِلخسفِ والقذفِ[1] .

فقه التحولات لا يشير في العلامات إلى تجديد التوحيد في مرحلة الغثاء

وقـد بـرزَ وظَهرَ فـي مرحلـةِ الغُثاءِ والوهـنِ تركيزُ البعـضِ مِن مـدارِسِ القبضِ

---

(١) ويؤيد هذا القول ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال : «يمسـخ قوم من أمتي آخـر الزمـان قردة وخنازير» ، قالوا : يا رسـول الله ، مسـلمون هم ؟ قال : « نعم يشـهدون أن لا إلـه إلا اللـه وأنـي رسـول اللـه ، ويصومون ، ويصلـون» . قالوا : فما بالهم يا رسـول اللـه ؟ قـال : « اتخذوا المعـازف والقينات والدفوف ، وشـربوا هذه الأشـربة ؛ فباتوا على شـرابهم ولهوهم ؛ فأصبحوا وقد مسـخوا» . كنز العمال (٣٨٧٣٥) ، هكذا ذكره صاحب سبل الهدى والرشاد « ١٠ : ٦٦٤ » .

وفـي روايـة عـن ابن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسـول اللـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «والذي نفسـي بيده ليبيتن ناس من أمتي على أشـر وبطر ولعب فيصبحوا قردة وخنازير باسـتحلالهم المحارم واتخاذهم القينات وشـربهم الخمر وأكلهم الربا ولبسـهم الحرير» رواه أحمد « ٥ : ٣٢٩ » وأوله : والذي نفس محمد بيده إلخ..

قلت : وهذا الخسـف والقذف والمسـخ يكون من المصلين المرتكبين للمعاصي ، كما هو ملاحظ اليوم في الأمة نسـأل الله السـلامة ، ولم تشـر الأحاديث إلى شـيء من الشرك الـذي هـو أعظم الذنوب ولا لشـيء من العقوبات التـي تحل بالقبوريين كما يسـميها أهل هـذا الفهم الغريب ، وإنما يكون الهلاك والخسـف والرجف بمـا تزينه الأنظمة من الفنون والثقافات والمعاملات الربوية التي عمت بلاد المسلمين وطمت ، وفيها يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «لابد من مسخ وخسف ورجف» ، قالوا : يا رسول الله ، في هذه الأمة ؟ قال : «نعم ، إذا اتخذوا القيان واستحلوا الزنا ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الصيد في الحرم ، ولبس الحرير ، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء» سبل الهدى والرشاد « ١٠ : ٦٦٩ » .

والنقضِ على هذه المسـألةِ واتِّهامِهم لِلمُسـلِمين بِالشـركِ ، باعتِبـارِ ما حصلَ مِن تعظيمٍ وتقديسٍ للقُبورِ والأولياءِ الأمواتِ والأحياءِ ، وما ترتَّبَ على هذا التقديسِ مِنَ التوسُّـلِ والاسـتِغاثةِ والاستِشـفاعِ وحُسـنِ الظنِّ فـي البُلهِ والمجاذيبِ وشـدِّ الرِّحالِ إلى الزياراتِ والحولياتِ وغيرِ ذلِكَ .

وقدِ اجتمعَ لدى حملةِ هذا المنهجِ جُملةٌ مِن تُهمِ التشريكِ فكفَّروا بها المُسلِمين جميعًـا إلَّا مَن تابَ وأنابَ على نهجِ المدرسـةِ الناقِضةِ للعُرى بَينَ المُسـلِمين مِنَ القـرنِ الثامِـنِ وما تلاه ، وهذه المدرسـةُ قامَت وتأسَّسَـت على مُحاربـةِ المحاوِرِ الثلاثةِ :

المِحورُ الأوَّلُ : تعليلُ مشـاهِدِ الأنبياءِ والأوليـاءِ مِن آلِ البَيتِ على أنها أصنامٌ ، ومَـن فِيها مِنَ الأمواتِ طواغيـتُ تُعبَدُ ، ويجِبُ هدمُها وإزالتُهـا بما فِيها قبرُ النبيِّ ﷺ وصاحِبَيه في المدينةِ .

المِحورُ الثاني : كافَّـةُ عُلمـاءِ المُسـلِمين المرتبِطيـن بِالتاريخِ الإسـلاميِّ القائمِ على احترامِ الأمواتِ والأحياءِ ، والمُفتين بِجوازِ التوسُّلِ والاستِغاثةِ والاستِشفاعِ بِالشروطِ الشرعيةِ (سدنةُ قُبورٍ) و(كهنةُ معابِدَ) ويجِبُ محاربتهم وقتلهم .

المِحـورُ الثالِـثُ : رعايـا المُسـلِمين في سـائرِ أقطـارِ الأرضِ ممن ينهَـجُ منهجَ المـدارِسِ الشـرعيةِ المُبيحةِ للزيـاراتِ والحوليـاتِ واحترام الأحيـاءِ والأمواتِ بضوابطِهـا الشـرعيةِ أو بالوقـوعِ في طرفَيِ الإفراطِ والغُلوِّ شُـعوبٌ قبوريـةٌ وعُبَّادُ أضرحـةٍ ومُشـركون.. ويشـملُهم مبدأُ التكفيـرِ الأساسـيِّ، الذي انطلـقَ بِه حملةُ التوحيـدِ السياسـيِّ « كُلُّ مَن تحتَ السـبعِ الطِّبـاقِ كافِرٌ على الإطـلاقِ » ، بِصرفِ النظرِ عمن ينفي هذه المقولةَ ، وينفي نظرَ المدرسـةِ إلى المُسلِمين عُلماءَ وشُعوبًا

وإلى المشاهِدِ والقُبورِ بهذه الصورةِ ، فالأساسُ الذي انطلقَت منه الرؤيةُ كانَ ولا زالَ يحمِلُ هذا الحُكمَ ، أو على الأقلِ ينطلِقُ لِتحقيقِه ولَو بالتدريجِ ، مِن خِلالِ انتِشارِ أتباعِ المدرسةِ وحملةِ الفِكرِ التكفيريِّ المُتنامي ، سواءً أعلنوا انتماءَهم لِمَوطِنِ الفِكرةِ ، أوِ استقلُّوا عنها ، فالعبرةُ بِالفِكرةِ ورواجِها لا الجِهاتِ المُموِّلةِ لها ، ولا المحضَنِ المُهيِّئ لها أسبابَ الظُّهورِ ، فتِلكَ ينطوي كشفُها على مخاطرَ جمَّةٍ وتعقيداتٍ خطيرةٍ .

معَ أن فِقهَ التحوُّلاتِ وقِراءةِ علاماتِ الساعةِ لا يُشيرُ في مجموعِه إلى شيءٍ مِن تُهمةِ ذلِكَ الكُفرِ أو الشركِ المُبيحِ لِهؤلاءِ أو لِغَيرِهم أعراضَ ودِماءَ وأموالَ وعقائدَ المُصلِّين ، ولا تُشيرُ إلى مرحلةِ تجديدٍ للتَّوحيدِ على يدِ أحدٍ في مرحلةِ الغُثاءِ ، بل إنَّ علاماتِ الساعةِ تَصِمُ مثلَ هذه الأفاعيلِ بِالهَرْجِ والفِتنةِ ، وبِمشاركةِ المُستعمِرين والمستثمِرين في اقتسامِ مصالِحِ الثرواتِ على حِسابِ الأُمَّةِ المغلوبةِ في مرحلةِ الغُثاءِ والوهنِ وهذا ما نصَّت علَيهِ سُنَّةُ النبيِّ ﷺ وما ترتَّبَ على قِراءتِها في فِقهِ التحوُّلاتِ[1] كما سيأتي .

---

(١) بل إن السنة الشريفة أكدت سلامة المصلين في جزيرة العرب من الشرك وعبادة الأصنام ، وأن الذي يدور في المرحلة إنما هو التحريش بين المصلين بإدراك من فاعليه أو بغير إدراك لعدم اطلاعهم على الركن الرابع من أركان الدين ، ويؤيد هذا الأمر حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة فالتفت إليها ، وقال : « إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك » . رواه أبو يعلى والبزار والطبراني (١٠ : ٢٢٨) سبل الهدى والرشاد .

وقد بوب الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢هـ في كتابه «سبل الهدى والرشاد ، الباب الحادي والعشرون» في إخباره ﷺ بأن جزيرة العرب لا تعبد فيها الأصنام أبدا ، وذكر الحديث : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم » . وعلق على ذلك بقوله : « قال ابن مالك «

ظاهرتا الإفراط والتفريط هما المسؤولتان عن الصراع العقدي

وبِما أنَّ المسألةَ قد خرجَت عن دائرةِ السيطرةِ ، واستفحلَ الأمرُ ، وخنعَ لها مَن خنعَ ، واقتنعَ بها مَنِ اقتنعَ ، ومرَّتِ السنواتُ تِلوَ الأُخرى حتَّى صارَ المُسلِمون

المصلون » المؤمنون عبر عنهم بالمصلين ؛ لأن صلاتهم هي الفارقة بين الإيمان والكفر ، وأضاف «العبادة» في قوله « أن يعبده » إنما نسبها إلى الشيطان لكونه داعيا إليها . اهـ «ص٤٠٤ الجزء العاشر» .

وفي ذلك روى البزار عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدي » ، هذا يعني المدينة والجزيرة العربية ، ولكن في التحريش بينهم . ذكره الهيثمي في المجمع (٣ : ٣٠٢) .

ويؤكد هذا المنحى حديث عبادة بن نسي قال : دخلت على شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مصلاه ، وهو يبكي فقلت : « يا أبا عبدالرحمن ما الذي أبكاك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فقلت : ما هو ؟ قال : بينما أنا عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذ رأيت بوجهه أمرا ساءني ؛ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله . ما الذي أرى بوجهك ؟! قال : « أمر أتخوفه على أمتي من بعدي » . قلت : وما هو ؟ قال : « الشرك وشهوة خفية » . قال : قلت : يا رسول الله ، أتشرك أمتك من بعدك ؟! قال : « يا شداد ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولا حجرا ، ولكن يراءون الناس بأعمالهم » . قلت : يا رسول الله ، الرياء شرك هو ؟ قال : « نعم » . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : « يصبح أحدكم صائما فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر . رواه أحمد والحاكم .

وأما ما يدندن عليه عساكر النقض والقبض ، وينفعلون من أجله فهو على أحد أمرين :

- غيرةٍ على التوحيد يجب الاستفادة منها بالنظر في تصحيح كافة الإفراطات اللفظية والعملية ، وتوجيه عامة المسلمين إلى السلامة في العقائد بالحكمة والموعظة الحسنة دون لجاج أو إحراج .
- استتباعٍ لسياسة الخوارج في حمل الشبه على المصلين وتكفيرهم بها ، واستثمار هذا الصراع لإقصاء آل البيت والصوفية والمذهبية عن موقع التأثير الروحي والاجتماعي ؛ ليصفو الجو والزمان لمروجي التكفير والتبديع وأكل المال الحرام والمعاملات البنكية الربوية وشبه الربوية ، وغمط حقوق الشعوب من العمال والمصلين والسخرية بهم ، مقابل خدمة التوحيد السياسي المندرج ضمن علامات الساعة .

يُهلِكُ بعضُهم بعضًا ، ويُكفِّرُ بعضُهم بعضًا ؛ فإنَّ الحقيقةَ التي لا زالَت في مَظَانِّها هي الحقيقةُ مهما تكاثَرَت ضبابيةُ الباطِلِ ، ومنافيخُ سُـمومِ الجماعاتِ المخدوعةِ والفصائلِ ، ولكنَّها تحتاجُ في مُواجهتِها وترشيدِها إلى الشجاعةِ والمِصداقيةِ وأمَّا مسـألةُ الانحِرافِ عنِ الجادَّةِ وحُصولِ الإفراطِ في الاعتِقاداتِ والعباداتِ وسـيِّئِ العاداتِ ؛ فمسألةٌ يسهُلُ عِلاجُها ، بل هي العِلَّةُ التي لا بُدَّ مِن تصحيحِها والوُقوفِ أمامَ أوراقِها وعِللِها لدى الجميعِ . ومثلُها مثلُ الوُقوفِ أمامَ فِتنةِ التشريكِ والتكفيرِ ، فـكِلا الحالتَينِ إفراطٌ مَشـينٌ وتفريطٌ مهينٌ ، ولا شـكَّ أنَّ التصحيـحَ والإعادةَ يتمُّ بِأُمورٍ :

تصحيح فتنة التشريك للمسلمين

وجوب رد تهمة الشرك عن الأمة

أولُها ردُّ شُـبهةِ الشـركِ الأكبرِ عن أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، وخاصَّةً شُبهةُ الشركِ المؤدِّيةِ إلى اسـتِحلالِ الدِّماءِ والأعراضِ ، وإِلصاقِ تُهمةِ الشـركِ الأكبرِ ، وإثارةِ الفَوضى الدينيةِ بها في عُمومِ بِلادِ المُسلِمين كما قد حصلَ .

ثانيها أنَّ كافَّةَ الآياتِ والنُّصوصِ التي اسـتدلَّتْ بها هذه المدرسـةُ لا تنطبِقُ على المُسلِمين المُصلِّينَ وإنَّما موقِعُها الصحيحُ مرحلتَينِ :

مرحلة الشرك الجاهلي الأوَّل

الأُولى : مرحلةُ الشِّركِ الجاهِليِّ التي حاربَها رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وانتهَت بِفتحِ مكَّةَ وإِخراجِ الأصنامِ مِنَ الكعبةِ ومِن كافَّةِ المواقِعِ الأُخرى في جزيرةِ العربِ فيما بعدَ ذلِكَ ، وانحصرَت بعدَ ذلِكَ فيمَن بقِيَ مِن مُشركي العربِ ومن يرفُضُ الإسلامَ مِنَ اليهودِ والنصارى والأُمَمِ الكافِرةِ .

مرحلة العودة إلى الجاهلية

الثانيةُ : مرحلـةُ العَـودةِ إلـى الجاهِليـةِ الصريحـةِ فيمـا بعـدَ مَـوتِ عيسـى علَيهِ السلامُ.

فأمَّـا **المرحلةُ الأولى** فقـد حاربَهـا رسـولُ اللّـهِ ﷺ ، واجتُثَّت آثارُهـا الصنميةُ

والعقديةُ بِهدمِ دُورِ العِبادةِ وإزالةِ الأصنامِ مِنَ الكعبةِ وما حولَها . وبقِيَت كما أشرْنا لـدى الأعرابِ وأشـباهِهم بعضُ الظواهِرِ والمفاهيمِ التي قـامَ الصحابةُ والتابِعونَ بإزالتِها وتتبُّعِ آثارِها ، ولم يبقَ مِنها في الأُمَّةِ شـيءٌ يُذكَر ما عدا ما شـابَ العِباداتِ والمُعتقـداتِ مِنَ الإفـراطِ والتفريطِ في بعضِ الأحوالِ نتيجـةَ تراكُماتِ المراحِلِ وشُـمولِ الجهـلِ ، ودُخـولِ بعـضِ المفاهيـمِ الخاطِئةِ مِـنَ الاحتكاكِ بالشُّـعوبِ الغازيةِ[1] .

المرحلة الثانية بعد موت عيسى علَيهِ السلام

وأمَّـا مرحلةُ العَودةِ إلى الشِّـركِ الأكبرِ المنصوصِ علَيهِ في آخـرِ الزمانِ فمحدَّدٌ بما بعدَ مَوتِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وبصفتِه المنصوصِ علَيها في الحديثِ : « لا يذهبُ اللَّيلُ والنهارُ حتَّى تُعبَدَ اللاتُ والعُزى » . فقالَت عائشـةُ : يا رسـولَ اللَّهِ إني كُنتُ لأظـنُّ حينَ أنزلَ اللَّهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[الصف:٩] أنَّ ذلِكَ تامًّا ، قالَ : « إنَّه سيكونُ ما شاء اللَّهُ ، ثُمَّ يبعثُ اللَّهُ رِيحًا طيِّبـةً فتُوفِّـي كُلَّ مَن في قلبِـه مِثقالَ حبَّةٍ مِن خردلٍ من إيمـانٍ فيبقى مَن لا خيرَ فيه فيرجِعون إلى دينِ آبائهم »[2] .

وهـذَا الحديـثُ يربِطُ بَينَ الشـركِ وقبـضِ أرواحِ المؤمنين ، وهـذا من علاماتِ الساعةِ بعدَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقبلَه حديثُ ثوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لا تقومُ السـاعةُ حتَّى

---

(١) كما هو في إفراطات بعض الشعوب التركمانية والمغولية خلال فتوحات الدولة العثمانية ، أو في تفريطات ومعتقدات الشعوب الغازية كالدول الاستعمارية ودورها في إضعاف العلم ودور العلماء وتشـجيع الخرافات والعادات الشعبية ، ونفث سموم التسييس الاستعماري في المجتمعات المسلمة ، ولا زال هذا الأمر سائدا إلى اليوم .

(٢) مسلم (٧٤٨٣) .

يلحقَ قبائلُ مِن أُمَّتي المشركين، وحتى يعبُدوا الأوثانَ»[1].

ما بَينَ بعثة النبي مُحمَّد صلى الله عليه وآله وإلى نزول عيسى عليه السلام ينحصر الشرك الأكبر في اليهود والنصارى وأهل الأوثان

أمـا ما بَيـنَ بعثةِ النبيِّ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وآله إلى نُزولِ عيسـى بل إلى موته فالشـركُ الأكبرُ محصـورٌ في اليهودِ والنصارى وأهـلِ الأوثانِ مِنَ الأُممِ الأُخرى. هذه الأُممُ التي وجبَ علينا إدخالُها إلى الإسـلامِ ونشـرِ الدعـوةِ إلى اللّهِ فِيها لإنقاذِهـا مِنَ الكُفرِ والنارِ، وهذا ما عمِلَه الأسـلافُ وحقَّقوه في العالمِ الإنسـانيِّ، أمَّا اليَومَ فإنَّ هذه الأُممَ الكافِرةَ تعملُ مِن خِلالِ الوسـائلِ المُتنوِّعةِ على إفسـادِ المُسـلِمين وتفكيكِ عِلاقتِهم بِثوابتِ الديانةِ مِن خِلالِ سياسةِ العِلمانيةِ والعلمنةِ والعولمةِ تعليمًا وتربيةً وسياسـةً واقتِصادًا واعتِقادًا كجُزءٍ مِن سياسـةِ المرحلةِ الغُثائيةِ المنصوصِ علَيها، حتَّى يرمي المسـلمُ المسـلمَ بِالشركِ أوِالكُفرِ اسـتِتباعًا لِسَـنَنِ اليهودِ والنصارى، الذين فعلوا ذلِكَ مِن قبلُ، وإليه يُشـيرُ حديثُ «لَتتبعُنَّ سَـنَنَ مَن كانَ قبلَكم ...». الحديث. وهذه علامةٌ مِن علاماتِ الساعةِ في الأُمَّةِ، ومفادُ الحديثِ حُصولُ هذه الظاهِرةِ في المُسلِمين على صِفتَين:

ظاهرة الاستتباع للمشركين في آخر الزمان

(١) تبنِّـي بعضِ المُسـلِمين سياسـةَ التحريشِ بإشـاعةِ تُهمةِ التشـريكِ والتكفيرِ بِشُـبَهِ الاعتِقـادِ كإحـدى وسـائلِ النقـضِ والقبـضِ الموعودِ بـه في آخِـرِ الزمانِ، وذلِكَ بِاسـتِتباعِ فِكرةِ الصِّراعِ العقديِّ لدى فِرقِ اليهودُ والنصارى، كالصِّراعِ بَينَ البُروتستانتَ والكاثُولِيك وغيرِهم، وإنجاحِ هذا الصِّراعِ بدعمِ القُوى الاستِعماريةِ معَ بدايةِ مرحلةِ الغُثاءِ إلى اليَومِ داخِلَ حظيرةِ الأُمَّةِ الإسـلاميةِ، وقد نجحَت هذه السياسـةُ وفرَّقَت أُمَّةَ التَّوحيدِ بِالشُّـبُهاتِ مُقابِلَ حُصولِها علـى الهَيمنةِ الاقتِصاديةِ والسياسـيةِ، ومـا تلاها مِن تهيئةِ أسـبابِ الغِـذاءِ والدواءِ والأمـنِ مُقابِلَ التضحيةِ

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٨٠).

بِالمنهجِ الأبويِّ التقليديِّ وركائِزِه .

ولا زالَتْ عناصِرُها المُسَيَّسَةُ وغَيرُ المُسَيَّسَةِ تعملُ على الإثارةِ والتحريشِ مِن خِلالِ الوسائلِ الإعلاميةِ والشعبيةِ والمُناسباتِ .

(٢) حجزُ الشُّعوبِ المُسلِمةِ بعدَ استِعمارِها ، وفصلُ بعضِها عن بعضٍ ، ونقضِ قرارِها الإسلاميِّ ؛ لِتتحوَّلَ عبرَ التاريخِ الاستِعماريِّ والاستِهتاريِّ إلى شُعوبٍ عِلمانيةٍ وشِبهِ عِلمانيةٍ بِتغييرِ مناهِجِ التربيةِ والتعليمِ والثقافةِ والإعلامِ وغَيرِها .

ومِثلَما جرى بعدَ الحربَين العالميتَين مِن إلحاقِ شُعوبِ شرق أوروبا كالروسِ والمجرِ وبُلغاريا والصِّربِ والبوسنةِ والهرسكِ وغيرِها مِنَ المُقاطعاتِ الإسلاميةِ سابقًا بِالفِكرِ الاشتراكيِّ الشُّيوعيِّ وإلحاقِ البِلادِ التُّركيةِ بِالفِكرِ العِلمانيِّ الرأسماليِّ ، مِمَّا أظهرَ أجيالًا مِنَ المُسلِمين تحتضِنُ الرؤى الكافِرةَ وشبهَ الكافِرةِ ، ومثلُ هذا ما يجري إلى الآنِ مِن سياسةِ التنصيرِ الإجباريِّ عبرَ التجويعِ والتطبيعِ في إفريقيا والصُّومالِ وغيرِها لِضحايا الحُروبِ وضحايا المجاعاتِ ، وما تبثُّه جمعيَّاتُ التبشيرِ داخِلَ الأوطانِ المُستذَلَّةِ مِنَ الإلحاقِ المُسَيَّسِ بِالنصرانيةِ وغَيرِها ؛ لينخرِطَ في سلكِها المُنحرِفِ بعضُ الأفرادِ والجماعاتِ المضطرين إلى الطعامِ والشرابِ والإيواءِ .

علة الأُمَّة : الإفراط والتفريط

وأما حقيقةُ أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ فعِلَّتُها الحقيقيةُ في الإفراطِ والتفريطِ ، ومِنَ الإفراطِ ما يُؤدِّي إلى شُبهةِ الشِّركِ ولا يثبُتُ به ، ومِنَ التفريطِ ما يُؤدِّي إلى مِثلِ ذلِكَ ، ومِنَ الإفراطِ في الاعتِقاداتِ ما يقعُ فيه البعضُ من تقديسِ الأمواتِ والآثارِ الصنميةِ القديمةِ ، واعتِقادِ الضُّرِّ والنفعِ في أربابِها مِن دونِ اللَّهِ بما يُخرجُ المُعتقِدَ عن حدِّ الاعتِدالِ المشروعِ ، ومثلُه الإفراطُ أيضًا في إصدارِ الحُكمِ على مَن يُمارِسُ مثل

هذه الاعتِقاداتِ[1] .

ومآلُ مِثلِ هذا الإفراطِ في الحُكمِ إلى وُجوبِ تعليمِ المُسلِمين بِنشرِ الدعوةِ إلى اللَّهِ بِالحكمةِ والموعِظةِ والحسنةِ.. ولَيسَ بِالتكفيرِ والتشريكِ وإصدارِ الأحكامِ المُسبقةِ على عُمومِ الأُمَّةِ .

تحولت محبة الأولياء إلى حرب عقدية حتى وقع المفرِّط في الإعجاب باليهود والنصارى والمفرِط بالطعن فيهم والاستصغار

والتفريطُ هو التجافي عنِ الحقِّ ، والنظرُ إلى الأُمَّةِ بِعَينِ الشكِّ وسُوءِ الظنِّ ،

---

(١) كمن فسر حديث (ذي الخَلَصَة) المذكور في علامات الساعة بقوله : فإن قبيلة دوس وما حولها من العرب قد افتتنوا بذي الخلصة عندما عاد الجهل إلى تلك البلاد فأعادوا سيرتهما الأولى ، وعبدوها من دون الله ... إلخ ما ذكره من تخريبها على يد دعاة التوحيد «أشراط الساعة » ص١٦٢/ يوسف عبدالله الوابل .

أو كذلك ما فسره صاحب « إتحاف الجماعة » ص٢٢٥ جزء٣ ، فقال : « وقد وقع الأمر طبق ما أخبر به رسول الله ﷺ في هذا الحديث ـ أي: حديث « ذي الخلصة » ـ وعظم افتتان أهل تبال ومن حولهم من القبائل بذي الخلصة وأعادوا سيرتها الأولى في زمن الجاهلية ... إلخ » . إلى أن قال : « وزال الافتتان بها في زمن ولاية النجديين على الحجاز ولما زالت ولايتهم عن الحجاز عاد الجهال إلى ما كانوا عليه من الافتتان بها ، حتى ولي الملك عبدالعزيز على الحجاز وما حوله ، فبعث عامله على تلك النواحي فهدموا ما بقي من بنائها ، ورموا بأنقاضها في الوادي ؛ فعفى بعد ذلك رسمها وانقطع أثرها » .

قلت : وهم قد فعلوا خيرا بما هدموه من مظهر الجاهلية إلا أن هذا لا يرتبط بمفهوم الشرك ، وإنما هو الإفراط في الاعتقاد ، والذي يصيب بعضَ المسلمين ، وقد عممت تهمة الشرك في الجزيرة على كثير من مواقع قبور الصحابة وآل البيت رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ والأولياء واعتبروها عبادة لمظاهر الشرك الأكبر ، ولكن عند النظر الصحيح في النصوص وقراءة فقه التحولات وعلامات الساعة كما تحدث عنها من لا ينطق عن الهوى ﷺ فسنجد أن ما سموه شركا أكبر ـ وطهروا منه الجزيرة ـ إنما هو الإفراط مقابل ما وقعوا هم فيه من التفريط ، أما الشرك الأكبر وظهور عبادة الأوثان ـ ومنها ذو الخلصة واللات والعزى ومناة وغيرها ـ فستعود مرة أخرى إلى الجاهلية بعد مرحلة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كما نص عليها رسول الله ﷺ.

وإفسادُ عِلاقةِ الشُّعوبِ المُسلِمَةِ فيما بَينَها ، وتحويلُ محبَّةِ الأولياءِ فِيها وآلِ البَيتِ النبويِّ إلى عداوةٍ وحربٍ عقديةٍ مُسَيَّسةٍ ، حتَّى يقعَ المُفرِّطُ بِسببِ ردَّةِ الفِعلِ ـ كما هو قائمٌ الآنَ ـ في تقديسِ وتعظيمِ اليهودِ والنصارى والنظرِ إلى أفكارِهم وعُلومِهم بِعَينِ التعظيمِ ، ويقابِلُه النقدُ والطعنُ والاستِصغارُ لِلأولياءِ ونفضُ اليدِ تمامًا عنِ الاعتقادِ في كُلِّ مُؤمنٍ صالِحٍ ، ووصفُ الصلاحِ ومظاهِرِه بِالمصالِحِ والحِيَلِ والشعوذةِ وغيرِ ذلِكَ .

والخيرُ كُلُّ الخيرِ لنا جميعًا أن نتوبَ إلى اللَّهِ ونعرِفَ حقَّ بعضِنا على بعضٍ أحياءً وأمواتًا ... ومِن ثَمَّ يُصحَّحُ في الجميعِ الإفراطُ والتفريطُ ، وكفى بِاللَّهِ وليًّا وكفى بِاللَّهِ شهيدًا..

فهل مِن مُستجيبٍ ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

الأجِهزةُ الإعلاميةُ ووسائلُ الفُحشِ

وسائل الفحش علامة صغرى

ومِنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى المشارِ إليها في الأحاديثِ الشريفةِ ظهورُ الفحشِ والتفحُّشِ وسوءِ الخُلُقِ، وإلى ذلك يُشِيرُ الحديثُ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : «إنَّ مِن أشراطِ الساعةِ أن يظهرَ الفُحشُ والتفحُّشُ وسُوءُ الخُلُقِ وسُوءُ الجِوارِ»[1].

دور الأجهزة الإعلامية في إظهار الفحش والتفحش

وفي هذا الحديثِ إشارةٌ إلى ما تبثُّه العديدُ مِنَ الأجهزةِ الإعلاميةِ مِنَ الأفلامِ والصُّورِ الخليعةِ مِن جانبٍ، وما يحصُلُ مِن فُحشِ القَولِ في وصفِ الصِّراعِ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٧٠٣) .

المُفتعـلِ بَينَ الجماعاتِ والحُكوماتِ وتناوُلِ بعضِهمُ البعضَ مِن جهةٍ أُخرى[١] ، إمَّا في الإعلامِ أو في البرامجِ الانتِخابيةِ واستِغلالِ الأخطاءِ والجُنوحاتِ للتشويهِ ، ومن ذلك ما يُستخدَمُ في أجهزةِ الشبكةِ العنكبوتيةِ مِن عرضِ الصُّورِ والأفلامِ الماجنـةِ وفتحِ المواقعِ الخاصَّةِ لِذلِكَ ، وحُريةِ التواصُلِ معَ أولئكَ القائمين علَيها ، لإفسادِ الأجيالِ وإثارةِ الجدلِ وإضاعةِ الشرفِ والمالِ .

من ظواهر الفحش ما يباع ويشاع في الأفلام والملابس

ومِن ظواهِرِ الفُحشِ والتفحُّشِ : ما يُباعُ ويُشاعُ في الأسواقِ مِنَ الأفلامِ وأقراصِ الأجهزةِ الحديثةِ الحامِلةِ لِصُورِ الرُّعبِ والدِّماءِ والعُنفِ والسحرِ والرقصِ الماجِنِ ، وحصولُ الشبابِ والناشئةِ علَيها بيُسرٍ وسُهولةٍ دونَ خَوفٍ أو مُراقبةٍ مِن أيِّ جِهةٍ رسميةٍ أو شبهِ رسميةٍ في الواقِعِ المرذولِ .

من ظواهر الفحش مشاركة الجيل في الأندية المختلطة

كمـا أنَّ مِـن صُـورِ الفُحـشِ والتفحُّـشِ تشـجيعُ الأولادِ والبنـاتِ علـى دُخولِ أنديـةِ الرقـصِ الخليعِ ومواقِعِ الاختِلاطِ الماجِنِ ، والتعلُّـلَ بِأنَّ هذا جُزءٌ مِن حياةِ الشُّـعوبِ وثقافتِهـا ، مِمَّـا دفعَ بِالعشـراتِ والمِئـاتِ مِن جيلِ المُسـلِمين إلى هذه المعاهِدِ والأنديةِ . وغدَتِ اليَومَ في بعضِ بِلادِ المُسلِمين جزءًا لا يتجزَّأُ مِن الثقافةِ المُعاصِـرةِ ، بـل إنَّ ثقافةَ الفُحـشِ والتفحُّشِ امْتَـدَّتْ في بعضِ البـلادِ إلى أَقْصَى درجاتِها الإعلاميةِ والاجتِماعيةِ كظاهِرةٍ مِن ظواهِرِ المرحلةِ . ولعلَّ الشاهِدَ العدلَ ـ إذا صحَّـتِ العِبارةُ ـ والرائدَ الذي لا يكذبُ عِندَ هؤلاءِ الرافضين حقائقَ ما يُذكَرُ

---

(١) أو مـا يفعلـه بعـض المنسـوبين لمـدارس القبـض والنقض من صـور إعلاميـة وتعليقات انتقائية ، هدفها تشـويه عقائد المسـلمين ورميهم بالشـرك والكفر ، وإثبـات ذلك فيهم مع إسـقاط وتنزيل الآيـات والأحاديث على ما ينتقـى من الصور والمظاهـر المفرطة ، والتي ترسخت غالبا في مراحل التحولات السياسية والاجتماعية القبلية ذات الارتباط بالتسييس الاستعماري وما تلاه .

عن حالِهم وأحوالِهم وأفلامِهم ومسارِحِهم المعروضةِ في أجهزةِ إعلامِهم . هذا في الحدِّ الأدنى المسموحِ بِه أمامَ سمعِ وبصرِ الآمرين بِالمعروفِ والناهينِ عنِ المُنكرِ . أمَّا بقيةُ المُسلِمين في الأنظمةِ المفتوحةِ والمؤسساتِ الطموحةِ فالمسألةُ أكبرُ مِن حجمِ الوصفِ والتعليلِ .

بل إنَّ الفُحشَ والمعاصيَ واستِحلالَ الكبائرِ داخِلَ أقبيةِ بعضِ المُسلِمين وبيوتِهم واستراحاتِهِمُ الشخصيةِ يعكِسُ حالةً مِنَ التردِّي للديانةِ والإسلامِ مِمَّا يُؤدِّي إلى حُصولِ الخسفِ والقذفِ والرجفِ والزلازلِ المؤثِّرةِ على المُجتمعِ كُلِّه بِصرفِ النظرِ عن سلامةِ المعتقدِ ووُجودِ الصالحين ، وها نحن اليَومَ نشهدُ مظاهِرَ الرجفِ والزلازِلِ في بعضِ البِقاعِ القريبةِ مِنَ الأراضي المُقدَّسةِ وفي غيرِها مِنَ البِلادِ ؛ نتيجةَ المعاصي والظُّلمِ وأكلِ الرِّبا واستحلالِ الحُرُماتِ ، سواءٌ بِالتجاهُرِ بها علنًا أو بوجودِها ضِمنَ الحياةِ الخاصةِ ، أو تشجيعِ مظاهِرِها الثقافيةِ والإعلاميةِ المُروِّجةِ في المعروضاتِ مِنَ الأفلامِ وثمراتِ الأقلامِ ، وسُكوتِ أهلِ الأمرِ بِالمعروفِ والنهيِ عنِ المُنكرِ عن ذلِكَ ، سواءٌ برضًى مِنهم أو بعدمِ الرِّضى مِنهم عن ذلِكَ ، وإلى مِثلِ ذلِكَ يُشيرُ حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قالَ : «إذا اتُّخِذَ الفَيءُ دُولًا ، والأمانةُ مغرمًا ، وتُعُلِّمَ لِغَيرِ الدينِ ، وأطاعَ الرجُلُ امرأتَه وعقَّ أمَّه ، وأدنى صديقَه وأقصى أباه ، وظهرَتِ الأصواتُ في المساجِدِ وسادَ القبيلةَ فاسِقُهم ، وكانَ زعيمُ القومِ أرذلَهم ، وأُكْرِمَ الرجُلُ مخافةَ شرِّه ، وظهرَتِ القَيناتُ والمعازِفُ ، وشُرِبَتِ الخُمورُ ، ولعنَ آخِرُ هذه الأُمَّةِ أوَّلَها ؛ فليرتقِبوا عِندَ ذلِكَ ريحًا حمراءَ وزلزلةً ومسخًا وقذفًا وآياتٍ تتتابعُ كنِظامٍ بالٍ قُطِعَ سلكُه فتتابعَ»[1] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد (١٠ : ٦٧١) .

وهـا نحن نشـهدُ الكثيرَ مِن هـذه الظواهِرِ في بِـلادِ العالَمِ العربيِّ والإسـلاميِّ ، ومِنها ما اجتمعَتْ فيه كُلُّها ، ومِنها بعضُها ، والعياذُ بِاللَّهِ .

إنَّ فِقهَ التحوُّلاتِ يكشِفُ بُوضوحٍ الحالةَ المرضيةَ في الأُمَّةِ بعدَ تشخيصِها، وقد عـاشَ المُنفِّذون فـي الأُمَّةِ يلعبون الأدوارَ المُتنوِّعةَ لإنجـاحِ تغلغُلِ الثقافةِ الغازيةِ مرحلـةً بعـدَ أُخـرى ـ ولا زالوا ـ ولِلأسـفِ ، كظاهِـرةٍ تُؤكِّدُ قولَ مَـن لا ينطِقُ عنِ الهوى ﷺ .

شربُ الخمرِ واستِحلالها

شرب الخمر واستحلالها علامة صغرى

ومِنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى فُشُـوُّ الخمرِ وشُـرْبِها لِمَا روى الإمامُ مُسلِمٌ في صحيحِـه عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : « سـمِعتُ رسـولَ اللَّـهِ ﷺ يقولُ : «مِن أشراطِ الساعةِ ... » وذكرَ مِنها «ويُشرَبَ الخمرُ ...» »[1].

وفي حديثٍ آخرَ : « لتستحِلَنَّ طائفةٌ مِن أُمَّتي الخمرَ باسمٍ يسمُّونها إياه »[2] .

ظاهرة تغيير اسم الخمر وشربها بَينَ المُسلِمين

والخمـرُ فـي اللُّغـةِ : اسـمٌ لِمـا خامـرَ العقـلَ وخالطَـه ، ويُطلَـقُ علَيهـا فـي زمانِنـا هذا عدةُ أسـماءٍ منها المشـروباتُ الرُّوحيةِ ، وقد كانَت في عُصورٍ سـلفَت شـيئًا غريبًـا وفعـلًا مُريبًا فـي العالـمِ الإسـلاميِّ ، ولكنَّها خِـلالَ مراحِـلِ التطبيعِ الاسـتِعماريِّ والاستِهتاريِّ والاسـتثماريِّ صارَتْ سُلوكًا مُعتادًا لدى بعضِ القادةِ والمثقفيـنَ الحائرِينِ ، والفسـقةِ والعُصاةِ ، والفنَّانين ونُجومِ الغِنـاءِ والتمثيلِ ، إلَّا مَن رحِمَ اللَّهُ .

---

(١) مسلم (٦٩٥٦) .

(٢) مسند أحمد (٢٣٣٧٧) .

وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ مِن علاماتِ الساعةِ استِحلالَها ـ أي: اعتبارِها مشروبًا حلالًا لا إِثمَ علَيهِ، ولا حُرمةَ في تعاطيه ـ مِمَّا يترتَّبُ علَيهِ المُجاهرةُ بِشربِها واتِّخاذِ المصانعِ والحوانيتِ لِبَيعِها وترويجِها[1].

ترويج المخدرات

ويليها في الانتِشارِ والترويجِ (المُخدِّراتُ)، وهي تدخُلُ تحتَ معنى مُخامرةِ العقلِ والإسكارِ، وحُكمُها حُكمُ الخمرِ مِن حيثُ التحريمُ والعُقوبةُ وإقامةُ الحدِّ الشرعيِّ على شارِبها، وقدِ ابتُلِيَت بِلادُ المُسلِمين بهذه العِلَّةِ، حتَّى صارَت إحدى مشاكِلِها الاجتِماعيةِ الخطِرةِ، بل صارَ بعضُ القائمين على مُحاربتِها هم رُوَّادُ تسويقِها وحُماةُ استيرادِها وتصديرِها في الأَوطانِ المغلوبةِ.

إسقاط الحدود الشرعية تبعا لرغبة جمعيات حقوق الإنسان

وكفى انحِدارًا في بِلادِ الإسلامِ كُلِّها إسقاطُ حُدودِ المعاصي كالسرقةِ وشُربِ الخمرِ وحدِّ الزِّنا ... إلخ، والتخوُّفُ مِن هيمنةِ الكافِرِ المُطالِبِ بِحقوقِ الإنسانِ ـ أي: بِحمايةِ السارِقِ والزاني ـ واعتبارُ الحُدودِ الشرعيةِ حُريةً شخصيةً يجِبُ تنظيمُها وحُسنُ المُعاملةِ معَ مُرتكِبيها، دونَ إقامةِ الحدِّ الشرعيِّ الواجِبِ عِندَ ثُبوتِ الجريمةِ.

ويبدو أنَّ الخللَ التربويَّ والثقافيَّ والاقتِصاديَّ وغيرَه قد هيَّأَ أسبابَ الاستِغراقِ في هذه الانحِرافاتِ الخطيرةِ، ووسَّعَ دائرةَ المقارفةِ لها بَينَ المُسلِمين تحتَ تبريراتٍ شَيطانيةٍ وحِيَلٍ إبليسيةٍ نفسانيةٍ ... كالقلقِ والاكتئابِ وشُمولِ الهمِّ والضيقِ والهُروبِ مِنَ المشاكِلِ وتناقُضاتِ الواقِعِ وغيرِها مِنَ المعاذيرِ التي صارَت ذرائعَ لدى ضِعافِ النُّفوسِ لِشُربِها.

---

(١) وقد ظهرت هذه الحالة بشكلها المتميز والمنتشر منذ بدايات عهد الاستعمار وتأثر المسلمين بالحضارة الأوربية واختلاط المسلمين بهم من خلال البعثات والدراسات والثقافات والارتباطات السياسية والاقتصادية.

ظاهِرةُ تعظيمِ ربِّ المالِ

تعظيم أرباب الأعمال ورجال المال علامة صغرى

ومِنَ العلاماتِ الصغرى المُشارِ إلَيها في آخِرِ الزمانِ بَينَ المُسلِمين تعظيمُ ربِّ المـالِ ، ووردَت هـذه الظاهِرةُ ضِمنَ مجموعةٍ مِنَ الظواهِرِ التي تُصابُ بها الأُمَّةُ ، ومِنها حديثُ : « إذا اقتربَ الزمانُ كثُرَ لُبسُ الطيالسةِ ، وكثُرَتِ التِّجارةُ وكثُرَ المالُ ، وعُظِّمَ ربُّ المالِ بِمالِه ... إلخ »[١] .

وحديثُ : « لِما حجَّ النبيُّ ﷺ حِجةَ الوداعِ أخذَ بِحلقتَي بابِ الكعبةِ ثُمَّ أقبلَ على النـاسِ ، فقـالَ : يا أيُّها الناسُ ألا أُخبِرُكم بِأشـراطِ القيامةِ ؟ إنَّ مِن أشـراطِ القيامةِ إماتَـةُ الصلـواتِ ، واتِّباعُ الشـهواتِ ، والمَيلُ مـعَ الهوى ، وتعظيـمُ ربِّ المالِ... إلخ »[٢] . وحديثٌ ـ مِن طريقٍ آخَرَ ـ رواه ابنُ مردويه وفيه : « إنَّ مِن أشراطِ الساعةِ إضاعةُ الصلاةِ ، والمَيلُ إلى الهوى ، وتعظيمُ ربِّ المالِ » .

تداخل العلامات المؤدية إلى تعظيم رب المال

وهذه الظاهِرةُ قد بلغَتِ اليَومَ أوجَها وشِدَّتَها ، ومعَ وُجودِها بَينَ الناسِ فقد حلَّت علـى ما يبدو مُقابِلَ ضياعِ أمرٍ آخَـرَ ، وهو ما كانَ مِن قبلُ مِن تعظيمِ الصالِحين مِنَ الأولياءِ ورِجالِ الأحوالِ ، ولعلَّها عُقوبةٌ على المُتأخِّرين الذين اشتغلوا باستِنقاصِ أوليـاءِ اللَّـهِ والطعنِ فـي عقائدِهم وأحوالِهم ؛ فكانَ البديلُ لهـا أنكى وأطمَّ ، وهو تعظيمُ ربِّ المالِ لِمالِه . بل صارَت مدرسةُ تعظيمِ ربِّ المالِ هي ـ ذاتُها ـ المُتولِّيةُ تحقيـرَ الصالِحيـن ورِجـالِ الأحـوالِ بِما تتناولـه عنهم مِـنَ الشُّـبُهاتِ المُتنوِّعةِ ، وسيجِدُ المُرتابُ فيما نقولُ مُخرجاتِ كتاباتِ هذه المدرسةِ وفروعِها عنِ الأولياءِ

---

(١) المستدرك للحاكم (٥٤٦٥) .

(٢) عـن ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، رواه القاضي أبـو الفرج المعافي بـن زكريا في كتابـه « الجليس والأنيس » ، وهو ضعيف ، ولبعضه شواهد .

والصالِحين مُنتشِـرةً في المكاتِبِ والأسـواقِ.. وهمُها الكبيرُ تشويهُ الأولياءِ ومَن أحبَّهـم وتعلَّـقَ بهـم وزارَهم ، بل زادَ تفنُّنُهـم في ثلبِ هذه الظاهِـرةِ حتَّى جعلوها شِـركًا أكبرَ بما يفعلُه بعضُ المُسـلِمين مِنَ التوسُّلاتِ والاسـتِغاثاتِ والاستِشفاعِ حيثُ اعتبرَتها هذه المدرسةُ عملًا شركيًّا خالِصًا ، وبهذا صارَ الأولياءُ الصالحون فـي قامـوسِ مدرسـةِ النقـضِ والقبضِ طواغيـتَ وأصنامًـا ، والزائرون مُشـرِكين وكفرةً[1] ، والعُلماءُ سـدنةٌ وكهنةٌ . وكانَ بهذا حُصـولُ البديلِ الآخَرِ ، وهو تعظيمُ ربِّ المـالِ ، ممَّن يُسـمَّون في زمانِنا بِرِجـالِ «المالِ والأعمـالِ» وتعظيمُ مقاماتِ وبُنـوكِ ومواقِعِ حركةِ الأموالِ والبُورصاتِ معَ أنَّ المالَ مشـوبٌ بِالرِّبا والشُّـبهةِ ، ومُخـرجٌ مِـن مُخرجاتِ الخِدمـةِ للدَّورةِ الرِّبويـةِ العالميةِ ، وخاصَّـةً في مجالاتِ الاسـتِثماراتِ الكُبـرى ، بل صـارَ المُسـلِمون في المراحِـلِ المُعاصِـرةِ يعتمِدون اعتِمـادًا كُليًّـا على رِجـالِ المالِ والأعمالِ في مجـالِ الاسـتِثماراتِ المُتنوِّعةِ ولو مِن غَيرِ المُسـلِمين، يُسـهِّلون لهم كافَّةَ الأسـبابِ لِترغيبِهم في الاسـتِثمارِ ، وكفى بِمُلاحظةِ الواقعِ العربيِّ والإسلاميِّ حُجَّةً.

رفض تعظيم الأولياء وأهل الأحوال أدى إلى البديل المناسب: ظاهرة تعظيم رجال المال والأعمال

لقـد صـارَتِ البدائلُ الأُخـرى كالمالِ الحـرامِ ومصارِفِه وخِدْماتِه واسـتِثماراتِه صُورةً حضاريةً يتناولُها ويتعاملُ بها كافَّةُ أتباعِ المدرسـةِ الرِّبويةِ وعُلمائها وقادتِها ولا حرجَ في ذلِكَ ولا ريبَ ، بل لا يستطيعُ أكثرُهم حِرصًا على كِتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ نبيِّه أن يُحرِّكَ سـاكِنًا أمامَ طُغيانِ المدرسةِ الرِّبويةِ وترويجِ مُعاملاتِ الأسهُمِ والشراكةِ

---

(١) مع أن مسألة التوسل والاستشفاع والاستغاثة في منهج الإسلام على ثلاثة أقسام :
١ . واجبة بالله وأسمائه وصفاته .
٢ . جائزة بالأعمال الصالحة والذوات الحية .
٣ . مختلف عليها بالذوات الميتة .

الاقتِصاديةِ والتأميناتِ المشبوهةِ (يُسمُّونها بِغَيرِ اسمِها) وكأنما هي قد كانَت على عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابِه !

ظُهورُ المعازِفِ واستِحلالُها

ظهور المعازف واستحلالها علامة صغرى

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى ظُهُورُ المَعَازِفِ، والمعازِفُ هي آلاتُ الملاهي كالعُودِ والطنبورِ والمِزمارِ وغيرِها .

وهذه العلامةُ قد ظهرَت في أزمانٍ مُتعدِّدةٍ ولكنَّها في أُخرياتِ الزمانِ أكثرَ انتِشارًا وأثرًا وتأثيرًا مِن حيثيَّاتٍ كثيرةٍ مِنها :

بناء المؤسسات الثقافية المخصصة للفنون

- اعتِناءُ الأنظمةِ والمؤسَّساتِ الثقافيةِ بالقَيناتِ والفنَّانين والفنَّاناتِ تبعًا للتأثُّرِ بِالعالمِ الاستِعماريِّ والاستثماريِّ، وهُو مِن جِنسِ الاستِتباعِ لِلأُممِ الذي يظهرُ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ .
- ازدِيادُ شعبيةِ وجماهيريةِ نُجومِ الفنِّ كما يُسمَّون لدى العوامِّ والمُثقَّفين، والنظرُ إلَيهم بِعَينِ التعظيمِ والتقديرِ بعدَ لين عرائكِ الشعوبِ، واستِتباعِها بِلينِ عرائِكِ المُربِّين ومُؤسَّساتِ التعليمِ والثقافةِ المُعاصِرةِ ومَن يُسَيِّسُ لها.

تشجيع الفن وتكريم الفنانين

- وُلوغُ طائفةِ النُّجومِ والفنَّانين والفنَّاناتِ في الكبائرِ بِكُلِّ أنواعِها بعدَ احتكاكِهِمُ الدائمِ بِمُجتمعاتِ الفنِّ غَيرِ المُسلِمةِ، وتأثُّرُ المجتمعِ الفنِّيِّ العربيِّ بِالمفاسِدِ والمعاصي، كما هي معروفةٌ بهذا الاسمِ في الدين الإسلاميِّ، أمَّا في عُقولِ وقُلوبِ (أصحابِ مِهنةِ الفنِّ) فحُريةٌ وعِلاقاتٌ وُدِّيةٌ وصداقاتُ زمالةٍ وعملٍ .

مظاهر الفن ومخرجات الأفلام والمسارح

وقد بلغَت هذه المسـألةُ في عصرِنا أعلى درجاتِ الإسفافِ والخلاعةِ ، وشاهدُ ذلِـكَ العديـدُ مِـنَ الأفـلامِ والصُّـورِ المُتداولـةِ عنهم وعـن سـهراتِهم وحفلاتِهم المُنعقِـدةِ فـي العديـدِ مِـنَ العواصِمِ العربيـةِ ، وكُلُّ هـذه الانحِرافاتِ لـم تعُدْ في عصرِنـا انحِرافـاتٍ عِندَهم ، بـلِ الانحِرافُ ـ مِـن وجهةِ نظرِهـم ـ تعليلُنا وحديثُنا عنهم بهذه الصُّورةِ .

ولِأنَّ مِثـلَ هـذا الانحِـدارِ الثقافيِّ مِـن وِجهةِ نظرِ الإسـلامِ علامـةٌ مِن علاماتِ السـاعةِ ؛ فـإنَّ غالِـبَ أجيالِنا المُتأسِـلمةِ والمستسـلِمةِ قد تحكمَـت فيهم عاداتُ وثقافـاتُ الأعداءِ خـِلالَ مراحِلِ العلمانيةِ والعلمنةِ والعولمةِ، وسيسـتمرُّون على ذلِـكَ حتَّـى تظهرَ فيهم بقيةُ العلامـاتِ، ومِنها قَولُه ﷺ : « ليكونَـنَّ مِن أُمَّتي أقوامٌ يسـتحِلُّونَ الحِرَّ والحريرَ والخمرَ والمعازِفَ ، ولينزلَنَّ أقوامٌ إلى جنبِ علم يروحُ علَيهِـم بِسـارحةٍ لهم ، يأتيهِمُ الفقيرُ لِحاجةٍ فيقولون : ارجِـعْ إلَينا غدًا . فيبهتُمُ اللَّهُ ، ويضعُ العِلمَ ، ويمسـخُ آخرين قِردةً وخنازيرَ إلى يَومِ القيامةِ » صحيحُ البُخاريِّ ١ / ١٥ معَ الفتحِ.

حديث المسخ في الأُمَّة لاستحلال الحر والحرير والخمر والمعازف

ويَعتقِـدُ البعـضُ مِن كافَّـةِ المُسـلِمين أنَّ العُلماءَ يُشـدِّدون في مسـألةِ المعازِفِ والطربِ ويحجّرون بِفتاويهم على الناسِ ؛ ولِهذا تجِدُ الراغِبين في الفِتَنِ يستدِلُّون بِأقوالِ بعضِ العُلماءِ عن جوازِ المعازِفِ والغناءِ ، ومِنها أقوالٌ تُنسَـبُ لِلعلامةِ ابنِ حزمٍ وغيرِه .

الفنون الشعبية المنظمة لا تدخل في المحظور

والأمرُ الذي نحنُ بِصددِه أنَّ الأحاديثَ الشريفةَ تتناولُ الوعيدَ الشديدَ لِلمعازِفِ والطـربِ المُفضي إلى الإثمِ وفِعلِ الحرامِ ، وليـس ما يفعلُه الأفرادُ وبعضُ الهُواةِ أو ما يُسـمَّى بِالفرقِ الشـعبيةِ ، التي تقومُ بِأسـاليبِ الغِناءِ والشـرحِ الشعبيِّ المُقيَّدِ

بِالأدبِ والاحتِشامِ والآلاتِ غَيرِ المُحرَّمةِ في إحياءِ بعضِ المُناسباتِ الخاصَّةِ أوِ العامَّةِ ترويحًا وتسليةً ومُشاركةً في أفراحِ الزواجِ وغيرِها ؛ فهذه أُمورٌ يسهُلُ تقييدُها ومُحاصرتُها إذا ما خرجَت عن دائرةِ الاعتِدالِ في حياةِ الشُّعوبِ ، وإنَّما المُصيبةُ الكُبرى ما قد خرجَ عن دائرةِ السَّيطرةِ ؛ لِيصبِحَ اتِّجاهًا ثقافيًّا وصُورةً عاكِسةً لدى العالمِ الآخَرِ عن مدى الانفِلاتِ والتحلُّلِ الأخلاقيِّ في المُسلِمين ، لِتتحقَّقَ به موعوداتُ النبيِّ ﷺ في الأُمَّةِ مِنَ الخسفِ والقذفِ والرجفِ والمسخِ.

التطاولُ في البُنيانِ

التطاول في البنيان علامة صغرى

وهو علامةٌ مِن علاماتِ الساعةِ الصغرى كشفَ عن شُيوعِها في أواخِرِ الزمانِ سيِّدُ الأُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، وهي تُشيرُ إلى حُصولِ الأموالِ وسعةِ الأرزاقِ في حياةِ العديدِ مِنَ الناسِ ، وتوسُّعِ العُمرانِ وزيادةِ التخطيطِ الحضريِّ ، ويبدو أنَّ الظاهِرةَ تكرَّرَت في أكثرَ مِن عصرٍ وزمانٍ . إلَّا أنَّها في مراحِلِنا الأخيرةِ قد وصلَت إلى ذِروتِها في مفهومِ التطاوُلِ وخاصَّةً على أيدي العربِ ، الذين وصفَهُمُ النبيُّ ﷺ بالحُفاةِ العُراةِ رعاءَ الشاءِ ، الذين فتحَ اللَّهُ علَيهم في الاستِثمارِ الماديِّ فارتفعَت أرصِدتُهم ارتفاعًا خياليًّا ، وانتقلوا فجأةً مِن حياةِ الصحراءِ والأنعامِ إلى حياةِ الترفِ والحضارةِ وارتفاعِ مدخولاتِ الأرقامِ ، ممَّا حدا بِالكثيرِ مِنهم أن يرمُوا بِأموالِهم في بحرٍ مِنَ الاستِثماراتِ الخياليةِ وبناءِ الأبراجِ العُظمى وناطِحاتِ السحابِ تفاخُرًا وخُيلاءَ.

الاستثمارات العربية الخيالية وصرفها في أبنية الأبراج

بل بلغَ الأمرُ أقصاه في حياةِ التطاوُلِ أن يبنيَ بعضُهم بُرجًا مِن سبعين طابقًا ، فيغارُ مُستثمِرٌ آخرُ ؛ فيبني بُرجًا مِن مائةِ طابِقٍ وهكذا في زيادةٍ وتطاوُلٍ ، دونَ إدراكٍ لِهدرِ المالِ وطاقاتِ العُمَّالِ فيما لا يعودُ بِمنفعةٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ على الوطنِ

ولا على الأُمَّةِ ولا على الفردِ ذاتِه فيما أنفقَه . بل رُبَّما كانَ العائدُ والفائدةُ للشرِكاتِ المُتعاقِدةُ على الاستشارةِ والتنفيذِ . والتطاوُلُ في البنيانِ بالنسبةِ لغَيرِ العربِ مسألةٌ معلومةٌ مِن قديمِ الزمانِ . أمَّا العربُ فغايةُ ما هم علَيهِ في عواصِمِهم مُنذُ القديمِ لا يتعدَّى البناءَ للحاجةِ وإذا ما زادَ أحدٌ شَيئًا مِن ذلِكَ إنَّما يكونُ في الغالِبِ تبعًا لتقليدِ الفُرسِ أوِ الرُّومِ كما هو في حاضرةِ الحِيرةِ آنذاك وقصورِ العراقِ والشامِ ، ولم يعرِفْ العربُ الأبنيةَ العاليةَ إلَّا بعدَ الفُتوحاتِ الإسلاميةِ والاختِلاطِ بحضاراتِ الرُّومِ والفُرسِ وغَيرِهم .

الحديث يخص العرب في ذم التطاول

وقد لا يكونُ الذمُّ في الحديثِ خاصًّا بمسألةِ البناءِ لِلحاجةِ.. وإنَّما الذمُّ كما يظهرُ لِلتطاوُلِ ، وفيه إشارةٌ إلى تغيُّرٍ في الطباعِ التي هذَّبَها الإسلامُ بِالزهدِ والإيثارِ والإنفاقِ في سبيلِ اللَّهِ ؛ لِتُصبِحَ على غايةٍ مِنَ الحِرصِ وبذلِ الأموالِ في غيرِ وجهِها الصحيحِ . وقد ذمَّ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الأُممِ لِشُيوعِ هذهِ الظاهِرةِ فِيهم ، فقالَ :
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الشُّعراء :١٢٨ - ١٣١] .

وفي رِوايةِ الإمامِ أحمدَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ إشارةٌ بيِّنةٌ أنَّ المعنيِّين بِالتطاوُلِ هُمُ « العربُ » .

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ : يا رسولَ اللَّهِ ، ومَن أصحابُ الشاءِ والحُفاةُ الجِياعُ العالةُ ؟ قالَ : « العربُ »[1] .

ولا يخفى على مُتأمِّلٍ في عصرِنا ما آلَتْ إلَيه هذه الحالةُ الغريبةُ مِنَ التفاؤلِ ببناءِ الأسواقِ والمُجمَّعاتِ التِّجاريةِ الكُبرى في بعضِ العواصِمِ على صفةِ المُنافسةِ ،

(١) مسندُ أحمدَ (٢٩٨١) ، وانظر أشراط الساعة الوابل ص ١٤٩ .

مِمَّا أدَّى إلى هجرِ بعضِها وتركِها بُنيانًا حضاريًّا يعكِسُ الفنَّ المِعماريَّ الحديثَ ، ولا يُستفادُ منه لِكثرةِ المُنافسةِ بِأمثالِه وأشباهِه .

كثرةُ التِّجارةِ

كثرة التجارة

ومنْ عَلَامَاتِ الساعةِ الصُّغْرَى ظُهُورُ الِاهْتِمَامِ بِالتِّجَارَةِ، والمقصودُ بِالكثرةِ كظاهِرةٍ مِن علاماتِ الساعةِ وأشراطِها كونُها تعُمُّ الناسَ جميعًا كأفرادٍ وجماعاتٍ كما تعُمُّ السياسةَ التِّجاريةَ واستِجلابَ كُلَّ شيءٍ مِنَ البضائعِ والمُستلزماتِ بما لم يسبقْ له مثيلٌ ؛ حتَّى تُصبِحَ التِّجارةُ بينَ الناسِ أقربَ إلى العبثِ والاستِخفافِ بِالعُقولِ والأموالِ ، إضافةً إلى كثرةِ الأسواقِ والإسرافِ في زخرفتِها وتصميماتِها.

ونحن اليَومَ نرى هذه الظاهِرةَ برزَت جليَّةً في أوسعِ صُورِها ؛ حتَّى صارَ الأطفالُ والعجزةُ والفُقراءُ وعُمومُ الموظَّفين ، بل ـ وحتَّى المُتسوِّلون ـ يشترِكون في مُضارباتِ التِّجارةِ بِالأسهُمِ وغيرِها، وبِاستخدامِ الترويجِ لِلبيعِ والشِّراءِ عبرَ الأجهزةِ المُتنوِّعةِ ؛ فيجِدُ الفردُ مالًا رابحًا مِن تِجارةِ تسوُّقِ البضائعِ والسمسرة وما شابهَها .

مشاركة المرأة لزوجها في التجارة

وقد كانَ ﷺ أسبقَ الناسِ في تصويرِ هذه المظاهِرِ وإجلاءِ الغُبارِ عن وُقوعِها في الناسِ ، ومِنها قوله ﷺ فيما رواه الحاكِمُ وأحمدُ عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ : « بينَ يدَيِ الساعةِ تسليمُ الخاصَّةِ وفُشُوُّ التِّجارةِ حتَّى تعين المرأة زوجَها » [1].

---

(١) مسند أحمد (٣٩٤٧) .

وروى النسائيُّ عن عمرِو بنِ تغلِبٍ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ مِن أشراطِ الساعةِ أن يفشُوَ المالُ ويكثُرَ ، وتفشُوَ التِّجارةُ »[1] .

وكما أخبرَ النبيُّ ﷺ عن فُشُوِّ التِّجارةِ وانتِشارِها بَينَ الناسِ فقد أخبرَ عنِ العللِ المُترتِّبةِ على هذا الفُشُوِّ والكثرةِ ، وما تُصابُ بِه الأُمَّةُ مِنَ الأدواءِ والأمراضِ ، ففي الحديثِ عنه ﷺ أنَّه قالَ :« واللَّهِ ، ما الفقرَ أخشى علَيكم ، ولكِنِّي أخشى علَيكم أن تُبسطَ الدُّنيا علَيكم كما تُبسطَ على مَن كانَ قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلكُكم كما أهلكَت من كانَ قبلكم »[2] . وما يرويه مُسلِمٌ : « وتلهيكم كما ألهَتهم »[3] .

التنافس على الدنيا

بل حذَّرَ النبيُّ ﷺ مِن داءِ التنافُسِ أوائلَ الصحابةِ والتابعين فقالَ : « إذا فُتِحَت علَيكم فارسُ والرُّومُ ، أيُّ قومٍ أنتم ؟ » . قالَ عبدُالرحمنِ بنِ عوفٍ : نقولُ كما أمرنا الله . قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ « أو غيرَ ذلِكَ؟ تتنافسون ثُمَّ تتحاسدون ثُمَّ تتدابرون ثُمَّ تتباغضون أو نحو ذلِكَ»[4].

وفي كُلِّ هذا إشارةٌ إلى استِتباعِ المُسلِمين عالمَ الكُفرِ في أساليبِ التِّجارةِ ومظاهِرِها ونماذِجِها على غيرِ زُهدٍ ولا ورعٍ ولا مُراعاةِ دينٍ أو قِيمٍ .

ظُهورُ فِتنةِ الرِّبا والشراكاتِ الاقتِصاديةِ المشبوهةِ

ظهور الربا علامة صغرى

ومِنَ العلاماتِ الصُّغرى ظُهورُ المعاملاتِ الرِّبويةِ وانتِشارِها بَينَ المُسلِمين ،

---

(١) سنن النسائي (٤٤٧٣) .

(٢) صحيحُ البُخاريِّ (٦٤٢٥) .

(٣) مسلم (٧٦١٥) .

(٤) مسلم (٧٦١٦) .

حتَّى تُصبِحَ المُعاملاتُ الاقتِصاديةُ الرِّبويةُ جُزءًا مِن حياة الأُمَّةِ وسببًا مِن أسبابِ التداوُلِ التِّجاريِّ في كافَّةِ بِلادِ المُسلِمين، لا تخلو مِنها عاصِمةٌ ولا قريةٌ.

هيمنة المدرسة الربوية على الاقتصاد العربي والإسلامي دراسة وتجارة

وفي الأحاديثِ إشارةٌ إلى هَيمنةِ العالمِ الرِّبويِّ الكافِرِ على مُقدَّراتِ الأُمَّةِ العربيةِ والإسلاميةِ؛ حتَّى تُفرَضَ المُعاملاتُ الرِّبويةُ ضِمنَ سَيرِ المؤسساتِ الاقتِصاديةِ وتنشِئةِ الأجيالِ علَيها في الدراساتِ الأكاديميةِ والعاليةِ، معَ أنَّ الرِّبا قد سقطَ وانَّهارَ مُنذُ أن وضعَه النبيُّ ﷺ تحتَ قدمِه بِقولِه: «والرِّبا تحتَ قدمي»[1] في حِجَّةِ الوداعِ، وانقطعَ بعدَ ذلِكَ في العالمين الإسلاميِّ، وصارَ التعامُلُ بِه خِفيةً لدى بعضِ الفسقةِ والعُصاةِ وعُملاءِ اليهودِ، الذين كانوا يُروِّجون الرِّبا ويتعاملون بِه.

بدأ عهد الاستعمار بترويض الشعوب المسلمة على قبول المعاملات الربوية

ولمَّا سقطَ القرارُ الإسلاميُّ في البِلادِ العربيةِ والإسلاميةِ، وبدأَ عهدُ الاستِعمار بدأَ العملُ المُسَيَّسُ على إدخالِ الرِّبا الحرامِ في المُعاملاتِ الاقتِصاديةِ، ولم تسلَمْ مِن هذا الإدخالِ الأنظِمةُ القائمةُ في مرحلةِ الغُثاءِ على الانشِغالِ بإدانةِ انحِرافاتِ اعتِقاداتِ الصُّوفيةِ والمذهبيةِ وآلِ البيتِ، مِمَّا يُشيرُ إلى امتِلاكِ المدرسةِ الرِّبويةِ العالميةِ زِمامَ الأمرِ في العالمِ الإنسانيِّ كُلِّه وفرضِ الاقتِصادِ الرِّبويِّ على الجميعِ.

دور الغثائيين من المُسلِمين في وضع قواعد الربا البنكي

بل بدأَ الغُثائيون مِن رِجالِ المالِ والأعمالِ يضعون قواعِدَه الرِّبويةَ في كافَّةِ مواقِعِ الحركةِ الثقافيةِ الاقتِصاديةِ الجديدةِ، وأخذَ يتطوَّرُ في الدُّولِ العربيةِ والإسلاميةِ معَ إقصاءِ الوعيِ الشرعيِّ في المُعاملاتِ تمهيدًا لِقَبولِ سياسةِ البديلِ

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٩)، بلفظ «كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وربا الجاهلية موضوع».

الرِّبـويِّ الكافِـرِ ، وفـي ذلِكَ يقولُ ﷺ عن أمتِـه المخدوعةِ : « ليأتيَـنَّ على الناسِ زمـانٌ لا يُبالي المـرءُ بِما أخذَ المالَ: أمِن حلالٍ أم مِن حرامٍ؟ »[1] . وحديثُ : « لا تقومُ السـاعةُ حتَّى يُعِزَّ اللَّهُ فيه ثلاثةً : دِرهمًا مِن حلالٍ ، وعِلمًا مُسـتفادًا ، وأخًا في اللَّهِ»[2] . وحديثُ : « سيأتي على الناسِ زمانٌ يدخُلُ الرِّبا كُلَّ بَيتٍ ، ومن لم يدخلْه الرِّبا دخلَ إلَيه غُبارُه » [3].

انتشار المصارف المتعاملة بالربا

كتبَ الوابِلُ مُؤلِّفُ «فقه أشـراطِ الساعةِ»[4] : « وهذه الأحاديثُ تنطبِقُ على كثيرٍ مِـنَ المُسـلِمين في هـذا الزمنِ ؛ فتجِدُهـم لا يتحرُّون الحلالَ في المكاسِـبِ ، بل يجمعـونَ المـالَ مِنَ الحـلالِ والحرامِ ، وأغلـبُ ذلِكَ بِدخولِ الرِّبـا في مُعاملاتِ النـاسِ ، فقدِ انتشـرَتِ المصارِفُ المُتعامِلـةُ بالرِّبا ، ووقعَ كثيرٌ مِـنَ الناسِ في هذا البلاءِ العظيمِ . اهـ ص١٤٠ (أشراطُ الساعةِ) .

قُلتُ : ومعَ أنَّنا نصِفُ الرِّبا بِالبلاءِ العظيمِ في الأُمَّةِ لكنَّا لا نُحدِّدُ هُويةَ المسئولين عـنِ انتِشـارِه ، وإنَّمـا نُخوِّفُ المُسـلِمين بِوقوعِهم فيـه وتعامُلِهم بِـه ، وكأنَّهم هم المسـؤولون عنـه مباشـرةً ، والأصلُ فـي التعامُـلِ بِالرِّبا موقـعُ القرارِ فـي الحُكمِ والعِلمِ، الذي يُسـمَحُ بِه ، والإباحةُ والتسـاهُلُ بِواسطةِ حملةِ القرارِ في عهدِ الغُثاءِ والوهنِ.

خطر الربا على الحياة الإسلامية ووصف القرآن لآكل الربا

وفيهم جميعًا يقولُ تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] .. الآيـة .

(١) صحيح البخاري (٢٠٨٣)

(٢) رواه الديلمي (٧٥٣٣).

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٦٤) .

(٤) ص١٤٠ .

والقُـرآنُ في هذه الآيـةِ وصفَ الآكلينَ لِلرِّبـا ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ حيثُما قامُـوا وحيثُما جلسُـوا وحيثُما عَلَّمُـوا أو تَعَلَّمُوا لا يقومون في سياسـةٍ ولا تِجارةٍ ولا عِلـمٍ ولا تعليـمٍ ولا عقيـدةٍ ولا ثقافـةٍ ولا عِلاقـةٍ ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ .

علاقة التطرف والإرهاب بالربا والمعاملات المشبوهة

وهـذا هو تعليـلُ القُرآنِ لِظاهِـرةِ الانفِعـالِ والدعـواتِ الانفِعاليةِ مِـنَ العِلمانيةِ والانتِقائيةِ والتوليفيةِ ، وما سُمِّيَ بالإرهابِ والتطرُّفِ السياسيِّ والدينيِّ في عالمِنا المُعاصِرِ مُنذُ ظُهورِ مدارِسِ القبضِ والنقضِ ؛ عَلَّلَها بِأنها ظاهِرةٌ شَـيطانيةٌ مقرونةٌ بِـأكلِ الحـرامِ وترويجِـه ، ولا يمكِـنُ لهمُ القيـامُ بِغيـرِه ؛ لِأنَّ الحِكمـةَ والموعظةَ الحسـنةَ إنَّمـا هـي عطـاءٌ مِـنَ اللَّـهِ لأوليائه ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة:٢٦٩] ، وأمَّا الذين أُوتوا الجدلَ والرفضَ والتشفِّيَ والإفكَ وإلصاقَ التُّهمِ بالظنِّ والتصوُّرِ ، فما هم فيه ما هو إلَّا ثمرةٌ مِن ثمراتِ نباتِ الحرامِ المُنتشِرِ كما قالَ ﷺ: « إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ »[1] .

الربا جزء من الكفر

والرِّبـا جُـزءٌ مِنَ الكُفـرِ ، وهو سياسـةُ اقتصادِه ، ولا هـوادةَ في ذلِـك ، والقُرآنُ يُخاطِـبُ المُؤمنيـنَ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] .

فالإيمـانُ مُتحقِّقٌ بِتركِ ما بقيَ مِنَ الرِّبـا ، والعكسُ بالعكسِ . والحقُّ أن نتعرَّفَ حجمَ ما بلغْنا إلَيه مِنَ الغُثاءِ المُشـتركِ حتَّى نُعالِجَ أمراضَنا جميعًا ، ولله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ .

فقه التحولات ووضعه الدواء موضع الداء

إن علامـاتِ السـاعةِ وقِراءتَهـا على وجهِها الصحيـحِ عاملٌ مُسـاعِدٌ لِوضعِ كُلِّ

(١) سنن الترمذي (٦١٧) .

مُسلِمٍ وكُلِّ نِظامٍ مُعاصِرٍ في مَوقعِه مِنَ الحالةِ الحقيقيةِ ؛ حتَّى ينقطِعَ التطاوُلُ والتباهي ، ونرجِعَ جميعًا إلى الحقيقةِ المُرَّةِ التي رفضناها ، وهي سُنَّةُ النبيِّ ﷺ في تقريرِه موقعَ العلَّةِ والفسادِ فينا وفي غَيرِنا.. فهل مِن مُدكِرٍ ؟!

وقدِ انتقلَت هذه التُّهمةُ الخطيرةُ بَينَ المُسلِمين مِنَ الواقِعِ الرسميِّ إلى الواقعِ الشعبيِّ ، وصارَت جُزءًا لا يتجزَّأُ مِن عقيدةٍ وسُلوكٍ وعِلاقةِ المُجتمعاتِ ضِدَّ بعضِها البعضِ ، بل والأنكى والأدهى أنَّ محاضِنَ هذه التُّهمِ قد تنكرَت لأتباعِها ومُروِّجي فتنتِها بعدَ ضمانِ انتِشارِها في دماءِ الشُّعوبِ ؛ لِتتنصَّلَ عن تبعةِ الجريرةِ التي صنعَتها في المجتمعِ المُتناقِضِ ؛ رغبةً في البقاءِ والاستِمرارِ والعبثِ بِالشُّعوبِ مِن جهةٍ ، معَ ضمانِ مصلحةِ المستثمِرِ الأصليِّ ورضائه مِن جهةٍ أُخرى ، فهل مِن مُدرِكٍ سرَّ اللُّعبةِ ؛ لِيتوبَ ويُنيبَ ويخشى اللَّهَ ويتقيه ؟! أم إنَّها الفِتنةُ التي تدعُ الحليمَ حَيرانًا؟!

ظُهورُ الفِتنِ مِنَ المشرِقِ

فتن المشرق
علامة صغرى

ومِنَ العلاماتِ الصغرى التي اختلفَ العُلماءُ في شأنِها فِتنُ المشرِقِ : فمنهم من جعلَ المشرِقَ مكانًا مُحدَّدًا كالعِراقِ ، ومنهم من جعلَ المشرقَ جِهةَ المَشرِقِ ، ويدخُلُ فيه كُلُّ الفِتنِ التي جاءَت مِن تِلكَ الجِهةِ ، ويدخُلُ في المعنى الثاني أيضًا بُلدانٌ عديدةٌ ظهرَت مِنها على مرِّ التاريخِ الإسلاميِّ فِتنٌ عظيمةٌ ، مِنها :

الجهات التي
ظهرت مِنها الفتن
عبر التاريخ

(١) بِلادُ الفُرسِ والهِندوسِ ، ومنه ظهرَتِ البهائيةُ والقاديانيةُ وغيرُها .

(٢) العِراقُ ، ومِنها ظهرَتِ الخوارِجُ والروافِضُ والباطنيةُ والقدريةُ والجهنيةُ والقرامِطةُ والمُعتزِلةُ وغيرُها .

(٣) بلدانُ الشرقِ التي ظهرَ مِنها المغولُ والتتارُ في القرنِ السابعِ

(٤) روسيا والصينُ ، وقد ظهرَت مِنها فِتنةُ الشُّيوعيةِ .

(٥) نجْدُ مُسَيلِمةَ ، وقد ظهرَت مِنها فِتنةُ مُسَيلِمةَ الكذَّابِ ، ثُمَّ القبضُ والنقضُ الموعودُ بِه في الأحاديثِ عن آخِرِ الزمانِ .

ولا يزالُ المشرقُ كجهةٍ مصدرَ الفِتَنِ والشُّرورِ ، وسيكونُ ظُهورُ الدَّجَّالِ ويأجوجَ ومأجوجَ مِن جهةِ المشرِقِ ، نسألُ اللَّهُ السلامةَ مِنَ الفِتنِ .

أحاديث فتن المشرق

وأمَّا الأحادِيثُ عنِ المشرقِ فكثيرةٌ ، ومِنها حديثُ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا أنَّه سمِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ وهو مُستقبِلُ المشرِقِ ، يقولُ : « ألا إنَّ الفِتنةَ هاهُنا ، ألا إنَّ الفِتنةَ هاهُنا من حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطانِ »[١] .

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٩) ، وكلمة (قرن) تأتي بمعنى (جيل من الناس) ، ففي تفسير ابن كثير (٣ : ٢٤١) : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[المؤمنون:٣١] . أي : جيلا آخر لنختبرهم . وفي تفسير البحر المحيط (٥ : ٧٠) : وقيل : القرن القوم المجتمعون . قلت : السنون لو كثرت ؛ لقوله : خير القرون قرني . يعني : أصحابه . وقال قس :

في الذاهبين الأوَّلين من القرون لنا بصائرْ

أي : قد تطلق على الأشخاص ، وليس على المدة الزمنية ، ولو كانت أعمارهم فوق ١٠٠ مثل جيل النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كان الجيل منهم بنحو ألف عام . وربما أقل من ذلك (٦٠-٧٠ عاما) مثلا ، وهو الجيل الذي جاء ببداية عهد الغثاء مع سقوط الخلافة « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين » ، ولذلك جاءت الرواية « قرنا الشيطان » ، مما يقودنا إلى أنهم جيلان على هذه الرواية .

وعلى ذلك ينبني أن تفسير بعضهم لحديث « خير القرون قرني » لا يعني به ٣٠٠ عام بالضبط ، بل يعني به ثلاثة أجيال : الصحابة ، التابعون ، تابعو التابعين .

وتأتي بمعنى قوم أو شعب ، ففي الوجيز للواحدي (١/ ٥٦٧) : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أحدثنا ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني : عادا . اهـ . أي : قد يكون المقصود من كلمة (قرن) القبيلة

وفي رِوايةِ مُسلِمٍ أنَّه قَالَ : «رأسُ الكُفرِ مِن هاهُنا مِن حيثُ يطلُعُ قرنُ الشَّيطانِ»، يعني المشرِقَ [1].

وفي رِواياتٍ وردَ في نصِّ الحديثِ بِلفظةِ « قرنِ الشَّـيطانِ » ، وفي رِواياتٍ «قرنا الشَّيطانِ » .

رواية فتن المشرق بالمفرد والمثنى :« قرن/ قرنا الشيطان »

ورِوايةُ « قرنا » بألِفِ التثنيةِ وردَت في مُسلِمٍ بِرواياتٍ مِنها رِوايةُ ابنِ عُمرَ ، وفي آخِرِه : « إنَّ الفِتنةَ هاهُنا ! إنَّ الفِتنةَ هاهُنا ! ثلاثًا حيثُ يطلعَ قرنا الشَّيطانِ »[2] .

وفـي أُخـرى عنِ ابنِ عُمرَ : « إنَّ الفِتنةَ تجيءُ مِن هاهُنا وأومأَ بيدِه نحوَ المشـرِقِ من حيثُ يطلُعُ قرنُ الشَّيطانِ، وأنتم يضربُ بعضُكم رِقابَ بعضٍ ... إلخ » [3] .

وفـي حديثِ ابنِ مسـعودٍ قالَ : أشـارَ النبيُّ ﷺ بيـدِه نحوَ اليمنِ فقـالَ : «ألا إنَّ الإيمـانَ مِـن هاهُنا ، وإنَّ القسـوةَ وغِلَظَ القُلوبِ فـي الفَدَّادِين عِنـدَ أُصولِ أذنابِ الإبلِ حيثُ يطلُعُ قرنَا الشَّيطانِ في ربيعةَ ومُضرَ» [4].

تحديد الأحاديث جهة المشرق بربيعة ومضر

وفـي رِوايـةِ أبي هُرَيـرةَ أنَّ رسـولَ اللّهِ ﷺ قـالَ : « رأسُ الكُفرِ نحوَ المشـرِقِ ،

والشعب ، وليس المدة الزمنية أو الجيل .

وتأتي بمعنى المدة الزمنية (١٠٠ عام) ، ففي تفسير البحر المحيط لإمام اللغة أبي حيان (٥/ ٧٠) قـال عند اسـتعراضه لعدة أقوال : ... أو مائة سـنة ، قالـه الجمهور ، وقد احتجوا لذلك بقول النبي ﷺ لعبد الله بن بشر : « تعيش قرنا » . فعاش مائة ، وقال : أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » . قال ابن عمر : يؤيد أنها انخرام ذلك القرن .

(١) صحيح مسلم (٧٤٧٩) .

(٢) صحيح مسلم (٧٤٨٠) .

(٣) صحيح مسلم (٧٤٨١) .

(٤) صحيح مسلم (١٩٠) .

والفخرُ والخُيلاءُ في أهلِ الخيلِ والإبلِ الفَدَّادِين أهلِ الوبرِ، والسكينةُ في أهلِ الغنمِ »[1].

وفي روايةٍ أُخرى قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الإيمانُ والكُفرُ قِبلَ المشرقِ، والسكينةُ في أهلِ الغنمِ، والفخرُ والخُيلاءُ في الفدَّادين أهلِ الخَيلِ والوبرِ »[2].

وعنه أيضًا في رِوايةٍ: « أتاكم أهلُ اليمنِ، هم ألينُ قُلوبًا، وأرقُّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٌ، والحكمةُ يمانيةُ.. رأسُ الكُفرِ مِن قِبلِ المشرقِ »[3].

وفي روايةٍ عن جابرِ بنِ عبدِاللَّهِ يقولُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: « غِلظُ القُلوبِ والجفاءِ في أهلِ المشرِقِ، والإيمانُ في أهلِ الحِجازِ »[4].

تحليل « قرنا الشيطان » بألف التثنية

قالَ النوويُّ في شرحِه: وأمَّا قرنا الشيطانِ فجانبا رأسِه، وقيلَ: هما جمعاه، اللذان يُغريهما بإضلالِ الناسِ: وقيل: شيعتاه مِنَ الكُفَّارِ. والمرادُ بذلِكَ اختِصاصُ المشرِقِ بمزيدٍ مِن تسلُّطِ الشَّيطانِ ومِنَ الكُفرِ، كما قالَ في الحديثِ الآخرِ: « رأسُ الكُفرِ نحوَ المشرِقِ ». وكانَ ذلِكَ في عهدِه ﷺ حيثُ قالَ ذلِكَ، ويكونُ حينَ يخرُجُ الدَّجَّالُ مِنَ المشرِقِ، وهو فيما بَينَ ذلِكَ منشأُ الفِتنِ العظيمةِ[5].

قُلتُ ـ واللَّهُ أعلمُ: قَولُه «قرنا الشَّيطانِ» بِالتثنيةِ هو إشارةٌ إلى وُجودِ أكثرَ مِن مكانٍ يحملُ صِفةَ القرنيةِ الشَّيطانيةِ، فإذا كانَت أحاديثُ المشرِقِ ـ بالإفرادِ ـ قد خصَّصَها جُملةٌ مِنَ العُلماءِ بِالعِراقِ وجهةِ المشرِقِ عُمومًا؛ فإنَّ «قرنا الشَّيطانِ»

---

(١) صحيح مسلم (١٩٤).

(٢) صحيح مسلم (١٩٥).

(٣) صحيح مسلم (١٩٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٠٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (٢: ٣٤).

بِالتثنيـةِ يُدخِلُ نجدَ مُسَـيلِمةَ وما حولَها في الجهةِ المُشـارِ إِلَيهـا مِن ناحيةٍ أُخرى ، وخُصوصًا عِندَ ذِكرِ المُفاضلةِ بَينَ المناطِقِ والبلادِ وفي قولِه : « يطلُعُ قرنا الشَّيطانِ في ربيعةَ ومُضرَ » ووصفِهم بِالخُيلاءِ والكبرِ والفخرِ .

وفـي هـذا التحديدِ خِدمـةٌ واعيةٌ لِمُرادِ رسـولِ اللَّـهِ ﷺ في البيانِ الشـرعيِّ في علامـاتِ السـاعةِ (بِصرفِ النظرِ عن مقامِ الجِهةِ ورغبـةِ أهلِها في صرفِ الحديثِ عـن جهتِهم) فالأمانةُ تقتضي إبرازَ المعاني مُجتمِعةً بعيدةً عنِ الانتِقاءِ الاختِياريِّ، خِلافًـا لِما أجمعَ علَيـهِ غالبيةُ عُلماءِ المرحلةِ الغُثائيةِ في صرفِ المعنى ـ تعسُّـفًا ـ عـن « نجدِ مُسَـيلِمةَ » إلى جِهةِ العِـراقِ بِالخُصوصِ ، والعِـراقُ ـ بِالخُصوصِ ـ لا تسلَمُ مِنَ المعنى ؛ لِأنَّ النُّصوصَ تذكُرُها بِاسمِها كما تذكُرُ جِهةَ المشرِقِ بِعُمومِها ، وأما نجدُ مُسَيلِمةَ فيُعرَفُ موقعُه مِنَ المسألةِ بِالدَّلالاتِ التي تُشيرُ إِلَيها الرِّواياتِ كالإِشـارةِ إلـى الناحيـةِ ، وذكرِ ربيعـةَ ومُضرَ ، والإشـارةِ إلى أذنابِ الإبـلِ والوبرِ والخُيلاءِ والفخرِ ... إلخ .

الحديـثُ بِروايةِ « رأسُ الكُفرِ نحوَ المشـرِقِ ، والفخـرُ والخُيلاءُ في أهلِ الخيلِ والإبلِ الفدَّادين أهلِ الوبرِ »[1].

المعنى لا ينطبق على الرعايا وعموم المُسلِمين

معَ أنَّ المعنى لا ينطبِقُ على الرعايا وعُمومِ المُسـلِمين في تِلكَ النواحي ، سـواءٌ بِمفهومِ المشرِقِ الخاصِّ ـ كالعِراقِ ـ أو بِالمفهومِ العامِّ « الناحيةِ والجِهةِ » ، وإنَّما هي علاماتٌ ودلالاتٌ لِرُؤوسٍ مُعينةٍ تحمِلُ الفِتنةَ وتقودُها ، ولعلَّ الكثيرَ مِنهم لا يعلمون الأمرَ ، ولم يبلُغْهمُ العِلمُ ؛ فوقعوا فِيها حتفَ أُنوفِهم .

أحاديث متنوعة عن قرن المشرق

وعـنِ ابـنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : دعا النبيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ بارِكْ لنا في صاعِنا ومُدِّنا

(١) صحيح مسلم (١٩٤) .

وبارِكْ لنا في شـامِنا ويمنِنا » . فقالَ رجُلٌ مِنَ القومِ : يا نبيَّ اللَّهِ ، وفي عِراقِنا ، قالَ : « إنَّ بهـا قرنَ الشَّـيطانِ وتَهَيُّجَ الفِتَـنَ ، وإنَّ الجِفاءَ بِالمشـرِقِ » [1] ، وفي صحيحِ البُخـاريِّ « وفـي نجدِنا » بـدلَ عِراقِنا ، وهي الروايةُ الأصـحُّ [2] . وقد ذهبَ بعضُ العُلماءِ إلى أن قَولَه : « نجدِنا » يُشيرُ إلى «نجدِ مُسَيلِمَةَ الكذَّابِ».

اعتناء العلماء بفتن المشرق العامة والخاصة

وقدِ اعتنى العُلماءُ بِسـردِ العديدِ مِن هذه الفِتَـنِ المُتلاحِقةِ في العُصورِ المُتتابِعةِ ، ومِنهـا مـا قـد تناولناه في العلاماتِ الوُسـطى والصُّغـرى ، ومِنها فِتَـنٌ أُخرى لم تُذكَـرْ كفِتنـةِ القرامِطـةِ والزنجِ والفاطميةِ ، والزرادشـيةِ ، والمانويـةِ ، والمزدكيةِ ، وفِتنـةِ التتارِ واجتياحِهم بِلادَ المُسـلِمين ، والسـبئيةِ ، وفِتنةِ الرافضـةِ والنواصبِ ، والحُروبِ الصليبيةِ ، والهِندوسيةِ ، والبُوذيةِ ، والقاديانيةِ ، والبهائيةِ ، وغيرِها .

فتنة الخوارج

وكانَ بُـروزُ بعـضِ هذه الفِتَنِ خِـلالَ مرحلةِ التمـزُّقِ وظُهورِ الدُّويـلاتِ بِتمزُّقِ خِلافـةِ بنـي العبَّـاسِ ، ومِنها مـا كانَ مِن قبلُ ، واسـتمرَّ في الظهورِ والبُـروزِ كفِتنةِ الخـوارجِ، وهي الفِتنـةُ المُتناميةُ التي قالَ فِيها رسـولُ اللَّـهِ ﷺ : « يخرُجُ في آخِرِ الزمانِ قَومٌ يقرؤون القُرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم ، يمرُقون مِنَ الإسلامِ مُروقَ السهمِ مِـنَ الرميةِ ، لا يرجعون إلَيه ، سـيماهم التحليقُ، لا يزالـون يخرجون حتَّى يخرُجَ آخِرُهم معَ المسيخِ الدَّجَّالِ ...» . الحديث [3] .

وروى أحمـدُ والبُخـاريُّ والطبرانـيُّ في الكبيـرِ والبَيهقيُّ : « يخرجُ قـومٌ أحِدَّاءُ أشِـدَّاءُ زلِقةٌ ألسـنتُهم بِالقُرآنِ يقرؤونه ينثُرونه نثرَ الدقلِ ، لا يُجاوِزُ تراقيَهم» . وفي لفـظٍ آخـرَ « يأتـي آخِرُ الزمـانِ » ... إلـخ . « أحداثُ الأسـنانِ ، سُـفهاءُ الأحلامِ ،

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٨٣)

(٢) صحيح البخاري (١٠٣٧) .

(٣) سنن النسائي (٤١٢٠) .

يقـرؤون القُـرآنَ لا يُجاوِزُ تراقيَهـم ، يقولون مِن خيرِ قولِ النـاسِ ... » إلخ . اهـ . رواه الشيخان وأحمدُ .

وروى مُسـلِمٌ وأبـو داودَ وغيرُهـم عـن علـيٍّ رَضِيَالله عَنْهُ : « يقـرؤون القُـرآنَ لَيسَ قِراءتُكم إلى قِراءتِهم بِشـيءٍ ، ولا صلاتُكم إلى صلاتِهم بِشيءٍ ، ولا صيامُكم إلى صيامِهـم بِشـيءٍ ، يحسـبون أنَّه لهـم ، وهو علَيهـم ! لا تُجاوِزُ صلاتُهـم تراقيَهم ، يمرُقون مِنَ الدينِ كما يمرُقُ السهمُ مِنَ الرميةِ ... » إلخ .

انتشار الفتنة في البلاد العربية والإسلامية وتغلغلها في دماء الشعوب

وعِنـدَ النظـرِ المُتأنِّـي في هـذه الظواهِرِ ودراسـةِ أحـوالِ أصحابِهـا نجدُها كما أخبـرَ عنها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد عمَّتِ البِلادَ العربيةَ والإسـلاميةَ كُلَّها ، وأسـاسُ ظُهورِها وتوسيعِ حلقتِها في المرحلةِ الغُثائيةِ ما قد سبقَتِ الإشارةُ إلَيه في هذا الكتابِ عن فِتنةِ المشـرِقِ وفِتنةِ قرنِ الشـيطانِ ـ كما سمَّاها رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ إلَّا أنها اليَومَ قد خرجَـت عن مكمنِها الأصليِّ فيما سُـمِّيَ بِقرنِ الشـيطانِ ؛ لتُصبِحَ جُـزءًا مِن لحمِ الشُـعوبِ المخدوعـةِ ودمِهـا ، ومصدرًا مِن مصـادِرِ القلقِ والإرجـافِ والتحدِّي والتطرُّفِ والاندِفاعِ في كُل مدينةٍ وقريةٍ وشِعبٍ مِنَ الشِّعابِ ، وتحولَت إلى خلايا وجماعاتٍ ينفصلُ بعضُها عن بعضٍ ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ العليِّ العظيمِ .

ظاهرة انتشار الفتنة المعادلة للخوارج تحت مسمى حب آل البيت

وتليها الفِتنةُ المُعادِلةُ لها في المرحلةِ ، ومصدرُ انطِلاقِها مِن جهةِ المشرِقِ أيضًا ، وتبرُزُ فِيما تعيشُـه الأُمَّةُ الإسـلاميةُ والعربيةُ مِن خطرِ الفكرِ المُتَّخِذِ شِعارَ النُّصرةِ لآلِ البيتِ الأطهارِ وما ترتَّبَ على الدفعِ بِه في المرحلةِ مِن زوابعِ الإعلامِ ، وكثرةِ التناوُلِ لِحُقوقِ آل البيتِ بِنُصرةِ الإسـلامِ ، وخُروجِ المسـألةِ عنِ النظرِ الواعي في مقولاتِ نبيِّ الأُمَّةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونقولِ آلِ البيتِ وأئمتِهم إلى عَشـوائيةِ الأحكامِ وتهوُّكاتِ الثـأرِ والحِقـدِ والانتِقامِ ، بما لا يـدعُ مجالًا لِلجزمِ بِأنَّ العالمَ العربيَّ والإسـلاميَّ

سيقعُ في أتونِ فِتنةِ التحريشِ الإبليسيِّ المُتَّخِذِ صِفةَ الانتِصارِ لِأهلِ الحقِّ ؛ ليَذْهَبَ الحـقُّ وأهلُه في هذه الفِتَنِ السـاحِقةِ الماحِقةِ التي قالَ عنهـا ﷺ لِأُمَّتِه الراغبةِ في السـلامةِ : « إنَّـه لم يكُنْ نبيٌّ قبلي إلَّا كانَ حقًّـا عليهِ أن يدُلَّ أُمَّتَه على خيرِ ما يعلَمُه لهم ، ويُنذِرَهم شرَّ ما يعلَمُه لهم ، وإنَّ أُمَّتَكم هذه جعلَ عافيتَها في أوَّلِها ، ويصيرُ آخِرُها بلاءٌ وأُمورٌ تُنكِرونه ، وتجيءُ فِتنةٌ فيرقِّقُ بعضُها بعضًا ، وتجيءُ الفِتنةُ فيقولُ المؤمِـنُ : هـذه مُهلِكَتي ، ثُمَّ تنكشِـفُ وتجيءُ الفِتنةُ ؛ فيقـولُ المؤمِنُ : هذه هذه ، فمـن أحـبَّ أن يُزحزَحَ عنِ النارِ ويدخُلَ الجنةَ فلتأتِه منيتُـه وهو مؤمِنٌ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه... » الحديثَ[١] .

وجوب المبادرة بالأعمال عند ظهور الفتن

وفـي هذه الفِتَنِ يقـولُ ﷺ : « بادِروا بالأعمالِ فتنًا كقطعِ اللَّيـلِ الُمظلِمِ، يُصبِحُ الرجُلَ فِيها مؤمِنًا ويُمسـي كافِرًا ، ويُمسـي كافِرًا ويُصبِـحُ مؤمنًا ، يبيعُ دينَه بِعرضٍ مِنَ الدُّنيا »[٢] .

وعن النُّعمان بن بَشيرٍ قال صَحِبْنا النَّبيَّ ﷺ وَسمعْنَاهُ يقولُ : «إنَّ بينَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَنًا كأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ثُمَّ يُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلاقَهُمْ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا يَسِـيرٍ أَوْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا»، قال الحَسَنُ: واللهِ لقَدْ رأيناهُمْ صورًا ولا عقولَ ، أَجْسَامًا وَلَا أحلامَ ، فَرَاشَ نارٍ وَذبانَ طَمَعٍ ، يَغْدُونَ بِدِرْهَمَيْنِ وَيَرُوحُونَ بِدِرْهَمَيْنِ ، يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دَيْنَهُ بِثَمَنِ الْعَنْزِ[٣].

أفضل الناس في الفتن من يعتزل الناس

وروى الطيالِسيُّ والبَيهقيُّ وأحمدُ والطبرانيُّ في الكبيرِ والحاكِمُ : أنَّ رجلًا سأَلَ رسـولُ اللَّـهِ ﷺ : « هل لِلإسـلامِ مُنتهى ؟ » ، فقالَ رسـولُ اللَّـهِ ﷺ : « نعم ، أيما

(١) صحيح مسلم (٤٨٨٢) .
(٢) صحيح مسلم (٣٢٨)
(٣) مسند أحمد (١٨٤٠٤).

بَيتٍ مِنَ العربِ أو العجمِ أرادَ اللَّهُ بِهم خيرًا أدخلَ علَيهِمُ الإسلامَ » . قالَ : ثُمَّ ماذا يا رسولَ اللَّهِ ؟ قالَ : « ثُمَّ تقعُ الفِتَنُ كالظُّلَلِ » . فقالَ الرجُلُ : كلَّا يا رسولَ اللَّهِ . فقالَ النبي ﷺ : « كلَّا والذي نفسي بيدِه ، ليعودُنَّ فِيها أساوِدَ.. يضرِبُ بعضُكم رِقابَ بعضٍ ، أفضلُ الناسِ يومئذٍ مؤمِنٌ يعتزِلُ في شِعبٍ مِنَ الشِّعابِ ، يتَّقي ربَّه ، ويدع مِن شرِّه »[1] .

وفي رواية : قالوا كيفَ نصنعُ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قالَ « تكسِرُ يدَكَ » . قالَ : فإنِ انجبرَت ؟ قالَ : « تكسِر الأُخرى » . قالَ : حتَّى متى ؟ قالَ : « حتَّى تأتيَك يدٌ خاطئةٌ أو منيةٌ قاضيةٌ »[2] .

العزلة عن الناس أو الجهاد لا يشمل نماذج فلسطين وما شابهها

ولا يدخُلُ تحتَ هذا المعنى والتفصيلِ ما يدورُ مِن مقاومةٍ صحيحةٍ ضِدَّ العدوِّ المُحتلِّ في فِلسطينَ أو في غيرِه ، وإنَّما ينحصِرُ هذا المدلولُ في ما تعيشُه الأُمَّةُ كُلُّها مِنَ التخاذُلِ والوهنِ والمؤامرةِ الداخليةِ ، حيثُ إنَّ الجهادَ في سبيلِ اللَّهِ على الوجهِ الشرعيِّ سيظلُّ قائمًا ـ بأمرِ اللَّهِ تعالى ـ إلى أن يقضيَ اللَّهُ أمرًا كانَ مفعولًا ، ولكِنَّه في صورتِه المُحدودةِ والمُتناقِضةِ أيضًا بما يُلاحَظُ مِن صراعٍ بَينَ الفصائلِ ذاتِها ، ولكنَّه ـ أي : الجهاد ـ باقٍ بقاءَ السمواتِ والأرضِ بأمرِ اللَّهِ على يدِ عبادِه الصالحين المُقاتِلين لِأجلِ اللَّهِ وفي سبيلِ اللَّهِ .

وقالَ الشيخُ التويجريُّ ـ رحِمَه اللَّهُ ـ تعليقًا على حديثِ عبدِاللَّهِ بن عُمرَ[3] : قالَ رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يُشيرُ بيدِه يؤمُّ العِراقَ « ها إنَّ الفِتنةَ هُنا ، ها إنَّ الفِتنة هاهُنا ، ها إنَّ الفِتنة هاهُنا ـ ثلاثَ مرَّاتٍ ـ مِن حيثُ يطلُعُ قرنُ الشَّيطانِ » .

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٩٥٦) والطبراني في الكبير (٤٤٤) .
(٢) الطبراني في الأوسط (٤٥٨٣) .
(٣) (١ : ١٤٢) .

قالَ : وفي هذه الرِّوايةِ فائدةٌ جليلةٌ ، وهي البيانُ بِأنَّ منشأُ الفِتَنِ مِن جِهةِ العراقِ لا مِـن جِهةِ نجـدٍ ، التي هي أرضُ العربِ ، ففِيها ردٌّ على مَـن زعمَ مِنَ الزنادِقةِ أنَّ المُرادَ بِذلِكَ أرضُ العربِ !

قُلتُ : وفيما قد سبقَ بيانُه في الأحاديثِ وشرحِها غنيةٌ وكِفايةٌ لمن ألقى السمعَ وهو شـهيدٌ ، والعجبُ كُلُّ العجبِ في إطلاقِه سـامحَه اللَّهُ لفظةَ « الزنادقة » على بعـضِ مفسِّـري أحاديـثِ رسـولِ اللَّـهِ ﷺ في تحديـدِ المكانِ المُشـارِ إلَيـه بِقرنِ الشَّـيطانِ ، كمـا هو مُثبتٌ في قولِ مـن لا ينطِقُ عنِ الهوى ﷺ . بـل واعتبر بعضُ هؤلاء أنَّ سببَ تحديدِ المشرقِ بناحيةِ نجدٍ إنَّما هو العداءُ مِن بعضِ العُلماءِ لِحُكَّامِ تِلكَ الناحيةِ ، وهذا من محضِ الافتِراءِ أو سُـوءِ التفسـيرِ لِلأُمورِ الشـرعيةِ وربطِها بِالمصالِحِ والعِلاقاتِ ولِلأسفِ .

ونحيلُ الراغِبَ في فهمِ المسألةِ على أُسُسِها الشرعيةِ إلى النظرِ في الفقرةِ السابعةِ مِن مُلحقِ حسنِ المالكيِّ على كِتابِ «داعيةٌ ولَيسَ نبيًّا» ص١٦٩ .

ظُهورُ الزِّنا

ظاهرة الزنا علامة صغرى

وهو مِن أخطرِ علاماتِ الساعةِ الصغرى وأشراطِها ، وهناك جُملةٌ مِنَ الأحاديثِ النَّبوِيَّةِ تُشـيرُ إلى الانحِدارِ الأخلاقيِّ في الأُمَّةِ الإسـلاميةِ آخِرَ الزمانِ ؛ حتَّى يؤدي ذلِكَ إلى الفُجورِ والدعارةِ بِصوَرٍ شتَّى والعِياذُ بِاللَّهِ .

انحدار الأخلاق في مرحلة الاستعمار

ولـم تعـرفِ الأُمَّـةُ انحِـدارًا فـي الأخـلاقِ كمـا عرفَتـه في مراحِـلِ الاسـتِعمارِ والاستِهتارِ والاستِثمارِ .

فالعدوُّ المُستعمِرُ مُنذُ سيطرتِه على مُقدَّراتِ الأُمَّةِ وقرارِها بدأَ يوسِّعُ دائرةَ الغزوِ

الثقافيِّ الكافرِ ، بِشتَّى صُورِه وألوانِه ، وفي عدةِ نماذجَ وكيفياتٍ ؛ حتَّى تمكن مِن تحقيقِ أهدافِه السُّفلى في داخِلِ مُجتمعاتِ القُرآنِ والسُّنَّةِ جِيلًا بعدَ جِيلٍ ، وحتَّى برزَ جيلُ الكاسياتِ العارياتِ المائلاتِ المُميلاتِ مِنَ النساءِ ، وبرزَ جيلُ التهارُجِ الذي قالَ فيه ﷺ : « ويبقى شِرارُ الناسِ يتهارجون فِيها تهارُجَ الحُمُرِ »[1].

بروز جيل الكاسيات العاريات

والمُطَّلِعُ على أحوالِ المُجتمعاتِ العربيةِ والإسلاميةِ اليومَ ، والمُتمعِّنُ في مُخرجاتِ ثقافتِها وإعلامِها وتربيتِها ـ وقد صارَت هذه الثقافةُ جُزءًا لا يتجزَّأُ مِن ثقافةِ العالمِ الآخرِ والانطِواءِ فيه ، وخاصةً في العِلاقاتِ الاجتِماعيةِ والفكريةِ والاقتِصاديةِ والعاطِفيةِ ـ يتأكَّدُ بيقينٍ مدى صِدقِ النُّبوءاتِ المُحمَّديةِ في الأُمَّةِ، فظاهِرةُ العِلاقاتِ غَيرِ الشرعيةِ وظاهرةُ العِلاقاتِ الجنسيةِ المُحرمةِ بِكُلِّ أشكالِها لا تنفكُّ عن ممارستِها أغلبُ المُجتمعاتِ الحضاريةِ ، وخاصَّةً في العواصِمِ حيثُ تختلِطُ الشُّعوبُ والأُممُ ، وتزدادُ حركةُ الاقتِصادِ والسياحةِ وأسبابُ الترفِ واللهوِ وفُرصُ التمتُّعِ بالحرياتِ الشخصيةِ والوظائفِ الرسميةِ وشبهِ الرسميةِ المُختلطةِ بَينَ الجِنسينِ .

ارتباط المخرجات الثقافية في العالم العربي والإسلامي بالعالم الآخر

كما أنَّ لِهذه الأمراضِ الاجتِماعيةِ السيئةِ جِهاتُ اختِصاصٍ تتبنى إدراةَ العِلاقاتِ الجِنسيةِ وتنظيمَها وتضعُ لها قواعِدَ التحصينِ الطبيِّ والمُمارسةِ المُوجَّهةِ ضِمنَ الأعمالِ السياحيةِ والفندقةِ والمسارِحِ والملاهي ، وما يُسمُّونها بِالكازينوهاتِ وليالي السهراتِ ، وغيرِها من البُؤرِ والمواخيرِ التي نُقِلَت مِنَ العالمِ الغربيِّ والشرقيِّ الكافِرِ ، وتُلاحَظُ في بعضِ البِلادِ العربيةِ والإسلاميةِ جُهودٌ لمُؤسَّساتٍ وجمعياتٍ غربيةٍ تحمِلُ صِفةَ الخِدماتِ الطبيةِ والنفسيةِ والوقايةِ البيئيةِ .

منظمات الوقاية من الأمراض الجنسية ودورها في نشر الفساد

---

(١) صحيح مسلم (٧٥٦٠) .

والقـارِئ لِلإحصائياتِ المنشـورةِ فـي تقاريرِ المُستشـفياتِ ومراكِـزِ التحصينِ مِـنَ الأوبئةِ يرى مِقدارَ النِّسـبِ المُتكاثِـرةِ مِنَ المُصابين بالأمراضِ الجِنسـيةِ عامًا بعـدَ عامٍ بَينَ الرِّجالِ والنِّسـاءِ في داخِـلِ بِلادِ العربِ والمُسـلِمين ، أمَّا مَن يُصابُ خارِجَها فحدِّثْ ولا حرجَ .

مستقبل الانحدار الخلقي في العالم الإسلامي

ولِأنَّ هذه العِلَلَ جُزءٌ مِن سـلاحِ الشَّـيطانِ في معركةِ الاحتناكِ والتزيينِ والإثارةِ فلا شـكَّ أنَّ الاهتِمامَ بها من تِلكَ الجِهاتِ في الحياةِ المُعاصِرةِ سـيبرُزُ وسـيزدادُ جليًّـا فـي الواقِعِ المُتطوِّرِ مادِّيًّـا وثقافيًّا وإعلاميًّا حتَّى يبلغَ إلـى أقصاه في نماذجِه التي قد تكلَّمَ عنها مَن لا ينطِقُ عنِ الهوى ﷺ في مِثلِ قَولِه : « والذي نفسـي بيده ، لا تفنـى هـذه الأُمَّةُ حتَّـى يقومَ الرجُلُ إلى المرأةِ فيفترِشُـها فـي الطريقِ ، فيكونُ خِيارُهم يومئِذٍ مَن يقولُ: لَو واريتُها وراءَ هذا الحائِطِ ... »[1].

وصـدقَ رسـولُ اللَّـهِ ﷺ ؛ حيـثُ إنَّ الواقِعَ المُشـاهَدَ في كثيرٍ مِن بِـلادِ العربِ والمُسـلِمين اليَـومَ قد قـاربَ هذه الحالةَ ، إن لم يكُنْ قـد تجاوزَها إلى ما هو أقذرُ وأوسخُ وأفسدُ .

خطورة ما يدور خلف الكواليس في المسارح والأندية وغيرها

ومِنَ المعلومِ أنَّ كثيرًا مِنَ المُمارسـاتِ لا تظهرُ مكشـوفةً على الإعلامِ المحليِّ والرسـميِّ إلَّا في حُدودٍ مُعينةٍ ، ولكِنَّها عِنـدَ تتبُّعِها في الواقِعِ المُعاشِ نُلاحِظُ بَينَ الحيـنِ والآخرِ بِطريقةٍ وأُخـرى ، وخاصَّةً في الأنديةِ ودُورِ السـياحةِ والمُنتزهاتِ والفنـادقِ وغيرِها . وقد وصفَها ﷺ بالسـنواتِ الخدَّاعاتِ في ظُهورِها المُتفشِّـي والمُتدرِّجِ ، وذكرَ فِيها : « وتشيعُ فِيها الفاحِشةُ »[2] . قالَ القُرطُبيُّ في كِتابِه «المفهم»

---

(١) مسند أبي يعلى (٦١٨٣) .

(٢) المستدرك للحاكم (٨٥٦٤) .

تعليقًا على حديثِ أنسِ الواردِ فيه « ويظهرُ الزِّنا » : في هذا الحديثِ علَمٌ مِنَ أعلامِ النُّبوَّةِ إذ خبَّرَ عن أُمورٍ ستقعُ ، فوقعَت خُصوصًا في هذه الأزمان[1] .

وإذا كانَ هـذا فـي زمـانِ القُرطُبـيِّ فماذا يُقـالُ عـن زمانِنا وحاضرِنـا المنقوضِ المقبوضِ ؟! ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ العليِّ العظيمِ .

ظُهورُ الأمراضِ التي لم تكُنْ في الأسلافِ

ومِـنَ العلاماتِ الصُّغرى المنصوصِ علَيهـا في أحادِيثِ مَن لا ينطِقُ عنِ الهوى انتِشـارِ العديدِ مِنَ الأمراضِ الوبائيةِ على غَيرِ سـابِقِ عهدِها في الأُمَمِ والشُّعوبِ ، وقد برزَت هذه الظاهِرةُ وتفشَّتْ وخاصَّةً في مراحِلِنا الأخيرةِ ، فظهرَت الأمراضُ الوبائيـةُ الخطيـرةُ كالإيـدزِ وإنفلونـزا الطيـورِ والخنازيـرِ وغيرِهـا مِـنَ الأمراضِ المُسـتعصيةِ التـي لا زالَ العُلمـاءُ يبحثـون عـن وسـائلِ عِلاجِها ومعرفةِ أسـبابِ انتِشارِها في الشُّعوبِ إلى اليَومِ .

نقضُ عُرىٰ الإسلامِ والإيمانِ

نقض عرى الإسلام والإيمان عروة عروة

ومنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْرَى نَقْضُ عُرَى الإسلامِ والإيمانِ، لِمَا رَوَى الحاكِمُ عن حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لتُنقضَنَّ عُرى الإيمانِ عُروةً عُروةً ، وليكونَنَّ أئمةٌ مُضِلُّون ، وليخرُجَنَّ على إِثرِ ذلِكَ الدَّجَّالون الثلاثةُ » [2] .

وروى أحمـدُ والبُخاريُّ في تاريخِه ، وأبو يعلى وابنُ حِبَّانَ والطبرانيُّ في الكبيرِ ،والحاكِمُ في السُّننِ والشُّعبِ والضياءِ عن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ

(١) فتح الباري (١ : ١٧٩).

(٢) المستدرك (٨٦١١) .

ﷺ: «لتُنقضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً، كُلَّما نُقِضَت عُروةٌ تشبَّثَ الناسُ بالتي تليها، أولُهُنَّ نقضًا الحُكمُ، وآخِرُهُنَّ الصلاةُ»[1].

وهذه العلامةُ الخطيرةُ قد برزَت جليَّةً في واقِعِنا العربيِّ والإسلاميِّ مرحلةً بعدَ أُخرى وتنقسِمُ إلى قِسمَين:

بداية النقض في العهد الأموي وما تلاه

١. القِسْمُ الأَوَّلُ: النقضُ الكائِنُ داخِلَ الخَيمةِ الإسلاميةِ، وقد بَدأَ هذا النقضُ باديءَ ذي بدءٍ بِدولةِ المُلكِ العضوضِ في عهدِ بني أُميةَ، ثُمَّ تلاه نقضُ عُرى العِلمِ، ثُمَّ ما تلا عهدَ بني أُميةَ مِن عهدِ المُلكِ العضوضِ في حُكمِ بني العبَّاسِ، ثُمَّ في الصِّراعِ الداخليِّ بَينَ المُسلِمين خِلالَ عصرِ الدُّوَيلاتِ، وما ترتَّب على ذلِكَ مِن رُؤى فكريةٍ مُتناقِضةٍ، مِنها ما نقضَ قرارَ الحُكمِ واستبدَّ به، ومِنها ما نقضَ قرارَ العِلمِ وسيَّسَه ودنَّسَه.

نقض الحكم والعلم في مرحلة الاستعمار

٢. القسمُ الثاني ـ وهو الأنكى والأخطرُ: ما عَمَّ العالمَ العربيَّ والإسلاميَّ حُكمًا وعِلمًا، وربطَ القرارين بالكُفرِ والكافِرِ بعدَ إسقاطِ خِلافةِ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ الثاني، آخِرِ خُلفاءِ الإسلامِ قُبيلَ مرحلةِ الاستِعمارِ.

وهذا هو النقضُ المُشارُ إليه في جُملةِ الأحاديثِ مِن قولِه ﷺ: «لتُنقضنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً». وقد تمَّ هذا النقضُ مرحلةً بعدَ أُخرى تحتَ إشرافِ وهندسةِ الخُبراءِ من المُستشرِقينَ حتَّى آلَ العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ إلى نموذجَين مُتعارِضَين:

نماذج النقض في العالم العربي والإسلامي

- نموذجٌ عِلمانيٌّ علمنيٌّ يرتبِطُ بِالفكرِ الغربيِّ والشرقيِّ ومُخرجاتِه العلميةِ والثقافيةِ والاجتِماعيةِ والحزبيةِ والسياسيةِ ... إلخ.

---

(١) مسند أحمد (٢٢٨١٧).

- نمـوذجٌ دينيٌّ مُتطـرِّفٌ مُتناقِضٌ يعملُ على هدمِ ثوابتِ المذهبيةِ الإسـلاميةِ وحُـبِّ آلِ البيتِ وسُـلوكِ التصـوُّفِ والزُّهدِ الشـرعيِّ في الأُمَّةِ بِمُسـمَّياتٍ وأُحجياتٍ سياسيةٍ وشِبهِ سياسةٍ مُتطرِّفةٍ .

وكِلا النموذجَيـن يعمـلانِ تحـتَ ظِلِّ السياسـةِ العالميـةِ المُهيمنةِ علـى القرارِ الإنسانيِّ كُلِّه .

استمرار نماذج النقض في اللعبة المشتركة إلى اليوم

ولا زالَـتْ هـذه النمـاذِجُ المُتناقِضةُ تُنفِّذُ الفِكرةَ تِلوَ الأُخرى لِاسـتمرارِ سياسـةِ النقـضِ الموعودِ في علاماتِ السـاعةِ وبِصُورٍ مُتنوِّعـةٍ ومُتلوِّنةٍ ، يصعُبُ الإفصاحُ عنهـا بِوُضـوحٍ ؛ لِمـا يترتَّبُ على ذلِـكَ مِن إحـراجٍ واصطِدامٍ معَ عناصِـرِ الحركةِ المُتنفذةِ في الواقعَين العربيِّ والإسلاميِّ المُمزَّقِ ، وإنا للَّهِ وإنا إلَيه راجِعون ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ العليِّ العظيم .

تصور الرموز ورجالات العلم والثقافة « النخبة » قدرتها على تطوير الأُمَّة من غَير إسلام

لقـدِ اعتقـدَ الكثيرون مِنَ الساسـةِ والقـادةِ وزُعماءِ الأحـزابِ والجماعاتِ التي تتحـرَّكُ اليـومَ في السـاحةِ العربيـةِ والإسـلاميةِ أنهم يحمِلـونَ برامِـجَ إيجابيةً في المرحلةِ المُعاصِرَةِ ، وأنَّهم أفضلُ النماذِجِ لإعادةِ الإسـلامِ والديانةِ في الشُّعوبِ، وخاصَّةً أنهم مُجمِعون على العملِ المُشترِكِ ضِدَّ خُرافاتٍ وخُزعبلاتٍ وضلالاتِ المـدارِسِ التقليديـةِ مِـن جهـةٍ ، ومُجمِعون علـى ربطِ الحضـارةِ الماديَّـةِ بالحياةِ وإبرازِها في أنصعِ صُورِها المُتأسلِمةِ .

لكنَّهم ـ ولِلأسـفِ ـ لا يُدرِكون حجمَ المُغامرةِ التي يتداولونها بترسـيخِ القبضِ والنقضِ المنصوصِ علَيهِ في فِقهِ التحوُّلاتِ وعلاماتِ الساعةِ ، لِأنَّ فِقهَ التحوُّلاتِ وعلاماتِ السـاعةِ « مادةٌ خامٌ » في مظانِّها في المراجِعِ والمؤلَّفاتِ الشرعيةِ ، ولم تُفعَّـلْ كفِقهٍ شـرعيٍّ يربطُ بَينَ مُجريـاتِ الأحداثِ وبَينَ مقولاتِ مَـن لا ينطِقُ عنِ

الضحايا من الشعوب المشاركين في برامج الاحتواء والالتواء

الهـوى ﷺ ، وقد ذهـبَ ضحيةَ هذا الجهـلِ المُركَّبِ آلافُ الضحايا من شُـعوبِ المُسـلِمين ووقعوا ـ بِاسـمِ الإسـلامِ ونُصرتِه ـ في برامجِ الاحتِواءِ والالتِواءِ ، التي يُهيمِنُ الكافِرُ على مُقدَّراتِها وقرارِها ومصيرِها المحتومِ .

فالكافِرُ يؤيِّدُ القبضَ والنقضَ كمبدأٍ شَـيطانيٍّ ناجِحٍ ، كما يُؤيِّدُ التفرِقةَ والصِّراعَ بَينَ البشـريةِ تحتَ أيِّ مُسـمًّى فِكريٍّ أو ثقافيٍّ أو دينيٍّ أو اجتِماعيٍّ أو سياسـيٍّ أو اقتِصاديٍّ .

مرحلة التداعي والوهن ودورها في النقض

والمعلـومُ أنَّ مرحلـةَ الغُثائيةَ التي عبَّرَ عنها ﷺ بأنهـا « مرحلةُ التداعي والوهنِ وحُـبِّ الدُّنيا وكراهيةِ المَوتِ ونـزعِ المهابةِ مِن صُدورِ العدوِّ » ، إنَّما هي المرحلةُ الحديثـةُ التي بدأَت بِسـقوطِ قـرارِ الخِلافـةِ وبدءِ مرحلةِ الاسـتِعمارِ ، ثُـمَّ مرحلةِ الاستِهتارِ ، ثُمَّ مرحلةِ الاستِثمارِ ، التي نحن اليَومَ في خِضمِّ أَتونِها وأُوارِها..

شعارات الكتاب والسنة كظاهرة من ظواهر النقض

ونـرى اليَومَ كُلَّ حِزبٍ أو نِظـامٍ أو دَولةٍ تلوحُ بِالبرامِجِ الجُزئيـةِ دينيةً وغيرَ دينيةٍ وكأنهـا الإسـلامُ ذاتُه ، أو هي كِتـابُ اللّهِ وسُـنَّةِ نبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ ، بينمـا هي غارِقةٌ إلى النُّخاعِ في العمالةِ المقنَّعةِ لِبُيوتِ المالِ الدَّوليةِ مُسـتعمَرةٌ مُسـتثمَرةٌ بيدِ رِجالِ الأعمـالِ الأجنبيـةِ ، وها هي الأنظمةُ والجماعاتُ والأحـزابُ مُضطرةً بَينَ الحينِ والآخَرِ لِتقديمِ التنازُلاتِ تِلوَ التنازُلاتِ ، وهو ما سمَّاه النبيُّ ﷺ بـ «نقضِ العُرى» لِإرضـاءِ المُتنفِذيـن علـى القرارِ المحليِّ والعربـيِّ والعالميِّ » وآخِـرُ ما يبقى لهمُ الصلاةُ ، ورُبَّ مُصلٍّ لا أمانةَ له » .

ومعناه : أنَّه لا يبقى لهم مِن مُخالفةِ الكُفَّارِ غَيرُ فِعلِ الصلاةِ فقط ، بينما تجِدُ كافَّةَ شُؤونِ الإمارةِ والاقتِصادِ والتربيةِ والتعليمِ والثقافةِ والإعلامِ ـ وهَلُمَّ جرًا ـ صارَت جُزءًا مِن مشروعِ النِّظامِ العالميِّ المُوحَّدِ « العولمةِ » .

إنَّ كافَّـةَ البرامِـجِ المطروحةِ في السـاحةِ مُنذُ سُـقوطِ القرارِ الإسـلاميِّ العالميِّ بتقسـيمِ « تِركـةِ الرجُـلِ المريـضِ » قـد دخلَت ـ طوعًـا أو كرهًا ـ تحت « سياسـةِ القبضِ والنقضِ » المنصوصِ علَيها في فِقهِ علاماتِ الساعةِ .

لا أمل في نجاح البرامج المطروحة حاليا لإنقاذ الأُمَّة

ولا أملَ في كونِها قادرةً على إعادةِ ترتيبِ الأُمَّةِ الإسـلاميةِ والعربيةِ ـ كُليًّا ـ إلى حقيقةِ الديانةِ الشرعيةِ المُتكامِلةِ إطلاقًا ؛ وإنَّما وظيفتُها الموجَّهةُ عالميًا محصورةٌ في تحسـينِ فُرصِ الاستِقرارِ والاستِثمارِ، وهو مطلبٌ هامٌّ في المُجتمعِ ولكن معَ تفعيلِ الصِّراعِ الدينيِّ والحِزبيِّ السياسيِّ داخِلَ المُجتمعاتِ المُتناقِضةِ المُتعارِضةِ ؛ ليستـثمِرَها العدوُّ المُشـتركُ ساعةَ الحصادِ لمصلحتِه ، ولا أكثرَ مِن ذلِكَ ... فهل مِن مُتأمِّلٍ ؟!

فناءُ بعضِ الشُّعوبِ والقبائلِ

فناء بعض الشعوب علامة صغرى

تُشـيرُ أحاديثُ علاماتِ السـاعةِ الصغرى إلى إسـراعِ الهلاكِ في بعـضِ القبائلِ قبـلَ غيرِها مِن مُعاصريها ، ويكونُ السـببُ في ذلِكَ ما شـرحَته الأحاديثُ مُجملًا كالمُلـكِ أوِ الحميَّـةِ أوِ المُنافسـةِ ، وفُهِمَ مِن مُتابعـةِ الأحاديثِ المُتنوِّعـةِ أنَّ صِفةَ الهـلاكِ الشـامِلِ تكونُ بعـدَ مرحلةِ هدمِ الكعبةِ على يدِ الحبشـةِ في آخِـرِ الزمانِ ، ويُؤيِّدُ ذلِكَ حديثُ « يُبايعُ لِرَجُلٍ بَينَ الرُّكنِ والمقامِ ، وأوَّلُ مَن يستحِلُّ هذا البيتِ أهلُه ـ أي : ينتهِكوا حُرُماتِه ـ فإذا اسـتحلُّوه فلا تسـأَلْ عن هلكةِ العربِ ، ثُمَّ تجيءُ الحبشةُ ، فيُخرِّبونه خرابًا لا يعمُرُ بعدَه أبدًا ، وهمُ الذين يستخرِجونَ كنزَه »[1] .

طلب الملك والحمية سبب في فناء بعض الشعوب

وعـن طلحـةَ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ صلى علَيهِ وسـلم : « مِنَ

---

(١) مسند أحمد (٨١٢٩) .

اقتِرابِ الساعةِ هلاكُ العربِ ... » [١] .

وعـنِ ابـنِ عبَّـاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قـالَ : « أوَّلُ العربِ هـلاكًا قُريشٌ وربيعـةُ ، قالوا : وكيفَ؟ قالَ : أمَّا قُريشٌ فيُهلِكُها المُلكُ ، وأمَّا ربيعةُ فتُهلِكُها الحميَّةُ » [٢] .

وعن عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : إنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « أوَّلُ الناسِ هلاكًا قُريشٌ ، وأوَّلُ قُريشٍ هلاكًا أهلُ بيتي » [٣] .

وعـن أبـي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أوَّلُ الناسِ هـلاكًا قُريشٌ ، وأوَّلُ قُريشٍ هلاكًا أهلُ بيتي » [٤] .

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَت : دخلَ عليَّ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يقولُ : « أيا عائشةُ، قَومُكِ أسرعُ أُمَّتِي بي لِحاقًا » . قالَت : فلمَّا جلسَ قُلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، جعلني اللَّهُ فـداءَك ، لقـد دخلْتَ وأنت تقولُ كلامًا ذعرني فقـالَ : « وما هو ؟ » قالَتْ تزعُمُ أنَّ قَومِي أسرعُ أُمَّتِكَ بِك لِحاقًا ؟ قالَ : « نعم » . قالَت : وبِمَ ذاك ؟ قالَ : «تستحليهمُ المنايـا وتنفس علَيهم أُمَّتَهم » قالَـت : فقُلتُ فكيفَ الناسُ بعدَ ذلِكَ أو عِندَ ذلِكَ؟ قالَ : «دبى يأكُلُ شِـدادُه ضِعافَه حتَّى تقومَ علَيهِمُ السـاعةُ »[٥] ، والدبى : الجنادِبُ التي لم تنبُتْ أجنِحتُها .

---

(١) سنن الترمذي (٤٣٠٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٠٢٠).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٠٢٠).

(٤) الجامع الصغير (٢٨٠٥) .

(٥) مسند أحمد (٢٥٢٥٤) .

ظاهِرةُ تركِ الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ «رسميًا» وبقائه «شعبيًا»

ومِن ظواهِرِ علاماتِ السـاعةِ الصُّغرى تركُ الجِهادِ في سـبيلِ اللَّـهِ على صفتِه الشـرعيةِ رسـميًّا ، فلا تسـتقيمُ له دَولةٌ مِنَ الدُّولِ العربيةِ أوِ الإسـلاميةِ المُجزَّأةِ ، بل يُستقبَحُ أمرُه ، ويُستصغَرُ شأنُ الداعي له ، وتشـتغِلُ الشُّعوبُ بما هو أدنى مِن ذلِـكَ، تحقيقًـا لِما أخبرَ به ﷺ مِن قولِه : «إذا تبايعتُم بالعِينةِ ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ ، ورضِيتُـم بالزرعِ ، وتركتُم الجِهادَ ؛ سـلَّطَ اللَّهُ علَيكـم ذُلًّا لا ينزِعُه حتَّى ترجِعُوا إلى دينِكم» [1] .

ويعودُ تركُ فريضةِ الجِهادِ في هذه المراحِلِ لسببَين :

الأوَّلُ : انتِهاءُ العملِ بقرارِ الجِهادِ رسـميًّا بِسقُوطِ قرارِ الحُكمِ الإسلاميِّ الذاتيِّ واستِتباعِ القرارِ لحملةِ شُروطِه المُدَونمةِ .

الثاني : همينـةُ الكُفَّارِ بعدَ سُـقوطِ دَولةِ الخِلافةِ على قرارِ الحربِ وقرارِ السِّـلمِ والعملِ على صرفِ الأنظِمةِ العربيةِ والإسلاميةِ عنِ الجهادِ إلى سياسةِ الاستِسلامِ وقَبولِ التَّعايُشِ المُذِلِّ لِلمُسـلِمين بِسياسةِ الاسـتِعمار ثُمَّ الاستِهتارِ ثُمَّ الاستِثمارِ. وقـد برزَ هذا الأمـرُ واضِحًا وجليًّا في مراحِلِ التدرُّجِ السياسـيِّ الذي مرَّ بِالأنظِمةِ العربيـةِ والإسـلاميةِ خِلالَ مرحلـةِ التطبيعِ ومرحلـةِ غرسِ الكيـانِ الصهيونيِّ في أرضِ فِلسطينَ ، وقد كانَت بعضُ الأنظِمةِ العربيةِ والإسلاميةِ تدعو إلى الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ ضِدَّ الاحتِلالِ الصهيونيِّ ، بل وشاركَت جُيوشُها في المعارِكِ العسكريةِ ، ولكنَّهـا آلَـت فيما بعدُ إلـى الهزيمةِ والانكِسـارِ والخيانةِ ؛ نتيجةَ اختِـراقِ العدوِّ

(١) سنن أبي داود (٣٤٦٤) .

الكافِرِ مواقِعَ القرارِ فِيها ، ونتيجةَ المُلابساتِ والتسييسِ الاستِعماريِّ المُبرمَجِ .

وبقِيَ الجِهادُ الشعبيُّ القائمُ على صِفةِ الحزبيةِ السياسيةِ ضِدَّ قُوى الاستِعمارِ والصهيونيةِ ، كما هو في تحريرِ بعضِ البِلادِ العربيةِ مِنَ الاحتِلالِ إبانَ مرحلةِ الدُّهَيماءِ ، أو كما هو في فِلسطينَ إلى اليَومِ ضِدَّ اليهودِ المُحتلِّين ، أو كما هو في غيرِها مِن بِلادِ المُسلمين مُتَّخِذًا صِفةَ الصِّراعِ معَ الأنظِمةِ ، وتحتَ شِعاراتٍ مُتنوِّعةٍ ذاتِ صِبغةٍ دينيةٍ مُسَيَّسةٍ ، أو صِبغةٍ قَوميةٍ أو فئويةٍ أو حزبيةٍ تحريشيةٍ قائمةٍ على سياسةِ « فرِّقْ تسُدْ » .

ومعَ هذا وذاكَ فلا تخلو هذه الدعواتُ مِن أفرادٍ مُخلِصين ومُجاهِدين في سبيلِ اللَّهِ ، ولكنَّ الهيكلَ الإداريَّ الحِزبيَّ المُتَّخَذَ والأيديولوجياتِ المُتبعةَ في التنفيذِ تُبرِزُ حرجَ الربطِ بينَها وبينَ مفهومِ الجِهادِ الشرعيِّ الحامِلِ صِفةِ « الجِهادُ لِتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليا » ، واللَّهُ أعلمُ بِعبادِه ونيَّاتِهم .

نموذج آخر للجهاد.. الجهاد بالكلمة، وهو الذي دخلت به شعوب كاندنوسيا وسيلان وغيرها في الإسلام

أمَّا الجِهادُ في سبيلِ اللَّهِ بالحكمةِ والموعِظةِ الحسنةِ معَ تجنُّبِ الصِّراعِ الدمويِّ التحريشيِّ فهو دَيدنُ بعضِ الجماعاتِ الإسلاميةِ ، ولا زالَ هذا النموذجُ مُنتشِرًا مُنذُ عُهودِ الخِلافةِ إلى اليومِ ، ولا زالَ يؤدِّي دورَه الشرعيَّ الواجِبَ لإنقاذِ ما يمكِنُ إنقاذُه بِالحكمةِ ونشرِ العِلمِ في المساجِدِ والأربطةِ والزوايا والخلواتِ والمُدُنِ والقُرى ، ولها الدَّورُ الفاعِلُ في إدخالِ مئاتِ الآلافِ مِنَ الكُفَّارِ وعبدةِ الأوثانِ إلى الإسلامِ في العالمِ كُلِّه . ومِثالُها في أندونسيا وجُزُرِ الفِلبينِ وشرقِ إفريقيا والهندِ وسيلانَ وغيرِها مِنَ البِلادِ بارزٌ وواضِحٌ على مدى التاريخِ القريبِ والبعيدِ .

شعار هذا الجهاد «كلمة حق عند سلطان جائر»

وهذا النموذجُ مِنَ الجِهادِ بِالكلِمةِ يتَّخِذُ مِن حديث رسولِ اللَّهِ ﷺ شِعارًا عمليًّا:

« أفضلُ الجِهادِ في سـبيلِ اللّهِ كلمةُ حقٍّ عِندَ سُـلطانٍ جائرٍ » [1]، والسـلطانُ الجائرُ فـي أحدِ معانـي الحديثِ هو المرحلةُ الجائرةُ ، التي يتعطَّلُ فِيها الجِهادُ في سـبيلِ اللّـهِ على الوجهِ الشـرعي فيُسـتعاضُ عنه ولو إلـى حينٍ بالجِهـادِ بالكلِمةِ الطيبةِ ، وإليه يُشيرُ أيضًا حديثُ أبي جُحَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : «أقلُّ ما تُغلبون علَيهِ مِنَ الجِهادِ الجِهادُ بِأيديكم ، ثُمَّ الجِهادُ بألسِـنتِكم ، ثُـمَّ الجِهادُ بِقُلُوبكم ، فأيُّ قلبٍ لم يعرفِ المعروفَ ، ولم يُنكِرِ المُنكرَ ؛ جعلَ أعلاه أسفلَه» [2] .

وقد تعرَّضَ هذا النموذجُ مِنَ الجِهادِ في سـبيلِ اللّهِ بالكلِمةِ الطيبةِ والحكمةِ إلى القـذعِ والتقريـعِ والتبديعِ ، خُصوصًا فـي مرحلةِ الغُثائيةِ المُعاصِـرةِ ؛ نتيجةَ بعضِ مظاهِـرِ الإفـراطِ والتفريطِ والعاداتِ والعِباداتِ والاعتِقاداتِ ، التي شـابَت بعضُ المجموعـاتِ فـي عِلاقتِهـا بالأحياءِ والأمـواتِ ، مـعَ أنَّ الحلَّ الأمثـلَ لِلمُعالجةِ وإبقـاءِ دَورِ الكلِمـةِ الطيِّبةِ يقتضي مُعالجةَ الإفراطِ لدى دُعاةِ السـلامةِ والحِكمةِ ، ومُعالجـةَ ما يقابِلُه مِنَ التفريـطِ لدى المُنتقِدين والمُنازِعين لهم ؛ لِيُسـهِمَ الجميعُ في إنقاذِ ما يُمكِنُ إنقاذُه مِن عِلاقةِ الأُمَّةِ بالإسـلامِ ، وعِلاقةِ الإسـلامِ بالأُمَّةِ ؛ حتَّى تستعيدَ الأُمَّةُ فرضيةَ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ على الوجهِ الشرعيِّ المطلوبِ .

الطائفةُ المنصورةُ.. بقاءُ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ «حَصْرِيا» إلى يومِ القِيامةِ

الطائفة المنصورة علامة صغرى

ومِـنْ عَلَامَاتِ السـاعةِ الصُّغْـرَى بقاءُ الجهادِ، وقـد تعدَّدَتِ الرِّوايـاتُ الخاصَّةُ بِمفهومِ بقاءِ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ حصريًّا ، فمنها ما حملَ مفهومَ الجِهادِ بالمُقاتلةِ، ومِنهـا مـا حملَ معنى الجِهـادِ بالمُرابطةِ والثبـاتِ والالتِزامِ والأخـذِ بالديانةِ على

---

(١) سنن النسائي (٤٢٠٩).

(٢)مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٧٣٣) .

مدلولِ الأحاديثِ الجامِعةِ لِمفهومِ بقاءِ الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ ،ومِنها :

« لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتِي على الحقِّ منصورين »[1] .

أحاديث الطائفة المنصورة

وفي لفظٍ : « يُقاتِلونَ على الحقِّ ظاهِرينَ »[2] .

وفي لفظٍ آخَرَ : « حتَّى يُقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ »[3] .

وفي لفظٍ آخَرَ : « لن يبرحَ هذا الدينُ يُقاتَلُ علَيهِ عِصابةٌ مِنَ المُسلِمين حتَّى تقومَ الساعةُ »[4] .

وفي لفظٍ آخَرَ : « عِصابةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلون على أمرِ اللَّهِ قاهِرين لِعدوِّهم لا يضرُّهم مَن خالفَهم حتَّى تأتيَ الساعةُ وهم على ذلِكَ »[5] .

الإشارة إلى الإسلام ووجود الطائفة المنصورة بها

وفي لفظٍ : « يقذِفُ اللَّهُ بهم كُلَّ مقذفٍ ؛ حتَّى يُقاتِلوا فُصولَ الضلالةِ لا يضرُّهم مَن خالفَهم ، حتَّى يُقاتِلوا الأعورَ الدَّجَّالَ ، وكلُّهم أكثرُ أهلِ الشام »[6].

وفي لفظٍ : « لا تزالُ بِدِمشقَ عُصابةٌ يقاتِلون على الحقِّ حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وهم ظاهِرون »[7] .

وفي لفظٍ : قيلَ : يارسولَ اللَّهِ ، فأنَّى هُم ؟ قالَ : « بِبَيتِ المقدِسِ »[8] .

وعن سلمةَ بنِ نُفَيلٍ الكِنديِّ قالَ : كُنتُ جالِسًا عِندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ رجُلٌ

---

(١) سنن ابن ماجه (١٢).

(٢) صحيح مسلم (٤١٢).

(٣) سنن أبي داود (٢٤٨٦) .

(٤) صحيح مسلم (٥٠٦٢).

(٥) صحيح مسلم (٥٠٦٦).

(٦) تاريخ دمشق (١ : ٢٦٧).

(٧) تاريخ دمشق (١ : ٢٥٦).

(٨) الطبراني في الكبير (٧٦٤٣).

يـا رسـولَ اللَّـهِ أذالَ الناسُ الخَيلَ ووضعوا السِّـلاحَ ، وقالوا لا جِهـادَ قدْ وضعَتِ الحربُ أوزارَها ، فأقبلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بوجهِه ، وقالَ كذبُوا الآنَ الآنَ جاءَ القِتالُ ، ولا يزالُ مِن أُمَّتي أُمَّةٌ يُقاتِلون على الحقِّ ، ويُزِيغُ اللَّهُ لهم قُلُوبَ أقوامٍ ، ويرزقُهم مِنهـم حتَّى تَقُومَ السـاعةُ ، وحتَّى يأتيَ وعدُ اللَّـهِ والخَيلُ معقودٌ في نواصيها الخَيرُ إلـى يَـومِ القِيامةِ ، وهـو يُوحَى إليَّ أنِّي مقبوضٌ غيـرَ مُلبَّثٍ ، وأنتـم تتبِعوني أفنادًا يضـرِبُ بعضُكـم رِقابَ بَعضٍ ، وعُقرُ دارِ المؤمِنين الشـامُ »[1] . إسـنادُه صحيحٌ ، وفـي البابِ جُملةٌ مِنَ الأحاديثِ وكلُّها يُفيدُ بقاءَ الجِهادِ الشـرعيِّ في سـبيلِ اللَّهِ ، وخاصَّةً في الشـامِ وبيتِ المقدِسِ ، ومنه حديث عمرِو بنِ عبدِ اللَّهِ الحضرميِّ عن أبي أُمامةَ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ ظاهِرينَ لعدوِّهـم قاهِريـن لا يضُرُّهم مَن خالفَهم إلا ما أصابَهم مِن لَأْواءَ ، حتَّى يأتِيَهم أمرُ اللَّـهِ وهـم كذلِكَ قالوا يا رسـولَ اللَّهِ ، وأينَ هـم قالَ بِبَيتِ المقـدِسِ وأكنافِ بَيتِ المقدِسِ »[2].

الأحاديثُ الجامِعةُ لمفهومِ البقاءِ علىٰ الحقِّ دونَ ذكرِ الجِهادِ

« لا تـزالُ طائفـةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ منصوريـن ، لا يضُرُّهم مَن خالفَهم ، حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ »[3] .

وفي لفظٍ : « لا يزالُ أهلِ المغربِ مِن أُمَّتي ظاهِرين إلى أن تَقُومَ السَّاعَةُ»[4] .

---

(١) رواه النسائي (٣٥٧٦) .

(٢) مسند أحمد (٢٢٩٨٠) .

(٣) سنن ابن ماجه (١٢).

(٤) مسند أبي عوانة (٧٥١٠).

وفي لفظٍ : « منصورين لا يضُرُّهم خُذلانُ مَن خذلَهم حتَّى تقومَ الساعةُ »[1].

وفـي لفظٍ : « لا تقومُ السـاعةُ إلا وطائفةٌ مِـن أُمَّتي ظاهِرين على الناسِ لا يُبالون من خذلَهم ، ولا من نصرَهم »[2].

وفي لفظٍ : « لا تزالُ أُمَّتي قوَّامةً على أمرِ اللَّهِ »[3].

وفي لفظٍ : « عزيزةً على الدينِ إلى يومِ القيامةِ »[4] .

وفي لفظٍ : « لا يزالُ لِهذه الأمرِ عِصابةٌ على الحقِّ لا يضُرُّهم خِلافُ مَن خالفَهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وهم كذلِكَ »[5].

أحاديث الطائفة المنصورة تشير إلى بقاء الجهاد إلى يوم القيامة

وهذه الأحاديثُ بمُجملِها تشيرُ إلى وُجودِ الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ في أُمَّةِ الإسلامِ على وجهِه الصحيحِ ، وأنَّه لا ينقطِعُ أبدًا .

الطائفة المنصورة لا تنتمي إلى دَولة أو جماعة أو حزب

كما تُشـيرُ إلى التِزامِ الطائفةِ المنصورةِ منهجَ الدِّيانةِ الإسلاميةِ لا تحيدُ عنه أبدًا، ولكنَّـا عِندَ الإشـارةِ بهذه الأحاديـثِ لِلواقِعِ المُعاشِ فإنَّ الطائفـةَ المنصورةَ ـ كما يظهَـرُ ـ لا تنطـوي تحـتَ ظِلِّ سياسـةٍ مُعاصِرةٍ ولا نظـامٍ قائمٍ ولا حزبيـةٍ أو فِئويةٍ مُسَيَّسةٍ ، وإنَّما هم عِبادُ اللَّهِ الصابِرون الصالِحون في كُلِّ موطنٍ وأُمَّةٍ : لا تجمعُهم سياسـةٌ مُحدَّدةٌ ، ولا مذهبٌ مُعيَّنٌ ، ولا إطارٌ مُسـيَّسٌ ، ولا مُسـمًّى خاصٌّ ، أتقياءُ أخفيـاءُ يحفَظُ اللَّهُ بهم عِبادَه ، ويصونُ بهم ميراثَ النُّبوَّةِ حتَّى يقضيَ اللَّهُ أمرًا كانَ مفعولًا .

---

(١) صحيح ابن حبان (٦١).

(٢) سنن ابن ماجه (٩).

(٣) سنن ابن ماجه (٧).

(٤) جامع الأحاديث للسيوطي (١٦٣٧٥) ، وذكره الذهبي في السير (١٥: ٥٥٣) .

(٥) مسند أحمد (٨٤٩٧).

وإن بـرزَ أحدٌ مِنهم أو جماعةٌ بِمُسـمَّى الجِهادِ فعلامتُهم إِقامةُ الجِهادِ الشـرعيِّ على وجهِه الصحيحِ بعيدًا عن تسـييسِ التحوُّلاتِ والتكتُّلاتِ وسياسةِ المُنظماتِ والجماعاتِ المشبوهةِ المُختَرِقةِ.. واللَّهُ أعلمُ .

اختِفاءُ التعامُلِ بالنقدَين

ومِـنَ العلامـاتِ الصُّغـرى التـي تحدَّثَ عـن وُقوعِها ﷺ فـي الأُمَّةِ مـا يقعُ مِنَ (العبـثِ الاقتِصـاديِّ) بالنقدَيـن وتداوُلِهمـا ، وهمـا ـ أي : النقـدان ـ ممثـلان في (الذهبِ والفِضَّةِ) أساسُ التنميةِ المَاليَّةِ المُتداولةِ عبرَ التاريخِ الإنسانيِّ كُلِّه .

وقـد نَبَّهَتِ الأحاديـثُ على أهميتِهما ووُجودِهمـا ، وكانَا مُتمثِّلَيـن في (الدينارِ والدِّرهمِ) وضرورتِهما في فِقهِ المُعاملاتِ الشرعيةِ ، وشرَّعَتِ التعامُلَ بهما ، كما شـرَّعَت مبدأَ « الثمنيةِ » ، ونبَّهَت إلى شـرطِ قبضِ الثمنِ منهما وأهميتِه في صِحةِ العُقودِ ، فقد روى أحمدُ في مُسـندِه (١٦٥٦٩) : حدَّثَنا أبو بكرِ بنُ أبي مريمَ قالَ: كانَـت لمِقـدامِ بنِ معـدِي كرِبَ جاريةٌ تبيعُ اللبـنَ ، ويقبِضُ المِقـدامُ الثمنَ ، فقيلَ له: سُـبحانَ اللَّهِ! أتبيعُ اللبنَ وتقبِضُ الثمنَ ؟ فقالَ : نعم وما بأسٌ بِذلِكَ ، سـمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : ليأتِينَّ على الناسِ زمانٌ لا ينفعُ فيه إلا الدينارُ والدِّرهمُ[1] .

وفي « الكبيرِ » عن حبيبِ بنِ عُبيدٍ قالَ : رأيتُ المِقدامَ بنَ معدي كرِبَ في السُّوقِ وجاريـةٌ لـه تبيعُ لبنًا وهو جالِسٌ يقبِضُ الدراهِمَ ، فقيلَ له في ذلِكَ ، فقالَ سـمِعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « إذا كانَ آخِرُ الزمانِ لا بُدَّ لِلنَّاسِ فِيها مِنَ الدراهِمِ والدنانيرِ يُقيمُ الرجُلَ بِها دينَه ودُنياه »[2] .

---

(١) مسند أحمد (١٧٦٦٤) .

(٢) ~~الطبراني~~(١٧٤١٦) .

وفـي سـياقِ حديثِ ابنِ أبي مريمَ إشـارةٌ إلى هذه الأهميـةِ المُترتِّبةِ على الذهبِ والفِضَّـةِ ، ولذا فإننا نجدُ الدِّراسـاتِ في الاقتِصادِ الإسـلاميِّ تُشـدِّدُ على ضرورةِ إيجـادِ عُملـةٍ ذهبيـةٍ وفِضِّيةٍ ، وإعـادةِ النقدِ الأصلـيِّ للمُعاملاتِ كحـلٍّ نِهائيٍّ في التقابُضِ ، ولِتأصيلِ مبدأِ الثمنيةِ في الإسلامِ .

ثُمَّ نبَّهَتِ الأحاديثُ الكريمةُ إلى ما يقعُ مِن نقضٍ لهذا الأصلِ الإنسانيِّ العظيمِ[1] ، ومنـعِ اليهودِ والنصارى كافَّةَ الشُّـعوبِ مِنَ الوُصـولِ إلى هذا الأمرِ ، وهذا المنعُ في حقيقتِه نقضٌ لِلأصلِ النقديِّ في التعامُلِ ، فهو مِن نقضِ عُرى الإسلامِ ، وإلى مِثـلِ ذلِكَ يُشـيرُ حديثُ مُسـندِ أحمـدَ (٨٠٣٦) : حدَّثَنا أبو النضرِ حدَّثَنا إسـحاقُ بـنُ سـعيدٍ عن أبيه عن أبي هُرَيرةَ أنَّه كانَ يقولُ: كيفَ أنتـم إذا لم تجتبوا دِينارًا ولا دِرهمًا ؟ فقيلَ له : وهل ترى ذلِكَ كائنًا يا أبا هُرَيرةَ ؟ فقالَ : والذي نفسُ أبي هُرَيرةَ بيدِه ، عن قَولِ الصَّادقِ المصدوقِ . قالُوا : وعمَّ ذاكَ ؟ قالَ : تُنتهَكُ ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ رسـولِه ؛ فيشُـدُّ اللَّهُ قُلُوبَ أهلِ الذِّمَّةِ ؛ فيمنعون ما بأَيْديهم)[2] . وفي رواية زيادة: (والذي نفسُ أبي هُرَيرةَ بِيدِهِ لَيَكُونَنَّ) مرَّتَينِ[3] .

---

(١) ولِلمِقدامِ عِندَ الطبرانيِّ في الكبيرِ (١٧٤١٥) عنِ النبيِّ ﷺ : «يأتي على الناس زمان من لم يكن معه أصفر ولا أبيض لم يتهن بالعيش» .

وعـن جريـر قال لما رآني رسـول الله ﷺ لا أمسـك شـيئا إنما أنفقه ؛ قـال : « يا جريرُ ، علَيكَ أن تُمسِكَ مالَكَ ؛ فإنَّ لهذا الأمرِ مُدةً » . رواه الطبراني في الكبير (٢٣٧٠).

وفي المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسـقلاني (٤: ٤٤٠) قال مسـدد : حدثنا خالد بن عبدالله ، ثنا مالك ، عن يحيى بن سـعيد ، عن سـعيد بن المسـيب، قال : « قَطْعُ الدينارِ والدِّرهمِ مِنَ الفسادِ في الأرضِ » .

(٢) صحيح البخاري (٣١٨٠)

(٣) مسند أحمد (٨٦٠٩) .

ومِن أعاجِيبِ ما في هذا الحديثِ قولُه ﷺ : (فيمنعونَ ما بِأيديهم) ، والمقصودُ بِه كما يظهرُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ أنَّ كافَّةَ شُئونِ الاقتِصادِ وصكِّ العُملاتِ وتشريعِ قوانينِ النقدِ ونحوِ ذلِكَ يكونُ بأيديهم ، وهذا ما هو كائنٌ الآنَ[1] .

وهذا ما أشارَ إلَيه النصُّ النبويُّ بِوُضوحٍ ، وجاءَ تعليلُ ذلِكَ في حديثٍ ابنِ شيبةَ: حدَّثَنا خالدُ بن مُخلدٍ قالَ حدَّثَنا عليُّ بنُ صالِحٍ عن أبيه عن سعيدِ بن عمرٍو عن أبي حكيمٍ مولى مُحمَّدِ بن أُسامةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ : «كيف أنتم إذا لم يُجبْ لكم دينارٌ ولا دِرهمٌ ؟ » قالوا : ومتى يكونُ ذلِكَ ؟ قالَ : «إذا نقضتُم العهدَ شدَّدَ اللَّهُ

(١) ولعل في التكرار لقول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع القسم المغلظ: (والذي نفس أبي هريرة بيده ليكونن) مرتين إشارة لطيفة إلى ما حصل للفساد في الأرض بتغييب مقاييس (الذهب والفضة) من خلال التآمر على البشرية، فإن رجال المال المتنفذين في العالم أبعدوا مقياس الفضة في ١٨٦٠م ، وعمموه على العالم ، وكانت ضربة قوية للاقتصاد الإنساني، ثم ألغوا الغطاء الذهبي في ١٩٧٣ م بقرار من البنك وصندوق النقد الدوليين فتلاشت بقايا آثار المعيار النقدي تماما ، وفقهاؤنا يبحثون الآن عن مخارج ، وبعضهم يشرع الموجود رأفة بالناس واجتهادا منه ، ولذلك فقد انحصرت جهود كافة مؤسسات الاقتصاد الإسلامي اليوم فيما يسمى بالاقتصاد الجزئي، وأما الاقتصاد الكلي ونظام العملات فتعتذر عنه بأنه شأن الحكومات وأنه لا ناقة لها فيه ولا جمل.

وبقينا الآن نعيش مرحلة النقد الورقي ، ولعلها المرة الأولى ، والمرة الثانية تعد لها العدة الآن (النقد الإلكتروني) عندما تسحب الأوراق كلها ، وتتحول المعاملات النقدية إلى الآلة (العملة العالمية الموحدة ، البنك العالمي) .

وفيما يخص العرب في مجريات التحول النقدي نجد أن العملة الفضية أو الذهبية العربية قد ألغيت منذ منتصف القرن « الخمسينات » من أغلب الدول ، وكانت اليمن من آخر الدول العربية التي أبقت التعامل في كافة شؤونها بنقدي الذهب والفضة ، حيث سكت ورقتها مع مطلع الثورة في الستينات ، ووضعت للجميع العملة الورقية ، وفرضت عليهم فرضا ، وسار التعامل بها إلى اليوم ، وربما تأتي في المرحلة اللاحقة العملة العالمية الموحدة التي ستكون إلكترونية غير مرئية .

قُلُوبَ العدوِّ علَيكم فامتنعوا مِنكم» [1].

ولعلَّ المقصودَ هنا بنقضِ العهدِ مُخالفتِهم لِلشريعةِ في كافَّةِ شُؤُونِ الاقتِصادِ والارتباطِ بعجلةِ الاقتِصادِ العالميِّ كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧].

توقف الجزية والخراج / سقوط دولة الخلافة

ويُمْكِنُ تسميتُه (الضعفَ الاقتصاديَّ للدولةِ الإسلامية)، ويدل عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (منعتِ العراقُ..) وفي آخره: (وعدتُم من حيث بدأتُم) كررها ثلاثا [2]، ويحتمل أن تكون إشارةً إلى سقوطِ الخلافة الإسلامية وتشتُّتها إلى دويلات وانعدامِ بيتِ المال، ومنعِ البلدانِ التي كانتْ تُؤدِّي الخراجَ لدولةِ الخلافةِ خراجَها.

وفي (إكمالِ المعلم) (٨: ٤٥٧): قال القاضي عياض: وقولُه: (يوشكُ أهلُ العراقِ ألّا يُجبى إليهمْ قَفِيزٌ وَلَا دِرْهَمٌ) هو مثلُ قولِه: (مَنَعَتِ العِرَاقُ دِرْهَمَها... الحديث)، وقد فسَّره في الحديث أنّ معناه مَنْعَها الجزيةَ والخراجَ، لغلبةِ الرومِ والعجمِ على البلاد.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٤٢٦).

(٢) الحديث رواه أبوداود في سننه (٣٠٣٧) أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنَعَت العراقُ قَفِيزَها ودرهمها ومنعت الشام مُدْيَهَا ودينارها ومنعتْ مصرُ إِرْدَبَّهَا ودينارها، ثم عُدتُم من حيث بدأتُم» قالها زهيرٌ (وهو أحد رواة الحديث) ثلاث مرات: شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه.

وقـال الإمـامُ النوويُّ في شـرحِ مسـلمٍ (١٨ : ٥٣) عنـد أثرِ جابرٍ: (يُوشِـكُ أهلُ العراقِ ألا يُجبى إليهم)[1]: قد سبقَ شرحُه قبل هذا بأوراق. اهـ. يريد بذلك كلامه الذي تقدم عنه (١٨ : ٢٨) ، وفيهِ: إن معناه: أنّ العجمَ والرومَ يستولون على البلادِ في آخر الزمان، فيمنعون حصولَ ذلك للمسلمين، ثم قال فيه أيضا: وَذَكَرَ في منع الرومِ ذلك بالشامِ مِثْلَهُ، وهذا قد وجد في زمانِنا في العراق، والآن موجودٌ.

قال الشـيخ محمد تقي العثمانيُّ في (تكملة فتح الملهمِ بشـرح صحيح مسلم): (٦ : ٢٩٢) شارحاً حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (منعت العراق) : إنه إخبار بأن الكفار يسـيطرونَ فـي آخر الزمـان على معظـمِ البلاد ، فيمنعون مسـلمي هـذه البلاد من الحصـول علـى ما يحتاجونَ إليه من الأموالِ، ويؤيده ما سـيأتي في باب (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل) من حديث جابر قال: يُوشكُ أهلُ العراق ألّا يُجبى إليهم قفيزٌ ولا درهمٌ.

ومن المعاصرين قال الدكتورُ عمرُ الأشقرُ في كتابه (اليومُ الآخرُ القيامةُ الصغرى) تحت عنوان (توقُّف الجزية والخراج) ص١٥٤-١٥٥ : كانتِ الجزيةُ التي يَدفَعُها أهـلُ الذمـة في الدولة الإسـلامية والخراجُ الذي يدفعُه من يسـتغلُّ الأراضي التي فُتِحَتْ في الدولة الإسلامية من أهمِّ مصادرِ بيت مال المسلمين، وقد أخبرَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بأن ذلك سـيتوقفُ، وسـيفقدُ المسـلمون بذلك مورداً إسلامياً هاماً، ففي

---

(١) تمام الأثر في صحيح مسلم (٢٩١٢) : عن أبي نضرة قال : كنا عند جابر بن عبد الله فقال: يوشـك أهـل العراق أن لا يجبـى إليهم قفيز ولا درهـم ، قلنا: من أيـن ذاك ؟ قال: من قبل العجم ، يمنعون ذاك ، ثم قال: يوشـك أهل الشـام أن لا يجبى إليهم دينار ولا مدي، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل الروم ، ثم سكت هنيهة ، ثم قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ : يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيا لا يعده عددا.

صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنَعَتِ العراقُ دِرْهَمَهَا وقَفِيزَهَا، ومَنَعَتِ الشامُ مُدَّها ودِينَارَهَا ، ومَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا ودِينَارَهَا.. الحديث). اهـ. ثم قال : فقد استولى الرومُ ثم التتارُ على كثيرٍ من البلاد الإسلامية، وفي عصرِنا احتلَّ الكفارُ ديارَ الإسلام، وأذهبوا دولةَ الخلافةِ الإسلامية، وأبعدوا الشريعةَ الإسلاميةَ عن الحكمِ. اهـ. ثم ذكر حديثَ مسلمٍ وشرحَ النوويِّ له وقال: وكلُّ هـذه التعليلاتِ لسببِ منعِ تلك الإيراداتِ لخزينةِ الدولة الإسلامية التي كانت تقيمُ اقتصادَها على الشريعةِ الإسلاميةِ، فإلى الله المشتكى[1].

حُصولُ الزلازِلِ والخسفِ وهلاكِ بعض البِلادِ

ومِن علاماتِ الساعةِ الصُّغرى ، التي يأتي بعضُها خِلالَ مراحِلِ العلاماتِ الكُبرى الأخيرةِ ، التي مِنها هلاكُ بعضِ المُدُنِ والعواصِمِ ، ومِنها المدينةُ المُنوَّرةُ ، وهلاكُها كما يظهرُ مِن ظاهِرِ الأحاديثِ حُصولُ كارثةٍ طبيعيةٍ ـ كما تُسمَّى ـ أو عِدَّةِ كوارِثَ كالزلازِلِ التي تُفاجِئُ أهلَها ؛ فيضطرون إلى الخُروجِ مِنها ، وهي أحسنُ ما تكونُ ، وفِيها وردَت جُملةٌ مِنَ الأحاديثِ مِنها :

- « لتُتركَنَّ المدينةَ على أحسنِ ما كانَت ، حتَّى يجيءَ الكلبُ على ساريةٍ من سواري المسجِدِ أو على عُودٍ من أعوادِ المِنبرِ ، فقالوا : يا رسولَ اللَّهِ ، لمن تكونُ الثِّمارُ يومئذٍ ؟ قالَ : « لِلطَّيرِ والسِّباعِ »[2] .
- وروى الإمامُ أحمدُ عن مِحجَنِ بنِ الأذرعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إنَّه صعِدَ معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أُحدًا ، فأقبلَ على المدينةِ فقالَ : «ويلُ أُمِّها ، قريةٌ يدعها أهلُها كأينعِ ما

---

(١) العراق في أحاديث وآثار الفتن (١ :٢٥٤) ، تأليف مشهور حسن سلمان.
(٢) الموطأ (٣٣١٠).

تكـونُ»[١]. وفي لفظٍ: «ويلُ أُمِّكِ، يدعُكِ أهلُكِ وأنت خيرُ ما تكونين»[٢].
قالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ مَن يأكُلُ ثِمارُها؟ قالَ: «الطَّيرُ والسِّباعُ»[٣].

- وروى أحمدُ بِسـندٍ حسـنٍ عن عمرِ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ: «ليسـيرَنَّ راكِبٌ في جنبِ وادي المدينةِ فيقولَنَّ: لقد كانَ في هذه مرَّة حاضِرةٌ من المؤمنين كثيرٌ»[٤].

قُلـتُ واللَّهُ أعلمُ: ومِثـلُ هذه الظواهِرِ مربوطةٌ في جُملـةِ الأحاديثِ بما يقع فيه النـاسُ مِنَ الكبائرِ وفِعلِ المعاصـي مِنَ الظُلمِ والفُحـشِ وأكلِ الرِّبا والقتلِ وغيرِه، وقـد عرفَ العالمُ الإنسـانيُّ والعالمُ العربيُّ والإسـلاميُّ عبرَ الأزمنـةِ المُتلاحِقةِ مِن هذه الرجفاتِ والزلازلِ الشـيءَ الكثيرَ، ومِنها البراكينُ التي تنفجِرُ بَينَ الحينِ والآخرِ، ولكنَّها في علاماتِ الساعةِ مقرونةٌ في عالمِنا العربيِّ والإسلاميِّ بِظُهورِ المعاصـي واستِخفافِ الشُّـعوبِ بِالديانةِ والأمانـةِ، وإلى ذلِكَ تُشيرُ الأحاديثَ كقَولِـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في رِوايةِ البُخاريِّ: «وحتى يُقبَـضَ العِلمُ، وتكثُرَ الزلازِلُ، ويتقاربَ الزمانُ، وتظهرَ الفِتَنُ، ويكثُرَ الهَرْجُ، وهو القتلُ»[٥].

قالَ الحافِظُ الغماريُّ في «مُطابقةِ الاختراعاتِ العصريةِ» (ص١١١) بعدَ إيرادِه هذا الحديثِ: وقد وردَ أن سببَ كثرةِ الزلازِلِ في الأرضِ هو الرِّبا وكثرةُ المُعاملةِ بِهِ، وأكلُه».

---

(١) مسند أحمد (٢٠٨٨٣).
(٢) الطبراني في الكبير (١٧٤٦٣).
(٣) مسند أحمد (٢٠٨٨٣).
(٤) مسند أحمد (١٥٠٥٥).
(٥) صحيح البخاري (١٠٣٦).

وقد سجَّلَت أجهِزةُ الأرصادِ في جزيرةِ العربِ عُمومًا جُزءًا مِن سلسلةِ الزلازِلِ والرجفاتِ عبرَ تاريخِنا المُعاصِرِ ، رُبَّما كانَ من آخِرِها زِلازلٌ حصلَت في منطقةِ العيسِ قريبًا مِنَ المدينةِ المُنوَّرةِ خِلالَ شهرِ جُمادى الأوَّلِ ١٤٣٠هـ ، ويبدو واللَّهُ أعلمُ أنَّ التفسيرَ النظريَّ المُتحدَّثَ بِه في أجهزةِ الإعلامِ هو كونُ هذه المناطِقِ تتأثرُ بالانصِداعاتِ الجيولوجيةِ الكائنةِ تحتَ قِشرةِ الأرضِ والمُمتدةِ على مسافاتٍ كبيرةٍ مِن سلسلةِ الصدعِ الكبيرِ ، الذي سبقَ أن تكوَّنَت منه فجواتُ البحرِ الأحمرِ وما حولَها في سابِقِ الزمانِ ، وأنَّ هذه الزلازلَ استمرارٌ طبيعيٌّ لِهذه الظاهِرةِ .

إذن فلا يُستبعَدُ أنَّ الذي أشارَ إلَيه ﷺ مِن تركِ المدينةِ وهي يانعةُ الثِّمارِ حُصولُ شيءٍ من هذه الانصِداعاتِ في آخِرِ الزمانِ بما يُؤدِّي إلى خُروجِ أهلِها مِنها ، واللَّهُ أعلمُ .

وفي حديثٍ ذكرَه الحافِظُ في « فتحِ الباري » (١٦ : ١٠٤) قالَ : (تنبيه) أنكرَ ابنُ عُمرَ على أبي هُريرةَ تعبيرَه في هذا الحديثِ بِقولِه : « خيرُ ما كانَت » وقالَ : إِنَّ الصوابَ « أعمرُ ما كانَت » ، أخرجَ ذلِكَ عُمرُ بنُ شَبَّةَ في « أخبارِ المدينةِ » مِن طريقِ مسادِقِ بنِ عمرٍو أنَّه كانَ جالِسًا عِندَ ابنِ عُمرَ فجاءَ أبو هُريرةَ فقالَ له : لم تَرُدَّ عليَّ حديثي ؟ فواللَّهِ لقد كُنتُ أنا وأنتَ في بَيتٍ حتَّى قالَ النبيُّ ﷺ : « يخرُجُ مِنها أهلُها خيرُ ما كانَت » فقالَ ابنُ عُمرَ : أجل ، ولكن لم يقُلْ : « خيرُ ما كانَت» ، إنَّما قالَ : « أعمرُ ما كانَت» . ولو قالَ : «خيرُ ما كانَت» لكانَ ذلِكَ وهو حيٌّ هو وأصحابُه ، فقالَ أبو هُريرةَ : صدقْتَ ، والذي نفسي بيدِه . اهـ . وروى مُسلِمٌ في حديثِ حُذَيفةَ أنَّه لمَّا سأَلَ النبيَّ ﷺ عمَّن يخرُجُ أهلُ المدينةِ مِنَ المدينةِ ، ولِعُمرَ بنِ شبَّةَ مِن حديثِ أبي هُريرةَ قيل : يا أبا هُريرةَ ، مَن يُخرِجُهم ؟ قالَ : أُمراءُ

السُّوءِ[1].

وأعجبُ ما في الأمرِ قَولُ حُذَيفةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ وهو فقيهُ التحوُّلاتِ وأمينُ سِرِّ رسولِ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في هذا العِلمِ ـ فيما رواه أحمدُ في مُسندِه عن عبدِاللَّهِ بنِ يزيدَ عن حُذيفةَ أنَّه قالَ : أخبرني رسولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بما هو كائنٌ إلى أن تقومَ الساعةُ ، فما مِن شيءٍ إلَّا قد سألتُه ، إلَّا أني لم أسالْه ما يُخرِجُ أهلَ المدينةِ مِنَ المدينةِ[2].

قالَ الإمامُ النوويُّ في شرحِ مسلمٍ[3] عند قولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ عن المدينةِ « لَيَتْرُكُنَّهَا أَهْلُها عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ مُذَلَّلَةً لِلْعَوافِي » : يعني السباع والطير ، وفي الرواية الثانية: « يَتْرُكُونَ المَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ لا يَغْشَاهَا إِلّا العَوَافِي » ، يريدُ : عَوَافِي السِّباعِ والطَّيْرِ ، ثم يَخْرُجُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ المدينةَ يَنْعِقَانِ بعُنُقَيْهما فيَجِدَانِها وَحْشاً ، حَتّى إذا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ خَرَّا على وُجُوهِهِما) .

أما (العوافي) فقد فَسَّرَها في الحديثِ بالسِّباعِ والطَّيْرِ ، وهو صحيحٌ في اللغةِ ، مأخوذٌ من عفوَتُه : إذا أَتَيْتُهُ تَطْلُبُ معروفَه ، وأما معنى الحديثِ الظاهرُ المختارُ: أنَّ هذا التركَ للمدينةِ يكونُ في آخرِ الزمان ، عند قيامِ الساعة ، وتُوَضِّحُهُ قِصَّةُ الراعيينِ من مُزَيْنَةَ ، فإِنَّهُما يَخِرّانِ على وُجُوهِهِما حِينَ تُدْرِكُهُما الساعةُ ، وهما آخِرُ مَن يُحْشَرُ كما ثَبَتَ في صحيحِ البخاريِّ ، فهذا هو الظاهرُ المختارُ .

وقالَ القاضي عِياضٌ: هذا ما جَرَى في العَصْرِ الأَوَّلِ وَانْقَضَى ، وقال: وَهَذا مِنْ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ، فَقَدْ تُرِكَتِ المَدِينَةُ على أَحْسَنِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ حِينَ انْتَقَلَتِ

(١) فتح الباري (٤: ٩١) .
(٢) صحيح مسلم (٧٤٤٧).
(٣) (٩: ١٥٩) .

الخلافـةُ منها إلى الشـامِ والعراقِ ، وذلك الوقتُ أَحْسَـنُ ما كانـتِ الدينُ والدنيا ، أمّـا الدينُ فلِكَثْرةِ العلماءِ وكَمَالِهِم ، وأَمّا الدنيا فلِعِمَارَتِها وغِرَاسِـها واتِّسَـاعِ حالِ أهلِهـا، قـال : وذَكَرَ الأخبارِيُّون في بعضِ الفتنِ التي جَـرَتْ بالمدينةِ وخافَ أهلُها أنّه رَحَلَ عنها أكثرُ الناسِ وبقيتْ ثمارُها أو أكثرُها للعوافي ، وَخَلَتْ مُدَّةً ثُمّ تَرَاجَعَ النـاسُ إليها ، قـالَ: وحالُها اليومَ قريبٌ مِن هذا ، وقَدْ خَرِبَـتْ أَطْرَافُها.. هذا كلامُ القاضي والله أعلم[1] .

ولا زالَ فـي مدلولاتِ العلاماتِ الصُّغرى عشـراتُ النمـاذِجِ والصُّورِ وربَّما لا يتَّسِعُ المجالُ لِذكرِها بِالتفصيلِ ، ولِهذا فقد جمعناها على صِفةِ بيانٍ عامٍّ لِتعدادِها وأسمائها ، وخاصَّةً أنَّها واسعِةُ المدى والأطرافِ الزمنيةِ ، فهي تبدأُ مِن قبلِ البعثةِ المُحمَّديةِ وتنتهي بِالنفخِ في الصُّورِ ، كما سيأتي في الفصلِ اللاحقِ إجمالًا ، وقد قامَ بعضُ الباحثين بِتفصيلِها في ثنايا الكُتُبِ والمؤلَّفاتِ كالبرزنجيِّ في «الإشاعةِ» ، وبوَّبَهـا الباحِـثُ يوسُـفُ الوابِلُ في كِتابِه « أشـراطُ السـاعةِ » تبويبًـا مُتداخِلًا معَ العلاماتِ الوُسطى .

قِرَاءَةُ مَا اكْتُتِبَ مِنْ سِوَىٰ كِتَابِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

ومن علاماتِ السـاعةِ الصغرى تِلَاوَةُ كتابٍ يُسَـمَّى (المَثْنَـاةَ) بَدِيلاً عَنِ القُرْآنِ، وإلـى ذلـكَ أَشَـارَ حَدِيـثُ عبداللهِ بـنِ عمرِو بـن العاصِ حِينَمـا كانَ يُحَـدِّثُ في المسـجدِ ويقولُ: (إنَّ مِنْ أشـراطِ الساعةِ أن يُبْسَـطَ القولُ ويُخْزَنَ الفعلُ ، وإنّ من أشـراطِ الساعةِ أن تُرْفَعَ الأشـرارُ وتُوضَعَ الأخيارُ ، وإن من أشراط الساعة أن تُقْرَأَ المَثْنَـاةُ علـى رُؤُوسِ المَـلَإِ لا تُغَيَّرُ » . قيل : وما المثناة ؟ فقال : « ما اسْـتُكْتِبَ من

---

(١) شرح النووي على مسلم (٩: ١٥٩) .

غيرِ كتابِ اللهِ) . قيل : يا أبا عبد الرحمن ، وكيف بما جاء من حديث رسـول الله ﷺ . فقال : (ما أَخَذْتُمُوه عمَّن تَأْمَنُونَهُ على نفسِه ودينِه فاعْقِلُوهُ ، وعليكمْ بالقرآنِ فتعَلَّمُـوهُ وعَلِّمُـوهُ أَبْنَاءَكُمْ، فإِنَّكُمْ عنه تُسـألون ، وبه تُجْزَوْنَ ، وكفى به واعظاً لمن كان يَعْقِلُ).

وفي (شـعب الإيمان) للبيهقـي (٤٩٨١) : قال أبوعبيد : سـألتُ رجلاً من أهل العلـمِ بالكتـب الأولى قد عَرَفَها وَقَرَأَها عَنِ المَثْناةِ فقال : إِنَّ الأحبارَ والرهبانَ من بني إسرائيل بعدَ موسى وضعوا كتاباً فيما بينهم على ما أَرَادُوا بَيْنَهُمْ مِن غيرِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فسَـمَّوْهُ المَثْنَاةَ، كأَنَّهم يعني أَنَّهُمْ أَدْخَلُوا فيه ما شـاؤُوا، وحَرَّفُوا فيه مـا شـاؤُوا على خلاف كتابِ اللهِ تبـاركَ وتعالى .اهـ. قال أبوعبيـدٍ : فبهذا عرفتُ تأويلَ حديثِ عبدِاللهِ بنِ عمرٍو أنَّه إنما كَرِهَ الأخذَ عن أهلِ الكتابِ لذلك المعنى ، وقد كانَ عندَهُ كُتُبٌ وقعتْ يومَ اليرموكِ فأظنُّه قالَ هذا لمعرفتِه بما فيها . اهـ[1].

وهذا يشـيرُ إلـى خطورةِ الـدورِ اليهوديِّ فـي العالمِ فـي فرضِه لعقائـدِه الزائغةِ

---

(١) وانظر (غريب الحديث) لأبي عبيد (ج ٤ / ص ٢٨٢) .

والجديـر بالذكر أن في بعض المذاهب نصوص غالية شـاذة تطعن فـي كتاب الله الذي يقـرؤه المسـلمون اليـوم، وأنه سـيحصل فـي آخر الزمـان تصحيـح ـ والعياذ باللـه ـ لهذا المصحف على يد غير العرب ، وجاء في بعضها لفظة (المثاني) و(المثال) و(المستأنف). ومن ذلك : كأني بشيعة علي في أيديهم (المثاني) يعلمون الناس (المستأنف) ، وفي رواية أخرى عنهم : (كيف أنتم لو ضرب أصحاب القائم (عليه السـلام) الفسـاطيط في مسجد كوفان ، ثم يخرج إليهم (المثال المسـتأنف) أمر جديد على العرب شـديد) . وفي رواية : (كأني بالعجم فساطيطهم في مسجد الكوفة يعلمون الناس القرآن كما أنزل ، فقلت: يا أمير المؤمنين أو ليس هو كما أنزل ؟ فقال: لا ، محي منه سـبعون من قريش بأسـمائهم وأسماء آبائهم ، وما ترك أبو لهب إلا إزراء على رسول الله ﷺ لأنه عمه).

على الإنسـانية، حيثُ سمّى اليهودُ تفسـيرَ التوراةِ الذي اختلقُوهُ ووَضَعُوهُ من عندِ أنفسِهم (التلمود) ، وسَمَّوا مَتْنَه (المشناة) وشرحَه (جمارا) ، وهـم يُقَدِّسُونَها غايةَ التقديس، تقول (الموسـوعة الميسـرة في الأديان والمذاهب والملل المعاصرة): التلمودُ: هو رواياتٌ شـفويةٌ تناقلها الحاخامـاتُ ، حتى جَمَعَها الحاخامُ يوضاس سنة ١٥٠م في كتاب أسماهُ (المشناة) ، أي: الشريعة المكررة لها في توراة موسى كالإيضاح والتفسـير، وقد أتم الراباي يهوذا سـنة ٢١٦م تدوين زيادات وروايات شـفوية. وقـد تم شـرح هذه المشـناة فـي كتاب سـمي (جمـارا)، ومن (المشـنا) و(الجمـارا) يتكون التلمود، ويحتل التلمود عند اليهود منزلة مهمة جدًّا تزيد على منزلة التوراة [١].

وقـد بَلَغَنَـا ـ وتَأَكَّدْنا من ذلك ـ أن قرآناً سُـمِّيَ (بالفرقان الحـق) وَزَّعَتْهُ جماعةٌ مجهولـةٌ في بعضِ بلادِ العربِ وهو يحملُ عباراتٍ وجملاً مخالفةً لكتابِ اللهِ عزَّ وجـلَّ وتَمَّتْ صياغتُه بطريقةٍ وضعيّةٍ واضحةٍ يُقصدُ بها إيجادُ التضاربِ مع مضيِّ الزمـنِ بين الأجيالِ الحائـرةِ، فيأتي زمنٌ لا يدري القارئُ أيُّ المصحفينِ على حقٍّ فيتركُ الناسُ القرآنَ لشكِّهم فيهِ.

---

(١) الموسوعة الميسرة ص٥٩ .

عرضٌ عامٌّ لِبقيَّةِ العَلاماتِ الصُّغرىٰ

- ذَهابُ الصالِحين
- ارتفاعُ الأسافلِ
- ظُهورُ الرُّوَيبِضةِ
- التِماسُ العِلمِ عِندَ الأصاغِرِ
- صدقُ رؤيا المؤمِنِ
- كثرةُ الكِتابةِ وانتِشارِها « الصحافةِ ودُور النشرِ »
- التهاوُنُ بِالسُّنَنِ
- انتِفاخُ الأهِلَّةِ
- كثرةُ الكذِبِ وبُلوغُه الآفاقَ عبرَ الوسائلِ الإعلاميةِ
- ارتِفاعُ الأُلفةِ مِنَ الناسِ
- إذا لم يأمَنْ الرجُلُ جليسَه
- التحيةُ لِلمَعرِفةِ
- انتِشارُ شَهادةِ الزُّورِ
- كثرةُ النِّساءِ
- ظاهِرةُ مَوتِ الفجأةِ
- وُقوعُ التناكُرِ والجفاءِ
- عَودَةُ الجزيرةِ مُروجًا وأنهارًا
- كثرةُ المطرِ وقِلَّةُ النباتِ
- كلامُ السِّباعِ والجماداتِ

- تمنِّي المؤمِنِ لِلمَوتِ مِن شِدَّةِ البِلاءِ
- كثرةُ الرُّومِ وقِتالِهم المُسلِمين .
- التدافُعُ على الإمامةِ في المساجِدِ ، وفيه حديثُ : « إنَّ مِن أشراطِ الساعةِ أن يتدافَعَ أهلُ المسجِدِ لا يجِدونَ إمامًا يُصلِّي بهم »[1].
- غُربةُ الإسلامِ .
- ذَهابُ الخُشوعِ مِنَ الناسِ .
- كثرةُ الذين لا يعرِفون معروفًا ولا يُنكِرون مُنكرًا .
- كثرةُ القُرَّاءِ والخُطباءِ وقِلةُ الفُقهاءِ .
- تعلُّمُ العِلمِ لِغَيرِ الدينِ .
- القُضاةُ الخونةُ والفُقهاءُ الكذَّابون (الكَذَبةُ) والقُرَّاءُ الفسقةُ .
- ظُهورُ نارِ الحِجازِ
- مُشاركةُ المرأةِ لِلرجُلِ في التِّجارةِ
- استِبدال التلاعُنِ بالسلامِ .
- تشبُّهُ الرِّجالِ بِالنِّساءِ والنساءِ بِالرِّجالِ .
- طُغيانُ النِّساءِ وفِسقُ الشبابِ .
- التغايُرُ على الغِلمانِ .
- زخرفةُ المساجِدِ وتعليةُ المنابِرِ .
- ذَهابُ ماءِ الفُراتِ وظُهورِ كنزِ الذهبِ .

---

(١) مسند أحمد (٢٧٨٩٨)، قلت: وقد حصل مثل هذا في بعض بلاد اليمن ـ إبان فترة الحكم الشيوعي ـ حيث انعدم في بعض القرى من يؤم الناس للصلوات وكذلك لصلاة الجنازة . وصدق رسول الله ﷺ .

- كثرةُ الشُّحِ
- ظهورُ النِّساءِ الكاسياتِ العارياتِ

وفي السُّنَنِ والمسانيدِ وغيرِها مِن كُتُبِ الحديثِ عشراتُ الأحاديثِ الخاصَّةِ بِالعلاماتِ الأُخرى التي لم يتَّسِعُ المجالُ لِذكرِها .

التسلسُلُ الزمنيُّ الشرعيُّ الجامِعُ لِسَيرِ العلاماتِ والأماراتِ إلىٰ قِيامِ الساعةِ

- المرحلةُ النَّبوِيَّةُ .
- بِشاراتُ الكُتُبِ السماويةِ لِلأُممِ بِظُهورِ الرِّسالةِ الخاتمةِ .
- ميلادُه ﷺ وما برزَ فيه مِنَ العلاماتِ .
- نشأتُه ﷺ وما رافقَها مِنَ الآياتِ البيِّناتِ .
- بعثتُه ﷺ .
- وفاتُه ﷺ .
- مرحلةُ الخِلافةِ الراشِدةِ ثلاثون عامًا .
- مرحلةُ المُلكِ العضوضِ (الأمويةِ – العبَّاسيةِ)[1] .
- مرحلةُ الدوَيلاتِ.. التداعي .
- مرحلةُ الغُثاءِ والوهنِ ونزعُ المهابةِ .
- مرحلةُ الاستِتباعِ .
- الاستِعمارُ – الاستِثمارُ – الاستِهتارُ .
- العِلمانيةُ – العلمنةُ – العَولمةُ .
- مرحلةُ الاستِنفارِ « يقظةُ الشُّعوبِ » مِن نِهايةِ الفِتنةِ الرابعةِ إلى أواسطِ المرحلةِ السُّفيانيةِ .
- مرحلةُ الاستِقرارِ « المهديَّةُ » .

---

(١) وتنقسم المرحلة بعمومها إلى أقسام كما جاء الحديث : « بدأَ هذا الأمرُ نُبوَّةً ورحمةً ، ثُمَّ خِلافةً ورحمةً ، ثُمَّ مُلكًا عضوضًا ، ثُمَّ عُتوًّا وجبريةً » . اهـ ص٣٦٤ الإشاعة .

- مرحلةُ الدَّجَّالِ « الدَّجَّاليةُ » .
- مرحلةُ عيسـى بنِ مريـمَ « المرحلةُ النِّهائيـةِ بَينَ الشُّـعوبِ ، ووحدةِ الأديانِ تحتَ هَيمنةِ الإسلامِ » « المرحلةُ العيسويةُ » .
- مرحلةُ الاجتِياحِ « بدءُ الانهيارِ » « اليأجوجيةُ » .
- مرحلةُ الشِّركِ وعبادةِ الأصنامِ « اللادِيانةُ » .
- تتابُعُ الآياتِ والعلاماتِ « مرحلةُ اليأسِ من قَبولِ التَّوبةِ » « الدابةُ ، الدُخانُ، الريحُ القابِضةُ ، طُلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها »[1] .
- نِهايةُ الكونِ الإنسانيِّ « النفخُ في الصورِ » .

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال « « خروج الآيات بعضها على أثر بعض ، يتابعن كما تتابع الخرز في النظام . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « الآيات خرزات منظومات في سلك فان يقطع السلك يتبع بعضها البعض.

ما بعدَ الفِتنةِ الرابِعةِ.. مرحلةُ الاستِنفارِ

اختلفَتِ الإشاراتُ النَّبوِيَّةُ في تحديدِ المُدةِ الزمنيةِ التي تمتدُّ فِيها مرحلةُ الفِتنةُ الرابعةُ، ولِأنَّنا قد أشرْنا سلفًا بِعدمِ انشغالِنا بِالزمنِ وتحديدِه، ولا بِالأفرادِ والشُّخوصِ وذِكرِهم؛ فإنَّنا نُلاحِقُ المراحلَ مِن خِلالِ الاستِقراءِ العامِّ عنِ التحوُّلاتِ، ومِنَ الاستِقراءِ العامِّ في طولِ هذه المرحلةِ استِفحالُ المسألةِ الاقتِصاديةِ، وزيادةُ الغلاءِ، وارتِفاعُ الأسعارِ، واضطرابُ العُملاتِ والمواردِ، واتِّساعُ مبدأِ «الفوضى الخلَّاقةِ» التي تدفعُ بها قُوى الشرِّ في العالمِ لإعادةِ السيطرةِ السياسيةِ والاقتِصاديةِ على العالمِ، مِمَّا يترتَّبُ علَيهِ دُخولُ الأُمَّةِ إلى مرحلةِ الاستِنفارِ، وهي المرحلةُ التي تنكشِفُ فِيها أوراقُ الدجلِ والدجاجلةِ، وتُعرَفُ حقيقةُ المؤامراتِ التي تُحاكُ ضِدَّ الشُّعوبِ المُسلمةِ وضِدَّ الإنسانيةِ بِعُمومِها. ولكن دونَ قُدرةِ الشُّعوبِ على التغييرِ أوِ النُّهوضِ المُباشِرِ لِضعفِها الدينيِّ وضعفِها الاقتِصاديِّ واختِلافِها السياسيِّ والاجتِماعيِّ، واختِلافِ المُسلِمين المعنيِّين بِالأمرِ فيما بَينَهم على المذاهِبِ والجماعاتِ والأحزابِ والرؤى المؤديةِ إلى الفشلِ والحَيرةِ[1].

فشل الاقتصاد وامتداد سياسة التجويع والتطبيع والتشريك والتبديع

---

(١) ويليق بنا هنا ونحن نقرر هذه المرحلة استنادا على ما فهم من استقراء الأحاديث فإننا نشير إلى ضرورة المراجعة الملحة في داخل الخيمة الإسلامية، وخصوصا بين عناصر الديانة المتخذة صفة الصراع والتحريش حول المعتقدات والعادات وبعض وسائل العبادات أو التحريش السياسي بين الأنظمة والأحزاب المختلفة أن تعي الأمر وتنظر للمسألة بحسن تبصر وتؤدة وخصوصا أن الفشل المشترك قد صار مظهر الجميع.

فالجميع ـ بشهادة من لا ينطق عن الهوى ـ غثاء في غثاء، ولا يخرج من هذا المعنى إلا العباد الزهاد المنقطعون لله بعيدا عن طرفي الإفراط والتفريط المحتدم، وأما ركام

الاصطدام المباشر بَينَ الشعوب وروّاد الفوضى الخلاقة

وفِيها يبدأُ نوعٌ مِنَ الاصطدامِ المُباشِرِ بَينَ الشُّعوبِ وبَينَ المُستثمِرِ الكافِرِ على صِفةِ الصِّراعِ على قضاياها المصيريةِ وعلى مكاسبِ الحياةِ ومواردِها وثرواتِها، وفِيها يُحسرُ الفُراتُ عن جبلٍ مِن ذهبٍ يقتتِلُ علَيهِ مِن كُلِّ فئةٍ تسعةٌ وتسعون... قالَ ﷺ: «يُحسرُ الفُراتُ عن كنزٍ فإن أدركتَه فلا تأخُذْ منه شَيئًا»[1].

وفي أُخرياتِ هذه المرحلةِ تبدأُ المرحلةُ السُّفيانيةُ الأولى ثُمَّ الثانيةُ، وفي بعضِ الرِّواياتِ مرحلةٌ ثالِثةٌ. واللَّهُ أعلمُ.

المرحلةُ السُّفيانيةُ

المرحلة السفيانية حروب وفتن ودماء

مُجملُ التعريفِ بها أنَّها مرحلةٌ مُضطرِبةٌ بِالحُروبِ والفِتنِ في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ، ويُشيرُ إلَيها ما أخرجَه ابنُ عساكِرَ في تاريخِه عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلون على بابِ بيتِ المقدِسِ وما حولَها، وعلى أبوابِ إنطاكيةَ وما حولَها، وعلى أبوابِ دِمشقَ وما حولَها، وعلى أبوابِ الطالقان وما حولَها، ظاهِرينَ على الحقِّ لا يسألون مَن خذلَهم ولا من نصرَهم؛ حتَّى يُخرِجَ اللَّهُ كنزَه مِنَ الطالقان فيُحيي بهم دينَه كما أُميت مِن قبلِ»[2].

والسُّفيانيُّ حاكِمٌ بطّاشٌ كما وردَ في الحديثِ عن صراحِ بنِ أرطأةَ قالَ: يقتُلُ

الأنظمة والمؤسسات والأكاديميات فلست أفشي سرا إذا قلت: إن الجميع يسيرون ضمن الاتجاه الإجباري على طريق الضب على غير ضابط شرعي ولا رادع طبعي.

ولأننا جميعا أمام مرحلة الاستنفار فلا بد لنا من فهم «المعنى والمقصد»؛ لتجتمع قلوبنا وعقولنا على كلمة سواء ـ ولو من بعض الوجوه على القواسم المشتركة ـ ونرص صفوفنا أمام العدو المشترك... فلعل وعسى.

(١) الفتن لنعيم بن حماد (١٣٥١).

(٢) تاريخ دمشق (١: ٢٥٧).

السُّفيانيُّ كُلَّ مَن عصاه ، وينشُرُهم بِالمناشيرِ ، ويطبُخُهم بِالقدورِ ستةَ أشهُرٍ . وقالَ يلتقي بِالمشـرقين والمغربين[1] ، وفي رِوايةٍ : « السُّـفيانيُّ شـرُّ ملِكٍ ، يقتُلُ العُلماءَ وأهلَ الفضلِ ، ويُفنيهم ويستعينُ بهم فمن أبى علَيهِ قتلَه »[2] .

السفياني يقتل العلماء أو يستفيد مِنهم في تنفيذ سياسته

تكـونُ علامـةٌ في صفـرٍ ، ويبتدئُ نَجمٌ لـه ذنابٌ ، وإلَيه يُشـيرُ حديـثُ خالِدِ بنِ معدانِ: « إنَّه سـتبدو آيةُ عمودٍ مكانَ نارٍ يطلُعُ مِن قِبلِ المشـرِقِ ، يراه أهلُ الأرضِ كُلُّهم ، فمن أدركَ ذلِكَ فليُعِدَّ لِأهلِه طعامَ سنةٍ »[3] . وعنه أيضًا : « إذا رأيتُم عمودًا مِن نارٍ قِبلَ المشـرِقِ في شـهرِ رمضانَ في السـماءِ فأعِدُّوا مِنَ الطعامِ ما اسـتطعتُم فإنها سنةُ جوعٍ ... »[4] .

علامات كونية وظواهر مناخية

ورُبَّما يكونُ المقصودُ مِن « عمودِ النَّارِ » في بعضِ المعاني أنَّه انفِجارٌ في كَوكبٍ أو نَجمٍ يظلُّ مُشِعًّا نارًا مُدَّةً طويلةً فيراه أهلُ الأرضِ على تِلكَ الصِّفةِ ، وهي بِلا شكَّ علامةٌ كونيةٌ . ويُخسَفُ بِقريةٍ في الشامِ مِن قُرى دِمشقَ ، ولعلَّها ـ كما ذكرَ ذلِكَ صاحبُ

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (٢١٩) ، اختلف العلماء في مسـمى السـفياني : هل هو فرد من أسـرة بني أمية ؟ أم ما قيل من أنه سـفياني السياسـة ؟ أي : يتبع سياسـة الملك العضوض ، أم غير ذلك . وقد رد بعضهم أحاديث السفياني ، وأنه لم يصح في خبره شيء ، ومن ذلك ما ذكره مؤلف «فقه أشـراط السـاعة» نقلا عن العلامة ابن قدامة رحمه الله قال : اعلم رحمك الله تعالى أنه لم يصح شـيء في أحاديث السـفياني ، سـواء منها ما كان مرفوعا أو موقوفا . قال ابن قدامة رحمه الله تحت عنوان « السفياني والمهدي » : قال محمد بن جعفر : وهي هذه الأحاديث التي نهى أحمد بن إسحاق بن داود عن التحديث بها ... وساق الأحاديث . اهـ ص٦٤-٦٥ « فقه أشراط الساعة» ليوسف الوابل .

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (٧٩٠) .

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (٦٣٣) .

(٤) الفتن لنعيم بن حماد (٦٤٩) .

الإشاعةِ ـ قريةُ « حرستا » ويسقُطُ الجانِبُ الغربيُّ مِن مسجِدِها [1] .

شخصيات قيادية متنازعة

ويظهـرُ في عهدِ السُّـفيانيِّ كُلٌّ مِـن : « الأبقعُ ، والأصهـبُ ، والأعرجُ » . وتقومُ بَينَ السُّـفيانيِّ وبَينَهمُ الملاحِمُ القِتاليةُ حتَّى ينتصِرَ السُّـفيانيُّ على الراياتِ الثلاثِ خِلالَ سنةٍ كامِلةٍ ، وإلى ذلِكَ يُشيرُ حديثُ أرطأةَ المرويُّ في كِتابِ الفِتَنِ لنُعَيمِ بن حمَّادٍ مِن قولِه : « السُّـفيانيُّ الذي يموتُ ، الذي يُقاتِلُ أوَّلَ شَـيءٍ الراياتِ السُّـودِ والراياتِ الصُّفرِ في صرةِ الشامِ مخرجُه مِنَ « المنذروز » شرقيِّ بيسانَ على جملٍ أحمـرَ علَيـهِ تاجٌ يهزِمُ الجماعةَ مرَّتَيـنِ ، ثُمَّ يهلكُ ، يقبلُ الجِزيةَ ، ويسـبي الذُّريةَ ، ويبقرُ بُطونَ الحبالى ... » [2] .

الرايات السود والصفر رموز لقوى محلية واعدة

ازدياد الأذى لآل البيت بعمومهم حسب الانتماء لبني هاشم

ويـزدادُ الأذى فـي هذه المرحلةِ لبني هاشِـمٍ لِما يُرى مِن تعلُّـقِ الناسِ بِالمهديِّ وأحفادِه قُبَيلَ ظُهورِه ، ويُقتَّلون ويُشرَّدون في أنحاءِ الأرضِ . وفي الإشاعةِ تحديدٌ لِلأعدادِ مِنَ القتلى وذِكرٌ لأسماءِ البِلادِ التي يكونُ فِيها الهلاكُ لِبني هاشِمٍ .

الجيش الذي يخسف بِهِ بَينَ مكَّة والمدينة

ويُخسَـفُ بِجيشِ السُّـفيانيِّ فيما بَيـنَ مكَّةَ والمدينـةِ ، ولا يفلِتُ مِنهـم أحدٌ إلَّا رجُلَيـنِ « بشـيرٌ ونذيرٌ » ، أمَّا البشـيرُ فيأتي إلى الإمامِ المهـديِّ في مخبئه لِيُخبِرَهم بِما حصلَ ، ونذيرٌ يأتي إلى السُّـفيانيِّ لِيُخبِرَه أيضًا بما حلَّ لِأصحابِه ، ويُشـيرُ إلى ذلِكَ ما وردَ في كِتابِ الفِتَنِ (الخامسِ ص٢٢٩/ برقْمِ ٩٠٣) : « لا ينجو أحدٌ إلَّا رجُلٌ واحِدٌ يُحوِّلُ اللَّهُ وجهَه إلى قفاه ؛ فيمشي كمِشيتِه كانَ مستويًا بَينَ يدَيه » [3] ، ويُؤيِّدُ هذا ما روَتْه عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها : « يغزو جيشٌ الكعبةَ ، حتَّى إذا كانوا بِبيداءَ مِنَ الطريقِ يُخسَـفُ بِأوَّلِهم وآخرِهم » قالَت : يا رسـولَ اللَّهِ يُخسَفُ بِأوَّلِهم وآخِرِهم

(١) الإشاعة ص٢٠٢.

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (٧٧٥) .

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (٩٠٣) .

وفيهم أسـواقُهم ومَن لَيسَ مِنهم ؟! قالَ يُخسَـفُ بِأوَّلِهم وآخِرِهم ، ويُبعثون على نيَّاتِهم »[1] .

وفي كِتابِ الفِتَنِ لنعيم بن حماد حديثُ « في زمنِ السُّفيانيِّ الثاني المُشوَّه الخلقِ هدةٌ بِالشامِ حتَّى يظُنَّ كُلُّ قومٍ أنَّه خرابُ ما يليهم »[2].

مرحلة ما قبل الإمام المهدي

مرحلةُ ما قبلَ الإمامِ المهديِّ.. وهل يَسْبِقُهَا قِيامُ خِلافةٍ راشِدةٍ ؟

لم يسـبقْ لِأحدٍ مِن عُلماءِ الإسـلامِ ـ المعروفين في تاريـخِ الكتابةِ عن علاماتِ الساعةِ ـ أن ذكرَ قِيامَ خِلافةٍ راشِدةٍ في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ قبلَ ظُهورِ الإمامِ المهـديِّ وبعـدَ المرحلـةِ السُّـفيانيةِ أو خِلالَهـا ، إلَّا أنَّ المُلفِتَ للنظـرِ تبنِّي بعضِ المُتأخِّريـن هذه الفكرةَ والإصرارَ علَيها ، بل واعتبروا النفيَ لِهذا مِن قبيلِ الخُرافةِ والضلالةِ ، التي ألقاها الشَّيطانُ في قُلُوبِ كثيرٍ مِنَ العامَّةِ وبِخاصَّةٍ الصُّوفيةُ مِنهم، حسبَ قولِهم »[3] .

الخِلافة الراشدة بشروطها لا تكون إلَّا بالمهدي

ولِأنَّ الخِلافةَ الراشِـدةَ على وجهِها الشـرعيِّ مطلبٌ إسـلاميٌّ عظيمٌ ، ولَيسَـت مُجـرَّدَ تخرُّصـاتٍ وتمنيـاتٍ وأراجيـفَ ؛ فالجزمُ بها قبـلَ مرحلةِ الإمـامِ المهديِّ تحتـاجُ إلـى تأكُّدٍ وحُسـنِ بحثٍ في معانـي الأحاديـثِ المُحتجِ بهـا ، وخاصَّةً أنَّ تحقيقَهـا ـ أي: الخِلافـةَ ـ فـي العالـمِ سـيُصلِحُ اللَّهُ بِه شـأنَ الجميـعِ ، ولن يكونَ الفضـلُ فِيها لِما يدورُ مِن «تسـييسِ الصـراعِ بَينَ المُسـلِمين أوِ التحريشِ العقديِّ والفِكـريِّ بَيـنَ المُصلِّين» وإنَّما سـيكونُ حقيقةً على «قواسِـمِ الديانةِ المُشـتركةِ»

(١) صحيح البخاري (٢١١٨) .

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (٦٢٦).

(٣) راجع كتاب « فقه أشراط الساعة » د . محمد أحمد إسماعيل المقدم ص (٢٢٥-٢٣٢) .

لِلطائفةِ المنصُورةِ عِندَ وُجودِها على المعنى المُشارِ إلَيه في الأحاديثِ، والمعنى المُشارِ إلَيه في الأحاديثِ أنَّ الطائفةَ المنصورةَ ـ التي لا يحُدُّها مكانٌ مُعيَّنٌ، ولا مذهبٌ بعَينِه، ولا تنطوي تحتَ ظِلِّ دَولةٍ ولا سياسةٍ ـ فئةٌ تعمَلُ في أرضِ اللَّهِ على تهيئةِ ظُروفِ الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ، ولكِن دونَ أن تُقيمَ هذه الطائفةَ شكلًا مِن أشكالِ الإدارةِ السياسيةِ العامَّةِ تحتَ مُسمَّى الخِلافةِ السياسيةِ لِلإسلامِ[1].

قالَ مُؤلِّفُ كِتابِ فِقهِ علاماتِ الساعةِ: «والخِلافةُ لن تسقُطَ على المُسلِمين في قِرطاسٍ مِنَ السماءِ، ولكِنْ لِلنَّصرِ أسبابُه المُتعدِّدةُ، وقد بشَّرَ النبيُّ ﷺ بفتحِ رُوميةَ، وهذا الفتحُ لن يتِمَّ إلَّا بالجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، والصبرِ علَيهِ وبذلِ الأموالِ والأنفُسِ. والخِلافةُ التي يقيمُها هذا الجِهادُ خِلافةٌ راشِدةٌ على مِنهاجِ النُّبوَّةِ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ[2]. اهـ.

بعض التحريف في معاني الأحاديث سببه عدم دراسة فقه التحولات

وقالَ أيضًا: وقد وردَت أحاديثُ يُفهَمُ مِنها قيامُ خِلافةٍ راشِدةٍ قبلَ خُروجِ المهديِّ، مِنها:

ما رواه ابنُ حوالةَ الأزديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: وضعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يدَه على رأسي إلى هامتي، ثُمَّ قالَ: «يا ابنَ حوالةَ، إذا رأَيتَ الخِلافةَ قد نزلَتِ الأرضَ المُقدَّسةَ فقد دنَتِ الزلازِلُ والبلابِلُ والأُمورُ العِظامُ والساعةُ يومئذٍ أقربُ مِنَ الناسِ مِن

---

(١) لأن الخلافة نظام يوحد الأقاليم، ويوحد قرار السلم والحرب فيها عموما، بعيدا عن المناطقية والإقليمية والحدود الذاتية، وهذا غير ممكن في ظل ما وصفته النصوص النبوية من الهرج والمرج والجور والاقتتال؛ ولكن المتابعة والملاحظة لما يقال مكسب معرفي.

(٢) فقه أشراط الساعة (ص/ ٢٢٩).

يدي هذه مِن رأسِكَ »[1].

ومِنها ما رواه مُعاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « عُمرانُ بَيتِ المقدِسِ خرابُ يثربَ ، وخرابُ يثربَ خُروجُ الملحمةِ ، وخُروجُ الملحمةِ فتحُ القُسطنطينيةِ ، وفتحُ القُسطنطينيةِ خُروجِ الدَّجَّالِ » ثُمَّ ضربَ بيدِه على فخِذِ الذي حدثَ أو منكبِه ثُمَّ قالَ : « إنَّ هذا الحقَّ كما أنَّكَ هنا أو كما أنَّكَ قاعِدٌ »[2] . وفتحُ القُسطنطينيةِ سيتِمُّ في زمنِ المهديِّ ، الذي هو في زمنِ عيسى علَيهِ السلامُ[3].

استمرار الجهاد في سبيل الله في عصر المهدي

قالوا : وعُمرانُ بَيتِ المقدِسِ[4] سيكونُ بِالخلافةِ النازِلةِ فيه وهذا يستلزِمُ تحريرَ القُدسِ ، وتحريرُها سيستلزِمُ قيامَ الجِهادِ الشرعيِّ الإسلاميِّ ضِدَّ اليهودِ هُناكَ .

ومِنها ما رواه المِقدادُ بنُ الأسودِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : سمِعتُ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقولُ : «لا يبقى على ظهرِ الأرضِ بَيتُ مُدرٍ ولا وبرٍ إلَّا أدخلَه اللَّهُ كُلَّه الإسلامَ بِعزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ ، إما يُعزُّهمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيجعلُهم مِن أهلِها ، أو يذِلُّهم فيدينون لَها»[5]، قالوا : وقولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «فيدينون لَها» فيه إشارةٌ إلى الجِزيةِ وإشارةٌ أُخرى إلى أنَّ هذا إنَّما يكونُ قبلَ نُزولِ المسيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأنَّه لا يقبلُ الجِزيةَ مِن أحدٍ .

---

(١) مسند أحمد (٢٣١٥٠).

(٢) مسند أحمد (٢٢٧٧٤).

(٣) وفي كلامِه تداخُلٌ غريبٌ ؛ فمرحلةُ المهديِّ سابِقةٌ لِعهدِ عيسى علَيه السلامُ ، وليست كما عبَّرَ عنه « زمنُ المهديِّ هو زمنُ عيسى علَيه السلامُ » وإنَّما يأتي عيسى علَيه السلامُ في أُخرياتِها ، وقد حُوصِرَ الإمامُ المهديِّ بِبَيتِ المقدِسِ .

(٤) على ما ذكره الناقل : عمران بيت المقدس سيكون بالخلافة ، فماذا يعني ما يقابله من خراب يثرب فالجهاد في بيت المقدس يقام بأهلها ، ومن ذا الذي يخرب يثرب ؛ ليكون بعدها خروج الملحمة . فقه أشراط الساعة ص٢٢٨.

(٥) مسند أحمد (٢٤٥٤٣) .

قُلتُ : وقبلَ نُزولِ المسيحِ إنَّما هو ظُهورُ الإمامِ المهديِّ ، وقُبَيلَ الإمامِ المهديِّ فِتَـنٌ كقِطـعِ اللَّيلِ المُظلِمِ ، وفِيها يكونُ تمهيدٌ لِظُهورِه دونَ قِيامِ حُكمٍ عامٍّ لِلخِلافةِ ولَيسَ غَيرَ ذلِكَ .

بـل إنَّ كافَّـةَ الأحاديثِ المُستـدَلِّ بها لَيسَ فِيها شَـيءٌ يدُلُّ على قِيـامِ خِلافةٍ قبلَ الإمامِ المهديِّ ، ولا إشارةٌ ظاهِرةٌ أو خفيةٌ فيا سُبحانَ اللَّهِ [1] !

أسباب خُروج الدجال

وأمَّـا الأحاديثُ التي تدُلُّ على حُدوثِ قِتالٍ بَينَ المُسـلِمين واليهودِ وانتصارِهم

---

(١) كتب صاحب كتاب أشراط الساعة ص٢٥٨ « وعن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال سمعت رسـول الله ﷺ يقول « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة « قـال » فينـزل عيسـى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فيقول أميرهم تعال صـل بنا ، فيقول لا إن بعضكم علـى بعـض أمراء تكرمة اللـه هذه الأمة » رواه مسـلم كتاب الإيمان . قـال المؤلف: فهذه الأحاديـث التـي وردت في الصحيحين تدل علـى أمرين أحدهما أنه عند نزول عيسـى بن مريـم عَلَيْهِ السَّلَامُ من السـماء يكـون المتولي لأمر المسـلمين رجلا منهـم ، والثاني أن حضور أميرهـم للصلاة وصلاته بالمسـلمين وطلبه من عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند نزولـه أن يتقدم ليصلي بهـم يـدل على صلاح فـي هذا الأمير ، وهـي وإن لم تكن فيها التصريـح بلفظ المهدي إلا أنها تدل على صفات رجل صالح يؤم المسـلمين في ذلك الوقت ، وقد جاءت الأحاديث في السـنن والمسـانيد وغيرها مفسـرة لهـذه الأحاديث التي في الصحيحيـن ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسـمى محمد بن عبدالله ، ويقال له « المهدي » والسـنة تفسر بعضها بعضا.

وقال وقد أورد الشيخ صديق حسن في كتابه « الإذاعة » جملة كبيرة من أحاديث المهدي جعـل آخرهـا حديث جابر المذكور عند مسـلم ، ثم قـال عقبه « وليس فيـه ذكر المهدي ، ولكـن لا محل له ولأمثاله في الأحاديث إلا المهـدي المنتظر كما دلت على ذلك الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة . اهـ (ص٥٩) أشراط الساعة يوسف الوابل .

قلـت : وعلـى هذا القول يبطل قـول من قال : « إن رفض الخلافة الراشـدة قبل المهدي هـي مـن قبيل الخرافة والضلالة التي ألقاها الشـيطان في قلوب كثير مـن العامة ، وبخاصة الصوفية منهم » . راجع (ص٢٢٥) فقه أشراط الساعة .

على اليهودِ قبلَ زمنِ الدَّجَّالِ فإنَّما هي الحُروبُ التي يُقيمُها الإمامُ المهديُّ وأتباعِه ويُتوَّجُهـا بعدَ ذلِكَ بِغزوِ رُوميةَ وأخـذِ كُنوزِها إلى بَيتِ المقدِسِ ، فيكونُ ذلِكَ مِن أسبابِ خُروجِ الدَّجَّالِ وغضبِه .

قُلتُ : ويبدو أنَّ هذه المسـألةَ قد التبسَـت على كثيرٍ مِنَ الرُّواةِ وشُـرَّاحِ الحديثِ ، والمُعتقَـدُ أنَّ هُنـاكَ مدينتين وليسَـت مدينةً واحِدةً ، فمدينةٌ هي « القُسـطنطينيةُ » وأُخـرى « رُوميـةُ » كما وردَ في رِوايـاتٍ أُخرى ، فالقُسـطنطينيةُ فُتِحَت على عهدِ مُحمَّدِ الفاتحِ ، والثانيةُ « روميةُ » ستُفتَحُ في آخِرِ الزمانِ ، ويُؤيِّدُ هذا المعنى ما في مُسـندِ أحمدَ (٦٣٥٨) حدَّثَنا يحيى بنُ إسـحاقَ حَدَّثنا يحيى بنُ أيُّوبَ حدَّثَني أبو قَبِيـلٍ قـالَ : كُنَّا عِندَ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ ، وسُـئلَ أيُّ المدينتَين تُفتَحُ أوَّلًا القُسـطنطينيةُ أو روميـةُ فدعَا عبدُ اللَّهِ بصُندوقٍ له حلقٌ قـال : فأخرجَ مِنهُ كتابًا قالَ فقالَ عبدُ اللَّهِ بَينَما نحنُ حولَ رسـولِ اللَّهِ ﷺ نكتُبُ إذ سُـئلَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ أيُّ المدينتَين تُفتَحُ أوَّلًا قُسـطنطينيةُ أو روميةُ ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مدينةُ هِرقلَ تُفتَحُ أوَّلًا يعني : قُسطنطينيةَ[1] .

والواضِحُ مِنَ المُتابعةِ لِلأحاديثِ أنَّ مدينةَ « هِرقَلَ » هي « القُسطنطينيةُ » عاصِمةُ تُركيا اليومَ ، والتي فتحَها السُّلطانُ مُحمَّدُ الفاتِحُ ، وسمَّاها العُثمانيون « إسلامبولُ » أي : مدينـةُ الإسـلامِ ، وسُـمِّيَت بِالآسـتانةِ فيما بعـدُ ، ثُمَّ إسـتانبولُ الآنَ ، وهي المعنيـةُ بِالفتـحِ الأوَّلِ ، وأمَّـا الفتـحُ الثاني : فهو فتـحُ رُوميةَ ، المُسـمَّاةُ في بعضِ الأحاديـثِ « مدينـةُ الكُفرِ » ، وقد بوَّبَ لها الداني بهذا الاسـمِ « مدينةُ الكُفرِ » كما هـو فـي مصنَّفِ ابنِ أبـي شَـيبةَ (٨/ ٣٦٥) : حدَّثَنا ابنُ إدريسَ عن مُسـعرٍ عن أبي

(١) مسند أحمد (٦٨٠٤) .

حُصَينٍ عن الشعبيِّ عن مالِكِ بن صحارٍ قالَ : غزَونا بلنجرَ فلم يفتحوها ، فقالوا : نرجِعُ قابِلًا نفتحُها ، فقالَ حُذيفةُ : لا تُفتَحُ هذه ولا مدينةُ الكُفرِ ولا الدَّيلمُ إلَّا على الرجُلِ مِن أهلِ بيتِ مُحمَّدٍ ﷺ[1] .

وبِمُتابعةِ هذه الرِّواياتِ يتبيَّنُ كما سبقَ ذِكرُه أنَّ فتحَ رُوميةَ سيأتي في آخِرِ الزمانِ على يدِ الإمامِ المهديِّ ، وأمَّا فتحُ القُسطنطينيةِ فقد تمَّ على يدِ مُحمَّدٍ الفاتِحِ العُثمانيِّ مِن قبلُ ، وإنَّما حصلَ خلطٌ بَينَ الاسمينِ وذُكِرَا في مُسمًّى واحدٍ «القُسطنطينيةُ» ، وبهذا حصلَ اللَّبسُ في فهمِ المعنى ، واللَّهُ أعلمُ[2] .

وهذا ما تدُلُّ عليهِ الأحاديثُ الصريحةُ دونَ الحاجةِ لِلاستِدلالِ بِوُجودِ خِلافةٍ قبلَ الإمامِ وحربٍ معَ اليهودِ مِن غَيرِ أتباعِ الإمامِ المهديِّ لا بإشارةٍ ظاهِرةٍ ولا خفيَّةٍ ، فليُنظر .

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٤٩٧). وفي المستدرَك (٨٥٦٠).

(٢) قال الأستاذ سعيد حوى في معرض حديثه عن علامات الساعة: وبعض الناس تغلب عليهم أغلاط في فهم بعض هذه العلامات أو في تقدير وقتها إذ إن منها ما يكون قرب الساعة بقليل جدا قبل المسيح بسنوات أو معه ومنها ما يكون قبل ذلك بكثير جدا فيغلطون بالجمع بينهما ومنها ما لا تدل عليه المقدمات الحاضرة فيغلطون في تأويلها ومنها ما جعلهم عصرنا الحاضر ومخترعاته يفهمونها فهما عاديا وهي خوارق ومنها ما هو دليل على الخيرية يظنونه مذموما فمثلا يظن الناس أن الدين إلى انحسار حتى خروج المهدي ، مع أن المهدي قبل عيسى بقليل وقبل ذلك يعم الإسلام العالم وتفتح روما والقسطنطينية اليوم مسلمة وكانت كافرة ففتحت وقد أخبر النبي ﷺ بالفتح الأول ولكن يبدو أن القسطنطينية سترجع كافرة مرة ثانية وتفتح من جديد وفتحها الثاني يكون قبل المسيح بقليل والناس لا يفرقون بين فتحها الأول والثاني.. إلى أن قال: ولن تقوم الساعة حتى تستنفد علاماتها وأشراطها التي وردت في الكتاب والسنة . اهـ ص١٩٦ فقه أشراط الساعة .

لقدِ اعتقدَ بعضَ هؤلاءِ أنَّ مفهومَ الطائفةِ المنصورةِ والطائفةِ التي لا تزالُ ظاهِرةً على الحقِّ؛ أنَّهم مَن تعنيهم هذه الأقلامُ ، وتشيرُ إلَيها تِلكَ الأفهامُ ، مِن مجموعةٍ احتكرَتْ مفهومَ « الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ لِنفسِها » .

الأمر بيد الله.. ولا تسييس للطائفة المنصورة

والأمرُ بيدِ اللَّهِ ، ولا تسييسَ لِلمفاهيمِ فرُبَّما تكونُ الطائفةُ المنصورةُ والمُجاهِدون في أكنافِ بَيتِ المقدِسِ لَيسوا مِنَ الصُّوفيةِ ولا مِن معارضيهم بل رُبَّما كانوا ممن جمعَتهمُ القُدرةُ الإلهيَّةُ مِن أولئكَ ومِن غيرِهم ـ بِواسِطةِ الإمامِ المهديِّ ـ بعدَ زوالِ فِتنةِ التحريشِ مِن المُصلِّين ، إذ لا حاجةَ لِلمُسلِمين بتصنيفِ جُيوشِ الفتحِ الجِهاديِّ في آخرِ الزمانِ مِن أيِّ مجموعةٍ كانوا ، فهذا استِعجالٌ مذمومٌ وتسييسٌ نفعيٌّ معلومٌ ، ويؤكِّدُ هذا الملحظَ ما أشارَ إلَيه مُؤلِّفُ الكِتابِ (ص٢٣٦) قال : « ومِنَ الأدلةِ الدامغةِ على أنَّ الخِلافةَ ترجِعُ قبلَ هذا الخليفةِ الصالِحِ أنَّ المُسلِمين يسترجِعون بَيتَ المقدِسِ مِنَ اليهودِ ، بَينَما المهديُّ يكونُ عِندَ ظُهورِه في بَيتِ المقدِسِ[1] ، أي إنَّ بَيتَ المقدِسِ يكونُ في أيدي المُسلِمين ، وبَيتُ المقدِسِ الآنَ يرزحُ تحتَ نيرانِ الاحتِلالِ الصَّهيونيِّ اليهوديِّ البغيضِ فلا بُدَّ مِن قِيامِ الخِلافةِ قبلَ المهديِّ ! لِأنَّها

تعليلات غير صحيحة لابد من الإجابة علَيها

---

(١) علق مؤلف كتاب أشراط الساعة عند هذا الموقع في الحاشية وقال : ولعل هذا مأخوذ من قوله ﷺ في حديث أبي أمامة الطويل في الدجال « وكلهم ـ أي: المسلمين ـ ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح قد تقدم ليصلي بهم إذ نزل عيسى.. الحديث » .
ولربما فهم القوم من هذا أن الرجل غير الإمام المهدي وعللوا هذه اللفظة بأن بيت المقدس فيه خلافة سابقة، وهذا فهم لا يتناسب مع سياق الحديث ولا مع ما ذكره شراح الحديث فالرجل الصالح هو الإمام المنتظر ـ على أصح الروايات ـ وينزل عيسى ليصلي خلفه وما قبل ذلك كانت مرحلة تحت إدارة وإمرة الإمام المهدي ذاته ، وأما قبل ذلك فتهيئة واستعدادات غير مجتمعة ولا تحت قرار حكم خلافة بحال من الأحوال.. والله أعلم .

السبيلُ الوحيدُ لاسترجاعِ مجدِ الإسلامِ التليدِ » .

وهذا مِنَ الافتراضِ الذي لا دَليلَ علَيهِ .

وقد نقلَ صاحِبُ الكِتابِ هذه العبارةَ مِن كِتابِ «الجماعاتِ الإسلاميةِ في ضوءِ الكِتابِ والسُّنةِ» كحُجَّةٍ على تأكيدِ الخِلافةِ قبلَ المهديِّ ، معَ أنَّ المُتأمِّلَ في العباراتِ والحديثِ المُشارِ إلَيه لا يُشيرُ إلى خِلافةٍ قبلَ الإمامِ ولا يُفهَمُ من فذلكةِ المعاني ما يؤكِّدُ ذلِكَ ، معَ أنَّنا لا نُنكرُها لو صحَّ دليلُها وخبرُها ؛ ولكنَّ إثباتَها لِمُجرَّدِ الظنيةِ أمرٌ لا يتناسبُ معَ الحقيقةِ ولا يخدُمُ معانيها الشرعيةَ .

وإلى مثلِ هذا أشارَ صاحِبُ كِتابِ «موسوعةِ أحاديثِ الفِتنِ وأشراط الساعة» د.همَّام عبدالرحيم سعيد في مقدمةِ الكتابِ فقال عند حديثِه عن لوازمِ القراءةِ الصحيحةِ لأحاديثِ علامات الساعة وأنّ منها جمعُ رِواياتِ الموضوعِ الواحدفي سياقٍ واحدٍ ص١٠ : فقد كان يتبادرُ إلى فهمِنا مثلاً : أَنّ قتالَ المسلمين لليهودِ عندما يقولُ الشجَرُ والحجَرُ: يا مسلمُ يا عبدَالله هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتُلْهُ؛ أنّ المرادَ به يمكنُ أن يكونَ في عصرِنا هذا في القتالِ مع اليهود، ومع أن أحاديث الفتنِ تبشِّرُ بنصرِ المسلمين على اليهودِ في هذا العصر؛ إلا أنّ ذلك القتالَ إنما يكونُ مع الدّجّال، وذلك أنّنا لَمّا جَمَعْنا رواياتِ الحديثِ وَجَدْنا بعضَ الرواياتِ المطولةِ لهذا الحديث نَصَّتْ على أنّ هذه المعجزةَ إنّما تكونُ عندما يقاتلُ عيسى بنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والمسلمون الدجالَ ومعه اليهودُ.

موقف المسلم المستبصر من الفتن وأئمتها المضلين

بما أنّ فقهَ التحولاتِ علمٌ يُفَصِّلُ علاماتِ الساعةِ وما يجري من الأشراطِ والفتنِ ومُضِلّاتِها ؛ فإنّ مسـألةَ الاِستبصارِ من المسلمِ واجبةٌ وضروريةٌ، خاصةً أنّ رسولَ الله ﷺ حَذَّرَ في جملةِ أحاديثه من الفتنةِ و المشاركةِ فيها ، وعَلَّمَنا أن نستعيذَ باللهِ مـن الفِتَنِ ومِنْ مُضِلّاتِها ما ظهرَ منها وما بَطَنَ ، وما من عصرٍ من عصورِ الإسـلامِ الأولى وما تَلَاها إلا والفِتَنُ محيطةٌ به وبأهلِه ، والمحفوظُ مَن حَفِظَ اللهُ والهالكُ مِـن كلِّ وجهٍ مَنْ كان وَقوداً لأُوَارِهـا. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾[المائدة:٤١] .

والواجبُ منّا فيما عُلِّمنا من أحاديثِ رسول الله ﷺ ومواقفِه العَمَليةِ ومواقفِ أصحابِه وآلِ بيته أن نَتَفَهَّم مواقعَ الفتنِ ورُؤُوسَها ، ونُحَذِّرَ مِن الوُقُوعِ في ضِرامِها وتَحْرِيكِ أَسْبَابِها ، وخاصةً تلك الفتنُ المرتبطةُ بالسياسةِ والحكمِ وفتنِ الاِختلافِ على العلمِ والمناصبِ، وما يترتبُ بسببِها من المنافساتِ وحبِّ الرياساتِ.

وقد ورد في ذلك قوله ﷺ : «الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَيْقَظَهَا» ، وفيه إشَارةٌ نبويةٌ إلى ابتعادِ المسـلمِ عن أسـبابِ الإثارةِ ودوافعِها بينَ النّاسِ ، لِمَا يَتَرَتَّبُ على ذلكَ السُّكونِ من جمعٍ لقلوبِ الأمةِ وصرفِ نظرِها عن المثالبِ والمعايبِ وإشـغالِها بمـا هـو أَنفعُ وأَهمُّ لأمرِ دينها ودنياها . وفي هذا يقولُ ﷺ لأنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « يا بُنَيَّ إِنْ قَـدَرْتَ على أن تُصبحَ وتُمسـيَ ليـسَ في قلبِك غشٌّ لأحدٍ فَافعـلْ» ، ثم قال: « يا بُنَيَّ وذلكَ مِنْ سُـنَّتِي.. ومَن أَحْيَى سُـنَّتِي فقد أَحَبَّنِي ، ومَن أَحَبَّنِي كان مَعِي في الجَنَّة» رواهُ الترمذيُّ في سُنَنِه .

ومثلُ هذا الموقفِ المفيدِ هو فقهُ جملةٍ من الصحابةِ والتابعينَ وتابعيهم بإحسانٍ إلـى يـوم الديـنِ ، ومنهـم أتباعُ النمطِ الأوسـطِ مـن آل البيتِ وصحابـة النبي ﷺ وأتباعهـم الذينَ خَلَدُوا إلى السـكونِ وتركُوا الخوضَ في أسـبابِ الفتنِ رغمَ بيانِ أمرِهـا ووضوحِ صورِ أصحابِها كموقفِ الإمامِ الحَسَـنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنه وتضحيتِه بالسلطانِ ومركزِ القرار خوفاً من الفتنةِ الساحقةِ الماحقةِ ، ومثله موقف الإمامِ عليٍّ زينِ العابدينَ الذي تجاوزَ الثأرَ و الجدالَ وإضاعةَ المالِ والقيلَ والقالَ ، ومثلُه مَن جـاء مـن بعده من أئمة الديـن المعتبرين ، وهم قومٌ كثرٌ لهم فـي الأحاديث النبوية إشاراتٌ وبشـاراتٌ، ولهم من فقهِ التحولاتِ مواقفُ ودَلَالاتٌ تمنعُ عنهم جانحةَ الاختـلافِ وظاهرةَ الخلافِ ، وتُبعدهم عن سياسـةِ الدَّجْلِ والتَّسْـيِيسِ ، وأطماعِ فقهـاءِ الفتـنِ والتحريشِ ، مع بقاء نفعِهم العامِّ في الأمـةِ بالتعليم والدعوة إلى اللهِ بالحكمـةِ والموعظةِ الحسـنةِ وصونِ دماءِ الشـعوبِ من الهـلاكِ والدمارِ، ويؤيدُ هذه المواقفَ ما رواه أبو داود والنَّسائي عن عبد اللهِ بن عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما قـال : قـال النبي ﷺ : «كيفَ بِكَ إذا بَقِيـتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النّـاسِ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وأَمَانَاتُهُـمْ وَاخْتَلَفُوا وكانُوا هكذا؟» وشَـبَّكَ بينَ أَصَابِعِهِ ، قـال: بِمَ تَأْمُرُنِي؟ قال : «اِلْـزَمْ بَيْتَكَ وأَهْلَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَـانَكَ ، وخُذْ مَا تَعْـرِفُ وَدَعْ ما تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ ودَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ» «الإشاعة» ص ١٨٩ .

والمشـاهدُ اليومَ في حياةِ الأمة وقد سُـلِبَ منها قرارُها وسُيِّسَ استقرارُها وصارَ أمرُها آيلاً إلى هندسـةِ الكفارِ في السياسـةِ والاقتصادِ والإعـلامِ والتعليمِ والثقافةِ والمواقـفِ؛ أنّ الموقـفَ السـليمَ من العبدِ المسـلمِ أَلّا يَزُجَّ بنفسِـهِ فـي أَتُونِ هذه المؤامـراتِ المسَيَّسَـةِ وخاصـةً عنـدَ التنازعِ بين أُولي الشـأنِ على قَـرَارَيِ الحكمِ والعلمِ .

فهذِه مسألةٌ محسومةٌ بالنصوصِ الشرعيةِ.. ولا اختلافَ على خطورتِها وشرّها، ويكفـي عنـد ظهورِ إشـاراتِها واحتـدامِ مفتونيها مصانعـةُ الجميـعِ ومداراتُهم مع تَجَنُّبِ الخـوضِ فـي فتنتِهم أو المشـاركةِ فيها، فعـن أبي ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قـال: قال له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «يا أَبا ذَرٍّ كيفَ أنتَ إذا كُنْتَ في حُثالَةٍ؟» وشَبَّكَ بينَ أصابعِه، قال: ما تأمرني يا رسـول اللـه؟ قال: «اِصْبِرْ.. اِصْبِرْ.. اِصْبِـرْ.. خَالِقُوا الناسَ بأَخْلَاقِهِمْ وخَالِفُوهُمْ في أَعْمَالِهِمْ» رواه الحاكمُ والبيهقيُّ في «الزهد»، وفي الحديث إشارةٌ بَيِّنَةٌ وواضحةٌ لكلِّ راغبٍ في النجاةِ والسـلامةِ.. أَنْ يُخالَقَ النّاسُ بما يناسـبُهم في واقعِهـمُ المفتونِ مداراةً لهم وحِفْظاً لكرامةِ العِـرْضِ والدِّينِ مع المخالفةِ لهم في أعمالِهم ومواقفِهم.

بل إنّ فقهَ التحولاتِ يَضَعُ للمسلمِ المندفعِ نحوَ الفتنةِ بسببٍ وآخرَ موقفاً سديداً حتى يَسْـلَمَ ويُسَـلِّمَ غيرَه، فعَنْ أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «لا تَقْرَبُـوا الفِتْنَـةَ إذا حَمِيَتْ ولا تَعرِضُوا لها إِذَا عَرَضَتْ، واضْرِبُـوا أَهْلَها إذا أَقْبَلَتْ». وفـي الحديث إشـارةٌ إلى نموذجٍ مـن نماذجِ التعاملِ في التحـولاتِ لمن أَوْقَعَتْهُ الأسـبابُ في بعضِ المشاركةِ أو الموافقةِ أو الاستتباعِ لحاكمٍ أو عالمٍ أو صاحبِ إدارةٍ أو ملتزمٍ لوظيفةٍ لا يُمكنُ له التخلُّصُ منها ولا التأخرُ عنها، فالموقفُ الشرعيُّ أن لا يدفـعَ بنفسـه دَفعاً إلى اختيارِ الموتِ أو القتلِ تحت هـذه الفتنِ وراياتِها، بل يتفهمُ ما قاله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في ما رواه أحمدُ وابنُ أبي شـيبةَ والطبرانيُّ وغيرُهم من حديث خالـد بـن عرفطة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ النبـيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قال: «يا خالدُ إنَّها سـتكونُ بَعْـدِي أحداثٌ وفِتَـنٌ وفُرْقَةٌ واختلافٌ، فإذا كانَ ذلكَ فإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ عبدَ اللهِ المقتولَ لا القاتلَ فَافْعَلْ».

ومن كافة الوجوهِ يجبُ على المسـلمِ المدقِّقِ في علمِ السـاعة وفقهِها المشروعِ

أن يتجنبَ الفتنَ عموماً وخصوصاً ولو بالابتعادِ عن مكانها ومواقعها ؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيما رواه البخاريُّ (٣٣٣٤) وأحمدُ (٧٤٦٤): «ستكونُ فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائمِ، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَنْ تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ، فمَن وجد منها ملجأً أو معاذاً فَلْيَعُذْ بِهِ». قال في «الفتح» (١٣ : ١٤): ووقع تفسيرُه عندَ مسلمٍ في حديث أبي بَكْرَةَ ولفظُه: «فإذا نَزَلَتْ فمَن كان له إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ» ، وذكرَ الغنمَ والأرضَ ، قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ أرأيتَ إنْ لم يَكُنْ لَهُ ؟ قال: يَعْمَدُ إلى سيفِه فيَدُقَّ على حدِّهِ بحجرٍ ثم لِيَنْجُ إنِ اسْتَطَاعَ» . قال في «الإشاعة» تعليقا على هذا الحديث: والمراءُ بالفتنةِ: ما ينشأُ عن الاختلافِ في طَلَبِ المُلْكِ حيثُ لا يُعْلَمُ المُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ .

وقد تهاونَ المسلمون في هذه المسألةِ وظَنُّوا أنّ كلَّ مَن دعا إلى فتنةِ حُكْمٍ أو عِلْمٍ إنما هو على هُدًى وبصيرةٍ، فاختلطَ بذلك الحابلُ بالنابلِ ، لعدمِ دراسةِ الجميعِ فقهَ علاماتِ الساعةِ من جهةٍ، ولتهاونِ الأمةِ في تَفَهُّمِ المواقفِ الشرعيةِ عند الفتنِ من جهةٍ أخرى، بل وَقَعُوا أيضاً في فتنةِ اللَجَاجِ والِاحتجاجِ على من اختارَ العزلةَ ورَضِيَ لنفسِه السلامةَ من المُضِلّاتِ ورَاياتِها ، ونظروا إليهِ كمخالفٍ للشريعةِ الغرّاءِ ومعطّلٍ لدعوةِ الجهادِ في سبيلِ الله ، مع أنّ ظاهرةَ الجهادِ القائمِ في بلادِ المسلمينَ غيرُ مكتملةِ الشروط ومخترقةٌ مِن أعداءِ الإسلامِ في بعض الجهاتِ، وبعضُها مُمَوَّلٌ ومهندسٌ لمصلحةِ المرحلةِ وقادتِها ، ولم تَسْلَمْ من التسييسِ والهندسةِ كثيرٌ من مجموعاتِ العملِ الجهاديِّ المعاصرِ إلا القليلُ، والقليلُ المشارُ إليهم في أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ببقائِهم على الحقِّ ومقاتلتِهم دونه يصعبُ تحديدُ هُوِيَّتِهِمُ الشرعيةِ في المرحلةِ المرتبكةِ المشتبكةِ التي سماها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ «أَيَّامَ الهَرْجِ» كما هو في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلتُ: يا رسولَ

اللـهِ.. ومتـى ذلك ؟ ـ أي: المقاتلةُ على الملكِ ـ قـال: «أيامَ الهَرْجِ» ، قلت: ومتى ؟ قال: «حِينَ لا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ» «فتح الباري» كتاب الفتن (١٣: ٣٤-٣٥) .

وتُحَدَّدُ هُوِّيَّةُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ على وجهِها الشرعيِّ والإيجابيِّ عندما تكونُ المجابهـةُ المباشـرةُ بينَ (المسـلمِ والكافرِ) ، فحيثما كانتْ هـذه الصفةُ قائمةً في نواحـي أرضِ اللهِ على ضابطها الشـرعيِّ وهو (إعلاءُ كلمـةِ اللهِ) فالجهادُ معهمْ والمسـاندةُ لهم واجبةٌ ولازمـةٌ على كلِّ مَن تَعَيَّنَ عليه ذلـك في أرضهم ومكانهم وسـاحةِ معركتهـم ، كما هو في فلسـطينَ المحتلـةِ وفي بعض فصائلهـا الجهادية الخاليـةِ عـن التحريـشِ الداخلي والتّسْـيِيسِ الخارجـي . أمّا غيرُ هـذا فالخيرُ كلُّ الخيرِ في السـلامةِ وحسـنِ المعالجة للأمورِ حتى يأتيَ أمرُ الله في عبادِه وتنجليَ كربـةُ الأمةِ في شـأنِ قرارها العالميِّ واسـتقرارِها الحتميِّ ، وفـي ذلك يقولُ ﷺ: « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّـاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ الليلِ المظلمِ ، يُصْبِحُ الرجلُ فيها مُؤْمِناً ويُمْسِـي كافراً ويُمْسِي مؤمناً ويُصْبِحُ كافراً ، القاعدُ فيها خيرٌ من القَائِمِ ، والماشي فيها خَيْرٌ مِنَ السـاعي ، فكَسِّرُوا قِسِـيَّكُمْ وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالحِجَارَةِ، فَإِذَا دُخِـلَ ـ يَعْنِـي على أحدٍ منكـم ـ فَلْيَكُنْ كَخَيْـرِ ابْنَيْ آدَمَ ..) رواه أبو داود في سـننه (٣٧١٥) عن أبي موسى الأشعريّ.

الرُّكن الثالِثُ العِلمُ الواجِبُ بِالعلاماتِ الكُبرىٰ

نصَّتِ الأحاديثُ الشريفةُ على العلاماتِ الكبرى اليقينيةِ ، وهي عشرُ علاماتٍ أو عشرُ آياتٍ مُتتابِعةِ الوقوعِ إلَّا أنَّ الأحاديثَ لم تذكرْها جُملةً واحِدةً في حديثٍ واحدٍ ، بلِ اختلفَتِ رِواياتُ الأحاديثِ في التِّعدادِ ، ويكادُ أن يكونَ الحديثُ الذي أخرجَه مُسلِمٌ عن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشملَ الأحاديثِ ذِكراً لهذِه الآياتِ العشرِ وفيه: « لا تقومُ الساعةُ حتَّى تكونَ عشرُ آياتٍ : طُلوعُ الشمسِ مِن مغربِها ، والدَّجَّالُ ، والدُّخانُ ، والدابةُ ، ويأجوجُ ومأجوجُ ، وخروجُ عيسى بنِ مريمَ ، وثلاثةُ خُسوفاتٍ: خسفٌ بِالمشرِقِ وخسفٌ بِالمغربِ ، وخسفٌ بجزيرةِ العربِ . ونارٌ تخرجُ مِن قعرِ عدنٍ أبين تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ تبيتُ معَهم حيثُ باتُوا ، وتقيلُ معَهم حيثُ قالوا »[1].

حديث العلامات الكبرى

والذي يظهرُ مِنَ استِقراءِ الأحاديثِ وما تابعَه العُلماءُ حولَ ذلِكَ أن الترتيبَ الزمنيَّ في الأحاديثِ لِلآياتِ مُختلِفٌ مِن حديثٍ لِآخَرَ ، بعضُها يُشيرُ إلى تقديمٍ، وبعضُها يُشيرُ إلى تأخيرٍ ، وخلاصةُ الأمرِ يرجِعُ إلى ثلاثةِ أحوالٍ :

ترتيب الآيات والظواهر

أوَّلُ الآياتِ العشرِ الدَّجَّالُ ، ثُمَّ عيسى ، ثُمَّ يأجوجُ ومأجوجُ ، ويكونُ طُلوعُ الشمسِ مِن مغربِها بعدَ ذلِكَ معَ بقيةِ الآياتِ ، وتكون علامةُ المهديِّ المُنتظرِ آيةٌ بَينَ العلاماتِ الوُسطى السابِقةِ والعلاماتِ الكُبرى اللاحِقةِ ، وخاصَّةً أنَّ كافَّةَ الرِّواياتِ الخاصَّةِ بِالعلاماتِ الكُبرى لم تذكُرْ الإمامَ المهديَّ في ترتيبِها ، وإنَّما ذكرَت أحاديثَ المهديِّ مُستقِلةً .

(١) مسند أحمد (١٦٥٧٤).

إن أوَّلَ الآيـاتِ العشـرِ المهـديُّ المُنتظـرُ ، ثُـمَّ الدَّجّالُ ، ثُمَّ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ يأجوجُ ومأجوجُ ، ثُمَّ الدخانُ والخسـوفاتُ الثلاثةُ ، ثُمَّ طُلوعُ الشـمسِ مِن مغربِها وما تلاها مِنَ الآياتِ . وأوسـعُ حديثٍ جمعَ الآياتِ العشـرَ بالتفصيلِ حديثُ واثلةَ بنِ الأسـقعِ يقولُ : سـمعتُ رسـولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقولُ : « لا تقومُ السـاعةُ حتَّى تكونَ عشـرُ آياتٍ : (١) خسـفٌ بِالمشـرِقِ (٢) وخسـفٌ بِالمغـرِبِ (٣) وخسـفٌ في جزيـرةِ العـربِ (٤) والدَّجّالُ (٥) والدُخـانُ (٦) ونـزولُ عيسـى (٧) ويأجوجُ ومأجـوجُ (٨) والدابةُ (٩) وطلوعُ الشـمسِ مِـن مغربِهـا (١٠) ونـارٌ تخـرجُ من قعرِ عـدنٍ تسـوقُ الناسَ إلى المحشـرِ ، تحشُـرُ الذرَّ والنملَ »[1] .

العلامات الكبرى قسمان

إنَّ العلاماتِ الكُبرى قِسـمان : قِسـمٌ فيه اسـتِمرارُ قَبولِ التَّوبةِ ، والقسـمُ الثاني تُغلَقُ فيه التَّوبةُ ، وينعدِمُ فيه الإيمانُ فالأولُ يجري الخِلافُ في ترتيبِه وأمَّا الآياتُ التـي نصَّتِ الأحاديثُ فِيها بِغلقِ التَّوبةِ فهي مجموعةٌ في حديثِ عبدِاللَّهِ بنِ عمرٍو عـن رسـولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قـالَ : «إنَّ أوَّلَ الآيـاتِ خُروجًا طُلوعُ الشـمسِ مِـن مغرِبِها وخُـروجُ الدابـةِ علـى الناسِ ضُحًـى ، وأيتُها كانَـت قبلَ صاحِبتِهـا فالأُخرى على إثرِها قريبًا»[2] .

الإمام المهدي أول العلامات الكبرى

وفـي هـذا البحـثِ وضعنـا الإمـامَ المُنتظـرَ أوَّلَ الآياتِ الكُبـرى ، كمـا اعتبرنا الخُسـوفاتِ الثلاثةَ واحِدةً بِمُسـمَّاها على قَولِ مَن أشـارَ إلى ذلِكَ الترتيبِ ، واللَّهُ أعلمُ .

وممَّن أكَّدَ أنَّ المهديَّ أوَّلُ علاماتِ الساعةِ الكُبرى الشَّيخُ البرزنجيُّ في الإشاعةِ

---

(١) المستدرك (٨٣١٧).

(٢) صحيح مسلم (٧٥٧٠).

الباب الثالث في الأشراط العظام والأمارات الغريبة التي تعقبها الساعة وهي كثيرة ، فمنها المهديُّ وهو أوّلُها [1].

ويأتي تسلسُلُ العلاماتِ الكُبرى «اليقينياتِ العشرِ» على القولِ الثاني ، وهو ما رتبْنا علَيهِ العرضَ في كتابِنا هذا كالتالي :

(١) المهديُّ المُنتظرُ .

(٢) الدَّجَّالُ .

(٣) عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

(٤) يأجوجُ ومأجوجُ .

(٥) الخُسوفاتُ الثلاثةُ .

(٦) الدُخانُ .

(٧) طُلوعُ الشمسِ مِن مغربِها .

(٨) الدابَّةُ .

(٩) النارُ التي تخرُجُ مِن قعرِ عدنٍ .

(١٠) النفخُ في الصُّورِ .

وسيأتي تفصيلُها .

---

(١) الإشاعة ص١١٢.

المرحلةُ المهديةُ « المهديُّ المُبشَّرِ بِه »

المرحلة المهدية.. استقرار ، سلام ، تنمية.. وحكمة الاختلاف بَينَ العلماء حول شخصية المهدي وظهوره

وهـي المرحلـةُ التي كثُـر فِيها اللغـطُ والاختِلافُ بَيـنَ أهلِ العِلـمِ والمذاهِبِ ، والاختِلافُ في مثلِ هذه الأُمورِ حِكمةٌ ضروريةٌ لا يعلمُها كثيرٌ مِنَ الناسِ ، ولكنَّها فِي دقائقِ علمِ فِقهِ التحوُّلاتِ ضرورةً شـرعِيةً لا بُدَّ مِنها للتمويهِ والسـترِ ولإشغالِ الأقـلامِ وذوي الأحلامِ والإسـلامِ بِالرواياتِ والأقوالِ فيما لا يلـزمُ فيه الإفصاحُ ولا البيانُ لِسـرٍّ يعلمُه الخالِقُ سُـبحانَه وتعالى ، حيـثُ إنَّ الاتِّفاقَ المُطلقَ في مِثلِ هذه الأُمورِ المصيريةِ يُبرزُ لِلكافِرِ والأعداءِ أمرًا مِن أُمورِ المُسـتقبلِ رُبَّما بَنَى علَيهِ الخصـمُ مواقِـفَ ذاتَ أبعادٍ خطيـرةٍ على الناسِ ، ومـعَ هذا التمويهِ الشـرعيِّ فإنَّ الأذى والقتـلَ والتشـريدَ يصِلُ إلى العديدِ مِن شـرائحِ آلِ البَيـتِ ، ومن ارتبطَ بِهم فـي أُخرياتِ الزمانِ ، ويسـتفحِلُ البلاءُ بَيـنَ حملةِ القرارِ لمُلاحقتِهـم أخبارَ وآثارَ هـذا الإمامِ المُنتظرِ ، والكُلُّ لا يعلمون ولا يدرِكونَ حقيقةَ المسـألةِ ، وما أرادَ اللَّهُ بِها مِن خيرٍ لِلأُممِ والشُّعوبِ .

ولِأنها كذلِكَ ؛ فإنَّ تناوُلَها بِالإجمالِ أولى مِن تناوُلِها بالتفصيلِ ، ونُحيلُ الراغِبَ فـي التفصيـلِ على ما كتبَ عنه الإمامُ في الإشـاعةِ لِلبرزنجيِّ ومـا نقلناه في التليدِ والطـارفِ ، ومـا صُنِّفَ في هـذا الموضوعِ لِجُملةٍ مِـنَ العُلماءِ والكُتَّـابِ مِن كافَّةِ المذاهِبِ الإسـلاميةِ ، سـواءٌ مِنَ القائلين بِميلادِه ونشأتِه في المرحلةِ اللاحقةِ ، أوِ القائلين بِغَيبتِه ثُمَّ رجعتِه ، وهذه الاختِلافاتُ لا تُسمِنُ ولا تُغني مِن جُوعٍ في تقريرِ الأمـرِ مِن واقِـعِ فِقهِ التحـوُّلاتِ ... وإنَّما هي جُزءٌ مِن حكمةِ الرحمنِ في إشـغالِ

المُسلِمين وغيرِ المُسلِمين بِذلِكَ لِيأتيَ الوعدُ في حينِه على مُرادِ اللَّهِ[1] ... .

ومِن علاماتِ ظُهورِه :

تغير الأحوال قبيل مرحلة المهدي

- انقِطاعُ الطُّرُقِ عنِ المواصلاتِ المُعتادةِ . وكثرةُ الحُروبِ والفِتنِ ، وخاصَّةً في جزيرةِ العربِ كثمرةٍ مِن ثمراتِ المراحِلِ السابقةِ ، يُشيرُ إلى ذلِكَ حديثُ ابنِ مسعودٍ « إذا انقطعَتِ التِّجاراتُ والطُّرُقُ وكثُرَتِ الفِتَنُ ... الحديثَ »[2]، وحديثُ « لا يخرُجُ المهديُّ حتَّى يقتُلَ مِن كُلِّ تِسعةٍ سبعةً »[3].

الإحباط النفسي لدى الصالحين قبل المهدي

- الإحباطُ النفسيُّ لدى المُسلِمين ، والضعفُ الكُلِّيُّ والشُّعورُ بِالهزيمةِ أمامَ الأحداثِ المُتعاقِبةِ . يُشيرُ إلى ذلِكَ حديثُ « لا يخرُجُ المهديُّ حتَّى يبصُقَ بعضُكم في وجهِ بعضٍ »[4].

صيحة في رمضان علامة كونية قبل ظهور الإمام

- صَيحةُ رمضانَ.. وإلَيها يُشيرُ الحديثُ « قُلنا وما الصَّيحةُ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قالَ

---

(١) وهناك من ادعى المهدية في زماننا هذا وفي الأزمان السابقة ، وكل هذه الادعاءات تدخل تحت مدلول أحاديث « المدعين للنبوة » وظهور الدجالين الكذابين ، الذين يوهمون الناس بأنهم من الأنبياء، أو أنهم المهدي الموعود به آخر الزمان، ويجب الحذرُ من هؤلاء وأكاذيبهم ؛ فوعد الله حق وآياته كائنة لا محالة ؛ ولكنها تعرف بالنصوص الشرعية لا بالادعاءات والتخيلات النفسية والتوهمات الشيطانية .

وقد رأيت في بعض البلاد من يشير إلى فلان أو فلان من أهل البيت أو غيرهم بأنه المهدي ، ويلتف عليه المتعصبون والمتعلقون والواهمون ، وكأنما هو الوعد الحق ، وهو لا يعدو كونه جهلا بالنصوص ، واندفاعا عاطفيا يشوه سمعة العترة الطاهرة ويجعلهم عرضة لأهل التسييس والتدنيس ... وللأسف !

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (١٠٠٠).

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (٩١٢).

(٤) الفتن لنعيم بن حماد (٩٦٠).

هـدَّةٌ في النصفِ مِن رمضـانَ ليلةَ جُمُعةٍ ... إلـخ »[1] . ويمكِنُ الرُّجوعُ إلى الكُتُبِ المُختلِفةُ التي وصفَتِ الصَّيحةَ أوِ الهدَّةَ .

الرايات السود من خراسان

- ظُهـورُ الراياتِ السُّـودِ مِن خُراسـانَ لِنُصـرةِ الإمامِ المهـديِّ ، وفِيها حديثُ «إذا سـمِعتُم بِالراياتِ السَّـوداءِ قد أقبلَتْ مِن خُرسـانَ فأتُوها ولَو حبوًا على الثلـجِ»[2]، وعـن أميـرِ المُؤمنينَ عليِّ بـنِ أبي طالِـبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « لو كنتَ في صُندوقٍ مُقفلٍ فاكسِرْ ذلِكَ القفلَ والْحَقْ بها »[3].

وجوب التحري في نصرة الرايات لتشابه الظواهر

ومفادُ هذه الأحاديثِ حثُّ المُسلِمِ على نُصرةِ الإمـامِ ولُزومِ دعوتِه في حينِها، وظُهـورُ علاماتِهـا بِيقيـنٍ ، وفي هذا المِضمارِ يجِبُ على كُلِّ مُسـلِمٍ ألَّا يسـتعجِلَ الظواهِـرَ ، ويذهـبَ مُندفِعًـا نحوَ مفهـومِ النُّصرةِ من غَير تحـرٍّ وانتِباهٍ ؛ فإنَّ تشـابُهَ الظواهِرِ قد يُوقِعُ المُستعجِلَ في الخطأِ ؛ وخاصَّـةً في المظلومين مِن آلِ البَيتِ أو مُحِبِّيهم ، حيثُ يندفِعون ويتبعون كُلَّ ناعِقٍ في المرحلةِ مُعتقِدين صِدقَ الإشاعاتِ وتشابُهَ العلاماتِ ، وبَينَ الأمرين بَونٌ كبيرٌ ومسافةٌ شاسِعةٌ ، وأمرُ اللَّهِ أعظمُ وأكبرُ مِن أن ينطويَ تحتَ مُؤسساتٍ وسياساتٍ تبحثُ عنِ السُّلطانِ والسيطرةِ ، وتُعمِّقُ الصِّـراعَ بَيـنَ المُصلِّين في المرحلةِ ، فقاعِـدةُ الفِعلِ وردِّ الفِعلِ هـي رائدةُ الدجلِ والدجاجِلـةِ عبـرَ تاريخِ التحـوُّلاتِ ، وأما ما نحن بِصددِه فسـلامةٌ ومحبَّةٌ ورحمةٌ ووِراثةٌ وخِلافةٌ ، والأمرُ للَّهِ مِن قبلُ ومِن بعدُ .

مهمات المهدي وسياسته العلمية والعملية

وقد وصفَتِ الأحادِيثُ خَلْقَهُ وسـيرتَه ، ونُحيلُ الراغِبَ في ذلِكَ إلى تفاصيلِ ما ذُكِـرَ فـي « التليدِ والطارِفِ » وغيرِهـا مِنَ المُؤلَّفاتِ ، ونقتصِـرُ هاهنا على ما نحنُ

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (٦٣٨).

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (٨٩٦) .

(٣) كنز العمال (٣١٥١٤).

بِصددِه مِن جوامِعِ العلاماتِ، ومنها أنَّه:

- يعملُ على نشرِ السُّنَّةِ وإماتةِ البدعةِ «لا يوقِظُ نائمًا، ولا يُريقُ دمًا، يُقاتِلُ على السُّنَّةِ، يقومُ بِالدينِ آخِرَ الزمانِ كما قام بِه النبيُّ ﷺ».
- يملِكُ الدُّنيا كُلَّها كما ملكَها ذو القرنَين وسُليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ينشُرُ دِينَ الإسلامِ في الأُممِ الكافِرةِ معَ قطعِ عقيدةِ التثليثِ فيما يبلُغُ إلَيه مِنَ البِلادِ، أمَّا الانقِطاعُ الكامِلُ لِهذه الانحِرافاتِ فيكونُ على يدِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما بعدَ ذلِكَ.
- يحثو المالَ، ويفي بِحاجاتِ الشُّعوبِ الاقتِصاديةِ، أي: توزيعُ الثروةِ بِالعدلِ والإنصافِ.
- يقطعُ المُعاملاتِ الرِّبويةَ وسياسةَ الاقتِصادِ الرأسماليِّ والشُّيوعيِّ وغيرِها مِن نظرياتِ الاقتِصادِ الوضعيةِ

انقطاع الربا والاقتصاد الرأسمالي

- يُوحِّدُ آراءَ الشُّعوبِ بِالعَودِ إلى نِظامِ الخِلافةِ وإنْهاءِ بدعةِ الحِزبيةِ والتَّكَتُّلِ والصِّراعِ الطبقيِّ والاعتِقاديِّ والطائفيِّ والسياسيِّ ... إلخ.
- بل ويُعيدُ المُسلِمين إلى أُصولِ الديانةِ في أُسسِها المُشتركةِ بعيدًا عنِ التشريكِ والتبديعِ والتظليلِ عِندَ قومٍ، وبعيدًا أيضًا عنِ الصِّراعِ المذهبيِّ المُسَيَّسِ بِكُلِّ صورِه وأشكالِه، وبعيدًا عنِ الإفراطِ والغُلُوِّ في الاعتِقادِ عِندَ الآخرين، وفيه قالَ عنِ الليثِ عن طاوُسَ قالَ: «علامةُ المهديِّ أن يكونَ شديدًا على العُمَّالِ جَوادًا بِالمالِ رحيمًا بِالمساكينِ» (الفِتَنُ الخامِسُ / ص ٦٥٠، برقْم ٩٧٨) وقالَ: إسنادُه حسنٌ، حتَّى إنَّ بعضَ عُلماءِ مرحلتِه يشُكُّ في كَونِه هو المهديَّ المُبَشَّرَ به؛ لِما يراه فيه مِن مُخالفةِ ظاهِرِ الفتوى

شك بعض العلماء المذهبيين في حقيقة الإمام

في المذهبِ، وإلى ذلِكَ أشارَ الإمامُ البرزنجيُّ في الإشاعةِ .

- يُصحِّحُ مفهومَ الحُرياتِ وحُقوقِ الإنسانِ ، ويعيدُها إلى موقِعِها الصحيحِ مِن مبادئِ الإسلامِ السَّمْحةِ ، ويقطعُ التدخُّلاتِ الثقافيةَ المُنحرِفةَ بِكافَّةِ نماذِجِها وصورِها التعليميةِ والتربويةِ والإعلاميةِ والثقافيةِ .

ظهور البركة في المنتجات المحلية

- ظُهورُ البركةِ في الطعامِ والإنتاجِ الزراعيِّ والحيوانيِّ بإقامةِ ودعمِ مبدأِ الاكتِفاءِ الذاتيِّ ، وتصحيحِ العِلاقاتِ بَينَ الناسِ ؛ لِتسودَ الرحمةُ والمحبَّةُ والوئامُ ، خُصوصًا في المرحلةِ الأولى مِنَ استقرارِ حياتِه السياسيةِ والاقتِصاديةِ .

- دُخولُ الإمامِ المهديِّ بعدَ ذلِكَ في المعارِكِ العسكريةِ ضِدَّ جُيوشِ السُّفيانيِّ الثاني حتَّى يأسِرَه ويقتُلَه بِالشامِ .

معارك الإمام معَ السيفاني ومهادنة الروم

- مهادنةُ الرومِ وطاعةُ مُلوكِ الأرضِ لِلمهديِّ عِدةَ سنواتٍ . وهي المرحلةُ التي تتقوى فِيها شَوكةُ الإسلامِ والمُسلِمين ، وتُطبَّقُ الشريعةُ الإسلاميةُ في كافَّةِ البِلادِ الإسلاميةِ ، وتعودُ لِلأمَّةِ هيبتُها أمامَ دُولِ العالمِ ، وتُقامُ الهدنةُ تِلوَ الهُدنةِ معَ العديدِ مِن دُولِ الكُفرِ في المرحلةِ ، بما فِيها « دَولةُ اليهودِ المعروفةُ في الأرضِ المُحتلَّةِ » ؛ إذ تجبُنُ عن شنِّ حربٍ ضِدَّ قرارِ الإسلامِ لِعِدةِ سنواتٍ ، يبرُزُ فِيها أمرُ اللَّهِ بِالعدلِ والاستِقرارِ والأمنِ والبركةِ في الأرزاقِ والنياتِ والإنباتِ .

المرحلةُ الثانيةُ مِنَ المهديةِ

انتقاض العرى وبدء الحروب

انتِقـاضُ العُرى معَ الرُّومِ التي كانَت مُهادِنةً لِلمهديِّ ، وتبدأُ الحربُ مِن جديدٍ ، وتغزو الرومُ الشامَ ، وتستولي علَيها ، وتقومُ المعارِكُ حيثُ ينتصِرُ الإمامُ المهديُّ علـى الـرُّومِ ، ويغزوهم في عُقرِ دارِهم ، ويأخذُ غنائمَهـم إلى بَيتِ المقدِسِ ، جاءَ في الإشاعةِ « الملحمةُ العُظمى وفتحُ القُسطنطينيةِ وخُروجُ الدَّجَّالِ في سبعةِ أشهُرٍ ، وفي رِوايةٍ : سبع سنين » .

انتصار الإمام على دَولة الكفر والصليب وأخذ كنوزهم

وفـي هذه المرحلةِ تسـتثيرُ انتِصـاراتُ الإمامِ المهـديِّ « المسـيخَ الدَّجَّالَ » في مكمنِه فيبدأُ بِالحركةِ والظُّهورِ كما سـيأتي . وقد أشـارَت جُملةٌ مِنَ الآثار أنَّ هذه المرحلةِ تمتدُّ فِيها الحُروبُ ويعودُ الجِهادُ في سبيلِ اللَّهِ في أنحاءٍ كثيرةٍ ، حتَّى إنَّ المُسـلِمين يغزون الهِندَ ويفتحونها ، وأغلبُ الأحاديـثِ في هذا البابِ ضعيفةٌ إلَّا أنَّ بعضَها يُقوي بعضَها ، وفِيها حديثٌ حسنٌ ذكرَه صاحِبُ كِتابِ الفِتَنِ (ص٢٩٠ الخامِـس/ برقْـم ١١٥٢) عن جراحِ بنِ أرطأةَ قالَ : على يـدِ ذلِكَ الخليفةِ اليمانيِّ الذي يفتحُ القُسـطنطينيةَ وروميةَ ، على يديه يخرُجُ الدَّجَّالُ وفي زمانِه ينزِلُ عيسى بـنُ مريـمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وعلى يدَيه ـ أي : الخليفة اليماني ـ تكونُ غزوةُ الهِندِ ، وهو مِن بنـي هاشِـمٍ[1] ، وغـزوةُ الهِندِ التي قـالَ فِيها أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «وعدَنا رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غزوةَ الهِندِ ، فإن أدركتُها أنفقتُ فِيها نفسـي ومالي ، فإنِ استشـهدتُ كنتُ مِن أفضلِ الشـهداءِ ، وإن رجعتُ فأنا أبـو هُرَيرةَ المحرّرُ » [2] ، وفي ذات الموضع أثر عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُـولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

---

(١) الفتن لنعيم بن حماد (١١٥٢) .

(٢) سنن النسائي (٣١٨٧) .

عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عِصَابَتَانِ مِنْ أُمَّتِي أَحْرَزَهُمَا اللَّهُ مِنْ النَّـارِ عِصَابَةٌ تَغْزُو الْهِنْدَ وَعِصَابَةٌ تَكُونُ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَام. وأثر آخر وهو: عن جراح بن أرطأة قال: على يدي ذلك الخليفة اليماني الذي يفتح القسـطنطينية وروميـة، على يديه يخرج الدجال وفي زمانه ينزل عيسـى بن مريم عليه السـلام، على يديه تكون غزوة الهند ، وهو من بني هاشم .

المرحلةُ الدَّجَّاليةُ : ظُهورُ المسيخِ الدَّجَّالِ (١)

المرحلة الدجالية وموقع الدجال من علامات الساعة

(١) تعتبر قضية الدجال الأعور قضيةً عالميةَ الفتنة والخطورة ، وليست خاصة بمرحلة ظهور الدجال في آخر الزمان ، وإنما يكون ظهوره على ركام سلسلة من التحولات المتلاحقة التي تمهد لظهور جذوره الأخيرة .

حيث إن ظهور المسيخ الدجال في آخر الزمان ومسحه للعالم الإنساني في أربعين يوما إنما هو آخر فصول نشاطه الدجالي في العالم ونهايته الحتمية مع دولة اليهود الدجالية ، وسنتناول هذا الموضوع في كتابنا « السياسة الدجالية ومولودها المنتظر » ، ولهذا فإن من العلامات التي تتنامى منذ أن خلق الله الأرض إلى ظهورها في المرحلة الأخيرة كأول العلامات الكبرى هي فتنةُ « المسيخِ الدجالِ » وفي هذا الصدد أتت أحاديث رسول الله ﷺ مفصلة ومبينة لهذا التنامي الخطير في تاريخ التحولات العالمية ومنها :

- ما رواه أحمد عن هشام بن عامر الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أكبر من فتنة الدجال » .
- وقال : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال » . رواه مسلم
- وقال : « إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة المسيخ الدجال ، وإن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال ، وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة » . رواه ابن ماجه .
- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » . رواه مسلم .

ومن هذه الأحاديث نفهم خطورة الامتداد الدجالي ـ للدجل والدجاجلة ـ وأنه أشد خطرا على الأمة في تحولاتها بدءا من مرحلة قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مرحلة خروج المسيخ الدجال في آخر الزمان ، ومن هذه العلامات :

(١) ما ورد في مجموع العلامات الوسطى والصغرى جملة وتفصيلا .

(٢) ظهور الأئمة المضلين الذين يروضون الشعوب حكما وعلما لفتنة الدجال ، وفيهم يقول ﷺ فيما رواه أبو ذر ، قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال : «لَغَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي على أمتي» (ثلاثا) قال : قلت يا رسول الله ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك ؟ قال : « أئمةً مضلين » . رواه أحمد وفي إسناده راو مختلف فيه، «إتحاف السادة

موقِعُ الدَّجَّالِ مِن علاماتِ الساعةِ

تندرِجُ فِتنةُ المسيخِ الدَّجَّالِ بَينَ الأشراطِ والعلاماتِ المعروفةِ ، يَخْدُمُ بعضُها البعضَ ، من عهدِ آدمَ إلى نِهايةِ مرحلةِ الدَّجَّالِ ، وقد أفاضَتِ الأحادِيثُ الشريفةُ في الركنِ الرابعِ وما تفرَّعَ عنه « عنِ فِتنةِ الدَّجَّالِ » واختلفَ العُلماءُ في تفسيرِ هذا الأمرِ تبعًا لِلاختِلافِ الواردِ في الأحاديثِ عن شخصيتِه ، ونحن هنا نضعُ فصلًا خاصًّا به لِما له مِنَ الأهميةِ في فِقهِ التحوُّلاتِ ، بل إنَّ كثيرًا مِن مُجرياتِ التاريخِ وانحرافاتِه له عِلاقةٌ وطيدةٌ بِهذا المخلوقِ المُفسِدِ ، ولقد ثبتَ في الحديثِ الصحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ قدِ احتارَ في أمرِه ، وظلَّ موضوعَ الدَّجَّالِ شاغِلًا لِلذَّاتِ النبويةِ ، حتَّى تبيَّنَ له الأمرُ البيِّنُ في شأنِه كما قد أشرْنا إلى ذلِكَ في كِتابِنا « التليدُ والطارِفُ » ، ولكنَّ الأهميةَ التي نطرُقُها هنا ترجِعُ إلى ثلاثةِ أُمورٍ :

أولُها : موقِعُ الدَّجَّالِ مِن تاريخِ الإنسانيةِ بِعُمومِها .

ثانيها : موقِعُ الدَّجَّالِ مِن تاريخِ الرِّسالةِ الخاتمةِ .

المتقين» للزبيدي (١: ٣٥١) .

(٣) خفة الدين وإدبار العلم وغفلة المنابر عن ذكره . وخفةُ الدين وضعف اليقين والإيمان وكثرة الإرجاف والإسفاف في مواقع الديانة ذاتها ، ومنها الوزارات والمؤسسات القائمة بأمر الديانة في المجتمعات ، وأما إدبار العلم فهو ذهابه وإهماله من قبل عموم الناس واشتغالهم بالبدائل ومناهج التعليم وتعليم الخدمات ، إضافة إلى غياب العلم الخاص بالتحولات لغياب العلم بالركن الرابع من أركان الدين .

وعن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ وهو نائم فذكرنا الدجال ؛ فاستيقظ محمرا وجهه ، فقال : « غير الدجال أخوف على أمتي .. أئمةً مُضِلِّين » . رواه أحمد، وإسناده صحيح على شرط مسلم .

ثالثُها : أهميةُ دراسةِ الدَّجَّالِ فِكرًا وذاتًا ، وقد قالَ ابنُ ماجه : سمِعتُ أبا الحسنِ الطنافسيَّ يقولُ سمِعتُ عبدَ الرحمنِ المُحارِبيَّ يقولُ : « ينبغِي أن يُدفَعَ هذا الحديثُ إلى المؤدِّبِ ؛ حتَّى يُعلِّمَه الصبيانَ في الكُتَّابِ »[1].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِندَ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالَ : « لأنا لِفتنةِ بعضِكم أخوفُ عندي مِن فِتنةِ الدَّجَّالِ ، ولن ينجوَ أحدٌ مِمَّا قبلَها إلَّا نجا مِنها ، وما صُنِعَت فِتنةٌ ـ مُنذُ كانَتِ الدُّنيا ـ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلَّا لفِتنةِ الدَّجَّالِ »[2].

ومعَ وُجودِ الاختِلافِ حولَ شخصيةِ الدَّجَّالِ فإنَّ الأمرَ المُهِمَّ فيما نحنُ بِصددِه ما يلي :

(١) **لِلدجالِ مرحلتان** : مرحلةُ فتنتِه التي بَينَ يدَيه ، ومرحلةُ ظُهورِ ذاتِه .

وكِلا المرحلتَين خطيرتان جدًّا في حياةِ الشُّعوبِ . بل إنَّ كُلَّ انحِرافٍ عن منهجِ الدياناتِ مُنذُ عهدِ آدمَ إلى ظُهورِ الدَّجَّالِ في آخِرِ الزمانِ ينطوي تحتَ مُسمَّى «فِتنةِ الدَّجَّالِ» ، ويُمهِّدُ لِلسياسةِ الدَّجَّاليةِ في الأرضِ مِن مرحلةِ الخفاءِ وحتى مرحلةِ ظُهورِه الأخيرِ ، ومرحلةُ ظُهورِه ستأتي في آخِرِ الزمانِ معَ نِهايةِ مرحلةِ الإمامِ المهديِّ وبدايةِ عهدِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا أنَّ بعضَ الأحاديثِ ذكرَت خُروجَ الدَّجَّالِ وسيرَه في الأرضِ سابِقًا ووُجودَ بصماتٍ عمليةٍ لِدولتِه في نِظامِ الحياةِ الإنسانيةِ، ومِنها :

حديثُ عِمرانَ بنِ الحُصَينِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « لقد أكلَ الدجالُ

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٢١٥).

(٢) مسند أحمد (٢٤٠٠٥).

الطعام ومشى في الأسواقِ »[1] .

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سأل رسولَ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ عن الدجال فقالَ : « هو يَومَهُ هَذَا قد أكلَ الطعامَ »[2].

وَعَن الحَسَنِ عن عبدِاللّهِ بنِ مُغَفَّلٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ قال: «لَقَدْ أَكَلَ الطّعَامَ وَمَشَى في الأَسْوَاقِ» يعني الدّجَّالَ[3].

وهذه الأحاديثُ بِمجموعِها تؤيِّدُ مسيرةَ الدَّجَّالِ الاستِطلاعيةَ في الأرضِ مِن قبلُ ، ومعرفتَه بِشُؤونِ العالمِ ، ودراستَه لحياةِ الشُّعوبِ وأوضاعِ الأُممِ ، واللّهُ أعلمُ[4] .

وقد أشرْنا في « التليدِ والطارِفِ » إلى قصةٍ ذكرَها بعضُ المُهتمِّين بدراسةِ الدَّجَّالِ ، وفِيها ما يُشيرُ إلى وُجودِه في عهدِ موسى وعيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ، وهو يجوبُ الأرضَ ويمسحُها ويتعرَّفُ على أكنافِها وأطرافِها ، وأنَّ حبسَه ووثاقَه في إحدى الجُزُرِ كانَ معَ ميلادِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ، ويؤيِّدُ هذا المعنى حديثُ تميمٍ الداريِّ والجَسَّاسَةِ ، إلَّا أنَّه عادَ إلى الحركةِ بعدَ وفاةِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ لِيُكمِلَ مشروعَه الدَّجَّاليِّ في العالمِ . ويبني قاعِدةَ دولتِه المُستقبليةِ ؛ ولكنَّنا في كِتابِنا هذا تجاوزْنا هذه الرِّوايةَ إشفاقًا على بعضِ القُرَّاءِ الراغبين في تَوهينِ الصحيحِ والمُفيدِ متى ما وجدوا شَيئًا مِنَ الخبرِ الواهِنِ أوِ الضعيفِ في جانبٍ مُعيَّنٍ ، بحيثُ يُفسِدون المنهجَ الموضوعَ ويُشوِّشونَ الفِكرةَ على المخدوعِ .

---

(١) المعجم الكبير (٣٣٩).

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير (٧٨٥٢).

(٣) المعجم الأوسط (٨١٥٤).

(٤) للاستزادة راجعْ « سُبُلَ الهُدى والرشادِ » (١٠ : ١٦٦)

(٢) **ومَوقِعُ الدَّجَّالِ في الشُّعوبِ يبدأُ مِن موقِعِ « القرارِ السياسيِّ »** : فالقرارُ السياسيُّ في كُلِّ مرحلةٍ هو مِحورُ التأثيرِ للدجلِ، وموقِعُ المتنفِّذين مِنَ الدجاجِلةِ، وسببُ النقضِ المُدمِّرِ لِلدياناتِ في الشُّعوبِ .

(٣) **والفكرُ الإنسانيُّ المُسمَّى بالـ « أيديوليجيات » هو « مادةُ الدجلِ العالميِّ » في الحياةِ البشريةِ** ، وأساسُه الكُفرُ ، والكُفرُ عقيدةُ الشَّيطانِ ، ومُهِمَّةُ الدَّجَّالِ ترويضُ الشُّعوبِ بِالترغيبِ والترهيبِ لِقَبولِ الانحِرافاتِ المُتنوِّعةِ المؤديةِ إلى «الكُفرِ» عن طريقِ الهيمنةِ المُسَيَّسةِ على « قراري الحُكمِ والعِلمِ » .

(٤) **أنَّه مخلوقٌ مِنَ البشرِ** ، وأرجحُ الرِّواياتِ تُشيرُ إلى أنَّه مِنَ اليهودِ ، وليسَ ابنَ صيادٍ الذي في عهدِ النُّبوةِ ، وإنَّما ذاكَ مِن دجاجِلةِ المرحلةِ . فالدَّجَّالُ مخلوقٌ منحَه اللَّهُ قُدُراتٍ علميةٍ وعمليةٍ وامتِدادٍ في العُمرِ لِحكمةٍ إلهيةٍ في الوُجودِ ، وهذا ما يُؤكِّدُه حديثُ تميمٍ الداريِّ في الصحيحِ .

(٥) **أنَّ لِلدجالِ عقيدةً وفِكرًا**، وهو ما يُسمَّى بالدَّجْلِ ، وهو تمويهُ الباطِلِ وإضفاءِ صورةِ الحقائقِ عليه ، وله أُسلوبٌ إرهابيٌّ في معالجةِ الأُمورِ « سُلطةُ العُنفِ » وهذا ما تفسِّرُه كثيرٌ مِنَ الأفلامِ والمُسلسلاتِ والكارتونِ المُنْتَشِرَةِ اليَوْمَ، وأيضًا سياسةُ دَولةِ اليهودِ كإحدى الظواهِرِ الثقافيةِ المُمهِّدةِ لِلمسيخِ الدَّجَّالِ .

(٦) **هناك ارتباطٌ وطيدٌ بَينَ الدَّجَّالِ والدجاجِلةِ** وهم عُلماءُ الدينِ والدُّنيا الذين يُهندِسونَ القضايا والأديانَ ، ويُحرِّفونَ الكلِمَ عن مواضِعِه لِتحقيقِ مُراداتِ الشَّيطانِ والدَّجَّالِ في العالمِ .

(٧) **أهمُّ ما يمكِنُ في هذا العِلمِ « فِقهِ التحوُّلاتِ » وعلاقتِه بِسياسةِ الدَّجَّالِ تتبُّعِ الأحاديثِ الواردةِ في هذا البابِ** ، ولعلَّ أهمَّ حديثٍ يُبرِزُ لنا خُطورةَ هذا المخلوقِ

وفِتنتِه وخاصَّةً لدى عوامِّ الأُمَّةِ وجهلةِ المُسلِمين ما علَّمنا إيَّاه ﷺ مِنَ الاستعاذةِ المُستمِرَّةِ في الصلاةِ « مِن فِتنةِ المسيخِ الدَّجَّالِ » ، وهذه إشارةٌ واضِحةٌ إلى أهميةِ الأمرِ وضرورةِ العِلمِ بِه .

(٨) **أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الدَّجَّالَ كذاتٍ إنسانيةٍ ليسَ خطرًا إلى حدٍّ بعيدٍ ، وإنَّما الخُطورةُ في المراحِلِ التي تُصابُ فِيها الأُمَّةُ بِالفِتنِ** ، وهي المشاريعُ المعرِفيةُ تربيةً وتعليمًا ودعوةً وإعلامًا وثقافةً واقتِصادًا وقرارًا سياسيًّا ، تُحقِّقُ نجاحَ مسيرةِ المسيخِ الدَّجَّالِ وفي ذلِكَ يقولُ ﷺ : « لستُ أخشى علَيكمُ الدَّجَّالَ ، ولكِن أخشى علَيكم عُلماءَ الفِتنةِ » . وفي الحديثِ الآخرِ : « غَيرُ الدَّجَّالِ أخوفَني على أُمَّتي مِنَ الدَّجَّالِ الأئمةُ المُضِلُّون » . أخرجَه أحمدُ والسُّيوطيُّ في الجامِعِ الصغيرِ . وعن شدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مِن أخوفِ ما أخافُ على أُمَّتي أئمةٌ مُضِلُّون . وإذا وقعَ السَّيفُ لم يُرفَعْ إلى يومِ القيامةِ »[1] .

وعن أبي الطُّفَيلِ عن أبي سَريحةَ حُذَيفةَ بنِ أَسيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قالَ : « أنا لِغيرِ الدَّجَّالِ أخوفُ عليَّ وعلَيكم » قالَ فقُلنا ما هو يا أبا سَريحةَ . قالَ : فِتَنٌ كأنَّها قِطعُ اللَّيلِ المُظلِمِ . قالَ : فقُلنا أيُّ الناسِ فِيها شرٌّ ؟ قالَ : كُلُّ خطيبٍ مِصقعٍ وكُلُّ راكِبٍ موضِعٍ قالَ : فقُلنا أيُّ الناسِ فِيها خَيرٌ ؟ قالَ : كُلُّ غنيٍّ خفيٍّ . قالَ : قُلتُ: ما أنا بِالغنيِّ ولا بِالخفيِّ . قالَ : فكُنْ كابنِ اللبونِ لا ظهرَ فيُركَبُ ، ولا ضرعَ فيُحلَبُ» .[2] وعلى هذا الأساسِ فإنَّ الدَّجَّالَ والدجاجِلةَ والدجلَ هم المُركَّبُ الثُّلاثيُّ الذي يُسيطِرُ على مجموعِ الحركةِ البشريةِ في العالَمِ ، وهو ما خافَ منه ﷺ وحذَّرَ منه سواءً في الأُممِ السابقةِ أو في أُمَّةِ الإسلامِ خُصوصًا ، ومِن ذلِكَ

(١) الأحاديث الواردة في الفتن للداني (١: ٥١).

(٢) رواه الحاكِمُ في مُستدركِه ، وقالَ : صحيحُ الإسنادِ . إتحافَ الجماعةِ (١: ٤٩) .

قَولُه ﷺ فيما رواه أصحابُ السُّننِ : « إِنَّهُ لم تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرضِ منذُ ذَرَأَ اللّهُ ذُرِّيَّةَ آدمَ أعظمَ مِن فِتْنَةِ الدّجّالِ »[1] .

وحديثُ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَعْدَ نُوحٍ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ الدَّجَّالَ قَوْمَهُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ»[2].

وهذه الأحاديثُ مُجتمِعةٌ فِيها دلالةٌ خطِيرةٌ على موقِعِ الدَّجَّالِ كمُؤامرةٍ ، وإنَّ أُسلوبَ المُؤامراتِ والعملَ المُبطَّنَ القائمَ على الصِّراعِ السياسيِّ عملٌ دجاليٌّ يخدُمُ الفِتنةَ المُنتظرةَ لِظهورِ المسيخِ الدَّجَّالِ ، وقد لُوحِظَ هذا في ما بعدَ قتلِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ اتَّسعَتْ دائرةُ الفِتَنِ بَينَ المُصلِّينَ ، وقُتِلَ فِيها أيضًا سيِّدُنا عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما بعدُ على أيدي المُصلِّين .

واتسعَت هذه الدائرةُ الدَّجَّاليةُ بعدَ ذلِكَ لِتشملَ كافةَ العناصِرِ المُثيرةِ لِلفِتنِ ، سواءٌ في مستوى الحُكمِ أوِ العِلمِ أو في مُستوى تحريضِ الشُّعوبِ ، كما هو في مرحلةِ الإمامِ الحسنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ عاصرَ الفِتنةَ الدَّجَّاليةَ مِن جهتَين : مِن جِهةِ دُعاةِ المُلكِ العضوضِ من جهة ، ودُعاةِ الحربِ والانتِقامِ مِنَ المجموعاتِ التي شاركَتْ في مقتلِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ في مقتلِ والدِه الإمامِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جهة أخرى. ثم كيف تفادى الإمامُ الحسنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرحلتِه هَيمنةَ الفِتنةِ فاجتهدَ رأيَه بِقَبولِ الصُّلحِ اختيارًا مِنه ، لا إجبارًا له كما فعلَ أهلُ الفِتنةِ معَ والِدِه عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صِفِّينَ وما تلاها ، فكانَتِ التضحيةُ بِالقرارِ عِندَه أَولى في سبيلِ حِفظِ الأُمَّةِ ودوامِ الاستِقرارِ . واتخذَتِ الفِتنةُ شكلَها الخطيرَ في المؤامرةِ فيما بعدَ ذلِكَ

(١) سنن ابن ماجه (٤٠٧٧).

(٢) سنن أبي داود (٤٧٥٨).

على شهيدِ الإسلامِ الإمامِ الحُسَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وما ترتَّبَ على الغدرِ بِه مِنَ التسييس الدَّجَّاليِّ ، سـواءٌ عِندَ حملةِ قرارِ المُلكِ العضوضِ أو لدى المُتخاذِلين عن نُصرتِه مِن شيعتِه الدافعين له إلى الخُروجِ[1] .

لقـد كانَـت هـذه المراحِلُ مُنـذِرةٌ بانحِرافٍ خطيرٍ فـي قرارِ الحُكـمِ وما تلاه مِن نقـضٍ فـي قضايا العِلـمِ ، وبهذه النواقِضِ اتسـعَ أمرُ الدجلِ والاختِـلافِ فيما بعدُ فـي دائرتَـيِ الحُكمِ والعِلمِ إلَّا مَـن رحِمَ اللَّهُ ، والذين رحِمَ اللَّـهُ هم أولئك الأئمةُ والأتباعَ ، الذين لزمُوا منهجَ النمطِ الأوسـطِ ، ودافعوا عنِ الحقِّ اجتِهادًا بِالسـيفِ حينًـا كضـرورةٍ ، وحينًـا بِالدعوةِ كهدفٍ ، وهـمُ الذين ينطبِقُ علَيهـم حديثُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الـذي رواه العِربـاضُ بـنِ سـاريةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقد أشـرْنا إلَيه سـلفًا ، وفيه يقولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: « اسمعوا وأطيعوا ! ولو تأمَّرَ علَيكم عبدٌ فإنَّه مَن يعشْ منكم فسيرى اختِلافًا كثيـرًا فعلَيكم بِسُـنَّتي وسُـنَّةِ الخُلفاءِ الراشـدين المهديين من بعـدي عضُّوا علَيها بِالنواجِـذِ ... »[2] . فكانَـت سـلامةُ الأُمَّةِ هدفَهم ، ومسـألةُ القرارِ وسـيلةً لا غايةً ، فمتـى مـا امتلكُوه بِـلا مُنازعةٍ عدلـوا فيه ، ومتى مـا نوزِعوا فيه عدلـوا عنه لِما هو أفضلُ وأسـلمُ ، وأفشلوا سياسةَ الشَّـيطانِ والدَّجَّالِ في استِثمارِ التحريشِ وضربِ المُسلِمِ بالمُسلِمِ .

وعن أبي الطُفَيلِ عن أبي سَـريحةَ عن حُذَيفةَ بنِ أَسـيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ :« أنا لغيرِ الدَّجَّـالِ أخـوفُ على أُمَّتي » . قالَ : فقلنا : ما هو يا أبا سَـريحةَ ؟ قالَ : « فِتنٌ كأنها قِطعُ اللَّيلِ المُظلِمِ » . قالَ : فقُلنا : أيُّ الناسِ فِيها شـرٌّ ؟ قالَ : « كُلُّ خطيبٍ مِصقَعٌ

---

(١) كتبنـا فـي هذا الباب كتابنا « إحياء منهجية النمط الأوسـط من سـادة الصلح وبقية السـيف وبراءتهما من طرفي الإفراط والتفريط » وتوسعنا فيه ، وقد طبع فليراجع للاستزادة.

(٢) سنن أبي داود (٤٦٠٩) .

، وكُلُّ راكِبٍ مَوضِعٍ » . قالَ : فقلنا : أيُّ الناسِ فِيها خَيرٌ ؟ قالَ : « كُلُّ غنيٍّ خفيٍّ » . قـالَ : قُلـتُ : ما أنا بِالغنـيِّ ولا بِالخفيِّ . قالَ : « فكُنْ كابنِ اللبونِ لا ظهرَ فيُركَبُ ، ولا ضـرعَ فيُحلَبُ » [1]، وقد أشـرْنا في كِتابِنا « التليـدِ والطارِفِ » إلى أوَّلِ ظُهورِ مراحِلِ فِتنةِ المسـيخِ الدَّجَّالِ في الأُمَّةِ المُحمَّديةِ كما وردَت في النَّصِّ الشـرعيِّ ، وهـي مرحلـةُ مقتلِ الخليفـةِ الثالِثِ عُثمانَ بنِ عفَّـانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهي المرحلةُ التي ظهرَ فِيها الدجلُ السياسـيُّ ، حتَّى تمكَّنَ أتباعُه مِـنَ التأثيرِ على الواقِعِ الاجتِماعيِّ ، وتجـرؤوا بِمـا نسـجُوه مِن مُلابسـاتِ الحِيـلَ والتُّهـمِ والقضايا على قتلِ سـيِّدِنا عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكيف انتقلَتِ القضيةُ مِنَ المُطالبةِ بِإصلاحِ الواقِعِ السياسـيِّ إلى قتلِ حامِلِ قرارِه ، وهذه المرحلةُ مفصلٌ هامٌّ في دراسـةِ التاريخِ الشـرعيِّ مربوطًا بِالأحاديثِ النبويةِ في فِقهِ التحوُّلاتِ .

بل إن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِمَّا رواه حُذَيفةُ بنُ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : « أوَّلُ الفِتَنِ قتلُ عُثمانَ ، وآخِرُها خُروجُ الدَّجَّالِ ، والذي نفسـي بيدِه ، ما مِن رجُلٍ في قلبِه مِثقالُ حبَّةٍ مِن قتلِ عُثمانَ إلَّا تبعَ الدَّجَّالَ إن أدركَه ، وإن لم يُدركْه آمن بِه في قبرِه»[2] .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (لا تَقْتُلُوا عُثْمَانَ فَإِنّكُم إِنْ فَعَلْتُمْ لَمْ تُصَلُّوا جَمِيعاً أبداً)[3].

وعن سمُرةَ قالَ : « إنَّ الإسلامَ كانَ في حِصنٍ حصينٍ ، وإنَّهم ثلمُوا في الإسلامِ ثلمـةً بِقتلِهـم عُثمانَ لا تُسـدُّ إلى يومِ القيامـةِ»[4] . وأخرجَ مُحمَّدُ بنُ سـيرينَ قالَ :

---

(١) رواه الحاكِمُ في مستدركِه (٨٦١٢)، وانظر إتحاف الجماعة (١: ٤٩).

(٢) جامع الأحاديث للسيوطي (٣٧٣٢٤) .

(٣) فضائل الصحابة (٧٩٦).

(٤) تاريخ دمشق (٣٩: ٤٨٣) .

« لـم تُفْقَـدِ الخَيلُ البلـقُ في المغازي والجُيـوشِ حتَّى قُتِلَ عُثمـانُ »[1] . وفي هذه الأحاديثِ والمروياتِ إشـارةٌ خِطيرةٌ إلى اندِراجِ الفِتَنِ في أوضاعِ الأُمَّةِ السياسـيةِ ، وإنَّ موقِـعَ الدَّجَّـالِ في العالمِ الإسـلاميِّ والعربيِّ مُنـذُ تِلكَ اللحظـةِ ينطلِقُ مِنَ الاختِلافِ حولَ مسألةِ القرارِ .

(٩) **يتحـركُ « المسـيخُ الدَّجَّـالُ » ومعَـه مِن يهودِ أصبهانَ سـبعون ألفًـا ، وذلِكَ بعـدَ انتِصارِ الإمامِ المهديِّ علـى الرومِ** . وكانَ هذا الأمرُ يُثيرُ الدَّجَّالَ ، ويخرُجُ مِن مكمنِـه كما وردَ في الحديثِ « إنَّه يخرُجُ في غضبةٍ يغضبُها »[2] إلاَّ أنَّ الدَّجَّالَ يبدأُ بـادئَ ذي بدءٍ بدعـوى الإيمانِ والديانةِ والصـلاةِ والتقوى حتَّى يُميـلَ إلَيه الناسَ ويُحبُّونـه ، ولم يزل يظهرُ حتَّى يقدُمَ الكوفةَ على العِراقِ ، ثُمَّ يُظهِرُ ادِّعاءه بِالنُّبوةِ ؛ فيتفـرقُ عنه الناسُ ، ثُمَّ يدعي الأُلوهيةَ وتظهَرُ العلاماتِ الواضحِةَ بِكُفرِه ودجلِه . ويُعلِنُ عن هُويتِه .

(١٠) تشـتدُّ الحالـةُ الاقتِصاديـةُ على الناسِ مرحلـةً ويكثُرُ الجـوعُ والفقرُ حتَّى يتمنَّـى النـاسُ خُروجَـه . ففي حديثِ حُذَيفـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «يأتـي على الناسِ زمانٌ يتمنَّـون فيه الدَّجَّال» ، قُلتُ: بِأبي وأمِّي يا رسـولَ اللَّهِ مِمَّ ذاك ؟ قالَ: «مِمَّا يلقونه مِنَ الضناءِ والعناء» [3] ، ولعلَّه : مِنَ الغُثاءِ والعناءِ[4] .

(١٠) يتبعُه سبعون ألفًا مِن يهودِ أصبهانِ[5] وثلاثةَ عشرَ ألفَ امرأةٍ[6] .

---

(١) تاريخ دمشق (٣٩: ٤٩٣) .

(٢) صحيح مسلم (٧٥٤٣).

(٣) الطبراني في الأوسط (٢٦٤٢٧).

(٤) انظر علامات الساعة ليوسف الوابل ص٢٠٩ .

(٥) صحيح مسلم (٧٥٧٩).

(٦) الفتن لنعيم بن حماد (١٥١٨).

(١١) يسيحُ في الأرضِ أربعين يومًا [١].

(١٢) يخرُجُ في خِفَّةٍ في الدينِ وإدبارٍ مِنَ العِلمِ ولا يبقى على الأرضِ من يحاجُّه، ويذهلُ الناسُ عن ذكرِه[٢].

(١٣) يفتِنُ الأعرابَ وأهلَ السوادِ والأطرافِ، ويُحيي أمواتَهم، ويأمُرُ السحابَ فيُمطِرَ والأرضَ فتُخرِجَ كُنوزَها رأيَ العينِ.

(١٤) طيُّ الوقتِ وطيُّ الأرضِ له، «تُطوى لـه الأرضُ مهلًا مهلًا طيَّ فروةِ الكبشِ» [٣].

(١٥) يغلُبُ على أهلِ فارِسٍ، ثُمَّ يمُرُّ إلى العِراقِ، وإلى الجزيرةِ العربيةِ، ويدخُلُ أطرافَ مكَّةَ والمدينةَ، ثُمَّ يُتابعُ مسيرتَه إلى الشامِ، حيثُ جُندُ الإمامِ المُنتظَرِ تحتَ الحِصارِ في جبلِ الدُخانِ ببَيتِ المقدِسِ.

(١٦) يُشدِدُ الدَّجَّالُ وجنودُه الحِصارَ على الإمامِ المهديِّ ومَن معه، ويُجهِدُهم جهدًا شديدًا.

(١٧) أشدُّ الناسِ على الدَّجَّالِ «بنو تميم»، وفي هذا روى البزارُ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: ذكرَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «بني تَميم» فقالَ: «هُم ضِخامُ الهامِ، ثبتُ

---

(١) الطبراني في الأوسط (٩١٩٩).

(٢) مسند أحمد (١٦٦٦٧).

وفي مستدرك الحاكم (٨٦١٢): «ولا يسخر له من المطايا إلا الحمار فهو رجس على رجس»، وانظر إتحاف الجماعة (٣: ١٥).

(٣) وفي حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «الدجال يخرج في بغض من الناس، وخفة من الدين، وسوء ذات البين، فيرد كل منهل فتطوى له الأرض طي فروة الكبش ... الحديث» المستدرك (٨٦١٢).

الأقدامِ ، أنصارُ الحقِّ في آخِرِ الزمانِ ، أشدُّ قَومًا على الدَّجَّالِ »[1] .

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١٠٣٩).

نِهايةُ الدَّجَّالِ ودولةِ اليهودِ

يُعسكِرُ الدَّجَّالُ وجيوشُه حولَ بيتِ المقدِسِ المُحاصرِ وبَينَ أرضِ فِلسطينَ بكامِلِها، ويقطعون السبيلَ على مَن بقِيَ مِنَ المُسلِمين ، حتَّى إذا طالَ الحِصارُ « ينزِلُ عيسى بنُ مريمَ عِندَ المنارةِ البيضاءِ شرقَ دِمشقَ »[1] ، ومِن دِمشقَ يتوجَّهُ إلى بيتِ المقدِسِ لِنُصرةِ الإمامِ المهديِّ في الجبلِ المُحاصرِ وقتَ صلاةِ الفجرِ ، فيُصلِّي مأمومًا ، فإذا انصرفَ دعاهم إلى الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ وشِعارُهم في معركتِهم « اِفْتَحْ » ، ويهرُبُ الدَّجَّالُ إلى عُمقِ فِلسطينَ فيتبعُه عيسى إلى «بابِ لُدٍّ» فيقتُلُه ويهزِمُ اللَّهُ اليهودَ .

وفي هذه المعركةِ تُخاطِبُ الشجرُ والحجرُ المُسلِمَ ، وتقولُ هذا يهوديٌّ خلفِي فاقتُلْه . والحديثُ رواه مُسلِمٌ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ اللهِ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتَّى يُقاتِلُ المُسلِمونَ اليهودَ فيقتُلُهم المُسلِمون ، حتَّى يختبِئَ اليهوديُّ وراءَ الحجرِ والشجرِ ؛ فيقولُ الحجرُ والشجرُ يا عبدَاللَّهِ هذا يهوديٌّ خلفي فاقتُلْه ، إلَّا الغرقدُ ، فإنَّه مِن شجرِ اليهودِ[2]» .

(١) سنن أبي داود (٤٣٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٧٥٢٣).

اشتباهُ الدَّجَّالِ بابنِ صيَّادٍ

اضطربَ أمرُ التعيينِ المُطلقِ لِلدَّجالِ وشخصيتِه ، وجزمَ بعضُهم بِأنَّ «ابنَ صيادٍ» هـو الدَّجَّالُ تبعًـا لِما وردَ في بعضِ الرواياتِ عن بعضِ الصحابةِ الذين اعتقدوا ذلِكَ ، ومِنهـم مـن جـزمَ بِه كسيِّدِنا عُمرَ وعبدِالله بنِ عُمـرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وجابِر بـن عبدِاللَّهِ وغيرِهم[1].

واستقرَّ الأمرُ بعدَ ذلِكَ لدى العُلماءِ بِأنَّ الدَّجَّالَ ليس ابنَ صيادٍ ، وإنَّما كانَ ابنُ صيادٍ أحدَ الدجاجِلةِ .

قـالَ البَيهقيُّ في السُّـننِ : إنَّ الدَّجَّالَ الأكبرَ الذي يخرُجُ فـي آخِرِ الزمانِ غَيرُ ابنِ صيادٍ ، وكانَ ابنُ صيادٍ أحدَ الدَّجَّالين الكذَّابين الذين أخبرَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بِخُروجِهم[2].

(١) مما يستفاد في أمور العلامات اختلاف القول لدى الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في أمر الدجال .

(٢) عن أشراطِ الساعةِ لِيُوسُفَ الوابِلِ ص٣٠٠ بِتصرُّفٍ .

وسائلُ الحِفظِ مِنَ الدَّجَّالِ

- التعوُّذُ باللَّهِ مِنَ فِتنةِ الدَّجَّالِ وخاصةً في الصلاةِ .
- التزامُ الأذكارِ والأورادِ وقِراءةُ القُرآنِ والمُحافظةُ على أعمالِ الطاعةِ الواجِبةِ والمندوبةِ .
- قراءةُ العشرِ آياتِ مِن سورةِ الكهفِ مِن أوَّلِها[1] وفي روايةٍ مِن آخِرِها[2]. والجمعُ بَينَ الرِّوايتَين أولى .
- الدراسةُ الشرعيةُ لِأسبابِ فِتنتِه وملابساتِها ، فمَن عُصِم مِن فِتنةٍ قبلَه عُصِمَ منهُ عِندَ ظُهورِه، ولِيتجنَّبَ مواقِعَ حركتِه وسيرِه، لِقَولِه ﷺ : « مَن سمِعَ بالدَّجَّالِ فلْينأْ عنه ؛ فو اللَّهِ إنَّ الرجُلَ ليأتيهِ وهو يحسبُ أنَّه مؤمِنٌ فيتبعُه مِمَّا يبعَثُ مِنَ الشُّبُهاتِ ، أو لِما يبعثُ بِه مِنَ الشُّبُهاتِ »[3] .

---

(١) صحيح مسلم (١٩١٩).

(٢) صحيح مسلم (١٩١٩).

(٣) سنن أبي داود (٤٣٢١) ، وفي الحديث ملحظ لخطورة الشبهات ، وهي المتناقضات في السلوك والعبادة والعقيدة ، وقد برزت هذه الأساليب فيما بين يدي الدجال بين المسلمين ، فتهمة الشرك في المصلين واحدة من هذه النقائض القائمة على تحجيم الشبهات في الاعتقاد والعبادات والولاء فليتأمل.. حتى يبلغ الأمر إلى الإصرار في الأحكام والفتوى ، ومع هذا لم يَتَّخِذِ النبيُّ ﷺ في الأمر قولا فصلا ، ولم يشنع على أحد منهم في خلافه للحق المعلوم لدى رسول الله ﷺ .

المرحلةُ العيسويةُ

ثبتَ في الأحاديثِ الشريفةِ الخاصةِ بِعلاماتِ الساعةِ أنَّ نُزولَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ العلاماتِ الكُبرى، وعلى هذا فإنَّ دِراسةَ هذه المرحلةِ مِنَ الضروراتِ الشرعيةِ في الرُّكنِ الرابعِ.

قالَ تعالى واصِفًا نُزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ الزمانِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[الزُّخرُف:٥٧]... إلى قولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[الزُّخرُف:٥٩-٦١].

وفي هذه الآيةِ إشارةٌ واضِحةٌ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: نُزولُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ علامةٌ مِن علاماتِ قُربِ الساعةِ، وفي قِراءةٍ أُخرى مرويةٍ عنِ ابنِ عباسٍ ومُجاهِدٍ وغيرِهما مِن أئمةِ التفسيرِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: علامةٌ وأمارةٌ.

وروى الإمامُ أحمدُ بِسندِه عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيرِ هذه الآيةِ قالَ: هو خُروجُ عيسى بنِ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قبلَ يَومِ القيامةِ[1].

ولأهميةِ هذا الموضوعِ فقد تولَّى القُرآنُ ردَّ الشُّبهِ التي افتعلَها اليهودُ حولَ قتلِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصلبِه قالَ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النِّساء:١٥٧] إلى قولِه تعالى مُبيِّنًا نُزولَ عيسى في آخِرِ الزمانِ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النِّساء:١٥٩].

---

(١) مسند أحمد (٢٩٧٥).

وقد ثبتَ في الصحيحِ عنِ النبيِّ ﷺ ما يؤكِّدُ نُزولَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ الزمانِ واتخاذِه مَوقِفًا عمليًّا مِنَ اليهودِ والنصارى والدَّجَّالِ، ومِن ذلِكَ قولُه ﷺ: « ينزِلُ فيكم ابنُ مريمَ حكمًا عدلًا وإمامًا مُقسِطًا؛ فيكسِرُ الصليبَ، ويقتُلُ الخِنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ »[1].

وثبتَ في الصحيحِ أنَّه ينزِلُ عِندَ المنارةِ البيضاءِ شرقيَّ دِمشقَ، كما وردَ في حديثِ الطبرانيِّ وابنِ عساكِرَ عن أبي هُرَيرةَ قالَ رسولُ اللَّهِ: « ينزِلُ عيسى ابنُ مريمَ فيمكُثُ في الناسِ أربعين سنةً إمامًا »[2]. وفي لفظِ الطبرانيِّ: « يخرُجُ الدَّجَّالُ، فينزِلُ عيسى بنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقتُلُه، ثُمَّ يمكُثُ في الأرضِ أربعين سنةً إمامًا عادلًا وحكمًا مُقسِطًا »[3].

وفي رِوايةِ أبي داودَ: « حتَّى يأتيَ الشامَ مدينةَ فِلسطينَ بابَ لُدٍّ - أي: الدَّجَّال - فينزِلُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقتلُه، ثُمَّ يمكُثُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أربعينَ سنةً إمامًا عدلًا وحكمًا مُقسِطًا »[4].

وفي رِوايةٍ: « ينزِلُ عيسى بنُ مريمَ فإذا رآه الدَّجَّالُ ذابَ كما تذوبُ الشحمةُ، فيقتُلُ الدَّجَّالَ، ويفرقُ عن اليهودِ فيُقتلونَ »[5].

وروى مُسلِمٌ عن جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: « سمِعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلون عنِ الحقِّ ظاهِرين إلى يَومِ القيامةِ، قالَ فينزِلُ عيسى بنُ مريمَ،

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٦).

(٢) مسند أحمد (٢٥٢٠١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٦٢٩).

(٤) سنن أبي داود (٤٣٢٣)، وراجع التليد والطارف ص٤٣٥.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٦٤٩).

فيقـولُ أميرُهـم : صلِّ لنا . فيقـولُ لا إنَّ بعضَكم على بعضٍ أُمـراءُ تكرُمةَ اللَّهِ هذه الأُمَّةِ »[1]، وفي هذا الحديثِ إشـارةٌ إلى استِمرار الجِهادِ في سبيلِ اللَّهِ بِالشامِ ضِدَّ اليهـودِ حتَّـى يأتيَ الإمـامُ المُنتظرُ وبعدَه الدَّجَّالُ ، ثُمَّ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، الذي يكونُ قتلُ الدَّجَّالِ على يدِه .

والمعلـومُ أنَّ أحاديـثَ الدَّجَّالِ ونزولِ عيسـى كُلَّها مُتواتِرةٌ ؛ يجِـبُ الإيمانُ بها وتصديقُها ؛ لِأَنَّها جُزءٌ مِن أركانِ الدينِ .

وقـد بشَّـرَ النبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعلاقتِه بِعيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حيثُ روى الإمـامُ أحمدُ عن أبي هُرَيـرةَ أنَّ النبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « الأنبيـاءُ إخوةٌ لِعلَّاتٍ ، أمَّهاتُهم شـتَّى ودينُهم واحِدٌ ، وإنـي أولى الناسِ بعيسـى بـنِ مريمَ ، لِأَنَّه لم يكُـنْ بيني وبينه نبيٌّ ، وإنَّـه نازِلٌ فإذا رأيتُموه فاعرِفُوه »[2] .

وفي هذا الحديثِ إشارةٌ مُهِمَّةٌ لِارتِباطِ عيسى بنِ مريمَ بِنزولِه ، وفي رِسالتِه تثبيتُ منهجِ الإسـلامِ والشهادةِ الصادِقةِ على اليهودِ والنصارى بِانحرافِهم ، وقد وردَ في القُرآنِ إشارةُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرسالةِ النبيِّ مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ فيما سبَقَ ـ وأنَّ رسولَ اللَّهِ أخصُّ الناسِ بِه وأقربُهم إلَيه ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦].

وفـي الحديـثِ قالوا : يا رسـولَ اللَّهِ أخبرني عن نفسِـكَ قالَ : « نعـم ، أنا دعوةُ أبي مُوسـى وبُشـرى أخي عيسى »[3]، رواه ابن إسـحاقَ في السيرةِ ، قالَ ابنُ كثيرٍ : إسنادُه جيِّدٌ ، وله شواهِدُ .

---

(١) صحيح مسلم (٤١٢).

(٢) مسند أحمد (٩٨٨٢).

(٣) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق ، سيرة ابن هشام (١: ١٦٦).

كما أنَّ الإنجيلَ ـ وهو كِتابُ عيسى عليه السلام قد أشار إلى فضلِ أُمَّـةِ مُحمَّدٍ ﷺ بِعُمومِها وعبَّـرَ القُرآنُ عن ذلِكَ بِقَولِـه : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

قـالَ ابن كثير في التفسـيرِ : فدعى عيسـى اللَّـهَ أن يجعلَه مِنهم ؛ فاسـتجابَ اللَّهُ دعاءَه وأبقاه ، حتَّى ينزِلَ آخِرَ الزمانِ مُجدِّدًا أمرَ الإسلامِ .

وقـد ترجـمَ الإمامُ الذهبيُّ لِعيسـى عليه السلام فـي كِتابِه « تجريدِ أسـماءِ الصحابةِ » فقـالَ: عيسـى بـنُ مريمَ عليه السلام صحابـيٌّ ونبيٌّ ، فإنَّـه رأى النبيَّ ﷺ لَيلةَ الإسـراءِ وسلَّمَ علَيهِ ، فهو آخِرُ الصحابةِ رضي الله عنهم مَوتًا [١].

وقـد ذكـرَ أهلُ العِلمِ أنَّ عيسـى عليه السلام يحكُم بِالشـريعةِ المُحمَّديةِ ، ويكونُ مِن أتباعِ مُحمَّدٍ ﷺ لِأنَّ دينَ الإسـلامِ خاتمةُ الأديانِ ، وباقٍ إلى قِيامِ السـاعةِ لا يُنسَخُ فيكونُ عيسـى عليه السلام حاكِمٌ مِن حُكَّامِ هذه الأُمَّةِ ومُجدِّدًا لِأمرِ الإسـلامِ إذ لا نبيَّ بعدَ مُحمَّدٍ ﷺ .

روى الإمامُ مُسلِمٌ عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « كيفَ إذا نزلَ فيكم ابنُ مريمَ وإمامُكم مِنكم » . وقد فسَّرها بعضُهم في قَولِه « وإمامُكم مِنكم»[٢] وقـد فسَّـرها بعضُهم في قَولِـه « وإمامُكم مِنكم » أي : ما أمَّكـم مِنكم وأمَّكم أي : قادَكم بِكِتابِ ربِّكم وسُنةِ نبيِّكم .

وفي عصرِ عيسى عليه السلام يُنزِلُ اللَّهُ الأمنَ على الأرضِ ؛ حتَّى ترعى الكائناتُ معَ بعضِها البعضُ ، ولا يخافُ بعضُها مِن بعضٍ . وروى الإمامُ مُسـلِمٌ عن أبي هُرَيرةَ

---

(١) تجريد أسماء الصحابة للذهبي (١: ٤٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٤٠٩)

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « واللَّهِ ، ليُنزِلَنَّ اللَّهُ عيسـى بنَ مريمَ حكمًا عـدلًا ، وليضعَنَّ الجِزيةَ ، ولتُترَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسـعَى علَيها ، ولتذهبَنَّ الشـحناءُ والتباغُضُ والتحاسُـدُ ، وليُدْعَوُنَّ إلى المالِ فلا يقبلُه أحدٌ »[1]، وفي هذا الحديثِ إشـارةٌ هامَّةٌ إلـى انقطاعِ سياسـةِ التحريـشِ التي كانَـت تتبناها اليهـودُ والنصارى والدجاجِلـةُ ، ومـن لفَّ لفَّهم ممَّن ظلُّوا طوالَ مرحلـةِ الدجلِ والدجاجِلةِ يُفرِّقون بَينَ الشُّعوبِ ، ويسرِقون الثرواتِ ، ويُحقِّقون لِلشَّيطانِ مبدأَ « فرِّقْ تسُدْ » ، وبِنزولِ عيسـى ونُصرتِـه لِلإمامِ المهديِ ومقتلِ الدَّجَّالِ ـ ومَن لـفَّ لفَّه مِنَ اليهودِ والكُفَّارِ تنتهي كافَّةُ المشـاكِلِ الاجتِماعيةِ والاقتِصاديةِ ، ويعودُ البقيةُ مِنَ اليهودِ والنصارى إلى الإسـلامِ ، ويؤكِّدُ ذلِكَ ما فسَّـرَه أبو هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن حديثٍ رواه الشَّـيخانِ عنـه عن رسـولِ اللَّهِ ﷺ « والذي نفسـي بِيدِه ، ليوشِـكَنَّ أن ينزلَ فيكـم ابنُ مريمَ حكمًـا عدلًا فيكسِـرُ الصليـبَ ، ويقتُلُ الخِنزيـرَ ، ويضعُ الحـربَ ، ويفيضُ المالُ حتَّـى لا يقبلُـه أحدٌ ، حتَّـى تكونُ السـجدةُ الواحِدةُ خيرًا مِـنَ الدُّنيا ومـا فِيها » ثُمَّ يقـولُ أبوهُرَيـرةَ : واقرؤوا إن شـئتُم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[النساء:١٥٩] [2].

وفـي مُسـندِ أحمدَ (٩٨٧١) قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : «ينزِلُ عيسـى بـنُ مريمَ إمامًا عـادِلًا وحكمًا مُقسِـطًا فيكسِـرُ الصليبَ ، ويقتُـلُ الخِنزيرَ ويُرجِعُ السـلمَ ، ويتخِذُ السُّـيُوفَ مناجِـلَ ، وتذهبُ حُمـةُ كُلِّ ذاتِ حُمةٍ ، وتُنزِلُ السـماءُ رِزقَهـا ، وتُخرِجُ الأرضُ بركتَهـا ، حتَّى يلعبَ الصبيُّ بِالثُّعبانِ فـلا يضُرُّه ، ويُراعِي الغنمَ الذئبُ فلا

(١) صحيح مسلم (٤٠٨).
(٢) صحيح مسلم (٤٠٧).

يضُرُّها ، ويُراعِي الأسدُ البقرَ فلا يضُرُّها »[1].

وقولُه : « وتُتَّخَذُ السُّيوفُ مناجِلَ » : المنجلُ : هو الآلةُ التي تُقطَعُ بها الحشائشُ. والمقصودُ أنَّ الناسَ لا يحتاجون إلى الجِهادِ ويشتغِلون بالحرثِ والزراعةِ ، ومعنى قولِه : « وتذهبُ حُمةُ كُلِّ ذاتِ حُمةُ » : الحُمةُ بِالتخفيفِ السُّمُّ ، أي : ينزِعُ اللَّهُ عن كُلِّ دابةٍ ذاتِ سميةٍ سمَّها .

قالَ ﷺ : « ينزِلُ عيسى بنُ مريمَ فيمكُثُ في الناسِ أربعين سنةً إمامًا » .رواه الطبرانيُّ وابنُ عساكِرَ عن أبي هُرَيرةَ ، وقالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « فيكونُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أُمَّتي حكمًا وعدلًا وإمامًا مُقسِطًا »[2] .

قالَ البرزنجيُّ في الإشاعةِ[3] : « إنَّ المهديَّ هو الذي يفتحُ الرومَ ، ويُخرِجُ الدَّجَّالَ في زمنِه ، ويصلِّي عيسى خلفَه، وأنَّ خِلافتَه تكونُ له ولقُريشٍ مِن بعدِه ، وأنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يسلُبُ قريشًا مُلكًا رأسًا ، وإنَّما تكونُ إلَيه المشورةُ ، وهو الحكمُ فيهم يُعلِّمُهم الدينَ ، حتَّى يموتَ المهديَّ الأوَّلَ ثُمَّ يلي مِن بعدِه رجُلٌ مِن أهلِ بيتِه في سيرتِه .

---

(١) مسند أحمد (١٠٥٣٢).

(٢) تقدم .

(٣) ص ؟

أهم ظواهر مرحلة عيسى عليه السلام

ومن أهمِّ ظواهِرِ مرحلةِ عيسى عليه السلام :

- نزولُه بِدمشقَ عِندَ المنارةِ البيضاءِ، ويذهَبُ إلى القُدسِ لنُصرةِ الإمامِ المهديِّ المُحاصَرِ .
- هلاكُ المسيخِ الدَّجَّالِ على يدَيه بِبابِ لُدٍّ مِن أرضِ فِلسطينَ .
- يُقيمُ أمرَ الشريعةِ المُحمَّديةِ في العالم كُلِّه .
- يقتُلُ الخِنزيرَ ، ويكسِرُ الصليبَ ، ويُدخِلُ النصارى إلى دينِ الإسلامِ .
- تُتركُ الصدقةُ في عصرِه - أي : الزكاةُ - لِعدمِ مَن يقبلُها اكتفاءً ، وتظهرُ الكُنوزُ في عهدِه ولا يرغبُ أحدٌ في اقتِناءِ المالِ لِقُربِ الساعةِ ، وتُرفَعُ الشحناءُ والبغضاءُ لِزوالِ أسبابِها .
- يَرعى الذئبُ مع الغنمِ كمظهرٍ مِن مظاهِرِ الأمنِ .
- تَرخصُ الخيلُ ويغلو الثَّورُ لِأنَّ الأرضَ كُلَّها تُزرَعُ والحربَ تنتهي .
- تنعمُ الأرضُ بِالأمانِ ويزدادُ الخيرُ في الأرضِ وتستمرُّ الزِراعةُ والموارِدُ المُتنوِّعةُ دونَ صِراعٍ ولا اختِلافٍ مدى حياتِه المُباركةِ .

المرحلةُ اليأجُوجيَّةُ

في أُخرياتِ مرحلةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وشُمولِ دَولةِ السلامِ والأمنِ في رُبوعِ العالمِ . وقبلَ أن يرحَلَ عيسى إلى مكَّةَ والمدينةَ يظهرُ قومُ يأجوجُ ومأجوجُ الذين وصفهم اللَّهُ في كتابِهِ ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف:٩٤] .

يأجوج ومأجوج لغز من الغاز القرآن

وقولُه « ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦] وقد ظلَّ أمرُ يأجوجَ ومأجوجَ لُغزًا في أذهانِ العُلماءِ والمفُسِّرين حيثُ لم تُفصِحِ المصادرُ الأصليةُ عنهما بِخبرٍ بَيِّنٍ ، ولا زالَ الأمرُ كذلِكَ في حقيقتِهِ المجهولةِ(١) .

---

(١) وهذا أصح ما يعتمد عليه في أمر يأجوج ومأجوج ؛ حيث إن اكتشاف السد على الصفة التي وردت في كتاب الله أمر لم يتحقق إطلاقا ، قال الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي في كتابه « المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خبر رب البرية » ما نصه : « السد حق ثابت ، ولا ينفتح ليأجوج ومأجوج إلا قرب الساعة ، فمن قال بعدم وجود سد على وجه الأرض ـ ومستنده في ذلك قول الكشافين من النصارى ، وأنهم لم يعثروا عليه ـ يكفر .. اهـ.

وقال الشيخ حمود التويجري في إتحاف الجماعة (ص١٧٠/ الثالث) : وبعض العصريين يزعمون أن يأجوج ومأجوج هم جميع دول الكفر المتفوقين في الصناعات الحديثة ، وقد رأيت هذا القول الباطل في بعض مؤلفات المتكلفين من العصريين ، وهذا القول قريب من القول الأول ... إلى أن قال : وقد قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦] إلى قوله تعالى : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٧] . وفي هاتين الآيتين أبلغ رد على من زعم إن يأجوج ومأجوج هم دول الإفرنج أو غيرهم من دول المشرق والمغرب ، الذين لم يزالوا مختلطين بغيرهم من الناس ولم يجعل بينهم وبين الناس سد منيع يحول بينهم وبين الخروج على الناس .

شرطنا في قبول البحوث العلمية عن العلامات

وأمَّـا مـا قامَ بِهِ بعـضُ الباحثيـنَ المُعاصِرين حولَ تتبُّعِ واستِقصاءِ الدراسـةِ مِنَ الناحيـةِ التاريخيـةِ ، وأرضخَ الموضـوعَ إلى المُشـاهدةِ الميدانيةِ ودراسـاتِ عِلمِ الآثارِ ؛ فهو مسـألةٌ يُسـتأنَسُ بها خاصَّةً إذا حصلَ شـيءٌ مِنَ التطابُقِ بَينَ النُّصوصِ والدراساتِ .

وأمـا إذا كانَ الأمـرُ مُخالِفاً لِما وردَ في النُّصوصِ أو مُغايـراً لِما أجمعَ علَيهِ أهلُ العِلـمِ فـلا شـكَّ أنَّ مثـلَ هذه البُحـوثِ مُجردُ تصـوُّرٍ نظـريٍّ لا دليلَ علَيـهِ . ومِن هـذه النمـاذجِ التـي وضعناها هنا لِمُجـردِ الاستِفادةِ العامَّةِ ما وصلَ إلَيـه الباحِثُ حمدي حمزة أبو زَيدٍ يُشـيرُ فيه إلى معلوماتٍ جديدةٍ لا بأسَ مِن عرضِها للاطِّلاعِ والاسـتِفادةِ معَ يقينِنا أنَّها لا تُعدُّ بديلًا عنِ الحقِّ المُبينِ المُقرَّرِ في كِتابِ اللَّهِ أو ما صحَّ عنِ الأمرِ في سُنَّةِ رسولِه . يقول حمدي أبوزيد:

متابعة مختصرة للدراسة الميدانية الجديدة

- كافَّـةُ الآيـاتِ القُرآنيةِ في سُـورةِ الكهفِ عـن يأجوجَ ومأجوجَ عِنـدَ مُطابقةِ مَوضوعِهـا بِلُغـةِ الصينِ المُترجمـةِ تتفِقُ وما في كُتُبِهم مِـن وقائعَ وأحداثٍ تاريخيةٍ وقعَت في بِلاد الصينِ في فترةِ دُخولِ ذي القرنَين إلَيها .
- إن معرفةَ مضمونِ كلِمتَي « يأجوجُ ومأجوجُ » الصينيتَي الأصلِ بعدَ ترجمتِها لِلُّغةِ العربيةِ يُيسِّـرُ الوصولَ إلى تفسـيرِ العديدِ مِنَ الأحداثِ الهامَّةِ ، ويؤكِّدُ

قلـت ـ والله أعلم : إن أغلـب الباحثين في هذه المسـألة إنما يفسـرون الأخبار والآثار ليـس على سـبيل الإنـكار لما في القرآن والسـنة ـ ونعـوذ بالله أن يفعل ذلك مسـلمٌ مؤمنٌ بالله ورسـوله ، أو أن يفعله لمجرد الاسـتتباع لكلام المستكشـفين من النصارى وغيرهم ـ فقولهم لا يعتبر حجة أمام كتاب الله وسـنة رسـوله ، وإنما هو عرض لفهم قد يصيب قائله أو يخطئ، ولا يعد بديلا عما ذكره العلماء من الأمر المجمع عليه في هذا الشـأن، كما هو فـي بحث حول الموضوع يحتمل الصواب ويحتمل الخطأ جمعه الباحث « حمدي حمزة أبو زيد».

الحقائقَ القُرآنيةَ عن يأجوجَ ومأجوجَ .

- إن ترجمـةَ « يأجـوجُ ومأجـوجُ » هـي : « مُفسِـدون فـي الأرض » تعني أنَّ سُـكانَ قارةِ آسـيا وسُكانَ قارةِ الخَيلِ مُفسِـدون في الأرضِ ، ومعنى سُكانَ قـارةِ الخَيـلِ أي: مَن يُسـمون شـعبَ الخَيلِ وشـعبَ الرُّماةِ ، وهـم الدولُ المحيطـةُ بِالصيـنِ فـي تِلكَ الحِقبـةِ مِنَ الزمـنِ ، والتي كانَـت للصينِ معَها حُـدودٌ وعِلاقـاتٌ ، وهي اليابانُ وكوريا ، ومنشـوريا ، وسـيبيريا ، ومنغوليا ، ودولُ آسـيا الوُسـطى ، وهمُ الذين يصِفُهم الصينيون في لُغتِهم بيأجوجَ أو بنـي يأجـوجَ ، وهؤلاء اعتادُوا على شـنِّ الحُروبِ قديمًا علـى الصينِ حتَّى قُرونٍ قريبةٍ ، وكانَ آخِرُها ما حدثَ في القرنِ الثالثَ عشرَ الميلاديِّ على يدِ جنكيزَ خان وهولاكو الذَّين عاثوا في الأرضِ فسادًا.
- وبِنـاءً علـى المعلوماتِ والحفريـاتِ والتعليلاتِ التي توصَّـلَ إلَيها البحثُ صـارَ مِـنَ المُتوقَّعِ أن يكونَ « ما بَينَ السـدَّينِ » مكانًا محدودًا أو معروفًا في أنحاءِ بِلادِ الصينِ ، وأنَّ الاحتِمالَ الأكبرَ هو جِبالٌ معينةٌ شمالَ مدينةِ « جنج جـو » فـي مُقاطعـةِ « هينان » ، وقد وُجِـدَ فِيها «ردمٌ مُحكـمٌ وحاجِزٌ عظيمٌ» كمـا وصفَه القُـرآنُ ، وفصَّـلَ الباحِثُ صِفةَ الـردمِ وارتفاعِه ومـا تبقَّى منه . ووضعَ بحثًا مَيدانيًّا لِكافَّةِ جُزئياتِه ونماذجِ الموادِّ المُسـتخدمةِ فيه وأنواعِها كالعناصِرِ المعدنيةِ والقطرِ « الطينِ » والخشبِ والوقودِ وغيرِها .
- يُشـيرُ الباحِـثُ إلـى أنَّ أحـوالَ هـذه الأُمم عبـرَ التاريـخِ قائمةٌ علـى انعِدامِ الديانـةِ الصحيحـةِ ووقوعِهم فـي انحِرافـاتِ الجاهِليةِ معَ قسـوةِ الظُّروفِ الجُغرافيـةِ والبيئةِ والمعيشـيةِ ، وتوفُّـرِ أدواتِ التفوُّقِ القِتالـيِّ كالمهاراتِ

والخُيولِ وأدواتِ القِتالِ ورُوحِ الغُرورِ والشُّعورِ بِالقُوةِ والوُلوعِ باكتسابِ معيشةٍ بِالبطشِ والوحشيةِ وانعِدامِ الرحمةِ في مُعاملةِ الأعداءِ والخُصوم. وقد وصفَهم النبيُّ ﷺ بمعنًى مُتطابِقٍ: « إنَّكم تقولون لا عدوَّ لكم، إنَّكم لا تزالون تُقاتِلون عدوًّا حتَّى يخرجَ يأجوجُ ومأجوجُ عِراضَ الوجهِ صِغارَ الأعيُنِ صهب مِن كُلِّ حدبٍ ينسِلونَ كأنَّ وُجوهَهم المجانُّ المطرقةُ... »[1].

دول قارة الخيل وعلاقتها بالمرحلة اليأجوجية

- إنّ مفهومَ التفسيرِ مِن قولِه ﴿إِذَا فُتِحَتۡ﴾ يضعُ سؤالًا هامًّا عن ماهيةِ وطبيعةِ الفتحِ أو مَن همُ الفاتِحون، ومتى يكونُ زمنُ الفتحِ، وما هي علاماتُ وآثارُ ذلِكَ الفتحِ معَ أنَّ جميعَ دولِ قارةِ آسيا ودولِ قارةِ الخَيلِ دولٌ تُوصَفُ بِالعُزلةِ والانغِلاقِ عن جميعِ دولِ العالمِ لِوُقوعِها في أقصى الطرفِ الشماليِّ لِلأرضِ وبَينَها وبَينَ القاراتِ الأُخرى بِحارٌ ومساحاتٌ واسِعةٌ يصعُبُ الوصولُ إلَيها بِوسائلِ الموصلاتِ القديمةِ، ويأتي الفتحُ المُشارُ إلَيه في القُرآنِ على معانٍ، ومِنها:

١. الفتحُ بالإسلامِ، ودُخولُ هذه الشُّعوبِ في دينِ الإسلامِ، فهل يعني أنَّ هذه الدُّولِ ستدينُ مُستقبلًا بِالإسلامِ؟!

٢. الفتحُ الوارِدُ في الآيةِ يعني احتِلالَ هذه القارةِ مِن قِبلِ دولٍ أُخرى

اليأجوجية في كتبَ غَير إسلامية مرحلة عدوانية يتحكم فيها الشيطان

---

(١) مسند أحمد (٢٢٩٩١). المجان: جمع المجن وهو الترس

الحدب: الغليظ من الأرض فى ارتفاع

الشعاف: جمع شعفة وهى أعلى شعر الرأس يقصد صهب الشعور

الصهب: جمع الأصهب وهو الأشقر أى الذى بشعره حمرة يعلوها سواد

أجنبيةٍ بِقوةِ السلاحِ وقد تعرضَت هذه القارةُ في القرنِ التاسعَ عشرَ والقرنِ العشرين لِلحُروبِ والاحتِلالِ الأجنبيِّ[1] .

٣. الفتحُ الواردُ في هذه الآياتِ يعني انفِتاحَ دولِ قارةِ آسيا ودولِ قارةِ الخَيلِ « يأجوجُ ومأجوجُ » على العالمِ كما هو الحالُ في هذا العصرِ المعروفِ بِالعولمةِ ، والمُتتبِّعُ لِتطوُّرِ وصعودِ دولِ «يأجوجَ ومأجوجَ» يَجِدُ بروزَ بعضِها كقُوَّةٍ مُؤثِّرةٍ على المسرحِ الدوليِّ كالصينِ واليابانِ وكوريا ، وأنَّ في هذا الفتحِ إشارةً إلى تكوُّنِ قوةٍ دوليةٍ وكُتلةٍ ذاتِ قُوةٍ عسكريةٍ ضارِبةٍ في المُستقبلِ ، وقد نقلَ المُؤلِّفُ نماذجَ عديدةً عنِ المَوسوعةِ البريطانيةِ تُشيرُ بِأنَّ الخَيلَ يُعتبرُ عند « جوج » قوةٌ عُدوانيةٌ يتحكَّمُ فِيها الشَّيطانُ ، وأنَّ هذه القوةَ ستظهرُ في آخِرِ الزمانِ ، كما جاءَ في مقاطِعَ مِنَ الإنجيلِ والأسفارِ المسيحيةِ واليهوديةِ بأن « جوج » معبر بِقوةٍ عُدوانيةٍ أُخرى هي « ماجوجُ » ، بينما جاءَ في مواضِعَ أُخرى بِأنَّ ماجوجَ مكانٌ، وهو منشأُ أصلِ جوجَ » واللَّهُ أعلمُ .

المرحلة اليأجوجية في الإنجيل

وإن صحَّ بِأنَّ عِبارةَ « يأجوجُ ومأجوجُ » قد جاءَت ضِمنَ الإنجيلِ ؛ فهي في منزِلةِ وحيٍ مِن عِندِ اللَّهِ ، لكنَّ عدمَ إمكانيةِ الكشفِ عن أساسِها وأصلِها اللُّغويِّ هو سببُ تحريفِها عن مدلولِها الأصليِّ ، وأنَّها لم تنزِلْ في الإنجيلِ ، ولكِنَّها اقتُبِسَت مِنَ القُرآنِ الكريمِ ثُمَّ صُرِفَ نُطقُها لِيتلاءمَ معَ طبيعةِ الألسنةِ المُتنوِّعةِ .

راجِعْ في هذا الموضوعِ لِلتَّوضيحِ والبيانِ والتفصيلِ كِتابَ « بيانِ أسرارِ ذو

(١) فهل في هذا الاحتلال والحروب معنىً آخرُ من معاني ردة الفعل ونهوض هذه الدول عاليا حتى تتقوى وتمتلك القوة الكافية للاكتساح العسكري ، فيكون ذلك في صورة المستقبل كما ذكره القرآن ؟!

القرنيـن ويأجوجَ ومأجوجَ » طبعـة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م تأليف الباحِثِ « حمدي بن حمزة أبو زيد » .

رأيٌ آخر: السّدّ موجودٌ في القوقاز (جورجيا)

وذهـبَ بعـضُ الباحثين إلى غَيرِ هـذا القَولِ عن « موقِعِ يأجـوجَ ومأجوجَ » كما هو فيما ذكرَه المُؤرِّخُ سـامي بنُ عبدِاللَّهِ المغلوث في كِتابِه « أطلسُ تاريخِ الأنبياءِ والرُّسُـلِ » ص١٢٦ نقلًا عن كِتابِ «مفاهيمُ جُغرافيةٌ» لِلدكتورِ عبدِالعليمِ خضر ، وفيه : إنَّ السـدَّ الذي بناه ذوالقرنين موجودٌ حتَّى الآنَ فعلًا في جُمهوريةِ جُورجيا السـوفييتيةِ في فتحةِ « داريال » بِجبالِ القُوقازِ الشـاهِقةِ . وجبالُ القُوقازِ الشـاهِقةُ تمتـدُّ مِنَ البحرِ الأسـودِ شـرقًا حتَّى بحرِ قزويـنَ غربًا ، ويبلُـغُ طُولُها ١٢٠٠ كم ، وهي جِبالٌ التِوائيةٌ شـامِخةٌ مُتجانِسـةُ التَّركيبِ مِن كُتلٍ هائلـةٍ مِنَ الحديدِ الصافي المخلوطِ بِالنُّحاسِ الصافي في سدِّ « داريال » .

تِلكَ الثغرةُ المسدودةُ بِالحديدِ والنُّحاسِ بَينَ فتحتَيها ٥٦٣٠ مِترًا ـ أي : ٥ كيلو و٦٣٠ مِترًا ـ ومِن خلفِها تِلكَ القبائلُ المُتوحِّشـةُ . أمَّا المُتغيِّراتُ الطبيعيةُ فلم تنلْ مِنَ السدِّ شَيئًا غَيرَ أنَّ جِسمَ الجِبالِ الصخريَّ ـ أي : جِبال القُوقازِ ـ مِن جانبَي السدِّ قد تآكلَ بِفعلِ عوامِلِ التعريةِ على مدى هذا الزمنِ الطويلِ ، وصارَ هُناكَ فراغٌ فيما بَينَ الصُّخورِ الجبليةِ وجِسـمِ السـدِّ الحديديِّ النُّحاسيِّ الذي ظلَ شامِخًا إلى الآنَ ، ولا يستطيعُ الإنسانُ أن ينقُبَه أو يعلُوه .

ذكرنا هنا اختلاف الباحثين لمجرد الاستئناس

ونعـودُ إلى ما ذكرنا سـلفًا مِن أنَّ اختِلافَ الباحثين حولَ هـذا الموضوعِ لا يُغيِّرُ مِـن أمرِ الحقيقةِ شَـيئًا ، وإنَّمـا ذكرنا هذه الأقوالَ لِمُجرَّدِ الاسـتِئناسِ والاسـتِفادةِ العامَّـةِ ، ويظلُّ الأمرُ على ما أشـارَت إلَيـه الآياتُ والأحاديثُ إلـى أن يقضيَ اللَّهُ أمرًا كانَ مفعولًا .

يأجوج ومأجوج يكتسحون العالم العربي

وفي آخرِ المرحلةِ العيسويةِ التي أشرْنا إلَيها سلفًا تتحرَّكُ قُوى يأجوجَ ومأجوجَ لاِكتِساحِ العالمِ حتَّى تبلُغَ إلى الشامِ حيثُ عِيسى عليه السلام ومَن معَه ، وإلى ذلِكَ يُشيرُ الحديثُ : « فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ »[1] .

وفي هذه المرحلةِ الحرِجةِ يرغبُ عيسى عليه السلام ومَن معه إلى اللَّهِ ويجأرون بالدُّعاءِ لِيخلِّصَهم مِن هذه المحنةِ الشديدةِ ، فبَينَما هم كذلك يُرسِلُ اللَّهُ على يأجوجَ ومأجوجَ وباءً عامًّا وفيروسًا مرضيًّا مُعديًا ، يُصيبُ الجيشَ كُلَّه . فيضطرِبُ الجَيشُ ، وتخورُ قُواهم ، ويضعُفون ضعفًا شديدًا لِما يعتريهم مِنَ الحُمى والوعكِ والألمِ ، ويتساقطون في الطُرُقاتِ والمُدُنِ والأوديةِ والمنازِلِ مِن حيثُما كانوا مِن بِلادِ اللَّهِ صرعى أمواتًا لا يملِكون قُدرةً ولا قُوَّةً ولا جبروتًا .

الطغيان اليأجوجي قبل نهايتهم الحتمية

وقد وردَ ذلِكَ في الحديثِ الشريفِ بما معناه أنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ يفرحونَ بانتِصارِهم على أهلِ الأرضِ . فيقولون « لقد قتلْنا مَن في الأرضِ ، هَلُمَّ فلْنقتُلْ مَن في السماءِ فيرمون بنشابِهم إلى السماءِ ، فيردُّها اللَّهُ علَيهم مخضوبةً دمًا فيرغبُ نبيُّ اللَّهِ عيسى وأصحابُه فيُرسَلُ عليهم النَّغَفُ في رِقابِهم »[2]، وفي رِوايةٍ : « رودًا كالنغفِ في أعناقِهم »[3] . فيُصبِحون موتَى كمَوتِ نفسٍ واحدةٍ لا يُسمَعُ لهم حِسٌّ

---

(١) صحيح مسلم (٧٥٦٠).

(٢) صحيح مسلم (٧٥٦٠).

(٣) صحيح مسلم (٧٥٦٠).

، فيقولُ المُسلِمون ألا رجلٌ يشتري لنا نفسَه فينظُرُ ما فعلَ هذا العدوُّ فيتجرَّدُ رجُلٌ مِنهم محتسِبًا نفسَه قد وطَّنَها على أنَّه مقتولٌ ، فينزِلُ فيجِدُهم موتى بعضُهم على بعضٍ فيُنادي يا معشرَ المُسلِمين.. ألا أبشروا إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد كفاكم عدوَّكم فيخرُجون مِن مدائنِهم وحُصونِهم ويُسرِّحون مواشيهم . إلى أن قالَ – ويهبِطُ نبيُّ اللَّهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ فلا يجِدون موضِعَ شبرًا إلَّا ملأه زهمُهم ـ أي : نتنُهم مِنَ الجيفِ ـ فيؤذون الناسَ بِنتنِهم أشدَّ مِن حياتِهم فيستغيثون باللَّهِ ، فيبعثُ ريحًا صمانيةً غبرًا فتصير على الناسِ غمًّا ودُخانًا ، وتقعُ علَيهِمُ الزكمةُ ، ويكشِفُ اللَّهُ ما بهم بعدَ ثلاثٍ ، وقد قذف جِيفَهم في البحرِ » .

عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ والمؤمنون يرغبون إلى الله في إهلاك قوم يأجوج ومأجوج

وفي رِوايةٍ فيرغبُ نبيُّ اللَّهِ عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ وأصحابُه إلى اللَّهِ فيُرسِلُ طَيرًا كأعناقِ البُختِ تحمِلُهم فتطرحُهم حيثُ شاءَ اللَّهُ تعالى ، ثُمَّ يُرسِلُ اللَّهُ مطرًا لا يمكنّ منه بيتُ مُدرٍ ولا وبرٍ ، فتُغسلُ الأرضُ حتَّى يتركَها كالزلِقةِ ـ المرآةِ ـ ثُمَّ يُقالُ لِلأرضِ أنبتي ثمرَكِ ، ورُدِّي بركتَكِ فيومئذٍ تأكلُ العُصابةُ مِنَ الرُّمانةِ ، ويستظِلون بِقحفتِها ، ويوقِدُ المُسلِمون مِن قسى يأجوجَ ومأجوجَ ونشابِهم وأتراسِهم سبعَ سُفُنٍ »[١].

ما بَينَ هلاك يأجوج ومأجوج وموت عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ

ومِنَ المعلومِ أنَّ بَينَ هلاكِ يأجوجَ ومأجوجَ وموتِ عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ مرحلةً تنعمُ فِيها الأُمَّةُ بالخيرِ والأمنِ والطاعةِ ، فقد روى أبو سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنۡهُ قالَ : «ليُحجَّنَّ البيتُ وليُعتمرَنَّ بعدَ خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ»[٢]، ورواه عبدُ بنُ حُمَيدٍ بِزيادةٍ ، ولفظُه : « إنَّ الناسَ يحجُّون ويعتمِرون ويغرسون النخلَ بعدَ خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ »[٣] .

---

(١) الإشاعة ص٣٢٤.

(٢) صحيح البخاري (١٥٩٣).

(٣) مسند عبد بن حميد (٩٤١).

رِحلةُ عيسىٰ مِنَ الشامِ إلىٰ المناسِكِ

بعدَ هذهِ المرحلةِ يتوجَّهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أرضِ الحرمَين الشـريفين ، ويستقي ويموتُ في المدينةِ المنورةِ ، وإلى ذلِكَ تُشيرُ جُملةُ الأحاديثِ ، ومِنها ما أخرجَه الحاكِمُ وصحَّحَه ، ورواه ابنُ عساكِرَ عنه : « ليهبِطَنَّ ابنُ مريمَ حكمًا عدلًا وإمامًا مُقسِطًا ، ويسلُكَنَّ فجًّا حاجًّا أو مُعتمِرًا ، وليأتيَنَّ قبري حتَّى يُسلِّمَ علي ، ولأرُدَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ » . يقول أبو هريرة : أيْ بَنِي أخي ، إن رأيتُموه فقولوا : أبو هريرةَ يُقرِئُكَ السَّلامَ[1].

موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمدينة المنورة ودفنه بالحجرة الشريفة

وأخرجَ الترمِذيُّ وحسَّنه ، وابنُ عساكِرَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ قالَ : « مكتوبٌ في التوراةِ صِفةُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعيسى يُدفَنُ معه »[2].

وأخرجَ الطبرانيُّ « يُدْفَنُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ، فَيَكُونُ قَبْرُهُ لأَرْبَعٍ »[3] .

وأخرجَ الحاكِمُ ووافقه الذهبي عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لهبِطَنَّ ابنُ مريمَ حكمًا عدلًا وإمامًا مُقسِطًا ، ويسلُكَنَّ فجًّا حاجًّا أو مُعتمِرًا ، وليأتيَنَّ قبري حتَّى يُسلِّمَ عليَّ ولأرُدَّنَّ عليه »[4].

قُلتُ : وأقولُ اقتِداءً بِفعلِ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقولِ أبي هُرَيرةَ : مَن وقفَ على كتابي

---

(١) المستدرك (٤١٦٢)

(٢) سنن الترمذي (٣٩٧٧).

(٣) الطبراني في الكبير (١٥٠).

(٤) المستدرك مع تعليقات الذهبي (٤١٦٢).

وأدركَ الإمـامَ المهـديَّ وأدركَ عيسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فليُقرئهمـا منِّـي السـلامَ ، وليطلُبَ الدعاءَ والاستِغفارَ .

ظواهِرُ وعلاماتٌ هامَّةٌ مِنَ العلاماتِ الصُّغرىٰ ما بَينَ مرحلةِ الإمامِ المُنتظَرِ حتَّىٰ نِهايةِ مرحلةِ عيسىٰ علَيهِ السلامُ

تُشيرُ الأحاديثَ في بابِ العلاماتِ الصُّغرى إلى رِجالٍ يبرزون بِصفاتٍ وأسماءٍ مُعينةٍ يكونُ لهم في هذه المرحلةِ أدوارٌ في الحُكمِ والإمارةِ ما بَينَ عادِلٍ وفاجِرٍ، ومنهم «القحطانيُّ»، فقد أخرجَ الشَّيخان عنه: «لا تقومُ الساعةُ حتَّى يخرُجَ رجُلٌ مِن قحطانَ يسوقُ الناسَ بِعصاه»[1]، ويكونُ أوَّلَ ظُهورٍ لِلقحطانيِّ معَ المهديِّ في أوَّلِ زمانِه، كما يكونُ أميرًا على السريةِ التي يُرسِلُها المهديُّ إلى مدينةِ الرُّوم فيفتتِحُها في حالِ تابعيتِه لِلمهديِّ لا في حالِ خِلافتِه، ثُمَّ يخلُفُ المهديَّ رجُلٌ مِن أهلِ بَيتِه يسيرُ بِسيرتِه حتَّى وفاةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيتولَّى رجُلٌ مِن قُرَيشٍ يُسمَّى «المقعد» فإذا ماتَ تولَّى رجُلٌ آخرُ مِن قُرَيشٍ لا يُحسِنُ السيرةَ؛ فيخرُجَ علَيهِ المخزوميُّ ولعلَّه «الجهجاه»، ويدعو إلى الفُرقةِ؛ فيخرُجَ علَيهِ القحطانيُّ بِسيرةِ المهديِّ، وهو المُلقَّبُ بِالمنصورِ، ويمكُثُ إحدى وعشرين سنةً ثُمَّ يملِكُ الموالي ويغلِبُ الشرَّ مِن بعدِه. وفي الجهجاه عن أبي هُرَيرةَ مِن حديثِ مُسلِمٍ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لا تذهبُ الأيامُ والليالي حتَّى يملِكَ رجُلٌ يُقالُ له الجهجاه»[2].

القحطاني والجَهْجاه والمُقْعَد

ونقلَ التويجريُّ[3] جملةً مِنَ الأحاديثِ التي جاءَت في القحطانيِّ والجهجاه يُمكِنُ العودُ إلَيها لِلاستِفادةِ.

---

(١) البخاري (٧١١٧) مسلم (٧٤٩٢).

(٢) صحيح مسلم (٧٤٩٣).

(٣) إتحاف الجماعة (٢ : ٣١٤).

مرحلةُ الانهيارِ والعودِ إلى الجاهليةِ[1]

---

(١) يشار إلى هذه المرحلة بصفة الانهيار والعود إلى الجاهلية لما يطرأ فيها من تحول تام وتغير كامل عن مراد الله في خلقه . ومن أعظم التحول والتغير حلول الشرك في الأمة ، وهو عودة الكفر وعبادة الأصنام وعبادة الأوثان كاللات والعزى وذي الخلصة وغيرها على ما كانت عليه في مرحلة الجاهلية الأولى .

أما قبلَ هذه المرحلة ما بين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تصاعديا إلى عهد الرسالة فإن الشركَ الأكبرَ الموجب للخلود في النار منعدمٌ من الأمة المحمدية خصوصا وإنما يصيبها داء الأمم ويصيبها الإفراط والتفريط، وداء الأمم، وهو البغضاء والحسد، وهي ـ كما سماها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ حالقة الدين ، والإفراط والتفريط هو الغلو في الاعتقاد والولاءات وعكسُه .

ويكون فيها المسخ والقذف لاتخاذهم المعازف والقينات والدفوف وشرب الخمر ، وهذه ظواهر منتشرة في الأمة والعياذ بالله ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «يمسخ قوم من أمتي آخر الزمان قردة وخنازير» . قالوا : يا رسول الله ، مسلمون هم؟ قال : « نعم ، يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويصومون ويصلون» . قالوا : فما بالهم يا رسول الله ؟ قال : « اتخذوا المعازف والقينات والدفوف ، وشربوا هذه الأشربة ، فباتوا على شرابهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا » كما ورد في «كنز العمال» (٣٨٧٣) و«الدر المنثور» للسيوطي (٢ : ٣٢٤) و«حلية الأولياء» (٣ : ١١٩) .

ولا يجوز أن تُنَزَّلَ أحاديثُ ظهور الشرك في المسلمين على هذهِ المرحلةِ المذكورةِ، وإنما يكون الشرك الأكبر محصورا فيما بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وفيها حديث «لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى عبادة الأوثان يعبدونها» أخرجه الطيالسي عن أبي هريرة. وحديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان » . وحديث : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » . فقلت يا رسول الله ، إن كنت لا أظن حين أنزل الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣٣] أن ذلك تام قال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحا طيبة تتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم » . أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٣٠-٢٢٣١) .

و تبـدأُ مرحلةَ الانهيارِ بُعَيدَ مَوتِ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسـنواتٍ ، وهـي مرحلةٌ طويلةٌ نِسبيًا ، تبدأُ بِمَوتِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وبَينَ موتِه وطُلوعِ الشمسِ تأتي جُملةٌ مِنَ الآياتِ الكُبـرى والوُسـطى والصُّغـرى وقد وصفَهـا كاتِبُ «الإشـاعةِ» بِقولِـه : ثُمَّ يموتُ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ويتولَّى بعدَ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ رجُلٌ مِن قُرَيشٍ يُسمَّى المقعدَ فإذا ماتَ تولَّى مِن قُرَيشٍ مِن لا يُحسِنُ سيرتَه ؛ فيخرُجَ علَيهِ المخزوميُّ ـ ولعلَّه «الجهجاه» ـ ويدعـو إلـى الفُرقـةِ ؛ فيخـرُجُ علَيـهِ القحطانـيُّ بِسـيرةِ المهـديِّ ، وهـو المُلقَّـبُ بِالمنصورِ، ويمكُثُ إحدى وعِشـرين سـنةً ، ثُمَّ تنتقصُ الدُّنيـا ، ويملكُ الموالي ، ويغلِبُ الشـرُّ إلى أن تطلُعَ الشـمسُ مِن مغرِبِها . اهـ. (راجِعِ التليدَ والطارفَ ص ٤٥٠ – ٤٥١).

القحطاني

وأخرجَ أحمدُ ومُسـلِمٌ عن عُمرَ أبي عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ « ثُمَّ يُرسِـلُ اللَّهُ ـ يعني

وهذا الشرك الجماعي لا يكون بعد موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ويؤيد انصراف معنى « الشرك » من أمة محمد ما بين الرسالة ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حديث : « لست أخشى عليكم الشرك من بعدي ، ولكن أخشـى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلككم كما أهلكت من كان قبلكم » . وعلى هذا الأسـاس يفسر علم فقه التحولات ظاهرة التشريك التي تبنتها مدارس القبض والنقـض في مرحلة الغثاء بأنها تهمـة لا دليل لها ، بل هي تهمة بدعية بحتة تبنت التحريف للنصـوص القرآنيـة والحديثيـة وغايـة ما يمكـن قبوله في تصحيـح الانحراف السـائد بين المسـلمين في الاعتقادات والعادات والعبادات ، يقال في المسلمين بعمومهم أنهم وقعوا فـي الغلـو والإفراط أو الجفـاء والتفريط ، وعلـى هذين الطرفين المتضاديـن تبنت أحكام التشريك والتكفير الجائرة مدارس القبض والنقض من جهة ، وتبنت التفريط وثقافة الكفر مدارس العلمانية والتوليفية المعاصرة من جهة أخرى .

وكلا المدرسـتين خدمتـا « المنهـج المسـيس » بعلـم أو بغيـر علم وشـددتا النكير على مدارس الإسـلام الأبوية المسندة مع أنهما في الجانب المقابل فتحتا الباب على مصراعيه لمدارس العلمانية والعلمنة والعولمة كي « تعيد هندسة الحياة المعاصرة بكل أنماطها » .

ظهور إبليس في جيل الانهيار والدعوة إلى عبادة الأصنام كما كانَت في الجاهلية

بعدَ مَوتِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -رِيحًا بارِدةً مِن قبلِ الشامِ فلا يبقى على وجهِ الأرضِ أحدٌ فـي قلبِـه مِثقالَ ذرَّةٍ مِن إيمانٍ إلَّا قبضَه – إلى أن قالَ : فيبقى شِـرارُ الناسِ في خِفَّةِ الطَيرِ وأحلامِ السِّباعِ لا يعرِفون معروفًا ، ولا يُنكِرونَ مُنكرًا فيتمثَّلُ لهمُ الشيطانُ ، فيقولُ ألا تستحيونَ ؟ فيقولون ما تأمُرُنا ؟ فيأمُرُهم بِعبادةِ الأوثانِ فيعبُدونها ، وهم في ذلِكَ دَارٌّ رِزقُهم حَسَـنٌ عَيشُـهم حتَّى يُنفَخَ في الصورِ [1]. وتمتازُ هذه المرحلةِ الأخيرةِ بما يلي مِنَ العلاماتِ الكُبرى والوُسطى والصُّغرى .

(١) صحيح مسلم (٧٥٦٨) ، وراجع التليد والطارف ٤٥٧ .

الدابَّةُ

خُروج الدابة من مكَّة

ومِن علاماتِ الساعةِ الكُبرى ظُهورُ الدابَّةِ ، واختُلفَ في ترتيبِ وقتِها بِالنسبةِ لِلعلاماتِ الكُبرى الأخيرةِ ، ويُشيرُ إلى هذا المعنى حديثُ عبدِاللَّهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ : حفِظْتُ مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ حديثًا لم أنسَه بعدُ ، سمِعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ « إنَّ أوَّلَ الآياتِ خُروجًا طُلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها ، وخُروجُ الدابَّةِ على الناسِ ضُحًى ، وأيهما كانَت قبلَ صاحِبتِها ، فالأُخرى على أثرِها قريبًا »[1]. رواه مُسلِمٌ .

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هو موت العلماء ورفع القرآن

قالَ تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[النمل:٨٢] . قالَ المُفسِّرون: هذه الآيةَ الكريمةَ جاءَ فِيها ذِكرُ خُروجِ الدابةِ ، وإنَّ ذلِكَ يكونُ عِندَ فسادِ الناسِ وتركِهم أوامرَ اللَّهِ وتبرِّيهم مِنَ الحقِّ، قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَقْعُ القولِ يكونُ بِموتِ العُلماءِ وذَهابِ العِلمِ ورفعِ القُرآنِ ، ثُمَّ قالَ: أكثِروا تِلاوةَ القُرآنِ قبلَ أن يُرفَعَ ، قالوا : هذه المصاحفُ تُرفَعُ، فكيفَ بما في صُدورِ الرِجالِ! قال: يُسرى علَيهِ لَيلًا فيُصبِحون منه قفرًا ، وينسون لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، ويقعون في قَولِ الجاهِليةِ وأشعارِهم ، وذلِكَ حينَ يقعُ القَولُ علَيهم »[2] ،وراجِعْ « أشراطَ الساعةِ » للوابِلِ[3] .

وكما هو الحالُ في أخبارِ طُلوعِ الشمسِ مِن مغرِبِها ص ٤٠٤ . وطولِ زمانِها

---

(١) صحيح مسلم (٧٥٧٠).

(٢) تفسيرُ القُرطُبيِّ (١٣/ ٢٣٤).

(٣) وجاء في سبل الهدى والرشاد (١٠ : ٦٥٦) في الباب السابع « سبب خروجها » قال : «ذلك حين لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر» .

بقاء الناس بعد الدابة مددا طويلة

وكذلِـكَ الحالُ في خُروجِ الدابةِ وآثارِ خُروجِها على الناسِ فيطولُ الزمنُ بعدَها.. كما روى الإمامُ أحمدُ عن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرفعُه إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « تخرُجُ الدابَّةُ فتُسـمِّي الناسَ على خراطيمِهم ـ أي : أُنوفِهم ـ ثُمَّ يُغمرون ـ أي : يكثُرون ـ فيكم حتَّى يشتري الرجُلُ البعيرَ ، فيُقالُ ممن اشترَيتَه ؟ فيقولُ: مِن أحدِ المُخطَّمين»[1].

ما بعد مرحلة خُروج الدابة

وروى الإمـامُ أحمـدُ والترمِـذيُّ عـن أبي هُريـرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عنِ النبـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ: « تخـرُجُ الدابـةُ ومعَهـا عصا مُوسـى وخاتمُ سُـليمانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فتختِـمُ الكافِرَ ـ أنفَ الكافِرِ ـ بِالخاتـمِ ، وتجلو وجهَ المؤمـنِ بِالعصاءِ حتَّى إنَّ أهـلَ الخوانِ[2] – أي : المُجتمِعـون على الطعامِ فوقَ الخوانِ ـ والخوانُ ما يوضعُ علَيهِ الطعامُ عِندَ الأكلِ ـ يجتمِعونَ على خوانِهم ، فيقولُ هذا : يا مؤمِنُ . ويقول هذا : يا كافِرُ » [3].

وقـد ذكـروا أنها تخرُجُ مِن مكّـةَ المكرَّمةِ مِن أعظمِ المسـاجِدِ ، ورُويَ في ذلِكَ أحاديثُ مِنها :

ما رواه الطبرانيُّ في الأوسـطِ عن حُذَيفةَ بنِ أَسـيدٍ قالَ « تخرُجُ الدابةُ مِن أعظمِ المساجِدِ : فبَينَما هم إذ دبَّتِ الأرضُ ، فبينما هم كذلِكَ تصدَّعَت » [4].

وقيلَ : إنَّ لها ثلاثةَ خُروجاتٍ . كما جاءَ في حديثِ حُذَيفةَ بنِ أَسيدٍ عِند الحاكِم ، وقـالَ : «لهـا ثـلاثُ خرجـاتٍ » [5]. وذكرَ الحديـثَ بِطولِه ، ثُمَّ قـالَ هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ الشَّيخين ولم يُخرجاه .

---

(١) مسند أحمد (٢٢٩٦٨).

(٢) وفي رِوايةٍ (الحواء) ، وهي بُيوتٌ مُجتمِعةٌ مِنَ الناسِ على ماءٍ .

(٣) سنن الترمذي (٣٤٩٠).

(٤) الطبراني في الأوسط (١٦٣٥) .

(٥) المستدرك (٨٤٩٠).

قـالَ ﷺ: « ثُـمَّ بـَيـَنمـا النـاسُ في أعظمِ المسـاجِدِ ـ علـى اللَّهِ ـ حُرمـةً وأكرمِها المسـجِدِ الحرامِ ، لـم ترعْهم إلَّا وهي ترغو بَينَ الرُّكنِ والمقامِ تنفُضُ عن رأسِـها التُّرابَ فَارْفَضَّ الناسُ عنها شتَّى »[1] .

وعن أبي هُرَيرةَ وابنِ عُمرَ وعائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : « تخرجُ الدّابَّةُ بِأجيادٍ »[2].

وجزمَ البيضاويُّ في تفسيره بأنها «الجساسـةُ صاحبة الدجال»[3]. كما ورد في رواية ابن حماد والحاكم أنها تقتل إبليسَ بعد انقطاعِ دَوْرِهِ في الحياةِ وقد فَرَغَ من العمـل، ونَـصُّ الحديثُ: «ولا يزالُ إبليسُ سـاجداً باكياً حتّى تَخْرُجَ الدابةُ فتَقْتُلَهُ وهُو ساجدٌ»[4] .

وأخـرجَ الطبرانيُّ وابْنُ مَرْدَوِيهِ عن عمـرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : «إذا طَلَعَتِ الشمسُ مِن مغربِها خَرَّ إبليسُ ساجداً يُنادي ويَجْهَرُ: إلهِي مُرْنِي أَسْجُدُ لِمَنْ شِئْتَ، فتجتمعُ إليهِ زَبانيةٌ فيقولونَ: يا سَـيِّدَنا ما هذا التَّضَرُّعُ ؟ فيقول: إنّما سـألتُ رَبي أَنْ يُنْظِرَنِي إلى الوقتِ المعلومِ ، وهَذَا الوقتُ المعلومُ»[5].

---

(١) مسند الطيالسي (١١٦٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٧٦٢).

(٣) تفسير البيضاوي (١: ٢٧٨) ، وانظر الإشاعة ص٣٦٠.

(٤) نصـه في المسـتدرك (٨٥٩٠) : خروج الدابة بعد طلوع الشـمس مـن مغربها فإذا خرجت لطمت إبليس وهو ساجد.

(٥) الطبراني في الأوسط (٩٤).

الريحُ القابِضةُ لِلمؤمنين

الريح القابضة لمن بقي من المؤمنين

وهـي مِـنَ العلاماتِ الصُّغرى في هـذه المرحلةِ ، وتظهرُ معَ هـذا الانهيارِ الذي يُصيـبُ البشـريةَ مِن أمـرِ دينِها وعقيدتِها يبعثُ اللَّـهُ لِمَن بقيَ مِـنَ المؤمنين ريحًا تقبِـضُ أرواحَهـم ، كما وردَ في أحاديثَ مَن لا ينطـقُ عنِ الهوى مِن مِثلِ قَولِه ﷺ فيما رواه عبدُاللَّهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ : « يبعثُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ رِيحًا فِيها زمهريرٌ بـارِدٌ لا تـدعُ على وجـهِ الأرضِ مُؤمِنًا إلَّا مـاتَ بِتِلكَ الريحِ ثُمَّ تقومُ السـاعةُ على شِرارِ الناسِ »[1] .

ارتباط هدم الكعبة بموت المؤمنين وبقاء عجاج من الناس

وعـن عبدِاللَّـهِ بنِ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ : « إنَّ مِن آخِرِ أمرِ الكعبةِ أنَّ الحبشـةَ يغزون البَيتَ ، فيتوجَّه المُسـلِمون نحوَهم فيبعثُ اللَّهُ علَيهم ريحًا أثرُها شـرقيةٌ ؛ فلا يدعُ اللَّـهُ عبـدًا في قلبِه مِثقالَ ذرَّةٍ مِن تُقى إلَّا قبضَته ، حتَّى إذا فرغوا مِن خيارِهم ، يقي عِجاجًا مِنَ الناسِ لا يأمرون بِمعروفٍ ولا ينهون عن مُنكرٍ ، وعمدَ كُلَّ حيٍّ إلى ما كانَ يعبُدُ آباؤهم مِنَ الأوثانِ ، فيعبُدُه حتَّى يتسافدوا في الطُّرُقِ كما تتسافدُ البهائمُ ، فتقومُ علَيهمُ الساعةُ ، فمن نبأكَ عن شيءٍ بعدَ هذا فلا عِلمَ له »[2].

وما رواه مُسلِمٌ عنِ النواسِ بنِ سمعانَ « فبينما هم كذلِكَ إذ بعثَ اللَّهُ ريحًا طيِّبةً فتأخُذُهـم تحتَ آباطِهم فتقبِضُ رُوحَ كُلِّ مؤمنٍ وكُلِّ مُسـلِمٍ ، ويبقى شِـرارُ الناسِ يتهارجون فِيها ـ أي: يتسافدون ـ كما تهارجَ الحمرُ فعلَيهم تقومُ الساعةُ[3].

---

(١) المستدرك (٨٦٦٦).

(٢) المستدرك (٨٤١٠)، وانظر إتحاف الجماعة (٣: ٣٤).

(٣) صحيح مسلم (٧٥٦٠).

قالَ في الإشاعةِ : (فيكونُ على مِثلِ ذلِكَ حتَّى لا يُولَدُ أحدٌ مِن نكاحٍ ثُمَّ يُعقِّمُ اللَّهُ النِّساءَ ثلاثين سنةً ، ويكونون كلُّهم أولادَ زِنا شِرارَ الناسِ علَيهم تقومُ الساعةُ)[1] .

(١) ص٣٢٦.

هدمُ الكعبةِ

انهيار أهل مكَّة في مرحلة الخراب الأخير وانفتاح أبواب الشر والدمار

ومِن علاماتِ الساعةِ الصُّغرى قربَ نِهايةِ أمرِ الكَونِ والحياةِ هدمُ الكعبةِ المُشرفةِ وزوالِ بُنيانِها حجرًا حجرًا ، فتخرُبُ خرابًا لا تعمُرُ بعدَه ، وقد وردَ ذلِكَ في جُملةٍ مِـن أحاديثِ الرسـولِ ﷺ ومِنها : حديثُ أبي هُرَيرةَ وهـو يحدِّثُ أبا قَتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهُو يطوفُ بِالبيتِ قالَ : قالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « يبايعُ لِرَجُلٍ بَينَ الرُّكنِ والمقامِ ، وأوَّلُ مَـن يسـتحِلُّ هـذا البَيتِ أهلُه ، فإذا اسـتحلُّوه فلا تسـأل عـن هلكةِ العربِ ، ثُـمَّ تجـيءُ الحبشـةُ فيُخرِّبونه خرابًا لا يعمُـرُ بعدَه أبدًا ، وهمُ الذينَ يسـتخرجِونَ كنزَه »[1] .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسـولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « يُخرِّبُ الكعبةَ ذو السـوَيقتَين مِنَ الحبشةِ »[2] .

وفـي رِوايـةِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « كأني بِهِ أسـودُ أفحـجُ يقلعُها حجرًا حجرًا » يعني: الكعبةَ[3] .

ووردَ فـي رفـعِ الرُّكـنِ مِنَ البيـتِ الحرامِ والقُـرآنِ مِنَ الأرضِ حديـثُ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـالَ : قـالَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ : « اسـتمتِعوا مِن هـذا البيتِ ؛ فإنَّـه قد هُدِمَ مرتَين ، ويُرفَعُ في الثالثةِ »[4] .

---

(١) مسند أحمد (٨١٢٩) .

(٢) متفق عليه ، صحيح البخاري (١٥٩١) ، صحيح مسلم (٧٤٨٩) .

(٣) صحيح البخاري (١٥٩٥) .

(٤) صحيح ابن حبان (٦٧٥٣).

أهم ظواهر هذه المرحلة

وذكـرَ الفاكهـي في « أخبار مكَّةَ » عن عُثمانَ بنِ ساجٍ قالَ : بلغني عنِ النبيِّ ﷺ أنَّـه قـالَ : « أكثروا زِيـارَةَ هذا البيتِ قبلَ أَنْ يُرْفعَ ، ويَنْسَـى النَّاسُ مَكَانَـهُ ، وَأَكْثِرُوا تـلاوةَ القـرآنِ قبـلَ أَنْ يُرْفَـعَ »[1] ، وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسـولَ اللَّـهِ ﷺ قالَ : «يسري على كِتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في لَيلةٍ فلا يبقى في الأرضِ منه آيةٌ»[2] .

ومن ظواهِرِ هذه المرحلةِ الخطيرةِ ما يلي :

- هدمُ الكعبةِ على يدِ ذي السويقتَين مِنَ الحبشةِ وسلبُ حليتِها .
- يُرفَعُ القرآنُ مِنَ المصاحِفِ والصُّدورِ .
- يُرفَعُ الرُّكنُ والقُرآنُ ورؤيا النبيِّ ﷺ .

(١) أخبار مكة للفاكهي (٢٨٩).

(٢) المستدرك (٨٤٦٠).

الدخانُ

ظهور الدخان كعلامة

مِـنَ العلامـاتِ الكُبـرى « الدخانُ » وفيه يقـولُ تعالى ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ ﴾[الدخان:١٠ ١١] .

واختلفَ المُفسِّرونَ في الدُّخانِ فذهبَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرُه بِأنَّ «الدَّخانَ» هو ما أصابَ قُريشًـا في شِـدَّةِ الجُوعِ عِندَما دعا علَيهمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حينَ لم يستجِيبوا له فأصبحوا يُرون في السماءِ كهيئةٍ « الدُخانِ » وفي هذا يقولُ : « خمسٌ قد مضَينَ: اللِّزامُ، والرُّومُ ، والبطشةُ ، والقمرُ ، والدُخانُ »[1] .

وفي قَولُ آخرُ : هذا الدُّخانُ مِنَ الآياتِ المُنتظرةِ التي لم تأتِ بعدُ ، وهو قولُ ابنِ عبَّـاسٍ وبعضِ الصحابـةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وذكرَ القُرطُبيُّ أن ابنَ مسـعودٍ كان يقولُ: هُما دُخانـانِ ، قـد مضى أحدُهما ، والذي بقيَ يملأُ ما بَينَ السـماءِ والأرضِ ، ولا يجِدُ المؤمِنُ منه إلَّا الزكمةَ ، وأما الكافِرُ فتُثقبُ مسامِعُه [2].

وكلا الخبرين عنِ ابنِ مسـعودٍ صحيحان رُوِيا عن رسـولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وعلى هذا فالدُّخـانُ المشـارُ إلَيه في الأحاديثِ يدُلُّ على أنَّه سـيأتي في آخِرِ الزمانِ . ولعلَّها قريبٌ مِنَ الدَّجَّالِ، أي: في المراحِلِ التي بعدَه ، وروى مُسلِمٌ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « بادِروا بِالأعمالِ سِتًّا ... والدَّجَّالَ والدُّخانَ » [3].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٥) .

(٢) التذكرة للقرطبي (٦٥٥).

(٣) تقدم .

الخُسوفاتُ الثلاثةُ

الخسوفات الثلاثة ظواهر كونية كبرى وفِيها تهيئة لظهور الشمس من مغربها

ومِن أشراطِ الساعةِ الكُبرى الخُسوفاتُ الثلاثةُ ، وإلَيها يُشيرُ الحديثُ الشريفُ عن حُذَيفةَ بنِ أَسيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قالَ : « إنَّ الساعةَ لن تقومَ حتَّى ترَونَ عشرَ آياتٍ ... » . وذكرَ مِنها ثلاثةَ خُسوفاتٍ : «خسفاً بِالمشرِقِ ، وخسفاً بِالمغرِبِ ، وخسفاً بِجزيرةِ العربِ »[1] .

وعن أُمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ : سمعْتُ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقولُ : « سيكونُ بعدي خسفٌ بِالمشرِقِ وخسفٌ بِالمغرِبِ وخسفٌ في جزيرةِ العربِ » . قُلتُ يا رسولَ اللَّهِ أيُخسفُ بِالأرضِ وفِيها الصالِحون ؟ قالَ لها رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إذا أكثرَ أهلُها الخبثَ »[2] .

وقد أشارَ العديدُ مِنَ العُلماء إلى أنَّ هذه الخُسوفاتِ لم تحدُثْ إلى الآنِ ، وخاصَّةً أنها ظواهِرُ كَونيةٌ عظيمةٌ ، تختلِفُ عمَّا قد جرى مِنَ الخسفِ في بعضِ البِلادِ . وخاصَّةً أن حديثَ أُمِّ سلمةَ رَبَطَ هذه الخُسوفاتِ بِكثرةِ الخبثِ في الناسِ؛ ولهذا رُبَّما صحَّ أنَّها فيما بَينَ مرحلةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومرحلةِ الانهيارِ والعودِ إلى الجاهِليةِ الأخيرةِ ، شأنُها شأنُ الدُّخانُ ، واللَّهُ أعلمُ .

وفي بعضِ الرِّواياتِ أُدخِلَتِ الخُسوفاتُ الثلاثةُ في الآياتِ العشرِ الواجبِ العِلمُ بها مِنَ العلاماتِ الكُبرى ، كما هو في حديثِ واثلةِ بنِ الأسقعِ قالَ : سمعتُ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقولُ : «لا تقومُ الساعةُ حتَّى تكونَ عشرُ آياتٍ :

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦٧) .

(٢) الطبراني في الكبير (١٩٥٣٢).

(١) خسفٌ بِالمشرِقِ

(٢) وخسفٌ بالمغرِبِ

(٣) وخسفٌ في جزيرةِ العربِ

(٤) والدَّجَّالُ

(٥) والدُّخانُ

(٦) ونُزولُ عيسى

(٧) ويأجوجُ ومأجوجُ

(٨) والدابةُ

(٩) وطُلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها

(١٠) ونارٌ تخرُجُ مِن قعرِ عدنٍ تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ ، تحشُرُ الذَّرَّ والنملَ » [١] .

(١) المستدرك (٨٣١٧).

طُلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها وانقِطاعُ التوبةِ

وهي مِنَ العلاماتِ الكُبرى التي أخبرَ عن وُقوعِها نبيُّنا ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ « لا تقومُ الساعةُ حتَّى تطلُعَ الشمسُ مِن مغرِبِها ، فإذا طلعَت فرآها الناسُ آمنوا أجمعون ، فذاك حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام:١٥٨] »[1]. ومِنَ المُقرَّرِ كما ثبتَ في معنى الآيةِ السابِقةِ أنَّ الشمسَ إذا طلعَت مِن مغرِبِها لا يُقبَلُ الإيمانُ ممَّن لم يؤمِنْ قبلَها كما لا تُقبلُ توبةُ العاصي ؛ ذلِكَ لأنَّ طُلوعَ الشمسِ مِن مغرِبِها آيةٌ عظيمةٌ يراها كُلُّ مَن كانَ في ذلِكَ الزمانِ ، فتنكشِفُ لهمُ الحقائقُ ويُشاهِدونَ مِنَ الأهوالِ ما يلوي أعناقَهم إلى الإقرارِ والتصديقِ بِاللَّهِ وآياتِه .

انقطاع التوبة واستمرار ظاهرة طلوع الشمس من المغرب

ورُوِيَ عن عِمرانَ بنِ حُصينٍ أنَّه قالَ : « إنَّما لم تُقبَلُ وقتَ الطُّلوعِ حتَّى تكونَ صَيحةً فيهلكُ فِيها كثيرٌ مِنَ الناسِ ، فمن أسلَمَ وتابَ في ذلِكَ الوقتِ ثُمَّ هلَكَ لم تُقبَلْ توبتُه ومن تابَ بعدَ ذلِكَ قُبِلَت توبتُه »[2] .

والذي يُؤيِّدُ هذا ما رواه ابن أبي شيبة عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالَت : (إِذَا خَرَجَتْ أَوَّلُ الآيَاتِ حُبِسَتِ الْحَفَظَةُ وَطُرِحَت الأَقْلاَمُ وَشَهِدَتِ الأَجْسَادُ عَلَى الأَعْمَالِ)[3].

والمُرادُ بِأوَّلِ الآياتِ هُنا هو طُلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها ، أمَّا ما كانَ قبلَ طُلوعِها مِنَ الآياتِ فإنَّ الأحاديثَ تدُلُّ على قبولِ التوبةِ وبقاءِ الإيمانِ .

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٣٦) .

(٢) فتح الباري (١١ : ٣٥٤).

(٣) المصنف (٣٨٧٥٤).

وروى جريرٌ الطبريُّ عن عبدِاللَّهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ : « التوبةُ مبسوطةٌ ما لم تطلعِ الشمسُ مِن مغرِبِها »[1] .

انقطاع الهجرة والطبع على القلوب ونهاية العمل الصالح في الأمم

والـذي يظهرُ مِن بعضِ النُّصوصِ أنَّ مرحلةَ التحوُّلِ الكَونيِّ في طُلوعِ الشـمسِ مِـن مغرِبِهـا يسـتغرِقُ مُدةً زمنيةً طويلـةً ، وردَتِ الإشـارةُ إلَيها فيمـا رواه عبدُ اللَّهِ بـنِ عمـرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عنِ النبـيِّ ﷺ : « يبقى الناسُ بعدَ طُلوعِ الشـمسِ مِن مغرِبِها عشرين ومائةَ سنةٍ » اهـ[2] .

ويؤيِّـدُ ذلِـكَ أيضًا ما رواه ابن أبي شـيبة عن عائشـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالَـت : « إذا خرجَ أوَّلُ الآيـاتِ ، طُرِحَـتِ الأقـلامُ ، وحُبِسَـتِ الحفظـةُ ، وشَـهِدَتِ الأجسـامُ علـى الأعمالِ»[3] .

وإنَّمـا قولُه : حديثُ عائشـةَ « إذا خرجَ أوَّلُ الآياتِ » المُـرادُ بأوَّلِ الآياتِ طُلوعِ الشمسِ مِن مغرِبِها بِالنسبةِ لِما بعدَها ، أما ما كانَ مِنَ الآياتِ قبلَها فالتوبةُ مقبولةٌ ، والإيمانُ مُتحقِّقٌ بَينَ القَبولِ والردِّ ، ويمتدُّ هذا الأمرُ إلى يومِ القيامةِ .

وحديثُ مُسـندِ الإمامِ أحمدَ مِن قولِه ﷺ : « لا تنقطِعُ الهِجرةُ ما تُقُبِّلَتِ التوبةُ ، ولا تـزالُ التوبةُ مقبولةً حتَّى تطلُعَ الشـمسُ مِن مغرِبِهـا ، فإذا طلعَت طُبِعَ على كُلِّ قلبٍ بما فيه ، وكُفِيَ الناسُ العملَ »[4] .

---

(١) تفسيرُ الطبريِّ (٨/ ١٠٣)

(٢) عمدة القاري (٢٧ : ٢١٨).

(٣) المصنف (٣٨٧٥٤).

(٤) مسند أحمد (١٦٩٣)، وانظر أشراط الساعة ليوسف الوابل (٣٩٨).

النارُ الحِاشرةُ

النار الحاشرة إحدى الظواهر الكونية الأخيرة

ومِن علاماتِ الساعةِ الكُبرى النارُ التي تحشُرُ الناسَ ، بل هي أوَّلُ الآياتِ بعدَ ما سبقَها مؤذنةً بِقيامِ الساعةِ فيكونُ مبعثُها مِنَ « اليمنِ »[1] .

وبعضُها : « وتخرُجُ مِن بحرِ حضرَموتٍ »[2] .

وبعضُها : « مِن قَعْرِ عَدَنٍ »[3] . واللَّهُ أعلمُ .

وجاءَ في حديثِ حُذَيفةَ بنِ أَسيدٍ في ذكرِ أشراطِ الساعةِ الكُبرى قالَ ﷺ : « وآخِرُ ذلِكَ نارٌ تخرُجُ مِن فِيْ اليمنِ تطرُدُ الناسَ إلى محشرِهم »[4] .

وفي روايةٍ عن حُذَيفةَ أيضًا : « ونارٌ تُخرُجُ مِن قعرةِ عدنٍ تُرحِّلُ الناسَ »[5] .

اليمن وعدن وحضرموت مواقع خُروج النار

وروى أحمدُ والترمذيُّ عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ستخرُجُ نارٌ مِن حضرموتَ أو مِن بحرِ حضرموتَ قبلَ يومِ القيامةِ تحشُرُ الناسَ »[6].

وروى الإمامُ البُخاريُّ عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ عبدَاللَّهِ بنَ سلامٍ لمَّا أسلمَ سألَ النبيَّ ﷺ عن مسائلَ ، وفيها: ما أوَّلُ أشراطِ الساعةِ؟ فقالَ النبيُّ ﷺ : « أمَّا أوَّلُ أشراطِ

---

(١) الطبراني في الكبير (٣٠٣٠).

(٢) مسند أبي يعلى (٥٥٥١).

(٣) الطبراني في الكبير (٢٩٦١).

(٤) صحيح مسلم (٧٤٦٧).

(٥) صحيح مسلم (٧٤٦٨).

(٦) مسند أحمد (٥١٤٦).

الساعةِ فنارٌ تحشُرُ الناسَ مِنَ المشرِقِ إلى المغرِبِ »[1] .

وقولُه : « أوَّلُ أشـراطِ السـاعةِ » أي : قُربًا مِن نِهايةِ النهايةِ ، فلا شـيءَ بعدَها مِن أُمورِ الدُّنيا أصلًا إلَّا ما يشغلُ الناسَ مِن مُجرياتِ التحوُّلِ مِن آيةٍ إلى آيةٍ .

ماهي النار الحاشرة؟

ولا شـكَّ أنَّ النارَ الحاشِرةَ مِنَ المشرِقِ إلى المغرِبِ ستستغرِقُ وقتًا زمنيًّا مسافةً وزمنًا ورِحلةً ... سواءٌ كانَت نارًا مُلتهِبةً كما فسَّرَ بعضُهم ، أو براكين وحُممًا ناريةً، أو موادَّ سائلةٍ ، أو معادِنَ مصهورةً ، أو غيرَ ذلِكَ .

الأفواج المتعاقبة بالخروج خوفا من النار

وقد وردَ في هذا الأمرِ ما يُوسِّعُ مشـهدَ المعرفةِ لِمفهومِ النارِ الحاشِـرةِ فقد وردَ فـي حديـثِ البُخاريِّ ومُسـلِمٍ عن أبي هُرَيرةَ أنَّهـم على ثلاثةِ أفـواجٍ : الأوَّلُ فَوجٌ راغِبـون ، وفَـوجٌ طاعِمون كاسـون راكِبون ، والثاني فَوجٌ يمشـون تـارةً ويركبون أُخـرى ، يتعاقبـون على البعيرِ الواحِدِ ، والفوجُ الثالِثُ تحشـرُهم النارُ فتُحيطُ بِهم مِن ورائهم وتسـوقُهم مِن كُلِّ جانبٍ إلى أرضِ المحشـرِ ، ومَنْ تَخَلَّفَ أَكَلَتْهُ النارُ، وأرضُ المحشـرِ علـى ما وردَ أنها الشـامُ ، فقـد روى الإمامُ أحمدُ عـن حكيمِ بنِ مُعاويةَ المُزنيِّ عن أبيه فذكرَ الحديثَ وفيه قولُه : « هاهُنا تُحشرون هاهُنا تُحشرون هاهُنا تُحشـرون رُكبانًا ومُشـاةً وعلى وُجوهِكم » . قالَ ابنُ أبي بكرةَ : فأشـارَ بيدِه إلى الشامِ فقالَ : « إلى هاهُنا تُحشرون »[2].

الهجرة الأخيرة إلى الشام

وروى الإمـامُ أحمـدُ وأبـو داودَ عن عبدِاللّـهِ بنِ عمرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ : سـمِعتُ رسـولَ اللّهِ ﷺ سـتكونُ هِجرةٌ بعدَ هِجرةٍ تُجازُ إلى مهجرِ إبراهيمَ ، ولا يبقى في الأرضِ إلَّا شِرارُ أهلِها تلفظُهم أرضُهم تُنذِرُهم نفس الله ، تحشُرُهمُ النارُ معَ القِردةِ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٢٩) .

(٢) مسند أحمد (٢٠٥٤٦).

والخنازيرِ تبيتُ معَهم إذا باتُوا ، وتَمِيلُ معَهم إذا مالوا ، وتأكلُ مَن تخلَّفَ»[1] .

وأنكرَ بعضُهم أن تكونَ الشامُ أرضَ المحشرِ بدليلِ قولِه تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] . فأين الشامُ إذن؟ والإجابةُ أن الآيةَ لا تعني علاماتِ الساعةِ ، وإنَّما تعني ما بعدَها مِن أرضِ المحشرِ الأخيرِ عِندَ النفخِ في الصُّورِ ثانيةً حيثُ تُشيرُ الآيةُ ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] .

فالمحشرُ المُشارُ إلَيه اجتِماعُ الناسِ في ظاهِرِ الأرضِ ، وأمَّا المحشرُ في الآياتِ فما بعدَ حياةِ البرزخِ ، واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) مسند أحمد (٧٠٥٠).

اندِراسُ الإسلامِ ثُمَّ اندِراسُ كلمةِ التوحيدِ

اندراس الإسلام هو اندراس العمل بأوامره واجتناب نواهيه

مِـنَ العلامـاتِ الصُّغرى في هـذه المرحلةِ كما أخـرجَ ابنُ ماجه عـن حُذَيفةَ بنِ اليمـانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قـالَ : « يـدرُسُ الإسـلامُ كمـا يدرُسُ وشـيُ الثـوبِ - أي: يخلقُ ويبلى - حتَّى لا يُدرى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صدقةٌ ، وتبقى طوائفُ مِنَ الناسِ : الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ الكبيرةُ يقولون: أدركْنا آباءَنا على هذه الكلِمةِ (لا إلهَ إلَّا اللَّهُ) فنحن نقولُها » . فقالَ رجُلٌ لِحُذَيفةَ : فما تُغني عنهمُ الكلِمةُ ؟ فأعرضَ حُذَيفةُ ؛ فأعادَ علَيهِ السؤالَ ثانيًا وثالثًا ؛ فقالَ في الثالثةِ : « تُنجيهم مِنَ النارِ »[1] .

والانـدراسُ هُنـا يُشـيرُ إلى إهمالِ كُلِّ شـيءٍ يتعلَّقُ بِالإسـلامِ مِن عِبـاداتٍ ومِن عـاداتٍ بدءًا بِالتعليـمِ والإعلامِ ، ونِهايـةً بِالقوانين والأحكامِ ، وتتناسـلُ الأجيالُ جيـلًا بعـدَ آخرَ على جهـلٍ وجاهِليةٍ حتَّى يتحقَّقَ ما أشـارَ إليه الحديـثُ : «ويبقى طوائفُ مِنَ الناسِ ، الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ الكبيرةُ يقولون : أدركْنا آباءَنا على هذه الكلِمةِ « لا إلهَ إلَّا اللَّهُ » فنحنُ نقولُها » .

وتمرُّ على هذه الحالةِ مُدةٌ زمنيةٌ حتَّى تندرِسَ أيضًا كلِمةُ التوحيدِ ذاتُها ، وينساها الناسُ ، فقد أخرجَ أحمدُ بِسندٍ قويٍّ عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : « لا تقومُ الساعةُ حتَّى لا يُقالَ في الأرضِ : لا إله إلَّا اللَّهُ »[2] . وهو عِند مُسلِمٍ بِلفظِ « اللَّهُ الله »[3] فدلَّتِ الأحاديثُ على أنَّ المُرادَ بِالشـرارِ في قَولِه : « ويبقى فيها شرارها تلفظهم الأرض

---

(١) سنن ابن ماجه (٤١٨٥).

(٢) مسند أحمد (١٤١٨٦).

(٣) صحيح مسلم (٣٩٢) .

وتقذرهم »[1] وفي رِوايةٍ : « ويبقى شِـرارُ الناسِ في خِفَّةِ الطَيرِ وأحلامِ السِّـباعِ »[2] ؛ أَنَّهُمُ الّذِينَ لا يقولون : « لا إله إلّا اللَّهُ » أو « اللَّهُ اللَّهُ » .

وأنَّه ما دامَ في النوعِ الإنسانيِّ مَن يقولُ هذه الكلِمةَ فلن تقومَ الساعةُ ، وإنَّما تقومُ علـى الكُفَّارِ الخُلَّصِ الذين لا يعرِفونَ نِكاحًا شـرعيًّا ، ولا يُولَدون مِن نكاحٍ ، ولا يعرِفون في الحياةِ دِينًا ولا ربًّا ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف : ١٧٩] .

(١) مسند الشاميين للطبراني (٢٧٦١).

(٢) صحيح مسلم (٣٩٢) .

العلامةُ الأخيرةُ.. النفخُ في الصورِ

النفخ في الصور
نِهاية الحياة
الكونية

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الزمر:68]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج:2] ، وهذه الآياتُ وغيرُها تُشيرُ إلى النفخةِ الأولى، وهي التي تقومُ بها الساعةُ، وهي ما تسمى (بالراجفةِ)، كما وردَ في قولِ ابنِ عباسٍ، و(الرادفةُ) هي النفخةُ الثانيةُ.

وقد وردَ في مجملِ الحديثِ أنّ قيامَ الساعةِ يكونُ في يومِ الجُمُعَةِ، ومنها حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يومُ الجمُعةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ، وفيه خَرَجَ منها، ولا تَقُومُ الساعةُ إلا يومَ الجمُعةِ» رواهُ الإمامُ أحمدُ ومسلمٌ والترمذيُّ[١].

وفي روايةٍ أخرى «وفيهِ ـ أي: يومَ الجمعةِ ـ تقومُ الساعةُ، وما مِنْ دَابَّةٍ إلّا وهِيَ مُصْخِيَةٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقاً مِنَ الساعةِ إلّا الإنسُ والجِنُّ»، وفي روايةٍ أخرى: «وَفِيهِ تَقُومُ السّاعَةُ، ومَا مِنْ مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا سَمَاءٍ ولا أرضٍ ولا جبالٍ ولا حَجَرٍ إلّا هنّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ»[٢]. وعن مجاهد أنه قال: الصورُ شيءٌ كهيئةِ البوقِ، والصورُ كما ورد في الحديث: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[٣].

---

(١) صحيح مسلم (٣٥٤).

(٢) مسند أحمد (١٥٥٤٨)، وانظر إتحاف الجماعة (٣: ٢٦١).

(٣) مسند أحمد (٦٥٠٧).

وروى الشيخان عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا : « لتقومَنَّ الساعةُ وقد نشرَ الرجُلان ثوبَهما بَينَهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَه أي يُلطِّخُه بِالطينِ – فلا يسقي فيه ، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد رفعَ أُكلتَه – أي : لُقمتَه – إلى فيه فلا يطعمُها»[1] .

وفي روايةٍ : « ويبقى شِرارُ الناسِ في خفةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ » إلى أن قالَ : « ثُمَّ يُنفَخُ في الصورِ فَلا يسمَعُ أحدٌ إلَّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : « أصغى لِيتًا ورفعَ لِيتًا »[2] . واللِّيتُ: صفحةُ العنُقِ – أي : أمالَ عُنُقَه كمن يستمِعُ النِّداءَ مِن فوقُ قالَ : «وأوَّلُ مَن يسمعُه رجُلٌ يلوطُ حَوضَ إبلِه فيُصعَقُ ويُصعَقُ الناسَ»[3] .

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٦) .

(٢) صحيح مسلم (٧٥٦٨) .

(٣) صحيح مسلم (٧٥٦٨) .

خاتمةُ الأُسسِ والمُنطلقاتِ

تـم كِتابُ الأُسُـسِ والمُنطلقـاتِ بِحمدِ الله تعالى.. وقد بذلـتُ قُصارى جهدي في وضعِ الفِكرةِ التي جمعتُها حولَ هذا الموضوعِ الشـائكِ المتشابِكِ حسبما تهيَّأَ لـي جمعُه مِنَ الأحاديثِ الشـريفةِ، ومـا كتبَه أهلُ العِلمِ، وحاولـتُ أن أتجنبَ ما اسـتطعتُ ما كانَ حديثًا موضوعًا أو شـديدَ الضعفِ[1] رغبةً في شُـمُولِ الاستِفادةِ مِنَ الكتابِ، ومُسـاعِدًا لبعضِ القُرَّاءِ الذين ينصرِفون عنِ الاستِفادةِ مِنَ المواضيعِ المطروحةِ إلى مُناقشـةِ الجُزئياتِ، التي تُناسِبُ مواقِفَهم الذاتيةَ، فيشغلون الناسَ بِالمُتناقِضاتِ ليفسُـدَ أثرَ الكِتـابِ وموضوعِه. ورُبَّما كانَ لهـمُ الحقُّ في الاهتِمامِ بِالصحيحِ وتجنُّبِ ما دونَ ذلِكَ لِما في الصحيحِ مِن قُوةِ الاسـتِدلالِ، ولكِن لَيسَ لهمُ الحقُّ في صرفِ القُرَّاءِ عن فائدةِ الموضوعِ وأثرِه المعرِفيِّ في الحياةِ.

الاعتماد على النصوص الصحيحة والموثقة حسب الاستطاعة

وأتمنـى أن أجِـدَ المُلاحظـاتِ البنـاءةَ التي تعودُ علـى الجميعِ بِالفائـدةِ وخِدمةِ الفِكرةِ وتوسـيعِ دراستِها، وخاصَّةً أنها بُنيَت على اسـتِقراءِ حديثٍ صحيحٍ، وهو حديـثُ جِبريـلَ في وِحدتِه الموضوعيةِ، ولا مجالَ لِصـرفِ الموضوعِ لِلجُزئياتِ التي تشـغَلُ البعضَ حولَ العلامـاتِ وارتِباطِها بِأركانِ الإيمانِ واليومِ الآخرِ، وأنَّ السـاعةَ لا أركانَ لهـا في علمِ الأُصولِ، وهاأنذا قـد فصَّلتُ في هذا الكتابِ أركانَ العِلمِ بِعلاماتِ السـاعةِ، وربطتُ بَينَها وبَينَ واقعِ الحركةِ الحياتيةِ حسـبما تهيَّأَ لي معرفةُ ذلِكَ.. تحتَ ما عُرِفَ «بِفِقهِ التحوُّلاتِ».

الملاحظات البناءة ودورها في إغناء الموضوع

فـإن كانَ مـا وضعتُه هنا أقربُ إلى الصـوابِ فأحمدُ اللَّهَ على ذلِكَ، وأسـألُه أن

---

(١) إلا ما اضطررت إليه كشاهد معلول لم أقف على غيره.

يقيِّـضَ مِن أهلِ العِلمِ من يعتني بِالفِكرةِ ويوسِّـعُ خِدمتَها رجـاءَ ثوابِ اللَّهِ وخدمة لعالمية القرآن والسنة.

وإن كانَتِ الفِكرةُ مُجرَّدَ نَزوةٍ ذاتيةٍ ؛ فأسـأَلُ اللَّهَ أن يغفِرَ لي خطأي وتجاوُزي ، وأن ينفعني بما سبقَ مِن خِدمةِ العُلماءِ لِلعِلمِ .

ولستُ بِمُلزِمٍ أحَدًا بما قُلتُه وما دوّنتُه إلزاماً ، إنَّما هي أفكارٌ مُسندةٌ إلى أُصولِهَا الشّرعيّةِ، فمَنِ ٱستحسنَهَا فالفائدةُ لِلجميعِ، ومنِ ٱستهجنَهَا فليتّقِ ٱللّهَ، وليَرفقْ في الأمرِ مِن كُلِّ وجوهِه ، فعَسَىٰ وعَسَىٰ.

واللّهُ مِن وراءِ القصدِ وهوحَسبِي ونعمَ الوكيلُ

قاموسُ الألفاظِ والتعريفاتِ المُستجدَّةِ في فِقهِ التحوُّلاتِ

فِقهُ التحوُّلاتِ ما يجري مِن سُننِ التغيراتِ والحوادِثِ في المراحِلِ المُتقلِّبةِ في الأزمنةِ .

الخُلفاءُ الراشدون الوُرَّاثُ الشرعيون لِلثلاثةِ الثوابتِ ، والقائمون على تطبيقِها وأداءِ أماناتِها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩] . عبرَ الزمانِ ، وليس مُختصًا بِالخلافةِ الراشِدةِ .

سُنةُ الدلالةِ تفسيرٌ لِلرمزِ النصيِّ في فعلٍ أو تركٍ لم يندرِجْ تحتَ الأُصولِ الشرعيةِ المُقررةِ لدى العُلماءِ مِنَ استِنباطِ السُّننِ القَوليةِ والفِعليةِ والتقريريةِ .

التشريكُ إلصاقُ تُهمةِ الشِّركِ المُخرِجِ عنِ المِلةِ بِالمُسلِمِ ، وتنزيلُ الآياتِ التي أُنزِلَت في المُشركين على المُسلِمين .

التبديعُ إلصاقُ تُهمةِ البدعةِ المُضِلَّةِ على مَن له وجهٌ شرعيٌّ مِنَ السُّنةِ .

الاستِشراقُ عُلماءُ ومدارسُ العالمِ الغربيِّ والشرقيِّ المُشتغِلون بِعُلومِ الشرقِ الإسلاميِّ وتعليلِ وتحليلِ أفكارِه ووظائفِه سلبًا وإيجابًا .

الغُثاءُ مرحلةُ الوهنِ والتداعي الوارِدةُ في حديثِ « يُوشِكُ أن تداعى علَيكمُ الأممُ ... » إلخ .

ترِكةُ الرجُلِ المريضِ خريطةُ العالمِ الإسلاميِّ في أيامِ ضعفِ الخِلافةِ العُثمانيةِ.

الوهنُ حبُّ الدُّنيا وكراهيةُ المَوتِ .

الإفراطُ الشديدُ الممقوتُ في حُبِّ الأولياءِ أو آلِ البيتِ .

التفريطُ المُتساهِلُ في الأخذِ بِحقائقِ الخُصوصياتِ وإنكارِ الانفِعالاتِ المُثبتةِ.

سُننُ المواقِفِ سُلوكُ وتصرُّفاتُ المتبوعِ الأعظمِ ﷺ فيما يُعامِلُ بِه الموافِقَ

والمُعارِضَ مِن سعةِ الأخلاقِ وعدمِ الأخذِ بِالجرايرِ .

سنةُ الخُلفاءِ ما اجتهدوا فيه مِنَ اتِّخاذِ المواقِفِ بعدَ النظرِ في السُّـنَنِ الوارِدةِ بِما تقتضيه المصلحةُ العامَّةُ مِن غَيرِ تحيُّزٍ ولا غمطٍ لأحدٍ .

الرُّشدُ تسلسُلُ فِقهِ الدعوةِ بِشرطِه .

الاهتِداءُ تسلسلُ سندِ الفِقهِ الداعي بِشُروطِه .

الشريعةُ مواقِـفُ دعويـةٌ لِـذاتٍ مُطهـرةٍ معصومـةٍ وانعِكاسـاتٌ شـرعيةٌ لِوحيٍ ربانيٍّ.

سُنةُ الدِّلالةِ ضابِطٌ شرعيٌّ يُحدِّدُ فِعلَ الشيءِ أو تركَه استِقراءً لِنصٍّ قُرآنيٍّ أو نبويٍّ لم يندرِجْ تحتَ ضوابِطِ عِلمِ الأُصولِ .

النبوةُ الأخلاقُ والأسانيدُ المُتصِلةُ .

فِقهُ الدعوةِ الكتابُ والسُّنةُ .

فِقهُ الداعي هو النُّبوةُ، أي: الأخلاقِ النبويةِ .

الأصلَانِ ومُعادِلهما كِتابُ اللَّهِ وسُنةُ نبيِّه ﷺ والأخلاقِ .

القواسِمُ المُشتركةُ أُسُس الدِّيانةِ المُتفقِ علَيها إجماعًا .

التحريشُ تسيسُ الخِلافِ ، والاختِلافُ لِلتفرقةِ .

عقيدةُ الشَّيطانِ الكُفرُ .

الغُثائيةُ مرحلـةُ التداعي والوهـنِ المنصوصِ علَيها بِحديـثِ : « أنتم يومئذٍ غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ » .

الساعةُ جُـزءٌ مِـن أجـزاءِ الزمـانِ ، ويُعبرُ عنها بِالقيامـةِ لأنَّها آخِـرُ مراحِلِ الحياةِ الدُّنيويةِ وأوَّلُ المراحِلِ الأُخرويةِ .

الأشراطُ الظواهِرُ الكونيةُ المنصوصةُ في الأحاديثِ .

العلاماتُ السِّماتُ المُميزةُ لنماذجِ السُّلوكِ لِجماعةٍ أو مرحلةٍ أو أفرادٍ .

الأماراتُ الحديثُ المُطابِقُ لِما أخبرَ عنه ﷺ .

البِشاراتُ التنفُّساتُ المرحليةُ التي يُجري فِيها اللَّهُ النُّصرةَ والتأييدَ لِلأخيارِ .

الفِتنُ الابتِلاءاتُ العامَّةُ التي تُصيبُ الفردَ أوِ الأُمَّةَ .

مُضِلاتُ الفِتَنِ الابتِـلاءاتُ المُخرِجـةُ عـن جـادَّةِ الطريـقِ إلـى المُخالفـةِ والانحِرافِ.

الثوابِتُ هي الأُسُسُ التي يقومُ علَيها الدينُ والعِلاقاتُ الشرعيةُ .

المُتغيِّراتُ هي الأحوالُ المُتنوِّعةُ بِالأسبابِ المنصوصةِ .

أن تلِدَ الأمةُ ربَّتَها الأمةُ اسـمٌ يُطلَقُ على كُلِّ امرأةٍ ، و(الرَّبَّةُ) هي سـيدتُها ومالِكةُ قرارِها .

الثقافةُ الغازيةُ مادةُ الفِكرِ الأجنبيِّ المُخالِفِ لِلمشروعيَّةِ الدينيةِ .

الثقافةُ المُتحوِّلةُ خليـطُ الفِكـرِ والعِلـمِ الأجنبيِّ الداخِلِ على عُقولِ المُسـلِمين بِرغبتِهم وتحوُّلِ مفاهيمِهم .

الحضارةُ المادِّيةُ تجرِبـةُ الشُّـعوبِ المُلحِـدةِ والكافِـرةِ في بناءِ الحيـاةِ بعيدًا عنِ الدينِ .

الحُفاةُ الذينَ لا نِعالَ لهم .

العُراةُ الذين لا يلبَسون مِنَ الثيابِ إلّا ما يستُرُ العورةَ .

رعاءُ الشاءِ يشتغِلون بِرعيِ الأغنامِ .

يتطاولون يتنافسون .

في البُنيانِ في إعمارِ المنازِلِ والأبراجِ .

الدُّهَيماءُ مرحلةٌ مِن مراحِلِ الغُثاءِ صار فِيها العوامُّ هم الأسياد، والتحوت خِلالَ مرحلةِ الصِّراعِ ما بَينَ الرأسِماليةِ والشُّيوعيةُ فيما سُمِّيَ بِالحربِ البارِدةِ .

السَّرَّاءُ مرحلـةٌ مِن مراحِلِ الغُثاءِ يتمُّ فِيها التآمُرُ المُشـترِكُ بَينَ الكُفَّارُ وسـلاطين ورؤساءِ قبائلِ البِلادِ العربيةِ .

الأحلاسُ مرحلـةٌ مِن مراحِـلِ الغُثاءِ يبدأُ فِيها العملُ المُبطَّنُ لِلسَيطرةِ على بِلادِ

المُسلِمين .

المثلثُ المدموجُ التربيةُ + التعليمُ + الدعوةُ إلى اللَّهِ

المُعادِلُ الرابعُ مبدأُ الاكتِفاءِ الذاتيِّ في الرزقِ .

أكلةُ القصعةِ الدُّولُ الاستِعمارية المُتآمِرةُ .

عِلمُ الخِدْماتِ الدِّراساتُ الحديثةُ ذاتُ العِلاقةِ بالتطوُّرِ الحياتيِّ المُجرَّدِ .

الأبويةُ الشرعيةُ منهجُ الأنبياءِ والرسُلِ ومَن سارَ على منهجِهم مِن عُلماءِ الديانةِ.

الأنويةُ الوضعيةُ منهجُ العقلانيةِ المادِّيِّ الوضعيِّ .

المدرسةُ الأبويةُ مدرسةُ النُّبوةِ المُسندةُ بِالسندِ الأبويِّ الشرعيِّ .

المدرسةُ الأنويةُ مدرسةُ الشَّيطانِ الإبليسيةُ القائمةُ على مبدأِ « أنا خيرٌ منه » .

الدَّجَّالُ المسيخُ الأعورُ الذي سيظهرُ في آخرِ الزمانِ .

الدجلُ الفِكرةُ والثقافةُ الكافِرةُ وما تفرَّعَ عنها مِنَ التسييسِ الفكريِّ والعقديِّ والسياسيِّ والاقتِصاديِّ والإعلاميِّ .

الدجاجِلةُ الوُكلاءُ والعُملاءُ والسماسِرةُ الذين يُمهِّدون العالمَ لِسياسةِ مرحلةِ الدَّجَّال .

النقضُ سياسةُ التبديعِ والتشريكِ ونقضِ المُبرمِ في العاداتِ والعِباداتِ الأبويةِ.

القبضُ قبضُ العِلمِ بِالمنهجِ المُسيَّسِ وقبضُ العُلماءِ بعزلِهم عن حركةِ الواقِعِ والتأثيرِ فيه .

العِلمانيةُ مرحلةُ نزعِ القرارِ الإسلاميِّ بِسقوطِ الخِلافةِ .

العلمنةُ تأثُّرُ المُسلِمين بِالأحكامِ الغربيةِ ، وتبنيها في المجتمعِ العربيِّ والإسلاميِّ.

العَولمةُ مرحلةُ الاحتِواءِ السياسيِّ والاقتِصاديِّ تحتَ نِظامِ القُطبِ الواحِدِ .

العالميةُ الدعوةُ الإسلاميةُ ذاتُ الثوابتِ المُستقِرةِ عبرَ التاريخِ .

الفقرُ المُنسي تفعيلُ الصِّراعِ الاقتِصاديِّ في المُجتمعاتِ الهالِكةِ بالاقتِصادِ الرِّبويِّ .

الغنى المُطغي نهبُ الثرواتِ، والتوسُّعُ السياسيُّ بِالحُروبِ، وطغيان رأس المال، وصرفِ الأموالِ الطائلةِ في الإستِثماراتِ ذاتِ الطابعِ الاستِهلاكيِّ المُجردِ الذي لا يخدمُ الإنسانيةَ.

المرضُ المُفسدُ الذي لا علاجَ له ، سواءٌ كانَ مِنَ الأمراضِ الحسيةِ أو المعنويةِ.

الموتُ المُجهِزُ الموتُ الجماعيُّ في الحُروبِ والتفجيراتِ .

المدرسةُ الحرقوصيةُ مدرسةُ الخوارِجِ «أتباعُ حرقوصِ بنِ زُهيرٍ» .

المدرسةُ السلوليةُ مدرسةُ النِّفاقِ .

المدرسةُ المُسَيلِميةُ مدرسةُ مُسَيلِمةَ الكذَّابِ .

المدرسةُ الوثنيةُ مدرسةُ الجاهِليةُ مِنَ العربِ .

المدرسةُ العِبريةُ مدرسةُ اليهودِ المُنحرِفةُ .

المدرسةُ الصليبيةُ مدرسةُ النصارى المُنحرِفةُ

قِراءةُ التاريخِ الشرعيِّ القِراءةُ الجامِعةُ بَينَ الدِّيانةِ والتاريخ .

قِراءةُ التاريخِ الوضعيِّ القِراءةُ التاريخيةُ المُجرَّدةُ عنِ الأديانِ أوِ المحرقةُ له .

العقلانيةُ تأكيدُ العقلِ والقوانين ورفضُ الغَيبياتِ .

الحصانةُ الشرعيةُ التوثيقُ القُرآنيُّ أو النبويُّ لِمرحلةٍ أو ذاتٍ أو جماعةٍ .

الخُلفاءُ مُسمَّى لِكافَّةِ الوارثين قرارَ العِلمِ بِالأخلاقِ والسندِ المُتصِلِ .

الخُلفاءُ مسمَّى لِكافَّةِ المدارسِ والأفرادِ ذاتِ الارتِباطِ بِالتسييسِ الدَّجَّاليِّ والمُنفِّذين له .

الوسطيةُ الشرعيةُ الدعوةُ إلى اللَّهِ بِالحِكمةِ والموعِظةِ الحسنةِ على سُنَّةِ الورَّاثُ الحامِلين صفةَ النمطِ الأوسطِ .

الاعتِدالُ الواعي الَّذِين يقيمون سُنَّةَ التوازُنِ الفكريِّ والاجتِماعي بَينَ الرعايا .

الأصولُ النصيةُ أصولُ الديانةِ الأربعةِ : الإسلامُ ، والإيمانُ ، والإحسانُ ، والعِلمُ بِعلاماتِ الساعةِ .

النمطُ الأوسطُ حملةُ منهجِ الأخلاقِ النبويةِ والأسانيدِ الأبويةِ .

التكليفاتُ الشرعيةُ أحكامُ الشريعةِ المُنزلِ بها على رسولِ اللَّهِ ﷺ .

عِلمُ الأصولِ العِلمُ الشرعيُّ المُقيدُ بِضوابِطِ العُلماءِ في عصرِ التدوين .

التسلسُلُ الشرعيُّ هو انتِقالُ العِلمِ والدعوةِ إلى اللَّهِ بالإجازةِ وحُسنِ التلقي .

أمةُ الإجابةِ كُلُّ مَن قالَ : لا إلهَ إلّا اللَّهُ ، مُحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ .

أمةُ الدعوةِ كُلُّ مَن أدركَ مرحلةَ الإسلامِ وعلِمَ بها مِن الأُممِ .

الساعةُ نِهايةُ الكونِ بِالنفخِ في الصُّورِ .

علاماتُ الساعةِ مُجملُ الأشراطِ مِن مرحلةِ الرِّسالةِ إلى قيامِ الساعةِ .

العلاماتُ جمعُ علامةٍ ، وهي الظاهِرةُ الدالةُ على مُطابقةِ الخبرِ النبويِّ بِمُجرياتِ الحياةِ .

الأمارةُ جمعُ أمرٍ ، وهي حصولُ أمرٍ مُعيَّنٍ سبقَتِ الإشارةِ إلَيه في أحاديثِ المُصطفى ﷺ .

الأشراطُ جمعُ شرطٍ ، وهي الظاهِرةُ الكونيةُ المُخالِفةُ لِلمألوفِ ، كما أشارَت إلَيه أحاديثُ أشراطِ الساعةِ .

الفِتنُ المُضِلةُ وهي الفواجِعُ والحوادِثُ المُوقعةُ في الانحِرافِ .

الهرجُ كثرةُ القتلِ خاصَّةً بَينَ المُسلِمين .

المرجُ فُضولُ الكلامِ وكثرةُ وسائلِه .

الملاحِمُ القِتالُ الشديدُ والحُروبُ بَينَ المُسلِمين والكُفارِ .

الإشاراتُ المُلاحظةُ المُهِمَّةُ التي أخبرَ النبيُّ ﷺ عن وُقوعِها في مُستقبلِ الزمانِ.

الدَّولةُ العليَّةُ اسمٌ آخرُ يُطلَقُ على دَولةِ القرارِ الإسلاميِّ الدَّولةِ العُثمانيةِ ، وتُسمَّى أيضًا في كُتُبَ التاريخِ بِدولةِ البابِ العالي .

يهودُ الدونمةِ مجموعـةٌ مِـن يهودِ تُركيا دخلوا الإسـلامَ لِلنَّيلِ منـه ، وارتقَوا في مناصبَ شتَّى عبرَ جمعيةِ تُركيا الفتاةِ ، حتَّى وصلوا آخِرَ المطافِ إلى قيادةِ الجيشِ والحُكـمِ ، ودبروا إسـقاطَ الخليفةِ عبدِالحميـدِ الثاني ، وكانَ لهم دَورُ الإشـرافِ على تحطيمِ قوةِ الدَّولةِ العُثمانيةِ وإغراقِها في الحربِ والديونِ والصِّراعِ المعروفِ بِالتتريكِ ؛ مِمَّا أدى إلى قيامِ الثَّورةِ العربيةِ الكُبرى .

الاستِعمارُ مرحلـةُ امتِـدادِ الـدولِ الأُوروبيـةِ في البِـلادِ العربيةِ والإسـلاميةِ أثناءَ الحربين العالميتَين الأولى والثانيةِ وما بعدَهما .

الاستِهتارُ بدءُ هيمنةِ الدُّولِ الشُّـيوعيةِ في العالَمين العربيِّ والإسـلاميِّ ، وشـطرُ العالمِ إلى قُوتَين : رأسِماليةٌ وشيوعيةٌ .

الاستِثمارُ سقوطُ مرحلةِ الحربِ الباردةِ بَينَ الرأسِماليةِ والشُّيوعيةِ ، وبدءُ مرحلةِ العَولمةِ ، وسيادةُ النِّظامِ العالميِّ المُوحَّدِ .

الخِلافةُ المدونمةُ هي مرحلةُ سُـقوطِ الخليفةِ عبدِالحميدِ الثاني ثُمَّ تُسـلَّطُ يهودُ الدونمةِ ومن سـارَ في ركبِهم سياسـيًّا على قرارِ الدَّولةِ الإسـلاميةِ فـي تُركيا حتَّى نِهايـةِ الخِلافةِ بِإعلانِ الدَّولةِ العِلمانيةِ ، وتولى فيها الحكم الظاهري ثلاثة خلفاء. ودامَت عشر سنواتٍ بَينَ عامَي (١٩٠٩م- ١٩١٩م) . ثم ٥ سنوات رضخت فيها تركيا لحكم عساكر الحلفاء بقيادة بريطانيا (١٩١٩م- ١٩٢٤م).

العهدُ الحميديُّ عهدُ السُّلطانِ عبدِالحميدِ الثاني .

الفوضى الخلَّاقةُ اصطِـلاحٌ مُعاصِـرٌ اسـتخدمَته القُوى العالميـةُ لتفعيلِ الصِّراعِ الداخِلـيِّ بَيـنَ الأنظِمةِ والدُّولِ بما يسـمحُ لها بالتدخُّلِ المُباشـرِ والصيدِ في الماءِ العكِرِ ضمن الشُّعوبِ .

السنة الرحمانية

السنة الشيطانية

السنة

البدعة

مراجعُ البحثِ

- القرآن الكريم وأمهات كتب السنة
- سبل الهدى والرشاد ، الإمام الصالحي
- الإشاعة ، البرزنجي
- أشراط الساعة ، يوسف بن عبدالله الوابل
- إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم بين يدي الساعة ، حمود بن عبدالله التويجري
- فقه أشراط الساعة ، د. محمد أحمد إسماعيل المقدم
- كتاب السنن الواردة في الفتن ، أبو عمرو عثمان بن سعيد المقري الداني
- الفتن ، نعيم بن حماد
- تحقيق مواقف الصحابة « مجلدان » ، د/ محمد أمحزون
- التليد والطارف ، أبو بكر المشهور
- أركان الدين الأربعة ، أبو بكر المشهور
- كشف الأقنعة عن الوجوه الغثائية المقنعة ، أبو بكر المشهور
- المؤامرة الكبرى على الإسلام ، علاء الدين المدرس
- الجزيرة العربية « نجد والحجاز » في الوثائق البريطانية ، نجدة فتحي صفوة
- الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي ، ماليز روثفن
- أطلس تاريخ العرب والإسلام ، سيف الدين الكاتب
- أطلس الفتوحات الإسلامية ، أحمد عادل كمال
- الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط علي محمد الهلابي
- منهجية النمط الأوسط من سادة الصلح وبقية السيف وبراءتهما من الإفراط والتفريط المسيس ، أبو بكر علي المشهور
- الشريف حسين بن علي والخلافة نضال داود المومني
- لورنس.. الحقيقة والأكذوبة ، صبحي العمري
- السيد محمد طاهر الدباغ ، د. محمد الجوادي
- العراق في أحاديث الفتن والملاحم ، مشهور حسن سلمان

الفهرس

فهرس الجزء الأول

المقدمة

فهرس الجزء الثاني

بداية النقض في العهد الأموي وما تلاه
نقض الحكم والعلم في مرحلة الاستعمار
نماذج النقض في العالم العربي والإسلامي
استمرار نماذج النقض في اللعبة المشتركة إلى اليوم
تتصور الرموز ورجالات العلم والثقافة « النخبة » قدرتها على تطوير الأمة من غير إسلام
الضحايا من الشعوب المشاركين في برامج الاحتواء والالتواء
مرحلة التداعي والوهن ودورها في النقض
شعارات الكتاب والسنة كظاهرة من ظواهر النقض
لا أمل في نجاح البرامج المطروحة حاليا لإنقاذ الأمة
فناء بعض الشعوب والقبائل
فناء بعض الشعوب علامة صغرى
طلب الملك والحمية سبب في فناء بعض الشعوب
الهلاك المحتم للشعوب بعد هدم الكعبة
ظاهرة ترك الجهاد في سبيل الله ‘رسميا’ وبقائه ‘شعبيا’
الطائفة المنصورة.. بقاء الجهاد في سبيل الله «حصريا» إلى يوم القيامة
الطائفة المنصورة علامة صغرى
أحاديث الطائفة المنصورة
الإشارة إلى الإسلام ووجود الطائفة المنصورة بها
الأحاديث الجامعة لمفهوم البقاء على الحق دون ذكر الجهاد
أحاديث الطائفة المنصورة تشير إلى بقاء الجهاد إلى يوم القيامة
الطائفة المنصورة لا تنتمي إلى دولة أو جماعة أو حزب
اختفاء التعامل بالنقدين
توقف الجزية والخراج / سقوط دولة الخلافة
حصول الزلازل والخسف وهلاك بعض البلاد
قراءة ما اكتتب من سوى كتاب الله عز وجل

عرض عام لبقية العلامات الصغرى

التسلسل الزمني الشرعي الجامع لسير العلامات

والأمارات إلى قيام الساعة

مُلحَقُ بِبعضِ الوثائقِ

نماذج من مؤامرة (فتنة السراء) المقررة في فقه علامات الساعة

نص رِسالةٍ ١/ ٥٢٣ :

برقيةٌ مِن وزارةِ الخارجيةِ إلى المندوبِ الساميِّ في القاهِرةِ

٢٥ آب/ أغسطس ١٩١٥ م

الرقم ٥٩٨ / عاجِل / برقيتُكم المُرقمةُ ٤٥٠

الردُّ المُقترحُ على شريفِ مكَّة تمَّ إقرارُه . وإذا ما وجدتُم ذلِكَ مُستصَوبًا ؛ فإنَّ لكم إضافةَ رِسالةٍ خاصَّةٍ بِالمعنى التالي :

«إنَّ حُكومةَ صاحِبِ الجلالةِ على استِعدادٍ لِلبحثِ في اتِّفاقٍ أَوليٍّ لِضمانِ استِقلالِ الشريفِ وحُقوقِه وامتيازاتِه إذا ما بعثَ الشريفُ بِنجلِه عبدِاللَّهِ أو بِمبعوثٍ مفوضٍ آخرَ إلى مِصرَ لِهذا الغرضِ . وفيما يتعلَّقُ بِالخِلافةِ ، فإنَّ الشريفَ إذا ما نُودِيَ بِه خليفةً بِالاتِّفاقِ معَ أبناءِ دينه ، فله أن يطمئنَّ إلى أنَّ حُكومةَ صاحِبِ الجلالةِ ستُرحِّبُ بِعودةِ الخِلافةِ إلى عربيٍّ صحيحِ النسبِ ، وكما جرى بيانُه من قبلُ في مُراسلاتِ اللوردِ كتشنرَ لشهرِ تِشرين الثاني/ نوفمبر الماضي» .

رِسالةٌ مِن مكماهونَ إلى الشريفِ حُسَينٍ

شوال ١٣٣٣هـ/ أغسطس ١٩١٥م بِتصرُّفٍ (١ : ٥٢٥) : وإنَّ مصالِحَ العربِ هي نفسُ مصالِحِ الإنكليزِ ، والعكسُ بِالعكسِ ، ولِهذه النسبةِ فنحن نؤكِّدُ لكم أقوالَ فخامةِ اللُّوردِ كتشنرَ التي وصلَت إلى سيادتِكم عن يدِ عليٍّ أفندي ، وهي التي كانَ مُوضحًا بها رغبتَنا في استِقلالِ بِلادِ العربِ وسُكانِها معَ استصوابِنا

لِلخِلافةِ العربيةِ عِند إعلانِها .

وإنَّـا نُصـرِّحُ هُنا مـرَّةً أُخرى أنَّ جلالـةَ ملِكِ بريطانيـا العُظمى يُرحِّبُ بِاسـتردادِ الخِلافةِ إلى يدِ عربيٍّ صميمٍ مِن فُروعِ تِلكَ الدَّوحةِ النَّبوِيَّةِ المُباركةِ .

ومعَ ذلِكَ فإنَّنا على كامِلِ الاستِعدادِ لِأن نُرسِلَ إلى سـاحة دَولةِ السيِّدِ الجليلِ ولِلبِـلادِ العربيةِ المُقدَّسـةِ والعـربِ الكِرامِ مِـنَ الحُبوبِ والصدقـاتِ المُقرَّرةِ مِنَ البِلادِ المصريةِ ، وستصِلُ بِمُجرَّدِ إشـارةٍ مِن سـيادتِكم وفي المكانِ الذي تُعيِّنونه . وقد عملِنا الترتيباتِ اللازِمةِ لِمُسـاعدةِ رسـولِكم في جميعِ سـفراتِه إلَينا ، ونحن على الدوامِ معَكم قلبًا وقالِبًا مُستنشِـقين رائحةَ مودَّتِكم الزكيةَّ ، ومستوثِقين بِعُرى محبَّتِكمُ الخالِصةِ ، سائلين اللَّهَ سُبحانَه وتعالى دوامَ حُسنِ العلائقِ بينَنا .

رِسالةٌ مِنَ الشريفِ إلى مكماهونَ (١ : ٥٢٩)

والخلاصةُ يا حضرةَ الشهمِ المُبجَّلِ أنَّا على أكيدِ الإخلاصِ ، معترِفين بأرجحيةِ ولائكم رضيتُم عنَّا كما أُشير أم سخطتُم . نأبى أن نجعلَ في إشارتِكم في رقيمكم بـادئِ الذِّكـرِ بِأنَّه لا يزالُ بعضُ أقوامِنا ـ في أقصى درجاتِ الاستِرسـالِ في ترويجِ الطلـبِ العُثمانـيِّ ـ حُجَّـةً على آثـارِ الفُتورِ والتردُّدِ فـي رغائبِنا ، التي أنزه شـهامة أصالتِكـم علـى أن تقـولَ بِأنها لَيسَـت مِن قـوامِ حياتِنـا . لا بل هي حياتُنـا المادِّيةُ والمعنويةُ والأدبيةُ . لأنِّي إلى هذه الساعةِ قائمٌ بِذاتي وبِجميعِ حواسي في إنفاذِ ما كانَ مُوافِقًا لِلشـرعِ الإسـلاميِّ في بِلادي مِنَ الأوامِرِ ، وفي كافَّةِ ما له تعلُّقٌ بِه مِمَّا يكونُ عائدًا إلى باقي المملكةِ إلى أن يأتيَ اللَّهُ بِأمرٍ غَيرِ ذلِكَ .

رِسالةٌ مِنَ الجِنرالِ ماكسويلَ إلى اللُّوردِ كتشنرَ ص٥٥٩ في ١٦ تِشرين الأوَّل / أكتوبر ١٩١٥ :

إنَّنا في مُواجهةِ قضيةٍ كبيرةٍ تتعلَّقُ بِمُستقبلِ الإسلامِ ، وإذا استطعنا أن نحمِلَ الفرنسيين على إدراكِ هذه الحقيقةِ ، فإنهم قد يكونون أكثرَ مَيلًا إلى الموافقةِ على التسويةِ . وأشعُرُ بالتأكيدِ أنَّ أهميةَ الوقتِ بالِغةٌ جِدًّا ، وأنَّنا ما لم نُقدِّمْ لِلشَّريفِ حالًا مُقترحاتٍ محدَّدةً ومقبولةً ، فإنَّنا قد نجِدُ عالمًا إسلاميًّا قائمًا ضِدَّنا .

ومن رِسالةِ وزيرِ الخارجيةِ إلى السفيرِ البِريطاني بارسي ص٥٧٥ :

سمعتُ أنَّ المُمثِّلَ الفرنسيَّ بِالقاهرةِ على اتصالٍ بِالعربِ ، علَيكم أن تطلُبوا مِنَ الحُكومةِ الفرنسيةِ أن تُبقيَ الأمرَ في غايةِ السِّريةِ ، وأن تثنوا المُمثِّلَ الفرنسيَّ في القاهرةِ عنِ القيامِ بأيِّ نشاطٍ يتعلَّقُ بِهذا الأمرِ الدقيقِ جِدًّا ، وقد يحدُثُ ضررٌ كبيرٌ ، ويقعُ العربُ في أيدي الأتراكِ كُلِّيًّا ، بِنتيجةِ أيِّ إجراءٍ مُتسرِّعٍ ، وعلى أيِّ حالٍ فلا يجوزُ إبداءُ إشارةٍ إلى الخِلافةِ لِأنَّ العالمَ الإسلاميَّ كُلَّه سيستنكِرُ أيةَ مُبادرةٍ أو تدخُّلٍ مِن جانبِ دَولةٍ غَيرِ مُسلِمةٍ في هذا الأمرِ .

ومِن نصِّ برقيةِ وزارةِ الخارجيةِ إلى المندوبِ السامي في مِصرَ ص٦٠١ وفِيها:

لكن معلوماتي أنَّ الشريفَ شخصٌ لا قيمةَ له ، ولا قُوةَ له لِتنفيذِ مُقترحاتِه ، وأنَّ العربَ لا وحدةَ لهم ولا احتِمالَ لاتِّحادِهم ، ولا أعتقِدُ بِحقيقةِ الثَّورةِ العربيةِ المُقترحةِ في الجَيشِ وغَيرِه ، ولا بِجدواها .

ثُمَّ أضافَ : إنَّ الفقرةَ التي تضعُ كُلَّ بِلادِ العربِ تحتَ الحِمايةِ البريطانيةِ سوفَ تُرهِقُنا بِمسئولياتٍ مُربكةٍ وغَيرِ واضِحةٍ ، وتُدمِّرُ احتِمالَ عقدِ اتِّفاقٍ معَ فرنسا لِما نريدُ عقدَه ، لكنْ موقِعُنا الخاصُّ ومصالِحُنا في العراقِ تجِبُ المُحافظةُ علَيها على قدرِ الإمكانِ بعدَ تعهُّداتِ مكماهونَ . ص٦٠٢

نصُّ رِسالةِ السيِّدِ عليٍّ الميرغنيِّ إلى الشريفِ حُسَينٍ ص٦٠٥ ، وهو زعيمٌ سياسيٌّ ودينيٌّ كبيرٌ مِن أشرافِ السُّودانِ ، واستغلَّ الإنكليزُ معرِفتَه بِالشريفِ قبلَ الحربِ ، وكانَ الميرغنيُّ يكتُبُ رسائلَه إلى الشريفِ بِاطِّلاعِ الإنكليزِ وإيحاءٍ مِنهم:

« كِتابٌ »

مِنَ السيِّدِ عليٍّ الميرغنيِّ إلى الشريفِ حُسَينٍ

الخرطوم ١٧/ ١١/ ١٩١٥ م

بريطانيا العُظمى عقدَتِ العزمَ أن تُساعِدَ العربَ على استِعادةِ حُكمِهمُ المُغتصبِ وسُلطانِهم وعلى استِردادِ استِقلالِهم المفقودِ ، لقد أضاعَ العربُ هذا مُنذُ عِدَّةِ قُرونٍ بِسببِ عسفِ الأتراكِ ومساوِئِ حُكمِهم ، وها قد سنحَتِ الفُرصةُ الآنَ لاستِعادةِ كُلِّ ما ضاعَ ، إنَّني فقط أُقرِّرُ حقائقَ يعرِفُها العربُ أنفُسَهم أكثر منِّي . والوقتُ الراهِنُ هو أنسبُ الأوقاتِ لِلعربِ كي يطرحُوا عن أعناقِهم النَّيرَ الثقيلَ لِلحُكمِ التُّركيِّ ، وكي يُحقِّقُوا أمانيهمُ القوميةَ ومطامِحَهمُ الاستقلاليةَ ، ويُجدِّدوا أمجادَ أسلافِهمُ العظماءِ . ولَيسَ علَيهمُ الآنَ إلَّا أن يغتنِموا الفُرصةَ السانِحةَ في هذا الظرفِ المُلائمِ جِدًّا ، ويثوروا كما يثورُ العربيُّ حقًّا ، ويهتبلوا الفُرصةَ التي تُتاحُ لهم بعدَ مُضيِّ هذه القُرونِ العديدةِ ، وكيفَ يُمكِنُ لِلعربِ أن يثوروا إذا لم يحركْهم ويتولَّى قيادتَهمُ الرجُلُ المُناسِبُ ، المُتحدِّرُ مِن أشرفِ وأنسبِ سُلالةٍ مُقدسةٍ مِن قُرَيشٍ ، الذي يستطيعون أن يجتمِعوا تحتَ رايتِه ويستردُّوا حُقوقَهمُ المغصوبةَ .

إنَّه لأمرٌ صحيحٌ أنَّ بِريطانيا العُظمى بِالتعاوُنِ معَ حُلفائها الكِبارِ ، ترغبُ في قيامِ حُكومـةٍ عربيةٍ قُرشـيةٍ ، وأن تحلَّ محلَ هذا العرشِ التُّركـيِّ المُتداعي الذي طفحَ كيلُ مظالِمِه وعسفِه ، وهم يرغبون أن تنهضَ هذه الحُكومةُ القُرشيةُ وتؤسَّسُ مِثلما كانَـت قبلَ عِدةِ قُرونٍ ، وأن تسـيرَ يدًا بيدٍ معَ الحضـارةِ الحديثةِ ، وتنهضُ بِالعربِ الكِـرامِ إلـى قِمةِ الرُّقـيِّ والرخاءِ . وإنَّ بِريطانيـا العُظمى على اسـتِعدادٍ لِأن تكونَ أصـدقَ الأصدقاءِ لِلعـربِ ، ولِأن تُعاضِدَهـم في جميعِ الأحـوالِ . وعلى العربِ أيضًا أن يسـتفيقوا ويأخـذوا المُبادرةَ فيبرهِنوا بِذلِكَ لِلعالـمِ أجمعَ أن الدمَّ العربيَّ الشريفَ ورُوحَ الحُريةِ وحُبَّ الاستِقلالِ ما تزالُ تجري في عُروقِهم .

والآنَ فـإنَّ بِريطانيـا العُظمـى على اسـتِعدادٍ لِأنْ تفعلَ أكثرَ بِكثيرٍ مِـن هذا . إنَّها تُحـاوِلُ أن تمُـدَّ يدَ العَونِ والمسـاعدةِ إلى أعظمِ زعيمٍ عربـيٍّ ، مِن أجلِ الحُصولِ علـى الاسـتِقلالِ التامِّ ولِنزعِ النَّيرِ الثقيلِ لِلحُكمِ العُثمانـيِّ ، حتَّى تُنقذَ بِذلِكَ الأُمَّةُ العربيـةُ الكريمـةُ مِن مخالِـبِ الظالمين وأنيـابِ اللِّصِّ الألمانيِّ المُتسـلِّطِ . وكما تعلمون ، فإنَّ المشروعَ كُلَّه ذُو طبيعةٍ دقيقةٍ ومُعقَّدةٍ إلى أقصى حدٍّ ، خاصَّةً لِكونِ بِريطانيا العُظمى على الرغمِ مِن أنها تُريدُ الخيرَ لِلمُسـلِمين ولِلأُمَّةِ العربيةِ حريصةً جِـدًّا على احترامِ مشـاعرِهم القبليةِ والدينيةِ . وهذا هو السـببُ الذي حدا بها إلى العمـلِ من وراءِ السِّـتارِ من أجلِ تحقيـقِ مطامِحِهم في تحرُّرِ أنفسِـهم من عُبوديةِ الأتـراكِ وليُحـرِزوا اسـتِقلالَ بِلادِهـم التامَّ . وبمـا أنَّ الأميرَ الشـريفَ هو في نظرِ العربِ أقوى وأشـرفُ الأمراءِ ، فإنَّ بِريطانيا مُستعِدةٌ لِتقديمِ كُلِّ مُساعدةٍ ممكنةٍ له . وهذا هو السـببُ الذي دفعني لِمُحاولةِ المُراسـلةِ معَكم ، ولكي أستوضِحَ مِنكم عن أسلمِ الطُّرُقِ لِتأمينِ ما تُريدون ، ولا حاجةَ بي لِلقَولِ إنَّ الغايةَ الأولى مِن هذه المُحـاولاتِ تسـتهدِفُ أولًا راحةَ المُسـلِمين وحمايتَهم ، وترمـي ثانيًا لِلمُحافظةِ

على شرفِ الخِلافةِ الإسلاميةِ وقُوتِها ، وثالثًا لِمُعاضدةِ العربِ مِن أجلِ المُحافظةِ على وحدةِ بلادِهم وصفائِها . وانطِلاقًا مِن ثقتِنا بِأنَّكَ الرجُلُ الوحيدُ الذي تمتلِكُ القُدرةَ على النُّهوضِ بِالقضيةِ العربيةِ وإنجاحِها ، فإنَّنا أوضحْنا تمامًا لِلمسئولِين هُنا كُلَّ ما نعرِفُه .

إنَّنا معَ عربٍ ومُسلِمين كثيرين لا نستطيعُ أن نرى رجُلًا آخرَ يمتلِكُ المواصفاتِ والمزايا اللازمةَ لِنَيلِ هذا الشرفِ أكثرَ مِن شخصِكمُ الشريفِ : في المعرِفةِ والخبرةِ وشرفِ المحتدِّ والمقدِرةِ . ولا يستطيعُ رجُلٌ عاقِلٌ القولَ إنَّ العملَ يمثِّلُ عصيانًا يضُرُّ بِمصالِحِ المُسلِمين ، على العكسِ ، فإنَّ المُسلِمين سيعتبرونه أقدسَ واجبٍ لِخِدمة مصالِحِ الدينِ . إنَّك لن تعملَ سِوى المُدافعةِ عن حُقوقِكَ المشروعةِ التي اغتُصِبَت وحُقوقِ أُمَّتِكَ وجميعِ المُسلِمين .

لقد أُعطِيَت لي أقوى التأكيداتِ بِأنَّ بريطانيا العُظمى لن تتدخُلَ في الشُّئونِ الداخليةِ لِلبلادِ العربيةِ أو الخِلافةِ العربيةِ ، ولكِنَّها ستبذُلُ كُلَّ ما في وُسعِها كما أسلفَتُ لِمُساعدةِ الدَّولةِ العربيةِ معنويًّا وماديًّا ، حتَّى تنهضَ وتأخُذَ مكانَها اللائقَ بَينَ الدولِ الأُخرى . ولم يبق إلَّا أن تقومَ الأُمَّةُ كُلُّها قومةَ رجُلٍ واحِدٍ ، وأن يتَّحِدَ الزُعماءُ العربَ جميعًا بِحَيثُ يُضحِّي كُلُّ واحِدٍ مِنهم بِمطامِعِه الشخصيةِ مِن أجلِ مُعاضدةِ الرجُلِ الأوَّلِ في الأُمَّةِ بِالنسبةِ لِشرفِ محتدِّه ... إلخ . وأنَّ بريطانيا العُظمى ستكونُ أوَّلَ دَولةٍ معَ حُلفائِها تعترِفُ بِاستقلالِ الحُكومةِ العربيةِ ، وسوفَ تُدافِعُ عن هذا الاستِقلالِ ضِدَّ أيِّ عُدوانٍ أجنبيٍّ ، حتَّى تتمكَّنَ مِنَ النُّهوضِ وتُصبحَ عزيزةَ الجانِبِ وتأخُذَ مكانَها الصحيحَ بَينَ الدُّولِ وتكسِبُ احترامَها . كُلُّ هذه الحقائقِ أكدَّها ليَ المسئولون ، وتبادرَ لِذهني أن أُبلِّغَكم بِمضمونِها ، حتَّى تستطيعُوا تقديرَ المَوقِفَ كُلَّه تقديرًا واضِحًا ، ولكي تعرِفُوا الأسبابَ المُهِمَّةَ التي

دفعَتْني لِلكِتابةِ إلَيكم بِشأنِ هذهِ المسألةِ ذاتِ الأهميةِ الكُبرى .

لقـد أرادُوا أن يقولُـوا : إنَّه حتَّى يأتيَ اليومَ الذي تُؤسَّـسُ فيـه الحُكومةُ العربيةُ ، فإنَّ أيةَ مسألةٍ أُخرى تُعتبَرَ في الدرجةِ الثانيةِ مِنَ الأهميةِ . وعِندَما تُؤسَّسُ الحُكومةُ العربيةُ ، فيكونُ مِنَ السهلِ عِندَ ذلِكَ الاتِّصالُ بِرئيسِها والتوصُّلِ إلى اتِّفاقٍ يضمنُ مصالِحَ الفريقين . هذا معنى ما قالُوه لكم سابِقًا بِشأنِ تأجيلِ بحثِ هذه المسائلِ . لقد أوضحوا كُلَّ هذا لي . أجلْ ، إنَّه لَصحيحٌ جِدًّا أنَّ إنشاءَ دَولةٍ عربيةٍ جديدةٍ أمرٌ صعبٌ في بادئِ الأمرِ ، ولكنَّه لن يكونَ صعبًا أكثرَ مِنَ اللازمِ لِرجُلٍ حكيمٍ ومُقتدِرٍ مثلُكـم أن يوحِـدَ كلمةَ الزُّعمـاءِ والأُمراءِ وكِبارِ الشـيوخِ بَينَ العـربِ ، مثل الإمامِ يحيى والإدريسيِّ وأُمراءِ نجدٍ وتُهامةَ والمناطِقِ الأُخرى .

وبعـدَ أن حصلْنا علـى كُلِّ هذه التأكيـداتِ المُهِمَّةِ مِـنَ الدَّولةِ الوحيـدةِ القادِرةِ على مُساعدتِنا في الوقتِ الحاضِرِ وفي المُستقبلِ ، تعلمون ولا شكَّ أنَّ الضرورةَ تقضي بِتحقيقِ الوحدةِ بَينَ العربِ في سبيلِ قضيةٍ عظيمةٍ ومُهِمَّةٍ كهذه . اهـ .

ومِن رِسالةٍ مِن مكماهونَ إلى وِزارةِ الخارجيةِ بِلندنَ ص٦٢٤ :

وعلَينا أن نتذكَّرَ مرَّةً أُخرى أنَّ الحركةَ العربيةَ الحاضِرةَ قائمةً على أُسُـسٍ قَوميةٍ أكثر مِنَ الأُسُـسِ الدينيةِ ، وتختلِفُ كثيرًا عن حركةِ الجامعةِ الإسـلاميةِ التي تأنفُ الجماعةُ العربيةُ مِنَ العطفِ علَيها .

ثُمَّ يقولُ : وعلَينا إخبارُه بِأنَّنا ، لِأجلِ تسـهيلِ جُهودِه في قضيتِنا المُشتركةِ ، نقومُ بِإرسـالِ بعضِ المبالِغِ إلَيهِ « مُنذُ وَقفِ إعاناتِ الحُكومةِ العُثمانيةِ لِلشـريفِ أصبحَ فـي حاجـةٍ ماسَّـةٍ لِلمُحافظةِ على مكَّـةَ والمدينةِ ولِلمُحافظـةِ على قُواتِـه . إنَّه مِنَ

المرغوبِ فيه جِدًّا أن نساعدَه بِسخاءٍ ، وأقترِحُ تخصيصَ مِنحةٍ قدرُها ٥٠ .٠٠٠ جُنيهٍ بِأقساطٍ حسبما تتقدَّمُ الأُمورُ . ولِأجلِ أن يكونَ المبلغُ فعالًا فإنَّه يجِبُ أن يكونَ كبيرًا ، والقسمُ الأكبرُ مِن أيةِ أموالٍ نُعطيه إياها سيجِدُ طريقَه إلى موانئِ تِجارتِنا نفسِها » .

ومِن ردِّ مكماهون على الشَّريفِ ص٦٥٠ :

وقد يسُرُّني أن أُخبِرَكم بِأنَّ حُكومةَ جلالةِ الملِكِ صادقَت على جميع مطالِبِكم وإنَّ كُلَّ شيءٍ رغِبتُم الإسراعَ فيه وفي إرسالِه فهو مُرسلٌ معَ رسولِكم حامِلِ هذا . والأشياءُ الباقيةُ ستحضُرُ بِكُلِّ سُرعةٍ مُمكِنةٍ ، وتبقى في بُور سُودانَ تحتَ أمرِكم لحينِ ابتِداءِ الحركةِ وإلاغنا إياها بِصورةٍ رسميةٍ « كما ذكرْتُم » وبِالمواقِعِ الَّتي يقتضي سَوقُها إلَيها والوسائطِ التي يكونونَ حامِلينَ الوثائقِ بِتسليمِها إيَّاهم .

إنَّ كُلَّ التعليماتِ التي وردَتْ في مُحرِّرِكم قد أعلمَنا بها مُحافِظَ بُور سودانَ ، وهو سيجريها حسبَ رغبتِكم ، وقد عملْتُ جميعَ التسهيلاتِ اللازِمةِ لإرسالِ رسولِكم حاملِ خِطابِكُمُ الأخيرِ إلى جيزانَ حتَّى يُؤدِّيَ مأموريَّتَه التي نسألُ اللَّهَ أن يُكلِّلَها بِالنجاحِ وحُسنِ النتائجِ ، وسيعودُ إلى بُور سودانَ وبعدَها يصِلُكم بِحِراسةِ اللَّهِ لِيقُصَّ على مسامِعِ دَولتِكم نتيجةَ عملِه .

وننتهِزُ الفرصةَ لِنوضِّحَ لدَّولتِكم في خِطابِنا هذا ما رُبَّما لم يكُنْ واضحًا لديكم ، أو ما عساه ينتُجُ عنه سوءُ تفاهُمٍ ، ألا وهو أنَّه يُوجَدُ بعضُ المراكِزِ أو النُقطِ المُعسكِرةُ فِيها بعضُ العساكِرِ التُّركيةِ على سواحلِ بِلادِ العربِ ، يُقالُ : إنَّهم يُجاهِرون بِالعداءِ لنا ، والذين هم يعملون على ضررِ مصالِحِنا الحربيةِ البحريةِ

فـي البحرِ الأحمرِ . وعليـه نرى أنَّ مِنَ الضروريِّ أن نأخذَ التدابيرَ الفعالةَ ضِدَّهم. ولكِنَّنا قد أصدرْنا أوامِرَنا القطعيةَ أنَّه يجِبُ على جميعِ بوارِجِنا أن تُفرِّقَ بَينَ عساكِرِ الأتراكِ الذين يبدؤون بِالعداءِ وبَينَ العربِ الأبرياءِ الذين يسكُنون تِلكَ الجِهاتِ ، لِأنَّنا لا نُقدِّمُ لِلعربِ أجمعَ إلَّا كُلَّ عاطِفةٍ وُدِّيةٍ .

وقد بلغَتنا إشـاعاتٌ مؤدَّاها أنَّ أعداءَنا الألِداءَ باذِلون جُهدَهم في أعمالِ السُّـفُنِ ؛ ليبثـوا بها الألغامَ في البحرِ الأحمـرِ ولِإلحاقِ الأضرارِ بِمصالِحِنا ، وإنَّا نرجوكم سُرعةَ إخبارِنا إذا تحقَّقَ ذلِكَ لديكم .

وقـد بلغَنا أنَّ ابنَ رشـيدٍ قد بـاعَ لِلأتراكِ عددًا عظيمًا مِنَ الجِمالِ ، وقد أُرسـلَت إلى دِمشقِ الشامِ ، ونُؤمِّلُ أن تستعمِلوا كُلَّ ما لكم مِنَ التأثيرِ علَيهِ ؛ حتَّى يكُفَّ عن ذلِـكَ ، وإذا مـا صمَّمَ على ما هو علَيهِ أمكنكم عملَ الترتيبِ معَ العُربانِ السـاكنين بينَه وبَينَ سُوريَّا أن يقبِضوا على الجِمالِ حالَ سَيرِها ، ولا شكَّ أن في ذلِكَ صالِحًا لِمصلحتِنا المُتبادلةِ .

الفهرس

٥٣١